

تاريخ العصر العباسي الثالث

«من السلاجقة إلى سقوط بغداد»





جامعـة دمشـق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية الثانية

تاريخ العصر العباسي الثالث

«من السلاجقة إلى سقوط بغداد»

تأليـف

الدكتور
سهيل زكـار
أستاذ في قسم التاريخ

الدكتــور
أنس عبد اللّه المحمد
مدرّس في قسم التاريخ

جامعة دمشق ٢٠١٦ – ٢٠١٧



المحتوى

الصفحة

المطلب الثالث

الحروب الصليبية

المطلب الرابع

اليقظة الإسلامية وعمليات التحرير والاسترداد

المطلب الخامس

المرحلة الثالثة من مراحل التحرير
صلاح الدين والدولة الأيوبية

المطلب السادس

دول البيت الأيوبي

المطلب السابع

المغـــول

منذ ظهورهم حتى معركة عين جالوت

المطلب الثامن

النظم، والمؤسسات الإدارية

تقديم

كان الشاعر الإيراني الكبير الفردوسي، نظم ملحمة الشاهنامة في العصر الغزنوي، وقدمها إلى السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١هـ/ ٩٩٨-١٠٣٠م)، وفي أيام هذا السلطان ظهرت إلى الوجود مشكلة السلاجقة في خراسان ـ الأمر الذي سيجري تناوله في هذا الكتاب ـ ويُلحظ أن المحور الأساسي في روايات الشاهنامة تمركز حول الصراع الذي نشب قبل الإسلام بين الأباطرة الفرس وزعماء القبائل التركية، أو لنقل بين إيران وطوران، فالترك كانوا فيما وراء النهر (نهر جيحون – أموداريا)، وكان الإيرانيون في خراسان، وعلى هذا كان جيحون أشبه بنهر من نار فصل بين شعبين وحضارتين.

ومن بلاد ما وراء النهر تدفقت أمواج من المهاجرين الأتراك، لكن هؤلاء، القليل منهم من عبر جيحون، بل جاء العبور من منافذ أخرى سلكها الهون، ثمّ الخزر لما أقاموا إمبراطوريتهم الكبيرة وراء الدربند (باب الأبواب) في أعالي أذربيجان، وكانت تحصينات دربند قد أنشأها الفرس لمنع القبائل التركية من الوصول إلى أعالي بلاد الرافدين وإلى الممتلكات الساسانية.

وصحيح أنه عند قيام الفتوحات الإسلامية، كان الهياطلة الأتـراك يحكمون النصف الأعلى من خراسـان القريـب مـن جيحـون، لكـنهم لم يتمكنوا من السيطرة على جميع خراسان، ولمَّا حاولوا ذلك، بعـد سـقوط الإمبراطورية الساسانية، صدهم العرب، الذين تمكنوا من فتح خراسـان كلها، ثم اجتازوا جيحون، وحققوا فتوحات بلاد ما وراء النهر، وصحيح أن خراسان - كولاية - كانت مُتعبة للحكم الأموي، وكذلك بـلاد مـا وراء النهر، لكن لم تكـن هنـاك مواجهـات كبـيرة مـع القبائـل التركيـة، وتركزت المواجهات على جبهة الخزر.

ومنذ ما بعد معركـة اليرمـوك، بقيـت الإمبراطوريـة البيزنطيـة في الوجود، ولم يتغير اللون الديموغرافي لخراسان، ومـن خراسـان جـاءت الثورة العباسية التي أطاحت بالدولة الأموية، فكانت حركة أعجمية ضد عروبة وإسلام الدولة العربية الشـامية، واسـتقرت الدولـة العباسـية في العراق، ليس بعيداً عن خراسان، وبقيت طوال حياتها غريقة في مشكلات خراسان، وعبر خراسان زحفت جيوش هولاكو، التي قضت على الخلافة العباسية في العراق.

ولكن قبل هولاكو بزمن طويل، كانت خراسان قـد شـهدت منـذ القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد حوادث حاسمة شـكلت مقدمة لقيام مشرق إسلامي - تركي جديد، واحتاج رسـم هـذا المشرـق الجديد، وصياغته إلى قرون مديدة، تغير فيها العالم كله.

وقبل القـرن الخـامس للهجـرة / الحـادي عشرـ للمـيلاد، كانـت إمبراطورية الخزر اليهودية قد تهاوت أركانها، وفقدت سيطرتها على قبائل

السهوب التركية، كما أن الإسلام انتشر بين صفوف هذه القبائل، وكانت هنالك تحركات كبيرة جلبت الكثير من القبائل التركية إلى أحواز وادي جيحون.

وكان للدولة السامانية أثرها الكبير في نشر الإسلام بين قبائل ما وراء النهر، ولأسباب متعددة ظهرت تكتلات قبلية جديدة، أهمها تكتل التركمان، الذي تزعمته أسرة سلجوق، وأسهم هذا كله في سقوط الدولة السامانية، التي خلفها في بلاد ما وراء النهر الدولة القراخانية، وفي أفغانستان الدولة الغزنوية، وجذبت هذه الدولة التركمان للعمل لصالحها، ولا سيما في خراسان، ويعد عبور التركمان إلى خراسان، وتدفقهم إلى هذا الإقليم هو الحدث الأخطر، الذي عددناه مقدمة لتغير المشرق الإسلامي، ثم العالم أجمع.

فنحن لما نصل إلى القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد نجد في المغرب العربي الكبير قيام حركة المرابطين، وفي أوربا الغربية هجرات شعوب الشمال الأوربي (النورمان) إليها، وبالنسبة لبيزنطة انتهاء حكم الأسرة المقدونية مع صليبية القرن العاشر.

والمهم كثيراً كانت سيطرة السلاجقة على خراسان، واندفاعهم نحو بغداد وأعالي بلاد الرافدين، وبلاد الشام، والأكثر حسماً انسياح الأتراك في آسيا الصغرى، وبداية تحول الأراضي البيزنطية إلى أراضي تركية، ولا سيما بعد معركة منازكرد سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، فللمرة الأولى في التاريخ المدون، بدأت أوربا الشرقية تفقد طابعها التقليدي الموروث: عرقياً، ودينياً، ولغوياً.

وصحيح جاءت جحافل الصليبيين إلى المنطقة، واستمرت الحروب الصليبية أكثر من قرنين، لكن لم تتوقف مسيرة زوال الإمبراطورية البيزنطية، كما أن تدفق المهاجرين البداة من بلاد ما وراء النهر لم تتوقف، وليس بعيداً عن الصواب القول: إن المغول دفعوا أمامهم حشوداً من قبائل ترك بلاد ما وراء النهر، أو جلبوها معهم، وتواصل هذا الحال إلى ما بعد تيمورلنك.

وأزال الأتراك الإمبراطورية البيزنطية من الوجود، ولكن القسطنطينية جددت شبابها في ظل الإسلام، ولم يتوقف الصراع بين روما الغربية، وروما الشرقية، ولكن تغير لون الصراع، فبات الآن بين الإسلام والكاثوليكية، وفي ظل الإسلام سوف تكون إسلام بول حاضرة دولة تسيطر على جميع العالم المتحضر في: آسيا، وإفريقيا، وأوربا.

ووقائع تاريخ المشرق الإسلامي منذ بداية العصر السلجوقي حتى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بالغة الأهمية، والتأثير، وهي متداخلة تداخلاً معقداً، ويجد الباحث فيها نفسه في متاهة.

وكتابنا اليوم كتاب جرى إعداده للطلاب الجامعيين، وفق منهج علمي موثق، يُقدِّم زاداً معرفياً ثرّاً لأبنائنا الطلبة، نرجو أن يجدوا فيه ما يروي فضولهم التاريخي، ويقفهم على محطات مهمة من تاريخ أمتهم.

ولا يخفى أنّ المقرَّر غطَّى مجالاً زمنياً متطاولاً قد لا يُحاط به في كتاب، بل كل فصل فيه يستحق أن يُعقد له كتاب مُفردٌ على حياله، ولكن ما لا يُدْرَك كلُّه لا يُترك جلُّه، فطبيعة الكتاب الجامعي تقتضي شيئاً من الطي والاختصار وتكثيف المعلومات.

ولا نزعم أنَّ عملنا في هذا الكتاب أَوْفى على الغاية، ولنا أن نقول إِننا قدمنا أفضل ما يمكن عن الخلافة الفاطمية، والسلاجقة، والحروب الصليبية، والمغول، وقد يصلح الكتاب للقارئ العام على جميع المستويات، ونعتقد أنه صالح للترجمة والتدريس في غير الجامعات العربية.

مجال التاريخ رحب، والقول فيه ذو سعة، نأمل أن يكون قلمنا في هذا الكتاب قد تحرّى الدقة والموضوعية، وإنصاف التاريخ، والله وليّ التوفيق.

دمشق، في ٣/٨/٢٠١٦م

المؤلّفان



المطلب الأول

الخلافـة الفاطميـة



المقالة الأولى

الدعوة الإسماعيلية
حتى قيام الخلافة الفاطمية

في أواخر أيام النبي ﷺ كان الأحياء من آله قلة أبرزهم ابن عمه علي ثم عمه العباس رضي الله عنهما، وكان علي أقدم سابقة وجهاداً في الإسلام من العباس، كما كان أوثق صلة بالنبي ﷺ، فهو ربيبه، وزوج ابنته فاطمة، ووالد سبطيه.

وظل علي بعد وفاة النبي أبرز آل البيت، بيت محمد ﷺ، وقد رأى فيه عدد كبير من المسلمين الأهلية والجدارة والأحقية لخلافة النبي ﷺ، ومع الأيام تكوّن حوله نواة حزب خاص، ضم عدداً من الرجالات الذين أعجبوا به وبسلوكه وعلمه وشجاعته، وظهر هذا الحزب للمرة الأولى أيام البيعة لعثمان.

ومعروف أنه بعد مصرع عثمان آلت الخلافة إلى علي، وكان عصره زاخراً بالحروب الأهلية، وقد انتهى هذا العصر باغتياله، ثم بإخفاق ابنه الحسن في البقاء بالخلافة إذ تنازل لمعاوية بن أبي سفيان.

وبعدما احتكر الحكم معاوية وآله من بني أمية تصدى لمعارضته قوى كثيرة تطورت إلى أحزاب، وقد كان الحزب العلوي أبرز هذه الأحزاب، وقد تكون هذا الحزب بشكل عملي في الكوفة من عناصر تعاونت مع علي أثناء

خلافته، وكان من أبرزهم حجر بن عدي الكندي الذي قتله معاوية، ثم سليمان بن صُرَد وأصحابه قادة حركة التوابين.

وكان الحسن بن علي بعدما تنازل عن الخلافة لمعاوية قد انسحب إلى المدينة حيث دُسَّ له السم وتوفي، وبوفاته آلت زعامة الحزب العلوي الناشئ إلى أخيه الحسين، وقد استشهد الحسين في كربلاء، وكان لفاجعة كربلاء وحصادها أبعد الآثار في تطور الحزب الشيعي وتاريخه حتى يومنا هذا، فبعد كربلاء بدأت الزعامة الشيعية تنحصر في أبناء علي من زوجته فاطمة بنت الرسول، ثم انحسرت أكثر في أبناء الحسين بن علي.

ومنذ حركة التوابين يلحظ المرء بداية تحول الحزب الشيعي من حزب سياسي إلى فرقة دينية، وقد وضح هذا التحول مع المختار بن أبي عبيد الثقفي وقيام فرقة الكيسانية، ولقد عانت الحركة الشيعية -بعدما تحولت إلى فرقة- التمزق، كما عانت القمع والملاحقة والتنكيل، وتورطت بعض الفرق الجديدة في ثورات آلت إلى الإخفاق والدمار، كان أهمها ثورة الإمام زيد بن علي في عصر هشام بن عبد الملك[1].

ويلحظ أنه في الوقت الذي تورطت فيه بعض فرق الشيعة أيام الأمويين وبعدهم بعدد من الثورات المسلحة، واستوردت الجديد من العقائد الغريبة، حافظت بعض الجماعات على الهدوء، ولم تتورط - بعد كربلاء - في أي حركة سياسية حربية، وبذلك حمت أنفسها وعقيدتها، وحالت دون تسرب أيَّ عقائد

---

(١) أنساب الأشراف، ٤/١/١٠٢- ١٠٣، ٢/١-١٦-٥/٢١٤-٢٧٣. تاريخ خليفة، ١/٢٧٨-٣٣٢. الأخبار الطِّوال، ٢٢٧-٣٠٦. الطبري، ٥/٤٠٠-٥٨٢. اليعقوبي، ٢/٢٤٣-٢٦٤. مروج الذهب، ٣/٧٥-١١٧. مقاتل الطالبيين، ٧٨-١٢٢.

غريبة جديدة إليها، وظلت هكذا صافية الإسلام، محمدية المنهج، علوية النسب، مثالية السلوك. وعرف خط هذه الجماعات باسم الخط الإمامي، وقد قاده سلسلة من الأئمة الكبار من أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب، وظل هذا الخط محافظاً على اعتداله ووحدته حتى أواخر حياة الإمام السادس منه، إذ حدث انشقاق بين صفوفه شطره إلى قسمين: قسم تابع خطه حتى الإمام الثاني عشر، وعرف باسم الاثنا عشرية أو الإمامية، وعرف الخط الثاني باسم السبعية أو الإسماعيلية، وادعى كل طرف من هذين الطرفين بأن فقهه وعقائده وعلومه استقاها من الإمام السادس.

والإمام السادس هو جعفر بن محمد، الذي عرف بالصادق، والأئمة قبله هم: علي بن أبي طالب، ثم الحسن بن علي، ثم الحسين بن علي، ثم علي بن الحسين – زين العابدين – ثم محمد بن علي الذي عرف بالباقر.

ولد الإمام جعفر الصادق في نَحْوِ سنة ٨٠ هـــ /٦٩٩م ونشأ في المدينة حيث آثار جده المصطفى، وحيث كبار علماء الإسلام، مع تراث آل البيت، لذلك نال حظاً كبيراً من العلوم الإسلامية، وحظي بمكانة اجتماعية سامية، وقيمة سياسية عالية، ولمَّا بلغ مبلغ الرجال صار أبرز رجالات عصره، وبعد وفاة أبيه عدَّته الشيعة الإمامية إمامها، وكان رجالاتهما ودعاتهما يرجعون إليه بقضاياهم وبشؤونهم الخاصة والعامة كلّها، كما أن الغلاة منهم أخذوا يلهجون باسمه، رافعين إياه إلى درجات عليا، لذلك تصدى الإمام الصادق لدعوات الغلو، وحارب أفكارها، وقام بتعرية رجالها والبراءة منهم، لكن جهوده كلها لم تحل دون انشطار صف الشيعة الإمامية إلى شطرين.

وتوفي الإمام الصادق سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م وبوفاته خسر المسلمون عالماً جليلاً أجمعت أطراف الأمة على إمامته، ولدى الوقوف عند مشكلة انشطار الخط الإمامي إلى قسمين: محافظ وراديكالي، يمكن الحديث عن مجموعتين من أتباع الصادق.

قالت الأولى: إن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه البكر إسماعيل، على الرغم من أن إسماعيل توفي أثناء حياة أبيه، فإن الإمامة انتقلت نصاً وحكماً إلى محمد بن إسماعيل الذي يُعرف بالمكتوم (ذلك أن دعوة هذا الفرع الذي اتسم بالتطرف والعلمانية في التنظيم دخلت في مرحلة التكتم الشديد)، وباتت تعرف باسم السبعية أو الإسماعيلية أو الباطنية أو القرامطة..... إلى غير ذلك من الأسماء.

وقالت الفئة الكبرى من أتباع الإمام الصادق: إنه بوفاة إسماعيل ولغير ذلك من الأسباب، عيَّن الصادق ابنه موسى الكاظم إماماً سابعاً، وليس في هذا التعيين تمويه أو استيداع، وتابع خط موسى هذا سلسلة أئمته حتى الإمام الثاني عشر: محمد بن الحسن العسكري، الذي ذهب في غيبة، وسيظهر عندما يحين الوقت، لأنه المهدي المنتظر، وهو عند كثير من الناس ليس له إلا الوجود الوهمي، وبناء عليه عرف هذا الخط باسم الإمامية أو الاثني عشرية، ولقد تهيأ لهذا الخط الكثير من الفرص لاستلام السلطة في العالم الإسلامي لكن انعدام الإمام وبقاءه في الخفاء في غيبة دائمة جلب الإخفاق لهذه الفرص جميعاً.

وشكل القوم الذين تبعوا إسماعيل، بعد عمل سري طويل، فرقة عرفت بإعدادها المحكم، وتنظيمها الدقيق المتقن في مجالات الجذب العقلاني والفلسفي والثقافي العالي، مع الإثارة العاطفية، والانفعال، وفاقت في ذلك كل الفرق التي

سبقتها أو نافستها، ففي مكان العمل المشوش للفرق السالفة، والإيمان البدائي، والاعتماد على الفورات العاطفية، أحكم عدد من العلماء، ذوي القدرات الخارقة، والعقول الجبارة، نظاماً جديداً للعقيدة الإسماعيلية، على مستوى فلسفي في غاية الرقي، وأنتجوا أدباً رفيعاً، بدأ الآن رجال عصرنا بالاعتراف بقيمته وأثره.

لقد قدم الإسماعيليون للورعين احتراماً كبيراً ظاهرياً للقرآن والحديث والشريعة، ومسايرة للعقيدة الشعبية الدارجة، وقدموا للمثقفين شرحاً باطنياً فلسفياً للكون اعتمد على مصادر الثقافات الشرقية القديمة والكلاسيكية، ولاسيما الفكر التأويلي والإشراقي من الأفلاطونية المحدثة، وقدم رجال الإسماعيلية للصوفية والروحانيين، مادة فيها الدفء العاطفي والعرفان مع الحب السامي المؤدي إلى التحام الكائنات ووحدة الوجود، ودعم هذا كله بأمثلة وشواهد مما عاناه الأئمة ومن تضحياتهم في سبيل أتباعهم، وتم عرض هذا بمجمله وتقديمه في صيغ معارضة للنظام القائم، وهادمة له، فكان في ذلك سحر الثورة، وحرارة العمل المعارض (١).

ومع منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي بدأ الضعف يلم بالكيان العباسي، وأخذت المشاكل تتفجر، وترافق هذا مع استيلاء ضباط القصر الأتراك على السلطة وتحكمهم بالخلفاء، وبعدما فعل الجند الأتراك هذا، انعدم الاستقرار السياسي، وكثرت الصراعات على منصب الخلافة، وتعددت الانقلابات الدموية الشرسة، وهكذا ازداد تدهور الأوضاع من جميع الجوانب، واستمر أثناء ذلك ارتباط رجال الدين – السنة – بالسلطة وقصر الخلافة، وتورط بعضهم بالنزاعات السياسية، وصاروا يسدلون ثوب الشرعية على كثير

---

(١) وينصح القارئ بالعودة إلى محتويات رسائل إخوان الصفا.

من الأعمال غير الشرعية، ويقدمون المسوغ لما لا يقبل التسويغ، يضاف إلى هذا أنه منذ أيام الخليفة العباسي المتوكل سيطر الحنابلة على شارع بغداد، فشغلوا أنفسهم بمشاغل فكرية لاهوتية لا تسمن ولا تغني من جوع، غافلين – أو متغافلين – عن المشاكل التي باتت تهدد كيان الأمة بالخطر.

وأمام هذا الحال بدأ الناس يفتشون عن البديل، وأخذوا يسعون في البحث عن الحل، وعن طريق الإنقاذ والنجاة، وقد فرَّ بعضهم – لأسباب نفسية عديدة – إلى الخيال، فأغنى صورة المهدي المنتظر، وجعله في أنواع من الشخصيات، وهذا ما نشهده في كتاب «الملاحم والفتن» لنعيم بن حماد الذي جاءنا من هذا العصر.

وقامت الدعوة الإسماعيلية بتقديم البديل، وهكذا ما إن حلت نهاية القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد، حتى كان قد تم للإسماعيلية السيطرة على مسارات التفكير الإسلامي، وعلى عقول الفلاسفة، وتغلغل تأثيرهم الموجه إلى جوف نظم وأفكار الثورات وحركات العدالة والمساواة في بلاد الإسلام، كما حصل لدى العامة شعور بدنو النصر، وقرب ساعة التحرير، وروجوا لهذا عن طريق فكرة الإمام المهدي المنتظر، الذي سيخرج عندما يحين الوقت، فيمهد لإعلان القيامة وقيام القائم، والقيامة عند الإسماعيلية ليست نهاية الحياة، بل نهاية كلية أو جزئية للشرائع السائدة والنظم القائمة، وتحرير الإنسان من كلِّ الأغلال وجميع القيود القانونية والتعبدية وسواها.

وعلى الرغم من توفر بعض المعطيات الممتازة، لم تورط الحركة الإسماعيلية نفسها في عمل ثوري مباشر تتحمل أعباء نشاطه بشكل علني، بل سعت نحو استغلال القوى غير الموالية لها تماماً، لكن المتأثرة بها، إلى أبعد

الحدود، في سبيل زيادة إضعاف النظام السني العباسي، وإضعاف هذه الحركات في الوقت نفسه.

ولدى العودة إلى المصادر الإسماعيلية لتتبع تحركات بيت الإمامة نجد أن بيت الإمامة انتقل أولاً من الحجاز إلى العراق، ربما إلى البصرة، ومن العراق إلى خراسان، إلى منطقة جبال الديلم، فهناك استقر مدة من الزمن مع التردد على الكوفة أحياناً، ثم انتقل فجأة - إثر انشقاق كبير - إلى بلاد الشام، وكان هذا في نحو منتصف القرن الثالث للهجرة، واستقر بيت الإمامة متخفياً في منطقة جبل السماق (الأربعين حالياً في محافظة إدلب السورية) ثم تحول بعد تجديد الاتصال به من قبل بعض الدعاة وأركان الدعوة إلى منطقة مصياف، ثم من مصياف إلى السلمية على طرف البادية حيث استقر هناك، وكانت السلمية مأهولة من قبل عدد من الهاشميين، ومن الممكن الاتصال منها بسهولة بقبائل بادية الشام، حيث المادة البشرية متوفرة للعمل السياسي والعسكري لأصحاب المطامح، كما يمكن الوصول إليها من العراق وغير العراق من بلاد الإسلام، ومن ثم السفر بكل يسر في جميع الاتجاهات.

ويذكر أن الدعوة الإسماعيلية كانت ذات أهداف عالمية ومقاصد أممية، لذلك أقدمت على تقسيم العالم إلى عدة قطاعات دعوية دعي كل منها باسم «جزيرة»، وأرسل إلى كل جزيرة أحد الدعاة الكبار، وارتبط دعاة الجزر جميعاً بداع الدعاة الذي اتصل بالإمام مباشرة، وقسمت كل جزيرة إلى عدة مراكز دعوية تولى شؤون الدعوة في كل منها واحد من الدعاة، كان ارتباطه المباشر بداعي الجزيرة، الذي كان بمثابة داع للدعاة في جزيرته، ولتجنب التناقضات وسواها وحرصاً على وحدة الدعوة ونموها وجد دائماً مع بيت الدعوة أو بالحري بيت الإمامة، أو تحت إشرافه مباشرة داراً لتدريب الدعاة وتخريجهم، فقد كانت الدعوة ترسل خيرة رجالاتها من كلّ المراكز والجزر للتدرب والتخرج، وكان

بيت الدعوة يقوم بعد تخريج الدعاة بتكليف كل منهم مهمّة من المهام في الأراضي التي جاء منها أصلاً أو في أراض جديدة.

وفي أثناء مرحلة السلمية عاود بيت الإمامة صِلاته مع جزر الدعوة، وأشرف مجدداً على نشاط الدعوة والدعاة في كل مكان، وحدث قبل الانتقال إلى الشام، أن ركزت الدعوة جهودها على اليمن، ذلك أن اليمن كانت تعد منطقة نائية، وهي ذات طبيعة جبلية مساعدة، وقبلية موائمة للعمل ضد السلطة المركزية، ثم إن اليمن شهرت منذ القديم بولائها الشيعي، ولهذا توجهت أنظار الدعوة الإسماعيلية إليها، وتركزت عليها، وكانت اليمن أيضاً مسرحاً لنشاط بعض الحركات الشيعية الأخرى، ونخص بالذكر هنا الأسرة الرسية، وهي أسرة حسنية، تمركزت على مقربة من المدينة المنورة، ونجح أفراد من الأسرة الرسية في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة في تأسيس كيان سياسي ومذهبي في وسط اليمن وشماليها، استمر هناك طويلاً، وكانت له جولات مع رجالات الدعوة الإسماعيلية في اليمن، الذين ركزوا جهودهم على الجنوب.[١]

إلى اليمن أُرسل عدد من الدعاة الإسماعيلية، تَصدَّرهم مع بدايات المرحلة الشامية، اثنان هما: ابن حوشب، وهو عراقي الأصل، تمركز في الجنوب على مقربة من عدن، وشهر فيما بعد باسم منصور اليمن، وعلي بن الفضل، وهو من أصل يماني تمركز في داخل اليمن إلى الشمال من عدن، وقد حققا في اليمن نجاحات واسعة، لذلك أعلنت قيادة السلمية اليمن دارُ هجرة، وحَرَّضت الدُّعاة من جميع الجزر على التوجه إلى اليمن، وتحت إشراف منصور اليمن أقيم في اليمن دار تدريب للدعاة وتخريجهم.

---

(١) أفضل المصادر حول هذا الموضوع «سيرة الهادي إلى الحق»، وقد سبق لسهيل زكار نشر هذه السيرة، وهنالك نصوص منها ضمن كتاب الجامع في أخبار القرامطة.

المقالة الثانية

قيام الخلافة الفاطمية في المغرب

الطور الأفريقي

كان من بين المناطق التي اهتمت بها الدعوة الإسماعيلية كثيراً بلدان المغرب العربي الكبير، فهذه البلاد النائية عن بغداد، التي لم يصل السلطان العباسي إلى بعض بقاعها، كانت مناسبة للنشاط بين قبائلها الأمازيغية، وحين نستعرض تاريخ الشمال الأفريقي الإسلامي، نرى شراسة المقاومة التي أبدتها القبائل الأمازيغية للفتح العربي، وكثرة الثورات التي واجهت الخلافة الأموية، وأن هذه الثورات ارتدت، إما الطابع الرافض للعروبة والإسلام، وإِمَّا الطابع الخارجي (خوارج)، لكن مع انقضاء القرن الأول الهجري اكتمل الفتح العسكري للمغرب، وكان الإسلام قد انتشر بين قبائل الأمازيغ، وقامت حركة سفر واتصال مع المشرق، ولا سيما مع الحجاز للحج ولغايات أخرى، وكان لهذه الاتصالات أبعد الآثار منذ القرن الثاني الهجري، إذ انتشر مذهب أهل السنة في كثير من المناطق حسب مدرسة فقه أهل المدينة، وأفاد هذا التشيع العام، ولا سيما مع استمرار العداء للتيار الأموي، وفي بداية العصر العباسي فرَّ بعض رجال بني أمية إلى الشمال الأفريقي، وسعوا للنجاح سياسياً، فلم ينالوا التوفيق، وخير شاهد

على هذا الجهود التي بذلها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام قبل دخوله إلى الأندلس، إنما بعد عبد الرحمن بمدة قصيرة وصل المولى إدريس الأول إلى الشمال الأفريقي، واستقر بين قبائل أوْرَبة في منطقة زرهون من المغرب الأقصى، فنال نجاحاً متميزاً، وأسس الدولة الإدريسية، علماً بأن قبائل أوْرَبة كانت على رأس القبائل الخارجية في العصر الأموي.

ولنجاح الأدراسة في المغرب الأقصى، وأبناء سليمان (أخو إدريس) بن عبد الله في منطقة تلمسان، ولوجود كل من دولتي الأغالبة في القيروان، والرستمية في تاهرت، وقوى برغواطة على ساحل الأطلسي، ودولة بني مدرار على طرف الصحراء في سجلماسة، فقد ركزت الدعوة الإسماعيلية أنظارها على ديار قبائل كتامة في المغرب الأوسط (في عمق الأراضي الجزائرية المصاقبة للحدود مع تونس) وإلى هذه الديار بعثت الدعوة الإسماعيلية بعدد من الدعاة شهر منهم اثنان عرفا باسم: أبو سفيان، والحلواني، وأُمِرا «أن يتجاوزا إفريقيّة إلى حدود البربر، ثم يفترقان، فينزل كل واحد منهما ناحية»، وينقل المقريزي بأنهما أُمرا بالبُعد «عن المدن والمنابر.... وقيل لهما: اذهبا فالمغرب أرض بكر فاحرثاها.... حتى يجيء صاحب البذر...... فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها»، ويرجح أن إرسالهما كان قبيل بدايات المرحلة الشامية من تاريخ الدعوة الإسماعيلية.

ويفيدنا القاضي النعمان بأنهما لاقيا النجاح في عملهما الدعوي، كما يذكر أن الداعي أبا سفيان قد نزل بلدة تالا التونسية (على بعد ١٧ كم من حدود الجزائر)، فابتنى مسجداً هناك، وكان بعض رجال القبائل «يأتونه ويسمعون منه ويأخذون عنه»، وأن بعضهم تشيع على يديه، ونزل الحلواني منطقة سوف

الجمار في ديار كتامة، «فبنى مسجداً وتزوج امرأة.... وكان في العبادة والفضل والعلم عَلَماً في موضعه، فاشتهر به ذكره، وضرب الناس من القبائل إليه وتشيع كثير منهم على يديه».

ومن المرجح قياسياً أن هذين الداعيين دعيا إلى الإمام الرضا من آل محمد، وبشرا بقرب ظهوره، ونعتاه بأنه المهدي المنتظر، وصورة المهدي صورة غنية فيها العدل المنتظر، والخصب، والرحمة، والمساواة، وفيها الحروب والانتصارات المثيرة، فيها برنامج سياسي وعقائدي واجتماعي كامل، ولاشك أن نشاط هذين الداعيين قد مهد السبيل أمام من جاء بعدهما ليقطف الثمار[١].

- **جهود أبي عبد الله الداعي التمهيدية لقيام الدولة الفاطمية:**

وفي مرحلة السلمية توفي أبو سفيان والحلواني، ووصل الخبر إلى السلمية، فوضعت الخطط لمتابعة العمل، وصدرت الأوامر إلى مركز الدعوة في اليمن لاختيار داعية يتحمل أعباء الدعوة في المغرب، وذلك لكون اليمن مركز إعداد الدعاة، وهناك اختير الحسين بن أحمد بن زكريا الشيعي الذي يعرف باسم أبي عبد الله الداعي الأصفهاني لهذه المهمة، وقيل له: «يا أبا عبد الله أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر فإنها مُوَطَّأة ممهَّدة لك».

---

(١) افتتاح الدعوة، ٥٤-٥٨. المقفى (مخطوطة باريس) ٢١٤و. عيون الأخبار، ٣٢٤/٤-٣٩٥. نهاية الأرب، ٢٤/٢٣. التراتيب، ١٣٨. استتار الإمام، ٩٥. اتعاظ الحنفا، ٥١/١. ابن خلدون، ٤٥٠/٣. دور كتامة، ٤٥-٣٢٩.

انصاع أبو عبد الله لما أمر به، لكنه لم يتوجه مباشرة إلى الإسكندرية ليسافر منها إلى المغرب، بل توجه نحو مكة، ويبدو أنه كان في مكة جماعة كبيرة من الحجاج من كتامة والقبائل الأخرى، لم يكونوا جميعاً من الإسماعيلية، أو بالحري من الشيعة، لهذا تظاهر أبو عبد الله أنه معلم أطفال، يود السفر إلى مصر، وبالتنسيق مع الإسماعيلية من كتامة متَّن مكانه بين ركب الحجاج الأمازيغ حتى وافق الجميع على مرافقته إلى الشمال الأفريقي.

ويصف القاضي النعمان أبا عبد الله بقوله: «وكان ذا علم، وعقل، ودين، وورع، وأمانة، ونزاهة، وكان أكثر علمه الباطن، ونظر في علم الظاهر نظراً لم يبالغ فيه»، وكانت لديه تعليمات كاملة وواضحة حول مهمته في الشمال الأفريقي، ففي ديار كتامة نشط أبو عبد الله نشاطاً أوصله في سنين قليلة إلى استمالة الكثير من القبائل الأمازيغية، وقام بتنظيم قوي بين صفوف هذه القبائل، وقادها نحو النصر في كثير من المعارك مكنته من أن يصبح سيداً للمغرب الأوسط، فتمكن من القضاء على دولة الأغالبة، وانتزاع القيروان منهم، ثم أزال دولة الرستميين في تاهرت، ودولة بني مدرار في سجلماسة، ويبدو أنه ظل طيلة هذه المدة من نشاطه مرتبطاً باليمن، التي كانت تبلغ السلمية [(١)].

ويبدو أن أبا عبد الله قد جاهر أثناء عمله بأن الإمام الذي يدعو إليه هو المهدي من أبناء إسماعيل بن جعفر الصادق، أو بكلمة أخرى: نقل الدعوة من التشيع العام إلى التشيع الإسماعيلي الخاص.

---

(١) افتتاح الدعوة، ٥٩-١٢٢. مروج الذهب، ٣٧١/١. ابن خلدون، ٣٢/٣. نهاية الأرب، ٢٤/٢٣. طبقات المشايخ للدرجيني، ٩٢/١. ٣٣. اتعاظ الحنفا، ٥١/١. ابن عذاري، ١٦٧/١. دور كتامة ١٩٣-٣٣١.

ولقد أحسن أبو عبد الله استغلال ما كان لدى قبائل الأمازيغ من عقائد وعادات، فالأمازيغ تعلموا من العرب الأنساب، وقال أكثريتهم إِنّهم انحدروا من قوم من قبائل حمير، كانوا يسكنون فلسطين، وكان زعيمهم اسمه جالوت، وقد قتل النبي داود جالوت هذا، وطرد قبائله من فلسطين حتى وصلوا إلى المغرب، فاستغل أبو عبد الله هذه الفكرة، ورَوَّج لها، وأعلن أن المهدي قادر على نقض قرار النبي داود، ورغَّب الأمازيغ بالعمل من أجل الزحف نحو فلسطين، ووعدهم بالنصر المحقق، لأن المهدي هو الذي سيقودهم.

ومسألة ترغيب الأمازيغ بالهجرة إلى فلسطين يمكن أن نفهمها في إطار أهداف الدعوة الإسماعيلية، فهدف هذه الدعوة لم يكن الاقتصار بالاستيلاء على رقعة من الأرض من أجل إقامة دولة فحسب، بل كان الهدف الأساسي تزعم العالم الإسلامي، وذلك لا يتم إلا بإزالة الخلافة العباسية من الوجود، وإحلال الخلافة الإسماعيلية محلها، ولا شك أن فلسطين كانت إحدى بلدان الخلافة العباسية، وكان الوصول من المغرب إلى العراق سيتم عبرها حتماً، وفي تاريخ الخلافة الفاطمية توجهت الجيوش الأمازيغية بعد احتلالها مصر مباشرة نحو فلسطين، لكنها أخفقت في تجاوز الشام والزحف على العراق.

- **رحلة أبي عبد الله المهدي من السلمية إلى المغرب وقيام الدولة الفاطمية:**

وبعد ما مضينا بعيداً مع أبي عبد الله الداعي ونشاطاته في الشمال الأفريقي، نعود نحو السلمية، حيث نجد بيت الدعوة الإسماعيلي يشهد انشقاقاً خطيراً، تجلى بقيام ما يعرف بحركة قرامطة الشام بزعامة صاحب الجمل أولاً، ثم صاحب الخال، فقد ادعيا النسب الإسماعيلي، وتسمى كل واحد منهما بلقب

إمام، وقام صاحب الخال بمهاجمة السلمية، فقد دمرها وأباد كُلَّ من وجده فيها، وأثناء زحف القرامطة على السلمية، وصلت رسالة إلى الزعيم الإسماعيلي فيها أنهم «قد عزموا على قتلك وقتل أهلك، فإن كنت قاعداً فقم»، وكان هذا الزعيم هو الذي سيعرف باسم المهدي الفاطمي، وسيكون أول خلفاء الدولة الفاطمية، وبادر المهدي لدى وصول الخبر إليه بالرحيل، وأخذ معه أبا القاسم الذي سيكون الخليفة الفاطمي الثاني وسيعرف باسم القائم، وأخذ معه «جعفر الحاجب وابن بركة الحاضن لا غير»، سار إلى حمص ومنها إلى طرابلس الشام، ثم توجه إلى الرملة، وأقام بالرملة ما يزيد على السنة يرقب الحوادث بالشام، ويجدد الاتصالات ببعض الدعاة لتدارس الموقف والتخطيط لخطوات مقبلة، وأثناء الإقامة بالرملة جرت بعض الاتصالات مع القرامطة، ولعل هذا كان في نحو سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م لكنها لم توصل إلى نتيجة مجدية، لهذا تقرر مغادرة الرملة نحو مصر، وكانت قد بلغته الأخبار بدمار السلمية وبقتل جميع من كان بها.

وأقام المهدي في مصر متخفياً مدة من الزمن، وهو على نية التوجه من هناك إلى اليمن، لكنه ما لبث أن غير نيته، وقرر التوجه إلى الشمال الأفريقي يريد سجلماسة على طرف الصحراء، لكن في مصر اعتقلت السلطات الحاجب جعفراً للاشتباه به بعد أن وصلت تقارير إلى والي مصر حول نشاط إسماعيلي فيها، ثم أطلق سراحه بعد التحقيق معه إذ لم يصلوا إلى نتيجة منه.[١]

ووصف لنا الحاجب جعفر مصاعب الرحلة إلى سجلماسة، وتحدث أن المهدي تعرف قبل دخوله سجلماسه على رجل من القيروان ومعه ابنه، تبين له بعدها أنه مطلبي ومتشيع، وتوثقت علاقتهما، ولما عاد المطلبي للقيروان كلفه

---

(١) سيرة الحاجب جعفر، ١٠٩-١١٤.

المهدي الاتصال بأبي عبد الله الداعي، وقال له: «إذا رأيته قد عزم على الخروج إلى سجلماسة، فاخرج معه، وأنفذ إليَّ ابنك هذا معه... قال جعفر: وإنما أراد المهدي بإنفاذ المطلبي ليعرف أبا عبد الله الشيعي بالمهدي، لأن الشيعي الداعي ببلد كتامة لم يكن رأى المهدي»[١].

ويستفاد مما كتبه الحاجب جعفر بأن المراسلات توالت بين المهدي وأبي عبد الله الداعي، وأثارت نشاطات المهدي ريبة اليسع بن مدرار صاحب سجلماسة، فقرر التحقيق معه، واتهمه بالنشاط السياسي وأنه يتظاهر بالتجارة للتمويه فقط، لذلك اعتقله، وفرق بالاعتقال بينه وبين القائم، وتعرض رجال حاشية المهدي للتعذيب الشديد، وقاد ذلك إلى معرفة اليسع بوجود علاقات بين أبي عبد الله الشيعي والمهدي، وكان أبو عبد الله قد صار سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٩م سيد إفريقيّة، إذ أزال دولة الأغالبة من الوجود، لذلك حافظ اليسع بن مدرار على حياة المهدي ليساوم به، وبالفعل توجه أبو عبد الله الشيعي على رأس جيوش كبيرة يريد سجلماسة ومعه ابن المطلبي التاجر، ولما وصل إلى سجلماسة وضع عليها الحرب، ولازم الحصار حتى ضاق الأمر بأهل سجلماسة، فعمدت السلطات إلى حيلة لتخفيف الحصار عليهم، إذ أطلقوا سراح المهدي بمفرده دون القائم والحاجب، فاستقبله الداعي أبو عبد الله، وانشغل به مع العساكر، فوجد بني مدرار حكام سجلماسة الفرصة مواتية، فخرجوا هرباً إلى قبائل صنهاجة في داخل المغرب.

---

(١) سيرة الحاجب، ١١٦-١٢٠.

وما إن هدأت الأحوال واستعيد النظام، حتى أمر المهدي باقتحام سجلماسة والعمل على استنقاذ القائم ورجال حاشيته، وبعد شيء من الصعوبات تم ذلك، وفي اليوم التالي أقيم سرادق كبير، ووضعت الترتيبات لبيعة المهدي بالخلافة، وإعلان ولادة الدولة الجديدة.

- **خلافة المهدي وتنظيم الدولة:**

يقدم لنا الحاجب وصفاً وثائقياً لاحتفالات البيعة، إذ نصب سرير كبير للمهدي وضع تحت سرادق كبير مفتوح من جميع الجوانب، جاء أشبه بمظلة سماوية كبيرة جداً، ووقف رجال حاشية المهدي مع القائم حوله، وعلى مسافة مئتي ذراع وقف أبو عبد الله الداعي «ومعه ألف بواب، وقد وقفوا صفين، وهو يدعو بأسماء الدعاة والقواد يقدمهم عشرة عشرة» للسلام على المهدي وتقديم البيعة، واحتاج هذا العمل عدة أيام، وبعد ذلك رحل المهدي يريد القيروان ليتخذها مقراً لملكه الجديد [١].

مما سلف نخلص إلى القول إنه في سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م تمت ولادة دولة جديدة، دعيت باسم الخلافة الفاطمية (نسبة إلى فاطمة الزهراء)، وهذه الخلافة هي أول خلافة شيعية في التاريخ، وأعظم دول الشيعة مكانة ودوراً، وحمل أول خلفاء هذه الدولة لقب المهدي، ويبدو أنه كان مهدياً من حيث الاسم فقط لا من حيث التصور الوهمي المرغوب فيه، ووصل هذا المهدي إلى السلطة، وحقق النصر بفضل عمل دعوي طويل وجيد التنظيم، ثم بفضل استخدام القوة المسلحة

---

(١) سيرة الحاجب جعفر، ١٢٠-١٣٣.

البشرية، لا بفضل الملائكة وجند السماء، ولاشك أنه كان لتبدد الصورة الخيالية السرابية، وقيام دولة الواقع ردات فعل شديدة.

بعدما تسلم المهدي زمام الأمور من أبي عبد الله الداعي، وما إن أصبح أميراً للمؤمنين حتى أخذ يباشر أمور الحكم بنفسه حسب قاعدة الإمامة عند الإسماعيلية، ذلك أن الإمام وحده هو صاحب الحق في الحكم والتشريع، وقام المهدي بجمع الدعاة وعمل على إعادة تنظيم الدعوة، وجهد في سبيل إيجاد جيل جديد من الدعاة، ولقد أصاب في هذا السبيل نجاحاً كبيراً، ذلك أن زعامة الفكر الإسماعيلي ستؤول بعد قليل إلى جيل من الدعاة جلهم من أصل أمازيغي أو مغربي، وسيظل هذا الجيل متمسكاً بهذه الزعامة حتى عصر الحاكم بأمر الله في مصر.

وأصبحت الدعوة الإسماعيلية الآن دعوة علنية، تدعمها سلطة دولة فتية، وهنا لا بد لنا من أن نتساءل عن التجديدات التي أدخلت على أفكار الدعوة ثم عن التأثيرات المحلية فيها؟.

يروى أن المهدي كان قد جلب معه من المشرق كمية من الكتب الخاصة، لعلها تضمنت النتاج الفكري الإسماعيلي، أو بعض المهم منه، وإذا صح هذا، فإن هذا النتاج هو الذي اتخذ أساساً في العمل الدعوي الجديد، وعليه فقد بقيت أفكاره الظاهرية هي هي، وكذا التأويل الباطني، وجاء لإعادة تنظيم الدعوة والمجاهرة بها وبأفكارها مع ممارسة المهدي للسلطة، ومباشرته الحكم بنفسه، ردات فعل إسماعيلية داخلية، وغير إسماعيلية خارجية، ونجمت ردات الفعل الداخلية بالأساس عن حصر المهدي للسلطات وعمله في سبيل تغيير وضعه الإمامي وتبديل ولي العهد، وبناء دولة مركزية على غرار الدولة العباسية، وكان في هذا حرمان من الغنائم للذين تَحَمَّلوا أعباء الدعوة مثل أبي عبدالله الشيعي وسواه، ثم

كان في ذلك انتكاسة عقائدية، وتراجع، ذلك أن إقامة سلطة ملكية مركزية شديدة ومطلقة: شيء، والتصور الوهمي والخيالي الفضفاض لدولة المهدي شيء آخر.

ووفق المهدي في القضاء على المعارضة الداخلية، وقام بتصفية دموية لأبي عبد الله الشيعي ومن سانده، وجاء نجاحه نتيجة بذله الأموال، وشرائه زعماء قبائل كتامة.

أما المعارضة الخارجية فقد بدأت في الأسبوع الأول لنزول المهدي برقادة حيث كانت قصور الأغالبة الفخمة على مقربة من القيروان، وكانت رداً على قطع الخطبة لبني العباس وإعلانها باسم المهدي، واستخدم المهدي معهم القوة، فقتل منهم على ما قيل أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عابد ورجل صالح.

وأثارت هذه الأعمال أهل القيروان، وكانوا يتعصبون لمذهب الإمام مالك وأهل السنة، وكانوا سادة الأعمال التجارية والصناعية والثقافية والحضارية العامة في الشمال الأفريقي، ودخلوا في صراع مع رجال قبيلة كتامة، لأسباب عربية أمازيغية، وحضارية، واجتماعية، وسياسية عامة، وكان الصراع حاداً أجبر المهدي على التراجع ولو مؤقتاً، والخروج لتسكينهم «وكف الدعاة عن طلب الناس بمذهب التشيع».

فلما كانت سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٣م «خرج بنفسه إلى تونس يرتاد لنفسه موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة، فلم يجد بقرطاجة إلى تونس أحسن ولا أحصن من موضع المهدية، وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند، فتأملها فأعجبته»، فبنى فيها مدينة في غاية الحصانة والإحكام، ذلك أنه أراد من المدينة حصناً «يعتصم هو فيه، ثم من يخلفه» لأنه أدرك أن شعوب تونس والشمال الأفريقي لن يمنحوه الولاء صرفاً، ولن يدعوه بينهم إذا ما

استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وعلى الرغم من تسمية المهدي لمدينته باسمه – وهذه حالة شاذة في تاريخ الإسلام – فإن هذه المدينة لم تخطط وتشيد كمدينة عقائدية ومثالية، بل أريد منها أن تكون قوية حصينة، ولما وجد المهدي أن مساحة الجزيرة غير كافية قام بردم جزء من البحر، كما قام بنقر ميناء لها في الصخر يتسع لنحو ثلاثين سفينة، وأقام على مدخل هذا المرسى برجين عظيمين(١) – ما تزال بقاياهما قائمة – للحراسة، ربط بينهما بسلاسل من الحديد لتحول دون طروق السفن الغريبة إلى الميناء، ونقر في الصخر أيضاً داراً للصناعة تتسع لثلاثمئة سفينة، كما بنى في المدينة الأهراءات الكبيرة لخزن الحبوب والمؤن، ولندرة المياه فقد أكثر المهدي من بناء خزانات المياه التي تملأ بمياه الأمطار.

وبنى المهدي لنفسه قصراً وآخر للقائم، كما بنى مسجداً كبيراً، وكان الموقع الذي اختاره المهدي لبناء مدينته موقعاً معروفاً من قبل، كان فيه بعض السكان عندما اختاره، والمنطقة المحيطة به، وتعرف بمنطقة الجم (أرض جمة) كانت منطقة حضارة وعمران وهي ما تزال كذلك، وعندما أنجز بناء المهدية انتقل المهدي إليها مع أركان دولته، ثم أمر بعد مدة بأن تحول طرق التجارة إليها، وكان في ذلك مشقة على التجار وعقوبة لأهل القيروان، وسنجد المنصور إسماعيل، وهو الخليفة الثالث يترك المهدية، ويبني قرب القيروان صبرة المنصورية لإرضاء التجار وكسب ود أهل القيروان، وقد جعل المهدي أسواق المدينة في داخل الجزيرة، وحرم على التجار البيتوتة في المدينة الجزيرة، فكانت بضائع التجار تبقى رهينة داخلها تمنعهم من التحريض أو المشاركة في أيَّ ثورة تدبر في الليل، وإذا حدثت ثورة في النهار كانت بوابة المدينة الوحيدة

---

(١) المقفى (ترجمة المهدي).

الشديدة الحصانة، التي لا يتصل بالبر سواها، تغلق ويبقى التجار وبضائعهم رهائن فيها.

ومن المهدية أخذ بتوجيه الدعاة إلى مناطق البلدان الإسلامية في المغرب والأندلس والمشرق، وأولى المهدي المشرق عنايته الكبرى، ذلك أن هدف الإسماعيليين كان إزالة الخلافة العباسية من الوجود، وينقل المقريزي أن المهدي لم يمت حتى وصلت دعاته إلى بلاد الشرق، وبعث إليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول: أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني، وليس على المهدي كلفة ولا مؤونة، فإن أمرني بالسير سرت إليه، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه، وامتثلت أمره، وإن أمرني أن أدخل أهل الأرض في طاعته فعلت، وكتب إليه بمثل هذا أيضاً مرداويج الجبلي، وأنفذوا رسلهم مع الأموال إليه، فوقع على ظهر كتبهم: الزموا مراكزكم «لكل أجل كتاب».

ولم يقتصر اعتماد المهدي على جيش الدعاة الكبير كوسيلة لإزالة الخلافة العباسية عن طريق تفجير الثورات، بل اعتمد القوة المسلحة لدولته، فتوجهت أنظاره فور استقرار الأمور له في إفريقيّة نحو مصر الإخشيدية، فوجه ضدها عدة حملات عسكرية قاد غالبيتها أبو القاسم محمد القائم الذي سيصبح خليفته، وكان نصيب هذه الحملات الإخفاق [١].

وعقب وفاة المهدي سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م توقفت هذه الحملات، ذلك أنه كان على خليفته أبي القاسم، ثم ابنه المنصور إسماعيل العمل في سبيل المحافظة على الوجود الفاطمي في المغرب، هذا الوجود الذي كادت تعصف بأركانه الثورة الخارجية التي قادها أبو يزيد مَخْلَد بن كِيداد النكاري بتحريض ودعم من

---

(١) للقائم ترجمة مفيدة في المقفى، انظر أيضاً عيون الأخبار، ٥/١٢٠-١٣٦.

الخلافة الأموية في الأندلس، ووافت المنية القائم في المهدية سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م دون أن يتمكن من القضاء على هذه الثورة، ثم خلفه ابنه المنصور إسماعيل، وقد تسنى للمنصور بعد حروب طويلة القضاء على ثورة أبي يزيد، وعقب ذلك أخذ يعيد تنظيم دولته، ويتوجه ببصره نحو مصر، وخلال انشغال الدولة الفاطمية في المهدية بثورة أبي يزيد بقي الدعاة نشطين، وثابروا في تركيز الجهد على مصر وغيرها من بلدان المشرق، ويبدو أن الدعوة كسبت بعض القواعد في مصر، وأخذت هذه القواعد تستقبل المزيد من الدعاة للتدرب والتوجيه، ولعل من أبرز الذين وصلوا إلى واحد من مراكز الدعوة في مصر أحمد بن الحسين، الذي سيعرف باسم المتنبي الشاعر، ذلك أنه بعد عودته من مصر أعلن ثورته في بادية الشام، حيث أسره لؤلؤ صاحب حمص وأودعه السجن، وسيقوم المتنبي بعد خروجه من السجن بالالتحاق بسيف الدولة الحمداني، إذ قال في مدحه أروع القصائد، وحاول كسبه إلى الجانب الإسماعيلي فأخفق، لذلك ذهب إلى مصر، تسير أمامه شهرته الواسعة، فاتصل بكافور الإخشيدي، وسعى لنيل ولاية منه لتكون قاعدة متقدمة للتحرك الإسماعيلي نحو احتلال مصر، لكن كافوراً رفض طلبه، فاتصل بواحد من كبار قادة جيشه، فتوفي هذا في ظروف غامضة وبشكل مفاجئ، وضَيَّق كافور على المتنبي، فاضطر إلى مغادرة مصر فوراً، وأعلنت الدعوة الإسماعيلية من جرَّاءِ ذلك، أن مصر لن تفتح «حتى يزول الحجر الأسود من مكانه».

وفي أيام المعز الخليفة الفاطمي الرابع، وكان الحجر الأسود [كافور] قد زال من الوجود، تمكنت الخلافة الفاطمية بفضل حملات قادها جوهر الصقلبي قائد المعز من بسط سيطرتها على جميع أجزاء الشمال الأفريقي، ثم لما واتتها

الفرصة زحفت القوات الفاطمية على مصر فاحتلتها، ثم ألحقت بها القسم الأكبر من بلاد الشام.



المقالة الثالثة

الخلافة الفاطمية في مصر - الطور المصري

وفي مصر بَنَتِ الخلافةُ الفاطميةُ عاصمةً جديدة كانت هي القاهرة، ودار دعوة جديدة كانت هي الأزهر، ولمَّا انتقل مركز الفاطميين من إفريقيّة إلى مصر لم يترك هذا المركز وراءه أتباعاً عَقَدِيِّيْنَ كثيرين، وهو ما سهل بعد مدة قصيرة نسبياً التخلي عن الولاء الفاطمي في المغرب، والعودة إلى الولاء السني العباسي، وهذا يعني أن الدعوة الإسماعيلية قد نجحت في المغرب سياسياً، ولم تنل النجاح عَقَدِيّاً، وستتكرر هذه الحال في مصر، وإنه لمن الغرابة بمكان أن نجد للعقيدة الإسماعيلية أتباعاً يؤمنون بها في مناطق لم تقم لها فيها سلطة ودولة، وأن لا نجد لها من يؤمن بها حيث حكمت سنين طويلة؟ إنه لأمر يتمنى الباحث أن يعرف سره، ويكشف مغلق لغزه.

لقد مر تاريخ الخلافة الفاطمية بطورين رئيسين هما: الطور الأفريقي، والطور المصري، ومن الممكن أن نقسم الطور المصري إلى دورين: ينتهي الأول منهما مع بداية عصر الخليفة الحاكم بأمر الله، وينتهي الثاني بسقوط الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي، وقام هذا التقسيم على اعتبارات

سياسية ودينية، إذ – كما سنرى – أخذت مظاهر الضعف تبدو على جسم الخلافة أيام الحاكم، وفي عصر الحاكم جرت محاولات لإعادة بناء أسس العقيدة الإسماعيلية.

كان من الطبيعي أنه عندما توطدت أركان الخلافة الفاطمية في إفريقيّة ألا تكتفي الدعوة الإسماعيلية بتونس، بل ابتغت التوسع لكن ليس في بلدان المغرب بشكل أساسي، ذلك أن هدف الدعوة الإسماعيلية الأساسي كان إزالة الخلافة العباسية من الوجود، وإحلال الخلافة الفاطمية محلها، لهذا كانت أنظار رجالات الدولة الفاطمية ترنو نحو مصر ومن ثم المشرق، وكانت مصر يوم قامت الخلافة في تونس، تحكم من قبل الأسرة الإخشيدية، وكانت هذه الأسرة تحكم بالإضافة إلى مصر المناطق الجنوبية من بلاد الشام، لأن الشمالية كانت تدار من الأسرة الحمدانية في حلب، وعلى الرغم من استقلال الأسرة الإخشيدية فإنها كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية.

أسس الدولة الإخشيدية محمد بن طغج الإخشيد الذي كان والياً على الرملة سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م، ثم أصبح والياً على دمشق بعد عامين، ولجهوده في دفع الخطر الفاطمي عن مصر أُضيفت له ولاية مصر إلى جانب دمشق من قبل الخليفة الراضي سنة ٣٢٤ هـ/ ٩٣٥م [١]، وتمكن هذا من إنشاء دولة مستقلة في ظل الخلافة العباسية، وأسس أسرة ملكية توارثت السلطة من بعده على غرار الدولة الطولونية التي حكمت مصر قبله.

وسلفت الإشارة إلى أن الخلافة الفاطمية قد سعت للاستيلاء على مصر، وذلك منذ أيام المهدي، إذ قاد القائم عدة حملات ضد مصر كان نصيبها الإخفاق

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٧/ ٥٦. الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص ٢٩٨.

على الرغم من أنها كانت تصل إلى الإسكندرية وتحتلها ثم يتم التصدي لها، وبالإضافة إلى الحملات العسكرية، نشطت الدعوة الإسماعيلية في مصر، واتخذ عدد من الإسماعيليين مصر منزلاً لهم بغية الإعداد للاستيلاء على مقاليد الأمور فيها، وسلف أن ذكرنا أن المتنبي كان من أشهر الذين قدموا إلى مصر، قدمها للمرة الأولى وهو داعية إسماعيلي مغمور، ثم زارها ثانية وهو شاعر قد طبقت شهرته الآفاق، فالتحق بكافور الإخشيدي، وحاول أن ينال منه ولاية ولو على طرف الصحراء فأخفق، فاتصل بالقائد فاتك الإخشيدي، فتوفي هذا في ظروف غامضة، فاضطر المتنبي إلى الهرب من مصر، وواضح أن الولاية كانت لتستخدم قاعدة للإسماعيلية لإحداث انقلاب ضد كافور.

وبعد وفاة المهدي سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م، وفي عهد خليفته القائم محمد (٣٢٢-٣٣٤ هـ/٩٣٤-٩٤٦م) تم إرسال حملة جديدة إلى مصر سنة ٣٣٢ هـ/ ٩٤٢ م، استولت على الإسكندرية لكنها عجزت عن الاستمرار، وعادت بسبب المقاومة، ومن بعد ذلك توقفت الحملات لأن الخلافة الفاطمية انشغلت في الدفاع عن وجودها الذي تهدد بثورة صاحب الحمار أبي يزيد مَخْلَد بن كِيداد النكاري، ولقد استطاع خليفة القائم وابنه المنصور إسماعيل (٣٣٤-٣٤١هـ /٩٤٦-٩٥٣) القضاء على هذه الثورة -كما سلف القول-، وتمكن من إطفاء ثائرتها، وفي عهد خليفة المنصور وابنه المعز لدين الله معد (٣٤١-٣٦٥ هـ/ ٩٥٣-٩٧٥م) تمكنت الخلافة الفاطمية من بسط سيطرتهما على غالبية أجزاء الشمال الأفريقي، ووافق هذا التعاظم في القوة الفاطمية تدهور في أحوال الدولة الإخشيدية في مصر، ولا سيما بعدما توفي كافور الإخشيدي.

كان محمد بن طغج الإخشيد قد توفي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م وخلفه ولده أنوجور على مصر والشام، وكان له من العمر أربع عشرة سنة، فقام كافور –

وهو الوصي عليه من قبل أبيه- بتدبير شؤون الحكم، وأصبح صاحب السلطة الفعلية، ومن بعد أنوجور حكم أخوه علي بن الإخشيد سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م، ولما توفي علي بن الإخشيد سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م انتزع كافور الإمارة، وصار هو الحاكم الرسمي، لكن ولايته لم تطل أكثر من عامين، فقد توفي وخلفه حفيد الإخشيد أحمد بن علي، وتولى تدبير مصر الوزير جعفر بن الفرات، وفي عهده ساءت أحوال مصر كثيراً، فقد كثر التنافس على السلطة، وقلت أعطيات الجند، وانتشر الغلاء والوباء، وبدأ بعض زعماء مصر يراسلون الخليفة الفاطمي للقدوم إلى مصر، ومن أشهرهم يعقوب بن كلس [١].

وصف المقريزي أحوال مصر آنذاك، فقال: «وكان في عامة أرض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء أمر لم يعهد قبله مثله بحيث إنه أُحصي من مات في أيام يسيرة فكانوا ستمئة ألف إنسان، وكانوا يُلقون الغرباء في النيل، وبلغ الفروج ديناراً والبيضة درهماً، وبيع إِردبّ القمح بثمانين ديناراً، مع كثرة الفتن وتغلب كل واحد من العمال وغيرهم على ما يليه واختلاف أهل الدولة بمصر من الإخشيدية، والكافورية، وكثرة تحاسدهم، وعظم الخوف من هجوم القرامطة على مصر، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام، فاختلت من أجل هذا، ..... واتضعت أمور الناس، وتغيرت نياتهم، وساءت معاملاتهم، وفسدت أكثر أوضاعهم، وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها، وقلة أموالها، وتعذر وجود الأقوات، وكثرة الخوف» [٢].

واغتنم المعز لدين الله الفرصة، وكان على اطلاع تام من خلال جواسيسه بالفوضى التي ألمت بمصر بعد موت كافور، فبعث قائده جوهراً الصقلبيَّ على

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/ ١٤٨.

(٢) المقفى للمقريزي، ترجمة جوهر الصقلبي.

رأس جيش حسن الإعداد، جيد التنظيم والعدة، واستطاع هذا الجيش أن يسيطر على مصر دون كبير عناء وعظيم خسائر، وأخفقت محاولات المقاومة التي قامت بها العساكر الكافورية والإخشيدية، ودخل جوهر الفسطاط في شعبان ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م بعد أن كتب لأهلها أماناً، وعقب ذلك زحفت القوات الفاطمية نحو بلاد الشام، وهنا كان لزحفها هذا قصة أخرى تباينت تبايناً شديداً مع قصة الاستيلاء على مصر، سنعرض لها بعد قليل.

وفي مصر قام جوهر الصقلبي ببناء نواة مدينة جديدة – لتكون مقراً للفاطميين، هنالك إلى جانب الفسطاط العاصمة الأولى لمصر الإسلامية– دعاها بالقاهرة المعزية، وبعدما أنجز بناء القاهرة، وفي أثناء محاولات الاستيلاء على بلاد الشام، اصطدمت الجيوش الفاطمية بقوات قرامطة الإحساء والبحرين، الأمر الذي تطور إلى حد تهديد الوجود الفاطمي في مصر، مما حدا بالخليفة المعز لدين الله إلى ترك إفريقيّة والارتحال نحو مصر في موكب كبير جداً سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، تضمن هذا الموكب الكثير من بربر كتامة وسواهم من المنتمين إلى الدعوة الإسماعيلية، مع كميات عظيمة من الذخائر والذهب وأهل الحرف والصناعات والفنون، كما حمل المعز تابوت أبيه وتوابيت أجداده[١].

لقد جاءت حملة جوهر، ثم موكب المعز أشبه بهجرة بربرية نحو مصر ثم بلاد الشام، وكانت الأولى من نوعها، وفي القاهرة استقر المعز، وفيها أيضاً بنى الفاطميون دار دعوة جديدة ومسجداً كان في الوقت نفسه جامعة دعي بالأزهر، وذلك نسبة إلى فاطمة الزهراء التي انتسب إليها الفاطميون، وأطلقوا اسمها على دولتهم.

---

(١) عيون الأخبار، ١٨٤/٦-١٩٤. اتعاظ الحنفا، ١٣٤/١-١٤٣.

وفي مصر تم إحكام بناء الدولة الفاطمية ووضع لها نظام إداري يمكن وصفه بالعلمية لرقيه ودقته، كما أحكم نظام الدعوة الإسماعيلية بشكل رائع جداً، ويعد يعقوب بن كلس وزير كل من المعز ثم ابنه العزيز أهم بُناة النظام الإداري والدعوي للدولة الفاطمية في مصر، فبفضل هذا النظام استطاعت الدولة الفاطمية أن تبقى حية لمدة تفوق القرنين على الرغم من أنه لم يوجد بين الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش القاهرة بعد المعز من اتسم بالقدرة والكفاءة السياسية والإدارية.

كان يعقوب بن كلس أحد رجالات الإدارة والمال اليهود في العراق، وقد هجر العراق، وجاء إلى بلاد الشام حيث عمل مدة من الزمن في مدينة الرملة، ثم غادرها إلى مصر، واتصل هناك بكافور الإخشيدي، فولاه إحدى الوظائف وكلفه مهامَّ فنجح بها أيما نجاح، فأعجب به كافور إعجاباً كبيراً، وأسلم يعقوب إرضاءً لرغبة كافور، فسُرّ كافور لذلك، وخلع عليه.

وبعد وفاة كافور ترك يعقوب مصر، وسافر إلى المهدية، حيث دخل في خدمة المعز لدين الله الفاطمي، وقدم له المساعدات من أجل الاستيلاء على مصر، وفي مصر تسلم ابن كلس وضع أسس الإدارة الفاطمية هناك، ولم يكتف بذلك بل تولى إعادة تنظيم بناء الدعوة الإسماعيلية، وألف كتاباً معتمداً في الفقه الإسماعيلي، ومن المدهش حقاً أن وثائق الجنيزا اليهودية التي عثر عليها في كنيس الفسطاط القديم، وهي وثائق تحوي أوراق ومستنداتها الجالية اليهودية في مصر أيام الفاطميين ومن جاء بعدهم، تشير هذه الوثائق إلى يعقوب بن كلس باسم الأخ يعقوب، وتوحي بأنه ظل محافظاً على يهوديته وتظاهر بالإسلام تظاهراً [١].

---

(١)الإشارة إلى من نال الوزارة، ١٨-١٣ الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ٢٤١.

المقالة الرابعة

توسع الفاطميين في بلاد الشام

بعدما توطد الفاطميون في مصر صار تحدي العقيدة الإسماعيلية للنظام العباسي والفكر السني أكثر قوة وأشد خطراً، وصار للفاطميين إمبراطورية مترامية الأطراف، شملت وهي في ذروة قوتها: مصر، وجنوب بلاد الشام، وشمال أفريقيا، وصقلية، وشواطئ البحر الأحمر، واليمن، وبلاد الحجاز، بما في ذلك المدينتان المقدستان: مكة، والمدينة، وسيطر الفاطميون على جيش هائل من الدعاة، واعتمدوا على ولاء عدد لا يحصى من الأتباع في أراض كانت خاضعة للحكم العباسي فعلياً، أو اسمياً.

وعلى الرغم من توفر جميع هذه الإمكانات الهائلة للخلافة الفاطمية، فإنها أخفقت في تحقيق أهدافها في إسقاط الخلافة العباسية وإزالتها من الوجود، ومرد ذلك إلى أسباب عدة منها إخفاق الفاطميين في الاستيلاء على بلاد الشام، وتضاءل القدرات العسكرية للجند الأمازيغ أمام الجند المشارقة، والصدام الشديد مع قرامطة الإحساء والبحرين، وعدم تميز واحد من بين الخلفاء الفاطميين بالقدرات العسكرية، ولعل سبب ذلك طبيعة التنشئة الدينية لهؤلاء الخلفاء.

كانت الروابط بين مصر وبلاد الشام قوية، فعُدت كل منهما منطقة أمان للأخرى، ناهيك عن أهمية البلدين تجارياً، وأن كُلاً منهما يُكمل الآخر، ولتحقيق أهداف الدولة الفاطمية في القضاء على الدولة العباسية وتزعم العالم الإسلامي كان لا بد لها من السيطرة على بلاد الشام كبداية للوصول إلى العراق مقر الخلافة العباسية، وكما هو معلوم أن دمشق وجنوب بلاد الشام كان يُحكم من قبل الدولة الإخشيدية، وأن دمشق تعرضت كثيراً لهجمات الحمدانيين والقرامطة، وأن كُلاً منهما طمع بالسيطرة عليها.

بعدما استولى جوهر الصقلبي على مصر سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م، أرسل في السنة التالية جيشاً كبيراً بقيادة الأمير الأمازيغي جعفر بن فلاح[١] نحو بلاد الشام، كي يعمل على ضمها إلى الحكم الفاطمي.

سار جعفر بن فلاح إلى الشام في عسكر كبير إلى أن قدم الرملة، وبها عدد من قواد الإخشيدية ورجالهم، فقاتلهم قتالاً شديداً وأسر عدة من الأعيان وأنفذهم إلى القاهرة في القيود مع ابنه، وأخذ السيف بقيتهم، فقتل كثيراً منهم، وتمكن من الرملة، وذلك في منتصف رجب من ذلك العام، ثم سار إلى طبرية

---

(١) جعفر بن فلاح بن مروان، أبو الفضل الكتامي، من أرقى الكتاميين بيتاً وأجلهم قدراً، كان أبوه قائداً جليلاً ولي مدينة طرابلس الغرب وبرقة وباجة، وكان حسن السيرة في الرعية، ونشأ ابنه جعفر بالمغرب في خدمة المعز لدين الله، ثم انتقل إلى جعفر بن الأندلسية، وهو يومئذ أمير الزاب، فلم يزل عنده إلى أن استدعاه المعز لدين الله، فبعث به إليه في جملة تحف وطرائف، ولما جهز المعز لدين الله القائد جوهراً من بلاد المغرب لأخذ مصر سار معه جعفر بن فلاح، وهو أول من تولى دمشق من الفاطميين. انظر ترجمته عند المقريزي في كتاب المقفّى.

ودخلها، وأساء إلى أهلها، كما أساء إلى وفد دمشقي قدم عليه للتفاهم معه، لذا صمم أهالي دمشق على المقاومة.

قبيل وصول القوات الفاطمية إلى دمشق فرّ حاكمها الإخشيدي منها «فخلت المدينة من السلطان، فطمع الطامع، وكثر الذعار وحمال السلاح»، ونظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم، بان أغلقوا أبوابها، وأوقفوا الرماة على شرفات الأسوار، وأقاموا الحواجز داخل المدينة، وكسروا أقنية المياه، وحفروا الخنادق، واشترك الرجال والنساء والصبية في الإعداد للدفاع عن دمشق، وتولى شؤون المقاومة وقادها منظمة شعبية عرفت بالأحداث، وكانت هذه المنظمة شبه عسكرية، قامت في مدن بلاد الشام، وشغلت أكبر الأدوار فيها، وأدت بعض أنواع الخدمات البلدية والعسكرية والأمنية [١].

وصمد أهالي دمشق، وكاد الإخفاق يلحق بالجيش الفاطمي لولا أن جماعة من تجار المدينة وأشرافها قامت فشكلت وفداً قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح، وبث هذا الوفد التخاذل بين المدافعين، مما سبب إيقاف المقاومة، وأدى إلى فتح أبواب المدينة لجيش ابن فلاح، فدخلها في محرم سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠ م، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي، كما أساء جنوده المغاربة لأهل دمشق[٢].

وكان أبرز الزعماء القائمين بالدفاع عن دمشق رجلاً من عامة أهلها وأحداثها اسمه أبو إِسحاق محمد بن عصودا، وبعدما سقطت دمشق في قبضة الجيش الفاطمي نجا ابن عصودا بنفسه، وهرب إلى الأحساء في شبه جزيرة

---

(١) انظر الحديث عنها في المطلب الثاني.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٧/ ٢٩٩. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ١٢٥.

العرب فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الأعصم، فحضه على مساعدة دمشق، فلقي الاستجابة منه.

كانت حركة القرامطة قد قامت في البحرين على الساحل الشرقي للجزيرة العربية أواخر القرن الثالث الهجري، وهي حركة دينية اجتماعية انشقت عن الإسماعيلية، سميت بهذا الاسم نسبة لمؤسسها حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط، وازدهرت مع زعيمها أبي سعيد الجنابي إذ نشطت في الشام والعراق، وهددت سلطان الخلافة العباسية هناك، كما دانت للخلافة الفاطمية عندما كانت في المغرب على أساس التبعية الدينية، وفي القرن الرابع الهجري عانت الحركة انقسامات بسبب التنافس بين أبناء أبي سعيد الجنابي.

وكانت دمشق قبيل سقوطها بيد جعفر بن فلاح والجيش الفاطمي تدفع للقرامطة جزية سنوية قدرها ٣٠٠ ألف دينار منذ سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م، فلما أخذها جوهر انقطع المال عن القرامطة [١]، كما تخوفوا على نفوذهم السياسي هناك، فتجهزوا لرد الفاطميين عن مناطق نفوذهم.

جاء الجيش القرمطي إلى دمشق، وكان قد حصل على تأييد ومساعدة الخليفة العباسي في بغداد، والحمدانيين في حلب، كما انضم إليه فلول الإخشيديين، فالتقى جيشُ ابن فلاح في ناحية الدكة على مقربة من دمشق، فهزمه في ذي القعدة ٣٦٠هـ/ أيلول ٩٧١م، ولقي ابن فلاح مصرعه أثناء المعركة.

وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي، وعيّن القرامطة عليها من يحكمها وتابعوا زحفهم نحو مصر كي يخلصوها من الحكم الفاطمي، فسيطروا

---

(١) يحيى بن سعيد، التاريخ المجموع، ص ١٣٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٧/ ٢٩٩. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص١. المقريزي، المقفى، ترجمة جعفر بن فلاح.

على الرملة، ومنها ساروا إلى يافا وفرضوا عليها حصاراً قوياً، ثم ساروا إلى القاهرة ووصلوا إلى مقربة منها حيث دارت معارك عنيفة مع الفاطميين في ربيع الأول سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م، وفي النهاية تمكنت الجيوش الفاطمية من هزيمة القرامطة وملاحقة فلولهم حتى فلسطين حيث فكوا الحصار عن يافا، وأعادوا جنوب بلاد الشام ودمشق إلى حظيرة الخلافة الفاطمية.

وكما سلفت الإشارة حدت المخاطر التي هددت القاهرة من قبل القرامطة بالمعز لدين الله الفاطمي إلى ترك تونس والقدوم إلى مصر سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م، لتصبح مصر مقر الخلافة الفاطمية، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان من بين نتائج النشاطات القرمطية في شبه جزيرة العرب قيام هجرة بدوية عملاقة حملت عدداً من قبائل عامر بن صعصعة وسواها مثل: عقيل، وقشير، ونمير، وخفاجة، وطيِّئ، وكلاب، وفزارة، وسليم، إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين، وعلى هذا رست القوى الفعالة في الشام بأيدي رجالات القبائل، وكانت طيِّئ أقوى قبائل فلسطين، وقد تمكن القرامطة من كسب هذه القبيلة إلى جانبهم، ثم لما جاء الفاطميون سعوا عن طريق الذهب وعرض المناصب شراء ولاء هذه القبيلة وسواها، وهذا ما حدث، فتخلت قبيلة طيِّئ عن القرامطة لصالح الفاطميين، هذا ومن المقرر أن اعتماد القوى المتصارعة على ولاء البداة لا يمكّن من حسم الأمور ولا من قيام معارك فاصلة.

حاول المعز في البداية استمالة القرامطة، وأرسل إلى زعيمهم الحسن الأعصم كتاباً يذكره فيه بمكانته ومكانة بيته، وأن دعوة القرامطة نشأت في الأصل عنهم، وأن الدعوة واحدة، وينصحه بالعودة إلى رشده وينذره بسوء المصير، فلم يكترث الحسن الأعصم لكتاب المعز، ورد عليه قائلاً: «وصل

كتابك الذي كثر تفصيله وقلَّ تحصيله، ونحن سائرون على إثره والسلام»[1]، وفعلاً زحف الحسن الأعصم إلى مصر سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م، لكن الهزيمة كانت من نصيبه بعد أن تخلت عنه معظم القبائل العربية.

وفي هذا العام أسند الخليفة المعز لدين الله حكم دمشق لظالم بن مرهوب (أو موهوب) العقيلي الذي تخلى عن تأييد القرامطة وأعلن الولاء للخلافة الفاطمية، وطبعاً أقدم المعز على هذا العمل رغبة منه في كسب القبائل العربية إلى جانبه، وحاول ظالم البدوي العربي أخذ دمشق بالحديد والنار، فأوقع الحرائق بعدة أماكن من المدينة، ولكن ذلك لم يفت في عضد الدمشقيين بزعامة الأحداث، وتم أخيراً التوصّل إلى تسوية غادر ظالم بن مرهوب بموجبها دمشق، وسمح أحداث دمشق لحاكم فاطمي آخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم، وكان هذا حلاً مؤقتاً، وغير ناجع، إذ سرعان ما عادت الاضطرابات إلى دمشق، وهنا تدخل المعز فأوعز إلى واليه على طرابلس الشام (ريان الخادم) بالقدوم إلى دمشق للمساعدة على حل مشاكلها، وبذل ريان هذا جهوداً كبيرة لإعادة الأمن للمدينة، فقام بصرف القوات الفاطمية وأجلاها عن دمشق، وهكذا تم الوصول إلى تفاهم مؤقت مع أحداث دمشق، الذين أحكموا الآن قبضتهم على المدينة وأمورها، وكان زعيم الأحداث في هذه الآونة عامياً عرف باسم ابن الماورد، وكانت منطقة الباب الصغير هي نقطة تمركز الأحداث، أو لنقل مكان معسكرهم، لكن هذا الهدوء لم يستمر طويلاً وسارت الأمور في دمشق لغير صالح الفاطميين.

---

(١) الدواداري: الدرة المضيئة، ص ١٦٠. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة، ٢/ ٢٣٠.

في هذه الآونة كان الصراع على السلطة على أشده في بغداد، وقد أدى فيما أداه إلى خلع الخليفة العباسي المطيع لله سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٧٤م واستخلاف ولده الطائع، وأدت هذه المشاكل ببعض العسكريين الأتراك إلى القيام بهجر بغداد، وكان من بين هؤلاء واحد عرف باسم ألبتكين (هفتكين) الحاجب.

كان ألبتكين هذا أحد موالي معز الدولة أحمد بن بويه، وقد ترقى في المناصب حتى تولى زعامة أو قيادة الجند الأتراك في الجيش العباسي في أيام عز الدولة بختيار بن بويه[١]، ونتيجة الصراع الذي حصل أثناء عزل الخليفة المطيع واستخلاف ابنه الطائع سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م، اضطر ألبتكين -بعد أن تعرض مع جنده الأتراك لهزيمة أمام الجند الديالمة الذين شكلوا عماد القوة البويهية- للفرار خارج بغداد[٢]، فسار نحو الرحبة، ومنها إلى حمص حيث استقبل هناك بالترحاب، وأثناء وجوده في حمص طلب منه أهل دمشق مساعدته لإخراج الفاطميين وسألوه «الإقامة عندهم والنظر في أحوالهم»، وقبل ألبتكين العرض، وكان عسكرياً محترفاً، له خبرات إدارية وسياسة، وقد تمكن من دخول دمشق سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م، وقطع الخطبة للخليفة المعز ودعا للخليفة العباسي الطائع،[٣] ورتب الأمور فيها بالتعاون مع الأحداث، وكان زعيم الأحداث قد أصبح رجلاً عامياً عرف باسم قسام التراب، وكان قسام أصله من تلفيتا «إحدى قرى دمشق من قوم من العرب كان يقال لهم الحارثيون»، نشأ في دمشق، وكان

---

(١) أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم، ص ٣٣٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦/ ٣٠٧. العبر، ٢/ ٣٤٩.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦/ ٣٠٧. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤/ ١٠٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ١١/ ٢٨٠.

(٣) الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص ٤٤٤.ابن الأثير، الكامل، ٧/ ٦٣.

يعمل في التراب، ثم انضم إلى الأحداث فتزايد أمره بينهم حتى غدا أول رجل بينهم، وفي هذه الآونة تمكن ألبتكين من دفع خطر البيزنطيين عن دمشق، فقد وصلت حملة بيزنطية بقيادة الدمستق إلى حمص، ومنها سارت إلى بعلبك، وكانت تريد المتابعة إلى دمشق، غير أن ألبتكين سار إليهم وهادنهم ودفع لهم الأموال ليكفوا عن دمشق [(١)].

وفي القاهرة توفي الخليفة المعز دون التمكن من حل مشكلة دمشق، وقد خلفه ابنه العزيز، وافتتح هذا الخليفة عهده بإعداد جيش كبير جرده نحو دمشق سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٦م، وجعل على رأسه جوهراً الصقلبي قاهر مصر، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن، وأن يبعد خطر القرامطة عن الشام مهما كلفه الأمر.

وصل جوهر إلى دمشق وقد حصنها ألبتكين جيداً وقرر مع أهالي دمشق الدفاع عن المدينة، وفي سبيل ذلك خاض مع جوهر اثنتي عشرة معركة كاد جوهر يدخل دمشق على إثرها لولا وصول المساعدة القرمطية من البحرين، فأمامها اضطر جوهر للانسحاب إذ طاردته قوات دمشق وقوات القرامطة، فالتجأ إلى عسقلان، فحاصره ألبتكين سبعة عشر شهراً أشرف جيشه فيها على الهلاك حتى توصل إلى هدنة مع ألبتكين الذي سمح له بالخروج مع قواته مقابل أموال[(٢)]، وعاد إلى القاهرة ليخبر سيده العزيز عن تعاظم أمر ألبتكين والقرامطة، واحتمال قيامهم بمهاجمة مصر.

---

(١) الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص ٤٤٤. الدواداري، الدرة المضيئة، ص ١٧٠. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٢٠.

(٢) المقفى للمقريزي، ترجمة جوهر الصقلبي.

هنا اضطر العزيز إلى الخروج بنفسه إلى حربه وحرب القرامطة، وبعد جهود مضنية وبذل كميات من الذهب لزعماء قبيلة طيِّئ، استطاع العزيز إيقاع الهزيمة بألبتكين وحلفائه على مقربة من الرملة سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، كما قام العزيز بشراء رضا القرامطة بمبلغ كبير من المال يُدفع لهم سنوياً، وتعهدوا بالعودة إلى الإحساء وأن يكونوا في طاعة الخليفة الفاطمي العزيز (١)، وكان قد قبض على ألبتكين، وحمله معه إلى القاهرة وأحسن معاملته.

لكن نصر العزيز لم يقده إلى احتلال دمشق، فقد عاد إلى مصر دون أن يجرب ذلك، وهكذا حافظت دمشق على استقلالها، واستبد قسام وأحداثه بأمورها فضبطوها ضبطاً جيداً، وقام قسام بمراسلة الخليفة العزيز، فاعترف اسمياً بسلطانه، ودفعه عن دمشق، وأراد خداعه، وتظاهر العزيز بالرضا، لكنه ما لبث أن جرد جيشاً جديداً أرسله نحو دمشق، ولم يتمكن هذا الجيش من تحقيق مهمته، واضطر إلى الانسحاب راضياً بتعهد من قسام بأنه لن يسلم دمشق لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين.

ودام الحال على هذه الصورة حتى سنة ٣٧١ هـ/٩٨١م إذ جهز الخليفة جيشاً فاطمياً جديداً بقيادة قائده بلتكين التركي وكلفه إعادة السيطرة على دمشق، وذلك بعدما أخفقت أساليب أخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها وإثارة الأعراب وتسليطهم عليها، بهدف إسقاط حكم قسام.

ووصل الجيش الفاطمي دمشق فحاصرها طويلاً، ولقي من المقاومة الشيء الكثير، لكن انشقاقاً في صفوف أهل المدينة أجبر قساماً على إلقاء السلاح، ودخل الفاطميون دمشق، واعتُقل قسام وأرسل أسيراً إلى مصر، وهناك عفا عنه

---

(١) الدواداري، الدرة المضيئة، ص ١٧٩.

العزيز[1]، لكن الحكم الفاطمي لم يستقر في المدينة، وبقيت مقاليد الأمور بأيدي الأحداث، وظل الحال هكذا بين أخذ ورد حتى سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩م إذ تمكن والي الفاطميين على دمشق محمد بن جيش بن الصمصامة من دعوة زعماء الأحداث إلى وليمة غدر، جعلهم فيها طعمة للسيوف، ومن بعدها توطد حكم الفاطميين في جنوب الشام [2].

لقد كانت وليمة الغدر هذه أكبر كارثة يتعرض لها أحداث المدينة، ومن بعدها أخذ نشاطهم يقل بالتدريج إلى أن انتهى على يد السلاجقة.

واستمر الحكم الفاطمي لدمشق وجنوب بلاد الشام حتى سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م إذ سقط لصالح السلاجقة، وبشكل عام اتصف الحكم الفاطمي هناك بعدم الاستقرار على الرغم من محاولات الفاطميين المتكررة لتثبيت سلطانهم، فالخلافات المذهبية كانت العامل الأكبر الذي جعل أهل دمشق يرفضون الحكم الفاطمي، كما أن ممارسات بعض الولاة وسوء سياستهم، وسلوك الجند المغاربة في المدينة وكثرة اعتداءاتهم على أهل المدينة، أسهم في زيادة الهوة بين الطرفين.

كانت الفوضى قد وصلت إلى أقصاها أيام ولاية بدر الجمالي (الذي أصبح فيما بعد أمير الجيوش والمتحكم في الخلافة الفاطمية) التي بدأت سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، فقد حكم هذا المدينة بقوة السيف، وثار عليه أهل دمشق غيرَ مرة، في وقت بدأت فيه الموجات السلجوقية تجتاح بلاد الشام، وكان على رأس إحداهن القائد أتسز الخوارزمي الذي دخل بحملته فلسطين سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م، ثم

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٧/ ٣٧٨. المقريزي، اتعاظ الحنفا، ١/ ٢٥٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦/ ٢٦٣-٢٦٤.

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٨٧-٨٩.

دخل دمشق سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م، ومنها انطلق يريد مصر، فغزاها، لكن أمير الجيوش الفاطمي بدراً الجمالي تصدى له، ومن ثم طارده حتى دمشق، وفرض عليه حصاراً قوياً لم يتمكن من فكه إلا بعد أن أتته المساعدة من تُتُش أخي السلطان السلجوقي ملك شاه، فدخل تُتُش دمشق سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م، ثم تخلص من أتسز، وبذلك خرجت دمشق تماماً من تحت الحكم الفاطمي، وسوف تتبعها بقية مدن جنوب بلاد الشام مع قدوم الحملة الصليبية الأولى بعد عشرين عاماً (١).

وتجب الإشارة إلى أنه في الوقت الذي كان فيه الفاطميون يسعون إلى السيطرة على دمشق حاولت بعض جيوشهم الاستيلاء على مدينة حلب سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م، فأخفقت بفضل دفاع حكامها من الحمدانيين عنها، وبفضل حماية الإمبراطورية البيزنطية لها، ذلك أن هذه الإمبراطورية رغبت أن تكون حدودها مع بلاد الشام مع دولة صغيرة حاجزة لا مع خلافة قوية واسعة الأملاك، ولما قامت الدولة المرداسية في حلب مكان الدولة الحمدانية أعلنت الولاء للخلافة الفاطمية ثم نقضته مراراً تبعاً للأحوال السياسية.

وحتى أوائل أيام العزيز كان قوام الجيش الفاطمي من الجند الأمازيغ الذين استولوا على مصر مع جوهر الصقلبي، ثم من الذين جاؤوا مع المعز لدين الله حين قدم مصر، ولكن أخذ العزيز الآن بتجنيد عناصر تركية، وديلمية، وأرمينية على غرار الخلافة العباسية ودول الشام والمشرق، كما شرع بتشكيل فرق

---

(١) انظر المطلب الثاني.

سودانية، وسيكون لهذا انعكاساته على مستقبل الخلافة الفاطمية إذ سيقوم صراع بين جنسيات الجيش، وسيؤدي ذلك إلى إضعاف الخلافة وزعزعة كيانها [١].

(١) بالإضافة إلى مواد كتاب أخبار القرامطة يعد تاريخ دمشق لابن القلانسي مصدرنا الأساسي، ١-٩٣. انظر أيضاً تراجم، بشارة الإخشيدي، وجعفر بن فلاح، وجوهر الصقلبي، وجيش بن الصمصامة في اتعاظ الحنفا، ١/ ٩٣-١٠٠. عيون الأخبار، ٦/ ١٣٦-١٦٥.

المقالة الخامسة

الدور المصري الثاني وسقوط الخلافة الفاطمية

توفي العزيز سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م، فخلفه ابنه أبو علي المنصور بلقب الحاكم بأمر الله، وكان صبياً صغيراً، فأدار الدولة عددٌ من الرجال إلى أن بلغ من السن ما مكنه من مباشرة الحكم بنفسه، وما إن فعل ذلك حتى طبع العصر بطابعه الخاص، ولكثرة ما قام به من أعمال اتسمت بالتناقض الشديد ثم للنهاية التي آل إليها، اختلفت آراء الناس فيه في القديم والحديث، فهناك من رفعه إلى المنزلة الإلهية، وهناك من اتهمه بالجنون، ومن اتهمه بالطغيان، وفي أيامنا هناك من عدَّه لغزاً يستحيل حله، ومن عدّه ممثلاً للشر والكفر، ومن رأى فيه العدالة والاستقامة، فرفعه إلى منزلة أبي بكر وعمر.

وفي الحق أنَّ وصف كل مؤرخ أو باحث متأثر إلى أبعد الحدود بعقيدته الدينية، ذلك أن الحاكم اتبع سياسة دينية خاصة، وكان باعثه هو محاولة إنشاء عقيدة جديدة، أو بالحري تحقيق ما استهدفته الحركة الإسماعيلية في الوصول إلى إعلان قيامة عظمى تلغي جميع الديانات والشرائع القائمة، وتحرر الإنسان من ربقتها، وتكشف للإنسان صور حقائق العلوم والمعارف، إنما الآن ليس بوساطة «الإمام القائم عليه السلام سابع النطقاء» ذوي العزم، بل بوساطة «الإله الواحد»

الذي نزل من عليائه إلى الأرض، فتجلى لبعض الوقت ناسوتياً في شخصية عرفها الناس باسم الإمام الحاكم.

والكتابات الحديثة حول هذا الموضوع باتت كثيرة، ولا سيما في لبنان نتيجة للصراع الدائر هناك، ومهما يكن الحال فإنّ الحاكم أراد أن يجمع الناس على عقيدة واحدة طوعاً أو كرهاً، وبالنظر للمعارضة الشديدة التي لقيها ثم في سبيل نجاح حركته أراد أن يزلزل أركان دولته في مصر ومجتمعه، فكان يصدر الأوامر الغريبة ثم يلغيها ويصدر غيرها وهكذا، فلعله أراد إقناع الناس أنه وحده فعال لما يريد.

ولم يكتف الحاكم بالأخذ بهذه الوسيلة، بل عمد إلى الإكثار من سفك الدماء، ولا سيما دماء كبار رجالات الدولة، ولعله أراد من وراء ذلك إزالة رجال العقيدة القائمة لإحلال أتباع العقيدة الجديدة محلهم، ثم الإيحاء أنه هو وحده قادر على أخذ الحياة ممن يشاء، له الحق في ذلك كاملاً دون اعتراض....

وقد واجه الحاكم الكثير من الثورات كان أولها وأكبرها ثورة أبي ركوة الذي ادعى أنه هشام بن الوليد الأموي الأندلسي، وكان مسرح نشاطه بين قبائل مناطق الحدود الليبية المصرية الحالية، وكان على رأس هذه القبائل بنو قرة العرب، وقد تمكن الحاكم بعد جهود مضنية من القضاء على هذه الثورة، ثم واجه ثورة أخرى في فلسطين بين قبائل طيِّئ ، وقد جلبت طيِّئ أحد أشراف مكة، وأعلنته خليفة في الرملة، وتيسر أيضاً للحاكم القضاء على هذه الحركة، ثم واجه إثر ذلك جيشاً شعبياً في بلاد الشام تزعمه الأحداث، وقد نجح أحداث مدينة صور بزعامة رجل اسمه العلاقة الملاح في نزع زمام الأمور في بلدتهم من الفاطميين، وقام العلاقة فضرب نقوده الخاصة، وكانت ردة فعل الحاكم تجاه هذه

الثورة شديداً، إذ بعث أسطوله ضد صور، وأردفه بجيش بري، واستطاع الفاطميون أخذ صور، وأوقعوا الهزيمة بعلاقة وأسروه، وحمل إلى القاهرة، وهناك سُلخ هذا الثائر حياً، وصُلب بظاهر القاهرة.

ولمَّا شعر الحاكم باستتباب الأمور له، بدأ بتحركه الديني، فكان أن تخلى عن ملابسه المذهبة، ولبس الصوف، وتظاهر بالزهد، وسمح للدعاة بالقول إن الإله قد حل فيه، وأثار هذا القول ردات فعل عنيفة في العاصمة المصرية، ولا سيما في شطر الفسطاط والأقسام الأقدم بناء من القاهرة، وفي ذروة الصراع من أجل العقيدة الجديدة التي ستعرف بالدرزية، اختفى الحاكم من على مسرح الأحداث، وجاء هذا بشكل مفاجئ ولذلك أحدث دوياً كبيراً، وحار الناس في كشف غوامضه ومعرفة أسبابه وصنّاعه (١).

لقد جاء اختفاء الحاكم في سنة ٤١١ هـ/١٠٢١م وكان في أيام خلافته قد عين ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ولياً لعهده، ثم عزله وإثر وفاته أخرجت أخته ست الملك ابنه أبا الحسن عليّاً وأعلنته إماماً جديداً، وهرب عبد الرحيم بن إلياس، وأمسكت ست الملك بزمام الأمور، ومنح الخليفة الجديد لقب الظاهر لإعزاز دين الله، وفي هذا اللقب إعلان عودة إلى دين الظاهر بعد محاولة

---

(١) في مصادر التاريخ الفاطمي والمصادر المعاصرة وسواها مثل تاريخ دمشق لابن القلانسي ومرآة الزمان لسبط بن الجوزي موادٌّ غنيةٌ حول الحاكم، وجرى حديثاً نشر عدد من الكتب والرسائل الدرزية وهي ذات أهمية خاصة، ومن أشهر الدراسات العربية عن الحاكم كتابان الأول لعبد الله عنان والثاني لعبد المنعم ماجد، ولهما منهج متعارض، انظر أيضاً :

The Druze Faith by Sami Nasib Makarim, pp 14-24.

الخروج عنه إلى دين الباطن، وكان الظاهر يوم إعلان خلافته ما يزال صبياً، ولهذا استبدت عمته بكل شيء، وغلبته على أمره.

ومع توليه الخلافة أخذت مظاهر الضعف والتفكك تبدو جلية على الإمبراطورية الفاطمية، ففي بلاد الشام تحالفت قبائل الشام الرئيسة وهي: كلب، وطيِّئ، وكلاب على طرد الفاطميين من البلاد وإقامة دول عربية ثلاث: واحدة في دمشق لكلب، وثانية في الرملة لطيِّئ، وثالثة في حلب، وتزعم هذا التحالف: حسان بن المفرج الطائي في الرملة، وسنان بن عليان الكلبي في دمشق، وصالح بن مرداس الكلابي في حلب، واستطاع هذا التحالف تحقيق جزء كبير من برامجه، فطرد الجيوش الفاطمية، وأجلاها عن الشام، وأقام صالح بن مرداس الدولة المرداسية في حلب، ولكن حدث بعد حين أن توفي سنان بن عليان، فتصدع التحالف، مما شجع الخلافة الفاطمية على إرسال جيوشها إلى الشام، وفي وادي اليرموك، هزمت الجيوش الفاطمية صالح بن مرداس، وقتلته في معركة عرفت بمعركة الأقحوانة سنة ٤١٩هـ/١٠٢٩م ، لكن على الرغم من هذا النصر لم يستطع الفاطميون تثبيت أقدامهم طويلاً في الشام، وتوفي الظاهر وهو لا يزال في مقتبل العمر، فخلفه ابنه معد بلقب المستنصر، وكان هذا سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م، ويعدّ عصر المستنصر أطول عصور الخلفاء الفاطميين إذ امتد حتى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م.

وفي هذا العصر المديد ملكت الخلافة الفاطمية الكثير من الفرص الثمينة، فقد وصلت إلى ذروة توسعها ثم هوت بسرعة كبيرة، وذلك لأسباب داخلية وأخرى خارجية، ففي عصر المستنصر ضعف شأن الأسرة البويهية التي كانت تتحكم بخلفاء بغداد، ووجد في المشرق دول إسلامية سنية كبرى، ولمّا لم تستطع

الدعوة الإسماعيلية الوفاء بالوعود التي قطعتها على نفسها، خبت جذوة هذه الدعوة، وشهدت في الوقت نفسه بلدان العالم الإسلامي بعثاً سنياً بروح قوية، وكان مما ساعد على هذا البعث قيام الدولة الغزنوية في المشرق، لكن الفضل الأكبر في نجاحه بسرعة وفعالية يعود إلى السلاجقة الذين خلفوا الدولة الغزنوية في حكم خراسان.

والسلاجقة هم أسرة الزعامة لدى القبائل التركمانية، ففي بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر هاجرت مجموعات كبرى من التركمان من موطنها إلى خراسان، ثم إلى الجزيرة، وبلاد الشام، وآسية الصغرى، وإرمينية، ونجم عن هذه الهجرة نتائج خطيرة للغاية كان لها انعكاساتها على تاريخ العالم الوسيط أجمع، وعلى الخلافة الفاطمية بشكل خاص، وألم بالمناطق التي هاجر إليها التركمان دمارٌ كبيرٌ كما شهدت تغييرات سياسية واجتماعية ودينية وعرقية كبيرة.

ولم تحدث الاستفاقة السنية في المشرق فحسب، بل قامت في المغرب أيضاً، ففي ولاية إفريقيّة – تونس – أعلن حاكمها المعز بن باديس الصنهاجي استقلاله سياسياً وعَقَدِيّاً عن الفاطميين، وترافق هذا بالبطش بعناصر الإسماعيلية في ولايته، وتجديد قواعد العقيدة السنية، وجمع الناس كلهم على مذهب مالك، وحين حدث هذا كانت مصر تعاني مواسم جفاف متعاقبة وقُصُوراً في النيل، أفقر البلاد، وأصاب الناس بالمجاعة والوباء، لذلك عجزت الخلافة الفاطمية عن القيام بأي عمل مباشر ضد المعز بن باديس.

وكان في مصر الكثير من القبائل العربية جلها من هلال وسُلَيْم، وكانت هذه القبائل مصدر شغب وإخلال بالأمن، وحين قامت المجاعة وحدث الانفصال في إفريقيّة، شُجعت هذه القبائل، لا بل دُفعت تحت الإغراء من الخلافة الفاطمية

للزحف نحو تونس، وهنا حدثت الهجرة الهلالية الكبرى، وحققت هذه الهجرة غرض تدمير سلطة ابن باديس، لكنها لم تُرجع شمال أفريقيا إلى العقيدة الإسماعيلية، بل ساعدت بشكل حاسم على إكمال تعريب الشمال الأفريقي(١).

وفي المشرق، ومع تدفق التركمان على أرضه، زحفت جموعهم نحو العراق للسيطرة على بغداد وإنهاء النفوذ البويهي فيها، كما زحفوا على الجزيرة وبلاد الشام، وأثّر هذا في كل من التركمان أنفسهم وفي القوى السياسية والعربية لهذه المناطق، وقامت تحالفات متنوعة مع العديد من الخصومات، كما برز عدد من المغامرين ولا سيما بين صفوف بقايا الجند البويهي، وكان من أبرز هؤلاء رجل عرف بالبساسيري.

والبساسيري هو أبو الحارث أرسلان التركي، أصبح سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٣٣م الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد، وبعد هذا صار من أبرز شخصيات السلطة في بغداد وأكثرها قوة، وعرّضه هذا للتصارع مع غيره من رجالات بغداد مع البحث عن الحلفاء من الداخل والخارج، وحين رأى خصومه يتحالفون مع السلاجقة راسل القاهرة وعرض على الخلافة الفاطمية هناك إمداده بالمعونات والأموال حتى يزيل الخلافة العباسية من الوجود.

تجاوبت القاهرة مع ما عرضه البساسيري عليها، وفي سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، أرسلت الخلافة الفاطمية للبساسيري ما قيمته (٢,٣,٠٠,٠٠٠) من

---

(١) وتشكل آثار هذه الهجرة وأخبارها واحداً من محاور فلسفة ابن خلدون التاريخية الأساسية، ولقد لقيت عناية خاصة من قبل المستشرقين ولا سيما الفرنسيين أيام الاستعمار في المغرب الكبير، وكان الهدف القول إنَّ العرب دمروا الشخصية المغربية الأمازيغية مع الحضارة، وإنَّ البلاد ينبغي أن تعاد إلى أصولها، إلى غير ذلك من الدعاوى الحاوية للزيف والاختراع، التي تهاوت جميعاً بعدما كشف بُطْلانها.

الدنانير مع داعي الدعاة الفاطمي المؤيد في الدين، وبعد جهود مضنية واتت الفرصة البساسيري سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م فدخل بغداد، واعتقل الخليفة العباسي، إذ أودع في مدينة عانة على الفرات، وألغيت الدعوة العباسية وخطب الخطباء للخليفة المستنصر الفاطمي على منابر بغداد، وهكذا تحقق حلم الفاطميين في القضاء على الخلافة العباسية، لكن هذا كله كان سراباً، إذ لم يمض عامٌ واحدٌ على حكم البساسيري لبغداد حتى تمكن طغرلبك سلطان السلاجقة من قيادة جموع التركمان، فاستعاد بغداد وقتل البساسيري وأعاد الخليفة العباسي إلى داره(١).

وعقب هذا بوقت قصير تمكن التركمان من أخذ دمشق والانسياح في جنوب الشام وشماله، وقام لهذا مع إخفاق البساسيري ردات فعل كبيرة في القاهرة، حيث تمرد بعض ضباط الجند على الخليفة وأراد التحكم فيه، وتمكن في سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م أحد الضباط من الأصل الأرميني واسمه بدر الجمالي من الاستيلاء على مقاليد الأمور في القاهرة.

- **نهاية دور الخلفاء وتحكم القادة والوزراء:**

قبل هذا كان الخليفة الفاطمي يسيطر على جميع فروع السلطة في دولته وهي: (الإدارة، والدعوة والدعاة، والجيش)، وكان الوزير الذي يرأس قسم الإدارة هو الشخصية الأولى في الحكم بعد الخليفة، وكان داعي الدعاة يرأس الحزب الفاطمي، ويسيّر جيشاً هائلاً من الدعاة الموزعين في كلّ أنحاء العالم الإسلامي والهند، وكان قائد الجيش رئيساً للجند وثالثاً في الترتيب في حكم كان في الأساس مدنياً.

---

(١) سيتناول المطلب الثاني الحديث بالتفصيل عن قضية البساسيري.

لكن الآن – بعد سيطرة الجمالي على مقاليد السلطة- صار أمير الجيوش سيداً للبلد، يحكم على الخليفة، ويحجر عليه ويحمل من الألقاب: لقب الوزير، وداعي الدعاة، وذلك بالإضافة إلى لقبه كأمير جيوش، وغدا منصب أمير الجيوش منصباً وراثياً، وقد أدى هذا التسلط والتغيير إلى حالة عدم رضا، ومعارضة شديدة بين صفوف الحركة الإسماعيلية.

وبعد وفاة الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م واجه الأفضل بن بدر الجمالي – الذي ورث منصب أبيه، فصار أميراً للجيوش وداعياً للدعاة – أمر اختيار خليفة جديد، كما واجه عدداً من المسائل الأخرى نجمت في الأساس عن تملك التركمان لبلاد الشام، وعن تعرض هذه البلاد لغزو جديد جاء من أوربا الغربية وعرف بالغزو الصليبي.

وكان أمام الأفضل بن بدر الجمالي «نزار الابن الأكبر للمستنصر»، وكان مُعيناً لولاية عهد أبيه، وكان أمامه أيضاً أخوه الأصغر «المستعلي»، وكان حدثاً دون مساندة أو جماعة، فاختاره أمير الجيوش، وسماه إماماً جديداً، وصاهره على أخته (أي أخت الأفضل)، وهرب نزار إلى الإسكندرية وقام بثورة هناك، لكن قوات أمير الجيوش تمكنت من ملاحقته والقضاء عليه وعلى حركته.

وأدى اختيار المستعلي إلى انشطار الدعوة الإسماعيلية إلى قسمين، فقد رفض الإسماعيليون في المشرق – وكذلك القسم الأكبر من إسماعيلية بلاد الشام – الاعتراف بالخليفة الجديد، وقامت بين صفوفهم دعوة جديدة أسسها حسن الصباح في المشرق، وبنى أركانها في قلعة ألَمَوت، كما استولى على عدد من القلاع كان من أشهرها قلعة لمسر، وأبتدع حسن الصباح طرقاً جديدة لنشر دعوته، واعتمد الاغتيال السياسي بطعن الخصوم حتى الموت، بالسكاكين، وقد عرفت دعوته في

الشرق باسم الباطنية، وقد تمكن أتباع حسن الصباح من الاستيلاء على عدد من القلاع المهمة في بلاد الشام، ومارسوا هناك دوراً بالغ الخطورة، وكان اسمهم في بلاد الشام الحشيشية، وهي كلمة غير معروفة الأصل حتى الآن، إنما انتقلت إلى اللغات الأوروبية لتعني الاغتيال.

ذلك أن حشيشية الشام، وباطنية المشرق قاموا بعدد من عمليات الاغتيال الكبرى ضد قادة المسلمين السنة بشكل رئيسي وضد قادة الإسماعيلية المستعلية في مصر، كما نفذوا بعض عمليات الاغتيال ضد بعض قادة الصليبيين، وأثاروا جواً كبيراً من الرعب، كما فرضوا فروضاً (أتاوات) مالية كبرى على قادة المسلمين في المشرق والشام وعلى بعض قادة الصليبيين، حتى – تبعاً لبعض الروايات – على ملوك وأباطرة أوربا.

وبعد وفاة حسن الصباح خلفه أحد معاونيه وعرف باسم كيابزرك أُميد، وبتولي كيابزرك أُميد هذا صار حكم أتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة بيد أسرة وراثية، وبعد وفاة كيابزرك أُميد قام أحد أحفاده، وادعى لنفسه النسب الإسماعيلي، وصاغ قصة مفادها بأن نزار بن المستنصر خلّف طفلاً جُلب إلى قلعة أَلَمَوت سراً، وربي هناك وعاش وأنجب، ثم إنه عندما حان الوقت قام وأعلن نفسه إماماً إسماعيلياً جديداً، وترافق هذا الإعلان بطقوس كبيرة للغاية، عرفت بطقوس القيامة الصغرى.

ولقد استمر أتباع أَلَمَوت أقوياء يزرعون الرعب في كل مكان، ويبرهنون على عجز سلطات دول الإسلام تجاههم حتى قام الغزو المغولي لبلاد الإسلام، ففي طريقه لاحتلال بغداد قام هولاكو باحتلال قلعة أَلَمَوت ولمسر وبقية القلاع الإسماعيلية في المشرق، وقضى على مؤسساتهم السياسية، لكن أتباع العقيدة

الإسماعيلية ظلوا يعيشون في بقاع كثيرة، وفي العصر الحديث يتزعمهم أئمة يحمل الواحد منهم لقب الآغا خان، ويدّعون الانحدار من أئمة ألَمَوت.

ولمَّا أقام الأفضل بن بدر الجمالي المستعلي إماماً جديداً، قبل بهذا الاختيار عدد لا بأس به من الإسماعيلية، وبعد وفاة المستعلي صار ابنه الآمر إماماً جديداً، وفي سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م تمكن إسماعيلية ألَمَوت من اغتيال الآمر، وعقب اغتيال الآمر رفض الإسماعيلية المستعلية الاعتراف بالخليفة الفاطمي بالقاهرة، وتبنوا عقيدة تقول إن طفلاً رضيعاً للآمر يدعى الطيب كان قد فُقد، حيث استتر وتغيب، وكان تغيبه في اليمن لدى إحدى سيدات الأسرة الصليحية التي كانت تحكم اليمن، والطيب هو الإمام المنتظر، ولهذا لم يعد لدى المستعلية أئمة بعده، إنما صار المسؤول عن أمورهم داعي الدعاة، وقد نقل أتباع هذه الدعوة نشاطهم مع مركز أعمالهم إلى الهند، ويوجد الآن في الهند عددٌ لا بأس به من المستعلية، وتعرف طائفتهم باسم البهرة، وأفراد هذه الطائفة من أكثر أهل الهند ثروة، ويحمل داعي دعاتهم لقب سلطان، لهم لغتهم الخاصة وجامعتهم ومعاهدهم الثقافية.

وحكم بعد الآمر في القاهرة أربعة خلفاء من الأسرة الفاطمية، لكنهم لم يُعدوا أئمة، ثم كانوا بلا صلاحيات أو نفوذ داخلي أو خارجي، وضعفت مصر في زمنهم ضعفاً شديداً، ونجم ذلك عن توسع الصليبيين وعن تنافس القوى في القاهرة وصراعاتها من أجل منصب أمير الجيوش، وأراد بعض أفراد هذه القوى الاستعانة بمملكة القدس الصليبية، وعرف الصليبيون مصر وقدروها حق قدرها، فعملوا من أجل احتلالها، فتدخل نور الدين محمود بن زنكي، سيد الشام وبطل الإسلام زمن الحروب الصليبية، فمنعهم بجيش قاده أسد الدين شيركوه، وكان

صلاح الدين يوسف بن أيوب بصحبة عمه أسد الدين، كما أنه كان أبرز أمراء الحملة بعد عمه، وعقب وفاة أسد الدين حل محله صلاح الدين، وتسلم منصب الوزارة، وقام صلاح الدين في سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م – بناء على تعليمات تلقاها من نور الدين – بإلغاء الخلافة الفاطمية، وأعاد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية، ولم يؤد هذا الإلغاء إلى ردات فعل شعبية في داخل مصر، ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى أن العقيدة الإسماعيلية لم تتعد سيطرتها على مصر أطر السياسة، وكان عدد الإسماعيليين في مصر قليلاً ولا سيما بين المصريين، ذلك أن الحركة الإسماعيلية التفتت بعد سيطرتها على مصر إلى النشاط الخارجي، وأهملت الوضع الداخلي، وكان هذا من أعظم الأخطاء التي وقعت فيها [١].

---

(١) للاستزادة انظر، سهيل زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٩٦-١٢٤. تاريخ العرب والإسلام، ص ٣٢٥-٣٣٥.

المطلب الثاني

السلاجقة



توطئة

شهد التاريخ الإنساني عدداً من هجرات الشعوب والجماعات التي خرجت من موطنها الأصلي لأسباب سياسية أو اقتصادية... أو غير ذلك، نال بعضها ذكراً خالداً في التاريخ لما أحدثته هذه الهجرات من تغيرات على الأرض الجديدة دام أثرها طويلاً، أو لا يزال يدوم حتى الآن.

حملت هذه الشعوب المهاجرة معها عاداتها وتقاليدها وأهم العناصر التي ميزتها، ثم لما استقرت في الأرض الجديدة أخذت، أو اكتسبت منها ما يلزم للبقاء والتطور، وعلى سبيل المثال: في القرن السابع الميلادي خرج العرب من جزيرتهم، بعد أن أصبحت لديهم مهمة أو رسالة، اندفعوا بها إلى شرق الأرض وغربها، وخلال أعوام قليلة صبغوا أغلب أقاليم العالم المعروفة آنذاك بالصبغة العربية الإسلامية، وأسسوا دولاً وحضارات طُبعت بالطابع العربي، لغةً وعلماً وحضارة، على الرغم أن الشعب في معظم الحالات لم يكن عربياً.

قبل ذلك بقرون غيّرت الشعوب الجرمانية التي هاجرت إلى أوربا وجه أوربا السياسي حتى الاقتصادي، وترتب على هذه الهجرة في البداية سقوط الإمبراطورية الرومانية وازدياد سلطة الكنيسة، ثم نشوء نظام الإقطاع، وأما

آثارها على المدى البعيد فقد أدت هذه الهجرات إلى نشوء الدول القومية التي نراها اليوم في أوربا.

وفي أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي خرجت الشعوب التركية الغُزّية من مواطنها في سهوب تركستان، فاجتاحت غرب آسية وشرق أوربا تحت قيادة السلاجقة الذين شكلوا إحدى القبائل التركية المعروفة آنذاك، وستكون دراسة هذه الهجرة وما ترتب عليها من نتائج سياسية واجتماعية موضوع هذا المطلب.

فهجرة التركمان إلى خراسان والعراق، والجزيرة، والشام، وآسية الصغرى مع الاجتياح السلجوقي هو حدث في غاية الخطورة، لأنه افتتح مرحلة جديدة متباينة عما سبقها، ليس فقط في تاريخ الإسلام ودياره، وإنما في تاريخ المسيحية والإمبراطورية البيزنطية مع عالم العصور الوسطى، فمنذ هذا القرن بدأت أجزاء من العالم الإسلامي تخضع بصورة متوالية تحت الحكم التركماني السلجوقي حتى جاء وقت وجد فيه حكام أتراك الأصل في مناطق نائية عن موطنهم الأصلي كالجزائر، والبنغال، واليمن أحياناً، ولقد استمر هذا وعاش طويلاً، فالشام مثلاً حكمها الترك منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى أوائل القرن الماضي.

والتغيرات التي أحدثها قدوم التركمان مع الاجتياح السلجوقي – كما سنرى– هي تغييرات هائلة تناولت جميع جوانب الحياة في العالم الإسلامي.

وبالنسبة للمسيحية والإمبراطورية الرومانية الشرقية، لقد تمكن التركمان من تحقيق ما أخفق الفرس والعرب من قبل في تحقيقه، ألا وهو احتلال الأناضول، ومن ثم التمهيد للقضاء على بيزنطة وإحلال تركية محلها.

المقالة الأولى

هجرة الأتراك الغزّ
واستيلاء السلاجقة على خراسان

- التُــرك:

إن الموطن الأصلي للشعوب التركية هو سهوب ما وراء النهر، ولقد عرف الجغرافيون العرب هذا الموطن باسم تركستان (ترك، ستان = أرض الترك)، وعدوا تركستان جزءاً من منطقة بلاد ما وراء النهر، وطبعاً عنوا بالنهر نهر جيحون، الذي أصبح يعرف منذ العصر المغولي باسم (أموداريا)، وبعرف الجغرافيين العرب شملت منطقة ما وراء النهر جميع الأصقاع الواقعة بين جيحون والصين، وقد قطنت من قبل البداة الأتراك والمغول[١].

كان معظم سكان السهوب الواقعة في أعالي جيحون ووراءَه من أصل تركي أو مغولي، ولقد قامت في بلاد ما وراء النهر مدن كثيرة ذات نظام يشبه أنظمة «دول المدينة»، كما قامت فيه عدة إمبراطوريات، وكان من السهل دائماً

---

(١) مختصر كتاب البلدان ،٣٢٩، المسالك والممالك لابن خرداذبه، ٣٦، صورة الأرض لابن حوقل، ٣٨١، الأعلاق النفيسة، ٢٩٥.

Hudad al-Alam. 94, 99. Turkistan، 64-65, The Lands of the Eastern caliphate. 433-4

على شعوب ما وراء النهر التسلل والتغلغل في السهول الإيرانية أو الهندية أو الهجرة إليها، وهكذا كان سكان التخوم الشرقية لخراسان دائماً ممزوجين بالأتراك، ونجد صدى هذا عند الجاحظ في قوله:

«إن الخراساني والتركي أخوان، وإن الحيز واحد... وإن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي، ولا كالاختلاف بين الرومي، والصقلبي، والزنجي، والحبشي، فضلاً عما هو أبعد جوهراً وأشد خلافاً، بل كالاختلاف ما بين المكي والمدني، والبدوي والحضري، والسهلي والجبلي، وكالاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي...»[١].

ولقد كان لمراكز الحضارة والحياة المستقرة في بلاد ما وراء النهر صلات وثيقة مع البداة الأتراك سكان السهوب، ليس جغرافياً فحسب، وإنما اقتصادياً، وحضارياً، وسياسياً، وعند قيام الفتح الإسلامي كانت بلاد ما وراء النهر ممزقة سياسياً، وكانت المدن ومراكز الاستقرار فيها تحكم من قبل الدهاقين أو التجار، ولقد قاومت هذه العناصر الحاكمة دائماً – بسبب مصالحها– أيَّ تدخل خارجي مباشر وأيَّ محاولة لتبديل الأوضاع السائدة، واهتمت بتأمين سلامة طرق القوافل، واستمرار الحركة التجارية، وتدفق البضائع والأرباح، وحققت هذا بإقامة علاقات طيبة مع سكان السهوب البداة ولمَّا كان يقوم أي تهديد أو عدوان خارجي، أو كانت تحدث أي مشاكل داخلية كان هؤلاء الحكام من التجار والدهاقين يستصرخون البداة الأتراك ويعتمدون على مساعدتهم[٢].

---

(١) رسالة في مناقب الترك، ٥–٦.

(٢) تاريخ بخارى، ١٩– ٢١.

قبل الشروع في الحديث عن وصول الترك إلى الجزيرة والشام، ثم عن الاجتياح السلجوقي والدويلات التي قامت بعد هذا الاجتياح، لا بد من ذكر بعض ما يتعلق بأصلهم وعاداتهم قبل تبنيهم للإسلام، وفي هذا المجال يشكل ما نقله ابن العديم من كتاب ملك نامه،[١] وما كتبه محمود بن الحسين الكاشغري في كتابه ديوان لغات الترك [٢]، مصدران رئيسيان يمكن الاعتماد عليهما في تحصيل بعض المعلومات شبه الأسطورية عن الترك قبل تبنيهم للإسلام، من ذلك ما يتعلق ببعض العقائد والعادات، فمن العقائد على سبيل المثال: «أن الترك تزعم أن أرواح الموتى تجتمع في كل سنة ليلاً، فتدخل الأمصار التي كانت فيها حياة أجرامها وتزور أهاليها، فمن صادف ذلك الدوي ليلاً مات».

ومن بعض الأخبار الأخرى نتلمس آثار عقائد طوطمية وشامانية لدى الأتراك والمغول:

«ذلك أن الترك أخذت أسماء اثني عشر صنفاً من الحيوان، وسمت به اثنتي عشرة سنة»، «والترك تزعم في كل سنة منها حكمه ويتفاءلون بها، فتقول: إذا كانت سنة أوديلي أي سنة البقر تكثر فيها الحروب لما أن في البقر نطاحاً، وإذا دخلت سنة الدجاج يكثر فيها الطعام، ولكن يقع بين الناس التشويب.... وإذا دخلت سنة التمساح، يكون الأمطار والخصب لأن مسكنه الماء، وإذا دخلت سنة الخنزير يكثر فيها البرد والثلج والفتن....»، ولقد كانت غالبية أسماء رجالات

---

(١) كتاب ملك نامه لمؤلف مجهول، صنفه للأمير ألب أرسلان قبل أن يصبح سلطاناً للسلاجقة، أتى فيه على أخبار الترك معتمداً في ذلك على مصادر تركية موثوقة، لكن الكتاب بحكم المفقود، وما وصلنا منه عبارة عن نقول أوردها ابن العديم في كتابه بغية الطلب.

(٢) هو أول معجم عربي تركي، وضعه سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٣٧م.

التركمان التي وصلتنا هي أسماء حيوانات من جوارح الطير وغيرها من ذلك: جغري أي الصقر، وطغريل وهو طائر أعلى منزلة من الصقر، وأرسلان أي أسد....

ويبدو من كتابات الجغرافيين والرحالة العرب، ومن أخبار بعض المؤرخين [١]، أن الترك كانوا في القرن العاشر الميلادي شامانيين، ولعل في طبيعة التطور الذي أصاب الصوفية الإسلامية بعد قيام الإمبراطورية السلجوقية دليل على هذه الشامانية، فقد كان لمعتقدهم الشاماني أثر كبير في التصوف الإسلامي، ومن المعروف أن الشامان هو كاهن أو رجل دين، وهو منجم وطبيب وساحر، وله القدرة على القيام ببعض الخوارق، ولا تزول هذه القدرة بزوال الحياة، بل تنتقل معه إلى القبر، وما يلحظه الباحث أن الصوفي أصبح بعد القرن الحادي عشر الميلادي ليس رجل دين فحسب، إنما يفهم السحر ويمارسه وينبئ بالمستقبل، ويشفي من الأمراض، وله القدرة على فعل الخوارق – الكرامات – وتستمر هذه القدرة حتى بعيد الوفاة[٢].

---

(١) انظر الكاشغري، ١/٢٣٨، ٢٩٠، ٢١، ٣٤٦-٣٤٧، ٣٥٢، ٣/٣٧١، ٢٧٥، ٢٨٢، مختصر كتاب البلدان، ٣٢٩، الكامل، ٨/٩٨

The Ghaznavide, 205

(٢) هذه مسألة مهمة تحتاج إلى مزيد من البحث، وكتاب Mircea Elide بالفرنسية والمترجم إلى الإنكليزية باسم:

Shamanism Archaic Techniques of Ecstasy, London1964 .

هو خير كتاب يعالج الديانة الشامانية معالجة علمية جديدة، وقراءة هذا الكتاب قد تساعد على فهم بعض مشاكل التاريخ الفكري للإسلام وحلّها، كما تساعد أيضاً على فهم تاريخ المغول الذين تحركوا بزعامة جنكيز خان.

وأخيراً يمكن من الكاشغري تحصيل بعض المعرفة فيما يتعلق بعادات الصيد عند الـــترك، وأمور القتال لديهم مع إيلاء استخدام القوس أهمية خاصة، ثم ما يتعلق بالخمر وطرق تحضيره الخاصة، كما أن هناك بعض الأساطير ذات الصبغة الإخبارية العالمية مثل تلك التي تتعلق «بالإسكندر ذي القرنين» وغير ذلــك[١].

ولما بدأت حركة الفتوح الإسلامية، ولا سيما في العصر الأموي، اصطدمت بالترك الذين وقفوا بشراسة في وجه هذه الحركة، وحالوا لزمن بينها وبين التقدم، لكن العلاقة لم تقتصر على الحرب والمعارك، بل قامت حركة تجارية نشطة، ويعود إلى التجار فضل نقل بعض صور الحضارة الإسلامية مع الدين الإسلامي، إلى أوساط البداة سكان السهوب [٢]، ونتيجة لوجود العلاقات الحربية والسلمية والاقتصادية مع الترك فقد توفر لدى المسلمين، ولا سيما منذ القرن العاشر بعض المعلومات عن قبائل وجماعات الترك الذين كانوا عبارة عن «عدة أجناس وعدة ممالك... ولكل جنس مملكة منفردة، ويحارب بعضهم بعضاً، وليس لها منازل ولا حصون، وإنما ينزلون القباب التركية المضلعة، ومساميرها سيور من جلود الدواب والبقر، وأغشيتها لبود، وهم أحذق قوم بعمل اللبود، لأنها لباسهم، وليس بتركستان زَرْعٌ إلا الدخن، وإنما غذاؤهم ألبان الحجور، ويأكلون

---

(١) الكاشغري، ١/ ٤١ -٤٢، ٥١، ٧٦-٧٧، ٨٣-٨٥، ١٠١-١٠٣، ١٦٩، ٣٠٣، ٣/ ٣٠٤-٣٠٧.

(٢) انظر أحسن التقاسيم ٣٢٥-٣٢٦.

Hudad al-Alam، 111-120

Turkistan، 235-8، 255-6 Four studies on the History of central Asia، 1، 19-20.

لحومهم، وأكثر ما يأكلون لحوم الصيد، والحديد عندهم قليل، وهم يعملون سهامهم من عظام»[١] .

وأهم المجموعات التركية التي عرفها العرب دعوها باسم التغز أغز، أو الأغز وبشكل عام باسم الغُزّ، فهم عرب الترك.... وهم رماة الحدق[٢] ويبدو أن الغُزّ كانوا في القرن العاشر متحدين سياسياً، لذلك كانوا أقل شأناً من الناحية السياسية من غيرهم من المجموعات التركية.

قبل أن يتحول الترك إلى الإسلام كانوا أعدى أعداء هذا الدين، ولكن ما إن تبنوه حتى أصبحوا حُماته المخلصين، لذلك إن من العلامات المميزة لتبني التركمان للإسلام كمال هذا التبني، إذ أسلموا أنفسهم كلياً للإسلام، فتنازلوا عن ماضيهم الساذج، وعاشوا كلياً مع الدين الجديد، ومرد هذا ربما بسبب أنهم أخذوا الإسلام وتبنوه في أرض وأجواء الصراع بين الإسلام ومن يخالفه على الحدود الشرقية لبلدان الخلافة العباسية، وربما أيضاً بسبب أنهم منذ لحظة اعتناقهم للدين الإسلامي انخرطوا بقتال مرير ضد بني جلدتهم من الترك الذين لم يدخلوا في الإسلام، وهكذا نسي التركمان ماضيهم وأغرقوا شخصيتهم القومية في الإسلام، الأمر الذي لم يفعله العرب ولا الفرس، فليس لدى التركمان ذكريات «جاهلية تركية تعدل بأي حال، أو تشابه بأي محتوى الذكريات المجيدة لوثنيات الجزيرة العربية، أو مفاخر الأمجاد التليدة الماضية للفرس، وما عدا بعض المقطوعات الشعرية الشعبية، وبعض قصص للأنساب ذات مسحة أسطورية».

---

(١) الأعلاق النفيسة، ٢٩٥.

(٢) مختصر كتاب البلدان، ٣٢٩، المسالك والممالك لابن خرداذبه، ٣٦، الأعلاق النفيسة ٢٩٥.

فإن حضارة التركمان وثقافتهم وآدابهم وديانتهم التي كانت قبل الإسلام قد جبها الإسلام جميعاً فَنُسيت، وليس من الغلو والمبالغة القول: إنه لم يوجد بين الأمم التي اعتنقت الإسلام من شابه التركمان في إيمانهم المخلص به، لهذا ليس عجباً كما سنرى أن استطاع التركمان الإسراع في إحياء قوة الإسلام السني، وإقامة سيطرته ونشرها إلى أجزاء بعيدة، ولقد صنعوا هذا ونجحوا به في الوقت الذي هدد الإسلام فيه مع الحضارة العربية الإسلامية بالزوال كلياً من الشام والجزيرة ومصر، وكان التهديد داخلياً نجم عن نشاط بعض الفرق غير السنية، وخارجياً نجم عن مجيء الصليبيين الذين قدموا من أوربا الغربية الكاثوليكية، ومفيد هنا أن ننبه إلى أن النجاحات التي حققها التركمان كانت باهظة التكاليف من النواحي الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والثقافية، والسياسية، حتى الدينية.

وصحيح أن الخلافة العباسية اعتمدت منذ القرن التاسع الميلادي على تجنيد العبيد الترك في جيوشها، وأنه قد ظهر من بين صفوف هؤلاء العبيد عدد كبير من الحكام والقادة، تمكن بعضهم من التحكم بالخلافة، في حين نجح بعضهم الآخر في إقامة دول مستقلة كما فعل آل طولون ثم الأخشيد في مصر، والغزنويون في أفغانستان الحالية، لكن هؤلاء لا يمكن عدهم ممثلين عن العنصر القومي التركي، فهؤلاء العبيد جلبوا إلى العالم الإسلامي وهم أطفال، وعلى الأرجح أنهم اكتسبوا عادات المجتمع الذي ربوا فيه وتقاليده، وأنهم قد نسوا أو تخلوا عن معظم – إن لم يكن عن كل– تقاليد مواطنهم الأصلية وأهليهم، ويمكن النظر إليهم من زاوية وضع الخلافة العباسية المتفكك آنذاك والضعيف، فضلاً عن مشاكلها والدور الذي شغله الجند والقوى والجماعات العسكرية في حياة هذه الخلافة.

- **أوضاع خراسان وبلاد ما وراء النهر قبيل قيام السلطنة السلجوقية :**

إنه لضروري قبل الاسترسال في الحديث عن الغُزّ أن نبين بشكل موجز الوضع السياسي في منطقة خراسان، وبلاد ما وراء النهر في القرن العاشر وبدايات القرن الحادي عشر.

لمَّا ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد قامت في كثير من المقاطعات دول متفاوتة من حيث القوة والحجم والعظمة، كلها دان اسمياً بالطاعة لخليفة بغداد العباسي، وأهم الدول التي قامت في المشرق في خراسان وبلاد ما وراء النهر: الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ/٨٢١-٨٧٣م)، والدولة الصفارية (نحو ٢٥٣-٢٩٨هـ/٨٦٧-٩١١م)، والدولة السامانية (٢٠٤-٣٩٥هـ/٨١٩-١٠٠٥م)، والدولة الخوارزمية (٣٠٥-٤٠٧هـ/٩٩٥-١٠١٧م)، والدولة القراخانية (٣٨٢-٦٠٧هـ/٩٩٢-١٢١١م)، والدولة الغزنوية (٣٦٦-٥٨٢هـ/٩٧٧-١١٨٦م).

والذي يعنينا هنا مباشرة هو الحديث عن الدولة السامانية، ثم الغزنوية والقراخانية.

- **الدولة السامانية:**

كان (سامان خداه) جد الأسرة السامانية دهقاناً من بلخ فر إلى مرو، واعتنق الإسلام فيها على يد أسد بن عبد الله القسري والي خراسان المتوفَّى في بلخ سنة ١٢٠هـ /٧٣٧م، وقد أكرم أسد سامان خداه، وحماه، «وقهر أعداءه وأعاد إليه بلخ»، ولما رزق سامان خداه بغلام أسماه أسداً اعترافاً بفضل راعيه، ولا علم لنا بشيء عن حياة أسد هذا غير أن أبناءَه، وهم نوح، وأحمد، ويحيى، وإلياس اشتركوا في إخماد ثورة رافع بن الليث الصفاري، ثم دخلوا في خدمة

الخليفة العباسي المأمون، وكسبوا عطفه، وكافأهم «بأن عيّن نوحاً والياً على سمرقند، وأحمد على فرغانة، ويحيى على الشاش، وإلياس على هراة»، وبهذا وطد السامانيون أنفسهم وحصلوا على مكانة طيبة في منطقة ما وراء النهر ، والتي غدت تحت حكمهم بالوراثة، فقد استطاع أحمد بن أسد الذي امتدت حياته إلى ما بعد أخوته الثلاثة أن يورث السلطة لأبنائه، ففي سنة ٢٦٣هـ/٨٧٥م قام الخليفة المعتمد بتعيين نصر بن أحمد والياً على كل بلاد ما وراء النهر، وبهذا التعيين قامت الدولة السامانية فعلاً، وغدت منطقة ما وراء النهر الغنية قلباً لها، **وإلى هذه الحقبة يرجع خضوع بلاد ما وراء النهر كلها لسلطان الإسلام**، كما أخذ السامانيون على عاتقهم أمر حماية الأراضي الإسلامية من غزوات بداة السهوب الأتراك، وتأمين استمرار التجارة وتدفق البضائع، ونجحوا في تحقيق ذلك بواسطة الدفاع: بإقامة الأربطة في الثغور وبوساطة الهجوم، وبالقيام بحملات على مناطق الأتراك داخل السهوب، وبذلك أضعفوا تجمعات الأتراك ومدوا نفوذهم وهيبتهم إلى داخل السهوب، وهكذا أمّن السامانيون الاستقرار السياسي والاقتصادي لبلادهم، مما مكنهم بعد ذلك من الالتفات نحو خراسان، ومنذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي تدفق من أراضي السامانيين سيل من العبيد الأتراك على بغداد وغيرها من مراكز الإسلام وعواصم دياره، ولقد استخدم غالبية هؤلاء العبيد في جيوش خلفاء بغداد وحكام الدويلات.

ولقد كانت مدينة بخارى مركز الدولة السامانية، وفي بلاط السامانيين في بخارى عاشت الثقافة العربية الإسلامية مزدهرة، ولكن الأهم من هذا هو أن هذا البلاط شهد بعث اللغة الفارسية مع الثقافة الإيرانية وأسهم في نموها، ففي زمن السامانيين بدأ الفردوسي بنظم الشاهنامه ملحمة فارس القومية.

في سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م ربح إسماعيل بن أحمد ثقة سلطات بغداد والخليفة، وذلك بعد أن هزم عمرو بن الليث الصفار، لذلك عين والياً على خراسان بالإضافة إلى بلاد ما وراء النهر، وبهذا غدا السامانيون قوة هائلة تحكم أراضي شاسعة تمتد من جهة أولى إلى الأراضي والممتلكات البويهية في العراق، ومن جهة أخرى إلى أطراف أفغانستان المتصلة بحدود الهند، ولما كان السامانيون سُنّة وكان البويهيون شيعة، وبسبب هذا الخلاف في العقيدة، مع تضارب المصالح والمطامح بالتوسع فقد كان لا بد من أن تصطدم قوى الطرفين، فتبادلوا النصر والهزيمة، وهذا أمر لا يعنينا الحديث الآن عنه هنا.

وفي منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بدأت علامات الضعف والتفتت تظهر على الإمبراطورية السامانية، ولقد بدا هذا في عدد من ثورات وانقلابات البلاط التي قادها بعض القادة العسكريين، لهذا لم يكن صعباً أن انفصلت خراسان عن سلطة بخارى، ثم لم يكن صعباً على الغزنويين والقراخانيين الإجهاز على الدولة السامانية ووراثتها: القراخانيون فيما وراء النهر، والغزنزيون في المناطق الأخرى[١].

وما يهمنا هنا من الدولة السامانية هو العلاقة بينها وبين الترك فيما وراء النهر، فمنذ أواخر القرن الثالث والنصف الأول من الرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين بدأت الحملات السامانية تُرسل إلى السهوب لإخضاع الترك هناك، وفي هذا الصدد يمكن أن نُشير إلى أعمال نوح بن أسد الساماني في

---

(١) تاريخ بخارى، ٨٦-٨٧، ١٠٥-١٤٩،

Four studies on the History of central Asia 1،12- 13، 21. Turkistan، 222-45. The Cambridge History of Iran V. 10-11. The Ghaznavids، 27-34. The Islamic Dynasties، 101-102.

فرغانة، كما أنه في سنة ٢٢٥هـ/٨٤٠م أخضع اسفيجاب لسيادة السامانيين، وفي سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٣م اعتلى عرش السامانيين إسماعيل بن أحمد، وفي أول سنة من حكمه أخضع طراز، وحول كنيستها إلى مسجد، كما أخضع أشروسنة، وأخضع غيرها من بلاد الأتراك، ولما هاجم الأتراك بلاد السامانيين سنة ٢٩١هـ/ ٩٠٤م صدوا هجومهم، وبعد أعوام أسروا ابن خاقان الترك، ثم بدأ السامانيون يتمتعون بنفوذ كبير في بلاد الأتراك في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي.

وفي ذلك الوقت بدأت أعداد كبيرة من الترك الرحل ترداد الثغور الإسلامية بغرض المتاجرة، أو لحاجتهم الدائمة لمنتجات الأراضي الزراعية، وإلى جانب هذا هجرت جماعات من الغز أوطانها لسببٍ أو لآخر، ونزلت بموافقة الحكومة السامانية أراضي ما وراء النهر الصالحة للمراعي لقاء التعهد بحماية الحدود ضد غارات الآخرين، فنزل التركمان الغز الكورة الواقعة إلى الغرب والجنوب الغربي من اسفيجاب، وثمة فرع آخر من التركمان برئاسة سلجوق انفصل عن بقية القبيلة في حوض سيحون الأدنى (سيرداريا)، وتلا ذلك أن اعتنق سلجوق الإسلام، وحرر سكان مدينة جند المسلمين من دفع الخراج للكفار، وقد توفي سلجوق ودفن في جند، ومن الواضح أن خلفاءَه لم يستطيعوا العيش في وفاق مع المسلمين الذين حرروهم، فغادروا المنطقة متجهين صوب الجنوب، وسنرى في القرن الحادي عشر حاكماً مسلماً على جند في حالة عداء شديدة مع أحفاد سلجوق، لذا سيفسح السامانيون المجال لأحفاد سلجوق، حيث أنزلوهم بنواحي نور، ويرجع حمد الله قزويني (في كتابه تاريخ كزيدة) هذا

الحادث إلى سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، وسنرى أن السلاجقة بعد هذا المعروف وقفوا طرفاً في النزاع مع الجيران إلى جانب السامانيين.

- الدولة القراخانية:

لا يوجد بين أيدينا ما يلقي الضوء على أصل القراخانيين الذين سقطت بأيديهم أراضي الدولة السامانية فيما وراء النهر، والمعروف عنهم أنهم كانوا من الأتراك الذين اعتنقوا الإسلام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وارتبط تاريخهم قبل إسلامهم بقليل بمدينة كاشغر التي كانت مقراً لخاناتهم (أردوكنت = أي مقر السلطان)، وحسب آراء بعض المؤرخين هم من زعماء القرلق إحدى المجموعات التركية المشهورة آنذاك، في حين يقول بعض المؤرخين إِنهم من الطغز أغز، أو اليغما الذين احتلوا كاشغر أنذاك.

تعددت الروايات حول ذلك بسبب الغموض الذي أحاط بأصلهم، والذي يعنينا هو تاريخهم الفاعل على مسرح الأحداث منذ إسلامهم، فتشير المصادر إلى أن «ستوق بغراخان« المتوفَّى سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م، هو أول خانات القراخانيين الذين اعتنقوا الإسلام، وقد تسمى باسم عبد الكريم، وربما قبل ذلك أو بعده دخلت جموع كثيرة من الأتراك الشرقيين في الإسلام، فابن الأثير، ومسكويه يتحدثان عن سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م على أنها سنة فاصلة في تاريخ الإسلام في تركستان، ويذكران أنه في تلك السنة اعتنق عدد كبير من القبائل التركية الإسلام، ويتحدثان

عن مئتي ألف خيمة «خركاه»[1]، أي ما يقارب مليون شخص، وربما كان المراد بهم القراخانيين.

بعد ذلك قرر زعيم الأتراك القراخانيين المسلم «بغراخان هارون بن موسى» حفيد ستوق «أو عبد الكريم»، مهاجمة أملاك السامانيين في ما وراء النهر، وعندما قام بذلك لم يجد مقاومة تذكر، لأنه تلقى دعوة من الدهاقين فيما وراء النهر للقدوم لتخليصهم من تسلط السامانيين، وكذلك رحب رجال الدين بقدومه.

حمل هارون هذا لقب «شهاب الدولة وظهير الدعوة»، ونقش هذا اللقب على السكة سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م، وفي وقت ضعف الدولة السامانية قرر مهاجمتها، فاتفق سراً مع والي خراسان الساماني أبي علي أحمد بن محمد على اقتسام أملاك السامانيين، فتكون بلاد ما وراء النهر من نصيب بغراخان هارون، وتطلق يد أبي علي في جنوب نهر جيحون[2]، فتقدم إلى اسفيجاب وسمرقند، ودخل بخارى عاصمة السامانيين سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م، لكن هارون هذا ما لبث أن انسحب إلى سمرقند وتوفي بعدها بقليل، وعلى الرغم من ذلك أعاد القراخانيون الكرة إلى بلاد ما وراء النهر.

كان أمير السامانيين آنذاك نوح الثاني بن منصور، آخر حكام السامانيين في بخارى، وأمام خطر القراخانيين استنجد للدفاع عن ما وراء النهر بقائده سبكتكين، وسبكتكين هذا له قصة طويلة، فأصله من الترك الوثنيين الذين أسروا في إحدى المعارك، ونقل إلى نيسابور، وهناك اشتراه حاكمها ألبكتين الذي

---

(١) الكامل في التاريخ، ٨/ ١٩١. تجارب الأمم، ٢/ ١٨١، بارتولد: تركستان، ص ٣٩١، ٣٩٩.

(٢) الكامل في التاريخ، ٨/ ٢٠٠، ٩/ ٣٧. بارتولد: تركستان، ص ٣٩٤.

أعجب بأخلاقه وصفاته ورقاه في المناصب، وتقلبت به الأيام حتى غدا حاكماً على غزنة سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م، ونال شهرة واسعة من الانتصارات التي حققها في الهند وأفغانستان، وأسس الدولة الغزنوية.

والآن ظهر سبكتكين هذا في ما وراء النهر للتصدي للقراخانيين امتثالاً لأوامر سيده نوح الثاني، فقاتل القراخانيين وانتصر عليهم سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٤م، لكنه لما كرروا هجومهم على أراضي الدولة السامانية بعد سنتين لم يقاتلهم سبكتكين، بل اتفق معهم، واقتسموا أملك الدولة السامانية على أن تكون مفازة قطوان هي الحدود الفاصلة بينهما، وهكذا احتفظ القراخانيون بحوض سيحون(١).

ثم استمر زحف القراخانيين باتجاه الغرب حتى تمكن أحد حكامهم وهو أرسلان خان من هزيمة بقايا السامانيين سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، واستولى على بلاد ما وراء النهر بكاملها، ثم أخفقت محاولات السامانيين لاستردادها، وعلى هذا أسس القراخانيون إمبراطورية شاسعة فيما وراء النهر على أنقاض الدولة السامانية، وشكل نهر جيحون حداً فاصلاً لها مع الدولة الغزنوية في خراسان، هذا وعرفت دولتهم أيضاً باسم الإيلك خانية، بسبب تلقب ملوكها بلقب إيلك، أي نائب الخان، أو الخاقان.

كان لإسلام القراخانيين وفتح بلاد ما وراء النهر نتائج مهمة في تاريخ الحضارة الإسلامية، فقد ترك القراخانيون الأبجدية الإيغورية، واستخدموا عوضاً عنها العربية، وعملوا على نقل الحضارة الإسلامية إلى حدود الصين، وكان الأهم من ذلك أن فُتح المجال أمام الأتراك الشرقيين للظهور أكثر على مسرح الأحداث الإسلامي ليكونوا جند الإسلام وسادته في القرن الخامس الهجري/

---

(١) بارتولد: تركستان، ص ٤٠١.

الحادي عشر الميلادي، ونعني بذلك السلاجقة، فجموع هؤلاء كانوا كما ذكرنا قد وفدت على ما وراء النهر أيام الدولة السامانية، فسُمح لهم بالإقامة في المجرى الأدنى من نهر سيحون، أو في المناطق الواقعة إلى الغرب والجنوب من اسفيجاب، وهناك ازدادت أعداد من اعتنق الإسلام منهم، ثم انفصل فريق عنهم بزعامة سلجوق بن دُقاق مع أتباعه الغُزّ، وساروا إلى جند، وهناك حرروا مسلمي المدينة من دفع الجزية للكفار، ومات سلجوق في جند، ودفن فيها، وبعد أن أساء عامل جند معاملة قبيلته، رحلوا، فأنزلهم السامانيون قرب مدينة نور سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، وفي القرن الخامس الهجري عبروا جيحون ودخلوا إيران جماعات متفرقة، ثم سيطروا على إيران، بعد ذلك استداروا نحو الشرق ودخلوا ما وراء النهر وانتزعوها من القراخانيين، ثم استولوا على خوارزم، وبلغ نفوذهم أقصاه في عهد سلطانهم ملك شاه(١).

- **الدولة الغزنوية:**

ذكرنا أن الدولة الغزنوية كانت شريكة الدولة القراخانية في الاستيلاء على ميراث الدولة السامانية، وتنسب هذه الدولة إلى مدينة غزنة - إحدى مدن أفغانستان الحالية، وتقع إلى جنوب غربي كابل - ومؤسس هذه الدولة هو سبكتكين الذي كان عبداً تركياً من ضباط الجيش الساماني، وكان استلامه لحكم غزنة في سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م.

في الحقيقة إن قصة قيام الدولة الغزنوية تبدأ قبل هذا التاريخ بعدة سنوات، ففي سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح، «ولما دفنوه

---

(١) بارتولد: تركستان، ص ٣٩٢-٣٩٣. حسن محمود: الإسلام في آسيا الوسطى، ص ١٨٧-١٨٨.

ثار العسكر وتمردوا، وطمع كل شخص في الملك وظهرت الفتن»[١]، وكان الإسفهسلار (أي القائد) ألبتكين في نيسابور حين بلغه خبر وفاة الأمير عبد الملك في بخارى، فسار من أجل القبض على الأمير الساماني الجديد، ولإحلال نفسه محل الأمير عبد الملك على عرش السامانيين، لكنه أخفق، وأُجبر على الفرار إلى غزنة حيث استقر بها، وكان بصحبته غلمانه وقواته الخاصة، وبعد مدة تصالح ألبتكين مع الأمير الساماني الجديد لبخارى، وهو منصور بن نصر، ولقرب الأراضي الأفغانستانية من أراضي الهند غير المسلمة، فقد شغل ضباط ألبتكين وجنده أنفسهم بالغارة على هذه الأراضي، لنشر الإسلام، فضلاً عن كسب الغنائم، ومن كان يقوم بهذه المهمة كان يلقب بلقب غازي، وظل ألبتكين وضباطه تابعين اسمياً للدولة السامانية، وبعد وفاته خلفه أحد ضباطه واسمه سبكتكين، وقد سلف لنا التعريف بسبكتكين هذا، وكيف أنه اتفق مع القراخانيين لاقتسام ميراث الدولة السامانية.

وعقب وفاة سبكتكين في سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، خلفه ابنه محمود، وفي أيامه غدت الدولة الغزنوية دولة مستقلة عن السامانية، ونظم محمود أعمال الغارة على الأراضي الهندية وحولها إلى أعمال توسع وفتوح تحت عنوان الجهاد، وبذلك نال محمود لقب غازي عن جدارة، وأصبح من أكثر شخصيات عصره شهرة، فلقبته الخلافة العباسية بلقب يمين الدولة، ثم بدأ يتوسع على

(١) تاريخ بخارى، ١٣١-١٣٣،

Four studies on the History of central Asia 1،25-26. Turkistan، 274-302. The Cambridge History of Iran، V.11-16. The Islamic Dynasties،181-183. Four studies on the History. Edinbergh،1963، of central Asia 1،25.

إن كتاب C. E Bosworth The Ghaznavids هو أحسن ما كتب حتى الآن عن تاريخ الغزنويين.

حساب الدولة السامانية التي انحلت قواها، فأوصل حدود دولته الشمالية إلى جيحون، وبعد ذلك تجاوزه فقام بضم واحة خوارزم إلى إمبراطورتيه، وحقق الاتفاق مع الدولة القراخانية على اقتسام أملاك الدولة السامانية، ويكون نهر جيحون حداً فاصلاً بينهم، ثم التفت نحو خراسان فأخذها، وبات يتطلع نحو بغداد ونحو القضاء على الأسرة البويهية الشيعية فيها، وأخذ مكانها في التحكم بخلافة بغداد، ذلك لأن محموداً كان سنياً شافعياً متعصباً.

ولمَّا مات محمود في سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م كانت إمبراطوريته من أضخم إمبراطوريات عصره، ومن أعظم ما قام في التاريخ الإسلامي، وكان جيشه وقواته الحربية على غاية من القوة والعظمة وجودة التسليح، وفي زمن محمود وبسبب طبعه وشغفه بالأبنية تطورت التقاليد الفارسية الأوتوقراطية في الحكم مع الثقافة الإيرانية.

ولقد واجه محمود في أواخر حياته بداية مشكلة التركمان بقيادة السلاجقة، فاستطاع أن يتدارك تفجيرها، وتمكن من أن يؤجل هذا التفجير، وذلك بما أوتيه من حزم وبصيرة، ولكن لما كان ابنه وخليفته مسعود يفتقر إلى صفات والده، أخفق في حل مشكلة التركمان عندما واجهها، ولقد استطاع التركمان – كما سنرى – أن يقهروا مسعوداً ويستخلصوا منه خراسان، ولكن هزيمة الغزنويين لم تعن أبداً نهاية الدولة الغزنوية، بل استمرت هذه الدولة تحكم شرقي أفغانستان وشمالي الهند، واستمر هذا الحال حتى قيام الدولة الغورية التي استطاعت تصفية الغزنويين والقضاء على دولتهم في سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م (١).

---

(١) تاريخ بخارى، ١٣١–١٣٣،

Four studies on the History central Asia 1،25-26. Turkestan، 274-302. The Cambridge History of Iran، V. 11-16 the Islamic Dynasties، 181-183

- **الأتراك الغُزّ :**

كانت خراسان تتعرض باستمرار لهجرات البدو الترك من سكان السهوب وغاراتهم، والذي كان يحدث عادة إما أن تُصد هذه الغارات، وإمَّا أن المغيرين يحدث أن تمتصهم –بعد مدة– الحضارة والحياة في خراسان، لذلك لم يول الغزنويون في البداية أهمية كبيرة لبعض جموع الغُزّ التي أخذت تعبر نهر جيحون وتدخل خراسان مهاجرة، أو مغيرة [١]، على اعتبار أن هذا أمر اعتيادي، وأقدم وجوداً من الدولة الغزنوية.

يبدو أن الغُزّ كانوا حتى القرن الثامن الميلادي – عندما أصبح لهم نوع من الزعامة الخاصة – عبارة عن قبائل تابعة للإمبراطورية الخزرية، وفي نهاية القرن الثامن قام هؤلاء الغز، وقد أصبح لهم زعامتهم الخاصة، فتحركوا غرباً عبر سهوب سيبيريا نحو بحر الأرال وإلى الفولغا وجنوبي روسيا، وأغاروا في عهد الخليفة المأمون على أشروسنة، وهكذا وصلت أخبارهم إلى أسماع العلماء والكتاب المسلمين فأخذوا بالاهتمام بذكرهم، ومنذ ذلك الوقت أخذ الغُزّ يتحركون إلى قرب الأراضي الإسلامية وباتجاهها، ولمّا قام الرحالة العربي ابن فضلان في ٣٠٩-٣١٠هـ/٩٢١-٩٢٢م برحلته نحو الفولغا قابل ورأى جماعات من الغز، ولقد وصف ابن فضلان حالة الفقر والتعاسة التي كان يعانيها هؤلاء القوم.

ولقد كانوا في القرن الثامن مؤلفين من تسع قبائل [٢]، وكان لكل قبيلة أمير أو مقدم – بك – دعاه المسلمون باسم «دهقان» [٣]، ويصف صاحب كتاب حدود

---

(١) تاريخ البيهقي، ٤٣٧.

(2) The Ghaznavids, 210. The Cambridge History of Iran، V. 16.

(٣) صورة الأرض لابن حوقل، ٣٨٧.

العالم –وهو جغرافي فارسي مجهول من القرن العاشر – بلاد الغُزّ بقوله: «يقع إلى الشرق منها بلاد الصين، وإلى جنوبها تقع أجزاء من التيبت... وهذه البلاد هي أوسع دار في موطن الترك، ولقد كان الغُزّ أكثر الأقوام التركية عدداً، ومنهم كان في الأيام الخالية ملوك جميع تركستان، إنهم رجال حرب، في حوزتهم الكثير من السلاح، وهم يرحلون في الشتاء والصيف من مكان إلى آخر طلباً للمرعى وحسب المناخ الموائم»[١].

ودعا العرب الغُزّ أحياناً باسم التركمان، وهذه الكلمة أصلها فارسي (تورك مانند) ومعناها أشباه الترك، ونلحظ في البداية – في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي – تمييزاً بين الاسمين[٢]، ولكن منذ أواخر هذا القرن كثر استعمال كلمة تركمان كبديل أو مرادف لكلمة غز، ويقول محمد الكاشغري: «أُغز قبيلة من الترك وهم التركمانية» ويقول أيضاً: «تركمان هم الغُزّية»، ويبدو أن اسم تركمان كان اسماً سياسياً شمل عدداً من القبائل التركية، لذلك كان – كما يبدو – بين التركمان عناصر غير غزية، ويقول الكاشغري متحدثاً عن القبيلة التي جاء منها القراخانية: «قرلق جيل من الترك أهل الوبر سوى الغُزّية، وهم التركمانية أيضاً»[٣].

ويذكر الكاشغري أن «التركمانية هم اثنان وعشرون بطناً، لكل بطن منها علامة وسمة على دوابهم يعرف بعضهم بعضاً بها»، ولمَّا عدَّدَ أسماء هذه

---

(1) Hudud al 'Alam،44

(٢) انظر المقدسي، أحسن التقاسيم، ٢٧٤.

(٣) الكاشغري، ١/٢٧-٢٨، ٥٦، ٣٩٣، وفي ٣/٣٠٤، يقدم الكاشغري قصة طويلة تذكر أن الاسكندر ذا القرنين هو أول من أطلق هذا الاسم، ويوحي هذا بقدم الاسم، كما توحي القصة بشموله لعدد من طوائف الترك، انظر أيضاً : The Ghaznavis, 214

البطون بيَّن أن قِنِق هي القبيلة المتقدمة بين كل القبائل، ومنها السلاطين السلاجقة الذين يبدو أن أسرتهم لم تكن في الأصل أكبر أسر القِنِق، أو أكثرها قوة وشهرة، ولكنها غدت كذلك بفضل بعض الشخصيات التي ظهرت منها عندما جاءت إلى أراضي الدولة السامانية [١].

- السلاجقة :

السلاجقة بأصلهم أسرة تزعمت مجموعة من قبائل الأتراك الغُزّ، التي خرجت من ديارها في التركستان مدفوعة بأسباب سياسية أو اقتصادية، ثم نزلت بلاد ما وراء النهر في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وسموا بالسلاجقة نسبةً إلى زعيمهم سلجوق بن تُقَاق (دُقَاق)، وكان لا يعرف لهم اسم خاص قبل تولي سلجوق هذا رئاستهم، ويبدوا أنه هو الذي جمع شمل هذه القبائل ووحدها تحت زعامته، فنسبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده.

انتقل السلاجقة بعد مدة وجيزة من بلاد ما وراء النهر إلى خراسان حيث نجحوا في تأسيس دولة لهم هناك سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م، وبعد ذلك تمكنت دولتهم من بسط سيادتها على إيران والعراق وأجزاء من بلاد الشام وآسيا الصغرى.

شغل أحفادهم دوراً مهماً في تاريخ الحروب الصليبية التي وقعت نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كما أن حملاتهم على آسيا الصغرى مهدت السبيل أمام الأتراك العثمانيين لدحر البيزنطيين، وإنشاء الدولة

---

(١) الكاشغري، ١/٥٦-٥٨،

The Ghaznavids، 219. The Cambridge History of Iran, V, 17

العثمانية التي ورثتها تركيا الحالية، هذا فضلاً عن نشاطهم الحضاري في ميدان الحضارة الإسلامية.

ولمعرفة أخبار الأسرة السلجوقية وأصلها، يشكل ما كتبه صاحب كتاب ملك نامة المصدر الأساسي لذلك، وعلى ما جاء فيه اعتمد المؤرخون العرب مثل ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، والحسيني في كتابه أخبار الدولة السلجوقية – أو زبدة التواريخ –، وابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب وغيرهم، ولعل ما نقله ابن العديم عن أصلهم أثناء ترجمته لألب أرسلان كان أوضح النقول وأكثرها أمانة، غير أنه كان مقتضباً ولا يفي بالغرض، لذلك فإن ما أورده ابن الأثير في كتابه الكامل –وإن لم يذكر مصدره– أوفى بكثير مما جاء عند ابن العديم.

تحدث ابن الأثير أن تقاق كان مقدم الأتراك الغز، وهو من أعيان الترك، وكان مقرباً من ملكهم، وكان شهماً ذا رأيٍ وتدبير، وقد ولد له ولد أسماه سلجوق، وأن سلجوق هذا برع، وظهرت عليه أمارات «النجابة ومخايل التقدم، فقرّبه ملك الترك وقدمه ولقبه سباشي، ومعناه قائد الجيش، وكانت امرأة الملك تُخوِّفه من سلجوق لما ترى من تقدمه وطاعة الناس له والانقياد إليه، وأغرته بقتله وبالغت في ذلك، وسمع سلجوق الخبر فسار بجماعته كلهم ومن يطيعه من دار الحرب إلى ديار الإسلام، وسعد بالإيمان ومجاورة المسلمين، وازداد حاله علواً وإمرة وطاعة، وأقام بنواحي جند وأدام غزو كفار الترك»، وعلى هذا إن الخلاف الذي وقع مع ملك الترك هو الذي دفع القبائل الغزية للهجرة إلى ما وراء النهر تحت قيادة سلجوق، لكن الراوندي قدَّم سبباً أكثر إقناعاً لتحرك السلاجقة نحو

الأراضي الإسلامية فيقول: «وقد اضطر هؤلاء السلاجقة العظماء بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم أن ينزحوا من تركستان إلى ما وراء النهر».

مهما كان السبب، هاجر السلاجقة من التركستان إلى وادي نهر سيحون، واتخذ سلجوق من مدينة جند قاعدة له ولأتباعه فقد راحوا ينتشرون في تلك المنطقة بعد أن اكتملت هجرتهم من التركستان، وهناك كانت الأوضاع السياسية موائمة لدخول السلاجقة، حيث الصراع قائم بين السامانيين والقراخانيين على السيادة، وهنا طلب السامانيون مساعدة سلجوق في حربهم مع هارون بن أيلك القراخاني، فاستجاب سلجوق ودخل الحرب حليفاً للسامانيين (١)، واعتنق سلجوق وأبناؤه الدين الإسلامي وفق المذهب الحنفي الذي أخذوه عن السامانيين.

لم يزل سلجوق مقيماً بجند يرعى مصالح قبيلته حتى توفي وله من الأولاد ثلاثة، هم: أرسلان (إسرائيل)، وميكائيل، وموسى، وتضيف بعض الروايات ابناً رابعاً هو يونس توفي أثناء حياة أبيه، ويبدو أن أولاد سلجوق لم يتمكنوا بعد وفاة والدهم من العيش في وفاق مع المسلمين؛ لهذا السبب أو لأسباب غيره هجروا المنطقة جنوباً وقد أفسح السامانيون لهم المجال، حيث نزلوا «نور« إحدى نواحي بخارى سنة ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥م (٢).

ولمَّا أصبح السلاجقة مع أتباعهم في منطقة بخارى تورطوا في الأعمال والاضطرابات التي أدت إلى تصفية الدولة السامانية، ثم وجدوا أنفسهم طرفاً في النزاعات بين أمراء القراخانية أنفسهم.

---

(١) ابن الأثير: ٨/ ٢٢.

(٢) المستوفي القزويني، ص ٤٣٤

• العلاقات السلجوقية - الغزنوية

- في عهد السلطان محمود الغزنوي:

سلف الحديث أنه بعد سقوط الدولة السامانية ورثتها الدولة القراخانية في ما وراء النهر، والدولة الغزنوية في خراسان وغيرها، وذلك في أواخر القرن الرابع الهجري، وفي ذلك الوقت أصبح للسلاجقة قوة نظامية يحسب حسابها، تحت قيادة أرسلان بن سلجوق، وهنا أدرك محمود الغزنوي –سلطان الدولة الغزنوية – خطورة تعاظم القوة السلجوقية، فبدأ يعمل للتخلص منها.

في سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م اجتمع السلطان محمود الغزنوي مع قدر خان حاكم الدولة القراخانية في سمرقند لتحديد أسس التفاهم بينهما، ورسم الحدود، وكانت قد جمعت بينهما علاقات مصاهرة وصداقة، واتفقوا على التعاون ضد أحد المتمردين، واسمه علي تكين الذي كان قد احتل بخارى[١]، وأثناء الاجتماع جاء قدر خان على ذكر خطر السلاجقة وتوسعهم في بخارى والسغد وسمرقند، ولم يكن محمود بحاجة لمن ينبهه على خطر السلاجقة، وقد قرر إعمال الحيلة في التخلص منهم، لذلك أرسل إلى أرسلان بن سلجوق يدعوه للحضور إلى شاطئ نهر جيحون لعقد اتفاق بينهم[٢].

واعتماداً على رواية ابن الأثير والراوندي خُدع السلاجقة بهذه الحيلة، فمحمود أحسن استقبالهم وبالغ في إكرام أرسلان، وعرض عليه التحالف وإمداد الدولة الغزنوية بالقوات للقضاء على الثائرين، وأقام محمود الولائم له مدة ثلاثة

---

(١) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٧٩.

(٢) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور، ص ١٤٥-١٤٨.

أيام، ثم فاجأهم في إحدى الليالي وقيدهم بالقيود الثقيلة، وسجن أرسلان بقلعة كالنجر في الهند مدة سبع سنوات إلى أن مات بعد أن أخفقت محاولات تخليصه[(١)].

أغضب هذا التصرف الغادر السلاجقة غضباً شديداً، لكنهم آثروا التحفظ، وخلف ميكائيلُ أخاه أرسلان على زعامة القبيلة، وقد أدرك هذا أن قوة السلاجقة أضعف من أن تقف في وجه الغزنويين، فصرف نظره عن قضية الانتقام لأخيه.

وبعد أن ضاق المقام بالسلاجقة في بخارى قرر السلاجقة مهادنة الغزنويين، وأرسلوا إلى السلطان محمود يلتمسون منه السماح لهم بعبور نهر جيحون، والرحيل إلى إقليم خراسان، والنزول في المنطقة بين نسا وباورد، وذلك بسبب ضيق مقامهم في ما وراء النهر، وأن المراعي هناك لا تفي بحاجة مواشيهم، وعلى الرغم من معارضة الجاذب حاكم طوس وتقديمه رأي معارض إلا أن السلطان سمح لهم بالعبور[(٢)]، وربما فعل ذلك ظناً منه أن قوة السلاجقة ضعفت بعد أن فقدت قيادتها، ويبدو أن حادث العبور هذا حصل سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م.

لقد كان التركمان الذين عبروا النهر هم جماعة أرسلان فقط، وكان عددهم يقدر بأربعة آلاف أسرة، وبعد عبورهم أسكنهم السلطان محمود في داندانقان، وهي «بلدة من نواحي مرو الشاهجان على عشرة فراسخ منها بالرمل ... وهي بين سرخس ومرو» [(٣)].

---

(١) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور، ص ١٤٨-١٥١.

(٢) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور، ص ١٥٣.

(٣) أخبار الدولة السلجوقية، ص ٣، دولة آل سلجوق، ص٥. الكامل، ٢٢/٨-٢٣. ياقوت معجم البلدان، مادة دندانقان.

كان انتقال السلاجقة إلى خراسان بداية لمرحلة جديدة من مراحل حياتهم، وكان له أثر قوي في مستقبل المنطقة، وعلى ما يبدو أخطأ محمود في الموافقة لهم على العبور إلى خراسان، فبسبب تكوينهم البدوي وحالتهم المعيشية، تحولوا إلى عصابات شغلت نفسها بأعمال الإغارة على مدن وقرى خراسان ونهبها، مما أدى إلى اضطراب حبل الأمن في خراسان وجعل الكثيرين من أهالي مدن خراسان يتوجهون بالشكوى إلى محمود، ولما أخفقت محاولات حاكم طوس في إخضاعهم خرج السلطان محمود بنفسه من غزنة سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م «ومعه فوج كثيف من الجيش لمحاربة التركمان، فلما وصلوا إلى رباط فراوة[١] تقاتل الجيشان... وكانت الغلبة لجيش محمود فأعملوا سيوفهم في رقاب التركمان، وقتلوا منهم أربعة آلاف من خيرة الفرسان، وأسروا عدداً كبيراً منهم، وفر الباقون إلى بلخان وداهستان»[٢].

ويستخلص من ابن الأثير أن أعمال محمود وولاته العسكرية ضد التركمان والنجاحات التي حققت مع الانتصارات التي تمت لم تكن حاسمة، فلقد سببت فقط تمزق التركمان وتوزعهم في مناطق خراسان مما زاد اضطراب حبل الأمن، فضلاً عن ذلك لم ينقطع سيل تدفق التركمان وعبورهم نهر جيحون إلى خراسان في مجموعات متفاوتة الحجوم.

توفي محمود الغزنوي سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، وكانت علاقته بابنه مسعود قبيل وفاته سيئة، لذلك عين ابنه الصغير محمّداً ولياً لعهده، ولمَّا أعلن محمد نفسه

---

(١) بلدة من أعمال نسا

(٢) بلخان خلف باورد، ودهستان قرب جرجان

سلطاناً في غزنة سارع أخيه مسعود الذي كان في خراسان إلى غزنة، ولم يجد صعوبة في عزل أخوه محمد ونفيه، ثم نادى بنفسه سلطاناً [١].

- في عهد السلطان مسعود:

أثناء الصراع على العرش الغزنوي الذي حدث بعد وفاة السلطان محمود عاد التركمان، الذين كانوا قد «ذاقوا حلاوة غنائم خراسان... سيرتهم الأولى من النهب والسلب»، وبعد أن أصبح مسعود سلطاناً على الإمبراطورية الغزنوية تتابع تدفق التركمان على خراسان وازداد نشاطهم فيها.

لقد كانت أوضاع خراسان سيئة بقدر كبير، لكن ليس بسبب التركمان، وأعمالهم فقط، وإنما بسبب سوء الإدارة الغزنوية، وسياساتها المالية، التي كان على رأسها سوري حاكم خراسان آنذاك، وسوري هذا «كان رجلاً مشهوراً بالظلم، فإنه حين أطلقت يده في خراسان استأصل شأفة أعيانها ورؤسائها، واستحوذ على أموال لا تحصى، وامتد ظلمه إلى الضعفاء»، فكاتب أعيان خراسان التركمان الغُزّ في ما وراء النهر للقدوم إليهم ويغرونهم بالغزنويين [٢].

كنا قد تحدثنا فيما سلف أن التركمان الذين سمح لهم السلطان محمود بعبور النهر إلى خراسان سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م هم أتباع أرسلان (إسرائيل) المسجون في قلعة كالنجر عند السلطان محمود، أما جماعة أخويه ميكائيل، وموسى فقد بقوا في بلاد ما وراء النهر، وبعد وفاة ميكائيل خلفه على الزعامة

---

(١) البيهقي، ١٢-١٣، ٦٧، ٧٣-٧٤، ١٣٩-١٤١، The Ghaznavids, 227-228

(٢) البيهقي، ٤٣٧.

ولداه: جغري بك أبو سليمان داود، وطغرل بك أبو طالب محمد، وكانا فارسين مقدامين، تمتعا بنفوذ كبير بين الجند وأفراد القبائل.

ومما رواه ابن الأثير يبدو أن العلاقات بين السلاجقة والقراخانيين في ما وراء النهر لم تكن دائماً سليمة، وذلك بسبب طبيعة التركمان البدوية، ثم لتدفق أعداد كبيرة من الغُزّ من السهوب على أراضي الدولة القراخانية، والانضواء تحت راية السلاجقة، ولمّا استحال بقاء السلاجقة في بلاد القراخانية، لم يكن «لهم مأوى في غير خراسان» فقد ألجأتهم الضرورة إليها، ولا سيما بعدما سمعوا عما حصل عليه أصحابهم الذين عبروا قبلهم من الغنائم[١]، لذلك قام «التركمان والسلاجقة مع جمع كبير من الرجال» قُدِّرَ بعشرة آلاف فارس تركي مع كثير من القادة، فعبروا النهر، وساروا إلى مدينة نسا، وبعد عبورهم كتبوا إلى سوري حاكم خراسان الغزنوي كتاباً يشرحون له فيه ضيق المقام في بخارى وبلاد ما وراء النهر، وطلبوا إليه أن يسمح لهم بالإقامة قرب المدينة مع تعهدهم بالإخلاد للهدوء والسكينة، كما تعهدوا بمساعدة الدولة الغزنوية في إخماد الثورات، وأن يكونوا عوناً للسلطان مسعود.

أرسل الوالي سوري طلب السلاجقة للسلطان مسعود وكان آنذاك في جرجان، ولمّا قرأ الرسالة رفض طلبهم وقرر محاربتهم، وأرسل لقتالهم جيشاً مكوناً من سبعة عشر ألف مقاتل تحت قيادة الحاجب بكتغدي، كما أرسل مع الحملة عدداً من الفيلة، وفي رمضان ٤٢٦هـ/ تموز ١٠٤٥م أشرف هذا الجيش على معسكر السلاجقة وتركمانهم الذي كان قرب نسا، لكن كانت الهزيمة من

---

(١) البيهقي، ٤٧٤-٤٧٥، الكامل، ٢٣/٨، راحة الصدور، ١٥٤، أخبار الدولة السلجوقية، ٤.

The Ghaznavids، 225-226 the Cambridge History of Iran، V.18-19.

نصيبه، وحقق السلاجقة أول انتصار رائع لهم، بَشَّرَ بأن خراسان ستكون لهم، ولقد غنموا كل ما كان لدى الجيش من آلات وعدد، ويقول الراوندي: «واستولى السلاجقة على ما قيمته عشرة آلاف ألف (ملايين) من الدنانير من الألبسة والأسلحة والأمتعة والدواب».

كانت «هذه أول هزيمة جدّيّة وقعت» على السلطان مسعود «وتوالت الهزائم بعدها وهناً على وهن»، وقد أرسل السلاجقة رسولاً إلى السلطان مسعود مع رسالة عفو واعتذار، ولقد وجدت الرسالة أذناً صاغية؛ لأن السلطان مسعوداً كان في نيته آنذاك التوجه نحو الهند، ولهذا استجاب لمطالب رسل التركمان وأعطاهم بعض الولايات، وعلى رواية ابن الأثير كانت مراسلة السلاجقة للسلطان مخادعة.

عاد السلطان مسعود إلى غزنة قادماً من الهند سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م، ومن غزنة تحول إلى بلخ، وقد ساءته أخبار نشاط التركمان في خراسان ووصول أعداد جديدة منهم إليها، كما أنهم تمادوا وطالبوه بالتخلي لهم عن أجزاء جديدة من خراسان، فأغضبه ذلك وقرر إِجلاءَهم، فسيّر نحوهم جيشاً عظيماً مع الحاجب سباشي، التقاهم قرب مرو سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م، وبعد معركة حامية الوطيس انتصر السلاجقة.

وعدّ ابن الأثير النصر الذي ناله السلاجقة ضد جيش سباشي نصراً حاسماً، فهذه المعركة «هي الواقعة التي ملك السلجوقية بعدها خراسان، ودخلوا قصبات البلاد»، فدخل طغرلبك مدينة نيسابور، ودخل جغري بك مدينة هراة، وبعيد دخول طغرلبك إلى نيسابور أعلن نفسه سلطاناً، وأصبح يعرف باسم السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبو طالب، واستقبل وفادة أرسلها الخليفة

العباسي من بغداد، مع رسالة ينهاهم فيها عن النهب والقتل والإضرار، ويعظهم، وربما يمنيهم بالاعتراف بهم كسلطة شرعية لخراسان، ويرى مدى قوتهم، ويتعرف بها على ماهية مشاريعهم، وأهدافهم بالنسبة للمستقبل.

- معركة دندانقان ونهاية الدولة الغزنوية:

حدث هذا سنة ٤٢٩هـ/١٠٤٨م، ويمكن عد هذه السنة بداية لدولة السلاجقة، لأن طغرل بك باشر مهامه فيها سلطاناً فعلياً لهم منذ ذلك التاريخ، وصحيح أن الخليفة العباسي لم يعترف به حتى سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م، إلا أن اعتراف الخليفة العباسي في ذلك الوقت كان يعد من الأمور الشكلية.

عاد السلطان مسعود إلى غزنة عقب هزيمة الحاجب سباشي، وفي غزنة تكونت لديه صورة كاملة عما تم في خراسان، وبعد مناقشات تقرر أن يتحرك السلطان بنفسه على رأس جيش كبير من أجل استرداد خراسان وطرد التركمان منها، وفي محرم سنة ٤٣٠هـ/تشرين الأول ١٠٣٨ م سار السلطان مسعود من غزنة إلى مدينة بلخ ثم إلى سرخس «وكان معه جيش كامل الأهبة وقد أجمع الناس على أنه قادر على غلبة أهل تركستان أجمعين»، وتجمع السلاجقة مع قواتهم التي قدرت بعشرين ألف فارس قرب منطقة سرخس.

حافظ هؤلاء التركمان ما أمكنهم على تقاليدهم في القتال، فكانوا فارغي البال من الأثقال والأمتعة، لهذا عمدوا إلى عدم الالتحام بقوات مسعود في اشتباك مباشر، بل أخذوا، بعد أن تخلوا عن نيسابور وغيرها من المدن، يجرون جيش مسعود المثقل هنا وهناك، ويعملون الغارة عليه فيتعبون أفراده جسدياً ومعنوياً، وهكذا كان الحال إلى أن جاء صيف عام ٤٣١هـ/١٠٣٩م، إذ سار السلطان

نحو مرو، وفي الطريق لم يتركه السلاجقة يتحرك بحرية، بل كانوا يعملون الغارات المفاجئة على أطراف قواته، يقتلون، ويأسرون، ويعودون بالغنائم، وأكره جيش مسعود على التوجه حسب مشيئة السلاجقة، وهكذا سيق هذا الجيش العرمرم نحو حواف صحراء الدندانقان، وجعل يعسكر في مكان قليل الماء كثير الرمال، وكان التركمان قد ألقوا الجيف في كلّ آبار المنطقة، ولم يبق هناك سوى آبار حصن دندانقان، فأخذ الجند يتخاصمون على شربة ماء ويتصارعون من أجل الوصول إلى بئر داخل الحصن، وهكذا انعدم النظام داخل صفوف الغزنويين، وفرّ الكثيرون نجاة بأرواحهم، أو انضموا إلى صفوف التركمان الذين أخذوا يغيرون غارات شعواء ويحملون حملات منكرة على من بقي مع السلطان، واستمرت المعارك عدة أيام كاد السلطان مسعود نفسه يفقد حياته فيها، لذلك لاذ – حفاظاً على حياته – بالفرار، وتوجه نحو غزنة – ليُخلع ثم يلقى حتفه – وهكذا تخلى نهائياً عن خراسان للسلاجقة [١]، ولقد آذن نصر الدندانقان هذا بقيام إمبراطورية إسلامية جديدة، وبانحسار ظل واحدة، وتعد هذه المعركة من كبريات المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، ولم تنحصر نتائجها في حدود عالم الإسلام، إنما تعدته فأثرت في عالم العصور الوسطى كله.

عاد طغرلبك بعد نصر الدندانقان إلى نيسابور، ودخلها مع جموعه في آخر سنة ٤٣١هـ أو أوائل سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م، وهناك اجتمع الإخوان:

---

(١) البيهقي، ٦٠٥-٦٠٧، ٦١٥، ٦٢١، ٦٢٤-٦٢٥، ٦٨٠-٦٩١، راحة الصدور، ١٦٢-١٦٥، الكامل ٨/٢٥-٢٦، أخبار الدولة السلجوقية، ٩-١٢، تاريخ دولة آل سلجوق، ٨،
The Ghaznavids, 243-258. the Cambridge History of Iran, V.21-23.

جغري بك وطغرلبك مع عمهما موسى بن سلجوق[١] ومع أبناء أعمامهم، وكبار قومهم، وقواد جنودهم، وتعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم[٢].

أرسل السلاجقة بعد ذلك رسالة إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢هـ-٤٦٧هـ/١٠٣١/١٠٧٥م) يخبرونه بها بما تم في خراسان، ويسوغون حربهم ضد السلطان مسعود، ويعلنون تعلقهم بالخلافة العباسية، والإسلام السني، بعد هذا قام السلاجقة بتقسيم خراسان بينهم، بحيث أخذ جغري بك جزءاً منها وترك لعمه موسى وبقية الأمراء بقية الأجزاء، وكانت الخطة تهدف إلى إحاطة الدولة الغزنوية، والحيلولة بينها وبين محاولة استعادة خراسان، ثم تهدف إلى ترك طريق جيجون مفتوحاً من أجل قدوم مهاجرين غز جُدد من أجل العمل على إكمال احتلال أراضي الخلافة العباسية وغيرها من ديار الإسلام، والأراضي البيزنطية، لقد أوكل لطغرلبك تحقيق هذه المهمة الأخيرة وترك معه أخاه إبراهيم ينال وأتباعه، وابن عمه قُتُلْمش (قطلمش) بن أرسلان بن سلجوق وأتباعه، وتيسر لطغرلبك احتلال الري – قرب طهران الحالية – فاتخذ منها قاعدة لملكه، ومنها أخذ يبث قواته لإكمال احتلال الهضبة الإيرانية، واستطاع بين ٤٣٢-٤٣٦هـ/١٠٤٠-١٠٤٤م احتلال المناطق الواقعة على شواطئ البحر القزويني، وبعد ذلك مدّ سلطانه على باقي أجزاء الهضبة الإيرانية، فاحتل بعد الري، همذان، ثم اذربيجان، وقضى على كل مقاومة، لاسيما من قبل الكرد، والديلم، وأصبح الآن الطريق مفتوحاً أمامه نحو بغداد، وكذلك الطريق نحو إرمينية.

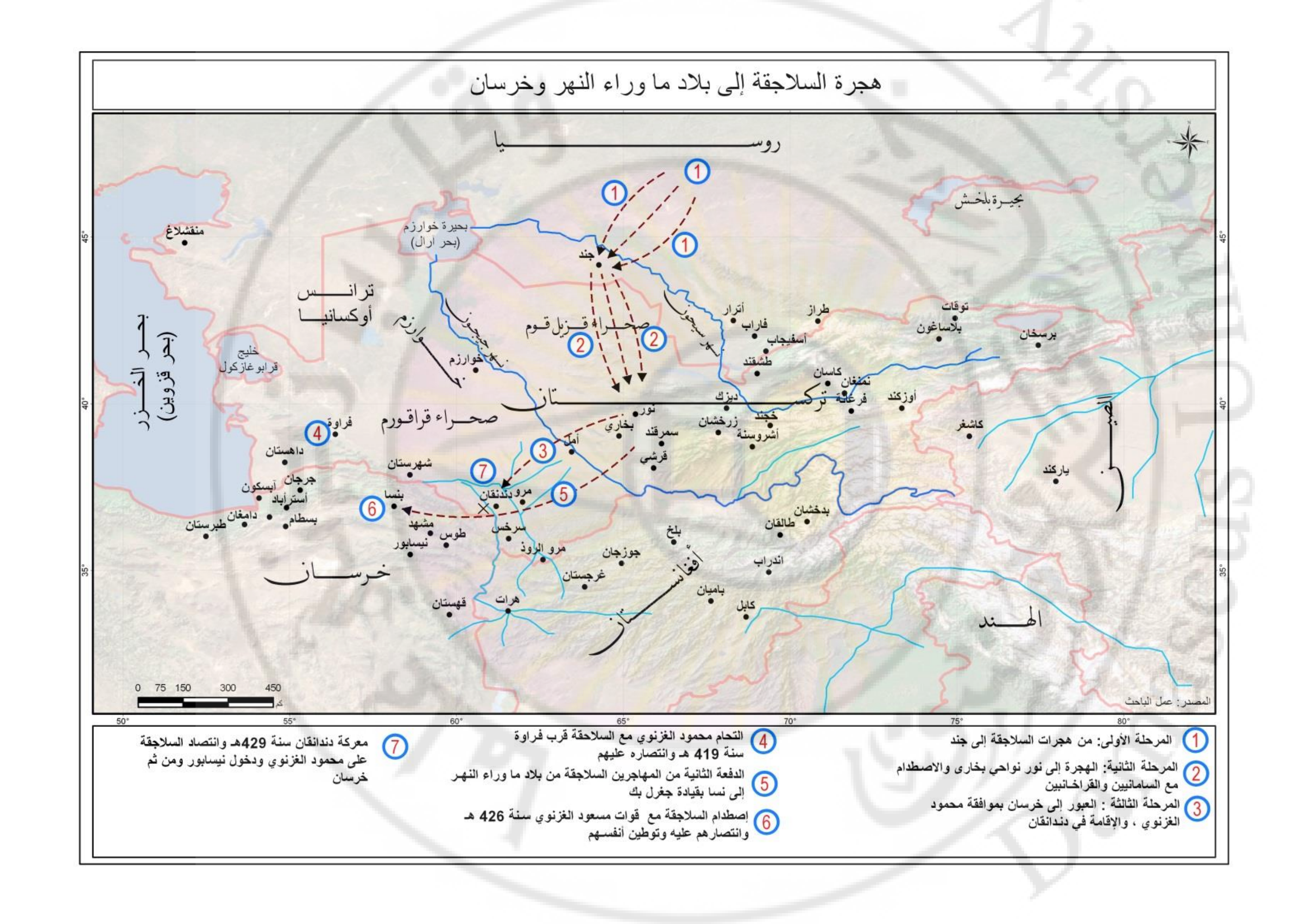
---

(١) يبدو أنه كان زوجاً لأمهما ولم يكن أخاً لوالدهما.

(٢) راحة الصدور، ١٦٥ .

إن ما أوكل إلى طغرلبك، ثم ما حققه من نجاحات في الوصول إلى بغداد، وإقامة الإمبراطورية السلجوقية هي أعظم منجزات السلاجقة وأخطرها وأبعدها تأثيراً ليس فقط بالنسبة للتاريخ الإسلامي، وإنما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية أيضاً.

وإنه لمن الضروري قبل دراسة منجزات السلاجقة في الشام والجزيرة والأناضول أن نتعرف أولاً على الوضع السياسي والديني والاجتماعي الذي كان سائداً آنذاك في الجزيرة والشام وبالوقت نفسه نتعرف إلى أوضاع بغداد والخلافة العباسية في هذه الآونة التي كان طغرلبك يجهد نفسه للسيطرة عليها، وهذا سيكون موضوع المقالة التالية.



هجرة السلاجقة إلى بلاد ما وراء النهر وخرسان
روسـيا
بحر الخزر
(بحر قزوين)
بحيرة خوارزم
(بحر ارال)
بحيرة بلخش
ترانس أوكسانيا
خليج قرابوغازكول
صحراء قزيل قوم
صحراء قراقورم
تركستان
خرسان
أفغانستان
الهند
الصين
منقشلاغ
جند
خوارزم
فراوة
داهستان
جرجان
أبسكون
أستراباد
دامغان
بسطام
طبرستان
شهرستان
نسا
مشهد
طوس
نيسابور
قهستان
هرات
سرخس
مرو
دندانقان
مرو الروذ
غرجستان
جوزجان
بلخ
باميان
كابل
اندراب
طالقان
بدخشان
آمل
بخارى
نور
سمرقند
قرشي
زرخشان
ديزك
أشروسنة
خجند
فرغانة
نمنغان
كاسان
أوزكند
كاشغر
ياركند
طشقند
أسفيجاب
فاراب
أترار
طراز
بلاساغون
توقات
برسخان
المصدر: عمل الباحث
0 75 150 300 450
المرحلة الأولى: من هجرات السلاجقة إلى جند
المرحلة الثانية: الهجرة إلى نور نواحي بخارى والاصطدام مع السامانيين والقراخانيين
المرحلة الثالثة : العبور إلى خرسان بموافقة محمود الغزنوي ، والإقامة في دندانقان
التحام محمود الغزنوي مع السلاجقة قرب فراوة سنة 419 هـ وانتصاره عليهم
الدفعة الثانية من المهاجرين السلاجقة من بلاد ما وراء النهر إلى نسا بقيادة جغرل بك
إصطدام السلاجقة مع قوات مسعود الغزنوي سنة 426 هـ وانتصارهم عليه وتوطين أنفسهم
معركة دندانقان سنة 429هـ وانتصاد السلاجقة على محمود الغزنوي ودخول نيسابور ومن ثم خرسان



المقالة الثانية

بلاد الشام والجزيرة

قبيل قيام السلطنة السلجوقية

توطئـة :

كانت مقاليد السلطة في بلاد الشام والجزيرة قبيل قدوم السلاجقة قد رست بيد زعماء القبائل العربية، إذ سكن الشام قبل الفتوحات الإسلامية عدد من القبائل العربية كان أكثرها – تبعاً لروايات النسابين العرب – منحدراً من أصل يماني، ومن أشهر هذه القبائل قبيلة كلب، ولقد استقرت كلب في جنوب بلاد الشام وكان لها دورها البالغ الأهمية في العصر الأموي، كما هاجر مع الفتح وبعده عدد من القبائل إلى شمالي بلاد الشام، فكان غالبيتها من أصل قيسي، وكان من أشهر هذه القبائل قبيلة كلاب، وفي سنة ٦٤هـ/٦٨٣م بعد وفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية وتنازل معاوية الثاني، التحمت قوى قيس –بقيادة الضحاك بن قيس– بقوى كلب ومن ساندها من اليمانيين – بقيادة مروان بن الحكم– في معركة مرج راهط، ولقد هزمت قيس وانتصرت اليمن، وكانت قبيلة كلاب أكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة، ولقد فر زعيمها زُفَر بن الحارث شمالاً،

واعتصم في قرقيسيا[١]، ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة، ولم يستطع مروان أن يقسره على مثل هذا الاعتراف[٢].

ولعل من أهم نتائج هذه المعركة أنها قسمت بلاد الشام إلى قسمين: شمالي تسكنه القبائل القيسية ولاسيما كلاب وتسيطر عليه، وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية، ولاسيما كلب، وتسيطر عليه، وكان الحد الفاصل بينهما نقطة وهمية تقع شمال حمص، وغالباً ما كانت عند الرستن على نهر العاصي، وهكذا غدت بلاد الشام واقعياً عبارة عن دارين: دار لكلب في الجنوب، ودار لكلاب في الشمال، ومع مرور الزمن، ولا سيما في القرن الخامس الهجري، عدت كل واحدة منهما أيّ تحرك قبيلي من القبيلة الأخرى نحو أراضيها عملاً عدائياً موجهاً ضدها.

كانت مدينة حلب دائماً مركزاً لشمالي بلاد الشام، وفيها قام عدد من الدويلات المستقلة، وكانت دمشق كبرى مدن جنوبي بلاد الشام، وأقول كبرى، وليس مركزاً لأن الجنوب انقسم إلى قسمين قسم فلسطيني، ومركزه الرملة والنفوذ فيها كان لقبيلة طيّئ، وقسم دمشق والنفوذ فيه بقي لقبيلة كلب، وكان الصراع دائماً بين دمشق وحلب، وكانت بلاد الشام ممزقة دائماً سياسياً، ولم تنعم بالوحدة السياسية ولا حتى الدينية والاجتماعية في تاريخها أبداً، وغالباً ما تورطت طيّئ بمشاكل ذات صلة بمصر وسياستها.

---

(١) البصيرة في سورية حيث يلتقي الخابور مع الفرات.

(٢) انظر تاريخ خليفة، ٣٢٦/١، الطبري، ٥٤٠/٥-٥٤٢.

Hudud al Alam 148. Nuzhat al-Qulub, 262.

- **أوضاع بلاد الشام قبيل قدوم السلاجقة:**

- **الساحل الشامي:**

في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد كانت أجزاء كبيرة من سواحل شمال بلاد الشام خاضعة للحكم البيزنطي منذ القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد زمن الصراع مع الدولة الحمدانية بحلب بزعامة سيف الدولة، ولقد كانت أنطاكية، واللاذقية وجبلة أهم المدن في هذه الأجزاء.

كان الجزء الجنوبي من بلاد الشام مع سواحله، على الرغم من وجود طيّئ وكلب فيه خاضعاً في القرن الخامس الهجري لحكم الخلافة الفاطمية، وكان للفاطميين أسطولهم القوي الذي مكنهم لمدة، مع حامية دمشق وقوات فلسطين، من الاحتفاظ بالسيطرة على مدن هذا الساحل التي كان أهمها طرابلس، وصور، وصيدا، وعكا، وفي النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ضعف الفاطميون وبدأ نفوذهم ينحصر، وقد أفسح هذا المجال لقيام بعض من أنواع «الجمهوريات« المستقلة في كل من طرابلس، وصور.

ففي صور استقل قاضيها عين الدولة بن أبي عقيل، وامتنع بها عن الاعتراف بالنفوذ الفاطمي، وعقب موته ولي صور أولاده واستمروا يحكمونها حتى سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م، إذ جاءت حملة فاطمية قوية استطاعت انتزاع المدينة منهم وأعادتها للحظيرة الفاطمية[١].

أما دولة آل عمار في طرابلس فقد كانت أطول عمراً، وأبعد شهرة، وأكثر أهمية من دولة صور، ويعتقد أن مؤسس هذه الدولة هو القاضي أبو طالب

---

(١) ابن القلانسي، ٩٦-٩٧، ١٢٠، الكامل، ٨/١٥٠.

الحسن بن عمار الذي كان من شخصيات الشام البارزة، ومن المرجح أنه استقل بحكم طرابلس بعد سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٩م، وبعد وفاته في سنة ٤٦٤هـ/١٠٨٢م، استبد ابن أخيه جلال الدولة أبو الحسن علي بن عمار بحكم طرابلس، وظل يحكمها حتى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، ويعد جلال الدولة أعظم أفراد آل عمار الذين تولوا حكم طرابلس، وفي عهده ازدهرت طرابلس، ودفع عنها الفاطميين والسلاجقة. ولمّا تُوُفِّيَ جلال الدولة خلفه أخوه فخر الملك أبو علي الذي ظل محتفظاً بطرابلس حتى قبيل سقوطها بيد الصليبيين في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م(١).

وكما ضعف النفوذ الفاطمي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وانحسر عن مناطق الساحل الجنوبي لبلاد الشام، كذلك حصل بالنسبة للنفوذ البيزنطي في بقية مناطق الساحل الشامي، الفرصة التي استغلها البعض لإعلان الاستقلال، كما فعل منصور بن صليحة قاضي جبلة، وعقب وفاة منصور خلفه ابنه عبيد الله في حكم جبلة، ودافع عبيد الله عن جبلة ضد آل عمار حكام طرابلس وضد الصليبيين، وأخيراً تنازل عنها إلى طغتكين أتابك دمشق وذلك في سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م(٢).

- الدولة المرداسية في حلب:

هكذا كانت أوضاع جنوب بلاد الشام وساحله في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أما الشمال حيث كانت حلب مركزه، فقد حكم معظم الوقت من قبل الدولة المرداسية التي أسسها صالح بن مرداس أمير قبيلة كلاب.

---

(١) انظر طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ٦٤-٧٦.

(٢) ابن القلانسي، ١٣٩، الكامل، ٨/١٩٩-٢٠٠.

وكنا قد أشرنا سالفاً إلى أن قبيلة كلاب سكنت شمال بلاد الشام، لكنها لم تؤسس دولة مستقلة حتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لأسباب كثيرة، أهمها أنه مطلع هذا القرن، ونتيجة نشاط القرامطة في شبه الجزيرة العربية، والشام، والعراق، والجزيرة، وصل إلى شمالي بلاد الشام وأعالي الجزيرة موجة كبيرة جديدة من المهاجرين البداة من قبائل عامر بن صعصعة، وهي: كلاب، وعقيل، ونمير، وقشير، وخفاجة. وبعد مدة من الزمن سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديار اتخذتها لنفسها، فعقيل قامت بسكنى منطقة الموصل، وبمد نفوذها وسيطرتها عليها، حيث استطاعت بعد أمد وراثة الدولة الحمدانية في الموصل وإقامة الدولة العقيلية مكانها، وسنتعرض بعد قليل لتاريخ هذه الدولة، أما نمير فقد اتخذت من منطقة حران والرها دياراً لها، واتخذت من حران مركزاً لنفوذها، وأما قبيلة قشير فقد توطنت حول قلعة دوسر التي تبدل اسمها إلى قلعة جعبر، نسبة إلى جعبر بن سابق أحد شيوخ قشير الذين حكموها.

أما الكلابيون الجدد فقد استقروا في شمالي بلاد الشام مع إخوانهم الكلابيين القدماء، وكانت جميع قبائل عامر بن صعصعة شيعية تدين بمذهب الاثني عشرية.

في سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م استولى صالح بن مرداس زعيم قبيلة كلاب على بلدة الرحبة بجوار (الميادين الحالية في سورية) على الفرات، وبعدما فعل هذا اعترف صالح بن مرداس بسلطان الخليفة الفاطمي في القاهرة، ولقد كانت الرحبة من أكثر مدن الشام أهمية لموقعها الإستراتيجي الخطر، فقد كانت تقع على الفرات، وهذا يعني توفر الماء والأراضي الزراعية، كما كانت قريبة من العراق ليست بعيدة عن حلب، ولا عن دمشق أيضاً، ثم إن البادية كانت وثيقة

الصلة بها، وفي البادية سكنت العشائر البدوية التي شغلت أعظم الأدوار السياسية في تاريخ بلاد الشام، وبإيجاز لقد كانت الرحبة أول محطة نحو الشام للبداة المهاجرين من شبه الجزيرة العربية، وكان الذي يملك الرحبة بإمكانه أن يملك شمال بلاد الشام وأجزاء من الجزيرة، وهذا ما حدث لصالح بن مرداس.

وبعدما احتل صالح بن مرداس الرحبة أخذ يتطلع بمطامحه نحو حلب، فتورط من أجلها في صراع طويل أثمر في سنة ٤١٥هـ/١٠٢٥م عن احتلال حلب، وإقامة الحكم المرداسي فيها، ولم تقف مطامح صالح عند حدود حلب وشمالي بلاد الشام، بل انتزع بعض أجزاء الساحل الشامي من الفاطميين، وأسهم في العمل من أجل طرد الفاطميين من الشام، فذهب ضحية مطامحه إذ قتل في سنة ٤١٩هـ/١٠٢٩م في معركة الإقحوانة مع الفاطميين في وادي الأردن قرب طبرية،[١] ومقتل صالح لم يُزل من الوجود الدولة التي أقامها، فقد احتفظ أولاده بحكم حلب، فحكم ثلاثة منهم بعده بشكل متوالٍ وهم: نصر، ثم ثمال، ثم عطية، ثم حكم بعد عطية الحفيد محمود بن نصر، ثم نصر بن محمود، وأخيراً سابق بن محمود الذي سقطت الدولة المرداسية في زمنه.

بعد وفاة ثمال في سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م دخلت أول جماعة تركية غزّية بلاد الشام، وسندرس هذا لاحقاً بشكل مفصل، وسنوضح آثاره وكيف سبَّب سقوط الدولة المرداسية، وعمل على إزالة القوة العربية من الشام.

لقد كانت الدولة المرداسية دولة بدوية، تطبعت بالأخلاق العربية، وبالمفهوم العربي البدوي في الحكم، لذلك ازدهرت في ظلالها الحضارة العربية وثقافتها، ففي زمن المرداسيين وفي ظلهم عاش المعري، وكتب نثره وشعره،

(1) The Emirate of Aleppo، 97-101

وكذلك فعل ابن أبي حصينة الشاعر، وابن سنان الخفاجي الكاتب الشاعر، وأخيراً ابن حَيُّوس كبير شعراء الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

ولقد كانت علاقات الدولة المرداسية بالخلافة الفاطمية سيئة بشكل عام، على الرغم من أن المرادسيين قد اعترفوا رسمياً بسلطان خليفة القاهرة، ولم يكن لهم أيَّ علاقة – حتى ما قبل ١٠٧٠م– بالخلافة العباسية، ولكن في الوقت نفسه الذي اعترف فيه المرداسيون بسلطان الفاطميين كانت علاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية جيدة بشكل عام، وغالباً ما وضع الأمراء المرداسيون أنفسهم تحت الحماية البيزنطية، ودفعوا جزية سنوية للقسطنطينية بسبب التهديد الفاطمي الدائم.

– دولة بني منقذ في شيزر وكفرطاب:

سكن بنو منقذ المنطقة الشمالية الغربية لمدينة حماة، وكان مركزهم بلدة كفر طاب، وذلك حتى سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م حين تمكنوا من احتلال قلعة شيزر، وخرائب كفرطاب ما تزال قائمة وهي على بعد نحو ٣كم إلى الغرب من خان شيخون الواقعة على الطريق العام الواصل بين دمشق وحلب.

وكان لبني منقذ من القوة والعدد ما مكنهم من شغل دور مهم في تاريخ الشام في أواخر القرن الخامس ثم في القرن السادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، ومن أشهر رجالات بني مُنقذ في القرن الحادي عشر علي بن مقلد الذي كان أخاً بالرضاعة لمحمود بن نصر بن صالح بن مرداس أمير حلب، وقد قام علي بدور مهم في أمور حلب السياسية، وفي أمور مدينة طرابلس، وكان هو الذي احتل قلعة شيزر، وأقام حكم الأسرة المنقذية فيها، وفي

القرن السادس الهجري كان أسامة بن منقذ الفارس الشاعر، صاحب كتاب الاعتبار من أبرز شخصيات هذه الأسرة(١).

- **الأحداث:**

من الصعب في التاريخ الإسلامي، إن لم يكن من المستحيل، التعرف إلى بداية نشوء منظمة شعبية، ثم كيفية تطور هذا التنظيم وتكامله، والسبب الرئيسي لهذا أنّ المؤرخ المسلم كان غالباً من الشريحة العليا ونادراً ما أولى المحكومين اهتمامه، وينطبق هذا على أصل منظمة الأحداث في بلاد الشام.

بعد سقوط الخلافة الأموية كان ظل الحكم العباسي في الشام دائماً ضعيفاً، ولما ازداد ضعف الحكم العباسي تعرض العديد من مدن الشام لكثير من المخاطر، وربما لما وجد أهالي هذه المدن أن العباسيين ليس بإمكانهم درء هذه المخاطر، قام بعضهم بإنشاء بعض التنظيمات الدفاعية، واليك مثالاً موضحاً، لهذا: في سنة ٢٨٩هـ/٩٠١-٩٠٢م، أخفق جيش عباسي تعداده عشرة آلاف مقاتل في صد حملة قرمطية ضد حلب، وقام القرامطة بحصار المدينة، ولما رأى الحلبيون إخفاق الجيش العباسي ووقوعهم تحت الحصار كونوا قوة محلية لم تتول فقط الدفاع عن المدينة، إنما قامت بهجوم مفاجئ على القرامطة نتج عنه هزيمتهم وفك الحصار عن حلب.

وعلى الجبهة البيزنطية اعتمدت الخلافة العباسية على نظام دفاعي خاص؛ إذ أقامت عدداً من القلاع والحصون سميت بالعواصم، ووضعت فيها حاميات عسكرية مع نظام دفاعي خاص يعتمد على سكان كل ثغر من الثغور، وقد قدم

---

(١) ابن القلانسي، ص١٠٦-١٠٧، اتعاظ الحنفاء حوادث ٤٣٣ه، زبدة الحلب، ٣٤/٢-٣٦-٤٠-٤١، ٧٥-٧٩، ابن العميد، ص٥٦٨، النجوم الزاهرة ١١٣/٧-١١٤.

أبو عمر الطرسوسي في كتابه سير الثغور[١] وصفاً رائعاً مفصلاً للحياة العسكرية في الثغور، وكان أروع وصف ذاك الذي تناول به الحياة في مدينة طرسوس كبرى مدن الثغور وأبعدها شهرة، فيقول: لقد كان غلمان طرسوس يدفعون قبل بلوغهم الحلم إلى بعض الشيوخ الأساتذة الثقات من أهل المدينة، فيقوم هؤلاء بتصنيف الغلمان إلى فئات، ثم يأخذون في تدريبهم على الشؤون العسكرية، ويستمر ذلك حتى يبلغ هؤلاء الغلمان سن الرجولة، حيث يلتحق آنذاك كل فتى منهم بسرية من سرايا الجهاد والدفاع عن الثغر.

أمام حالة الفوضى والاضطراب التي طالت المدن الشامية، وبالاستفادة من تجارب العواصم العسكرية على الحدود، قام أهالي كل مدينة في الشام بتشكيل منظمات عسكرية شعبية لأغراض الدفاع، شغل فيها بعض العسكريين الذين فقدوا مناصبهم دوراً مهماً، وساعدوا على تطوير هذه المنظمات وزيادة صبغتها العسكرية، إلى أن غدت نوعاً من الميليشيا الشعبية، ثم إن ضعف جميع الحكومات التي قامت في الشام منذ ما قبل القرن العاشر الميلادي جعل الحكام لا يتغاضون فقط عن نشاط هذه الميليشيا، بل يستخدمونها من أجل مآربهم وأغراض حكمهم الخاص، وهكذا تطورت هذه المنظمات، وعرفت في بلاد الشام باسم الأحداث، وقامت في العراق منظمات شبيهة بها عُرفت باسم العيارين أو الفتيان، وفي الشرق الأقصى وبلاد ما وراء النهر كان لها شبيه عُرف باسم المطّوّعة، أما في آسيا الصغرى قبل قيام العثمانيين فقد عرفت باسم الآخيين.

---

(١) توفي أبو عمر هذا سنة ٤٠٠هـ، وكتابه بحكم المفقود، وقد انتهى إلينا ضمن المجلد الأول من كتاب بغية الطلب لابن العديم.

وبالنسبة لبلاد الشام فإن المدة الزمنية المحصورة ما بين النصف الثاني للقرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي قد شهدت ذروة نشاط الأحداث، وتجلى هذا بصورة واضحة بشكل رئيسي في مدينتي دمشق وحلب، وخلال هذه المدة خضعت أجزاء كبيرة من الشام للحكم الفاطمي، ولما كان الفاطميون قد قام مذهبهم في الحكم على إطاعة الإمام بشكل مطلق، فإنهم لم يسمحوا بوجود أيِّ هيئة أو تنظيم إلى جانبهم، لهذا اصطدموا عندما حاولوا الاستيلاء على جنوبي بلاد الشام بالأحداث ولم يتمكنوا من دمشق إلا بعد القضاء بشكل مبرم على غالبية أفراد منظمة الأحداث،[1] وعلى الرغم من ذلك فقد بقي للأحداث قوتهم في شمالي بلاد الشام ولاسيما في حلب، ولمَّا قدم السلاجقة إلى الشام وألحقوه بإمبراطوريتهم التي اتخذت من الأوتوقراطية العسكرية قاعدة لحكمها، قاموا بتصفية الأحداث، لذا عندما جاء الصليبيون إلى الشام وجدوه خالياً من جميع القوى والتنظيمات الشعبية المحلية، فاستطاعوا انتزاع أجزاء كثيرة منه ومن مدنه دون كبير عناء.

لقد كان الأحداث يتقاضون أحياناً بعض المرتبات، وكانوا يقومون بوظائف الشرطة البلدية، يسهرون على الأمن، ويراقبون النظافة، والنظام العام في المدينة.

- **أوضاع الجزيرة قبيل قدوم السلاجقة:**

حُكمت الجزيرة في أوائل القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد من قبل الدولة الحمدانية في الموصل، وأيام حكم هذه الدولة وصلت قبيلة عُقَيْل إلى الجزيرة مثلما وصل غيرها من قبائل عامر بن صعصعة كما أسلفنا الحديث،

---

(١) سلف الحديث عن هذا في المطلب الأول، المقالة الرابعة.

وعندما ضعفت الدولة الحمدانية بعد سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م سهل القضاء عليها وورثتها في الجزيرة دولتان واحدة كردية في الشمال، عرفت باسم الدولة المروانية، وأخرى عربية في الموصل، عرفت باسم الدولة العُقيلية.

- الدولة العُقَيلية:

استولى في سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م محمد بن المسيب العقيلي أمير قبيلة عقيل على نصيبين، وبلد، ثم ضم بعد سنة الموصل إلى أملاكه، وذلك بعدما قتل الأمير الحمداني أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمداني [١]، واعترفت السلطة البويهية في بغداد بحكم محمد بن المسيب، لكن ما لبثت أن عزلته في سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م، وباشر البويهيون حكم الموصل بأنفسهم، لكنهم فقدوها في سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م حين تمكن المقلد بن المسيب أخو محمد من الاستيلاء عليها وإقامة الدولة العقيلية فيها[٢]، وظل المقلد بن المسيب يحكم الدولة العقيلية حتى اغتيل في سنة ٣٩١هـ/١٠٠٠م [٣]، وخلفه ابنه قرواش.

وقد استطاع قرواش أن يقيم علاقات شبه متوازنة بين الخلافتين العباسية والفاطمية [٤]، وفي أيام قرواش تعرضت الموصل لأول غارة تركية غزّية، الأمر الذي سنأتي على ذكره بالتفصيل بعد قليل، وقد انتهى حكم قراوش هذا سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م عندما سجنه أخوه بركة، وحكم بركة قرابة السنة، ثم توفي،

---

(١) انظر ذيل مسكويه، ١٧٦- ١٧٩، الكامل ٩٨/٧، دولة بني عقيل في الموصل، ٥٠-٥١.
(٢) ذيل مسكويه، ٢٨٠-٢٨٤، الكامل ١٨١/٧-١٨٢.
(٣) ذيل مسكويه، ٢٨٩-٣٩٠، الكامل، ٢٠٩/٧-٢١٠.
(٤) دولة بني عقيل بالموصل، ٥٧-٥٨.

وهنا أجمعت عقيل على انتخاب قريش بن بدران أميراً جديداً، فأخرج قريش عمه قرواش بن المقلد من السجن ودبر قتله.

حكم قريش بن بدران حتى سنة ٤٥١هـ/١٠٦١م ثمّ خلفه ابنه مسلم بن قريش أعظم شخصيات الأسرة العقيلية، وعقب مقتل مسلم خلفه أخوه إبراهيم بن قريش في سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، ولم يطل حكم إبراهيم فقد قتل في الصراع مع السلاجقة، وتوزع إمارة الموصل ولدا أخيه: محمد، وعلي، وبقي الحال هكذا حتى أزال السلاجقة الحكم العقيلي من الموصل نهائياً في سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م.

إن تاريخ الدولة العقيلية منذ أن استلم إماراتها قريش بن بدران حتى يوم سقوطها هو جزء من تاريخ هجرة التركمان إلى الجزيرة والشام، وجزء من الصراع العربي السلجوقي للسيادة على هذين البلدين، ولكن قبل أن نأخذ في دراسة هذا الصراع علينا أن نكمل حديثنا عن الوضع السياسي في الجزيرة.

- الدولة المروانية:

ذكرنا أن الدولة الحمدانية في الموصل قد ورثها حين سقطت بالإضافة إلى الدولة العقيلية دولة الأسرة المروانية الكردية، فلقد سكنت المناطق الواقعة شمال الموصل عدد من القبائل الكردية، وغالباً ما كانت هذه القبائل تغير على الأراضي البيزنطية، ولقد ظهر بين أفرادها عدد من الغزاة الذين تجمع حولهم عصابات خاصة، وكان من بين هؤلاء رجل عرف باسم باذ، ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ولقد استغل باذ ضعف الدولة الحمدانية ثم ضعف السلطة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهي ٣٧٢هـ/٩٨٣م، فأخذ يقيم لنفسه دولة، فاستولى على أهم بلدان منطقة ديار بكر، مثل

آمد، ونصيبين، وميافارقين، وأثناء توسعه في منطقة الموصل اصطدم باذ ببقايا الحمدانيين وبقبيلة عقيل، وحصلت بين الفريقين عدة معارك كان من أهمها واحدة في سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م فقد باذ فيها حياته بعدما انهزمت قواته الكردية(١).

بعدما قتل باذ ورث مملكته ابن أخته الحسن بن مروان الذي بقي في الحكم حتى مقتله سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، وفي زمن حسن هذا توطد حكم المروانيين في منطقة ديار بكر، وبعيد مقتله خلفه أخوه سعيد الذي عرف بلقب ممهد الدولة، وحكم ممهد الدولة حتى قتل سنة ٤٠١هـ/١٠١١م، وهنا خلفه أحمد الذي عرف باسم نصر الدولة.

ويعدّ نصر الدولة المرواني من أشهر حكام الأسرة المروانية، وقد استمر حكمه لمدة زادت على الخمسين عاماً، استطاع خلالها أن يرفع من مكانة الدولة المروانية، ومن ثمّ أن يبسط نفوذها حتى على بعض من أجزاء جورجيا الحالية.

وكانت آمد، وميافارقين، وحصن كيفا أشهر بلدان الدولة المروانية، فازدهرت في عهد نصر الدولة ازدهاراً كبيراً، وشهدت قيام نهضة ثقافية، وتطوراً اقتصادياً عظيماً، ويقدم لنا المؤرخ ابن الأزرق الفارقي في كتابه تاريخ الفارقي (أو تاريخ ميافارقين) صورة جيدة عن هذا الرفاه الاقتصادي مع الازدهار الحضاري الذي كان ذا ملامح وأصول عربية وإسلامية.

وبعد وفاة نصر الدولة في سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م قسمت أراضي دولته – كما سيمر معنا – بين أولاده، وبدأت قوة المروانيين تسير في طريق الانحدار

---

(١) ذيل تجارب الأمم، ١٧٦-١٧٨، تاريخ الفارقي، ٤٩-٥٨، الكامل، ٧/١٢١-١٢٢-١٤٢.

والضعف، واستمرت آخذة بالاضمحلال شيئاً فشيئاً حتى تمكن السلاجقة أخيراً من القضاء عليها نهائياً سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م[١].

• بغداد والخلافة العباسية:

كانت بغداد مع خليفتها قد مضى عليهم عهدٌ طويلٌ وهم خاضعون لنفوذ الأسرة البويهية الشيعية، وفي ظل تحكم هذه الأسرة فقد الخليفة معظم صلاحياته، وغدا صورة شكلية، لا بل دخلت الخلافة في صراعات شخصية باسم البويهيين كالصراع مع الغزنويين مثلاً، وكان كبير البويهيين والمتحكم بالخلافة يُلقب بلقب أمير الأمراء، وهو منصب استحدث خصيصاً للبويهيين ليحتل صاحبه مرتبة أعلى من مرتبة الوزير، ويلي الخليفة مباشرة، وكان أمير الأمراء البويهي آنذاك «أبا كاليجار»، وقد وقع أبو كاليجار هذا تحت تأثير الدعاية الفاطمية الإسماعيلية بعد أن اتصل به المؤيد في الدين داعي الدعاة «هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي، ت٤٧٠هـ/١٠٧٧م»، ولاعتبارات كثيرة اضطر أبو كاليجار إلى نفي المؤيد في الدين إلى ما وراء الفرات، حيث تابع سيره نحو القاهرة، وفي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م – بعدما توفي أبو كاليجار – خلفه في إمرة الأمراء في بغداد أكبر أولاده أبو نصر خسرو الذي حصل من الخليفة القائم على لقب الملك الرحيم، ولم تَصْفُ الحال للملك الرحيم ونازعه سلطانه في كرمان أخوه فولاستون، وفي البصرة أخوه أبو علي[٢]، ولا يهمنا هنا التبسط في الحديث عن نزاعات البيت البويهي هذه، إنما ما يهمنا هو أن نلتفت نحو بغداد كي ندرس

---

(١) ذيل تجارب الأمم، ١٧٨–١٨٠، الكامل، ٧/١٤٣–١٤٤، تاريخ الفارقي، ٥٩.
The Islamic Dynasties، 53-54.

(٢) المنتظم، ٨/١٣٦، الكامل ٨/٥٠، ٩٣.
The Buwayhid Dynasty of Baghdad, 112-13.

أحوالها والأسباب التي أدت إلى مجيء طغرلبك إليها، ومن ثم إزالته للدولة البويهية وإقامته السلطنة السلجوقية .

من الناحية السياسية لم تكن السلطة في بغداد والمناطق التابعة لها والمحكومة من قبلها مباشرة في يد أمير الأمراء البويهي فقط، أو في يد الخليفة، بل وجد في بغداد عدة قوى تصارعت على السلطة فيها، ويمكن – على العموم – تقسيم القوى التي كانت تتصارع في بغداد قبيل قدوم السلاجقة إلى قوتين رئيسيتين، واحدة عسكرية، والأخرى مدنية، ولقد مثل الجانب العسكري ضابط اسمه البساسيري، ومثل الجانب المدني ابن المسلمة، وزير الخليفة القائم، ولقد كان البساسيري شيعياً من الاثني عشرية، وكان ابن المسلمة سنياً حنبلياً، وهكذا أيضاً كان أهل بغداد مقسمين بين شيعة أكثرهم اثنا عشرية، وسنة أغلبهم حنابلة.

– فتنة البساسيري وخضوع بغداد للسلاجقة:

والبساسيري هو أبو الحارث أرسلان التركي، نُسب إلى بسا بلدة بفارس، والعرب تسمِّيها فسا، وينسبون إليها فسوي، وأهل فارس يقولون بسا وينسبون إليها البساسيري، وكان مولاه رجل من أهل بسا، فنسب الغلام إليه، واشتهر بهذه النسبة« ولقد بدأ البساسيري حياته عبداً تركياً في خدمة الحاكم البويهي بهاء الدولة فيروز (٣٨٨-٤٠٣هـ/٩٩٨-١٠١٢م) وتدرجت به المناصب حتى أصبح – ربما – في سنة ٤٣٥هـ/١٠٣٣م الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد، وفي سنة ٤٣٦هـ/١٠٣٤م كان قد أصبح من كبار شخصيات بغداد، وهكذا ومع الأيام «عظم شأنه واستفحل أمره، وقويت هيبته وانتشر ذكره».

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه مكانة البساسيري ترتفع وسلطته تقوى، قام الخليفة القائم بتعيين أبي القاسم بن المسلمة كاتباً له، وكان هذا سنة ٤٣٦هـ/١٠٣٤م، وكان ابن المسلمة في منزلة عالية عند القائم، وفي السنة التالية جعله وزيره ولقبه رئيس الرؤساء، وكان طبيعياً أن يمارس ابن المسلمة سلطته ويشارك – إن لم يأمر– البساسيري، ولاختلاف طبيعة الرجلين، وطبيعة منصبيهما وعقائدهما، ثم لكونهما من أصحاب المطامح والأهواء كان لا بد من حصول اصطدام بينهما، ولا سيما أن الخلافة مع الأسرة البويهية كانتا قد وصلتا إلى درجة من الضعف عجزتا فيه عن أن تقيما توازناً بين الطرفين، أو أن تسيرهما حسب مصلحة الدولة.

ومما ساعد على اتساع رقعة الخلاف بين ابن المسلمة والبساسيري، الأوضاع السياسية الخارجية التي كانت محيطة ببغداد، فقد كانت هناك قوة الدولة الفاطمية ومطامحها، والمؤيد في الدين داعي الدعاة في القاهرة، ثم من جهة أخرى كانت هناك القوة النامية الطموحة لطغرلبك السني.

وأثناء الصراع اتهم كل من المتصارعين خصمه بالاتصال بدولة خارجية: اتهم البساسيري ابن المسلمة بالاتصال بطغرلبك والعمل لجلبه لبغداد، وهذا طبعاً كان يعني الخروج عن السلطة البويهية وخيانتها، واتهم ابن المسلمة البساسيري باتصاله بالقاهرة سراً والتمهيد لإطاحةِ الخلافةِ العباسية، وفي أثناء أزمة الصراع هذه فتش كل من المتخاصمين عن حلفاء محليين وغير محليين، فتحالف ابن المسلمة مع قريش بن بدران صاحب الموصل، وأخذ البساسيري يسعى لإيجاد حلفاء لنفسه، وتوجه بأنظاره نحو بني أسد وزعيمهما دبيس بن علي بن مزيد،

وكانت الحلة بين دجلة والفرات مناطق نفوذ بني أسد، كما عمل كل واحد على إضعاف نفوذ خصمه داخلياً.

في سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٤م، وبعد أن ثبت لدى الخليفة تورط البساسيري في اتصالات سرية مع الخلافة الفاطمية كتب إلى طغرلبك يستدعيه للقدوم إلى بغداد، وأرسل إلى الملك الرحيم البويهي يأمره بإبعاد البساسيري، فأبعده، وكان البساسيري آنذاك في واسط، فمضى إلى الرحبة، وقد انفض عنه بعض أتباعه، أما طغرلبك فقد استجاب لطلب الخليفة، وأقبل في مئة ألف وعشرين ألفاً من الترك، والغُزّ، والأعاجم، والكرد، والديلم، وغيرهم من الأجناس، فوصل بغداد في أواخر رمضان سنة ٤٤٨هـ/ أواخر كانون الأول سنة ١٠٥٥م، وأثناء ذلك «لم يترك الترك ورداً إلا شفهوه، ولا حسناً إلا شوهوه، ولا ناراً إلا أرشوها، ولا داراً إلا شعثوها، ولا عصمة إلا رفعوها، ولا وصمة إلا وضعوها»، وفر جند بغداد الترك والديلم منها، وتلاحق خلق كثير بالبساسيري في الرحبة[١].

لمَّا لحق البساسيري بالرحبة لقيه ثمال بن صالح أمير حلب الذي كانت الرحبة إحدى بلدان إمارته وأكرمه، وحمل إليه مالاً عظمياً، ولم يكن اختيار البساسيري لبلدة الرحبة قد تم عن عبث، لكنه آثر المضي إلى الرحبة لما تمتعت به هذه البلدة من مزايا كنا قد أتينا على ذكرها سالفاً، ومن الرحبة اتصل البساسيري – أو ربما جدد اتصالاته – بالخلافة الفاطمية في القاهرة، ووعد

---

(١) المنتظم، ١١٩/٨، ١٢٧، ١٥٩–١٦٥، ابن أبي الهيجاء، ١٢٦، تاريخ دولة آل سلجوق، ٨–٩، الكامل، ٤٠/٨، ٤٢، ٦٧–٦٨–٧٠–٧٢، العبر للذهبي، ٢١٢/٣، النجوم الزاهرة، ٥٧/٥، أخبار الدولة السلجوقية، ١٧–١٨، راحة الصدور، ٦٩–١٧٠،

Bar Hebraeus، 207.The Buwayhid Dynasty of Baghdad، 113-115. Pre Ottoman Turkey, 23-24. History of The crusades، by، M.W. Balduin, I, 143-145.

الخليفة المستنصر أنه إذا أرسل إليه مالاً كافياً، فسيقوم بطرد الغُزّ من العراق وبإزالة الخلافة العباسية وإحلال الدعوة الفاطمية مكانها، وفي سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م جهز الوزير الفاطمي «اليازوري» خزائن الأموال وأرسلها مع داعي الدعاة المؤيد في الدين للبساسيري، «بحيث لم يُبْقِ في بيوت الأموال بالقصر شيئاً إلا أخذه لفتح بغداد»، سار المؤيد في الدين إلى البساسيري، فالتقى بثمال بن صالح في الرستن، ثم سارا سوياً إلى حلب.

وهناك مارس الداعي نشاطاً دعوياً لجمع حكام الجزيرة إلى جانب البساسيري، وجَنَّدَ البساسيري جيشاً من العرب البدو والكرد والديلم مع أتراك بغداد، ويذكر المؤرخ العظيمي أن الجيش الذي جمعه البساسيري قد بلغ خمسين ألفاً، وأُجبر ثمال عن التنازل عن الرحبة للبساسيري، فجعلها مقراً له.

كان السلاجقة بعد معركة الدندانقان قد اجتمعوا واتفقوا على الاتحاد وتولية طغرلبك الزعامة، فوزع طغرلبك الولايات على إخوته وأقربائه، ثم شرعوا في إخضاع إيران وما حولها لسلطتهم، ففتح طغرلبك جرجان وطبرستان، وقضى هناك على الدولة الزيارية سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، ثم سار غرباً إلى همذان وأذربيجان فأخضعهما، وعين مكانه هناك أخاه – من أمه – إبراهيم ينال، ثم سار إلى كرمان سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م، وكانت لدى إبراهيم هذا نزعات استقلالية، ولما لمس طغرلبك تمرده سار إليه سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م وأخضعه ثم عفا عنه.

أخضع طغرلبك أيضاً أصفهان، وفي سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م وصل إلى تبريز، وامتد نفوذه إلى أراضي الروم في آسيا الصغرى، ولما عاد إلى الري تلقى الدعوة من الخليفة العباسي، فسار إليه ودخل بغداد كما ذكرنا سالفاً، فألقى القبض على الملك الرحيم آخر أمير للأمراء من الأسرة البويهية، ونفاه إلى حيث

لقي حتفه، وهكذا زالت الدولة البويهية من الوجود، وقام مكانها السلطنة السلجوقية، لكن أركان هذه السلطنة ما كانت لتثبت قبل القضاء على حركة البساسيري.

تحرك البساسيري من الرحبة إلى الموصل فدخلها، لكنه انسحب منها مطلع سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م بسبب مسير طغرلبك نحوه، وتوجه غرباً إلى بالس (حالياً مسكنة) على الفرات، إذ أقام هناك مع حليفه قريش بن بدران الذي فقد الموصل.

دخل طغرلبك الموصل، وقام بعمليات عسكرية ضمن أراضي الدولة المروانية، ثم عين عليها أخاه إبراهيم ينال، وعاد هو إلى بغداد حيث قابل الخليفة أوَّلَ مرة، فخلع عليه الخليفة، وخُوطب بملك المشرق والمغرب، ومُنح لقب سلطان، فكان أول من منح هذا اللقب رسمياً في تاريخ الإسلام.

في المقابل تمكنت القوات الفاطمية من دخول حلب سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٨م بعد أن أقنعت حاكمها ثمال بن صالح بالتنازل عنها مقابل إقطاعه بيروت، وعكا، وجبيل، وهكذا دخلت حلب مع شمالي بلاد الشام تحت السلطان الفاطمي، وحققت حركة البساسيري خطوة نجاح مهمة نحو القضاء على الخلافة العباسية، ومد السلطان الإسماعيلي على العالم الإسلامي.

كنا قد تحدثنا عن خلافات كانت بين السلطان طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال، وقد حاول البساسيري استغلالها، فراسل إبراهيم يُشير عليه بالعصيان لأخيه، ويُطمعه في الملك، ويعده بالمساعدة، وعلم السلطان طغرلبك بخبر الاتصالات، لذا أسرع من بغداد يريد الموصل للقبض على ابراهيم ينال، فتحرك هذا الأخير

لفوره من الموصل مع قطعة عظيمة من الجيش إلى همذان، فسار السلطان خلفه خوفاً أن يسبقه إلى همذان فيملكها.

أما وقد خلت الجزيرة الآن من التركمان، فقد تحرك على الفور قريش بن بدران يسانده البساسيري نحو الموصل فاستعادها، «ولما تمهد أمر قريش بالموصل، رجع البساسيري إلى مركزه بالرحبة»، وفي الرحبة علم أن بغداد فريسة لمن طلب، وقبضة لمن رغب، فزحف إليها بالرايات المستنصرية، وصادف منها أرضاً تعج إلى الله تعالى من ظلم التركمان، ودخلت طلائع البساسيري بغداد يوم الجمعة السادس من ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ/٢٥ كانون أول ١٠٥٨م، ثم دخل هو بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة ومعه الرايات المستنصرية، واتفق قريش بن بدران مع البساسيري بأن يأخذ غريمه ابن المسلمة، ويأخذ ابن بدران الخليفة.

أخرج ابن بدران الخليفة من الموضع الذي كان به، وحمله إلى حديثة عانة على الفرات، فحبس هناك، وقد تولى صاحب الحديثة مهارش البدوي العقيلي، الذي كان ابن عم لقريش بن بدران، خدمة الخليفة بنفسه، أما البساسيري فقد عذّب ابن المسلمة طويلاً، ثم وضعه على جمل «وطيف به في محال الجانب الغربي من بغداد، ثم صلب حياً...... وجعل في فكيه كلوبين من الحديد، وعلق على جذع فمات».

ولما استقرت الأمور للبساسيري في بغداد قام بإيقاف الخطبة للخليفة العباسي، وأحل محلها الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي، وضرب دنانير جديدة باسم المستنصر، وبهذا كان البساسيري قد قام بإلغاء الخلافة العباسية، وأزالها

من الوجود، وبذلك حققت الدعوة الفاطمية الإسماعيلية غاية أمانيها، ووصلت رقعة دولتها إلى أقصى حدودها.

لم يزل الخليفة في محبسه بحديثة عانة إلى أن ظفر طغرلبك بأخيه إبراهيم ينال وقتله، وحالما حصل هذا قرر طغرلبك التوجه بقواته نحو بغداد لطرد البساسيري منها، ولإحياء الخلافة العباسية، وكاتب طغرلبك مهارش وطلب إليه أن يجلب الخليفة إليه ووعده، وتوعده، فقام مهارش بأخذ الخليفة معه وتوجه به إلى طغرلبك الزاحف بجيوشه نحو بغداد.

ولما وصلت أخبار انتصار السلطان طغرلبك على أخيه، ومن ثم زحفه نحو بغداد، ترك البساسيري بغداد وهرب، لكن قوات طغرلبك أدركته وقتلته.

لم تتجاوز المدة التي سيطر بها البساسيري على بغداد أيام سنة هجرية واحدة، وعاد الخليفة إلى داره المشعثة وعاصمته المهدمة بعد سنة سجن(١)، وبالقضاء على حركة البساسيري تم لطغرلبك إرساء قواعد الإمبراطورية السلجوقية، ولقد نجم عن إخفاق ثورة البساسيري وقيام العهد الجديد نتائج على غاية من الخطورة، فقد طويت الآن صفحة من تاريخ العرب والإسلام، وبدأت واحدة جديدة، وهكذا يمكن عد سنة ٤٥١هـ /١٠٥٩م سنة فاصلة في تاريخ

---

(١) سيرة المؤيد في الدين، ١٢٩-١٨٤، ابن القلانسي، ٨٦، المنتظم، ١٦٤/٨-٢١٢، ابن ميسر، ٧/٢-٨، أخبار الدولة السلجوقية، ١٧-٢١، تاريخ دولة آل سلجوق، ٩-١٧، راحة الصدور، ١٧٢-١٧٦، تاريخ الفارقي، ١٥٢-١٦٠، الكامل، ٧٢/٨-٨٧، زبدة الحلب، ٢٧٣/١-٢٧٤، ابن العميد، ٥٤٤-٥٤٥، اتعاظ الحنفا، حوادث سنة ٤٤٧-٤٤٩، ٤٥٢ه، العبر للذهبي، ٢١٥/٣-٢١٨، الدرة المضية، ٣٦٩-٣٧٠، ابن خلدون، ٥٨٥/٤، عقد الجمان، ٥٧٨/١١، النجوم الزاهرة، ٦٧/٥،
Bar Hebraeus, 207, Pre-Ottoman Turkey, 24-25.

الإسلام، ويمكن أيضا عد مقتل البساسيري من الأحداث ذات الأثر الحاسم بالنسبة للدين الإسلامي، ولاسيما الجانب الفكري والحضاري منه.



المقالة الثالثة

الاجتياح السلجوقي للجزيرة والشام

- توطئة:

يعدّ طغرلبك المؤسس الفعلي لدولة السلاجقة في إيران والعراق، وقد وضع أسساً متينة لهذه الدولة، ومن بعده توسع خلفاؤه بها إلى أنْ أشرفوا على بلاد الروم وسواحل المتوسط، فضلاً عن الهند والصين، وكان إلى جانبه وزيره منصور بن محمد الكُنْدُري قد أسهم بنصيب وافر في إرساء قواعد الدولة وتدعيم أركانها، فلقب بعميد الدولة.

توفي طغرلبك في رمضان سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، ولم يخلف ولداً يورثه، وكان قبل وفاته قد تزوج أرملة أخيه جغري، فأقامت معه في الري هي وابنها سليمان، فاستطاعت أن تؤثر في طغرلبك، فاختار ابنها سليمان ولياً لعهده على صغر سنه، ونُفذت الوصية.

كان ألب أرسلان بن جغري من ألمع شخصيات البيت السلجوقي، وقد رافق عمه طغرلبك في معظم عملياته العسكرية، ثم حكم خراسان وما وراء النهر، وكان إلى جانبه وزير قوي النفوذ، واسع الحيلة، يسمى أبا علي حسن بن

علي بن إسحاق الطوسي، ويلقب بنظام الملك [١]، ولما علم ألب أرسلان بتنصيب أخيه الصغير سليمان على العرش، تمرد وأعلن نفسه سلطاناً، ثم سار إلى الري فدخلها، ووقف إلى جانبه الوزير الكُنْدُري، ونودي به سلطاناً سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م.

ثم بعد ذلك بدأت مشكلة الصراع على الوزارة بين الكُنْدُري ونظام الملك، وبعد مدة تمكن نظام الملك من إطاحة الكُنْدُري وقتله، ومع بداية سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م بدأت أحوال السلاجقة تستقر.

كان ألب أرسلان كعمه طغرلبك، رجلاً طموحاً، وقائداً ماهراً ومظفراً، وإلى جانبه وزيره نظام الملك، رجلاً حكيماً وسياسياً محنكاً، بعيد النظر ثاقب الفكر، استغرقت أعمال ألب أرسلان لتوطيد حكمه في الأراضي الخاضعة لسلطته نحو سبع سنوات، حتى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م، بدأ بعدها بأعمال عسكرية في بلاد الأرمن، وجورجيا، والأجزاء الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية.

وفي شمال بلاد الشام زال الحكم الفاطمي، وعادت حلب إلى حكم الأسرة المرداسية بعد مقتل البساسيري، ثم اشتد النزاع على حكمها بين عطية بن صالح المرداسي وابن أخيه محمود بن نصر، حتى استنجد الأخير بإحدى المجموعات التركية الغزية التي وصلت إلى الشام، وكان على رأس هذه الجماعة شخص

---

(١) وزير السلطان ألب أرسلان وابنه ملك شاه، أشهر وزراء الدولة السلجوقية، ودون شك أعظم رجال الإدارة والتشريع في تاريخ الإسلام، فهو مؤسس المدرسة النظامية، ومطور نظام الإقطاع العسكري، وإليه يُنسب كتاب سياسة نامة الشهير.

عرف باسم ابن خان، وبفضل مساعدته دخل محمود بن نصر حلب سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م، وطرد عطية.

- **توسع السلاجقة في آسيا الصغرى:**

أدت أعمال التركمان في إرمينية وجورجيا والحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية إلى إثارة البيزنطيين، وقد جهد إمبراطورها رومانوس دايجينوس (رومانوس الرابع) لإيقاف التركمان، ومنعهم من غزو أراضيها وأراد إغلاق حدودها باحتلال بعض المواقع الإستراتيجية الحصينة داخل الأراضي الإسلامية، وفي هذا السبيل قام الإمبراطور بقيادة ثلاث حملات ضد بلاد الشام، وأعالي الجزيرة، وحدود إرمينية، وذلك في السنوات ٤٦١-٤٦٣هـ/ ١٠٦٨-١٠٧١م، ولقد وجهت الحملتان الأولى والثانية ضد أراضي إمارة حلب في الشام والجزيرة، ولم يكن لهما نتائج خطيرة سوى أعمال الغارة في أراضي حلب، واحتلال مدينة منبج[(١)]، وكانت معركة منازكرد الشهيرة نتيجة الحملة الثالثة، وطبعاً كانت أهمها على الإطلاق لأن نتائجها كانت حاسمة بالنسبة للعالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى.

وقبل الخوض في تفاصيل معركة منازكرد تجب الإشارة إلى أن الجيش البيزنطي الذي خاض المعركة كان متوجهاً لحماية الحدود وطرد التركمان كما ذُكر آنفاً، أما الجيش السلجوقي، فسبب وجوده هناك ما كان يجري في مصر،

---

(١) ابن القلانسي، ٩٤، تاريخ آل سلجوق، ٣٥، ابن العميد، ٥٥٤-٥٥٥، الذهبي، دول الإسلام ٢٠٨/١، العبر للذهبي، ٢٣١/٣ ، ٢٤٨-٢٤٩ ، ابن كثير ، ٩٩/١١.
History of the crusades، setton، 148-149، 192-193. Bar Hebiaeus، 218-219.

ففي القاهرة كان الصراع السياسي على أشده، وكان ناصر الدولة الحمداني[1] أبرز أطراف هذا النزاع، وقد أرسل إلى السلطان ألب أرسلان، يسأله أن يسيّر إليه عسكراً ليقيم الدولة العباسية في مصر، وتكون له مصر، فتجهز ألب أرسلان من خراسان بعساكر عظيمة وتحرك غرباً، وكان تحركه بطيئاً، وعلى كل حال لم تتجاوز حملته أسوار حلب، ومن حلب عاد إلى بلاده، وأثناء العودة وقعت معرة منازكرد.

فأثناء مسير ألب أرسلان إلى حلب كانت الرُّها أول العقبات التي اعترضت سبيل تقدم قواته، وكانت هذه المدينة آنذاك تحت الحكم البيزنطي، وقد وصلها ألب أرسلان في خريف ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م، وأخذ بحصارها وشدد الهجوم عليها من جهة الشرق، لكنه لم يتمكن من دخولها، ويبدو أن اتفاقاً ما قد تم عقده بين أهالي الرها، والسلطان ألب أرسلان، على أساسه أوقف القتال ضد المدينة، وسحب قواته غرباً نحو حلب، وعند وصوله إلى الفرات قَدّم له جميع أمراء دويلات الجزيرة وأصحاب السلطة فيها الولاء، وفروض الطاعة، وفي ربيع الآخر سنة ٤٦٣هـ/ كانون الثاني /١٠٧١م عبر ألب أرسلان وقواته الهائلة نحو الفرات، وقبل عملية العبور هذه أرسل ألب أرسلان وراء محمود بن نصر يدعوه إليه كي يقدم الطاعة، ويفتح أبواب حلب لاستقباله، ولقد رفض محمود – بتحريض من ابن خان – الاستجابة لطلب السلطان، وكما حدث من قبل في الرُّها، حاصرت قوات التركمان مدينة حلب، وبعد حصار مجهد للطرفين توصلوا في شعبان سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م إلى اتفاقية بقي بموجبها محمود حاكماً

---

(١) أحد أحفاد ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل، والأخ الأكبر لسيف الدولة ممدوح المتنبي وأمير حلب.

على حلب ولكن باسم السلطان، ولم يدخل ألب أرسلان حلب، كما لم يدخل أحد من جنده إليها، وبعد تصالحه مع محمود قرر العودة إلى خراسان وعدم متابعة سيره إلى مصر.

ولما عبر ألب أرسلان الفرات مرة ثانية عائداً إلى خراسان وصلته -كما هو مرجح – الأخبار بتحرك جيش بيزنطي هائل نحو بلاد الإسلام بقيادة الإمبراطور رومانوس دايجينوس، لهذا غير ألب أرسلان وجهته، وانحرف شمالاً لمواجهة هذا الجيش الزاحف، ولقد تصدى ألب أرسلان لقوات بيزنطة، واشتبك معها في إرمينية عند موقع اسمه منازكرد (قرب بحيرة وان في تركية الآن) فهزمها، ولولا هذا النصر الخطير، والبعيد التأثير، لكانت حملة ألب أرسلان كلها بلا ثمرات.

– معركة منازكرد ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م:

للأهمية القصوى لهذه المعركة، ولكونها من معارك التاريخ الفاصلة في عالم العصور الوسطى، ولأنها تعدل – إن لم تفق – معركة اليرموك بالنسبة للعلاقات الإسلامية البيزنطية، فلا بأس أن نوليها الاهتمام، ثم نعود بعد ذلك لمتابعة دراسة التركمان وأعمالهم في بلاد الشام والجزيرة.

لقد مثَّل بيزنطة في هذه المعركة الإمبراطور رومانوس دايجينوس الذي تحدثنا عن حملتيه على بلاد الشام، ويعود رومانوس في أصله إلى عائلة ارستقراطية عريقة أصلها من أسر آسية الصغرى، ولقد وجد دايجينوس نفسه منذ أن أصبح إمبراطوراً في سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م يواجه عدة مشاكل داخلية وخارجية، فأولى معظم وقته وطاقات إمبراطوريته للمشاكل الخارجية، إذ إنها أنها كانت أكثر إلحاحاً، ولقد تمثلت المشاكل الخارجية في اجتياح التركمان

للأراضي البيزنطية، ومن أجل إيقاف التركمان ووضع حد لتغلغلهم وتخريبهم للأناضول قاد رومانوس حملتين متتاليتين سلف ذكرهما، ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لحملة كبيرة جداً أراد أن يجتث بها التركمان من بلاده، فقاد قواته التي أعدها تجاه إرمينية في سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، مستغلاً فرصة غياب السلطان ألب أرسلان في بلاد الشام.

وبلغ ألب أرسلان خبر تحرك القوات البيزنطية بعد فراغه من أمر حلب، وأثناء عودته – أو إعداده العدة للعودة – شرقاً، وقبل الاصطدام قامت مراسلات بين الطرفين ووُضع مشروع لمنع القتال يقوم على: أن يتنازل السلطان للإمبراطور عن ملكية منازكرد وأرجيش (وان)، مقابل تخلي الإمبراطور عن منبج، ودفعه جزية سنوية إذا ما أوقف السلطان غارات التركمان ضد الأراضي البيزنطية، ولقد ذكر ابن العبري بأن السلطان قد قبل بمقترحات الإمبراطور وتنازل له – تنفيذاً للاتفاق– عن جميع الأراضي حتى بلدة أخلاط.

لم يتابع تنفيذ هذا الاتفاق لأسباب عديدة لعل أهمها أن الإمبراطور وصلته معلومات حملها الوفد الذي كان عند السلطان تصف حال الفوضى في الجيش التركي، فيقول غرس النعمة: «وضجر السلطان من المقام بحلب، فَكَرّ راجعاً، فقطع الفرات، وهلك أكثر الدواب والجمال، وكان عبوره شبه الهارب، ولم يلتفت إلى ما ذهب من الأرواح والدواب، وعاد رسول الروم مستبشراً إلى صاحبه، فقوى ذلك عزم الروم على أتباعه وحربه».

لقد كان تراجع ألب أرسلان هذا «شبه الهارب» قد تم تبعاً للطريقة التركمانية في خداع العدو والتغرير به، فالتركمان كبدو كانت لديهم خططهم الخاصة في الزحف، كما كان لهم مواريثهم المتميزة، في فن السوقية العسكرية،

وتنطلق هذه المبادئ من الاعتماد على طبيعة البدو، وخفتهم، ومرونتهم في الحركة، واستحالة خضوعهم لأنظمة ضبط وربط محددة.

سارت طريقتهم في الحركة والقتال بأن يعطي القائد أمراً عاماً يحدد فيه لقواته البدوية نقطة لقاء، وليلة لهذا اللقاء، ويندفع البداة زمراً وأفراداً في اتجاهات مختلفة، وهنا يظن العدو بأنهم تفرقوا إلى غير عودة، لكنه لا يدري أن تفرقهم يفيد قائدهم بتحريره من قضايا التموين، ثم يدمر أراضي العدو، ويضلل قيادته، ويجبرها في كثير من الأحيان على توزيع قواتها، ثم حين تصطدم أولى طلائع قوات البدو بجيوش عدوها، يقوم هذا العدو في النهار على تحضير خططه لسحق بضعة آلاف من البدو، ولكن هذا العدو يدهش في صباح اليوم التالي عندما يجد قوات البدو قد تضاعفت في الليل أضعافاً مضاعفة، لذا تنهار معنويات قواته، ويتم عامل المفاجأة، وهكذا يتحقق النصر.

هذا ما طبقه ألب أرسلان، فلما التقت قواته أوّل مرة بقوات رومانوس، كان عددها أقل بكثير من القوات البيزنطية، ولكن بعد مضي ليلتين تضاعفت هذه القوات، ذلك أن ألب أرسلان وصل إلى قبالة الإمبراطور رومانوس في يوم الأربعاء، واشتبك معه ظهر الجمعة.

وقبل الاشتباك أرسل بعثة لمقابلة الإمبراطور والتفاوض معه، وذلك من حيث الظاهر، لكن لاستكشاف أحوال الجيش البيزنطي، وللاتصال بالعناصر الغزية غير المسلمة من حيث الباطن، ولقد أعد الكثير من الكمائن وهيأها لساعات الحاجة وللمفاجأة.

لقد بالغت المصادر العربية في تقدير عدد الجيش البيزنطي، فجعلته يفوق المليون مقاتل، ثم إن هذه المصادر لم تقدر عدد قوات ألب أرسلان بأكثر من ١٥

ألف مقاتل، ولهذا كان النصر الذي تم بالنسبة لها قد تم بفضل مساعدة السماء، أي إنه كان عبارة عن معجزة، لم تكن الصورة هكذا أبداً، ولم يكن هناك أيَّ معجزة، كل ما في الأمر أن قوة بيزنطية التي كانت ربما في حدود الخمسين ألفاً قد لاقت قوة تركمانية مساوية لها بالعدد نفسه، إنما بميزات قد تم شرحها.

يضاف إلى هذا أن قسماً كبيراً من قوات بيزنطة كان مؤلفاً من مرتزقة من عناصر غزية غير مسلمة، وكان عدداً من ضباط الجيش متآمرين ضد رومانوس يعدون انقلاباً للإطاحة به، وتنصيب إمبراطور جديد مكانه، لذا لما اصطدمت جيوش رومانوس بقوات ألب أرسلان دارت معركة قصيرة – إنما حاسمة – تخلى فيها الغز عن البيزنطيين، وانضموا إلى بني جلدتهم، وهرب المتآمرون مع عدد كبير من الجند نحو القسطنطينية، وترك رومانوس في لجة الفوضى والدمار فسقط أسيراً في يد التركمان، فكان أول إمبراطور يأسره المسلمون في تاريخهم.

لقد حطمت هذه المعركة قوى بيزنطة العسكرية، وكانت البداية الفعلية لتحول بيزنطة إلى تركية الحالية، ثم إن الغنائم التي حازها التركمان كانت أكثر من أن تحصى، ولم يحاول ألب أرسلان استغلال نصره المؤزر هذا بمطاردة فلول البيزنطيين، والزحف على القسطنطينية نفسها، واكتفى بأن أحضر رومانوس إلى حضرته «وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه»، وبعد نقاش طويل عفا عنه السلطان، واشترى الإمبراطور نفسه بألف ألف وخمسمئة ألف دينار، وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها ثلاثمئة ألف دينار، وستين ألف دينار، وأن يعيد أنطاكية، والرها، ومنبج، ومنازكرد، ويفرج عن أسرى المسلمين، ثم «أمر السلطان بفك قيوده وغله، ثم قال: أعطوه قدحاً ليسقينيه، فظنه له فأراد أن يشربه ، فمنع ، وأمر بأن يخدم السلطان ويناوله القدح، فأومأ إلى تقبيل

الأرض، وناول السلطان القدح فشربه، وجز شعره، وجعل وجهه على الأرض .... فلما كان من الغد أحضره السلطان، وقد نصب له سريره ودسته الذي أخذه منه، فأجلسه عليه وخلع عليه قباءة وقلنسوة، وألبسه إياهما بيده، وقال له: قد اصطنعتك، وقنعت بأمانتك، وأنا أُسيُّرك إلى بلادك، وأردك إلى ملكك، فقبل الأرض.... وعقد له السلطان راية مكتوب فيها، لا إله إلا الله محمد رسول الله »، وأنفذ معه حاجبين ومئة غلام .... وركب معه وشَيَّعه قدر فرسخ، فأراد أن يترجل، فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه إليه وتعانقا، وعاد السلطان عنه».

ولقد أخفق رومانوس في دخول القسطنطينية، وجهد بعد ذلك من أجل الوفاء بما التزمه للسلطان، ومن أجل استعادة عرشه، فأخفق وفقد حياته(١).

بعد سنتين من معركة منازكرد توفي محمود بن نصر حاكم الدولة المرداسية سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٤م، وبعده بسنتين توفي أيضاً السلطان ألب أرسلان في بلاد ما وراء النهر مطعوناً على يد أحد المتمردين (٤٦٧هـ/

---

(١) تاريخ آل سلجوق، ٣٦-٣٧، ابن ميسر، ١٩/٢-٢٠، المنتظم، ٢٦٠/٨، الكامل- ط ليدن-٤٢/٩-٤٤، ابن العميد، ٥٥-٥٦، زبدة الحلب، ١٦/٢-٢٣، أخبار الدولة السلجوقية، ٤٦-٥٣، راحة الصدور، ١٨٨-١٩٠، تاريخ الفارقي، ١٨٩-١٩٠، ابن القلانسي، ٩٩، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ١٩٨-٢٠١، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، ٣٨٨-٣٩٢، ابن كثير، ١٠١/١١، المختصر في أخبار البشر، ١٩٦/١،=

= تاريخ الإسلام للذهبي، ٥٠/٣، دول الإسلام للذهبي، ٢٠٩/١-٢١٠، النجوم الزاهرة، ٨٦/٥-٨٧، ابن خلدون، ٧٨٧/٤.

Michael Psellus، 352-356. Bar hebraeus،220. Setton، 1، 148، 191. Pre-Ottoman Turkey،29. Edessa، 220-21

١٠٧٥)، وخلفه ابنه ملك شاه، وبوفاتهما انتهت مرحلة من مراحل التاريخ السلجوقي العام مع هجرة التركمان إلى بلاد الشام والجزيرة، وبدأت مرحلة جديدة وحاسمة هي مرحلة سقوط الدولة المرداسية، ومن ثم إخضاع الشام والجزيرة نهائياً للحكم السلجوقي المباشر(١).

- **اجتياح السلاجقة لبلاد الشام:**

إنَّ حملة ألب أرسلان (التي حاصر بها حلب) كانت في الواقع أكثر من حملة عسكرية بحتة، لقد كانت أول موجة تركمانية تأتي الشام والجزيرة بقيادة السلاجقة، وتحت زعامتهم، وقد خلفت بعد عودتها عدداً من الزعماء اشتهر منهم أتسز بن أوق الخوارزمي، الذي سار ومعه أخوته (جاولي، والمأمون، وقرلو، وشكلي) إلى أعمال دمشق، وأتسز هذا استولى على مدينة الرملة، ثم على القدس، كما استولى على طبرية، وحين استولى على مدينة القدس جعل منها مركزاً له، وقام بإلغاء الدعوة الفاطمية، وأحل محلها الدعوة للخليفة العباسي مع السلطان السلجوقي (٢).

غدا أتسز الآن سيد جنوب بلاد الشام بلا منازع، ومتقدماً على التركمان هناك، وفي سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م سار يريد احتلال دمشق، تدعمه قوات أتته من السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان، وكانت أحوال دمشق قد بلغت حداً لا

---

(١) ابن حيوس، ٢/٥١١-٥١٢، ابن القلانسي، ١٠٦-١٠٧، زبدة الحلب، ٢/٣٠-٣٢، ٤٢، المنتظم، ٨/٣٠٤، الكامل، ط. ليدن، ٩/١٦٥، ١٠/٧٢، ابن العميد، ٥٦١-٥٦٢، النجوم الزاهرة، ٥/١٠٠-١٠١، العبر للذهبي، ٣/٢٦٦، ابن كثير، ١١/١١٢، ابن جنغل، ٤/٢٣٢، عقد الجمان، ١١/٥٨٠.

(٢) ابن القلانسي، ٩٨-٩٩، ابن الأثير، ط. ليدن، ١٠/٤٦، النجوم الزاهرة، ٥/٨١.

مثيل له من السوء، والاضطراب، والفقر وندرة المؤن، في ظل الحكم الفاطمي، فتمكن من دخولها سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م، ولقب أتسز نفسه بالملك المعظم، وأوقف في دمشق أيضاً الدعوة للفاطميين ودعا للعباسيين مع السلطان السلجوقي.

أما وقد أصبح أتسز سيد جميع جنوبي بلاد الشام تقريباً، فقد أخذ يتطلع ببصره نحو الشمال، أي إلى حلب، وفعلاً وصل إلى أعمالها الجنوبية سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م، لكنه انصرف عنها عندما علم بنية السلطان ملك شاه على إقطاع شمالي بلاد الشام لأخيه تُتُش، وأخذ أتسز يتطلع نحو ملك جديد، ولم يكن ذلك أقل من مصر كلها [١].

كان سيد مصر الفعلي في هذه الآونة بدراً الجمالي، وكان بدر يعمل على تقوية حكمه، وتوطيد مركزه، وفي سبيل ذلك اصطدم مع عدد من رجالات الحكم الفاطمي الذين هربوا إلى أتسز التركماني، وساروا معه في جيشه الذاهب إلى مصر، حيث بلغ أطرافها في أوائل ربيع الأول لسنة ٤٦٩هـ/ تشرين الأول ١٠٧٦م، وكان معه حسب رواية غرس النعمة عشرين ألفاً «من التركمان، والأكراد، والعرب»، ووصل إلى ريف مصر، لكنه في معركة دارت رحاها بين قواته وقوات بدر الجمالي انهزم وهرب إلى فلسطين ثم دمشق، وبعد سنتين جهّز بدر الجمالي جيشاً بقيادة نصر الدولة الجيوشي (يرد اسمه أحياناً ناصر الدولة وأحياناً نصير الدولة) وسيره نحو الشام لما صح عنده عزم أتسز على مهاجمة مصر ثاني مرة، فوصلت القوات الفاطمية دمشق سنة ٤٧١هـ/ ١٠٨٧م، فأخذت بحصارها ومضايقتها، واستولى الجيش الفاطمي على أعمال دمشق، وأعمال فلسطين، وأقام على دمشق «مدة مضايقاً لها وطامعاً في تملكها»، وهنا استنجد

(١) زبدة الحلب، ٢/٤٦-٤٨،

أتسز بتاج الدولة تُتُش أخي السلطان ألب أرسلان، وكان تُتُش آنذاك مُنازلاً لحلب يجهد لأخذها، ففك الحصار عنها وتوجه إلى دمشق، وقبل وصوله فكت القوات الفاطمية الحصار عن دمشق وهربت، فدخلها تاج الدولة تُتُش، ثم تخلص من أتسز بقتله مع أخيه في السنة نفسها، وانفرد بحكم دمشق، وبهذا يكون تُتُش قد طوى صفحة حالكة من تاريخ دمشق، وجنوب بلاد الشام.

أما وقد رأينا ما حلَّ بدمشق وجنوبي بلاد الشام، فلنعد نحو الشمال حتى نشهد بقية المأساة ونستوفي القصة، ونسدل الستار على الشام كبلد فيه العرب دور سياسي مؤثر.

توفي محمود بن نصر أمير حلب المرداسي، وحلَّ مكانه في الحكم ابنه الكبير نصر [1]، وكانت غالبية عسكره مؤلفة من التركمان، فاصطدم معهم، وقتلوه سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م، فتم تنصيب أخيه سابق بن محمود الذي أساء السيرة في حلب، فما كان من أمراء بني كلاب إلا أن شكلوا وفداً توجه شرقاً إلى السلطان ملك شاه، شكوا له حالهم، وسألوه أن يعينهم على أميرهم سابق، فوعدهم بذلك وأرسل لهم حملة سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، كان على رأسها أخيه تُتُش، الذي وصل حلب وألقى عليها الحصار فأخفق أول مرة، ثم أمدة السلطان ملك شاه

---

(١) ابن القلانسي، ١٠٨، المنتظم، ٣٠٤/٨، الكامل، ط، ليدن، ١٦٥/٩، ١٠/١٠، العبر للذهبي، ٢٢٦/٣، المختصر في أخبار البشر ١٤٩/١-٢٠٢، ابن العميد، ٥٦٣-٥٦٥، النجوم الزاهرة، ١٠٠/٥-١٠١، عقد الجمان، ٥٨١/١١.

وفرض عليها حصاراً ثانياً، وفي أثنائه وصلت استنجادات أتسز من دمشق، ففك تُتُش الحصار – كما ذكرنا سالفاً – وتوجه إلى دمشق فدخلها سنة ٤٧١هـ[١].

والآن اقتنع كل إنسان في شمال بلاد الشام – حتى في الجنوب – بأن سابق بن محمود ليس له من الطاقة والعزيمة ما يمكنه من صنع أي شيء يحسن به الوضع، فتطلعوا إلى مسلم بن قريش حاكم الموصل وأرسلوا إليه عدة وفود وجماعات تمثل مختلف طبقات الناس من أهالي الشام وأمرائه وأحداثه مع أعداد هائلة من اللاجئين، ولقد استغاث هؤلاء بمسلم بن قريش، وطلبوا منه التحرك نحو الشام لتخليصه، وهنا قرر مسلم ليس العمل للاستيلاء على شمال الشام فقط، إنما على جميع مناطق الشام ومدنه، فسار إلى جعبر وصالح أهلها، ثم أكمل سيره إلى حلب فوصلها في ذي الحجة ٤٧٢هـ/ حزيران ١٠٨٠م، ومعه بني كلاب، وكلب، ونمير، وقد أطاعوه خوفاً من الغز، فدخل حلب، ولم يتمكن من القلعة إلا بعد أربعة أشهر، فزالت بذلك دولة بني مرداس، وقام مسلم بن قريش بأعمال توسعية على حساب أملاك الدولة المرداسية، وكذلك في حران، والرها، وأنطاكية، حتى غدا سيداً على شمال بلاد الشام حتى حماه جنوباً، مع الجزيرة وأجزاء من العراق.

رد تُتُش حاكم دمشق وجنوب الشام على تحركات مسلم في الشمال بتحرك مماثل، ولا سيما بعد أن تلقى دعواتٍ وعروضاً من قبل بعض أمراء الدولة المرداسية، وبعض حلفاء مسلم، مثل خلف بن ملاعب، وأمير شيزر للتعاون معاً ضد مسلم لطرده من بلاد الشام، ولتسليم أملاكه لتُتُش، فاتجه تُتُش شمالاً إلى

---

(١) ابن القلانسي، ١١٢، ابن عساكر، ١٠/٤٣٣-٤٣٤، زبدة الحلب، ٢/٦٢-٦٥، ابن العميد، ٥٦٦-٥٦٧.

أنطاكية، ثم تجهز مع حلفائه للهجوم على حلب، ولما سمع مسلم بن قريش بنبأ تحرك تُتُش وحلفائه العرب، سارع بعبور الفرات على رأس قوات كبيرة، وقصد أولاً مدينة حلب ومنها كان يريد دمشق، ولقد أجبر تحرك مسلم السريع تُتُش مع حلفائه على الإقلاع عن متابعة أعمالهم، والتراجع كل إلى بلده، وموقعه الحصين للدفاع عنه، ضد مسلم بن قريش.

وفي حزيران سنة ١٠٨٣ ألقى مسلم بن قريش الحصار على مدينة دمشق، وبهذا كان ينفذ أهم أعماله كلها، ويقوم بالخطوة الأخيرة والمهمة نحو تأسيس دولة عربية تضم الشام والجزيرة مع أجزاء من العراق، ولقد أخفق مسلم في أخذ دمشق، وذلك بعد أن حاصرها قرابة شهر، كما أنه أجبر على الانسحاب.

- حملة ملك شاه، وخضوع بلاد الشام للسلاجقة:

في هذه الآونة، وفي سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م سيَّر ملك شاه حملة سلجوقية ضخمة إلى الجزيرة وبلاد الشام، ووضع على قيادتها فخر الدولة محمد بن جهير،(١) وكلفه بالاستيلاء على ديار بكر والقضاء على الدولة المروانية، وعين إلى جانبه آق سنقر قسيم الدولة مسؤولاً عسكرياً عن شؤون الحملة، ثم أردفه بجيش آخر من جملة أمراءه الأمير أُرتُق بن أكسب أبو الملوك الأراتقة.

---

(١) كان هذا كبير أسرة آل جهير، شغل منصب الوزارة في الموصل، ثم في حلب، ثم وزيراً للخليفة القائم ومن بعده المقتدي، وكان من أقرب أصدقاء نظام الملك، تزوج ابنه محمد ابنتي نظام الملك واحدة بعد الأخرى، وبعد عزله عن وزارة المقتدي خلفه ابنه محمد، وبعد عزل هذا الأخير سارت العائلة إلى أصفهان حيث نزلت في ضيافة ملك شاه ووزيره نظام الملك، ثم كُلف فخر الدولة قيادة هذه الحملة.

وقرب آمد انتصر هذا الجيش على قوات الدولة المروانية والدولة العقيلية، وفرَّ مسلم ابن قريش إلى آمد، ولما سمع ملك شاه بخبر هذا النصر أسرع لاغتنام الفرصة وسار من أصفهان إلى الموصل فدخلها، ثم أجبر على العودة إلى خراسان بسبب تمرد أخيه تكش هناك، فاضطر إلى صنع تسوية مع مسلم بن قريش.

لم تطل حياة مسلم بعد هذه التسوية، وقُتل على يد سليمان بن قُتُلْمُش أحد أفراد الأسرة السلجوقية الذين كانوا يعملون داخل الأراضي البيزنطية، وقد احتل هذا الأخير أنطاكية التي كانت تدفع الجزية لمسلم، فقرر مسلم قتاله، واجتمعا في معركة قرب عفرين في ٢٤ صفر ٤٧٨هـ /٢١ حزيران ١٠٨٥م، سقط مسلم فيها قتيلاً[١].

لقد أنهى مقتل مسلم بن قريش جميع المشاريع التي خطط لها، كما أنهى المرحلة التي كان المتصارعون فيها للسيادة على الشام هم البدو العرب من جهة، والبدو التركمان من جهة ثانية، ولقد أصبح من الآن فصاعداً الصراع من أجل السيادة على الشام بين التركمان أنفسهم إذ إن القبائل العربية قد أزيحت عن مسرح الأحداث المؤثرة، ولم يعد لها شأن يذكر في إحداث التغيرات السياسية في الشام.

ومن ساحة المعركة التي قتل فيها مسلم بن قريش توجه سليمان بن قُتُلْمُش يريد حصار حلب، فتولى الأحداث تحت زعامة الشريف حسن بن هبة الله

---

(١) ابن العميد، ٥٦٨-٥٦٩، الكامل، ط. ليدن، ١٠/٩٠-٩١، الباهر، ٧، زبدة الحلب، ٢/٨٨-٩٢، ٢٣٠، مفرج الكروب، ١/١٥، المختصر في أخبار البشر، ١/٢٠٥، ابن خلدون، ٤/٥٧٥-٥٧٦، ابن كثير، ١١/١٢٦، النجوم الزاهرة، ٥/١١٩.

الحُتيتي الدفاع عنها، وأثناء الحصار قام الحتيتي بمراسلة السلطان ملك شاه، فأعلمه بمصرع ابن قريش، ودعاه للقدوم إلى حلب ليتسلمها.

وفعلاً استجاب السلطان ملك شاه، وتحرك باتجاه حلب، لكن كان سيره بطيئاً، فوجد الحتيتي نفسه مضطراً لطلب المساعدة من تُتُش حاكم دمشق، ولم يكن تُتُش ينتظر أكثر من هذه الدعوة، وكان عنده حين وصول هذه الدعوة أُرتق مع أتباعه، ولهذا تحرك تُتُش، وأرتق وأتباعهما من التركمان شمالاً يريدون مدينة حلب، وكان ذلك في محرم سنة ٤٧٩هـ / نيسان ١٠٨٥م، وقبل أن يصل تُتُش وقواته إلى حلب اعترضه سليمان بن قُتُلْمُش مع قواته، والتحم الجيشان السلجوقيان في معركة تمخضت عن نصر تُتُش ومقتل سليمان بن قُتُلْمُش، وهزيمة قواته، **ولقد كانت هذه المعركة التي وقعت بعد قرابة سنة من مقتل مسلم بن قريش**(١) **أول معركة اقتتل فيها جيشان سلجوقيان من أجل السيادة على إحدى مناطق الشام، ومن هنا تأتي أهميتها، ذلك أنها افتتحت مرحلة جديدة في تاريخ الشام والتاريخ السلجوقي، وسببت وضع حلب أول مرة في تاريخها تحت حكم السلاجقة المباشر، وبذلك خلص معظم الشام للسلاجقة، وبات بإمكانهم تطويق الجزيرة والإجهاز على ما بقي فيها من قوة.**

دخل تتش حلب، ولما وصلت طلائع قوات أخيه السلطان ملك شاه إلى حلب لم يشأ الاصطدام معه، فانسحب إلى دمشق ودخل ملك شاه حلب، وعيّد فيها عيد الفطر لسنة ٤٧٩ هـ /كانون الثاني ١٠٨٧ ثم غادرها متوجهاً شرقاً

---

(١) ابن العميد، ٥٦٩-٥٧١، الكامل، ٩٦/١٠، الباهر، ٧، زبدة الحلب، ٩٤/٢-٩٨، مفرج الكروب، ١٥/١-١٦، المختصر في أخبار البشر، ٢٠٦/١-٢٠٧، الدرة المضية، ٤٢٣، النجوم الزاهرة، ١٢٤/٥، ابن كثير، ١٣٠/١١، ابن خلدون، ٥٨٩/٤.

نحو خراسان، وقبل أن يغادر ملك شاه مدينة حلب، جاءته رسالة من نصر بن علي أمير شيزر يعترف فيها بالطاعة للسلطان، ويتنازل له عن اللاذقية وأفامية وكفرطاب، وخلف ملك شاه وراءه آق سنقر قسيم الدولة والياً على حلب، وترك عند قسيم الدولة حامية مؤلفة من أربعة آلاف فارس، وفي طريقه إلى خراسان عين ملك شاه بوزان حاكماً على مدينة الرها(١).

كانت حملة ألب أرسلان إلى حلب سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م أول حملة يقودها سلطان سلجوقي إلى بلاد الشام، وكانت نتائجها في آسيا الصغرى بالغة الأثر، وكانت حملة ملك شاه هذه ثاني حملة كبيرة يقودها أحد سلاطنة السلاجقة حتى حلب، ولقد سارت هذه الحملة على الطريق نفسه الذي سلكته حملة ألب أرسلان من قبل، إنما حققت ما لم تحققه تلك الحملة، فلقد أوصلت الإمبراطورية السلجوقية إلى ذروتها في الاتساع، وقد استطاع ملك شاه أخذ الرها، وحلب، وأنطاكية، الأمر الذي أخفق أبوه في تحقيقه.

وفي الحقيقة لقد كانت حملة ألب أرسلان، ثم حملة ابن جهير، وحملة ملك شاه هذه، أكثر من حملات عسكرية، لقد كانت حلقات من حلقات تدفق التركمان على بلاد الشام والجزيرة، فحملة ألب أرسلان جلبت إلى الشام، أتسز، وتُتُش، وغيرهما....، وتركت حملة ابن جهير وراءها أرتق، وفتحت الطريق أمامها وأمام أتباعهما للدخول إلى الشام، ومع حملة ملك شاه الأخيرة أصبحت الشام، وإلى حد ما الجزيرة، أجزاء من الإمبراطورية السلجوقية الواسعة، وقد

---

(١) الكامل، ط. ليدن ٩٨/١٠، ١٠٧، الباهر، ٨، زبدة الحلب، ١٠١/٢-١٠٢، مفرج الكروب، ١٨/١-١٩، المختصر في أخبار البشر، ٢٠٧/١، ابن كثير، ١٣٠/١١-١٣١، ابن خلدون، ٥٩٠/٤، الروضتين، ٦١/١.

افتتحت هذه الحملة عصراً جديداً في تاريخ الشام والجزيرة هو عصر الحكم السلجوقي المباشر، وسيكون هذا العصر موضوعنا المقبل.



المقالة الرابعة

بلاد الشام والجزيرة تحت الحكم السلجوقي المباشر

إلى قدوم الحملة الصليبية الأولى

- توطئة:

خضعت معظم بلاد الشام والجزيرة بعد حملة ملك شاه الأخيرة للحكم السلجوقي المباشر، وكان تُتُش في دمشق، وآق سنقر في حلب، وبوزان في الرُّها، ويغي سيان في أنطاكية، أشهر حكام السلاجقة آنذاك، وقد احتل آق سنقر وتُتُش الريادة بين هؤلاء القادة بحكم طموحهم، وسعيهم للصدارة، لكن ما نملكه من معلومات عن حكم تُتُش في دمشق قليلٌ ولا يفي بالغرض.

غير أن أهم ما في حكم تُتُش هو علاقته بآق سنقر قسيم الدولة الذي خلفه السلطان ملك شاه وراءه والياً على حلب، وفي إطار هذه العلاقة تدخل أعمال تُتُش التوسعية ثم مساعيه لنيل السلطنة، ومن حسن الحظ أن ما وصلنا من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب يحوي ترجمة جيدة لآق سنقر، ومن هذه الترجمة، ثم مما جاء في مصادرنا من معلومات يمكننا أن نكوّن صورة مفيدة، وشبه وافية عن حكم آق سنقر في حلب ومن ثم عن علاقته بتُتُش.

- **حكم آق سنقر في حلب:**

لقد دام حكم آق سنقر في حلب ما يقارب السبع سنوات (٤٨٠-٤٨٧هـ/ ١٠٨٧-١٠٩٤م)، وكانت مدة الحكم هذه مدة مهمة في تاريخ حلب وشمالي بلاد الشام، لأنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة، ونحن نجد آق سنقر في روايات المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه المدة واضح الشخصية، بارزاً وراء كل حدث، ممدوحاً بشكل كبير لا لأنه كان والد زنكي، وجد نور الدين محمود، بل لأنه: «أحسن فيها - في حلب - السياسة والسيرة، وأقام الهيبة، وجمع الذعار، وأفنى قطاع الطرق ومخيفي السبل، وتتبع اللصوص والحرامية في كل مواضع، فاستأصل شأفتهم، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله لتُؤْمن الطرق، وتسلك السبل، فشُكر بذلك الفعل، وأمنت الطرق والمسالك، وسار الناس في كل وجه بعد امتناعهم لخوفهم من القطاع والأشرار، وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك بورود التجار إليها والجلابين من جميع الجهات، ورغب الناس في المقام بها، للعدل الذي أظهره فيهم، ورخصت الأسعار في أيامه الرخص الزائد عن الحد، وقرَّب الحلبيين وأحبهم الحب المفرط، وأحبوه أضعاف ذلك، وأقام الحدود، وأحيا أحكام الإسلام، وعمر الأطراف، وأمّن السبل، وقتل قطاع الطرق، وطلبهم في كل فج، وشنق منهم خلقاً، وكان كلما سمع بقاطع طريق في موضع قصده، وأخذه، وصلبه على أبواب المدينة، وكثرت في أيامه الأمطار، وتفجرت العيون والأنهار، وعامل أهل حلب من الجميل بما أحوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر»[١].

---

(١) بغية الطلب، ٩/ ١٩٥٤، ابن القلانسي، ١١٩، الكامل، ط. ليدن، ١٠/١٠٧، الباهر، ٨، زبدة الحلب، ٢/١٠٢-١٠٣، مفرج الكروب، ١/١٩،

لقد كان آق سنقر قسيم الدولة أول حاكم سلجوقي لحلب أخذ فعلياً مكان أميرها العربي، وفي حين نجد أن نفوذ آق سنقر وسيطرته ينفذان عميقاً في كل جانب من جوانب الحياة في شمال بلاد الشام، كان سلفه الأمير العربي يعيش في قلعة حلب شبه منعزل عن مباشرة الحكم بنفسه، ولم يكن ليهتم إلا بسلامة حكمه، وجمع الضرائب، ولذة عيشه، وعلى عكس هذا تماماً كان آق سنقر الذي فرض نفسه على كل أمر، وتدخل في كل قضية، وصرف اهتمامه إلى شؤون الإمارة من صغيرة وكبيرة، وأشرف بذاته على تنفيذ كل أمر، ولم يتساهل حتى مع الحيوانات في مخالفة أوامره، وأخذ بفكرة المسؤولية العامة، كما طبق مبدأ العقوبة الجماعية.

لقد كان آق سنقر يتصرف في حكمه تصرف حاكم مطلق له مبادئه الخاصة ومفاهيمه الذاتية، ولا غرابة في هذا، فهو قد نشأ وتدرب في البلاط السلجوقي في إيران، وفي هذا البلاد تكونت مفاهيمه الخاصة بالحكم والسياسة، ولقد كانت تقاليد هذا البلاط أوتوقراطية، قد نبعت من أصول تركية تأثرت تأثراً شديداً بتقاليد إيران المسلمة، ولقد جاء تطبيق هذه المبادئ في شمال بلاد الشام أول مرة، بتجربة جديدة جد خطيرة على أناس اعتادوا منذ قرون عديدة طرائق البدو العرب في الحكم، وعلى مبادئهم في السياسة والإدارة.

ويعتمد كل حكم «أوتوقراطي» على قوات محترفة، أو شبه محترفة، وهكذا لقد كان حكم آق سنقر وحكم غيره من التركمان في الشام حكماً عسكرياً، فآق سنقر كان أحد ضباط جيش السلطان ملك شاه، ومثله كان يغي سغان صاحب أنطاكية، وبوزان صاحب الرها، فبعد ما عين السلطان ملك شاه آق سنقر حاكماً على حلب ترك عنده قوة عسكرية مؤلفة من ٤٠٠٠ فارس، ثم لما

كان حكم آق سنقر قد خلف الحكم البدوي العربي فإن الفراغ الذي تركه شيوخ القبيلة قد ملأه ضباط الحامية العسكرية، وهكذا أصبح الضباط الشخصيات المرموقة في البلاد، وبذلك نشأت طبقة جديدة في المجتمع، هي طبقة الضباط، ولقد نمت هذه الطبقة، واطَّردت قوتها وتطورت بسرعة مذهلة، حتى غدا الضباط رجال الجماعة الذين يملكون القدرة على إحداث التغيير السياسي، حتى غير السياسي، ومع ظهور كل ضابط طموح، ظهر شيء جديد، لم يكن في الغالب أقل من أسرة حاكمة جديدة، ويكفي دليلاً على هذا أن نتذكر أن زنكي مؤسس الدولة الأتابكية، ثم صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية كانا ضباطين.

– الصراع بين تاج الدولة تُتُش وآق سنقر على سيادة بلاد الشام:

في تاريخ بلاد الشام كان هناك دائماً تنافس، أو بالحري صراع من أجل السيادة بين الشمال والجنوب، ولقد مثلت دمشق – منذ القرن السابع الميلادي – الجنوب، كما مثلت حلب الشمال في هذا الصراع، ولقد كانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية، لكن غالباً ما كانت سياسية إذ حاول حكام دمشق من طرفهم وحكام حلب من الطرف الآخر مد سيطرتهم كلياً على الشام، ومما يدهش أن بلاد الشام نادراً ما عرفت الوحدة السياسية لمدة طويلة، بل تعودت التمزق والدويلات، وتبعاً لهذه القاعدة «المؤسفة« حدث صراع بين تُتُش وآق سنقر، وسنجد تُتُش ينتصر على آق سنقر ويقتله، ومن ثم يوحِّد شمال الشام مع جنوبه ، لكن تُتُش لن يلبث طويلاً حتى يُقتل، فيرثه في حلب ابنه الأكبر رضوان، وفي دمشق ولده الآخر دُقاق، ومن

جديد يبدأ الصراع بين دمشق وحلب ، وفي غمرة الصراع هذا تصل الحملة الصليبية الأولى إلى الشام.

لقد جهد تُتُش منذ أن أصبح حاكم دمشق في العمل على مد سلطانه على بلدان الشام ومدنه، ولا سيما الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للخلافة الفاطمية، أو تحكم من قبلها مباشرة، وفي سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م وصلت حملة فاطمية سيطرت على معظم الساحل الشامي حتى عكا، وعلى بعض أراضي تتش، ثم قامت بحصار بعلبك، وأثناء الحصار هذا وصل إلى المعسكر الفاطمي خلف بن ملاعب صاحب حمص وأفامية حيث قابل قائد القوات الفاطمية، واعترف له رسمياً بسلطان الخليفة الفاطمي وسيادته عليه.

أثارت هذه الحملة خوف تُتُش وطلب المدد من أخيه السلطان ملك شاه وهنا أمر السلطان ولاته في الشام (آق سنقر حاكم حلب، وبوزان حاكم الرُّها، ويغي سغان حاكم أنطاكية) بالتحرك لمساعدة تُتُش، وأن يتحدوا معه للقيام بعمل تأديبي ضد خلف بن ملاعب صاحب حمص، ولكي يقوموا بمحاولة للاستيلاء على جميع أملاك الفاطميين في الشام.

وأسند ملكشاه القيادة لأخيه تُتُش، وكما يبدو أن آق سنقر وبوزان قد قبلا بذلك مكرهين، فهما لم يرغبا بقيادة تُتُش لأسباب شخصية، بالإضافة إلى أن كل المرابح سوف تكون باسم تُتُش، وعدم رغبتهما هذه سببت نجاحاً جزئياً فقط لخطط تُتُش.

في سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م اجتمعت قوات بوزان، وآق سنقر قسيم الدولة، ويغي سغان، وتُتُش على حمص، فاقتحموها وسيروا خلف بن ملاعب في قفص

حديد إلى السلطان ملك شاه ولقد طلب كل واحد من الأمراء حمص لنفسه، فكتبوا جميعاً إلى السلطان، فأنعم بها على أخيه تاج الدولة.

يبدو أن منح حمص لتُتُش قد أغضب آق سنقر، وبدا ذلك واضحاً أثناء حصار طرابلس، فبعد حمص سار الجيش السلجوقي إلى طرابلس، وكان ابن عمار قاضي المدينة وحاكمها قد أعد عدته للدفاع عن طرابلس، وأول ما قام به هو أنه احتج ضد الحصار، وأبرز وثائق موقعه من قبل السلطان ملك شاه فيها يعترف له بسلطانه على طرابلس، ويبدو أنه كان على بينة بما كان بين تُتُش وآق سنقر من التحاسد والتباغض، لذلك اتصل سراً بآق سنقر قسيم الدولة وعرض عليه مبلغ ٣٠.٠٠٠ دينار إن هو ساعده في وقف حصار طرابلس، وهنا أخبر آق سنقر تُتُش بأن الوثائق التي أبرزها ابن عمار هي صحيحة، وأنهم على هذا بحصارهم لطرابلس يخالفون أوامر السلطان ملك شاه.

ووقع جدال بين تُتُش وآق سنقر قسيم الدولة تطور إلى خصام قام على أثره آق سنقر بسحب قواته والتوجه بها نحو حلب، وتخلى بوزان أيضاً عن تُتُش، وانسحب مع قواته، وهنا وجد تُتُش نفسه لا يملك القدرة على متابعة حصاره لطرابلس لذلك جمع هو أيضاً قواته، وعاد خائباً إلى دمشق[١].

في سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م قدم ملك شاه إلى بغداد، وجمع في بلاطه ولاته، وناقش معهم المشاكل والقضايا المهمة، وكان من بينها قضية الخلاف بين

---

(١) ابن القلانسي، ١٢٠-١٢١، الكامل، ط. ليدن، ١٠/١٣٦-١٣٧، مفرج الكروب، ١/١٩-٢٣، المختصر في أخبار البشر، ١/٢١٢، ابن كثير، ١١/١٣٩-١٤٠، النجوم الزاهرة، ٥/١٢٨، ١٣٠، ١٣٢، طرابلس الشام، ٧٠-٧٢.

أخيه تُتُش وآق سنقر، وعلى ما يبدو فإن تُتُش خسر القضية نتيجة لاتهام آق سنقر له بالكذب، ثم لفضحه نواياه السيئة وخططه تجاه السلطان.

ولما أراد تُتُش العودة إلى دمشق أُجبر على ترك أحد أولاده رهينة عند السلطان، ولقد ملأ هذا قلب تُتُش حقداً على آق سنقر، لذلك سنجده في سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م يقوم بقتل آق سنقر بيديه صبراً، وسنأتي على بحث هذا بالتفصيل، والمهم أن نذكر هنا أن آق سنقر قد ترك بغداد أيضاً، وعاد إلى حلب لكن بمكانة أعلى، ومركز أقوى، وأثبت (١).

- محاولات تُتُش لنيل السلطنة بعد وفاة ملك شاه:

لم تكن قضية الصراع بين تُتُش وآق سنقر هي القضية الوحيدة التي عاشها البلاط السلجوقي للسلطان ملك شاه أثناء وجوده في بغداد ثم بعد تحركه منها، لقد كان سيد الإمبراطورية السلجوقية الفعلي زمن ملك شاه وزيره نظام الملك، وكان ملك شاه يريد الخلاص من نظام الملك للانفراد بالسلطة وَحْدَه، كما أراد ملك شاه في الوقت نفسه إخراج الخليفة العباسي من بغداد إلى مكة أو المدينة، وتآمرت أطراف التنازل بعضها ضد بعض، وسقط الوزير نظام الملك أولاً قتيلاً على يد أحد أفراد الحشيشية، ثم لحقه بعد مدة وجيزة السلطان ملك شاه مسموماً شوال ٤٨٥هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٢م، ثم لم تطل أيام الخليفة المقتدي بعد ملك شاه إذ توفي هو الآخر في سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م.

---

(١) الكامل، ٩. ليدن، ١٠/ ١٣٣، ١٣٤، الباهر، ٨، تاريخ دولة آل سلجوق، ٦٥-٦، ٧٥، مفرج الكروب، ١٩/١، النجوم الزاهرة، ١٢٢/٥.

لما مات ملك شاه كان عمره ثمانياً وثلاثين سنة، وقد خلف عدداً من الأولاد ما من واحد منهم كان في عمر يمكنه من اعتلاء عرش السلطنة الشاغر، وقام صراع بين السلاجقة من أجل خلافة ملك شاه، واحتضنت كل فئة وحزب أحد الصبية وجهدت – باسمه – من أجل السيطرة على الإمبراطورية[١].

ولقد اتخذ آق سنقر قسيم الدولة وبوزان صاحب الرها وحران لنفسيهما موقفاً موحداً، وتأرجحا بين الفئات السلجوقية المتصارعة حتى واجها الموت نتيجة لحادث واحد، ويروي ابن العديم أن آق سنقر - وطبعاً مع بوزان- قد اعترف أولاً بسلطنة محمود الابن الأصغر لملك شاه[٢]، لكنه لم يلبث أن بدل اعترافه وتحول بولائه.

ولما أخبر تُتُش بوفاة أخيه السلطان ملك شاه أعلن نفسه خليفة له، وسلطاناً للإمبراطورية السلجوقية، وحتى ينال السلطنة فعلاً ويعترف به الجميع، ولكي يمتن مركزه قام تُتُش بتجنيد جيش كبير.

وفي حلب أدرك آق سنقر قسيم الدولة، مدى خطورة تحركات تُتُش هذه، وفي الوقت نفسه علم أن أولاد ملك شاه يحارب بعضهم بعضاً من أجل خلافة أبيهم، وليس هناك ما يشير بشكل قاطع إلى رجحان كفة فئة على أخرى، وفي هذه الظروف ومن زاوية إدراكه أنه لا يملك القوة الكافية لمقاومة تُتُش أو التصدي له قام آق سنقر مكرهاً بالاعتراف بتُتُش وأعلن استعداده لوضع نفسه

---

(١) ابن القلانسي، ١٢٥، تاريخ دولة آل سلجوق، ٦٤، ٧٥، أخبار الدولة السلجوقية، ٧١، زبدة الحلب، ١٠٦/٢، مفرج الكروب، ٢٣/١، الكامل، ط. ليدن، ١٠/١٤٢-١٤٣، الروضتين، ٦٥/١.

(٢) زبدة الحلب، ١٠٦.

وقواته تحت تصرفه، وفي سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م – ربما في شباط- مر تُتُش بأراضي حلب متوجهاً شرقا يريد خراسان، وفي الطريق التحق به آق سنقر قسيم الدولة، ويغي سغان، وبوزان، وأثناء تحركه هذا استولوا على الرحبة، ونصيبين، وأكثر مناطق الجزيرة، وقرب الموصل خاضوا معركة ضد إبراهيم بن قريش حاكم الدولة العقيلية (١)، أتوا بها نهائياً على قوة عقيل، ثم على الدولة المروانية بعد أن سيطروا على آمد وميافارقين.

إن الانتصارات التي حققها تُتُش قد حسنت من وضعه، وقوّت مركزه، لذلك كتب إلى الخليفة في بغداد يطلب إليه أن يخطب له بالسلطنة على منابر بغداد وبلدان الخلافة العباسية، ويتوعده إذا لم يستجب لطلبه، فلم يعبأ الخليفة بتهديداته، وخاطبه بأن عليه أولاً القضاء على منافسيه في الشرق وإثبات قوته.

وأمام هذا الموقف قرر تُتُش التوجه مباشرة إلى خراسان، وعدم الذهاب إلى بغداد، وفي خراسان كانت ملامح الصراع بين أبناء ملك شاه قد توضحت، بأن رجحت الكفة لصالح بركياروق الابن الكبير، ولما وصل تُتُش إلى مدينة تبريز تخلى عنه آق سنقر وبوزان وانضما إلى بركياروق، لذا انسحب تُتُش حنقاً إلى أنطاكية، ثم سار جنوباً إلى دمشق، وعاد آق سنقر إلى حلب وبوزان إلى الرها(٢).

---

(١) ورث إبراهيم هذا أخاه مسلم، ثم أسره ملك شاه، ولما توفي ملك شاه أطلقت تركان خاتون زوج ملك شاه سراحه، فعاد إلى إمارته في الموصل.

(٢) ابن القلانسي، ١٢١-١٢٤، تاريخ الفارقي، ٢٣٠-٢٣٧، الكامل، ط. ليدن، ١٠/١٤٩-١٥١، الباهر، ١٣، المنتظم، ٩/٧٧، ابن العميد، ٥٧٤، زبدة الحلب، ٤/١٠٦، ١٠٨، ١١٠، الروضتين، ١/٢١٤، النجوم الزاهرة، ٥/١٣٧-١٣٨، ابن كثير، ١١/١٤٤.

عاد تُتُش إلى دمشق، وهناك عمل على تقوية جيشه بتجنيد قوات جديدة، وانضم إليه يغي سغان بعسكر أنطاكية، وقام آق سنقر في حلب بالاستعداد للتصدي لتُتُش، فطلب مساعدة من بركياروق، كما استنجد ببوزان صاحب الرها وكربوغا صاحب الموصل.

وفي معركة جمعت الطرفين جنوب حلب في ٩ جمادى الأولى ٤٨٧هـ/ ٢٦ آذار ١٠٩٤م انهزم آق سنقر، ووقع في الأسر ، فحُمل إلى تاج الدولة تُتُش فلما مثل بين يديه قال له: «لو ظفرت بي ما كنت صانعاً في؟ قال: أقتلك، قال: فإني أحكم عليك بحكمك فيَّ»، وقام تاج الدولة إليه «فضرب رقبته بيده، وقطع رأسه»، «وأصبح تاج الدولة يوم الأحد على حلب ومعه رأس الأمير قسيم الدولة»، فقرر كربوقا وبوزان اللذان دخلا المدينة المقاومة، لكن تُتُش تمكن من دخول المدينة، وقبض على بوزان فضرب رقبته صبراً، وأخذ كربوقا واعتقله بحمص، وأقطع الشام لعسكره، وأقطع معرة النعمان واللاذقية ليغي سغان.

ورحل السلطان تاج الدولة بجيشه عن حلب إلى ناحية الفرات، وقطعه للمرة الثانية متجهاً إلى الشرق في طلبه للسلطنة، فاستعاد حران، وكذلك سروج، والرها، وقصد ديار بكر، ووصل في مسيره إلى همذان، وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه فيمن بقي من الأجناد في الشام، فسار إلى حلب، ومن حلب إلى العراق.

كان بركياروق هو المنافس لتُتُش على السلطنة، وفي معركة جمعت الخصمين قرب الري في صفر ٤٨٨هـ/ شباط ١٠٩٥م انهزم عسكر تُتُش أمام قوات بركياروق، وثبت هو فقتل، قتله – غِيْلَةً – بعض أصحاب آق سنقر صاحب حلب – أو بوزان صاحب الرها – أخذاً بثأر صاحبه.

لقد ختم مقتل كل من آق سنقر قسيم الدولة، وبوزان، ثم تُتُش مرحلة من مراحل تاريخ بلاد الشام، والجزيرة تحت الحكم السلجوقي، وفي الواقع أنه قد ختم حقبة متميزة من تاريخ الشام والجزيرة، وابتدأ حقبة متميزة جديدة هي حقبة بداية الحروب الصليبية، ونشاط الدعوة الإسماعيلية الجديدة التي أسسها حسن الصباح[1] ولقد كان تُتُش، وبوزان، وآق سنقر، ورجال طبقتهم تركماناً قاموا بإلحاق بلاد الشام والجزيرة بالإمبراطورية السلجوقية، ولقد كانت مواطن ولادتهم خارج الشام، والجزيرة وجاؤوا هم غزاة إلى الشام، والجزيرة، مواكبين للهجرة التركمانية الكبرى.

وبموتهم انتهت طبقتهم ومعها ختمت المرحلة التي عاشوها، وبدأت بعدها مرحلة جديدة، حكام الشام والجزيرة فيها من السلاجقة، لكن كلهم ولد في إحدى مدن أو بلدان الشام، والجزيرة وفيها نشأ، وفي الوقت الذي تبدأ به مرحلة الحكام السلاجقة «الشاميين والجزريين» هذه تَعَرَّضَ الشام لهجرة بشرية وغزو جديدين، المهاجرون الغزاة الجدد كانوا مثلهم مثل التركمان من أصول غير شرقية عربية، إنما وإن اختلفوا عن التركمان في المعتقد والوطن الأم، فقد وجدت أوجه تشابه كثيرة تجمعهم بالتركمان، يقول المؤلف المجهول الذي رافق الحملة الصليبية الأولى وكتب عنها: «لقد كان حقاً ما قيل من أنه لا يجوز لأحد ما أن يُسَمَّى بالفارس إن كان من غير الفرنجة أو الترك»[2].

---

(١) ارجع إلى كتاب الدعوة الإسماعيلية الجديدة للمستشرق برنارد لويس، ترجمه إلى العربية سهيل زكار، ط. بيروت ١٩٧١.

(٢) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، الترجمة العربية، ط. القاهرة، ١٩٥٨، ص٤١.

ولن يتمكن – كما سنرى – السلاجقة «الشاميون الجزريون» من صد الصليبيين، وسيمر وقت تزول به «بالموت» طبقة الحكام السلاجقة هذه، ويخلق جيل جديد من الحكام السلاجقة، والناس فيه، حقنت بروح جديدة، وبالوقت نفسه تزول أيضاً طبقة قادة الحملة الصليبية الأولى، ويجيء إلى الوجود جيل من الصليبيين «الشاميين الجزريين» له صفات وملامح فيها الكثير من الجدة، وهنا سوف يتمكن الجيل المسلم الجديد البدء بكسب الجولة، وتأخذ حركة التحرير والاسترداد الإسلامية، صفة الفعالية والتأثير.

– حكم رضوان ودُقاق ولدي تُتُش في الشام:

سلف الحديث أن تُتُش فقد حياته في معركة جمعته قرب الري مع بركياروق سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وكان قبيل ذلك قد طلب من ولده رضوان أن يمده بالمقاتلين، فوصل رضوان بقواته إلى عانة، وقيل إلى الأنبار، وهناك وصله خبر مصرع والده فعاد إلى حلب، وتسلم حكمها.

كان رضوان آنئذ صبياً في الثالثة عشرة من عمره، ذلك أنه ولد في دمشق سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م، وفيها نشأ في حجر أبيه، وكان أبوه قد زوج أمه إلى إحدى الشخصيات التركمانية الكبيرة، وكان اسم هذه الشخصية حسيناً، وعرف عادة باسم جناح الدولة، وأحياناً باسم باقي الدولة.

كان جناح الدولة أتابكاً لرضوان بن تُتُش، وكلمة أتابك تعني في الأصل «الأمير الأب»، فهي كلمة مركبة من «أتا» ومعناها أب، أو عم، و«بك»، وتعادل أميراً، أو مقدماً، أو سوى ذلك من ألفاظ الزعامة، فلقد كان من عادة السلاجقة كتركمان أن يطلقوا بعض زوجاتهم عقب إنجاب إحداهن لغلام، وكانوا

ينعمون بالمطلقة «كزوجة» على إحدى شخصيات دولتهم من التركمان، والطلاق كان يحصل لأسباب دينية وسياسية، دينية عدم سماح الشرع بالجمع بين أكثر من أربع زوجات حرائر، وسياسية حيث كان الحاكم السلجوقي يجد نفسه راغباً، أو مرغماً على الزواج بأكثر من أربع فتيات، إما للشهوة، وإمَّا للمكانة السياسية والاجتماعية للفتاة، وإمَّا للأمرين معاً، فيطلق إحدى زوجاته وينعم بها على أحد أمراءه، ويحقق في ذلك غايات سياسية، فهو يربط المُنعم عليه «بالمطلقة» بالأسرة الحاكمة، ثم هو يؤمن بالوقت نفسه مربياً جيداً لولده، مع حزب وقوة تحميه، ومع مرور الأيام وتقلب الدول، تطور منصب «أتابك» وتمتع بصفات وميزات أخرى غير التي ذكرت، كما أدخل عليه الكثير من المزايا الجديدة، ليس المجال هنا للحديث عنها بشكل مفصل.

لقد كانت مدينة حمص إقطاع جناح الدولة حسين، ويبدو أن تُتُش كان قد أسند إليه أمور الإشراف على أعمال حلب.

كان هذا بالنسبة لحلب، أما دمشق، فلقد كان من بين فلول جيش تُتُش التي فاءت إلى حلب دُقاق الابن الثاني لتُتُش، وخاف دقاق على نفسه من أخيه رضوان، فهرب سراً من حلب إلى دمشق، حيث دخلها، وأصبح حاكمها الشرعي.

وكان لدُقاق هذا أتابكاً كما كان لرضوان، وأتابكه هو طغتكين، وعرف باسم أتابك ظهير الدين، كان من ألمع ضباط تُتُش، وقد حظي عنده بمكانة عالية، وسلم إليه ولده شمس الملوك دقاق، ثم تزوج طغتكين من خاتون صفوة الملك أم دقاق، وهكذا أصبح أتابكاً كما جرت العادة عليه، وقد أُسر طغتكين لدى

بركياروق بعد معركة الري سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، ثم أطلق سراحه، فسار إلى دمشق، حيث استقبله دُقاق وسلمه قيادة الجيش، واعتمد عليه في تدبير المملكة.

وهكذا عاد التقسيم مرة أخرى لبلاد الشام، وعاد معه الصراع التقليدي بين الشمال والجنوب، فرضوان بن تُتُش كان «مائلاً إلى دمشق، ومحباً لها، ومؤثراً للعودة إليها»، لذا جمع وحشد، وسار إليها بصحبة سكمان بن أُرتق صاحب سروج سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م، وحاصرها، لكنه أخفق في أخذها نظراً لتدابير الدفاع الجيدة عنها[1].

ثم أعاد الكرة وسار إليها مع أتابكه حسين، ومرة أخرى أخفق في دخولها بعد أن قدم يغي سغان صاحب أنطاكية لنجدتها.

ولقد استغلت عدة أطراف هذه الفوضى في بلاد الشام، لعل أهمهم الفاطميون، إذ أرسلوا حملة سنة ٤٨٩-٤٩٠هـ / ١٠٩٥-١٠٩٦م تمكنت من انتزاع القدس من الأسرة الأرتقية، ثم أكدت النفوذ الفاطمي على مناطق الساحل الشامي، مثل مدينة صور، ووطدته.

هكذا أخفق رضوان مرتين في أخذ دمشق، وانفك عنه أتابكه جناح الدولة حسين، وسار إلى إقطاعه في حمص، ولكي تنجح محاولة رضوان الثالثة فتش عن حُلفاء جدد؛ وذلك على الرغم من انتهاء الأخبار إلى بلاد الشام بوصول الحملة الصليبية إلى القسطنطينية، لكن ذلك لم يردعه، فتحالف مع الدولة الفاطمية على أن تساعده في أخذ دمشق وحمص، مقابل إعلان الدعوة لهم في بلاده، وفعلاً أمر رضوان بإعلان الدعوة للفاطميين، وتوجه جنوباً، وعند شيزر

---

(١) ابن القلانسي، ١٣٠-١٣٢، الكامل، ط. القاهرة، ١٧٥/٨-١٧٦، زبدة الحلب، ١١٩/٢-١٢٢، المختصر في أخبار البشر، ٢١٦/١-٢١٧.

حدثت خلافات بين أمراء جيشه، فلم يتابع سيره جنوباً بل عاد إلى حلب، وبالوقت نفسه ضغط عليه من قبل أمراء التركمان للإقلاع عن الدعوة للفاطميين، والعودة لطاعة العباسية ففعل، ولم تستمر الدعوة للفاطميين سوى أربع جمع، ومن ثم قطعت، ولم تعد أبداً بعد هذا[(١)].

- الحملة الصليبية الأولى:

وفي ذروة الصراع السلجوقي - السلجوقي وصلت جموع الصليبيين إلى أنطاكية، وأخذت في حصارها، وكان الحصار شديداً امتد مدة طويلة، أخفق خلالها حكام الشام والجزيرة في توحيد جهودهم، وجمع عساكرهم في سبيل صد الصليبيين وطردهم، وأخيراً سقطت أنطاكية بسبب خيانة فيروز الأرميني أحد كبار عساكر يغي سغان، إذ مكن الصليبيين من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع مُوْكلاً إليه، ولما دخل الصليبيون أنطاكية في رجب ٤٩١هـ/ حزيران ١٠٩٨م ذبحوا كل مَن وجدوه فيها من المسلمين، وفر يغي سغان، وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعاً من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به، ثم سقطت القلعة بعد ذلك في شعبان/ تموز[(٢)].

وأخذ الصليبيون يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوباً، وكان قبل أن تسقط أنطاكية، حتى قبل أن يصل الصليبيون إليها قد انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين أخي غودفري - الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية - وتوجهت من

---

(١) ابن القلانسي، ١٣٣، ١٣٤، الكامل، ط. القاهرة، ٨/١٨٤-١٨٥، زبدة الحلب، ٢/١٢٧-١٢٩.

(٢) قضية حصار أنطاكية مهمة، وقد بحثت جيداً في مقرر الحروب الصليبية.

مرعش شرقاً، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية، وأخيراً وصلت إلى الرُّها فاحتلتها، واتخذت منها قاعدة لإحدى إمارات الصليبيين في المشرق.

زحفت معظم جموع الصليبيين جنوباً، وذلك بعد أن جعلوا أنطاكية مركزاً لإمارة صليبية ثانية في المشرق، واستمر مسير الصليبيين جنوباً، فتمكنوا من احتلال مدينة القدس، حيث اقترفوا مذبحة شنيعة مروعة ذهب ضحيتها سكان المدينة.

ومع ازدياد قوة الصليبيين تقلصت قوة حكام الشام من التركمان، ونقصت مساحة أراضي دولهم، كما ازدادت خلافاتهم وتأصلت فرقتهم، ففي شعبان ٤٩٣ هـ / حزيران ١١٠٠م حقق الصليبيون انتصاراً كبيراً على رضوان بن تُتُش وعسكر حلب «فقتلوا خلقاً من الناس وأسروا خلقاً»، وفي هذا الوقت كان دقاق بن تُتُش وعساكره يحاربون في الجزيرة، وطبعاً ليس ضد الصليبيين، إنما ضد التركمان، حكام الرحبة، وديار بكر، وميارفارقين، واحتل دقاق ميافارقين ثم رتب فيها من ينوب عنه وعاد إلى دمشق.

وعلى الرغم من كل هذه المصائب التي نزلت بالمسلمين ظلَّ رضوان يجري وراء مطامعه الشخصية، ولم يُراع أبداً مصلحة الأمة التي وُلِّيَ أمرها، وكان قصده في هذه المرحلة أتابكه وزوج أمه جناح الدولة حسين، فدبر مع مقدم الإسماعيلية أتباع الدعوة الجديدة (أو الحشيشية كما دعاهم أهل الشام) في حلب، أمر اغتيال جناح الدولة حسين، وفي رجب سنة ٤٩٦هـ / آذار ١١٠٣م وثب قوم من الباطنية كانوا في زي الصوفية عليه فأردوه قتيلاً في جامع حمص عندما وقف ليؤدي صلاة الجمعة، ولم يحصل رضوان من هذا الاغتيال على حمص، بل تسلمها أخوه دقاق صاحب دمشق، بعد أن راسله أهلها.

ويبدو أن عملية اغتيال جناح الدولة، شجعت طغتكين أتابك دمشق للتخلص من دقاق، ولقد تولت أم دقاق – زوج طغتكين- مهمة التخلص من ابنها، فزينت « له جارية، فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم »، وكان هذا في العام الذي تلا عام اغتيال جناح الدولة[(١)].

وفي العام الذي تلا وفاة دقاق – أي ٤٩٨هـ / ١١٠٤-١١٠٥م- أوقع الصليبيون برضوان بن تُتُش وأهالي حلب هزيمة كبيرة جديدة قرب أرتاح – وهو حصن كان يقع قرب حلب-، ولقد قتل من المسلمين في هذه المعركة مقدار ثلاثة آلاف، وجرد الصليبيين حلب من معظم أملاكها، ثم توفي رضوان سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م.

ولقد «كان الملك رضوان بخيلاً شحيحاً، يحب المال، ولا تسمح نفسه بإخراجه، حتى إن أمراءه وكُتّابه كانوا ينبزونه بأبي حبة، وذلك هو الذي أضعف أمره، وأفسد حاله مع الفرنج والباطنية، وجدد في حلب مكوساً وضرائب لم تكن»، ولما توفي رضوان ترك شمالي بلاد الشام في حالة لا تحسد عليها، ولقد خلفه في حكم حلب ابنه ألب أرسلان، وكان ألب أرسلان هذا صبياً في التاسعة عشر من عمره، «أَلْثَغَ لا يحسن الكلام، فدعي بالأخرس لذلك، وكان مهوراً قليل العقل سفاكاً للدم منهمكاً في المعاصي».

---

(١) أعمال الفرنجة، ١١٨، ١٢٠، ابن القلانسي، ١٣٧، الكامل، ط. القاهرة، ١٨٧/٨- ١٩٠، زبدة الحلب، ١٤١/٢-١٤٧، الحروب الصليبية تأليف رفيق التميمي، ٥٤-٦١، الحركة الصليبية، ٢٣٨/١-٢٤٦،

The cursades، by Archer and Kingsford، 77-92. The History of the crusades by Charles Nills، 80-88. the crusades by Harold Lamb، 186-206، A History of the crusades by Steven Runciman، 1،279-288. Pennsylvania History of the crusades، 1،326-337. the crusades، by Regine pernoud، 81-91.

ولقد افتتح حكمه بقتل اثنين من أولاد أبيه، وتدهورت أحوال حلب في زمنه كثيراً، ولقد سبب حمقه انفضاض من بقي من الناس من حوله، وفي زيادة الدمار في شمالي الشام، وخاف رجال الحكم في حلب على أنفسهم منه، فدبروا اغتياله، وكان ذلك بعد سنة من وفاة والده رضوان، وبمقتله طويت آخر صفحات حكم أسرة تُتُش في الشام، ولقد كانت صفحات قاتمة ليس فيها إلا الدمار والقتل.

وفي ساعات الظلام الدامس هذه التي كانت مخيمة على الشام كانت تباشير للنور أخذت تلوح مشرقة من المشرق حيث الموصل، ومن الموصل أخذ النور يزداد حتى عم الشام كله، ثم انتقل إلى مصر.

المقالـة الخامسـة

السلطنة السلجوقية بعد ملكشاه

لا نعرف على وجه التحديد دوافع السلطان ملك شاه، حين طلب إلى الخليفة العباسي مغادرة بغداد، ذلك أن شرعية هذا السلطان جاءت أصلاً، وصدرت من عند الخليفة، وصحيح أنها جاءت رضوخاً، وانصياعاً للقوة العسكرية السلجوقية، وإقدام ملك شاه على إخراج الخليفة من بغداد، كان أبسط معانيه إلغاء الخلافة العباسية، فالشرعية العباسية ارتبطت منذ أيام أبي جعفر المنصور ببغداد، ومعروف أن المنصور كان المؤسس الفعلي للخلافة العباسية، وهو الذي شيد بغداد، واتخذها عاصمة لدولته، وفي الحقيقة كان تاريخ بغداد، هو تاريخ الخلافة العباسية: دينياً، وثقافياً، واجتماعياً، وسياسياً إلى أبعد الحدود، فهل توفرت لدى السلطان الشاب ملك شاه الرغبة في أن يكون فعلاً «ملك شاه»، أي إمبراطوراً على الإمبراطورية السلجوقية التي وصلت إلى أقصى اتساعها، إثر دخول ملك شاه إلى أنطاكية؟.

ولدى فحص أحداث حكم السلطان طغرلبك – الذي كان أول من حمل لقب سلطان بشكل رسمي في تاريخ الإسلام – نجد أن الذي أدار الدولة كان وزيره الكُنْدري، وفي أيام ألب أرسلان، كان نظام الملك هو السيد الفعلي لسلطنة

السلاجقة، فهو امتلك بلاطه الخاص، وقواته الخاصة، وتصرف بموارد الدولة، ومنح الإقطاعات، وشيد المدرسة النظامية، فأوجد أسس التحالف بين الإقطاع الديني، وهو الذي ضمن وصول ملك شاه إلى السلطنة بعد مقتل أبيه.

وجرى اغتيال نظام الملك، ووجهت أصابع الاتهام إلى ملك شاه، والمهم الآن هو أن ملك شاه بات هو الحاكم الفعلي المستقل للسلطنة، ولإكمال استقلاله التفت نحو الخليفة، وأمره بمغادرة بغداد، لكنه تعرض للموت سماً، وبعده ليس بوقت طويل، مات الخليفة أيضاً.

وكان لدى ملك شاه عددٌ من الأولاد الذكور، كانوا جميعاً ما يزالون أقرب إلى الطفولة، وهكذا انفرط عقد السلطنة السلجوقية، وبسهولة بالغة جرت بيعة خليفة جديد، ولكن بالنسبة للسلطنة لم يكن هناك الوزير نظام الملك ليحافظ على وحدة السلطنة، ونشبت حروب بين قبائل الغُزّ، ولم يعد هناك سلطنة، بل سلطنات، وكانت بغداد تمنح الشرعية، حسب الأحوال، ولكن يشد الانتباه أن الخلفاء العباسيين، أخذوا يسعون إلى الاستقلال بحكم ما كان يعرف آنذاك باسم العراق، ولسوف يدفع بعضهم حياتهم ثمناً لهذا المسعى، لأنهم عقدوا التحالفات: السياسية، والعسكرية، وكانت التمزقات السلجوقية فرصة موائمة.

واعتاد الباحثون تسمية السلاطين الثلاثة: طغرلبك، وألب أرسلان، وملك شاه، بالسلاطين الكبار، أو العظام، ومن بعدهم راق لبعضهم البحث في تاريخ سلاجقة العراق، وسلاجقة إيران وخراسان، وسلاجقة الروم، أما سلاجقة الروم فمسوغ البحث في تاريخهم على انفراد، ولكن قامت بالأصل سلطنة السلاجقة في خراسان، وكان هناك دوماً تشابك وتداخل بين وقائع إيران والعراق وخراسان.

ومنذ وفاة ملك شاه، صارت بلاد الشام مستقلة فعلياً، وباتت المواجهات هناك مع الصليبيين بشكل أساسي، ثم ما لبثت الجزيرة وحاضرتها الموصل أن حققت أيضاً الاستقلال، وباتت مرتبطة ببلاد الشام، أكثر من ارتباطها بالعراق وخراسان.

وكما تقدم القول: لما مات ملك شاه كان عمره ثمانياً وثلاثين، وقد خلف عدداً من الأولاد من عدد من الزوجات، ما من واحد منهم كان في عمر يمكنه من اعتلاء عرش السلطنة الشاغر، وقام صراع بين السلاجقة من أجل خلافة ملك شاه، ولما كانت كل أم لكل ابن انتمت إلى عشيرة تركمانية شغلت الأمهات دوراً في الصراعات، لأن كل فئة من الأحزاب والتركمان احتضنت أحد الصبية، وبذلت الجهد – باسمه – من أجل السيطرة على الإمبراطورية.

وبداية جرى إعلان محمود – الابن الأصغر لملك شاه – سلطاناً جديداً، وهنا شغلت أمه دوراً كبيراً في الصراع الذي تفجر بين تركمان خراسان، فيه رجحت كفة بركياروق الابن الأكبر لملك شاه، وفي أثناء هذا الصراع، قام تُتُش – أخو ملك شاه، وحاكم دمشق، بإعلان نفسه سلطاناً، وتحرك نحو خراسان، وبعدما حقق بعض النجاح، لقي مصرعه في العام ١٠٩٥م، في معركة خاضها ضد ابن أخيه بركياروق(١).

ولم تطل أيام سلطنة بركياروق، إذ توفي سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٦م، وقد تميزت أيام حكمه بدوام الحروب الأهلية بين التركمان، وبالانفراط الفعلي لوحدة

---

(١) ابن القلانسي ص ١٢٥. تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٤ – ٧٥. أخبار الدولة السلجوقية ص ٧١. زبدة الحلب ج٢ ص ١٠٦. مفرج الكروب، ١ / ٢٣. الكامل لابن الأثير – ط. ليدن ، ١٠ / ١٤٢ – ١٤٣. الروضتين،١ / ٦٥. الباهر لابن الأثير ص ١٣. ابن العميد ص ٥٧٤ – ٥٧٧.

الدولة السلجوقية وتمزقها إلى عدة دول، ثم بدخول الصليبيين إلى بلاد الشام، وباحتلال أجزاء كبيرة منه.

- سلطنة محمد طبر:

بعدما توفي بركياروق، تقرر منصب السلطنة - المعترف به من بغداد - إلى أخيه محمد طبر، وكان محمد هذا قد صارع بركياروق على السلطنة، وتدخل في الصراع أخ ثالث لهما، عرف باسم سَنْجَر، وقبيل وفاة بركياروق تمّ الاتفاق بين الأخوة الثلاثة على أن تكون خراسان، وبلاد ما وراء النهر إلى سنجر - الذي اتخذ من مدينة مرو عاصمة له -، وأن يكون العراق لبركياروق، وبلاد الشام والموصل وبعض المناطق الأخرى لمحمد طبر، وحمل كل واحد من الثلاثة لقب «سلطان»، وأصبحنا الآن نشاهد بين السلاجقة نوعين من السلطنة: سلطنة عظمى، تعترف بها الخلافة، وفي الوقت نفسه تسيطر فعلياً على بغداد، وعلى الخليفة فيها، وسلطنة أدنى مرتبة، يسيطر صاحبها على بعض المناطق، ويدين بالطاعة الاسمية للسلطان الأعظم.

وليس في عهد السلطان محمد طبر ما يميزه من سواه، سوى أنه انشغل في حل المشاكل الداخلية، ولاسيما مشكلة الحشيشية، فرقة الدعوة الإسماعيلية الجديدة، التي أسسها حسن الصباح، فاستولت على عدد من القلاع الحصينة على رأسها: أَلَموت، ولَمَسَر، وتبنت ممارسة الاغتيال الطقوسي السياسي، ولقد جرد طبر عدة حملات ضد الحشيشية، لكن جميع هذه الحملات لم تأت بنتيجة حاسمة،

وتوفي السلطان محمد طبر سنة ٥١١ هـ / ١١١٧م، وبعد وفاته تجدد الصراع والانشقاق بين التركمان من أجل خلافته(١).

- **سلطنة سنجر:**

وكان السلطان محمد طبر قد أوصى بولاية عهده إلى ابنه محمود، الذي كان لمَّا توفي والده في الرابعة عشرة من عمره، ووافق الخليفة المستظهر بالله العباسي [٤١٧ - ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ - ١١١٨م] على ذلك، ولكن السلطان سنجر وجد أن من حقه أن يعلن سلطاناً أعظم للسلاجقة، وأن يعترف به الخليفة، فقام ونازع ابن أخيه، وأعلن نفسه سلطاناً على جميع السلاجقة، وسبب إعلانه هذا وقوع الحرب بينه وبين محمود، ولقد هزم سنجر جيوش محمود، ثم استقبل ابن أخيه وعفا عنه، وعينه نائباً له في العراق، وعاد إلى خراسان حيث شغل نفسه هناك لمدة تزيد على الأربعين سنة.

وفي أيام حكم سنجر المديدة لم تتوقف الصراعات على السلطنة، وفي أثناء هذه الصراعات فَقَد اثنان من الخلفاء حياتهما هما: المُسترشد [٥١٢ - ٥٢٩ هـ / ١١١٨ - ١١٣٥ م] والراشد [٥٢٩ - ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ - ١١٣٦ م]، وعلى الرغم من جميع الصراعات حافظ سنجر بشكل عام على مركزه القوي، ضد الخصوم الداخليين.

ولكن سنجر تأثر هو ومملكته بأحوال الصين آنذاك، فقد تخلصت الصين من حكم سلالة لياو liaeo، التي كانت من شعوب الخطا التركية، فتحرك الخطا

(١) أخبار الدولة السلجوقية للحسيني ص ٧٩ - ٨٤. دولة آل سلجوق للعماد الأصفهاني ص ٨١ - ١٠٦. راحة الصدور للراوندي ص ٢٢٤ - ٢٥٥. الحشيشية ص ٦٨ - ٨٣.

غرباً مغادرين للصين، فضغطوا على سواهم من قبائل المغول والترك في أطراف الصين وبلاد ما وراء النهر، وهكذا تهددت أملاك سنجر في هذه المنطقة، وكانت القبائل التي هددت أملاكه من الغُزّ، والقرلق (كافرترك)، وفي سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م هزم هؤلاء السلطان سنجر في معركة قرب سمرقند، واستمر الصراع بين سنجر وهذه القبائل، بعدما عبرت جيحون، ونزلت في مناطق من خراسان، وتمكن الغُزّ (كافرترك) من هزيمة سنجر وأسره سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م، وبقي سنجر في أسرهم مدة ثلاث سنوات، هرب بعدها، ووصل إلى مرو، حيث توفي بعد قليل في سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م[١].

وبموت سنجر انتهى العصر الأهم من تاريخ الدولة السلجوقية، ففي أيامه ظهرت بوادر قيام دولة خوارزم شاه، وتفتت السلطنة إلى عدة سلطنات ودول أتابكية كان أشهرها ما أطلق عليه اسم دولة سلاجقة العراق، ودولة سلاجقة كرمان، ودولة سلاجقة الروم، وكان أشهر الدول الأتابكية: أتابكية الموصل، وأتابكية الشام، وأتابكية سنجار، وأتابكية حلب.

وكان لقدوم السلاجقة وتأسيس سلطنتهم العظمى، ثم تفتتها نتائج مهمة جداً، تقدمت الإشارة إلى بعضها، لأن السلاجقة انتزعوا خراسان من الغزنويين، وأزالوا الدولة البويهية، وانتزعوا بلاد الشام من الفاطميين، وهكذا ضمت دولتهم لأول مرة، منذ أمد بعيد أجزاء من واسعة من دار الإسلام في آسيا لم تعرف الطاعة للعباسيين منذ أيام حكم الخلفاء الكبار، ومهم جداً اجتياح آسيا الصغرى، وانتزاعها من البيزنطيين، فعلى الرغم من الحملات الصليبية، ثم الاجتياح

---

(١) الحسني ص ٨٤ – ٩٦. الراوندي ص ٢١٤ – ٢٢٩. العماد الأصفهاني ص ٢٢٠ – ٢٥٧. ابن الأثير: الكامل، ٩ / ٣١ – ٥٠.

المغولي، لم تسترجع بيزنطة أراضي آسيا الصغرى، ومن آسيا الصغرى انطلق العثمانيون، فسيطروا على معظم الأملاك البيزنطية في أوربا الشرقية، ومن أوربا هاجموا القسطنطينية وفتحوها وأزالوا الإمبراطورية البيزنطية من الوجود.

وكان السلاجقة مسلمين سنة، وقد احتفظوا بالخلفاء العباسيين كحكام اسميين، بعدما خلصوهم من التسلط البويهي الشيعي، ومن بعض الجوانب منح هذا روحاً جديدة للخلافة، وامتد نفوذ الخليفة – ولو كان اسمياً – إلى مناطق جديدة.

ولعل أخطر ما شهده العصر السلجوقي تأسيس المدرسة النظامية، التي أوقفها نظام الملك للحرب على الإسماعيلية، ونجحت في هذا المسعى، لكن باتت هي المؤسسة التي تتولى تخريج علماء أهل السنة، وإلى نظام الملك يعزى تطوير نظام الإقطاع العسكري، وترافق تطوير هذا النظام، قيام نظام يمكن تسميته بالإقطاع الديني، وتحالف الإقطاعان، ومن خلال هذا التحالف من الممكن التعامل مع وقائع التاريخ الإسلامي في المشرق حتى نهاية العصر العثماني، وفي ظل الإقطاع العسكري لم يقم للعسكريين – بشكل عام – أُسر إقطاعية وراثية، ولكن بالنسبة للإقطاع الديني، تأسست أُسر دينية وراثية، تصرفت بالأوقاف، وهذه الأُسر ما تزال قائمة حتى الآن، على الرغم من التغييرات الهائلة التي حدثت في التاريخ الحديث.

وفي بلاد ما وراء النهر حتى الصين استمر الجيشان القبلي، وصحيح أنه تأسست إمبراطورية خوارزم شاه، وامتلكت أراضي واسعة جداً في خراسان وبلاد ما وراء النهر، لكنها كانت إمبراطورية قبلية، قامت بتصفية الكيانات السياسية في خراسان، ولكن النظام القبلي أخفق في أن يكون البديل لهذه

الكيانات، وهكذا عندما جاءت الطامة الكبرى للمغول بقيادة جنكيز خان، انهارت إمبراطورية خوارزم شاه، وأمضى سلطانها حياته مطارداً من قبل المغول، وصحيح خلفه ابنه جلال الدين منكبرتي، لكنه لم يُنجز شيئاً سوى بعض الدمار المماثل للدمار المغولي، وفقط نجت آسيا الصغرى وتتركت، ولكن – بشكل عام – استعرب التركمان – ومن بعدهم الأكراد الأيوبيُّون – في بلاد الشام والجزيرة.

المطلب الثالث

الحروب الصليبية

تـوطئـة

تبوأت بلاد الشام بموقعها المتميز – الممتد من الفرات شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن البحر الأحمر وعريش مصر جنوباً إلى سفوح جبال طوروس شمالاً – أهمية عالية جداً بالنسبة لبلدان قارّات العالم القديم الثلاث: آسية، وأفريقية، وأوربا، فهذه البلاد الواقعة في البر الآسيوي والمالكة لشواطئ طويلة على البحر المتوسط، قامت بدور صلة الوصل بين أفريقية وآسية براً: عبر مصر، وبحراً: عن طريق البحر المتوسط، وفي الوقت نفسه وصلت بين أفريقية وأوربا الشرقية على أساس أن بداية أوربا الشرقية تاريخياً وحضارياً وبشرياً ولغوياً، لا بل حتى اقتصادياً عند آسية الصغرى، في نقاط التماس مع بلاد الشام، كل هذا على الرغم من الإقرار الجغرافي بأن البوسفور يفصل بين البرّين الآسيوي والأوربي.

والتقت في بلاد الشام تيارات المدّ لأمواج الهجرات البشرية في العصور القديمة والوسيطة، فلقد وصل المهاجرون البداة من سهوب ما وراء النهر من الأصل التركي– المغولي عبر عدد من حقب التاريخ إلى بلاد الشام، ولنتذكر في هذا المقام أسماء لامعة مثل: الهون، والغز، والتركمان، والتتار بقيادة المغول، والتركمان، والتتار أيضاً بقيادة تيمورلنك.

هذا من آسية؛ أما من أوربا فإن جميع الشعوب التي اجتاحت هذه القارة أو تحركت من داخلها مندفعة نحو الخارج وصلت نهايات تيارات مدها إلى أرض الشام، ومن ثم تحولت إلى جزر، ولنتذكر هنا الحيثيين، وشعوب البحر، والإغريق، والرومان، والفرنجة الصليبيين، مع سواهم من الشعوب الجرمانية.

إضافة إلى هذا كله كانت بلاد الشام واقعة على طرف واحد من أهم الخزانات البشرية في التاريخ، وهو شبه جزيرة العرب، وبلاد الشام بالنسبة لهذا الخزّان كانت دائماً محطة أولى تشرب منه بشكل متواصل، وليست نهاية المدّ، لذلك طبعت الشام بالطابع العربي بشكل أصيل، إنما تلونت إلى حدٍ ما ببقية الألوان العائدة لمختلف الشعوب والأجناس، وأدى هذا إلى منح بلاد الشام وعربها مزايا خاصة لها عطاءات إيجابية رائعة على الرغم من أنه حدث في بعض الأحيان أن جاءت العطاءات سلبية مُضرَّة.

ولقد كان من المفترض للألوان أن تكون مؤثراتها آنية، وتزول بسرعة من أرض الشام، لكن استمرار تدفق الهجرات في العصور القديمة والوسيطة، مع البنية الجغرافية لبلاد الشام كان عاملاً حاسماً في إبقاء الألوان، وجعلها تأخذ صفة الاستمرارية، ومن ثم التسبب في العطاءات السلبية.

فإذا استعرضنا بلاد الشام من حيث البنية الجغرافية والتضاريس بدءاً من سواحل البحر المتوسط في الغرب سائرين نحو المشرق، نلحظ أولاً وجود شريط ساحلي ضيق، ثم سلسلة من الجبال الحاجزة، وقامت خلف الجبال منطقة قلب بلاد الشام حيث أودية الأنهار الكبيرة، وعلى أطراف هذه الأودية تأتي السهوب شبه الصحراوية العائدة لبادية الشام.

لقد أدت هذه البنية بتضاريسها المعقدة وضمن شروط الحياة في الماضي إلى قيام عدة أنماط اجتماعية، فهناك من حيث المبدأ: واحد في الشمال وآخر في الجنوب، ثم هناك نمط شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ونمط الأقليات المتقلصة في الجبال، ونمط المجتمعات الزراعية الصناعية التجارية للمنطقة الجوفية، وأخيراً – وليس آخراً– المجتمع القبلي غير المستقر لسكان الحماد.

جعل وجود الأنماط الاجتماعية المختلفة والتيارات البشرية المتباينة مع ما تحمله من طبيعة الماضي في كلّ الجوانب، بلاد الشام لا تنعم في كثير من الأحيان بالوحدة السياسية، وميَّزها بالفوارق وبشيء من التمايز الاجتماعي والحضاري والعقائدي، فهذه البلاد غالباً ما كانت في الماضي مسرحاً تلتقي فيه قوى العالم أجمع وتتصارع وتتلاقح وتتمازج، ولذلك امتاز تاريخ بلاد الشام بمزايا منفردة خاصة عامة، وقامت على أرضه أكبر أحداث التاريخ الإِنساني وأعظمها وقعاً واستمرارية من حيث النتائج.

أمام هذا الحال يحار المؤرخ الذي يود أن يؤرخ لحدث جليل من أحداث التاريخ التي وقعت على أرض الشام في كيفية تعليل أسباب هذا الحدث ونتائجه، فكل أمر هنا له عدة وجوه.

وينطبق هذا الحال على ما اصطلح على تسميته باسم (تاريخ الحروب الصليبية)، ويمكن أن نراه في الدراسات التي خرجت منذ القرنين الماضيين لا سيما في أوربا، فالدراسات هذه عللت أسباب هذه الحروب بشكل أوربي إما شرقي أرثوذكسي، وإما غربي كاثوليكي.

إنما بشكل عام جعل هؤلاء المؤرخون أحداث الحروب الصليبية جزءاً – يكاد يكون كاملاً – من تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ولكن بحكم طبيعة الموضوع اضطروا إلى عدم إغفال أحوال بلاد الشام، وهكذا التفتوا بشكل غير مباشر نحو دراسة أحوال بلاد الشام قبل قيام الحروب الصليبية، وأثناء اندلاع أحداثها، ولما كانت بلاد الشام وما تزال إقليماً من أراضي الوطن العربي قاد هذا الاهتمام نحو دراسة واقع الوطن العربي وتاريخه ودور كل قطر منه في هذه الأحداث، وللارتباط الوثيق بين الوطن العربي وبلدان العالم الإسلامي ونتيجةً لتفاعل الأحداث، فإن هذا البحث امتد نحو العالم الاسلامي.

وفي أيامنا هذه أخذت الدراسات تتركز حول الشام والوطن العربي مع العالم الإسلامي، ولا سيما في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد، وأُولي جانب العلاقات مع أوربا المسيحية – ممثلة بالإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة)، ودول الغرب، ومؤسساته السياسية والإقطاعية والتجارية البحرية اهتماماً مباشراً، وقد فتح هذا الاهتمام – الذي بدأ بشكل جانبي غير مباشر – مجالات جديدة للبحث والكشف عن أمور كانت مجهولة، وعدّل من ثَمّ كثيراً من التفسيرات والنظريات المتقدمة، وبعملية مقارنة سريعة بين الكتابات التي صدرت في أوربا قبل الحرب العالمية الثانية وما صدر بعدها مثل كتابي (رنسيمان) و (تاريخ فيلادلفيا للحروب الصليبية) يمكن أن نرى شاهداً موضحاً.

ولما كانت بواكير الدراسات التاريخية الحديثة قد بدأت في أوربا والكثير منها ترجم إلى العربية، بدأ العرب يكتبون عن تاريخهم ويبحثون فيه وجاء نتاجهم يحمل طابع التقليد بدرجات متفاوتة، وصحيح أن الدراسات العربية للماضي العربي سارت على المنطلقات نفسها التي رسمت في أوربا، لكنها لم

تخلُ من الاتجاهات الاستقلالية، ومع مرور الأيام قويت هذه الاتجاهات الاستقلالية، وكشف العرب أن الدراسات الأوربية عن ماضيهم صنعت من قبل صنفين من الباحثين: المستعربون والمستشرقون، أما المستعربون: فهم من موظفي أو عسكريي الإدارات الاستعمارية الذين مكّنهم وجودهم على رأس وظائفهم في الوطن العربي من تعلم العربية، ثم الاهتمام بدراسة أحوال العرب ولا سيما ماضيهم، فهم على هذا هواة في البحث التاريخي لا يملكون أدوات وطرائق المحترفين وذوي الاختصاص، ولذلك قادت أبحاثهم القراء نحو الهاوية.

أما المستشرقون: فهم في الأصل رجال لاهوت أو ممن احترف البحث في التاريخ الأوربي، ثم تحول نحو البحث في التاريخ العربي، وغالبية هؤلاء لا يحسن استخدام النصوص العربية بشكل مباشر، ولهم ارتباطات معينة بالدوائر والمؤسسات الغربية الموقوفة على خدمة المصالح الاستعمارية، ثم إن جلَّ مراكز الاستشراق في أيامنا هذه واقع تحت سيطرة باحثين يهود يؤمنون بالصهيونية ويعملون لصالح أغراضها، وعليه إذا كانت أبحاث المستعربين تقود نحو الهاوية، فإن كتابات الاستشراق تكمل المسيرة نحو الدمار الكامل.

وأمام هذا الواقع المرعب ظهر الآن على صعيد الوطن العربي جيل من الباحثين العرب، بدأ يقوم بدور الفاضح لكتابات الاستشراق والاستعراب، وينادي بكتابة تاريخ العرب من وجهة نظر عربية علمية هادفة.

وشملت مسألة (الحروب الصليبية)، وظهرت إلى الوجود وجهات نظر عربية تسلّحت بآراء منطقية وعلمية على أساس أن هذه الحروب لها أسباب أوربية مباشرة وغير مباشرة، إنما قامت وقائعها وانتهت على أرض الشام العربية، وأن المشكلة الأساسية فيها ليست في أسبابها الأوربية، بل في أسباب

إخفاق العرب في التصدي للغزاة الصليبيين عندما طرقوا ديارهم للمرة الأولى، ثم في عدم تمكنهم من اقتلاعهم من أراضيهم المحتلة إلا بعد وقت طويل جداً.

والمسألة بديهية، فالجسد الضعيف عديم المناعة والموزع الطاقات هو الذي يصاب بالمرض العضال عندما يتعرض لمؤثِّراته، والجسد القوي هو الذي يتصدى للمرض ويقاومه، حتى إذا ما أصيب بالعدوى فإنها تكون عارضة تزول بسرعة.

من هذا المنطلق نستطيع أن نفهم سبب النجاحات الباهرة التي حققها الصليبيون عندما وصلت جموعهم سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٨م إلى مشارف بلاد الشام، فدخلت هذه الجموع البلاد، واحتلت أجزاء كبيرة منها من دون مقاومة تذكر.

إنها فعلت ذلك لا لأن هذه الجموع تميّز أفرادها بمميزات خاصة خارقة للعادة – كما أراد جيل متقدم من الباحثين أن يقول –، ولكن لأن الخصم العربي الذي واجهته كان من الضعف والتمزق بمكان سَهَّلَ مهمة الغزاة ويَسَّرَها، ودام هذا الحال طيلة الوقت الذي عانى فيه العرب الضعف العام الناشئ عن تمزق قواهم، وإلقاء بأسهم بينهم، ولكن لمّا شرع العرب في توحيد صفوفهم، ونبذ خلافاتهم الداخلية، وتوجيه قواهم نحو خصومهم الحقيقيين، حَلَّت الفرقة في صفوف خصومهم وأصابهم التمزق، وهكذا باتت أيام بقاء الفرنجة الغزاة في بلاد الشام مرهونة بالوقت.

لِمَا سلف ذكره، فإن التفاسير التي صُنعت في أوربا لتعليل أحداث تاريخ الحروب الصليبية مرفوضة تماماً، ومرفوضة معها من ثَمّ المراحل التي حُددت

وقيل: إِنّ هذا التاريخ قد مرّ بها على أساس عدد الحملات الكبرى التي جاءت من أوربا، ذلك أنه كانت هناك حملة واحدة مستمرة تصلها النجدات المتواصلة براً وبحراً، إنما بأشكال مختلفة وبأحجام متفاوتة بين حين وآخر.

وحين نقوم بعملية الرفض هذه نحن مطالبون ببديل مقنع منطقي لا عاطفي، والبديل هنا ينبع من الأرض العربية، ولا سيما في الشام – حيث قامت المعارك، وحدثت الوقائع –، إنما قبل طرح النظرية البديلة هناك حاجة ماسة تقضي بإلقاء نظرة متفحصة – عامة على مجمل ما حدث، وبذلك يسهل فهم ما تمت الإشارة إليه من قبل وما سيشار إليه من بعد.


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المقـالـة الأولـى

أحوال العالم الإسلامي وصراعه مع أوربا

منذ القرن الأول الهجري/ السابع للميلاد بدأت الفتوحات العربية الإسلامية الكبرى، وانتزع العرب المسلمون من أوربا المسيحية فلسطين؛ دار قيام الديانة المسيحية، كما انتزعوا بقية الشام، ومصر، وبلدان الشمال الإفريقي، ثم الأندلس، وعدداً من جزر البحر المتوسط مثل كريت، وقبرص، وصقلية، وهكذا حاصر المسلمون أوربا الغربية من جميع منافذها، وهدَّدوها بشكل متواصل، وكان الحصار الإسلامي جديداً بالنسبة لأوربا إذ شمل الجوانب العَقَديَّة الدينية، والقانونية، والاقتصادية، والاجتماعية، وأخذ سمة حربية توسعية ذات أهداف دينية مقدسة، وطوال العصر الراشدي والأموي والدولة الإسلامية في توسع مستمر.

لكن منذ أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي أخذت أركان الخلافة العباسية تتصدع، وقواها تنهار، وأطرافها تتمزق، وشغلتها الاضطرابات الداخلية والثورات عن الالتفات إلى المخاطر الخارجية، ودفعتها أيضاً نحو إهمال الأسطول، ثم بدأ المد العربي يتحول إلى جزر.

كان لهذا الضعف والتراجع أسباب عديدة، لعل أهمها هو إفراط الخلفاء العباسيين في الاعتماد على الجند التركي الذين تعاظم دورهم، وأصبحوا يتحكمون بالخلفاء العباسيين، ثم زاد من ضعف الخلافة كثرة الثورات الداخلية والخلافات الدينية مثل الحركة الخرمية التي تزعمها بابك الخرمي، وحركة المعتزلة، وثورة الزنج جنوب العراق، ثم ثورات القرامطة قرب واسط وفي البحرين إلى غير ذلك، وتجلى ضعف الخلافة العباسية وبان بأوضح صورة عندما كثر قيام وسقوط الدول المستقلة مثل: الدولة السامانية (٣٦٠-٣٨٩هـ/ ٩٧١-٩٩٨م)، والدولة الزيارية (٣١٦-٤٣٩هـ/ ٩٢٨-١٠٤٧م)، والدولة الغزنوية (٣٥١-٥٨٢هـ/ ٩٦٢-١١٨٦م)، والدولة الحمدانية (٣١٧-٣٩٤هـ/ ٩٢٩-١٠٠٣م)، وغيرها........، وفي بغداد انفرد البويهيون بالتحكم في شؤون الخلافة، فسلبوا لأنفسهم كل ما كان للخلفاء من سلطان ونفوذ، وصار أمير الأمراء من بني بويه هو الحاكم الفعلي للدولة، واستمروا في ذلك إلى أن أزاحهم السلاجقة وأخذ السلطان السلجوقي مكان أمير الأمراء البويهي.

كان السامانيون- ومثلهم البويهيون - من أصل فارسي، قد سيطروا على الجزء الشرقي من الدولة العباسية، أي على فارس وخراسان وما وراء النهر، في الوقت الذي سيطر فيه بنو بويه على العراق والشام، وبحكم الأصول الفارسية كانت اهتماماتهم شرقية بحتة، مما أفسح المجال للإخشيديين، ومن قبلهم الطولونيين لتأسيس دولة في مصر، ثم امتد سلطانها إلى الشام الجنوبي حتى بيروت وطرابلس، في حين كان الشام الشمالي مع الموصل تحت سيطرة الدولة الحمدانية العربية.

في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي شهدت الجزيرة العربية والشام تحركات قبلية قوية، فلأسباب متنوعة انتقل عدد من القبائل العربية من شبه جزيرة العرب إلى شمال بلاد الشام وأعالي الجزيرة الفراتية، من هذه القبائل: كلاب، وعقيل، ونمير، وقشير، وخفاجة، ثم سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديارٍ اتخذتها لنفسها، وبسطت نفوذها عليها، فعقيل مثلاً سكنت الموصل، وأسست فيما بعد الدولة العقيلية التي ورثت أملاك الدولة الحمدانية في الموصل، ونمير اتخذت من حران والرُّها دياراً لها، وقشير توطنت حول قلعة جعبر، أما كلاب فقد استقرت في شمال بلاد الشام إلى جانب إخوانهم الكلابيين القدماء، وبشكل عام تميزت هذه القبائل بتحكم روح الفوضى والفرقة بينها.

أما المغرب العربي فلم يكن أحسن حالاً من مشرقه، ففي تونس قامت الخلافة الفاطمية سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، وكان من نتائج ذلك انهيار نظام الأربطة المتوسطية، ثم انتقلت إلى مصر، وهناك غرق الفاطميون في مشاكل صراعاتهم مع أمراء بداة الشام والقرامطة، ثم في مشاكل أخرى عَقَدِيّة ودينية، وفي الأندلس انهارت الخلافة الأموية سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م، وحلَّ مكانها دول الطوائف الممزقة والمتصارعة، ونشطت حرب الاستغلاب نشاطاً مروعاً، ووصلت مداها مع ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة (٤٥٨-٥٠٣هـ/ ١٠٦٥- ١١٠٩م)، إذ أوغل حتى نهر تاجة واستولى على عدد من المدن أهمها مدريد وطليطلة.

ومنذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي راجت في أوربا نبوءات وتيارات، وشاعت بين الجماهير الأوربية روح دينية صليبية متعصبة بشكل حاد، وعدوانية في الوقت نفسه، هذه الروح غذَّت حرب الاستغلاب في الأندلس بإمكانات هائلة هددت الوجود العربي الإسلامي هناك، كما هددت الوجود

الإسلامي في صقلية، وهددت سواحل الشمال الإفريقي، وأخذت تتضح ملامح مخطط أوربي يستهدف فك الحصار العربي من جهة الغرب باسترداد أراضي إيطاليا الجنوبية وصقلية، ثم احتلال شواطئ تونس لكي تتوفر حرية الملاحة الأوربية في المتوسط، فهاجم النورمانديون مدينة المهدية وما جاورها، واحتلوها مدة من الزمن.

وكذلك الأمر حدث نشاط بيزنطي عسكري في الشرق ضد بلاد الشام، وتحول موقف الإمبراطورية البيزنطية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي من الدفاع إلى الهجوم، مستغلة الانحلال والتفكك الذي أصاب الدولة العباسية، كما أن الدولة الحمدانية في حلب عجزت عن التصدي للبيزنطيين الذين اجتاحوا شمال بلاد الشام، وعلى سبيل المثال: في سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م استولى الإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس على عين زربة، وسيس، ثم تابع المسير إلى عين تاب ومنبج فاحتلهما، ثم حاصر حلب ودمرها [١].

وفي سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م احتل المصيصة وطرسوس [٢]، ثم استولى على أنطاكية سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م، ومنها سيّر جيشاً إلى حلب، فدخلها وحاصر القلعة، ولم يرحل عنها إلا بعد جزية تعهد أهلها بدفعها سنوياً له [٣]، وبعد أن توفي نقفور فوقاس خلفه على عرش الإمبراطورية البيزنطية حنا شمشقيق (زمسكيس) الذي تابع حروب سلفه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧/ ٢٣٦ وما بعد.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧/ ٢٤٨، ٢٥٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧/ ٢٩٠-٢٩١.

وفي ذروة الصراع الفاطمي مع أمراء جنوب بلاد الشام وصلت سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م حملة بيزنطية إلى حمص، ثم هددت دمشق، وتمكن أفتكين التركي حاكم دمشق دفع خطرها عن طريق دفع أتاوة سنوية[١]، ومن بعد شمشقيق هذا تمكن الإمبراطور باسيل الثاني من السيطرة على أنطاكية، وفرض سيادة غير مباشرة على حلب الحمدانية، ووقف في وجه الأطماع الفاطمية بحلب، وفي سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م سقطت الرُّها بيد البيزنطيين[٢].

لكن حدث أن وقعت تغييرات جذرية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في أراضي المشرق العربي ومغربه، فقد حدثت يقظة حديدة في المشرق ترافقت مع هجرة شعوب الغُزّ – التركمان – من منطقة ما وراء النهر إلى خراسان، والعراق، والجزيرة، والشام، مع إرمينية وآسية الصغرى، وقد نجم عن هذه الهجرة فيما نجم قيام السلطنة السلجوقية، إذ دعمت قوى اليقظة، وأمدتها بقوى فكرية منظمة، وإن كانت تحمل عناصر تعصب شديدة وجديدة على الحياة العربية.

وانتقلت روح اليقظة الجديدة من الأراضي المشرقية إلى المغرب، فحلت بتونس أولاً مع المعز بن باديس الذي ثار على بقايا الحكم الفاطمي في المغرب، ثم قفزت النهضة نحو الصحراء، فنجم عنها قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهم وبناء مدينة مراكش العتيدة.

---

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي: التاريخ، ص ١٤٥.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧/ ٧٤٣.

بالنسبة للمشرق العربي، سلف أن تحدثنا عن سيطرة البويهيين على الخلافة والخلفاء العباسيين، ثم في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي اعتراهم الضعف بسبب المنازعات الداخلية بين أمرائهم، في وقت سيطرت فيه الدولة الغزنوية على خراسان بكاملها وعلى جزء من عراق العجم، وأثناء انشغالهم بالفتوحات في الهند وشرق إيران بدأت تحركات القبائل التركمانية بزعامة السلاجقة من مناطق الإستبس إلى الأراضي الإسلامية في ما وراء النهر ثم إلى خراسان، وهناك اصطدموا بالدولة الغزنوية وانتصروا عليها سنة ٣٤١هـ/ ١٠٣٩م قرب الدندانقان، ثم توغلوا في خراسان وسيطروا عليها، وحصلوا على تفويض الخلافة العباسية ومباركتها، كما استدعاهم الخليفة العباسي للحلول محل البويهيين.

لم يقتصر الاجتياح السلجوقي على الأراضي الإسلامية، بل شمل أراضي إرمينية، والأراضي البيزنطية في الأناضول، وبعد أن واجهت الإمبراطورية البيزنطية على حدودها الشرقية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي دولة إسلامية منحلة سياسياً، ومنقسمة على نفسها مذهبياً، بات عليها الآن أن تواجه قوة إسلامية تحمل روحاً جديدة وقوة وعزيمة، وأهم شيء أنها موحدة.

فقد أوغل السلاجقة في الأراضي البيزنطية، فوصلوا في غاراتهم إلى منازكرد وأرزن الروم، وبلغوا طرابزون على البحر الأسود،«فأكثروا القتل في الروم، وهزموهم» (١)،ومع تسلم ألب أرسلان سلطنة السلاجقة بعد وفاة عمه طغرل بك، دخلت السياسة السلجوقية تجاه الإمبراطورية البيزنطية دوراً جديداً استهدف الاستيلاء على أراضي تلك الدولة وامتلاكها، وعلى هذا سيطر ألب

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/ ٦٩.

أرسلان على آني، ثم قارص العاصمتين القديميان لإرمينية، وأهم مراكز القوة البيزنطية في شرق الإمبراطورية، ثم اجتاحوا إقليم كبادوكيا، وقيصرية.

في هذا الوقت اعتلى رومانوس دايجينوس (رومانوس الرابع) عرش الإمبراطورية البيزنطية (١٠٦٧- ١٠٧١م)، وقد شرع هذا بسياسة استهدفت طرد التركمان من أراضي الإمبراطورية، وإقفال الحدود في وجههم، ولهذه الغاية حشد كل طاقات الإمبراطورية العسكرية، واستعان بأعداد كبيرة من المرتزقة، وجاء جزء كبير من هؤلاء المرتزقة من أوربا الغربية، وهكذا تسنى لرجالات أوربا الغربية من العسكريين الحصول على مزيد من المعلومات عن أحوال المشرق العربي وطرائق العرب في الحياة العامة والقتال، كما حصلت على وصف أوفى للثراء والرفاه المتوفر، ولا شك أن هذا كان له أثره في النفوس ولا سيما لدى إدارة الجمهوريات والدويلات البحرية الإيطالية.

أخفقت الإمبراطورية البيزنطية في الوصول إلى أهدافها المبتغاة، وكان نصيبها أن حلّت بها كارثة عسكرية مروعة، فلقد حطم ألب أرسلان المؤسسة العسكرية البيزنطية على أرض معركة منازكرد قرب بحيرة وان في تركية حاليــاً.

ففي هذه المعركة الحاسمة التي نشبت سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م هزم المسلمون جيوش الإمبراطورية العتيدة، وأسروا الإمبراطور رومانوس دايجينوس، فكان أول إمبراطور بيزنطي يقع في أسرهم، وقد تحدثنا عن هذه المعركة مطولاً في المطلب السالف، وفي الحقيقة جاءت منازكرد لتكمل الإنجاز الذي صُنع في معركة اليرموك، ذلك أن هذه المعركة رسمت طريق النهاية لحياة

الإمبراطورية الرومانية الشرقية، لتحل محلها السلطنة العثمانية التي ورثتها دولة تركيـــة.

لا شك أنّ معركة منازكرد كانت إحدى معارك التاريخ الكبرى، فعلى الرغم من تقاعس السلطان ألب أرسلان عن استثمار نتائجها بشكل مباشر، فإنها أعطت الكثير من العطاءات بقوة دفع ذاتية، فقد دقت أصداء النصر المبين في منازكرد بوابات أوربا الشرقية بعنف، وأحدثت في أرجاء القارة ذعراً يماثل الذعر الذي أحدثه الفاتحون العرب الأوائل، وهكذا وصلت إلى أوربا الغربية وفود أرسلتهم القسطنطينية تطلب العون وتنشد النجدات وتفاوض من أجل الوحدة بين الأرثوذكسية والكاثوليكية.

وأيقن الغرب الأوربي نهاية دور الإمبراطورية البيزنطية في حماية المسيحية من ضغط الإسلام، ومن حراسة الباب الشرقي لأوربا، وبذلك صار على الغرب الأوربي أن يقوم في هذا المضمار بدلاً من اعتماده على الإمبراطورية البيزنطية، لذلك نجد أن معركة منازكرد سوّغت في نظر الكثير من المؤرخين ما حدث سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م من دعوة البابوية للحروب الصليبية على أساس أنّ هذه الدعوة جاءت رد فعل على الكارثة التي حلّت بالإمبراطورية البيزنطية سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م.

ومن بعد منازكرد انساح التركمان في الأناضول، وسيطروا على ثلاثة أرباع آسية الصغرى تقريباً، وتم ذلك على يد سليمان بن قُتُلْمُش أحد أقرباء

السلطان السلجوقي ملك شاه [1]، فوصل بفتوحاته إلى نيقية قرب القسطنطينية على البر الآسيوي للبوسفور، وجعلها عاصمة لدولته في الأناضول، كما احتل الأتراك إزمير على بحر إيجة، وفي قيصرية وسيواس وأماسية أسس بنو الدانشمند – وهم أسرة تركمانية أقرباء السلاجقة – إمارة قوية هناك، ولما اعتلى ألكسيوس كومينون عرش الإمبراطورية البيزنطية سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م كان الأتراك هم السادة الحقيقيون في آسية الصغرى من الفرات شرقاً حتى بحر إيجة ومرمرة غرباً، في حين أن السواحل الشمالية المطلة على البحر الأسود، والسواحل الجنوبية المطلة على المتوسط بقيت بيد البيزنطيين.

وكما سلفت الإشارة لما وقعت منازكرد في الشرق كانت أراضي المغرب الأقصى تشهد نجاحات متوالية لحركة المرابطين التي ولدت في سجلماسة، وعلى ضفاف نهر السنغال، وبعد ثلاث عشرة سنة من منازكرد عبرت جيوش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين مضيق جبل طارق إلى أراضي الأندلس حيث كانت جيوش ألفونس السادس تهدد الوجود العربي الإسلامي هناك، وفي منطقة الزلاقة قرب بطليوس على الحدود الإسبانية البرتغالية الحالية، أوقع المرابطون بجيوش حرب الاستغلاب الصليبية هزيمة نكراء سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، ومن

---

(١) في أواخر أيام السلطان طغرل بك انشق عنه ابن عمه قُتُلْمُش بن إسرائيل بن سلجوق، واستقر هذا الأخير مع بعض التركمان في جنوب بحر قزوين، ولم يكن على علاقة جيدة مع السلطان السلجوقي ألب أرسلان، وبعد وفاة قُتُلْمُش هذا خلفه ابنه سليمان الذي توسع في آسية الصغرى لحسابه الخاص ضد السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان، وضد البيزنطيين معاً، ويعد هذا بداية تأسيس دولة سلاجقة الروم في آسية الصغرى، وقد قُتل سليمان هذا على يد تُتُش سنة ٤٧٩هـ.

جديد قرعت أصداء نصر الزلاقة بوابات أوربا من الجهة الغربية بعنف شبيه بالعنف الذي كان يوم افتتح طارق بن زياد وموسى بن نصير الأندلس، ولا شك أنّ ذلك كان له أبعد الأثر في نفسية سكان أوربا الغربية، مما ساعد بشكل كبير على نجاح حركة التبشير وتقبل الأوربيين لفكرة الحرب المقدسة التي بشر بها مبشرون عدة حفظ لنا التاريخ ذكر أشهرهم وهو بطرس الناسك الذي كان من مسيحي إسبانيا.

إنه لما يُؤسف له أن السلطان ألب أرسلان لم يعش طويلاً بعد نصره في معركة منازكرد، كما أن سلطنة السلاجقة نفسها لم تعمر غير بضع سنوات لتنهار وتحل محلها قوى صغيرة متصارعة من أجل السلطة،(١) وكان معنى هذا انتكاسة كبيرة لقوى العرب والمسلمين في المشرق، ولا سيّما إذا أخذنا بعين التقدير النفقات الهائلة التي تحمّلها أهل المشرق حتى قامت سلطنة السلاجقة، وعدم تمكنهم في الحقبة الوجيزة التي عاشتها من استرداد عافيتهم، ثم

---

(١) بعد وفاة السلطان ملك شاه دخل السلاجقة في صراعات قوية على السلطة، ونتج عن ذلك أن انقسموا إلى خمسة بيوت حاكمة هي: ١- بيت طغرل بك، وتسمى دولته دولـــة =

= السلاجقة الكبرى، وقد ملكوا خراسان والري والعراق والجزيرة وفارس والأهواز، واستمرت دولتهم حتى سقطت سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٧م على يد الخوارزمية. ٢- بيت سلاجقة كرمان، وهم عشيرة قاروت بك بن داوود بن ميكائيل بن سلجوق، وهو أخ ألب أرسلان، واستمرت دولته حتى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م إذ سقطت على يد الغز التركمان. ٣- سلاجقة عراق العجم وكردستان، واستمرت دولتهم حتى أسقطها الخوارزمية سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م. ٤- سلاجقة الشام، وهم بيت تُتُش بن ألب أرسلان، انتهت دولتهم سنة ٥١١هـ/١١١٧م. ٥- سلاجقة الروم في آسية الصغرى، وهم من بيت قُتلمش بن إسرائيل وقد أسسها ابنه سليمان، انتهت على يد الأتراك العثمانيين سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، وهي أطول دول السلاجقة عمراً.

اضطرارهم بعد ذلك إلى تحمل المزيد من الأعباء، وقد مكن انهيار سلطنة السلاجقة الإمبراطورية البيزنطية من استرداد عافيتها وتمالك جأشها ثانية للمشاركة في عمل هجومي جديد ضد بلاد الشام والجزيرة.

وعلى صعيد المغرب والأندلس حدث الشيء نفسه تقريباً، فلم يستغل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين نصره في الزلاقة، بل عاد إلى المغرب فوراً، وبعد أعوام جاز جوازه الثاني حيث قضى على دول الطوائف ووحد الأندلس مع المغرب وتوفي سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م، فخلفه ابنه علي، وفي الوقت الذي بدأ فيه علي هذا يعد الخطط ليس لتحرير جميع أراضي الأندلس فحسب، بل لاستئناف حركة الفتوح العربية داخل أوربا، في هذا الوقت ظهر في المغرب المهدي بن تومرت إذ بدأ نشاطه الدعوي الذي انتهى بإسقاط دولة المرابطين وقيام حركة الموحدين بعد حروب أهلية مريرة.

لقد أعطى هذا كله أوربا بشطريها المزيد من الفرص للإقلاع براً وبحراً بهجمات مضادة على الإسلام في عقر دار العروبة، وكان عرش البابوية في روما قد احتكره أفراد أسرة يهودية إيطالية يقال إنها تظاهرت بالمسيحية، وقد تخرج من مدرسة هذه الأسرة اليهودية البابا أوربان الثاني، وهو الذي قام بإعلان الدعوة للحروب الصليبية، وأعد الخطط لها للتوجه نحو المشرق العربي.

وفي إطلالة سريعة على الوضع السياسي العام في المشرق العربي في بداية القرن الذي وصل في أواخره الصليبيون إلى مشارف الشام، نجد أن بلدانه كانت تعيش في حالة من الفوضى السياسية والعَقَديَّة، فقد كان هناك خلافتان: واحدة في بغداد، وثانية في القاهرة، وكانتا في صراعٍ دائم، ونزاع عقدي دموي مستمر، كما أن الأحوال الداخلية في كل من هاتين الخلافتين كانت سيئة جداً، إذ

كان الخلفاء محكوماً عليهم من قبل جند نسوا كيف يقاتلون للدفاع عن شعوب دولتهم ضد الظلم والعدوان الخارجي، وتذكروا فقط كيف يقاتلون من أجل الفتن والاستغلال والتسلط على سدة الحكم.

وكانت غالبية بلاد الشام في هذا القرن تدين بالإسلام إنما على مذهب«الإثني عشرية»، وكانت هناك مجموعات من الإسماعيلية وسواهم، ومجموعات من المسيحيين لا سيما في الشمال، وكانت أعداد كبيرة من هؤلاء من أصل أرمني، وكان هناك قلة من اليهود، وكانت الحريات الدينية والفكرية مصانة، وظهر ازدهار ورفاه وتقدم ثقافي وحضاري رائع، من أعلامه: أبو العلاء المعري، وابن سنان الخفاجي، وابن أبي حصينة، وابن حيّوس.

لقد كان هناك يقظة سنية عامة وتراجع شيعي واضح، وقد زاد من سرعة هذا التغيير قيام السلطنة السلجوقية، وكذلك فقد أكسبه التركمان أشكالاً جديدة فيها عنفٌ وتعصبٌ شديدان.

ولما حدثت هجرات شعوب الغز التركمانية إلى بلاد الشام، والعراق، والجزيرة ترافق ذلك مع دمار مروّع لهذه البلاد، أسهب المؤرخون في الحديث عن تفاصيل حوادثه، وكنتيجة مباشرة لذلك فقد ضعف سكان البلدان، وهجر الكثير من أهل المدن مدنهم، وتعطل النشاط الاقتصادي العام؛ الزراعي والتجاري، فنضبت الموارد، ونهبت الموجودات، أو أحرقت ودمرت، ولما كانت شعوب الغز عبارة عن عشائر وقبائل بدوية، كره أفرادها الوحدة، وألفوا الفرقة وأحبوها، وارتضوا بعدم الاستقرار، وأنفوا من الانصياع لمناهج الحكومات المركزية ذات الأنظمة والقوانين، فما إن انهارت السلطنة المركزية حتى تجددت الصراعات الداخلية، ومن ثم زاد ضعف الشام ضعفاً.

وخلاصة القول: إن التركمان انساحوا في بلاد الشام وتمكنوا في مدى ثلث قرن من الزمان من تدمير بلاد الشام تدميراً قلّما عرفت مثيلاً له في تاريخها المديد، ولما أشرف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الإنهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لا نظير له، وكانت هذه البلاد مثل رقعة للشطرنج فيها مربعات عديدة، على كل مربع دمية لها اسمها، وصفاتها، ومزاياها، تتصارع مع بقية الدمى، وكانت الدمى في غالبيتها تركية الأصل، غريبة المولد والنشأة لا ارتباط لها بحضارة البلد ولغته وتقاليده ومعتقداته، وكانت كلها تتصارع في سبيل السلطة والمزيد من الأرباح الخاصة والمال فقط، دونما رادع أو تقدير، وكان من محصلات أعمالها بالإضافة لما ذُكر، تحطيم قوة قبائل العرب في البلاد مع قوة أهل المدن ومنظمات الأحداث.

في ذروة حالة الدمار هذه والعنف والعذاب وصلت إلى أنطاكية في مشارف الشام حشود من صليبيي أوربا، قدّرت أعدادها بما يفوق المليون ما بين رجل وشيخ وطفل وامرأة، وقيل إنَّ القوة المقاتلة لهذه الحشود كانت لا تقل عن مئة ألف ما بين فارس وراجل وتابع.

لقد كان الهدف المعلن لهذه الحشود الوصول إلى القدس لقضاء واجب الحج، وتخليص الأراضي المقدسة من المسلمين والعرب، وتحويلها إلى جزء من أوربا الكاثوليكية فيما وراء البحار.



المقالـة الثانيـة

الاستجابة الأوربية لدعوة الحروب الصليبية

ووقائع الحملة الأولى

- أحوال أوربا ودوافع الاستجابة:

قبل الخوض في تفاصيل الحملة الأولى تجب الإشارة - ولو بشكل موجز - للأسباب التي أدت إلى تجمهر أعداد كبيرة من شعوب أوربا للسير نحو الشرق.

لما ألقى البابا أوربان الثاني خطبته في كليرمونت بفرنسا داعياً للحروب الصليبية سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م حدثت هناك استجابة فورية وهائلة على كلّ المستويات الشعبية والحكومية، فما سببها؟

صحيح أن الإمبراطورية البيزنطية لما تعرضت لخطر السلاجقة استعانت بالبابوية والغرب الأوربي، لكن لو لم يكن عند الغرب الأوربي بواعث وأسباب جعلته يتحرك لما لبى النداء، ويمكن القول إن لنظام الإقطاع الذي كان سائداً في أوربا آنذاك، ولصراعاته الداخلية، دوراً رئيسياً في دفع شعوب أوربا؛ حتى

أمرائها، للانخراط في صفوف المهاجرين نحو الشرق، **فعلى المستوى الشعبي:** عاشت طبقة الفلاحين – التي شكلت السواد الأعظم من سكان أوربا الغربية – عيشة ذل وهوان في قرى متخلفة وفي أكواخ من جذوع الشجر والطين، كما كانوا محرومين من أبسط مبادئ الحرية، حتى من الملكية الشخصية، فهم رقيق، وأقنان أرض، ومُلْكٌ لسيدهم الإقطاعي الذي كان يملك القرية، كانوا يباعون ويشرون، ويجري التصرف بهم مثل الأرض، أما مهمتهم فكانت فلاحة الأرض وزراعتها، بالإضافة إلى أعمال أخرى شاقة، وتُفرض عليهم ضرائب عديدة، في وقت علت فيه صيحات الدعوة للحروب الصليبية، فوجد ألوف من هؤلاء البائسين فرصة للنجاة والتخلص من ذل الحياة وتكاليفها، ولا سيما بعد ما سمعوا من الحجاج والزائرين عن الرفاه الذي تمتع به المشرق الإسلامي آنذاك، وقد ظهرت همجيتهم وتخلفهم ورعونتهم واضحة في أعمال السلب والنهب والمجازر التي ارتكبوها بحق إخوانهم المسيحيين أثناء مسيرهم في أراضي الإمبراطورية البيزنطية.

وعلى مستوى الأمراء: فقد كانت مكانة الأمير تتناسب مع حجم إقطاعه وأهميته، وأكبر مشكلة كان يمكن أن يواجهها الأمير الإقطاعي هي حرمانه من إقطاعه، أو عدم وجود إقطاع له، هذه المشكلة واجهها عدد من الأمراء، لأن النظام الإقطاعي في أوربا جعل الابن الأكبر هو الوارث الوحيد لأملاك أبيه، ويحرم الباقي من الورثة، فكان يلجأ بعض الأمراء إلى أساليب عدة للحصول على إقطاع عن طريق القوة والحرب، أو عن طريق زواجهم بأميرات يرثن إقطاع أبيهن، وحين تعالت صيحات الحروب الصليبية فُتح أمام الأمراء المحرومين بابٌ جديدٌ لإنشاء إمارات لهم في الشرق، فتم لهم ما أرادوا، وبدا ذلك

واضحاً بعد استقرار الصليبيين في الشرق الإسلامي حيث جرى تأسيس أربع إمارات سارت على النظام الإقطاعي الأوربي.

لقد كان العامل الاقتصادي أيضاً حاضراً بقوة كسبب من أسباب الاستجابة لدعوة الحروب الصليبية، فالحماسة العالية التي أبدتها المدن التجارية الإيطالية للانخراط مع القوى المشاركة، وإعلان استعدادها لتمويل المشروع الصليبي ونقل المقاتلين لم يكن سببه دينياً، بل كانت غايتهم الجري وراء المصالح التجارية، ولا سيما أنهم كانوا يتاجرون مع الشرق الإسلامي ويعلمون جيداً الأهمية التجارية للمنطقة، وهنا نتذكر شعار البندقية الشهير في حقبة الحروب الصليبية،«لنكن أولاً بنادقة، ثم لنكن بعدها مسيحيين».

لقد كانت هذه المدن التجارية أشبه بدويلات مستقلة لها إدارة تحكمها، وكانت أساطيلها قد سيطرت على البحر المتوسط آنذاك، لذلك كانت للمساعدة التي قدمت للحملة الأولى – ولا سيّما من جنوة– أثر كبير في نجاح هذه الحملة واحتلال معظم مدن الساحل الشامي، ومقابل ذلك حصلت هذه المدن على امتيازات تجارية واسعة، تمثلت بإعفاءات جمركية، وأسواق داخل المدن، وفنادق، وأفران، وحمامات، ومخابز....، وبلغ الجشع والتنافس بهذه المدن التجارية إلى مرحلة الحروب الطاحنة مثل حرب القديس سابا في عكا بين الجنوية والبنادقة، بل إن البندقية لم تتورع عن تضليل الحملة الصليبية الرابعة، وتحويل وجهتها عن مصر إلى القسطنطينية لاحتلالها جرياً وراء مصالحها التجارية.

مع هذا لا يمكن أن نتجاهل الدافع الديني ودور الكنيسة الكاثوليكية، فهذه الكنيسة كانت في أوربا الغربية آنذاك هي المؤسسة الأقوى سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وإلى حدٍّ ما عسكرياً، ولا سيما بعد أن تعاظمت قوة البابا، واتسع

نفوذه بسبب حركة الإصلاح الكلونية،[١] فبدأ البابا – خليفة المسيح والقديس بطرس – يعمل لجعل سلطته عالمية، وفي العصور الوسطى التي عرفت باسم «عصور الإيمان» كان من يخالف تعاليم الكنيسة يُعَرّض نفسه لأشد أنواع العقوبات، لذلك لما خرج النداء للحروب الصليبية من البابوية كان صداه في أوربا قوياً.

وهنا توفرت شخصية البابا أوربان الثاني الذي استغل هذه الظروف وقضية التوتر الديني، وعلى هامش أعمال مؤتمر أو مجمع ديني، كان قد حضره رجال دين من كافة أنحاء أوربا في مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وأمام حشد هائل من الناس في الفضاء المكشوف خارج الكنيسة، ألقى البابا أوربان الثاني في ٢٧ تشرين الثاني خطبته الشهيرة، واستخدم فصاحته وبراعته لإثارة الحماسة الدينية، وأهم ما ورد في كلمته أنه على المسيحيين الغربيين نبذ الخلافات الداخلية، والتوجه نحو الأراضي المقدسة في فلسطين لتحريرها من الكفرة المسلمين، فكانت الاستجابة له فورية، بدأت بأدهمر أسقف مدينة بوي Puy الذي ركع أمام البابا، وطلب إليه السماح له بالمشاركة في الحروب لتحرير القبر المقدس والمسيحيين من اضطهاد المسلمين، ومن ثمَّ أصبح هذا الأسقف أول المتطوعين بهذه الحملة، وقد اختاره البابا مندوباً أو نائباً عنه في الحملة الأولى.

---

(١) حركة إصلاحية ظهرت مطلع القرن العاشر الميلادي استهدفت إصلاح المفاسد في الأديرة، وقد بدأت في دير بمنطقة كلوني في فرنسا، ففي هذا الدير روعي تجنب الأخطاء والمفاسد التي انتشرت في بقية الأديرة، وكان لهذه الحركة صداها لدى العامة، وسرعان ما تطورت هذه الحركة واتسع أفقها، وزادت من هيبة الكنيسة والبابا ونفوذهما.

بعد خطبته في كليرمونت أخذ البابا ينتقل بين المدن الأوربية داعياً للحروب الصليبية، وقد وعد المشاركين بامتيازات واسعة، ولم تقتصر عملية الدعوة عليه فقط، فقد قام بأعباء الدعوة عدد من الأساقفة، كان من أشهرهم بطرس الناسك، الذي تمكن بفصاحته، وهيئته الغريبة – كان حافي القدمين، وعليه ثياب رثة، وحماره أعرج – أن يُؤثر بالجماهير، فالتحقت به أعداد كبيرة من العامة والفقراء المعدمين، وهنا نذكر أن فصاحة بطرس الناسك لم تكن السبب الرئيس وراء اشتراك العامة في الحروب الصليبية، إنما الظروف التي عاشوها، والأهوال التي قاسوها، هي التي دفعتهم للاشتراك معه بعد أن رأوا في دعوته طريقاً للخلاص من العبودية.

إلى جانب بطرس الناسك اشتهر عدد من الدعاة منهم والتر المفلس، وقد حشد هذا كثيراً من العامة كما حشد بطرس الناسك، وسارت جموعهم من شمال غرب فرنسا، واللورين، وألمانيا عبر هنغاريا إلى القسطنطينية، ولم ينتظروا مسير القوات النظامية التي كان يجري إعدادها على قدم وساق تحت إشراف أمراء أوربا الإقطاعيين، وافتقرت هذه الجموع إلى أدنى درجات التنظيم والتسليح والتدريب، وخلال مسيرهم في الأراضي البيزنطية لم ينتهوا عن السلب والنهب والاعتداء على الأهالي الآمنين، كما أن بطرس الناسك الذي سار بعد والتر المفلس ارتكب مجزرة بأهالي بلدة سملين الهنغارية لأنهم منعوا عنه الميرة، وكانت هذه الأفعال كفيلة بإثارة ريبة الإمبراطور ألكسيوس كومنيون، لذلك لم يسمح لهم بدخول القسطنطينية، وعمل على نقلهم إلى البر الآسيوي للبوسفور، حيث نزلوا على مقربة من مدينة نيقية عاصمة قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم في آسية الصغرى، وهناك أنزل بهم السلاجقة هزيمة ساحقة أتت

على غالبيتهم، ولم ينج منهم إلا النفر القليل، ولحسن حظ بطرس الناسك لم يشهد المعركة بسبب غيابه في القسطنطينية.

- وقائع الحملة الصليبية الأولى:

كانت القوات النظامية قد جرى إعدادها وتسليحها وتمويلها بشكل جيد، جُمعت جيوشها من كل أنحاء أوربا، توزع قيادتها أربعة أمراء إقطاعيون، فافتقرت للقيادة الموحدة وتقسمت على أربعة جيوش، الأول كان على قيادته غودفري دوق اللورين وبرفقته أخوه بلدوين، والثاني كان على قيادته بوهيمند أمير تارنت وبرفقته ابن أخته تنكرد، وكان على قيادة الجيش الثالث ريموند صاحب تولوز وبرفقته المندوب البابوي أدهمر أسقف مدينة بوي، أما الجيش الرابع فقد تزعمه روبرت أمير نورمنديا، وهو ابن وليم الفاتح.

بعد أن اجتمعت هذه الجيوش في القسطنطينية واتفقت – بعد نزاع طويل – مع الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنيون حول طبيعة الأعمال التي سوف تتم، سارت باتجاه آسية الصغرى، فانتصرت على جيوش السلاجقة في نيقية وضورليوم سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م، ثم دخلت منطقة كيليكيا حيث وُجد الأرمن بكثرة، وهناك انفصل عن الحملة بلدوين دي بولليون أخو غودفري، وسار بقواته إلى الرُّها بعد أن تلقى دعوة من حاكمها ثوروس الأرمني حيث كان الخطر التركي السلجوقي يتهدده، وفي الرُّها أسس بلدوين أول الإمارات الصليبية في الشرق سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، في حين تابع باقي الحملة المسير من قونية إلى أنطاكية، وأخذت في حصارها.

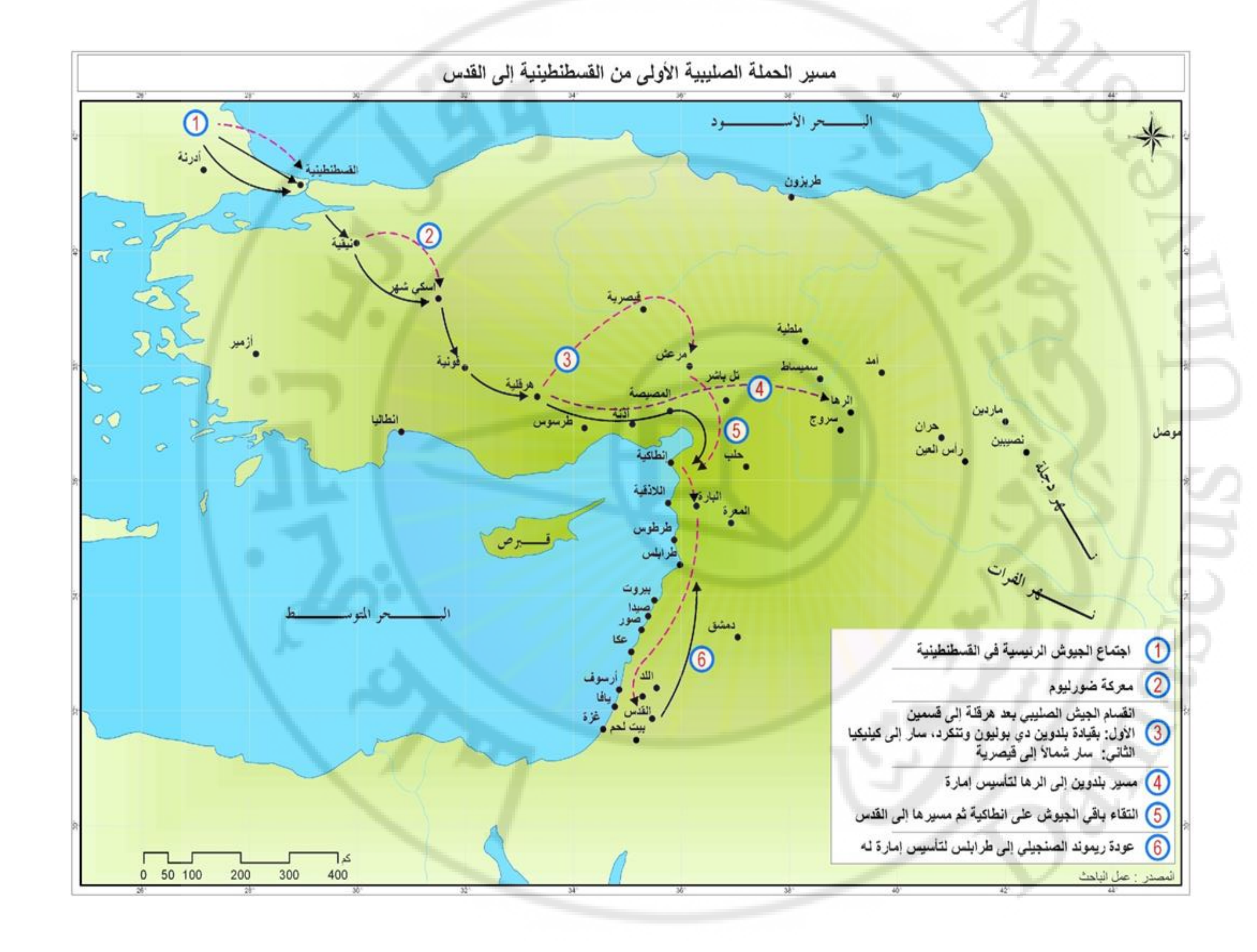
كانت أنطاكية من أشهر مدن الشام آنذاك وأمنعها، وكان يتولاها الأمير يغي«ياغي" سغان من قبل السلاجقة، وكان الحصار الصليبي شديداً امتد أمداً طويلاً، أخفق خلالها حكام الشام والجزيرة في توحيد جهودهم وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة لو أحسنوا العمل، وأخيراً سقطت أنطاكية بسبب خيانة فيروز الأرميني، وهو أحد كبار ضباط يغي سغان، وكان أرمنياً تظاهر بالإسلام وتسلم حراسة أحد الأبراج، ثم راسل بوهيمند أحد قادة الصليبيين، ومكنهم من تسلق أسوار هذا البرح، وعندما دخل الصليبيون أنطاكية في رجب ٤٩١هـ/حزيران ١٠٩٨م ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين، وفرَّ يغي سغان، وفي الطريق سقط عن فرسه ومات فزعاً من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به، ولم يكن سقوط مدينة أنطاكية يعني ضياع كل الفرص، فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين، وأخيراً تجمعت قوة تركمانية في الشام والجزيرة ووصلت إلى أنطاكية، وأخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار، وكان من الممكن إيقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين: نار حامية القلعة، ونار التركمان من خارج الأسوار، لكن أنانية قادة التركمان، وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الاخفاق والهزيمة، وسقطت القلعة أواخر شعبان ٤٩١هـ/ تموز ١٠٩٨م، ليؤسس الصليبيون فيها ثاني دويلاتهم في المشرق العربي، وتولى حكمها بوهيمند النورمندي.

كان من أهم أسباب نجاح الصليبيين في الرُّها ثم في أنطاكية أن الكثير من سكان تلك المناطق كانوا يدينون بالمسيحية، وكانوا إما سرياناً، وإما من أصل أرميني، وقد قدم هؤلاء مساعدات عظيمة لجموع الفرنجة الصليبيين، فعملوا كأدلاء ومرشدين لهم، وأخبروهم بتحركات السلاجقة هناك، ثم لم يبخلوا في تقديم

المؤن لهم أثناء مسيرهم، وأثناء حصار أنطاكية، يُضاف إلى هذا أن سيادة التركمان على المنطقة كانت سطحية، مكروهة وليس لها قواعد متينة، ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الصليبيين كان على طريقة البدو في قاعدة الكر والفر، ثم إن الأرض لم تكن«بعد" أرضاً تركمانية، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم، وربما وجد شيء يسير من الشعور الديني، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان.

وزحفت معظم جموع الصليبيين جنوباً، وذلك بعد أن جعلوا أنطاكية مركزاً لإمارة صليبية ثانية في الشرق، وأسندوا حكها للأمير بوهيمند، ثم استطاعوا أثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من دولة حلب الكثير من أراضيها وقراها وبلدانها، ولا سيما في المنطقة الغربية، فلقد استولوا على البارة، وأخذوا يجردون حلب من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا إلى أسوار المدينة، ثم أتوا على معرة النعمان، وبعد حصار طويل تمكنوا من احتلالها، وارتكبوا بحق أهلها مجزرة رهيبة في نهاية سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م.

وبعد احتلال المعرة نشب خلاف بين أمراء الصليبيين، فقد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لإقامة إمارة جديدة، وعارض أصحاب أنطاكية الجدد ذلك، حتى كادت الحرب تنشب بين صفوف الغزاة، وهنا ثارت جماهير المعدمين Tafurs من الصليبيين، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة، ثم توجهت نحو أسوار المعرة وتحصيناتها فدمرتها كلياً، وهكذا اضطرت جموع الصليبيين إلى مغادرة المعرة والزحف جنوباً، تقتل وتحرق وتدمر حتى وصلت إلى القدس، وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر، فحاصرتها حصاراً شديداً، وقاومت المدينة، وانتظرت ورود النجدات إليها من القاهرة، لكن عبثاً كان هذا الأمل، وأثناء الخصار وصل إلى يافا عدد من السفن الإيطالية حاملة العتاد



مسير الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية إلى القدس
البحر الأسود
البحر المتوسط
قبرص
نهر الفرات
نهر دجلة
أدرنة
القسطنطينية
نيقية
أسكي شهر
قونية
هرقلية
أزمير
انطاليا
طرسوس
أذنة
المصيصة
قيصرية
مرعش
تل باشر
ملطية
سميساط
الرها
سروج
أمد
حران
رأس العين
ماردين
نصيبين
موصل
طربزون
انطاكية
حلب
البارة
المعرة
اللاذقية
طرطوس
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
دمشق
أرسوف
يافا
اللد
القدس
غزة
بيت لحم
1 اجتماع الجيوش الرئيسية في القسطنطينية
2 معركة ضوروليوم
3 انقسام الجيش الصليبي بعد هرقلة إلى قسمين
الأول: بقيادة بلدوين دي بوليون وتنكرد، سار إلى كيليكيا
الثاني: سار شمالاً إلى قيصرية
4 مسير بلدوين إلى الرها لتأسيس إمارة
5 التقاء باقي الجيوش على انطاكية ثم مسيرها إلى القدس
6 عودة ريموند الصنجيلي إلى طرابلس لتأسيس إمارة له
0 50 100 200 300 400 كم
المصدر : عمل الباحث

والأخشاب والأغذية للصليبيين، وقام الصليبيون ببناء عدة أبراج حصار تمكنوا بوساطتها من الاستيلاء على القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩م، ونترك هنا وصف ما حلَّ بالقدس لصاحب كتاب أعمال الفرنجة، وكان قد شارك بالحوادث، يقول: «تقدم واحد من فرساننا واسمه (ليتو) واعتلى سور المدينة، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار التي داخلها، فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا المسجد الأقصى حيث جرت مذبحة هائلة، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى،.... ولما ولج حجّاجنا جدّوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة الصخرة، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله، حتى فاض المسجد كله بدمائهم...... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات.

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع، وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه، وفي صباح اليوم التالي تسلّق رجالنا سطح المسجد وهجموا على المسلمين رجالاً ونساء، واستلّوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل، ..... وصدر الأمر بطرح جثث كافة الموتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم، ولأن المدينة كادت تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس، وطرحهم أمام الأبواب، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً، ما تأتي لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب المسلم».

وَصَفَتِ القدس للغزاة الجدد، فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق وأعظمها مكانة، ثم أخذوا يُوسّعون رقعة أملاكهم في فلسطين، وبعد عدة سنوات احتلوا

مدينة طرابلس وأقاموا فيها دويلتهم الرابعة في الشام، ثم أكملوا سيطرتهم على الساحل الشامي من أنطاكية شمالاً حتى عسقلان جنوباً، ثم أسسوا الحصون والقلاع في المناطق التي احتلوها، وفي عصر قوتهم كانت هذه القلاع نقاط انطلاق للتوسع، ثم غدت نقاط للدفاع عن أملاكهم، وكانوا قد اتبعوا نظاماً للحكم أُسس على النمط الأوربي اللاتيني، وحسب قواعد الإقطاعية الحربية مع تعديل بسيط استلزمته ضرورات الحرب في الشام، فكان المجتمع الصليبي هناك مجتمعاً حربياً إلى حدٍ ما.

قد نزلت الآن ببلاد الشام ضربة مروعة، وأصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله منذ قيام الإسلام، لكن هذا كله لم يُعِد الرشد إلى حكام دويلات الشام التركمان، فاستمروا في صراعاتهم الداخلية، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب، واضطر الطرفان لمهادنة الصليبيين ليتفرغا لصراعاتهم الداخلية، وأخذ الناس في الشام يتململون مما حصل، وبدأ التململ يتحول إلى أعمال ناقدة ومعارضة لتصرفات الحكام، وأول ما انفجر الوضع في مدينة حلب.

وكان الشاعر الأبيوردي خير من صورّ ما حدث في قصيدته الآتية:

مَزَجْنَا دِمَاءً بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عُرْضَةٌ لِلْمَرَاجِمِ

وَشَرُّ سِلَاحِ الْمَرْءِ دَمْعٌ يُفِيضُهُ ... إِذَا الْحَرْبُ شُبَّتْ نَارُهَا بِالصَّوَارِمِ

فَإِيهًا بَنِي الْإِسْلَامِ إِنَّ وَرَاءَكُمْ ... وَقَائِعَ يُلْحِقْنَ الذُّرَى بِالْمَنَاسِمِ

أتهويمةً في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ ... وعيشٍ كنوّار الخميلةِ ناعمِ!

وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مِلْءَ جُفُونِهَا ... عَلَى هَفَوَاتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمِ

وَإِخْوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْحَي مَقِيلُهُمْ ... ظُهُورَ الْمَذَاكِي أَوْ بُطُونَ الْقَشَاعِمِ

تَسُومُهُمُ الرُّومُ الْهَــوَانَ وَأَنْــتَمُ تَجُرُّونَ ذَيْلَ الْخَفْضِ فِعْلَ الْمُسَالِمِ

وكمْ من دماءٍ قد أبيحتْ، ومَـــنْ تُواري حياءً حُســنها بِالمَعاصــمِ

بِحيْثُ السُّيوفُ البيضُ مُحمَـرَّةُ وَسُمْرُ العوالي داميــاتُ اللَّهــاذِمِ

وَبَيْنَ اخْتِلَاسِ الطَّعْنِ وَالضَّــرْبِ تَظَلُّ لَهَا الْوِلْدَانُ شِـيبَ الْقَــوَادِمِ

وتِلكَ حُروبٌ مــن يَغِــبْ عــن لِيَسْلم يَقْرَعْ بعــدَهَا سِــنّ نــادِمِ

سَلَلْنَ بِأَيْدِي الْمُشْرِكِينَ قَوَاضِــبًا سَتُغْمَدُ مِنْهُمْ فِي الطُّلَى وَالْجَمَاجِمِ

يَكَادُ لَهُــنَّ الْمُسْــتَجِنُّ بِطِيبَــةٍ يُنَادِي بِأَعْلَى الصَّوْتِ: يَا آلَ هَاشِمِ

أَرَى أُمَّتِي لَا يُشْرِعُونَ إِلَى الْعِدَا رِمَاحَهُمُ، وَالدِّينُ وَاهِي الــدَّعَائِمِ

وَيَجْتَنِبُونَ الثَّأْرَ خَوْفًا مِنَ الرَّدَى وَلَا يَحْسَبُونَ الْعَارَ ضَــرْبَةَ لَــازِمِ

أَتَرْضَى صَنَادِيدُ الْأَعَارِيبِ بِالْأَذَى وَتُغْضِي عَلَى ذُلٍّ كُمَــاةُ الْأَعَــاجِمِ

فَلَيْتَهُمْ إِذْ لَــمْ يَــذُودُوا حَمِيَّــةً عَنِ الدِّينِ ضَنُّوا غَيْرَةً بِالْمَحَــارِمِ

وَإِنْ زَهِدُوا فِي الْأَجْرِ إِذْ حَمِــيَ فَهَلّا أَتَوْهُ رَغْبَــةً فِــي الْمَغَــانِمِ

لَئِنْ أَذْعَنَتْ تلكَ الخَياشِيمُ لِلْبُرى فلا عَطَســوا إلا بِأَجْــدَعَ راغِــمِ

دَعَوناكُمُ والحربُ تَرْنُو مُلِحّــةً إلينا بِألحاظِ النُّســورِ القَشــاعِمِ

تُراقِــبُ فينــا غَــارةً عربيّــةً تُطِيلُ عليها الرُّومُ عَضَّ الأبــاهم

فإنْ أنتُمُ لم تَغْضَبُوا عنــد هــذه رميْنــا إلــى أعــدائِنا بِــالحَرائِمَ

– بلاد الشام عشية الغزو الصليبي:

سلفت الإشارة إلى الوضع السياسي في بلاد الشام، ونذكر هنا ثانية أنه عندما دخل الصليبيين بلاد الشام كانت أبرز دولها دولتين: واحدة في حلب

وأخرى في دمشق، وكان حَاكِمَا هاتين الدولتين أخوين، هما: دُقاق بن تُتُش في دمشق، وأخوه رضوان في حلب، وقد مثلا جيلاً خاصاً من أجيال السلاجقة، فقد أوقفا نفسيهما مع قواتهما على الصراع الداخلي والحروب الأهلية، واهتبل الصليبيون هذه الفرصة، فوسعوا أملاكهم، وجرّدوا حلب من جميع أراضيها الشمالية والغربية، ولم يبق لها بعد هذا إلّا بعض أراضيها الجنوبية والشرقية، وقد استهدف الصليبيون التضييق على حلب واحتلالها لملءِ الثغرة ما بين أنطاكية والرُّها، ثم الإطباق على الشام كله.

وضاق الأمر بأهل حلب، فتحركوا، وأرادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب عنهم مصلحة وشعوراً ومسؤولية، وابتغوا إقامة حكم وطني شعبي يستطيع التصدي للصليبيين، والقيام بأعمال التحرير، واندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب حين قام مقدم أحداث حلب ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تُتُش، حاكم المدينة التركي، وكان هذا الثائر يُعرف بالمجن الفوعي بركات بن فارس، وكان في الأصل فلاحاً من قرية الفوعة القريبة من حلب، وكان شهماً ذا كفاءات عالية، وقد تمكن بسبب ذلك تولي رئاسة مدينة حلب، ومقدمية الأحداث فيها.

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعدوه، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تُتُش في القلعة، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبياً طائفياً، وأدى هذا إلى إخفاق الثورة وإلقاء القبض على المجن الفوعي، ثم أودع السجن، ثم قُتل بعد أن عُذب عذاباً شديداً.

وأدت هذه الانتكاسة إلى رضوخ الشعب في حلب وسكوته على مضض حتى سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م، فاندلعت الثورة ثانية في المدينة، وأدرك الحلبيون

أنهم لن يستطيعوا إسقاط رضوان، لذلك شكّلوا وفداً من بينهم غادر المدينة سراً وذهب إلى بغداد، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفد عنايتها، ولم تصغ إلى مطالبه، وأمام هذا التجاهل حرك رجال الوفد أهالي بغداد، واستغاثوا بهم أيام الجمع، كما منعوا الخطباء من إلقاء خطبهم يوم الجمع وكسروا بعض المنابر، وهاج الناس في بغداد، فأخاف ذلك السلطات فيها، فقام السلطان محمد بن ملكشاه بتجهيز جيش كبير عهد بقيادته لمودود حاكم الموصل آنئذ، وتحركت هذه القوات نحو بلاد الشام، ولما وصلت إلى حلب أغلق رضوان بن تُتُش أبواب حلب في وجهها، واعتقل زعماء شعب المدينة وأودعهم كرهائن عنده في القلعة، لئلا يفتح الشعب الأبواب ويسلموها للقوات القادمة من المشرق، وأمام هذا الحال اضطر مودود إلى الرحيل نحو دمشق بعد حصار دام سبع عشرة ليلة، وأثناء زحفه اصطدم بقوة صليبية قرب شيزر فهزمها، فرفع ذلك من معنوياته وشدّ من عزيمته، وتابع سيره إلى دمشق حيث دخلها وتحالف مع طُغتكين أتابكها، الذي أصبح سيدها الفعلي بعد وفاة دُقاق بن تُتُش، لكن لما بدأ هذا الحلف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣م، وكان مغتاله من فئة الحشيشية الإسماعيلية، ويبدو أنه كان لطغتكين يد طولى في هذا الاغتيال، ثم توفي رضوان بعد مودود بأمد وجيز في السنة نفسها، وأخذت الأحداث تتحرك في الشام الشمالي بسرعة جديدة.

فقد حلَّ بساح حلب اضطراب سياسي شديد تحرك خلاله شعب المدينة بأكثر من ثورة أثمرت أخيراً، وأدت إلى تجميد الحكام التركمان وقيام حكم «شعبي» يُسيّر أمور الدفاع عن المدينة، وفي هذا الوقت الذي بدأ فيه سكان شمال الشام يستردون فيه أنفاسهم، وبدأ يظهر إلى الوجود جيل عربي مؤمن

جديد مع روح جديدة، في هذا الوقت بالذات وبعد مضي نحو ربع قرن على الغزو الصليبي، كان مدّ التوسع الصليبي في الشام قد وصل إلى أقصى مداه، ومن ثم بدأ يتحول إلى جزر.

- حصار حلب سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ونهاية المد الصليبي:

معلوم أنّ الصليبيين كانوا قد وصلوا إلى مشارف الشام جمعاً موحداً، لكن ما إن توغلوا فيه واستولوا على بعض أراضيه حتى حلّ بهم داؤه العضال، فدب بين صفوفهم التمزق، وانقسموا إلى عدة دويلات [الرُّها، أنطاكية، القدس، طرابلس]، ولما كان عددٌ كبيرٌ من رجال الحملة الأولى قد استقروا في الشام، أنجبوا هناك جيلاً جديداً تمتع بصفات بلدية خاصة، ولم ينقطع تدفق الصليبيين من أوربا على الشام، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفاً من مجموعتين متمايزتين هما: مجموعة البلديين التي تأثرت بثقافة بلاد الشام وحضارتها، وأصبحت أكثر ليونة من المجموعة الثانية وهي مجموعة الوافدين التي حملت رعونة الصليبيين الأوائل وتعصبهم.

وبالإضافة إلى هذا قامت بين صفوف الصليبيين تنظيمات غالباً ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية، كانت الداوية أو فرسان المعبد أهم هذه الفرق، بالإضافة إلى الإسبتارية والتيوتون، وقد غلب النزاع والتنافس على العلاقة بين هذه الفرق، ثم تعقد الوضع مع مرور الزمن، وازدادت الفرقة عمقاً، والخلافات حدة، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وحدتهم في الحملة الأولى، ولا سيما بين صفوف المعدمين Tafurs منهم.

وقعت أمام أسوار مدينة حلب الحادثة التي وصل تيار المد الصليبي فيها إلى مداه، ثم أخذ يتحول إلى جزر، وكان ذلك سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، ففي هذه السنة حضَّر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على حلب، وكانت مدينة حلب في هذه الآونة تتبع رسمياً لتمرتاش بن إيلغازي أحد أفراد الأسرة الأرتقية التركمانية(١)، وقام الصليبيون بالاتصال مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة في العراق وأمير قبيلة بني أسد (٢)، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل

---

(١) يُنسب الأراتقة إلى أُرتق بن أكس أحد مماليك السلطان السلجوقي ملك شاه الذي اعتمد عليه كثيراً، وكان قد أرسله إلى بلاد الشام مدداً لحملة ابن جهير -كما سلف الحديث في مطلب السلاجقة-، ثم دخل في خدمة تُتُش الذي أقطعه القدس سنة ٤٧٩هـ، وهناك أسس الأسرة التي تنسب له، وبعد وفاته خلفه ابناه سقمان وإيلغازي، لكنهما لم يحتفظا بحكم القدس، فقد أخذها منهم الفاطميون قبيل قدوم الحملة الصليبية الأولى، وأسس هؤلاء حكماً لهم في مناطق ماردين وديار بكر، ولما تردّت أوضاع حلب بعد وفاة رضوان بن تُتُش سنة ٥٠٧هـ و مقتل ابنه ألب أرسلان سنة ٥٠٨هـ إذ كثر تولي الحكام وعزلهم، فاستدعى أهل حلب في سنة ٥١١هـ إيلغازي بن أرتق حاكم ماردين لحكم المدينة والتصدي للصليبيين، وفعلاً انتصر على الصليبيين في معركة ساحة الدم (دانيث) سنة ٥١٣هـ، إذ أباد القوات الصليبية التابعة لإمارة أنطاكية وقتل قائدها روجر الأنطاكي، ثم توفي هو سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، فخلفه في حكم حلب ابنه تمرتاش الذي لم يكن بكفاءته وقدرته. انظر: ابن الأزرق الفارقي، تاريخ آمد وميافارقين، تح: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ١١/ ٢٠٩.

(٢) دبيس بن صدقة، أبوه صدقة بن مزيد، كان نفوذ قبيلته في المنطقة الواقعة حول الحلة بين دجلة والفرات، وكان يطمح لبناء دولة في العراق، تحالف مع السلطان السلجوقي محمد ابن ملكشاه، ثم انقلب عليه السلطان محمد وقتله، وفي سنة ٥١٤ هـ/١١٢٠م هاجم ابنه دبيس بغداد ونهبها، وبعد هزيمته من قبل السلاجقة نقل مركز نشاطه إلى البصرة، ثم إلى قلعة جعبر في الشمال، وهناك تحالف مع الصليبيين لتحقيق حلمه في تأسيس دولة بعد أن وعدوه بتوليته حكم حلب.

تعيينه أميراً عليها شرط أن يسمح لبعض من قواتهم بالمرابطة فيها، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران العقيلي صاحب قلعة جعبر، ومع إبراهيم بن رضوان ابن تُتُش الذي كان أبوه أميراً لحلب عندما بدأ الغزو الصليبي، فجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم، وزحفوا على مدينة حلب، وأخذوا في حصارها، وأثناء الحصار عُدل الاتفاق بين المحاصرين، فاتفقوا من جديد على أن تكون حلب لإبراهيم بن رضوان بن تُتُش«لأنها كانت لأبيه».

ولم يكن الحاكم الرسمي لمدينة حلب مقيماً بها، بل كانت الأمور في المدينة بأيدي شعبها، الذي شكل آنذاك نوعاً من أنواع الجمهوريات للدفاع عن المدينة برئاسة قاضيها«أبو الفضل بن الخشاب»، يعاونه مجلس يمثل زعماء المدينة وكبار العلماء.

وشدّد المحاصرون تطويقهم لحلب، وطال الحصار وامتد، وأخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على أسوار المدينة،«وقطعوا الشجر، وخرّبوا مشاهد كثيرة، ونبشوا قبور موتى المسلمين، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم، وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، وعمدوا إلى ما كان من الموتى لم تتقطع أوصاله، فربطوا في أرجلهم الحبال، وسحبوهم مقابل المسلمين، وجعلوا يقولون: هذا نبيكم محمد، وآخر يقول: هذا عليُّكم، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب، وقالوا: يا مسلم أبصر كتابكم، وثقبه الفرنجي، وشده بخيطين وعمله ثفراً[١] لبرذونه، وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه إلى المسلمين[٢]».

---

(١) الثفر: السير الذي يجعل في مؤخر السرج.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، ١/ ٢٩٢-٢٩٣.

ولم يؤثر هذه – على شدته – في معنويات الحلبيين، فداوموا على الدفاع، وازدادوا إصراراً على المقاومة، «وبلغ بهم الضر إلى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف، ووقع فيهم المرض»، ويحدثنا مؤرخ حلب الصاحب كمال الدين عمر بن العديم عن بعض شهود العيان بأن الحلبيين«كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة البلد، فإذا زحف الفرنج، وضرب بوق الفزع، قاموا كأنما نشطوا من عقال، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج، ثم يعود كل واحد من المرضى إلى فراشه»[١] .

ولما اشتد الحصار على حلب، وقلت الأقوات بها وضاق الأمر بالحلبيين، اتفق رأيهم على تسيير وفد إلى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي، وكان آنذاك مقيماً في ماردين مشغولاً بمسائل خاصة، وخرج الوفد ليلاً من البلد، وعلم الصليبيون بخبره، وحاولوا اعتقاله فأخفقوا، ورغم هذا حاولوا أن يوهموا أهل المدينة أنهم اعتقلوا رجالات الوفد، لكن ذلك لم ينطل على الحلبيين، وعرفوا بعد وقت قصير نبأ وصول وفدهم سالماً إلى ماردين.

وفي ماردين واجه الوفد مفاجأة كبرى غير متوقعة، فبعد أن شرح أعضاء الوفد لتمرتاش مآسي حلب وطالبوه القيام بواجبه في الدفاع عن المدينة، وعدهم المساعدة، وأمام إلحاح أعضاء الوفد بدأ يسوف لهم، ثم اعتقلهم في محاولة منه للتهرب من واجبه، لكن أعضاء الوفد تمكنوا من الهروب[٢]، وساروا إلى

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ١/ ٢٩٤.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب، ٤/ ١٩٦٤ وما بعد.

الموصل، وهناك قابلوا آق سنقر البُرسقي[1] حاكم المدينة، واستطاعوا إثارته وإقناعه بالذهاب على رأس قواته لإنجاد حلب، ولما أشرفت عساكره على البلدة الباسلة حلب رحلت قوات الصليبيين منسحبة، وهكذا نجت حلب وبنجاتها نجت بلاد الشام مع المشرق العربي والإسلامي، وقد علّق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني الكبير توينبي على هذه الحادثة بقوله:«لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينياً».

---

(٣) هو غير آق سنقر قسيم الدولة حاكم حلب السلجوقي (٤٨٠-٤٨٧هـ) ووالد عماد الدين زنكي.



المطلب الرابع

اليقظــة الإسلاميــة،

وعمليات التحرير والاسترداد



توطئــة

بوصول مدّ الاحتلال الصليبي إلى نهايته في حصاره المخفق لحلب سنة ٥١٨هــ/ ١١٢٤م ينتهي عهد التوسع الصليبي، وتبدأ حرب التحرير والاسترداد الإسلامية، فانتقل المسلمون من حال الدفاع إلى حال الهجوم، وبدؤوا يخططون لأعمال التحرير، وتوقف الصليبيون عن أعمال الهجوم، وبات شغلهم الرئيس الاحتفاظ بما احتلوه.

لقد مرت حرب الاسترداد الإسلامية بأربع مراحل، ارتبطت كل مرحلة منها بمدينة من مدن العرب تحملت عبء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها، وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة، والوحدة، وشخصيات القادة، وهذه المراحل هي: مرحلة الموصل مع عماد الدين زنكي، مرحلة حلب مع ابنه نور الدين محمود، مرحلة دمشق مع صلاح الدين الأيوبي، مرحلة القاهرة مع القادة المماليك الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل.

قبل الولوج في تفاصيل اليقظة الإسلامية، والحديث عن الدول والقادة التي أفرزتها هذه اليقظة، لا بدّ من الإشارة سريعاً إلى حال الجزء الشرقي من العالم الإسلامي آنذاك:

ونحن نعلم جيداً أن سلطنة السلاجقة كانت هي المتحكمة بمقدرات الخلافة العباسية وشؤونها، سياسياً وعسكرياً، وقد تعرضت هذه السلطنة إلى انقسامات وانشطارات عديدة، ففي مطلع الحروب الصليبية كان السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩-٥١١هـ/ ١١٠٥-١١١٧م) هو سلطان الدولة السلجوقية في فارس والعراق، وقد انغمس في مشاكل السلطنة هناك وترك مهمة محاربة الصليبيين لأتابكة الموصل وهمذان، وبعد وفاته خلفه ابنه محمود سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م وكان صغيراً في سن الرابعة عشرة، فتحكم به القادة وأهمل شؤون الشام.

أما في آسية الصغرى فقد غرقت سلطنة سلاجقة الروم هي الأخرى في صراعاتها الداخلية، وفي صراعاتها مع بني الدانشمند؛ أبناء عمومتهم المنافسين لهم هناك، وكذلك انشغلت في حروبها مع البيزنطيين.

أما الخلافة العباسية فكانت مجرد صورة شكلية، ونسوق هنا مثالاً على ضعفها أن دبيس بن صدقة صاحب الحلة، وأمير قبيلة أسد هاجمها ودخل بغداد سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م ونهبها، وقتل خلقاً كثيراً، ثم نَصَبَ خيمته مقابل قصر الخليفة [١].

وفي قصة دبيس هذا ما يكفي لإيضاح مدى الضعف والفساد الذي وصلت إليه قوى الشرق الإسلامي آنذاك، إذ كان يعمل كغيره لإنشاء إمارة مستقلة، وفي سبيل ذلك هاجم بغداد كما أسلفنا، ثم لقب نفسه سيف الدولة، ولما أخفق تحالف مع الصليبيين وحاصر معهم حلب سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م إذ وعدوه في البداية بتوليته أميراً عليها، وفي سبيل ذلك لم يكن عنده أدنى مانع من أن يعمل لحساب الصليبيين.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/ ٦٥١.

أما مصر، فمنذ أن قتل الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م دخلت الدولة الفاطمية في مرحلة السبات، وسيطرت عليها مشاكلها الداخلية؛ السياسية والعَقَديَّة.

في ذلك الوقت نشطت حركة الحشيشية أتباع حسن الصباح، وهم فرع من الإسماعيلية – جرى الحديث عنها في المطلب الأول – فقد نظم حسن الصباح جماعته تنظيماً محكماً أساسه السرية التامة والطاعة العمياء، واعتمدت هذه الفرقة مبدأ الاغتيال السياسي للتخلص من الخصوم في سبيل إنشاء دولة كبرى، وأحياناً استخدمتهم القوى والحكومات المحلية بما فيهم الصليبيون لتنفيذ بعض عمليات الاغتيال، وعلى يدها لاقى عدد من قادة المسلمين حتفهم، وكان من أشهر ضحاياهم: الوزير السلجوقي نظام الملك سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، وجناح الدولة أمير حمص سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٣م، وخلف بن ملاعب صاحب أفامية سنة٥٠٠هـ/ ١١٠٦م، ومودود أتابك الموصل سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، والوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، وآق سنقر البُرسقي أتابك الموصل وحلب سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٦م، كما حاولوا اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة، وعلى هذا مثّلت هذه الطائفة مصدراً من مصادر الانحلال السياسي والاجتماعي آنذاك، حتى قضى عليها هولاكو أثناء زحفه إلى العراق والشام [1].

---

(١) من المفيد العود إلى كتاب «الحشيشية» تأليف برنارد لويس، ترجمة وقدم له وزاده ضعفين سهيل زكار، ط دمشق ٢٠٠٤.



المقالة الأولى

المرحلة الأولى من مراحل التحرير

«مرحلة الموصل بقيادة عماد الدين زنكي»

كانت مدينة الموصل من أعظم مدن منطقة الجزيرة، وفي التاريخ الإسلامي نجدها في المراحل المبكرة منه دائماً متورطة في مشاكل العراق السياسية وغير السياسية، وقلّما كان لها دورها الفعّال في أحداث بلاد الشام، إنما يلحظ منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بداية تحول للاشتراك في أحداث الشام، إلا أن هذه المشاركة ظلّت هامشية حتى أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وبالتحديد حين ازداد تدفق الغُزّ على الجزيرة والشام، فلقد قدم الغُزّ من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب، وقبل قدوم الغُزّ وإقامة السلطنة السلجوقية رست مقاليد التغيير السياسي في بلاد الشام في أيدي رجال القبائل العرب، وقد انتزع الغُزّ هذه المقاليد منهم كما سلف الحديث عن هذا.

وكانت الموصل أول محطة للمهاجرين الغُزّ نحو الشام، وسَبَّبَ هذا تحولاً جذرياً في تاريخ الموصل مع إقليم الجزيرة والشام، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف، وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءاً من الشام، وتورطت في

مشاكله، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام، وربما على الشام بأسره، ويمكن أن نرى في تاريخ الدولة العُقيلية، ثم الأتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا.

لقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م لسد الثغرة بين الرُّها وأنطاكية، ولعزل الشام عن المشرق بعدما تمّ عزله إلى حدٍ بعيد عن مصر، ليسهل بعد ذلك الإطباق عليه واحتلاله بشكل كامل، لكن مدينة حلب نجت ودخلت في وحدة طوعية شعبية مع الموصل، فقد رأينا كيف قدم آق سنقر البُرْسُقي حاكم الموصل مع الوفد الحلبي لفك الحصار الصليبي عن حلب، وبعد أن تمَّ ذلك دخلت المدينة إلى جانب الموصل تحت حكم البُرسقي، وبذلك توحَّد شمال الشام مع أعالي بلاد الرافدين تحت قيادة واحدة، ووجِّهت الآن طاقات المسلمين في الدولة الجديدة ضد الصليبيين، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي إلى مرحلة الهجوم الإيجابي، لكن لسوء حظ المسلمين أن البُرْسُقي اغتالته الحشيشية الإسماعيلية بعد عامين من إنقاذ حلب، وبدء حرب التحرير، ولقد أدى اغتياله إلى انتكاسة مروعة، لكن مؤقتة، ذلك أن الأمة كانت تعيش بداية عصر لليقظة، لذلك اجتازت المحنة، وتغلبت عليها.

فبعد اغتيال البُرْسُقي خلفه ابنه عز الدين مسعود، لكن هذا الأخير لم تطل مدة حكمه أكثر من سنة واحدة، إذ توفي بالرحبة سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م، وهنا توجه وفد يمثل أهل الموصل إلى بغداد، وقام هذا الوفد باختيار الضابط زنكي بن آق سنقر قسيم الدولة [١]، وتعاقدوا معه على تولي مقاليد الأمور في دولة

---

(١) نؤكد هنا أنَّ آق سنقر قسيم الدولة حاكم حلب السلجوقي (٤٨٠-٤٨٧هـ) ووالد عماد الدين زنكي هو غير آق سنقر البُرْسُقي.

الموصل ضمن شروط معينة، ولتأدية واجبات محددة، وبعدما تم التعاقد معه أجبر الوفد سلطات بغداد على الموافقة على تعيين زنكي حاكماً جديداً على الموصل، واستبعاد سواه.

وفي سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م تسلم عماد الدين زنكي زمام الأمور بالموصل، وكان زنكي هذا عسكرياً من الطراز النادر، له من العزم، والشجاعة، والبطش، وحب النظام، والتقييد به مع المطامح العالية ما أحلّه محل الزعامة، ومكَّنه من شغل الدور الذي كانت الأمة في مرحلة استفاقتها آنذاك قد أوكلته إليه، وعهدت بمسؤولياته الجسام إلى إخلاصه وكفاءته، ومع تولي زنكي لزمام الأمور في الموصل بدأت المرحلة الأولى من مراحل التحرير والاسترداد.

- عماد الدين زنكي:

وعماد الدين زنكي هو ابن آق سنقر قسيم الدولة الذي تعرفنا عليه في المطلب الثاني من هذا الكتاب، فقد حكم قسيم الدولة حلب مدة سبع سنوات (٤٨٠-٤٨٧هـ/١٠٨٧-١٠٩٤م) نائباً عن السلطان السلجوقي ملكشاه، وكانت مدة حكمه مزدهرة مستقرة، وفي حلب ولد له زنكي، الذي غادرها مع عائلته إلى الموصل بعد قتل أبيه على يد تُتُش حاكم دمشق، وهناك حظي برعاية كربوقا حاكم الموصل، ويبدو أن زنكي انتقل إلى الموصل مع مماليك أبيه، فاعتنى هؤلاء به وكانوا ذوي شجاعة وإقدام، لذلك صارت لزنكي مكانة في أوساط السلطة بالموصل، وظل الحال هكذا حتى وفاة كربوقا سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م، وبعد وفاة كربوقا تقلب على حكم الموصل عدد من الولاة، حافظ زنكي خلال ذلك على مكانته الرفيعة، وشارك في صنع الكثير من الحوادث، وبات من أعرف العسكريين بالموصل وبأوضاع منطقتها، وفي سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م

ذهب إلى العراق وتسلم شحنكية البصرة، ثم أُقطع مدينة واسط، لهذا تورط في مشاكل الصراعات في العراق، الداء الذي لم يتخلص منه طوال حياته، وبقي في العراق حتى اضطربت أحوال الموصل كثيراً، فوصل منها – كما ذكرنا – إلى بغداد وفدٌ ضم القاضي بهاء الدين أبا الحسن علي بن الشهرزوري ومعه صلاح الدين محمد الياغيسياني لعرض مشكلة الحكم بالموصل على السلطات هناك، وفي بغداد اتفقا مع زنكي، وسعيا حتى استصدرا أمراً سلطانياً بتولية عماد الدين زنكي الموصل(١).

لقد أدرك زنكي حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه فقام بها خير قيام، وأدرك أن عليه – حتى يحقق النجاح – أن يوحد بأي ثمن وبأيِّ واسطة بين أجزاء الأمة الممزقة سياسياً، وأنّ كل شيء جائز وقانوني في سبيل تحقيق الوحدة وإزالة جميع العوائق والفوارق لتطوير حركة اليقظة وتنميتها، ونفي الفوضوية عنها، وإلزامه الجدية والنظام والعمل الجاد البناء.

وكانت خطته في العمل ضد العدو تهدف أولاً إلى إزالة مملكة الرُّها، ثم إسقاط أنطاكية، حتى تسد الثغرة ما بين أعالي بلاد الرافدين وشمال بلاد الشام، ومن ثم تغلق المنافذ البرية للصليبيين، فتتوقف بذلك الهجرة البرية، ويُحال بين الإمبراطورية البيزنطية وبين التدخل وتقديم المساعدات للصليبيين، الذين يمكن – بنجاح هذه الخطة – وضعهم داخل نطاق الحصار من الجوانب البرية.

وحين يُطالع الباحث سيرة زنكي يجده قد ضرب المثل الأعلى بالجدية والتزام النظام، وقد وصفه ابن العديم في كتابه (بغية الطلب في تاريخ حلب) بقوله: «كان زنكي ملكاً عظيماً، وشجاعاً جباراً، كثير العظمة والتجبر، وهو مع

---

(١) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص ١٦-٣٥.

ذلك يراعي أحوال الشرع، وينقاد إليه، ويكرم أهل العلم، وبلغني أنه كان إذا قيل له: أما تخاف الله؟ يخاف من ذلك، وتصاغر في نفسه»[1]، ووصفه أحد معاصريه بقوله: «كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئا من الزرع، ولا يجسر أحد من هيبته يدوس عرقاً من الزرع، ولا يمشي فرسه فيه، ولا يقدر أحد من الأجناد يأخذ لفلاح علّاقة تبن إلاّ بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية، وإن تعدّى أحد عليه صلبه عليها، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدّى على فلاح قطع خبزه (راتبه) وطرده، حتى عمر البلاد بعد خرابها، وأحسن إلى أهالي مملكته، وكان لا يبقي على مفسد، .... ونهى عن الكلف، والمغارم، والسخر، والتثقيل على الرعية، وأقام الحدود في بلاده»[2]، وفرض زنكي على شعب دولته نوعاً من أنواع الجندية الإجبارية، حتى صار معظم جند قواته متطوعة من أبناء الشعب.

بهذه الطريقة حكم زنكي الموصل، مُعيداً سيرة أبيه في حكم حلب.

وما إن مكَّن زنكي نفسه في الموصل حتى نشط في سبيل مدّ سلطانه، فاستولى على جزيرة ابن عمر، وعلى نصيبين، ومنطقة الخابور، وحران، وسنجار، وتملَّك دولة شامية جزرية واسعة [3]، وكانت هذه المملكة محاطة من مختلف الجوانب بأراضي دولة الرُّها، وممتلكات الأراتقة من الجزيرة، ومن الجانب الشامي كانت هناك إمارة أنطاكية وإمارات آسيا الصغرى الإسلامية،

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب، ٨/ ٣٨٤٦.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب، ٨/ ٣٨٥١-٣٨٥٢.

(١) ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية، ص٣٥- ٣٨.

ودولة كيليكية الأرمينية، وفي الجنوب واجه عماد الدين الدولة البورية في دمشق، مع صليبيي طرابلس والساحل الشامي، ووجد إلى جانب هؤلاء جميعاً العراق ومشاكل الخلافة والصراعات حولها.

ولم يكن من السهل أبداً على زنكي العيش في هذا الوسط، لذلك أمضى حياته ينتقل من معركة إلى أخرى ومن صراع إلى آخر، ومن مؤامرة إلى مؤامرة، وساعده على النجاح صلابة عوده، وصرامته، وإقدامه، وعدم مراعاته لغير ما رآه مفيداً لمصالحه وتوسيع ملكه.

ومن أهم أعمال زنكي التوحيدية هو ضمه لمدينة حلب وتوحيدها مع الموصل تحت حكمه، فزنكي من مواليد حلب، وفيها نشأ وأمضى طفولته، وكان الحلبيون يعرفونه ويحبونه، لذلك قاموا عند قدومه إلى الموصل؛ وبعد أن استاءت أحوال مدينتهم في ظل حكم الأسرة الأرتقية التي حكمتها بعد اغتيال البُرسقي، بإرسال وفد منهم يستدعيه لحكم حلب، وفعلاً تم ذلك ودخل زنكي حلب سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م مُعيداً الوحدة بين شمال الشام وأعالي بلاد الرافدين.

ثم بعد ذلك سخَّر زنكي طاقات دولته للتحرير، فحارب الصليبيين واسترد منهم معرة النعمان، والأثارب، وكفرطاب، وبارين، كما أنه في أثناء مسيره إلى حلب سيطر على بزاعا، ومنبج، وبعمليات التحرير هذه تكون حلب استردت شيئاً من عافيتها، وتوفرت لديها إمكانات أكبر للإسهام بشكل فعال في أعمال التحرير.

بعد عمليات التحرير هذه وجه زنكي أنظاره نحو أواسط الشام وجنوبها حيث نفوذ الدولة البورية، وبدأ يسعى في سبيل وحدتها وضمها لمملكته، فسيطر على حماه وتركها أكثر من مرة، لكنه أخفق في دخول دمشق.

- **أتابكية البوريين في دمشق:**

سلفت الإشارة – في المطلب الأول – إلى التحاق دُقاق بن تُتُش بدمشق بعد أن سيطر أخوه رضوان على حلب على إثر وفاة والدهما تُتُش في معركة قرب الري، كما سلفت الإشارة إلى قدوم أتابكه طُغتكين إلى دمشق بعد أن حُرِّرَ من أسر بركياروق، إذ استقبل استقبالاً حافلاً في سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م، وعلى الفور سلم دُقاق إليه قيادة الجيش، واعتمد عليه في تدبير المملكة [١]،ووطد طُغتكين سلطانه، وتخلص من خصومه، وكانت علاقته بزوجته صفوة الملك أم دُقاق جيدة إلى أبعد الحدود، وهكذا استقامت له الحال في دمشق وأحسن السيرة فيها، وسكنت نفس دُقاق إليه، واعتمد في التدبير عليه [٢].

كان طُغتكين طموحاً، واسع الحيلة، لذلك عمد إلى التخلص من دُقاق بدس السم له في رمضان ٤٩٧ هـ/حزيران ١١٠٤ م، وكانت دولته حين مات تضم الشام الجنوبي، مع حمص وحماه والرحبة[٣].

بعد وفاة دُقاق بن تُتُش استدعى طُغتكين أخاه أرتاش بن تُتُش من بعلبك وعينه ملكاً على دمشق مكان أخيه، وكان عمره اثنتي عشرة سنة، لكنه لم يطمئن لسلامة نفسه، وخاف من طُغتكين، فهرب من دمشق وتركها لطُغتكين، فتفرد هذا الأخير بالأمر، واستبد بالرأي [٤]، وتخلص من بقايا أسرة تُتُش ورجالاتها، فبعد وقت قصير من فرار أرتاش توفي آخر أفراد أسرة دُقاق، وهو تُتُش بن دُقاق

---

(١) ابن القلانسي، ص ٢١٤ .

(٢) ابن القلانسي، ص ٢١٤ .

(٣) ابن القلانسي، ص ٢١٤ ، ٢٣٣.

(٤) ابن القلانسي، ص ٢٣٥.

وكان طفلاً صغيراً، وبهذا يمكن عدّ سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٥ م سنة البداية الفعلية لتأسيس الدولة البورية في دمشق من قبل طُغتكين، وحكمت هذه الدولة الجزء الأكبر من بلاد الشام لمدة تقارب النصف قرن، وكان طُغتكين في تاريخها هو الشخصية الأبرز والأطول حكماً والأكثر استقراراً، كما أنه كان على رأس شخصيات عصره في المشرق العربي، وكان على طُغتكين أن يحصل على رضا السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية مع الاعتراف به حتى يكسب حكمه سمة الشرعية، كما توجب عليه مداراة الوضع في حلب والإفادة من فوضى الحكم فيها ما أمكن، وعمل بالوقت نفسه على أن تكون علاقته بالخلافة الفاطمية حسنة لدفع خطر الصليبيين في المنطقة ما بين يافا وعسقلان.

وصدر الخطر الأعظم على حكم طُغتكين من الصليبيين، ولا سيما المملكة اللاتينية في القدس، وتصدى طُغتكين لهذا الخطر وحقق بعض النجاحات، إنما فيما بعد تهادنت السلطة البورية مع الصليبيين وظلت هذه الهدنة قائمة ـ كما سنرى ـ طوال أيام الدولة البورية بشكل عام، وكان الدافع الأساسي للتهادن رغبة حكام دمشق في دفع المخاطر على سلطانهم من أصحاب حلب والموصل، فحين انعدمت هذه المخاطر اتخذ طُغتكين موقف المهاجم للصليبيين.

ففي سنة ٤٩٩ هـ/١١٠٦ م هاجم طُغتكين الصليبيين ومنعهم من بناء حصن العلعال في وادي الأردن، وفي السنة التالية عسْكَرَ في سواد حوران ومنع الصليبيين من العيث في المنطقة، وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م تعاون مع الأسطول المصري في الدفاع عن صيدا والتفريج عنها، كما أخذ يعد العدة لمساعدة طرابلس، وفي السنة التالية ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م حاول مجدداً الدفاع عن طرابلس بتسلم عرقة التي شكلت خط الدفاع الأول عنها، فأخفق وسقطت

عرقة، ثم سقطت طرابلس للصليبيين الذين أسسوا فيها دويلتهم الرابعة في المشرق [١].

وإثر هذا جرت مفاوضات بين طُغتكين وبلدوين الأول ملك المملكة اللاتينية بالقدس، وتم عقد معاهدة في سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٩ م اتفق فيها على أن يكون السواد - حوران - وجبل عوف أثلاثاً: للأتراك الثلث، وللصليبيين والفلاحين الثلثان [٢].

بيد أن هذه الهدنة لم تكن اتفاقاً شاملاً يقضي بإيقاف جميع العمليات العسكرية بين الطرفين الدمشقي والصليبي، فهذا لم يكن بالأمر الممكن لأن كل دويلة صليبية؛ لا بل كل إقطاعية كان لها مصالحها وسياساتها الخاصة.

استطاع طُغتكين الحفاظ على حكمه حتى سنة وفاته في ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨م ولم يكن هذا بالأمر الهيّن، هذا ويُلحظ أن طُغتكين سمح في السنين الأخيرة من حكمه لأتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة من الحشيشية بالتمركز في دمشق، ثم حصلوا على قلعة بانياس التي كانت مركز الدفاع الأول عن دمشق ضد المملكة اللاتينية بالقدس.

وفي السنة التي توفي فيها طُغتكين تسلم فيها عماد الدين زنكي حكم الموصل، الأمر الذي كان له أبعد الآثار على دمشق وحكامها البوريين.

---

(١) ابن القلانسي، ص ٢٤١ - ٢٤٤ ، ٢٥٠ - ٢٦٣ ابن الأثير، الكامل، ٨/ ٥١٧، ٥٥٩-٥٦١، ٥٧١، ٥٧٢.

(٢) ابن القلانسي، ص ٢٦٣- ٢٦٤.

- **الصراع بين الدولتين الزنكيّة والبورية:**

كان طُغتكين قد أوصى بالملك من بعده لابنه بوري، وهو الذي نالت الدولة اسمها منه، وقد افتتح بوري عهده بمذبحة كبيرة أوقعها بأتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ولما عرف إسماعيلية بانياس بما حدث في دمشق تخلوا عن بانياس لصالح الصليبيين الذين تشجعوا كثيراً، فحشدوا قواتهم وزحفوا ضد دمشق وحاصروها في محاولة للاستيلاء عليها، لكن هذه المحاولة أخفقت، غير أن دولة بوري ما لبثت أن تعرضت لمخاطر جديدة حين انتزع عماد الدين زنكي منها مدينة حماة، لكن استطاع بوري بعد وقت قصير استرداد حماة، وفيما هو في ذروة نشاطه تعرض لمحاولة اغتيال نفذها أتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة، وقد أصيب بوري في سنة ٥٢٥ هـ/١١٣١ م بجراح بليغة عاش بعدها مدة قصيرة إذ توفي في سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢م [١].

كان بوري قد أوصى قبل وفاته بالملك من بعده لابنه شمس الملوك إسماعيل، فهاجم بلدة بانياس واستردها سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٣ م، كما استطاع بعد هذا إعادة سلطانه على مدينة حماة، غير أنه ما لبث أن تخبط في إدارة أموره الداخلية، ولما شعر بعجزه راسل عماد الدين زنكي في سنة ٥٢٩ هـ/١١٣٥م، يطلب إليه الإسراع إلى دمشق ليسلمها له وإلا فإنه سيسلمها إلى الصليبيين، ولما علمت أمه بذلك «أمرت غلمانها بقتله، وترك الأمهال، غير راحمة له، ولا متألمة لفقده»[٢].

---

(١) ابن القلانسي: ٣٥٠ – ٣٧١ ، ابن الأثير الكامل، ٩/ ٣٠، ٣٨. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، طبعة حيدر آباد الدكن، ١٩٥١م ، ١/١٣٧ – ١٤٣. وليم الصوري: ٢/٦٤٥–٦٤٧.

(٢) ابن القلانسي : ص ٣٧٢ – ٣٨٩، الكامل، ٩/ ٥٨. مرآة الزمان، ١/ ١٤٥ – ١٥٣.

وعينت الخاتون صفوة الملك ابنها محموداً حاكماً جديداً لدمشق، وكان على هذا الحاكم دفع زنكي عن دمشق، ذلك أن زنكياً قدم إلى دمشق ليتسلمها من إسماعيل بن بوري، ولما علم بمصرعه قام بمحاصرة المدينة – **وهذا الحصار الأول لدمشق من قِبله** –، وشدد عليها الخناق، وأثناء ذلك تلقى رسالة من الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢ – ٥٢٩ هـ/١١١٨ – ١١٣٥ م) يأمره برفع الحصار عن دمشق والقدوم مع قواته إلى بغداد، فنفذ هذا الأمر ورفع الحصار عن المدينة[١].

وعاود زنكي أعماله التوسعية على حساب الدولة البورية، فأخفق في احتلال حمص، غير أنه نجح بالاستيلاء على بعلبك سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م، وعهد بالحكم فيها إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي، ثم استولى على بانياس[٢].

وبعد هذا انتقل عماد الدين من الحرب إلى الدبلوماسية، فعقد مع البوريين زواجاً سياسياً إذ تزوج الخاتون صفوة الملك المعروفة باسم زمرد أم شهاب الدين محمود، وفي الوقت نفسه تزوج محمود هذا من ابنة زنكي، وتنازل له عن حكم مدينة حمص، غير أنه ما لبث شهاب الدين محمود أن اغتيل سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م، فبايع الأمراء جمال الدين محمد بن بوري، الذي فوض أمور دولته إلى معين الدين أنر [٣].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣٩٠ – ٣٩٢، الكامل ٩/ ٥٩.

(٢) ابن القلانسي: ص ٣٩٧ ، ٤١٣. الكامل ، ٩/ ٨٩–٩٠، ١٠١.

(٣) ابن القلانسي ص ٤١٨، ٤٢١– ٤٢٢ . الكامل ، ٩/ ١٠١، مرآة الزمان ١ / ١٧١ – ١٧٢.

أصبح أنر الآن الحاكم الفعلي للدولة البورية، وقد برهن أنه من أبرع الساسة وأكثرهم قدرة، فقد استطاع الحفاظ على استقلال دمشق بوساطة توازن حذر بين عماد الدين زنكي والمملكة اللاتينية بالقدس، فقد كان يستعين بالصليبيين ضد عماد الدين، وبعماد الدين أو حلفائه ضد الصليبيين.

وكان عندما بلغ صفوة الملك زمرد خبر مصرع ابنها في دمشق حرضت زوجها عماد الدين على الثأر، فجاء ومعه قواته وحاصر دمشق وضيق الخناق عليها سنة ٥٣٤ هـ /١١٣٩ م، - **وهذا الحصار الثاني لدمشق** - ، وأثناء الحصار مرض محمد بن بوري مرضاً شديداً أودى بحياته، ولما عرف عماد الدين بهذا الحدث ازداد طمعه بالاستيلاء على دمشق، لكن أنر استطاع ضبط الأمور وجلب أبق بن محمد وعينه حاكماً جديداً، إنما بشكل اسمي، وراسل معين الدين أنر الصليبيين، وعقد معهم اتفاقاً يدفع لهم بموجبه مبلغاً من المال ويسلمهم بانياس إن هم ساعدوه على دفع عماد الدين زنكي، وبالفعل تحركت قوات الفرنجة نحو دمشق، مما أرغم عماد الدين على الانسحاب، ووفى إثر هذا أنر بعهوده فحاصر بانياس حتى تسلمها ثم سلمها إلى الصليبيين(١).

ولم يَحْرَصِ الصليبيون على سلامة دمشق وحكامها حِرْصَ أنر على سلامة الصليبيين، فهم أرادوا احتلال دمشق إذا أمكنتهم الفرصة، وإذا لم تمكنهم دفعوا غيرهم عنها حتى تحين الفرصة، فقد خشي الصليبيون إلى أبعد الحدود من وحدة أجزاء بلاد الشام، وهذا واضح تمام الوضوح فيما كتبه وليم الصوري في

---

(١) ابن القلانسي ص ٤٢٤ – ٤٢٧ . الكامل ، ٩/ ١٠١–١٠٢، ١٠٥–١٠٦. مرآة الزمان ١ / ١٧١ – ١٧٢.

الأجزاء الأخيرة من كتابه، فقد كان شاهد عيان للحوادث بحكم تسلمه لمناصب عالية جداً في المملكة اللاتينية في القدس.

وهكذا أخفق زنكي في دخول دمشق من أجل تحقيق الوحدة بين شمال بلاد الشام وجنوبها، فتركها، وقد تحققت فيما بعد على يد ولده نور الدين محمود، أما هو فبعد أن صرف نظره عن دمشق وجهها نحو جهة لا تقل أهمية عن دمشق، ألا وهي إمارة الرُّها، فهو علم جيداً أن الخطر الأعظم على مُلكه كامن في الرُّها، والصليبيون أرادوا دائماً الاستيلاء على حلب لسد الثغرة بين أنطاكية والرُّها، ثم ليسهل عليهم بعد ذلك الاستيلاء على الموصل، ومن ثم الإطباق على أراضي الشام والجزيرة، وعلى هذا كان رد زنكي الطبيعي هو العمل في سبيل تحرير الرُّها، ناهيك عن أن تحريرها سيؤدي إلى سد المنافذ الشمالية لبلاد الشام في وجه صليبيي الساحل الشامي.

- تحرير الرُّهـــا :

كانت مدينة الرُّها مقراً لأول إمارة صليبية تشكلت في الشرق سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م، وقد أسسها بلدوين دي بوليون أخو غودفري قائد إحدى فرق الحملة الصليبية الأولى، وكانت غالبية سكانها من الأرمن؛ وإلى حدٍ ما من السريان.

امتلأت منطقة كيليكيا وشمال الجزيرة بالمهاجرين الأرمن الذين اندفعوا إليها بسبب الضغط السلجوقي المتزايد على هضبة إرمينية، ولا سيما بعد سقوط عاصمتهم آني(١) على يد السلاجقة سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م، وبعد معركة

---

(١) عاصمة إرمينية الكبرى، تقع على الشاطئ الأيمن من نهر آخوريان، كانت قلعة حصينة، وتم اختيارها عاصمة لإرمينية في عصر أسرة بجراط في أيام حاكمها آشوط الثالـــث=

منازكرد سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، ونتيجة تزايد أعداد المهاجرين الأرمن تمكن فيلارتوس الأرميني قائد إحدى الفرق البيزنطية من تأسيس أول إمارة أرمينية (٤٧٠-٤٧٦هـ/ ١٠٧٧-١٠٨٣م) في منطقة كيليكيا، ثم سقطت إمارته هذه بفعل الضربات السلجوقية، وتأسس على أنقاضها عدد من الإمارات الأرمينية.

كان الوجود الأرميني كثيفاً في منطقة كيليكيا، ومؤثراً سياسياً واجتماعياً، لكنه كان أقل من ذلك في الأجزاء الشرقية الممتدة حتى شرق الجزيرة، وعلى الرغم من ذلك كانت الرُّها قبيل تحويلها إلى إمارة صليبية تحكم من قبل ثوروس الأرميني بن هيثوم أحد قادة فيلارتوس، لأن مدينة الرُّها وما جاورها مثل ملطية، ومرعش، وتل باشر، كانت ضمن إمارة فيلارتوس، ثم سيطر عليها السلطان السلجوقي ملك شاه، وعيّن قائده بوزان حاكماً عليها سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، وبسبب الصراع بين أمراء السلاجقة تمكن ثوروس الأرميني من السيطرة عليها سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م معلناً تبعيته للإمبراطورية البيزنطية، وكان في عُرضة دائمة لخطر السلاجقة المحيطين به، لذلك وجد كغيره من الأرمن متنفساً بوصول الصليبيين إلى الشرق الأدنى، ووقف – كما فعل أبناء جنسه – إلى جانبهم، وفيما كان بلدوين البولوني يسعى للسيطرة على أراضي في كيليكيا، ويعمل على توسيع نفوذه هناك، وتأسيس إمارة مستقلاً عن الحملة الصليبية تلقى دعوة من ثوروس حاكم الرُّها للقدوم إلى المدينة لحمايتها خوفاً من ضياعها، ولا

=(٣٤٨-٣٦٧هـ/٩٥٩-٩٧٧م)، أصبحت سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م مقراً لبطاركة الأرمن، ثم خضعت لسيطرة السلاجقة سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م. انظر: فايز إسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة إرمينية، ص٨-٩.

سيما أن كربوقا حاكم الموصل بدأ بتجهيز حملة للزحف غرباً للتصدي للصليبيين.

استجاب بلدوين للدعوة ودخل الرُّها سنة٤٩١هـ/١٠٩٨م، وبدأ يسعى للتفرد بالنفوذ هناك، وبعد مدة تمكن من استلام السلطة بعد مقتل ثوروس على إثر ثورة قام بها أهل المدينة، ولا يستبعد أن يكون لبلدوين يدٌ فيها، وأسس بلدوين أول الإمارات الصليبية في الشرق.

توسعت إمارة الرُّها في عهد بلدوين وخلفائه، وغدت تضم عدداً من المدن وتمتد على ضفتي الفرات من حران شرقاً إلى عينتاب غرباً، ومن منبج جنوباً إلى كيسوم وبهسنا شمالاً، ولموقعها في شمال الجزيرة احتلت أهمية استراتيجية كبيرة كدرعٍ واقٍ لممتلكات الصليبيين في الشام ضد أي هجوم قد يأتي من الشرق.

حاول صليبيو أنطاكية والرُّها مراراً وتكراراً احتلال حلب لسد الثغرة بينهما، وكان لمدينة الموصل الحظ الأوفر في الوقوف بوجه المشاريع الصليبية، ولما توحدت الموصل مع حلب أيام زنكي عمل هذا فوراً على تحرير الرُّها التي كانت تهدد أملاكه على الدوام، مستغلاً حالة العداء الشديد الذي استحكم في العلاقة بين حاكم الرُّها آنذاك جوسلين الثاني، وريموند دي بواتيه أمير أنطاكية.

حقيقةً عانت إمارة الرُّها الصليبية على مدى تاريخها نقاط ضعف عديدة كان أهمها عدم تجانس سكانها الذين كانوا خليطاً من الأرمن والسريان والمسلمين والصليبيين، بالإضافة إلى عدم توفر حدود طبيعية تحميها وتذود عنها، ولا سيما أن أعمال زنكي التحريرية والتوحيدية في الجزيرة قد مهدت لاقتحام الرُّها، فبدأ بحصارها في ربيع الثاني ٥٣٩هـ/ تشرين الثاني ١١٤٤م

مستغلاً غياب حاكمها جوسلين الثاني عنها في تل باشر، فتمكن من دخولها بعد أقل من شهر في ٢٣/ كانون الأول، وبعد يومين دخل قلعتها [١].

كان تحرير الرُّها أقوى ضربة نزلت بالصليبيين منذ دخولهم الشام، وأفدح خسارة ألّمت بهم، وعمّ لسقوطها صدى بالغ في الشرق والغرب، تداعت له أمم أوربة، وأرسلت على عجل الحملة الصليبية الثانية.

لكن حدث قبل ذلك أن اغتيل زنكي بعد عامين من تحرير الرُّها، اغتاله أحد غلمانه وهو يحاصر قلعة جعبر التابعة للدولة العُقيلية، فكان لمصرعه أثرٌ مفجعٌ في نفوس المسلمين، حتى على أهل القلعة المُحاصرة نفسها، فلما هرب الغلام الذي اغتاله إلى القلعة ونادى بأهلها: (شيلوني فقد قتلت السلطان، فقالوا: اذهب إلى لعنة الله، قد قتلت المسلمين كلهم بقتله)[٢]، ودعاه المسلمون «بالشهيد»، «بالشهيد»، وعلى الرغم من كثرة الشهداء في التاريخ العربي فإن زنكياً هو الوحيد الذي عُرف بهذا الاسم، وعلى الرغم من ذلك كله لم يوقف موت زنكي مسيرة التحرير، ولم يؤثر كثيراً في أوضاع الأمة، ذلك أن الأمم الحية لا تتأثر بفقدان القادة، ولا تتعطل مسيرتها بمصرعهم، لأنها تنجبهم الواحد تلو الآخر.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/١٣١.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب، ٨/ ٣٨٥٥.

المقالة الثانية

المرحلة الثانية من مراحل التحرير

«مرحلة حلب بقيادة نور الدين محمود»

- تولي نور الدين محمود حلب، وأعماله في شمال بلاد الشام:

إثر مصرع زنكي أمام قلعة جعبر انشطرت دولته إلى شطرين، شامي وآخر جزري، استقر على الشطر الجزري ابنه الكبير سيف الدين غازي، وعلى الشطر الشامي ابنه نور الدين محمود، ولم يصادف محمود وغازي ولدا زنكي صعوبة في الاحتفاظ بملك أبيهم، وذلك بفضل وفاء كبار قادة أبيهم وعلى رأسهم الوزير جمال الدين محمد الأصفهاني رئيس ديوان زنكي، الذي عاد مع غازي والقوات الموصلية إلى الموصل، والحاجب صلاح الدين محمد الياغيسياني الذي عاد مع محمود والقوات الحلبية إلى حلب، وقد ساعد هذان القائدان أبناء زنكي في الاستقرار بملك أبيهم، وغدا نهر الخابور الحد الفاصل بين أملاك الأخوين، وبشكل عام كانت العلاقة طيبة بينهما.

قيل قديماً: الجغرافية توجه التاريخ، ومن هذا المنطلق بات التوجه الطبيعي لدولة قوية في حلب هو نحو الجنوب الشامي، وستكتفي الموصل منذ الآن إلى أبعد الحدود – وقد زال من أمامها التهديد الصليبي الذي كان في الرُّها – بالاهتمام بشؤون الجزيرة ثم العراق.

تفرغ نور الدين محمود لشؤون الشام، ووجه اهتمامه نحو دمشق والجنوب، وقد ساعده على ذلك تركيز اهتمامه بالجهاد ضد الصليبيين، وتضاؤل اعتماده على البداة التركمان كطاقة عسكرية منفردة، لأن التركمان تمركز اهتمامهم منذ أمد على آسية الصغرى، وقد حل مكانهم الأكراد، فقد تجمعت أعداد كبيرة من هؤلاء في حلب حول أسد الدين شيركوه، وجاء هؤلاء الأكراد إلى بلاد الشام من أقصى المناطق الشمالية في أطراف جورجيا الحالية، فهناك وجدت دويلة كردية اسمها دولة منوجهر أو دولة بني شداد، وكان ملوك الكرج (جورجيا) المتعصبون لنصرانيتهم يخوضون هناك حرباً صليبية ضد المسلمين، وقد تمكنوا من الاستيلاء على أملاك دولة منوجهر قلعة تلو أخرى، الأمر الذي دفع بالأكراد إلى الهجرة، وكان من أوائل المهاجرين أسرة صلاح الدين إذ عمل جده، ثم والده أيوب وعمه شيركوه في العراق، ومن هناك التحقا بخدمة زنكي واستقروا في بلاد الشام، ولما سقطت دولة منوجهر كثر عدد الأكراد، وتجمعوا حول شيركوه الذي بات الآن أكبر القادة العسكريين لدى نور الدين بن زنكي، ولا شك أن هذا يساعد على فهم مقدمات انتقال السلطة من دولة الأتابكة التركمان إلى الأيوبيين الأكراد.

ويُلحظ أنه بعدما حررت الرُّها بات الصراع مع الصليبيين شامياً إلى أبعد الحدود، وتولت حلب الآن قيادة أعمال الجهاد ضد الصليبيين، وبذلك طويت –

بعد وفاة زنكي – المرحلة الأولى من طور التحرير، لتبدأ المرحلة الثانية، وتمركزت جهود حلب في بداية هذه المرحلة أولاً ضد أنطاكية لقربها منها، لكن ما لبثت أن صرفت أنظارها كلياً تقريباً نحو الجنوب، وجاء هذا تباعاً على خطوات تمكن فيها نور الدين من دخول دمشق وتوحيد الشام المسلم، وكان من الطبيعي وهو سيد دمشق أن تتجه أنظاره نحو تحرير القدس والتعاون مع مصر، وهذا ما تم إنجازه في المرحلة الحلبية في ظل قيادة نور الدين، ونعود الآن إلى سياق الأحداث:

أتاحت وفاة زنكي وتقسيم ملكه فرصة طيبة لأعدائه للتحرك، ففي الجنوب أسرع معين الدين أنر حاكم دمشق إلى إرسال قوة احتلت بعلبك [١]، وأخضعت حكام حمص، وحماه، وفي الشرق استرد الأراتقة بعض المدن التي سلف أن أخذها منهم زنكي في ديار بكر، كما قام حاكم أنطاكية ريموند دي بواتيه بحملة على حلب وصل فيها إلى أسوار المدينة، والأخطر من ذلك كله جاء من جانب جوسلين الثاني الذي كان حاكماً للرُّها، وكان وقتذاك لا يزال قابعاً في تل باشر شرق الفرات، فجمع شتات الفرنجة – مستغلاً حالة الفتور التي أعقبت وفاة زنكي – وقصد الرُّها سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م «على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين فيها، فدخلها واستولى عليها، وقتل من فيها من المسلمين»[٢]، لكنه توقف أمام القلعة ولم يتمكن من اقتحامها بفضل دفاع الحامية التي كان قد وضعها فيها عماد الدين زنكي، واستعصت عليه بمن فيها من المسلمين [٣]، وهنا

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ١٤٩.

(٢) أبو شامة: عيون الروضتين، ١/١٧٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ٩/ ١٤٥.

نهض «نور الدين محمود صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة آلاف فارس..... ووافوا البلد، وقد حلَّ ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم، ووقع السيف فيهم»(١)، وهكذا وقع الصليبيون بين ناري الحامية وقوات نور الدين، وكان أفضل حل لجوسلين آنذاك هو أن يخرج سالماً، فنجح بالهروب بصعوبة وبعد أن قتل الكثير من قواته من بينهم بلدوين حاكم مرعش الذي كان مشاركاً في الهجوم على الرُّها.

وهكذا انتهت محاولة استعادة الرُّها بضربة قاصمة خرج منها نور الدين منتصراً مُبشراً بمستقبل مشرق للجهاد والتحرير، أما أهل الرُّها من الأرمن وسواهم فقد لاقوا جزاء غدرهم، ولم يفرق الجند هذه المرة بين الصليبيين والمسيحيين المحليين، إنما أعملوا السيف بالرجال وساقوا النساء والأطفال أسرى إلى حلب، والسبب في ذلك أن عماد الدين لما حرر الرُّها أول مرة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م عفا عن أهلها ولم يسمح لجنده بالاعتداء عليهم وردّ أسراهم، فلما توفي زنكي رأينا كيف هاجمها جوسلين الثاني، وعلى قول المؤرخين – وأولهم ابن الأثير –(٢) إنما تم ذلك بعد مكاتبة أرمن الرُّها له ودعوتهم إياه لدخول المدينة، بل مساعدته، لذلك جاء إجراء نور الدين بمعاقبة أهل المدينة، وطرد باقي الصليبيين بمستوى الجدّ الذي يقتضيه الموقف إذا ما أُريد لهذه المدينة أن تبقى محررة، وألا تعود ثانية لقبضة الصليبيين.

انتهت محاولة جوسلين الثاني بكارثة حلت بالصليبيين والأرمن والسريان، وفاقت في وقعها كارثة سقوط الرُّها أول مرة، أما نور الدين محمود فلم يعد

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين، ١/١٧٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ١٤٥.

يقتنع بغير اقتلاع الفرنجة من بلاد الشام، وسعى لذلك سعيه، وشعر أن الله تعالى حين سَهّلَ له الوصول إلى السلطة ألقى على عاتقه أمانة رعاية مصالح المسلمين والجهاد ضد الفرنجة.

استهدف نور الدين منذ البداية تركيز نشاطه ضد صليبيي بلاد الشام، وعدم التدخل بغير ذلك من أمور، فبدأ بإمارة أنطاكية القريبة منه، وخصها بهجمات عدة خلال سنتي ٥٤٢ و ٥٤٣هـ/١١٤٧و ١١٤٨م، فحرر عدداً من القلاع التابعة لها شرقي نهر العاصي مثل بسرفوث، وأرتاح، والأثارب، وكفرلاثا [١]، ثمَّ حسَّن علاقته بأخيه الكبير غازي صاحب الموصل، وذلك حرصاً منه على وحدة الصف، وحتى «تعلم الملوك والفرنج» اتفاقهما[٢]، وأثبت نور الدين أنه لا يقل كفاءة وشجاعة ومقدرة عسكرية عن أبيه، وقد تفوق عليه بصفاء النية، وتفرغه للجهاد داخل بلاد الشام، فلم يتورط كما فعل زنكي في صراعات العراق وسواها، وكان نزيهاً «عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه»[٣]، وكان يحب العلم والعلماء ويؤثرهم ويشجعهم.

- أوضاع الدولة البورية وجنوب الشام:

وبعدما حقق ذلك النجاح في أنطاكية - ولتفرغه لشؤون الشام فقط - اتجه بنواياه الطيبة نحو دمشق، التي حُكمت من قبل الدولة البورية، وكما رأينا حاول عماد الدين زنكي جاهداً دخول دمشق فلم يستطع، فسيطر على بعض أملاكها

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ٩/ ١٥٢.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/١١١-١١٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٢٧٨.

المتطرفة مثل حماه وحمص وبعلبك، وحافظت هذه الدولة على علاقة طيبة مع مملكة القدس الصليبية من أجل الوقوف في وجه مطامع زنكي.

كان الأتابك معين الدين أنر يحكم دمشق آنذاك باسم الطفل مجير الدين آبق، وكان أنر هذا داهيةً سياسياً، فلما توفي زنكي أرسل أنر حملة استردت بعلبك، واتفقت مع حكام حماه وحمص على إعلان الولاء له[١]، كما أقام توازنات في العلاقات الدولية ضمنت لمملكته البقاء والاستمرار، ولما تولى نور الدين السلطة تبادل السفارات مع الدولة البورية حتى «استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية»[٢]، وتقرر زواج نور الدين بابنة أنر، ومن ثم لم يعد بإمكان نور الدين أدبياً أن يتوسع جنوباً على حساب أملاك دمشق، لكن الأمور تغيّرت، فلم يستمر الاتفاق الصليبي الدمشقي طويلاً، وظهرت مشكلة التوسع الصليبي في حوران.

تبعت حوران لدمشق، وأراد ألتونتاش حاكم صرخد وبصرى آنذاك أن يستقل عن تبعيته لدمشق، فاستعان بالصليبيين في القدس، وذهب إليهم سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م يطلب معونتهم ومساعدتهم له بالاستقلال سياسياً في حوران، وعرض عليهم مقابل ذلك صرخد وبصرى[٣]، ولاقى هذا العرض السخي قبولاً من حكام وبارونات القدس، الذين أسرعوا لإرسال حملة لتنفيذ الخطة، فأسرع معين الدين أنر للتصدي إليهم لأن الاستيلاء على صرخد وبصرى يعني

(١) أبو شامة: عيون الروضتين، ١/ ١٤٧.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٥٠.

(٣) أبو شامة: عيون الروضتين، ١/ ١٨٠ وما بعد.

الإطباق على دمشق، واستعان بصهره نور الدين محمود الذي خف بقواته من حلب لنجدته.

لاقى الجيش الصليبي مقاومة عنيفة أثناء زحفه في أراضي حوران من قبل سكان الأرياف والمدن والقبائل العربية، وتم الزحف في الصيف، وكان العرب قد غوَّروا الآبار، وهكذا عطش الصليبيون عطشاً شديداً، زاد من قسوته الهجمات الصاعقة التي كان يقوم بها المقاومون العرب، ولما وصل الجيش الصليبي إلى بصرى، وكان معه الحاكم الخائن ألتونتاش، فوجئ بقيام زوجة هذا الخائن بإغلاق أبواب القلعة والعزم على الدفاع، وعدم السير في طريق الخيانة الذي سلكه، زد على هذا علم الصليبيين أن أنر معسكر مع قواته في صلخد بعد أن تسلمها، وأن نجدات كبيرة قادمة من حلب يقودها حليفه وصهره نور الدين محمود.

وبناء على معطيات الوضع الجديد قرر الصليبيون التراجع، وكان طريق الانسحاب محفوفاً بالمخاطر، وكاد الجيش الصليبي يفنى عن بكرة أبيه نتيجة لهجمات رجال المقاومة العرب، لولا تدخل أنر، إذ أرسل له الصليبيون يطلبون السماح لهم بالعبور سالمين إلى فلسطين، فجعل «معين الدين يكف المسلمين عنهم، ويصدهم عن قصدهم والتتبع لهم في انهزامهم»، وقد فعل ذلك رغبة منه في عدم توسيع الفجوة مع الصليبيين والحفاظ على الود بينهم[(١)].

بهذا أنقذ أنر الجيش الصليبي، وأجَّل تدميره مدة أربعين سنة عندما دمره صلاح الدين عند قرني حطين، ومع هذا قابل الصليبيون صنيع هذا الحاكم الذي آثر مُلكه العاجل على قضية الأمة بأن قرروا بعد عامين الاستيلاء على دمشق.

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٥٢.

- الحملة الصليبية الثانية وحصار دمشق:

أثارت أخبار سقوط الرُّها مشاعر البابوية، وحرضتها للدعوة إلى حملة صليبية كبيرة تمضي إلى المشرق لاستعادة الرُّها، ولإكمال السيطرة على بلاد الشـــام.

ولقد توفر لهذه الحملة داعية اسمه «القديس برنارد» شغل الدور نفسه الذي شغله سلفه بطرس الناسك في الدعوة للحملة الأولى، وكما أن برنارد سار على خطا بطرس الناسك، فإن البابا أنوسنت الثالث حاول أن يقلد البابا أوربان الثاني، المُبشر الأول بالحروب الصليبية، فدعا إلى عقد مجمع ديني، وتم ذلك في فزلاي vezelay بفرنسا في فصح سنة ١١٤٤م، وقد حضره عدد كبير من رجال الكنيسة والإقطاع الذين خاطبهم البابا فأثار حماستهم، وأضرم نيران تعصبهم إلى حد القرار بالذهاب إلى الشرق.

وهكذا تألفت حملة كبيرة شملت مجموعات رئيسية: واحدة من فرنسا بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع، وثانية من ألمانيا بزعامة الملك كونراد الثالث، وثالثة من الإنكليز والفلنديين والطليان وسواهم، وقُدِّرت الطاقة القتالية للجموع بسبعين ألف فارس، وأعداد هائلة من المشاة والأتباع، ذهبت المصادر البيزنطية إلى جعلهم سبعمئة ألف.

وكانت هذه الحملة أكثر نظاماً من الحملة الأولى، وتختلف عنها، فبينما اتخذت الحملة الأولى طابعاً شعبياً ضخماً، إذ بالحملة الثانية تتألف من جيوش نظامية على رأسها جيشان ينتميان لأكبر دولتين في الغرب الأوربي، ويقودهما أكبر عاهلين في الغرب الأوربي.

سارت الحملة الثانية في أوربا مسير الحملة الأولى، وكانت الجيوش الألمانية قد سبقت – حسب الاتفاق – الجيوش الفرنسية، لأن مسير الجيشين معاً يسبب مشاكل في التموين، وأيضاً بمجرد وصولها القسطنطينية تعرضت للمشكلة نفسها التي تعرضت لها الحملة الأولى مع الإمبراطور البيزنطي، أي مشكلة إعلان الولاء للإمبراطور مقابل المساعدات، وهذا مالم يحدث.

عَبَرَ كونراد البوسفور إلى البر الآسيوي، وهناك ارتكب خطأً فادحاً بأن سلك الطريق البري عبر جوف آسيا الصغرى إلى بلاد الشام مخترقاً أراضي السلاجقة مما عرّضه لهزيمة ساحقة من قبل السلاجقة قرب مدينة اسكي شهر، كما فتك به وبمقاتليه الحر والعطش، فعاد أدراجه إلى مدينة نيقة البيزنطية قرب البوسفور سنة ١١٤٧م.

أما الملك الفرنسي الذي وصل بعده فقد كان أكثر ذكاءً، واستفاد من درس صاحبه، فسلك الطريق الساحلي لآسيا الصغرى محتمياً بالقلاع البيزنطية الموجودة هناك، وكان قد رافقه كونراد، ثم في منتصف الطريق تخاصما وعاد كونراد إلى القسطنطينية ليُنقل من هناك على ظهر سفن بيزنطية إلى القدس، أما لويس السابع فلما وصل إلى أنطاليا عَبَرَ مع قسم كبير من جيشه إلى أنطاكية على ظهر سفن بيزنطية، وسار القسم الباقي براً عبر أراضي كيليكيا إلى أنطاكية، فأباد التركمان أكثرهم قبل الوصول إلى مشارف الشام.

في أنطاكية حاول أميرها ريموند استغلال الحملة، وإقناع لويس السابع بمهاجمة حلب لاسترداد أراضيه التي حررها نور الدين محمود شرقي العاصي، وأراد جوسلين الثاني أيضاً استغلال الحملة لاستعادة مُلكه في الرُّها، ولا سيما أن الهدف المعلن للحملة هو استعادة الرُّها، وضرب قوة الزنكيين في الشمال، لكن

الملك الفرنسي لم يستجب لأحد من هؤلاء، بل استجاب لنداء ملك القدس الذي أرسل له بطريرك القدس إلى أنطاكية يطلب منه المسير إليه، ويعلمه بأن القسم الثاني من الحملة بقيادة الملك كونراد وصل إلى هناك، فسار لويس السابع جنوباً إلى القدس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م.

رغبت قوى الصليبيين المحلية في القدس وعلى رأسها الملك ورجال الإكليروس في الاستيلاء على دمشق قبل اتحادها مع حلب ودخول نور الدين محمود إليها، وبعد وصول رجال الحملة إلى فلسطين عقدوا مع قادة الصليبيين المحليين مؤتمراً في عكا، قرروا في ختامه بعد مداولات مطولة: «إنه في الظروف الحالية يبقى أفضل الأعمال هو الإقدام على حصار دمشق، ذلك أنها مدينة كانت تشكل خطراً كبيراً على مملكة القدس»، وهكذا انحرفت الحملة عن مسارها الذي خرجت من أجله؛ وهو استعادة الرُّها، وذهبت إلى القدس أقل الإمارات الصليبية تعرضاً لضغط المسلمين آنذاك، والسبب في ذلك أن التقارب الحلبي الدمشقي أخافهم كثيراً، ولا سيما بعد مسألة حوران ونشاط نور الدين هناك، وخوفهم من وحدة الشمال مع الجنوب.

انطلقت قوات الصليبيين من القدس يتقدمها صليب الصلبوت، وأخذت طريقها نحو دمشق، فاجتازت جسر الصنبرة بعد طبرية، ولدى الوصول إلى بانياس عقد قادتها مؤتمراً عسكرياً حضره عدد من الأشخاص الذين كانوا خبراء بأحوال دمشق؛ المدينة والمنطقة، وبالنتيجة تقرر فرض حصار على دمشق من الجهة الغربية بعد الاستيلاء على البساتين هناك.

كان تعداد الصليبيين لا يقل عن خمسين ألفاً، وبعدما اجتاز هؤلاء المنطقة الوعرة بين بانياس وأحواز دمشق نزلوا في بلدة داريا، ومن هناك امتدت قواتهم حتى خانق الربوة عند الدكة على نهر يزيد.

وعلى هذا كان بإمكان النجدات أن تصل إلى دمشق من حوران ومن بعلبك، وكذلك من المناطق الشرقية، وكانت منطقة البساتين التي فصلت بين معسكر الفرنجة ومدينة دمشق كثيفة الأشجار، ممراتها ضيقة، أحاط بكل بستان سور من الطوب الطيني الكبير (دك)، وفي داخل البساتين نصب المدافعون عن المدينة الكمائن للصليبيين، وفتكوا بهم، ووقعت معارك شديدة بين المسلمين والصليبيين، واشتدت قرب فرع نهر يزيد عند منطقة خانق الربوة، وأخذت النجدات تتدفق على دمشق من بعلبك وحوران، وضغط أهل دمشق على معين الدين لإتاحة الفرصة لنور الدين للدفاع عن مدينتهم والجهاد ضد الغزاة، وفعلاً وصل سيف الدين غازي ونور الدين محمود قريباً من دمشق، وهكذا أمكن رد المهاجمين عن الأسوار، مما أقنع قادة الصليبيين باستحالة الاستيلاء على دمشق من الجهة الغربية، فقرروا التحول وحصارها من الجانب الشرقي حيث انعدمت الغابات في الخارج، وطمعاً بالتعاون مع سكان أحياء الداخل الذين كان جلهم مسيحيين، ومجدداً أخفق الغزاة، فالموقع الجديد كان بعيداً عن مياه الشرب، مما عرّضهم لمصاعب كبيرة، كما أن الخلافات أخذت مجراها بين قادة الصليبيين حول مصير دمشق كإمارة مستقلة أم تابعة للقدس، زد على ذلك أن معين الدين أخذ يخوفهم من خطر قدوم نور الدين وقواته، وأنه إذا دخل دمشق لن يكون ذلك في صالح الصليبيين[١]، فشرع الغزاة بالانسحاب، ونجت دمشق من الحصار

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ١١٣

الصليبي الثاني والأخير، وربح الجولة نور الدين، لأن حصار دمشق أظهر مدى ضعف الدولة البورية، وأن القائد نور الدين محمود هو المؤهل للجهاد ضد الصليبيين، فعقدت عليه الآمال، فوضع الخطط لدخول دمشق وتوحيد بلاد الشام، ورأى أن العمل المجدي ضد الاحتلال الصليبي هو تدمير مملكة القدس اللاتينية، ومتى قطع الرأس خمدت بقية أطراف الجسد.

وكان من معاني إخفاق الفرنجة في الاستيلاء على دمشق أن مشروع الحملة الصليبية الثانية قد باء بالإخفاق الكامل، وأن التوسع الفرنجي باتجاه حلب أو دمشق بات مُحالاً، وأنه بعد أمدٍ قريب لن يكون أمام الفرنجة غير البحر أو مصر، وزالت مع زوال الحملة الثانية مخاوف المسلمين من حملة تكون مثل الأولى وتحقق على الأرض ما حققته سابقتها.

- نشاط نور الدين محمود في جنوب بلاد الشام، ودخول دمشق:

وضع نور الدين الخطط لدخول دمشق، وأخذ في تمهيد السبيل إلى ذلك، حيث استغل وقوع اضطرابات وصراعات على السلطة في القدس بين بلدوين الثالث الشاب وأمه الوصية على العرش، واستفاد من حادثة اغتيال ريموند الثاني كونت طرابلس، ثم بدأ في سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م بمهاجمة حصون أنطاكية الواقعة شرق الفرات، فأغار على حارم وخرَّبها، ثم بدأ بحصار قلعة إنب من أعمال عزاز، ولما خرج أمير أنطاكية ريموند دي بواتيه لصد نور الدين محمود تعرضت قواته لهزيمة ساحقة، ولقي ريموند حتفه، وكذلك رينو صاحب كيسوم ومرعش، وعلي بن وفا زعيم الباطنية، ففرح المسلمون لذلك فرحاً عظيماً، واستغل نور الدين نصره هذا بأن أوغل في أراضي إمارة أنطاكية يدمر وينتقم من الصليبيين، فصالح أهل حارم على نصف أعمالها، وسيطر على أفامية سنة

٥٤٥هـ/١١٥٠م [١]، وفي العام التالي أسر التركمان جوسلين الثاني وسلموه لنور الدين محمود الذي سجنه في حلب، وما تبقى من حطام إمارة الرُّها اقتسمه نور الدين محمود مع السلطان مسعود سلطان سلاجقة الروم، وتمرتاش الأرتقي صاحب ماردين، فسيطر مسعود على عينتاب ودلوك، واستولى نور الدين على الراوندان وتل باشر، واستولى تمرتاش على سميساط والبيرة، وبذلك تكون إمارة الرُّها قد زالت من الوجود نهائياً.

وحدث في سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م أن توفي سيف الدين غازي الأخ الأكبر لنور الدين وصاحب الموصل، وحاولت بعض الأطراف توريط نور الدين بمشاكل الجزيرة والموصل فأخفقت، واجتمع نور الدين بأخيه قطب الدين مودود الذي تولى شؤون الموصل «واتفقت كلمتهما واتحدت آراؤهما، وكل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه»، وتنازل لأخيه قطب الدين عن سنجار مقابل الرحبة وحمص[٢]، وبهذا العمل خطا نور الدين أول خطواته في طريق توحيد بلاد الشام، وحافظ على تفرغه للشؤون الشامية.

وفي هذه السنة بعينها – ٥٤٤هـ/١١٤٩م – توفي معين الدين أنر المتحكم بدمشق، وبذلك عادت مقاليد الأمور إلى الأمير البوري الشرعي مجير الدين أبق ابن محمد بن بوري بن طُغتكين، وكان ضعيف الشخصية سيئ التدبير، لهذا كثر الطامعون في الولاية وانتشرت عصابات الفرنجة ونشطت في ديار الدولة خاصة في حوران، مما دفع نور الدين إلى قيادة قواته إلى هذه المنطقة، وذلك أنه كان

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ٢٧/ ١٥٥ وما بعد. ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ١١٤، ١٢٠ وما بعد.

(٢) ابن الأثير: الباهر، ص ٩٦.

يرى من واجبه الدفاع عن أراضي المسلمين سواء أكانت تابعة له أم تحت إمرة غيره، وكان هذا سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م، ولدى زحفه جنوباً «كتب إلى من في دمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي منهم المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه، وغولط..... وقد كانوا أرسلوا الإفرنج بخبره وقرروا معهم الإنجاد عليه»[١].

ويبدو أن نور الدين كان على معرفة بمسألة التهادن والتحالف بين أبق وبلدوين الثالث ملك مملكة القدس اللاتينية، ثم إنه لم يكن في الحقيقة بحاجة إلى قوات دمشقية تشاركه في النشاط في حوران، لكنه أراد من جانب أول تلقين الفرنجة درساً قاسياً وإفهامهم أن التحالف مع أبق لا يفيد، ثم إنه ابتغى من جانب آخر تعرية أبق وأركان سلطته، واختبار موقف أهل دمشق إن لم نقل إثارتهم، وحقق نور الدين كل ما استهدفه، وزاد على ذلك أنه ظهر في أعين الناس جميعاً من أصدقاء وأعداء أنه مسؤول عن الدفاع عن دمشق، وأنه بطل الإسلام والمجاهد في سبيل الله ضد الصليبيين.

ومن حوران جدد نور الدين مراسلة السلطات البورية في دمشق قائلاً: «إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشُتِّت نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج، عدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم مع

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٧٩.

معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية، ظُلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين»[١] .

وعلى قاعدة إن لم تستح فاصنع ما شئت، جاهر رجال الدولة البورية بمواقفهم، فكتبوا إلى نور الدين جواباً على رسالته «ليس بيننا وبينك إلا السيف، ويوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا»[٢]، وأثار نور الدين هذا الجواب وأغضبه، «وعزم على الزحف إلى البلد ومحاربته»، ثم إنه «أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها»، فقد كان يعرف أن أبق ورجاله مستعصمون وراء أسوار قلعة دمشق.

وراسل أبق بعد هذا نور الدين، ثم خرج إلى لقائه، فخلع عليه نور الدين «خلعة كاملة بالطوق، وأعاده مكرماً محترماً وخطب له على منبر دمشق..... ثم استدعى الرئيس (رئيس المدينة) إلى المخيم وخلع عليه خلعة مكملة أيضاً وأعاده إلى البلد، وخرج إليه جماعة من الأجناد والخواص إلى المخيم واختلطوا به، فوصل من استماحه من الطلاب والفقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدى من سأله»، ثم رحل عائداً إلى حلب وكان ذلك في مطلع سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م.

ومنذ عودة نور الدين إلى حلب أخذت تتوارد عليه أخبار مقلقة من مصر، لهذا رأى من واجبه إنقاذ مصر وإنقاذ شعبها، ولم يكن ذلك ممكناً من دون

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٨٠. أبو شامة: عيون الروضتين، ١/ ٢٤٠.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٨٠.

القضاء على حكم الدولة البورية وتوحيد البلاد الشامية، ولهذا قام في مطلع سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م بقيادة قواته نحو دمشق وشرع بحصارها ومنع المؤن عنها، «ووافت رسل نور الدين إلى ولاة أمر البلاد تقول: أنا ما أوثر إلا صلاح المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد، وجرى الأمر على الوفاق والسداد، فذلك غاية الإيثار والمراد، فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه ويوافق مبتغاه»[١].

وشدد نور الدين التضييق على دمشق مع أوامر واضحة لجنده بعدم «الزحف إلى البلد ومحاربة من فيه إشفاقاً من قتل النفوس وإثخان الجراح»، ولم «يأذن لأحد من عسكره في التسرع إلى قتال أحد من المسلمين من رجال البلد وعوامه، تحرجاً من إراقة الدم فيما لا يجدي نفعاً».

وفي أثناء الحصار وصلت الأخبار إلى نور الدين بوصول جيوش الصليبيين إلى أرض حوران وزحفها نحو دمشق، فاضطر نور الدين إلى رفع الحصار عن المدينة والزحف نحو الصليبيين، وخرجت من دمشق بعض قواتها حيث اتحدت مع الفرنجة للقتال ضد نور الدين وللاستيلاء على بلدة بصرى، ولم تفلح هذه الخطط، ومع هذا راسل الصليبيون رجال الدولة البورية «يلتمسون باقي المقاطعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم».

لكن نور الدين ترك حصار دمشق مؤقتاً حتى يدفع الصليبيين، وبعدما دفعهم عاود حصار دمشق وهو مطمئن أنه لن يقع بين نارين: نار الصليبيين

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٤٨٥.

ونار القوات البورية، و«استمر رأي نور الدين على وقف الزحف إلى البلد ومحاربة أهله وعسكريته تحرجاً من قتل المسلمين، وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين»، وفي هذه الأثناء جرت اتصالات بنور الدين لشراء رضاه، وتوسط في ذلك بعض الفقهاء وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب، وتبعاً لذلك رفع نور الدين الحصار وعاد أدراجه إلى حلب، وبعد أمدٍ قصير – أي في سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م – «توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها ودخل على نور الدين صاحبها، وأكرمه وبالغ في الفعل الجميل في حقه، وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه، بعد أن بذل له الطاعة وحسّن النيابة عنه في دمشق»، وبذلك صارت دمشق نظرياً تابعة لسلطان نور الدين، ومع هذا جاءت خطوة أبق واعترافه بسيادة نور الدين لكسب الوقت.

وفي سنة ٥٤٧هـ/١١٥٣م نجح الصليبيون في الاستيلاء على مدينة عسقلان وانتزاعها من الخلافة الفاطمية [١]، وبعملهم هذا باتوا يمتلكون الساحل الشامي من إسكندرونة في الشمال حتى غزة في الجنوب، وبذلك حرموا المسلمين من إمكانات الإفادة من البحر، كما أن عسقلان ظلّت أمداً بعيداً قاعدة تخرج منها الجيوش الفاطمية لمحاربة الصليبيين في جنوب فلسطين، وعَقّبَ ابن الأثير على سقوط عسقلان بقوله: «فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق»[٢].

وقرر نور الدين حسم الأمور، ولا سيما بعدما تصاعدت مكانته لدى أهل دمشق، وازدادت مكانة حكامها هبوطاً، فزحف في محرم ٥٤٩هـ/آذار ١١٥٤م

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١/ ١٢٦.

(٢) الكامل، ٩/ ٢١٧.

إلى دمشق، ولدى وصوله إليها أخضعها لحصار اقتصادي، وكان قد عمل على زرع الخلاف بين أبق وقادته حتى تفرقوا من حوله، ثم طالب بتسليمه المدينة، فرفض مجير الدين أبق، وحاول المقاومة ودفع نور الدين بالقوة، لكن قواته كانت متخاذلة، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق أسوار المدينة إذ نصبوا علم نور الدين وصاحوا: نور الدين يا منصور، «وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله، وحسن ذكره، وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أغلاقه وفتح، فدخل منه العسكر على رعب، وسعوا في الطرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح باب توما أيضاً ودخل الناس منه، ثم دخل الملك نور الدين وخواصه، وسر كافة الناس من الأجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار والخوف من منازلة الإفرنج الكفار»[1].

وكان دخول نور الدين إلى دمشق هو الحدث الأعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية، فقد تم الآن توحيد بلاد الشام، وكانت هذه الوحدة انطلاقة لوحدة عربية أوسع وأهم، وقال وليم الصوري مؤرخ المملكة اللاتينية الذي عاصر هذا الحدث معقباً عليه، ومعبراً بالوقت نفسه عما خالج سادة مملكة القدس اللاتينية: «وكان هذا التغيير مشؤوماً بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة، فقد برز خصم مرعب بدلاً من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذٍ للمسيحيين، وقد استمر يدفع إليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت، لأنه كما قيل: كل مملكة

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٥٠٤، ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٢١٨.

منقسمة على ذاتها تخرب، وتبعاً لكلمات مُخلِّصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها، وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك»[١].

وبهذا العمل صفَت الممالك بالشام لنور الدين محمود على قول ابن واصل[٢]، «وألقى الإسلام جرانه بدمشق، وثبتت أوتاده» على قول أبي شامة[٣]، وصارت بلاد الشام من الرُّها شمالاً حتى حوران جنوباً دولة واحدة مقرها دمشق ويحكمها نور الدين محمود، وباتت هذه الدولة التي ضمت داخلية الشام تواجه الإمارات الصليبية التي احتلت ساحله الممتد من إسكندرونة إلى غزة، وتحول نور الدين الآن من حلب إلى دمشق، وبهذا تحولت دمشق عن الموقف السلبي تجاه قضية المسلمين آنذاك إلى وضع إيجابي تقود به حرب التحرير والاسترداد بشكل حاسم، ونجم عن هذا قيام حركة علمية نشطة، فنور الدين بنى البيمارستان النوري، وأقام دار العدل، ودار الحديث النورية، وهي أول جامعة لعلوم الحديث في التاريخ الإسلامي، وهو أيضاً الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق في ثمانين مجلدة، وهذا أمر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها، كل هذا بالإضافة لإنجازات أخرى تصدرها التخطيط لإنقاذ مصر والتحضير لتحرير القدس الشريف.

وصحيح أن نور الدين نقل مقر حكومته إلى دمشق، لكنه أبقى مدينة حلب معقل أسرته ومقرها الدائم والأساسي، وسيتضح هذا بعد وفاته، أي إن دخول نور الدين إلى دمشق لم ينه مرحلة حلب في حرب الاسترداد، فهذه المرحلة انتهت بعيد دخول صلاح الدين إلى دمشق وتأسيسه الأسرة الأيوبية.

---

(١) وليم الصوري، ٢/٨١٥.

(٢) مفرج الكروب، ١/ ١٢٧.

(٣) عيون الروضتين، ١/ ٣٠٧.

كان أن دخول نور الدين لدمشق وتوحيدها مع حلب كان فاتحة لأعمال توحيدية وتحريرية، فقد استولى على بعلبك سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، ثم على صرخد وبصرى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، وبعد عامين حاصر حارم فأخفق أمامها، وكرر الهجوم عليها سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م، فتمكن منها وطرد الصليبيين[١]، غير أن فتح بانياس كان من أهم أعماله آنذاك.

كانت بلدة بانياس وقلعتها الحصينة – المعروفة باسم الصبيبة – المركز الدفاعي الأول عن دمشق في وجه مملكة القدس اللاتينية، وحين دخل نور الدين دمشق وجد هذه المدينة مع قلعتها بأيدي الصليبيين قد تسلموها من قبل أمراء الدولة البورية، لذلك خطط نور الدين لاستردادها، وبعد القيام بعدة أعمال عسكرية ناجحة في منطقتها حاصرها نور الدين سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، واستطاع أولاً تحرير المدينة، وشرع في حصار القلعة، وفي تلك الأثناء قدم ملك القدس للتفريج عن الصبيبة، فانسحب نور الدين من بانياس، وكمن مع قواته في الشعراء القريبة من المنطقة، ودخل الملك الفرنجي إلى بانياس وقام ببعض أعمال الترميم فيها، ثم شحنها بالمؤن والمقاتلة، ومن ثم انسحب عائداً، وعسكر مع قواته على مقربة من بحيرة الحولة معتقداً أن نور الدين قد عاد إلى دمشق، ولكنه فوجئ بانقضاض نور الدين على معسكره، فمزقه وقتل رجالاته، ونجا الملك الفرنجي من الموت بكل صعوبة، وقام نور الدين باجتياح المنطقة، ثم عاد إلى بانياس ليحاصرها ثانية، لكنه اضطر مجدداً لرفع الحصار، لأن الصليبيين جمعوا من جديد جيشاً زحف ثانية نحو بانياس لنجدتها، وفي الحقيقة لم يتمكن نور الدين من تحرير بانياس وقلعتها حتى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٢م بعد أن عادت حملته الأولى من مصر.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ١٢٨-١٣٠، ١٤٣-١٤٥.

المقالة الثالثة

الوحدة مع مصر

- أوضاع مملكة القدس اللاتينية وسياستها:

لما دخل نور الدين دمشق ووحدها مع حلب كان ملك المملكة اللاتينية الصليبية في القدس بلدوين الثالث الذي نشط جاهداً في منع نور الدين من الاستيلاء على بانياس الجولان وقلعتها، كما حاول توحيد الصليبيين ضد نور الدين، فقام بحملة مشتركة مع أمراء أنطاكية، وطرابلس، وكيليكيا الأرمينية سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م مستغلاً مرض نور الدين محمود، فسيطر على حارم وأفاميا وشيزر، ثم استمر بمفرده يهاجم أعمال دمشق بين داريا وحوران، لأنه لم يتفق مع باقي الأمراء، إلى أن شفي نور الدين، وعاد إلى دمشق حيث عاود نشاطه ضد الصليبيين بشكل فعال ومؤثر، وهنا توجه بلدوين الثالث بأنظاره نحو حليف جديد بعد أن أخفق تحالفه مع أمراء الصليبيين في الشام، وزاد استياؤه من أرناط حاكم أنطاكية، فراسل الإمبراطور البيزنطي مانويل كومينون، وتزوج ابنة أخيه، وعلى ما يبدو أن اتفاقاً وقع بين الطرفين؛ إذ قام الإمبراطور مانويل بحملة ضد كيليكيا، ثم أنطاكية، فدخلها يرافقه بلدوين الثالث، وأذعن لهم حاكمها أرناط، وكان من المقرر مهاجمة حلب من أنطاكية، إلا أن نور الدين تدارك موقفه

وأرسل سفارة إلى مانويل عرضت عليه إطلاق الأسرى الصليبيين الموجودين عند نور الدين والبالغ عددهم ستة آلاف أسير مقابل وقف الحملة، فوافق الأخير وعاد سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، وأثناء العودة هاجم سلاجقة الروم، وشاركه في ذلك نور الدين محمود، إذ هاجم هو الآخر سلاجقة الروم، وعلى هذا يبدو أن مانويل لم يلغ حملته إلى حلب فقط، بل عقد صداقة أو حلف مع نور الدين، فخاب أمل بلدوين، وأخفقت فكرة التحالف مع البيزنطيين، ثم ما لبث أن توفي سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م دون وريث، فورثه أخوه عموري الأول حاكم يافا وعسقلان.

اعتلى عموري هذا عرش مملكة بيت القدس الصليبية في ١٨ شباط ١١٦٢م بعد وفاة بلدوين بثمانية أيام، وكان قد بلغ عمره آنذاك سبعاً وعشرين سنة، إلا أنه امتلك قدرات سياسية فائقة، فمع اعتلائه العرش، وتحت قيادته، توجهت الحروب الصليبية وجهة جديدة، هي وجهة التوسع جنوباً في مصر.

إن قيام الدولة النورية في الشام، وتحقيقها الوحدة بين شماله وجنوبه، أوصل الصليبيين إلى قناعة مفادها أنه بات من المحال لهم التوسع في بلاد الشام، وكان عموري الأول قد رأى من قبل إخفاق أخيه بلدوين الثالث في تحقيق وحدة صليبية ضد نور الدين محمود، كما رأى إخفاقه ثاني مرة في خلق تحالف صليبي – بيزنطي ضده، فحوّل نظره شطر مصر حيث الخلافة الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة.

- **أوضاع مصر والخلافة الفاطمية:**

كانت مصر آنئذ مقراً للخلافة الفاطمية، ودون الدخول بتفاصيل تاريخ هذه الخلافة تكفي الإشارة إلى أن الفاطميين ضعفت قوتهم بشكل كبير ولا سيما في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكان أبرز الخلفاء الذين حكموا في القاهرة في هذا القرن المستنصر بالله (٤٢٨-٤٨٧هـ/ ١٠٣٦-١٠٩٤م)، ففي أيام هذا الخليفة هوت الخلافة الفاطمية بسرعة كبيرة.

وكانت الخلافة الفاطمية خلافة شيعية إسماعيلية عقائدية، قام نظامها على سيطرة الإمام الخليفة على كل فروع السلطة، وعددها ثلاثة وهي: الإدارة، والدعوة الإسماعيلية والدعاة، والجيش، وكان الخليفة يعيّن من يقوم بأعباء الإدارة غالباً باسم وزير، أما الدعوة وإن ارتبطت بالإمام مباشرة فقد كان المسؤول عنها يعرف باسم «داعي الدعاة»، وكان داعي الدعاة هذا يرأس الحزب الإسماعيلي للخلافة الفاطمية، ويسير جيشاً هائلاً من الدعاة الموزعين في كلّ أنحاء عالم آسيا وشمال إفريقية.

وكان الجيش يرأسه قائد مرتبته ثالثة في سلم الإدارة الفاطمية بعد الوزير وداعي الدعاة، والخلافة الفاطمية كما هو معلوم كانت قد قامت في إفريقية (تونس) على أيدي قبائل كتامة وسواها، ولمَّا استولى الفاطميون على مصر وانتقلوا إليها كان قوام جيشهم من العناصر الكتامية والمصمودية، لكن مع الاستيلاء على مصر اصطدم هذا الجيش بجند بلاد الشام، وقرامطة الإحساء والبحرين، وأتراك العراق، فهزم، وتبيَّن للخلفاء عجز عساكرهم أمام عساكر المشرق، لذلك شرعوا في تجنيد بعض العناصر التركية، والعربية، والديلمية، والأرمينية، كما استوردوا أعداداً هائلة من الرقيق الأسود وأدخلوها في جيشهم،

وهكذا صار الجيش الفاطمي قوامه عدة عناصر بشرية مشرقية، ومغربية، وأفريقية، ويقدر بعض الباحثين أن عدد السودان صار نحو ثلاثين ألفاً كوّنوا سلاح المشاة، في حين أن بقية العناصر كانت من الفرسان.

ومنذ أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بدأ جند الخلافة الفاطمية يزيدون من صلاحياتهم على حساب المؤسسات الأخرى، وفي أيام المستنصر جرت محاولات انقلابية استهدفت الحكم على الخليفة والخلافة حسب ما كان جارياً في مركز الخلافة العباسية، ونجحت إحدى المحاولات سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م بقيادة ضابط من أصل أرميني اسمه بدر الجمالي، ومنذ ذلك الحين حكم قائد الجند على الخليفة، وصار سيداً فعلياً ومطلقاً للخلافة الفاطمية يحمل من الألقاب: أمير الجيوش، الوزير، وداعي الدعاة، وصار هذا المنصب وراثياً أيضاً، ولما وصل الغزو الصليبي إلى الشام كان الأفضل بن بدر الجمالي عزيز مصر وسيدها، وأصبح الحكم من وقتها «للوزراء، من قَهَرَ بالسيف أخذها، والخلفاء بمصر تحت قهرهم»(١).

وقد أدى هذا إلى ردات فعل مؤثرة داخل الدعوة الإسماعيلية، وقاد بعد وفاة المستنصر مباشرة إلى انشقاق الدعوة الإسماعيلية إلى شطرين: نزارية ومستعلية، ذلك أنه لما توفي المستنصر واجه الأفضل أمير الجيوش أمر اختيار خليفة جديد، وكان هناك نزار الابن الأكبر للمستنصر، وكان معيناً لولاية العهد، والمستعلي وكان أصغر من نزار وأضعف ودون سند أو جماعة، فاختاره أمير الجيوش خليفة وصاهره، وهنا هرب نزار إلى الإسكندرية، وقام بثورة هناك، فلاحقته قوات أمير الجيوش، وقضت عليه وعلى حركته.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ١٣٧-١٣٨.

ورفضت فئات من الإسماعيلية خارج مصر الاعتراف بالمستعلي، وبرز بينهم في المشرق داعية كبير اسمه حسن الصباح، قام بتأسيس دعوة إسماعيلية جديدة عرفت باسم «الحشيشية»، أعلنت الحرب على خصومها، وقررت اغتيالهم طقوسياً بواسطة الطعن بالسكاكين، ولقرابة ثلاثة قرون اغتال الحشيشية عدداً كبيراً من قادة المسلمين والصليبيين، واستولوا في المشرق والشام على عدد من القلاع الحصينة، وكان دورهم أيام الحروب الصليبية متميزاً.

وفي القاهرة توفي المستعلي سنة ٤٩٥ هـ/١١٠١م، فخلفه ابنه الآمر، وفي سنة ٥٢٤ هـ/١١٣٠م اغتال الحشيشية هذا الخليفة، فكان آخر الخلفاء الأئمة، إذ جاء بعده أربعة تربعوا على عرش القاهرة، لكن خلفاء فقط لا أئمة ، أي إن سلطتهم زمانية فقط، وضعفت مصر أيام هؤلاء الأربعة ضعفاً شديداً، وقامت صراعات داخلية بين عدد من الجند حول السلطة والحكم، واشتدت هذه الصراعات أيام نور الدين، ولا سيما عقب دخوله إلى دمشق، وتنبه نور الدين إلى ما كان يجري في مصر، وبلغه أن الصليبيين يريدون الاستيلاء عليها، وأن بعض رجالات الصراعات الداخلية قد اتصلوا بهم ودعوهم للقدوم إلى القاهرة.

في سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م توفي الخليفة الظافر، وخلفه ابنه الفائز، وتحكم في أمور الخلافة الفاطمية الوزير طلائع بن زريك – وهو من أصل أرميني –، ولما توفي الخليفة الفائز سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م أقام هذا الوزير خليفةً جديداً هو العاضد، فوقع العاضد أيضاً تحت سيطرة الوزير طلائع بن زريك، وكان مراهقاً قارب البلوغ، فزوجه الوزير من ابنته، وبعد عام واحد تخلص الخليفة الجديد من وزيره بمساعدة أعوانه، ووضع محله ابنه العادل بن طلائع، وبعد خمسة أشهر قتله حاكم الصعيد شاور السعدي، وصار هو الآخر وزيراً بدلاً عنه،

غير أن وزارة شاور لم تكن مستقرة، إذ عامل الخليفة العاضد بأفعال قبيحة، وأساء السيرة في الرعية، فخرج عليه حاكم الصعيد ضرغام بن ثعلبة، فهزمه وطرده من مصر، فتوجه شاور إلى دمشق سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م إذ طلب مساعدة حاكمها نور الدين محمود.

- حملات نور الدين على مصر وتوحيدها مع بلاد الشام:

تحدث مؤرخا الصليبيين - ميخائيل السرياني ووليم الصوري- أن بلدوين الثالث هم في أواخر حياته بغزو مصر منتهزاً الفوضى التي أعقبت قتل الخليفة الفائز سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، لكن الحكومة الفاطمية تمكنت من ثنيه عما أراد بدفع جزية سنوية مقدارها مئة وستون ألف دينار، ولما اعتلى مكانه أخوه عموري الأول تحجج بعدم وفاء الخلافة الفاطمية، لذا هاجم الدلتا في أيلول ١١٦٣م، ووصل إلى بلبيس، لكن الوزير ضرغاماً استغل فيضان النيل، وأجبر عموري على الانسحاب والعودة إلى فلسطين، ومن غير شك كانت لهذه الحملة فوائد استطلاعية أطلعت عموري على الضعف والفوضى اللذين ألما بالخلافة الفاطمية، وجعلت عموري يستعد بشكل فعلي لغزو مصر.

ومن غير شك أنّ حملات عموري ومن سبقه من الملوك الصليبيين أقلقت نور الدين، وخشي أن تقع مصر بيد الصليبيين، وأن تعجز الخلافة الفاطمية عن ردهم، فلما لجأ شاور إلى نور الدين يستنجده على ضرغام لاقى طلبه هذا هوىً في نفس نور الدين، لكنه لم يتسرع في الإجابة، وأقبل على دراسة القضية بجميع أبعادها، ثم وضع خطة عسكرية تقضي بإرسال فرقة من قواته بقيادة أسد الدين

شيركوه، وبالوقت نفسه إشغال الصليبيين في الشام عسكرياً حتى لا تتاح لهم الفرصة للتدخل وقطع الطريق على شيركوه.

- الحملة الأولـــى:

وفي جمادى الثانية لسنة ٥٥٩ هــ/١١٦٤م انطلق شيركوه يريد مصر، وبرفقته صلاح الدين ابن أخيه أيوب، ولما سمع ضرغام بمسير جنود الشام نحو مصر توجه نحو الصليبيين ينشد العون، ووصل شيركوه إلى مصر، وهزم قوات ضرغام، ودخل القاهرة، فأعاد شاور «إلى منصبه ومرتبته، وقرر قواعده، واستقر أمره، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعاد منها وقد غُرس في قلبه الطمع في البلاد، وعرف أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال»(١).

وما إن استقر شيركوه في مصر قليلاً حتى عرف أساليب الحكم في القاهرة، فتركها وتحصن في بلدة بلبيس، وأراد شاور إخراج شيركوه فأخفق، فاتصل بعموري ملك القدس وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال للقدوم إلى مساعدته، وخف عموري على رأس قواته، وبعدما وصل مصر قام يساعده شاور بمهاجمة بلبيس، وتصدى شيركوه للمهاجمين واتخذ موقف الدفاع، وقام عموري بمحاصرته، واستمر الحصار ثلاثة أشهر، قام خلالها نور الدين – وقد أخفق في إرسال النجدات إلى شيركوه – بضغط عسكري شديد على ممتلكات

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ١/ ٧٦.

الصليبيين في الشام [1]، فاضطر عموري إلى التفاوض مع شيركوه، فاتفقا على الانسحاب جميعاً من مصر، وهذا ما حصل[2].

كان الضغط الذي مارسه نور الدين على صليبيي الشام قد تمثّل بهجومه هو وعدد من الحلفاء مثل قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا، ونجم الدين ألب أرسلان صاحب ماردين، ومودود أتابك الموصل وأخي نور الدين، على إمارة أنطاكية، فتشكل حلف صليبي ضم بوهيمند الثالث أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس، وثوروس أمير الأرمن، والحاكم البيزنطي لكيليكيا الذي تشير المصادر إليه باسم الدوك مقدم الروم، وجوسلين الثالث، وهيو الثامن لوزجنان وغيرهم...، وفي معركة استدرجهم إليها نور الدين قرب أرتاح في رمضان سنة ٥٥٩هـ/آب ١١٦٤م حلَّ بالصليبيين كارثة، إذ قتل منهم بضعة آلاف، وأسر جميع قادتهم باستثناء ثوروس أمير الأرمن[3]. ثم استولى على حارم، ومنها سار إلى أقصى الجنوب، فسيطر على بانياس التابعة لمملكة القدس الصليبية في تشرين الأول ١١٦٤م وملأها بالذخائر[4]، وربما هذا الذي جعل عموري يرضى بفك الحصار والعودة إلى مملكته.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ١٤٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٣٠٧. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٥/ ٣٤٨.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ١/ ٤١٥-٤١٩، ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٠٨ وما بعد، ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ١٤٣-١٤٥.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ١٤٦-١٤٧. أبو شامة: الروضتين، ١/ ٤٣٧ وما بعد.

- **الحملة الثانية:**

انتهت حملة نور الدين الأولى إلى مصر بنتائج متواضعة لم تكن مُرضية له، إنما ألقت في روعه أن تحريرها أمر لا بد منه، وأنه يحتاج إلى قوة أكبر من التي أرسلت، ولا سيما أن مصر بثرواتها الهائلة، وضعفها الشديد، شكلت مطمعاً للطرفين، فيذكر ابن الأثير أن شيركوه لم يستطع عقب عودته إلى الشام أن ينسى مصر، فظل «يتحدث بها ويقصدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير»،[١] أما نور الدين فقد تروى قليلاً لأن الأمر كان يحتاج إلى يقظة وتنبه.

في هذه الأثناء - كما يذكر أبو المحاسن - راسل الخليفة العاضد نور الدين عندما رأى استبداد وزيره شاور، وطلب نجدته[٢]، أما شاور فقد كان متيقناً من عودة جيوش الشام، لذلك «كاتب الفرنج، وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها ... وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين، فاشتد خوفهم على مصر أن يملكها الكفار»[٣].

وبادر نور الدين إلى تجهيز جيش جديد، عهد بقيادته إلى شيركوه، ومرة ثانية رافق صلاح الدين عمه، وفي ربيع الأول لسنة ٥٦٢هـ/ كانون الثاني ١١٦٧م انطلق الجيش نحو مصر، وبعد صعوبات شديدة وصل إلى أطفيح على بعد أربعين ميلاً من القاهرة إلى الجنوب منها، وهناك عبر النيل وتابع سيره حتى الجيزة حيث عسكر هناك على الضفة الغربية.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٩/ ٣٢٧.

(٢) النجوم الزاهرة، ٥/ ٣٤٨ .

(٣) أبو شامة: الروضتين، ٢/ ١٥.

ووصل في الوقت نفسه جيش مملكة القدس الصليبية يقوده الملك عموري الأول، وعسكر تحت أسوار الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل بحيث تفاوض مع شاور، فتم الاتفاق على أن يدفع شاور للفرنجة أربعمئة ألف قطعة ذهبية مقابل عدم تخليهم عنه، وتقرر بعد ذلك محاربة شيركوه.

وراقب الجيشان الشامي والصليبي بعضهما بعضاً عبر النيل، ولم يتعجل شيركوه المعركة، ذلك أنه كان على معرفة بأخلاق الفرسان الصليبيين وأمزجتهم، فالفارس الصليبي كان لا يعرف الانضباط، وكان عديم الصبر متهوراً، وكانت أفضل الوسائل للتعامل معه مطاولة القتال حتى يركبه الملل، فيتهور بعمل انتحاري طائش، أو ينسحب، كما كان شيركوه عنده أخبار عن قيام نور الدين بالضغط العسكري الشديد على ممتلكات الصليبيين في الشام.

وكان موقف شيركوه العام حرجاً، فعقد مجلساً حربياً لدراسة الموقف، وفي هذا المجلس كان رأي غالبية القادة الانسحاب والعودة إلى الشام وقالوا لشيركوه: «إن نحن انهزمنا – وهو الذي لا شك فيه – فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي... وحق لعساكر عدتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم وقلّ ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات الألوف»، وعارض أحد القادة هذا الرأي وقال: «من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون... في بيته، والله لئن عدتم إلى نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه، ليأخذن إقطاعاتكم، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار!»[١]، فقال شيركوه هذا رأي، ووافقه صلاح الدين، واتخذ القرار بذلك.

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٢/ ١٢، ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٢٨.

وعبر جيش الفرنجة النيل، فتراجع أمامه شيركوه جنوباً إلى منطقة الأشمونين في الصعيد، وعبّأ قواته للمعركة في بقعة عرفت باسم (البابين) وكانت قوات شيركوه لا تتجاوز الألفين، في حين أن قوات الفرنجة وشاور كانت أضعاف ذلك.

ورتّب شيركوه قواته الترتيب الخماسي المعتاد: مقدمة، قلب، ساقة، ميمنة، ميسرة، وقام بوضع جميع العتاد مع القلب حتى يظهر حجمه كبيراً، وعهد لصلاح الدين بقيادة القلب، وتسلم هو قيادة الميمنة، وأوصى صلاح الدين وأعوانه بقوله: «فإذا حملوا عليكم فلا تَصْدُقُوهُم القتال، ولا تهلكوا نفوسكم، واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم»[(١)].

وانقضّ فرسان الفرنجة على قلب جيش شيركوه في آذار سنة ١١٦٧م، «فقاتلهم من به قتالاً يسيراً ثم انهزموا بين أيديهم»، فتبعوهم، وهنا قامت ثغرة بين سلاحي الفرسان والمشاة لدى الصليبيين، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على مشاة الصليبيين، «فهزموهم ووضع السيف فيهم، فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم دَيَّارٌ فانهزموا»[(٢)].

لم يتوجه شيركوه بعد نصره هذا إلى القاهرة، خوفاً من عدم تمكنه من دخولها، وآثر التوجه إلى الإسكندرية حيث استقبله أهلها وفتحوا له الأبواب، فوضع بها حامية صغيرة بقيادة ابن أخيه صلاح الدين، وتوجه هو إلى الصعيد ليجمع الخراج، وفي أثناء هذا أعاد عموري تشكيل قواته مع قوات شاور وزحف

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٢٨.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ٢/ ١٣. ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٢٨.

نحو الإسكندرية، فراسل شيركوه شاور، وعرض عليه التعاون معاً ضد الصليبيين، ووعده أنه بمجرد طرد الصليبيين من مصر فإنه سينسحب مع قواته عائداً إلى الشام، ورفض شاور الاستجابة، فقتل رسول شيركوه، وأطلع الملك عموري على محتوى المراسلة.

وزحفت قوات الصليبيين وشاور على الإسكندرية وألقيا عليها الحصار، وأثناء ذلك حاول عموري الذهاب إلى الصعيد لقتال شيركوه، فأقنعه شاور بعدم الذهاب، وحوصرت الإسكندرية لمدة أربعة أشهر، صمد خلالها صلاح الدين صموداً رائعاً، وأظهر براعة قتالية كبيرة، كما نجح في كسب تأييد أهل المدينة له بحيث تفانوا في الدفاع معه، ولما اشتد الحصار قدم شيركوه من الصعيد، وهنا جرت مفاوضات بين عموري وشيركوه اتفقا فيها على الانسحاب جميعاً من مصر.

وهكذا رفع الحصار عن الإسكندرية، وغادر صلاح الدين وقواته المدينة في شوال ٥٦٣هـ/ آب ١١٦٧م، وكان في الاتفاقية أن يتم نقل الجرحى من جيش الشام على سفن الصليبيين إلى عكا ومن هناك إلى دمشق(١).

وكالعادة لم يغفل نور الدين عن مهاجمة صليبيي الشام والتضييق عليهم كعامل ضغط ضد عموري الذي يقاتل قواته في مصر، فأغار نور الدين مع أخيه قطب الدين أتابك الموصل على جهات حصن الأكراد، وهاجم عرقة، وفتح قلعتي العريمة وصافيتا،(٢) ثم هاجم مملكة بيت المقدس، فخرَّب هونين (٣)، ولعل في هذه الأخبار ما يحمل عموري على العودة إلى بلاد الشام خوفاً على مُلكه.

---

(١) الروضتين: ٢/ ١٣، الكامل، ٩/ ٣٢٩. سنا البرق الشامي: ١/ ٦٢ – ٦٥، مرآة الزمان: ١/ ٢٦٨ – ٢٧٠، السلوك: ٤٣/١/١. ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ١٥٢.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ١٥٢ وما بعد. ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٣٠.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ٢/ ١٦.

- **الحملة الثالثــة :**

ساء نور الدين انسحاب قواته من مصر، لكنه لم يقم بنقد شيركوه أو لومه، بل قدر له نصره في معركة البابين، وأخذ من جديد يعد العدة لحملة ثالثة على مصر تكون حاسمة.

وفي المقابل زاد عموري – وقد وصلته النجدات من أوربة – من استعداداته لغزو مصر، لأن الصليبيين في حملاتهم السالفة اطلعوا – كما يذكر أبو المحاسن – على عورات مصر وطمعوا فيها[١]، ولم يعد في وسعهم أن يتخلوا عن فكرة الاستيلاء عليها، وكان عموري قبل أن يترك مصر في آخر حملة قد وضع حامية صليبية في القاهرة لمساعدة شاور على الاحتفاظ بملكه،[٢] وشغلت هذه الحامية دوراً جاسوسياً في نقل أخبار مصر، كما تعرض عموري لضغط من أمرائه الذين وجدوا في مصر لقمة سائغة للهجوم عليها، ولا سيما أن رجال الحامية أرسلوا يستدعونه لتملكها، وأعلموه خلوها من الموانع[٣].

وقد تحدث وليم الصوري عن إشاعة انتشرت في أوساط الصليبيين مفادها أن شاور كان يراسل سراً نور الدين، ويطلب عونه للتخلص من الصليبيين.

لذلك خضع عموري لضغط أمرائه وللأمر الواقع، وقرر المسير نحو مصر، فجمع قوات مملكته من فرسان ومشاة وتوجه مسرعاً نحوها، وفي ربيع الأول ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨م اجتاز عسقلان، وبعد عشرة أيام من الزحف عبر الصحراء وصل الصليبيون إلى بلبيس، وهنا لاحظ عموري وشاهد تغيراً في

---

(١) النجوم الزاهرة، ٥/ ٤٥٠ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٢٩.

(٣) أبو شامة: الروضتين، ٢/ ٤٧.

موقف المصريين، إذ أغلقت بلبيس أبوابها في وجهه تلك المرة، ولما طلب عموري من طي بن شاور الذي كان في المدينة آنذاك تسليمها أجابه طي: «على أسنة الرماح... أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها»، فرد عليه عموري: «نعم هي جبنة والقاهرة زبدة»[1]، فحاصر بلبيس ودخلها عنوةً، ثم «وضع معظم سكانها طعمة للسيف دونما اعتبار للسن والجنس، كما أسر خلقاً كثيراً، كان من بينهم ابن شاور وابن أخيه».

ويصف وليم الصوري بعد هذا المجمل تفاصيل مذابح بلبيس، ثم يحدثنا أن عموري أمر بهدم بلبيس، ثم زحف يريد القاهرة، فوصلها وأقام معسكره أمامها، وبدأت آلات الحصار لديه بالعمل، وشدد عموري الحصار وضغط على شاور الذي ارتاع لكل ما حدث، فأقدم على طرح النار في مدينة الفسطاط فأحرقها، وظلت النيران تعمل بها مدة أربعة وخمسين يوماً، وراسل في الوقت نفسه نور الدين، وقام الخليفة العاضد بإرسال أجزاء من شعر بعض نساء المسلمين إلى نور الدين، كما قام شاور بمراسلة عموري، وعرض عليه مبلغ مليوني قطعة ذهبية مقابل إطلاق سراح ابنه وابن أخيه وانسحاب القوات إلى ديارها، وتهدده أنه إذا لم يقبل سيحرق القاهرة كما أحرق الفسطاط.

وكان عموري لما توجه نحو مصر قد أَعَدَّ أسطولاً كبيراً أمره بالتوجه نحو مصر، وبالفعل وصل هذا الأسطول إلى بحيرة المنزلة، وأخذ تنيس، وأبحر في النيل يريد الوصول إلى معسكر الصليبيين، لكن المصريين سدوا النيل بمراكبهم، ومنعوه من العبور، وأحرقوا عدداً من سفنه، ولما بلغت الأخبار الملك عموري قرر إرسال حملة للاستيلاء على طرف من أطراف النيل على الأقل،

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٢/ ١٠٣.

ولكن هذه الحملة لم تمض إلى تنفيذ ما رسم لها، ذلك أن الأخبار وصلت إلى عموري بأن شيركوه في طريقه إلى مصر، وقد أجبره هذا على تغيير الخطة، فأمر الأسطول بالإبحار والعودة إلى الديار، واستمرت الاتصالات مع شاور الذي عجل بمبلغ مئة ألف قطعة ذهبية، فأطلق عموري سراح الأسرى، واتخذ قراراً برفع الحصار والابتعاد عن أسوار القاهرة حيث استمرت المفاوضات مع شاور.

وفي الشام كان نور الدين، حين بلغته أخبار ما حلّ بمصر مع مراسلات الخليفة العاضد وشاور، قد أمر على الفور شيركوه بالاستعداد للسفر إلى مصر وأرفقه جيشاً قوامه خمسة آلاف من الرجّالة، وألفي فارس، وانطلق شيركوه مسرعاً يريد القاهرة، وللمرة الثالثة يرافقه ابن أخيه صلاح الدين، «ولما سمع الفرنج بنهوض عسكر الإسلام أجفلوا إجفال النعام، ورحل ملكهم إلى بلبيس»، حيث أعد ما كان يحتاج إليه من مؤن، وزحف نحو الصحراء يريد شيركوه، لكنه ما إن توغل قليلاً حتى جاءته الأخبار بأن شيركوه عبر النيل مع قواته ودخل القاهرة، وهنا وجد عموري أن السُبل قد سدّت أمامه، وأن البقاء في مصر – كما يقول وليم الصوري – خطر ما بعده خطر، «وأن الاشتباك مع شيركوه مغامرة لا تقل خطراً»، لذلك عاد إلى بلبيس، ومنها في ربيع الأول ٥٦٤هـ/ كانون الثاني ١١٦٩م أخذ طريق العودة نحو فلسطين.

وفي القاهرة صار شيركوه سيد مصر، ولكي يتم له الأمر، وتخلص له السيادة كان عليه أن يتخلص من شاور، فقد قام الخليفة العاضد بمنح الإقطاعات والأموال لشيركوه وأتباعه، وخشي شاور من هذا التقارب، فراسل الصليبيين مرة أخرى يستدعيهم لنجدته، ويقول لهم: «يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر

والبر»[١]، وأخذ يماطل شيركوه عندما طالبه بثلث البلاد حسب الوعد، وصار من عادته يركب كل يوم لزيارة شيركوه ليغرس في قلبه الطمأنينة حتى يتسنى له الغدر به، ويبدو أن هذه النوايا كانت متوقعة، لذا اجتمع أعيان الدولة بمصر عند شيركوه وقالوا له: «شاور فساد العباد والبلاد وقد كاتب الفرنج، وهو يكون سبب هلاك الإسلام»[٢].

لذلك اتفق صلاح الدين مع عدد من القادة على الفتك بشاور، وفي أحد الأيام جاء شاور لزيارة شيركوه فلم يجده في مقره، وأخبره صلاح الدين أنه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافعي، وتمنى عليه اللحاق به، فاستجاب شاور، وقام صلاح الدين بمرافقته، وفي الطريق وثب عليه يعاونه بعض القادة، فألقوه أرضاً، وسحبوه إلى إحدى الخيم، «فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله، وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في يومه (شباط ١١٦٩م)، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه، وقصد أسد الدين قصر العاضد، فخلع عليه خلع الوزارة، ولقب الملك المنصور، أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة»[٣].

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٣٥١.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٥/ ٣٥١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٢٩. أبو شامة: الروضتين، ٢/ ٤٧.

وهكذا صار شيركوه سيد مصر، وصارت مصر فعلياً من أملاك نور الدين، ويعلق وليم الصوري على هذا التغيير بحسرة بقوله: «كانت جميع موارد مصر وثرواتها الهائلة وقفاً على حاجاتنا، وحدود مملكتنا من تلك الناحية كانت آمنة، ولم يكن هناك عدوٌ نخشاه في جهة الجنوب، وكان البحر آمنة ممراته لا خطر فيها على السفن الراغبة بالقدوم إلينا، وكان أفراد شعبنا يدخلون أراضي مصر دونما خشية، وينشطون تجارياً في ظروف مناسبة جداً، وكان المصريون يجلبون إلى مملكتنا البضائع الجيدة والحاجات الغريبة غير المتوفرة لنا، وفي زياراتهم لنا كنا نستفيد فوائد كبيرة وترقى مكانتنا، زد على ذلك أن المبالغ الكبيرة التي كانوا ينفقونها بيننا أغنت موارد خزانتنا وزادت من ثرواتنا الخاصة.

إنما الآن انعكست الآية، وتغير كل شيء إلى الأسوأ... فكيفما التفتّ أجد فقط أسباباً للخوف وعدم الراحة، فالبحر يرفض إعطاءنا ممرات آمنة، وجميع المناطق المحيطة بنا خاضعة لعدونا، والممالك المجاورة تعد العدة لتدميرنا».

ومما يؤسف له أن شيركوه لم يتمتع طويلاً بمنصبه فقد توفي بعد شهرين وعدة أيام من توليه الوزارة (٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/ ٢٣ آذار ١١٦٩م)، وبعد وفاته بثلاثة أيام استدعى الخليفة ابن أخيه صلاح الدين وعيّنه وزيراً مكانه، ومنحه لقب «الملك الناصر» (١).

---

(١) سنا البرق الشامي: ١/ ٧٣ – ٨١. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٨٠. الباهر: ٢٧٧ – ٢٨٢، الروضتين: ٢/ ٥٧. مرآة الزمان: ١/ ٢٧٥ – ٢٧٩. شفاء القلوب: ٣٢ – ٤٤. السلوك ١/١/٤٢ – ٤٣. النجوم الزاهرة: ٦/ ٣ – ١٨.

A History of the Crusades, I, 564 – 565, Saladin, 47 – 61 .



المطلب الخامس

المرحلة الثالثة من مراحل التحرير

«مرحلة دمشق تحت قيادة صلاح الدين»



توطئــة

هناك خلاف شديد بين المؤرِّخين حول دور البطل في التاريخ، فبعضهم يعتقد أنه وُجد بين البشر من ملك من الطاقات ما جعله يفوق سواه من الناس في وقته، وبذلك تسنّى له أن يتربع على عرش الزعامة، وأن يحدث تغييرات كبيرة، ويحقق إنجازات خطيرة، تأثّر بها معاصروه، ومن أتى من بعدهم، لكن بنسب متفاوتة، مما سبّب له الشهرة والخلود.

وبعضهم الآخر ينكر دور البطل الفرد في صنع حوادث التاريخ حسب مشيئته، ويعتقد أن الجماهير هي البطل الحقيقي الذي يصنع حوادث التاريخ، ولكن إذا تذكرنا أن لكل واقعة من الوقائع، الكثير من الأسباب المتنوعة البعيدة والقريبة، وأن المسببات هي متقدمة على الواقعة وأصل لها، خففنا من غلواء الاعتقاد بأن الفرد البطل قادر وحده على صناعة التاريخ، وأن الفرد البطل وحده لا شيء دون جماهير تستجيب لقضيته، التي تعدها قضيتها، وتتعاون معه وتحت قيادته، لتنفيذ مطامح متشابكة بشكل معقد.

على هذا يمكن رؤية دور الفرد والجماعات في صنع التاريخ من خلال قضايا كبرى ذات جذور بعيدة في الماضي ولها أسباب قريبة، وحين تتضافر الأسباب، وتتوفر القدرة على الإنجاز، يقوم دور الفرد على مدى فاعليته في الإنجاز، وقد يكون الإنجاز كبيراً، له فاعلية الحسم المستمر، وقد يحدث أن يقوم

فراغ كبير إثر غياب البطل، وهنا نجد الفراغ والحاجة يقودان نحو تذكر دور البطل واستغلاله بشكل جديد فيه حسرة وإغناء وشروح وتفسيرات ثم إضفاء مواد جديدة عليه، وهكذا يتحول دور البطل من واقعة تاريخية إلى واقعة شبه أسطورية.

هذا ما يواجهنا عندما نود البحث في سيرة صلاح الدين ولا سيما الحقبة المبكرة عن حياته أي قبل وصوله إلى السلطة، ذلك أن صلاح الدين مثل غيره من الأبطال اهتم المؤرخون بأخباره بعدما وصل إلى واجهة السلطة، فجمعوها، وهنا شعروا بالحاجة إلى التعرف إلى أخباره قبل السلطة فأقبلوا على جمعها من الذكريات، وعملية الجمع هذه بائسة بسبب قلة مصادر المعلومات هذه، مع ما تسببه رواية بعض الأخبار من إحراج، ولما جبل عليه البشر من مداراة وأدب ولباقة إن لم نقل رياء ونفاق، ولهذا فإننا لن نقف طويلاً عند طفولة صلاح الدين وأعماله قبل وصوله إلى السلطة.

المقالة الأولى

قيام حكم صلاح الدين وتأسيس الدولة الأيوبية

- صلاح الدين حتى استلام السلطة في مصر:

سَكَنَ المناطق الجبلية الواقعة في أعالي الجزيرة شمالي الموصل وشماليها الشرقي عددٌ كبير من القبائل الكردية، وكان الأكراد غالباً ما يهاجرون إلى بلدان الجزيرة حيث يندمجون بسكّانها، ولما ضعفت السلطة المركزية في بغداد، وأخذت أطراف الدولة تنفصل، كان من بين القوى التي تحركت بعض قبائل الأكراد، فمنهم من تجنّد في واحد من الجيوش، ومنهم من شغل نفسه بالإغارة على أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وهكذا وجد في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لدى الأكراد عدد من الغزاة تجمع حول كل واحد منهم عصابة عسكرية خاصة، واشتهر من بين هؤلاء رجل اسمه باذ استطاع أن يؤسس دولة في ميافارقين وديار بكر عرفت باسم الدولة المروانية (٣٧٢ -٤٧٨ هـ/٩٨٣ - ١٠٨٥م).

وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حين هاجرت قبائل التركمان من منطقة ما وراء نهر جيحون إلى خراسان فالعراق، والجزيرة،

وآسية الصغرى، والشام، دفع التركمان أمامهم أعداداً من الأكراد، ومع نهاية القرن الحادي عشر صار عدد العناصر الكردية العاملة في جيوش دويلات بلاد الشام والعراق والجزيرة كبيراً، وقامت فرص أمام الأكراد لوراثة التركمان والحلول محلهم، وكان للأكراد دويلة في أعالي أذربيجان عرفت باسم دولة بني منوجهر أو شداد، تعرضت لغزوات الكرج (الجورجيين) بعد انتقال حمى الحروب الصليبية إلى جورجيا، وخلال سنوات من الصراع اضطر بعض أكراد هذه الدويلة إلى الهجرة جنوباً، وكان منهم أسرة أيوب التي التحقت بخدمة زنكي، وبعد سقوط هذه الدويلة هاجرت مجموعة كبيرة منها نحو الشام الشمالي، وحدث هذا بعد مقتل زنكي، وانشطار دولته إلى: شامية وجزرية، وانضوى هؤلاء تحت قيادة شيركوه في حلب، وكانت أعداد التركمان قد تناقصت في الشام لانشغالها في الجزيرة وفي آسية الصغرى، وهكذا ازداد الاعتماد على القوات الكردية، وتهيأت الفرصة لوراثة دولة نور الدين منذ استيلاء شيركوه على مصر، وأكثر بعدما صار صلاح الدين وزيراً متحكماً بالخلافة الفاطمية.

هذا وسلفت الإشارة في الفصل المتقدم إلى عماد الدين زنكي وتأسيسه للدولة الأتابكية في الموصل، كما سلفت الإشارة إلى منجزات عماد الدين في حرب الاسترداد ضد الصليبيين، لكن من المفيد أن نشير إلى أن عماد الدين تورّط في عدد من الصراعات السلجوقية في العراق، ففي سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م هزم زنكي في العراق فانسحب بفلول جيشه نحو تكريت يريد جواز دجلة، وكانت قلعة تكريت يحكمها ضابط كردي اسمه نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، وقام أيوب بتقديم المساعدات والمعابر لزنكي، مما كان له عظيم الأثر في زنكي، وبعد عودته إلى الموصل أرسل زنكي له الهدايا، وأخذ الطرفان

يتبادلان المراسلات والسفارات، وقد ضاق بتصرفات أيوب سادة بغداد أعداء زنكي، واضطروا إلى عزله عن ولاية تكريت، فاضطر أيوب في ٥٣٢هـ/ ١١٣٨ إلى مغادرة تكريت ميمماً شطر الموصل، ويروى أنه في الليلة التي غادر بها أيوب تكريت ولد له مولود ذكر سماه يوسف، وهو الذي سيشهر فيما بعد باسم صلاح الدين.

واستقبل زنكي أيوب وأسرته بترحاب، وأقطعهم إقطاعات كبيرة، وانخرط أفراد الأسرة في خدمة زنكي، وبرز بعد أيوب أخوه شيركوه، وبرهن على كفاءات عسكرية عالية، ولما احتل زنكي بعلبك سنة ٥٣٤ هـ/١١٤٠م عيّن أيوب والياً عليها وأقطعه ثلثها، وظل أيوب في بعلبك حتى مقتل زنكي، وهنا في هذه المدينة الإستراتيجية ترعرع صلاح الدين في كنف أبيه ثم عمه، وقدر أنه تلقى ما كان يتلقاه أبناء طبقته من أهل عصره من تدريبات عسكرية وثقافة عربية إسلامية(١).

وبعد وفاة زنكي آلت بعلبك لحكام دمشق البوريين، فتركتها الأسرة الأيوبية، وفي سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م، وكان صلاح الدين قد صار في الرابعة عشرة من عمره، غادر بصحبة عمه شيركوه بعلبك إلى حلب حيث دخلا في خدمة صاحبها نور الدين محمود، وسريعاً غدا شيركوه من أبرز أمراء جيش نور الدين، وقد حاز إقطاعات خاصة، وتجمّعت حوله قوة عسكرية خاصة، ستعرف فيما بعد باسم الأسدية، لأن شيركوه كان يلقب بأسد الدين، ومن المرجح

---

(١) السلوك: ٤٠/١/١ – ٤٢، ابن الأزرق الفارقي، الموسوعة الشاملة، ٢٦٨/١١– ٢٨٧. الباهر، الموسوعة الشاملة، ١٤/ ١٤٨–١٥٤. زبدة الحلب، الموسوعة الشاملة ١٠٠/١٦، ١٢١–١٤٥.

أن صلاح الدين نال من عمه رعاية خاصة وقد رافقه بشكل دائم، حتى حلّ منه محل النائب، كما أن صلاح الدين قد تأثّر عظيم الأثر بخلق نور الدين ومثله كلها، وفي سنة ٥٤٩/١١٥٤م دخل نور الدين مدينة دمشق، فعيَّن شيركوه شحنة (حاكماً عسكرياً) لها، وفي سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م تسلم صلاح الدين منصب نائب شحنة دمشق لأمد قصير، إذ ترك عمله هذا، والتحق بجيوش نور الدين، وشارك في أعمالها الحربية ضد الصليبيين، ولازم نور الدين ملازمة شديدة حتى صار من رجاله المقربين، وقد وصف ابن أبي طي ذلك بقوله: «واستخص نور الدين صلاح الدين، وألحقه بخواصه، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر، وكان تفوّق في لعب الكرة – البولو – وكان نور الدين يحب لعب الكرة»[١].

في الحقيقة نال صلاح الدين شهرته، وبدأ يدخل الباب العريض للتاريخ حين رافق عمه شيركوه في حملات نور الدين على مصر – وقد سلف الحديث عنها –.

ودون الدخول هنا بكبير تفاصيل الأحداث، يكفي أن نذكر أن نور الدين بعث بثلاث حملات متتالية إلى مصر قادها واحدة تلو الأخرى أسد الدين شيركوه، وشغل فيها صلاح الدين دوراً، لا شك أنه كان كبيراً جداً، وأن دوره هذا هو الذي رشّحه للزعامة، كما أن هذه الحملات عرّفت صلاح الدين مصر ومشاكلها، وجعلته مع القوات الأسدية ينالون تدريبات عسكرية عملية، ولا شك أن صلاح الدين أقام في أثناء ذلك بعض العلاقات مع بعض القوى السياسية المصرية، ولا سيما المعارضة منها.

---

(١) الروضتين، ١/ ٣٢٠.

- **وزارة صلاح الدين :**

وكما سلف الحديث، وبعد وفاة أسد الدين شيركوه بثلاثة أيام استدعى الخليفة العاضد صلاح الدين، وعيّنه وزيراً مكان عمه شيركوه، ومنحه لقب الملك الناصر، وفي الحقيقة لم يكن حدث وصول صلاح الدين إلى السلطة أمراً عابراً، فهو لم يتم اختياره بحكم قرابته من أسد الدين شيركوه فقط ولكن لأسباب معقدة أخرى، فقد كان الجيش الشامي في مصر يتألف من مجموعتين: واحدة عرفت باسم الأسدية، وكان قوامها (٥٠٠) مقاتل، والثانية ضمت بقية الجيش وعرفت بالنورية، وقد رأس الثانية عدد من القادة، وإثر وفاة شيركوه رشحت جماعة النورية عدداً من المرشحين لخلافته، في حين اتفقت كلمة الأسدية على ترشيح صلاح الدين، ولتصارع قادة النورية تهيأت فرصة النجاح أمام صلاح الدين، فنال منصب الوزارة، ثم قيادة الجيش مكان عمه، ورفض عدد من قادة النورية اختيار صلاح الدين، ولذلك لم تكن الأمور سهلة أمامه لدى وصوله إلى السلطة.

كان عليه أولاً أن ينال تأييد قادة الجند الشامي ثم ينطلق لمواجهة مشاكل مصر، وكانت كثيرة، يتصدرها قصر الخلافة والجيش الفاطمي، ثم كان عليه أن يجد صيغة للتعامل مع نور الدين، فقد ظهرت مطامح صلاح الدين الاستقلالية بشكل مبكر، وحَرَّضها الجهاز الذي تكون من حوله.

لقد كان على صلاح الدين أن يجد الحلول لجميع المشاكل ضمن ظروف صعبة جداً، ووسط التهديد الصليبي الدائم، ذلك أن الصليبين ما كانوا ليسلموا لخسارة مصر، بل على العكس من الملاحظ أن توجهاتهم صارت مصرية بالدرجة الأولى، وهذا ما نراه في أخبار الحملات الصليبية المقبلة.

وفي البداية تمكّن صلاح الدين من إرضاء غالبية قادة القوات النورية، والذي رَفَضَ تَرَكَ مصر وعاد إلى الشام، وبعد هذا التفت نحو قصر الخلافة، إذ عرف أن بعض كبار رجاله راسلوا ملك القدس ودعوه إلى مصر، وقد تمكن صلاح الدين في الوقت المناسب من ضبط أمور القصر، لكن هذا قاده إلى الصدام مع القوات السودانية في الجيش الفاطمي، وكان تعدادها أكثر من ثلاثين ألفاً، وكان يساندها الأرمن، وكان تعدادهم كبيراً.

تزعم القوات السودانية مؤتمن الخلافة، وهو نوبيّ خصيّ، كان رئيس بلاط قصر الخليفة، استاء من صلاح الدين لمّا علت مكانته، فدبر مؤامرة للتخلص منه، كما عمل على الاتصال بالصليبيين، لكن رسالته التي أرسلها لعموري وقعت بيد صلاح الدين، الذي رأى أن يقضي على أي محاولة تُعيد ألاعيب ضرغام وشاور، فتخلص منه في أواخر ٥٦٤هـ/ آب ١١٦٩م، ولما سمع الجند السوداني بذلك ثاروا في الفسطاط، فقضى عليهم صلاح الدين وعلى ثورتهم، وكذلك فعل بحرس الخليفة من الأرمن، وبذلك يكون قد قضى على عناصر الفوضى الداخلية، وبقي عليه التصدي للمخاطر الخارجية.

إنّ نجاح نور الدين في ضم مصر أقلق الصليبيين وأرعبهم، لذا قرر عموري الأول القيام بتحرك ضد مصر، فراسل ملوك أوروبا لهذا الأمر، فلم يجبه أحد، فجدد مراسلاته مع الإمبراطور البيزنطي الذي استجاب له وأرسل أسطوله إلى عكا حيث تقرر هناك بالاتفاق مع الصليبيين مهاجمة دمياط براً وبحراً، وتم ذلك في سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م، إذ هاجم الصليبيون دمياط براً، وحاصرها الأسطول بحراً، فقدم صلاح الدين لها النجدات، واعتنى بشؤون الدفاع عنها، وبعد حصار دام نحو شهرين وجد عموري أنه ليس فقط من العبث، بل

من الخطر الكبير البقاء في مصر، لذلك اتخذ قراراً بالانسحاب، وعاد إلى بلاد الشام ليجد نور الدين قد عبث ببلادهم ونهبها، حتى شبههم ابن الأثير بالنعامة التي خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين[١].

أخفق الصليبيون في مصر، وتحول صلاح الدين من الدفاع إلى الهجوم، ففي هذا الوقت كان سيده نور الدين قد دخل الموصل وأصبحت من أملاكه، وأصبحت الجبهة الإسلامية موحدة من الموصل إلى صعيد مصر، لكن سيطرة الصليبيين على الأردن ووادي عربة بما فيها حصون الكرك والشوبك، فضلاً عن آيلة على خليج العقبة، جعلت الاتصالات بين بلاد الشام ومصر صعبة، أو شبه مستحيلة، وكان على القائدين أن يعملا لفتح طريق المواصلات بينهم، فهاجم صلاح الدين غزة في أواخر سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، ولما أخفق في دخولها، توجه بحملة ثانية إلى آيلة، فتمكن من دخولها، واقتاد أفراد حاميتها أسرى إلى مصر[٢].

لا شك أن نجاح صلاح الدين في مواجهة مجمل هذه المشاكل، أظهر معدن الرجل، وجاء مؤشراً بالنسبة لمستقبل الأيام، ولعل هذا زاد من النزعات الاستقلالية لديه، وأدّى إلى توتر العلاقات بينه وبين نور الدين، وكان من ثمَّ محرضاً لصلاح الدين للقيام بتمتين مركزه في مصر بالذات، ثم القيام بالاستيلاء على أراضي ليبيا، وقد قاده هذا إلى الاصطدام بسلطات الإمبراطورية الموحدية في تونس، مما كان له بعض الأثر في سياسة الموحدين في المغرب، ثم رفضهم التعاون مع صلاح الدين ضد الصليبيين فيما بعد.

---

(١) الباهر، ص١٤٤.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ١/ ١٩٩.

واهتم صلاح الدين بالبحر الأحمر، فسعى للسيطرة عليه وعلى شواطئه، ذلك أن مصر الفاطمية كانت تمتلك أسطولاً خاصاً، والاهتمام بالبحر الأحمر جرّ صلاح الدين إلى الاهتمام بشبه جزيرة العرب، إذ أرسل حملة إلى اليمن فاحتلتها كما أخذ يهتم بالحجاز، ومدينتيه المقدستين: مكة والمدينة، ولمّا شعر صلاح الدين بمتانة مركزه أقدم على خطوة سياسية جريئة جداً، وهي إلغاء الخلافة الفاطمية، فقد أمر الخطباء في أول جمعة من محرم سنة سبع وستين وخمسمائة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي واستبدالها للخليفة العباسي، وألحق عمله هذا بجرد محتويات قصر الخلافة في القاهرة وبيعها وتصفية جميع ممتلكات الأسرة الفاطمية وأسبابها[١].

- توطيد حكم صلاح الدين في مصر:

إن مجمل الأحداث التي مرت بصلاح الدين منذ وفاة عمه حتى تاريخ إلغائه للخلافة الفاطمية فيه ما يبرهن على عبقريته، وفيه في الوقت نفسه ما يشير إلى أنه ملك من الإمكانات، الإدارية والعسكرية والاقتصادية ما ساعده على النجاح.

فعلى الصعيد الإداري ورث صلاح الدين من عمه، إدارة خاصة ناشئة ترأسها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن البيساني، وكانت قدراته الإدارية والثقافية عالية، وله خبرة مسبقة بالإدارة الفاطمية لمصر، وقد رافق القاضي الفاضل

---

(١) سنا البرق الشامي، ص٧٧ – ١١٥٠. الروضتين، ٢/ ١٨٩. الباهر ٢٧٧ –٣٠١. مرآة الزمان: ١/ ٢٧٩.

صلاح الدين منذ بداية حياته السياسية في مصر، وظل معه رئيساً لإدارته حتى النهاية.

ولا شك أن وجود الإدارة الناجحة إلى جانب صلاح الدين ساعد على مواجهته للمشاكل العسكرية والمالية، فصلاح الدين ورث من عمه أفراد الحملة التي جاءت من الشام، وكان فيها نحو /٨٠٠٠/ مقاتل، لكن كما سلفت الإشارة انسحب جزء من أفراد هذه الحملة إلى الشام بعد تسلم صلاح الدين للوزارة، وجاء اعتماد صلاح الدين أساساً على الجماعة الأسدية التي كان عددها /٥٠٠/ مقاتل، وخلال أمد وجيز شكل صلاح الدين فرقة جديدة باتت تعرف باسم الصلاحية لا ندري تعدادها في البداية؛ إذ إن المصادر لم تأت لها على ذكر، إنما أشارت بعض المصادر إلى أن صلاح الدين أنفق سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩ على قواته الجديدة مبلغاً قدره (١,٤٨٧.٥٠٠) دينار، ومن خلال بعض النصوص يتبين لنا أن النفقة الإجمالية للمقاتل الواحد كانت قرابة (٤٢٥) ديناراً للعام الواحد، ومن خلال عملية حسابية بسيطة يمكن أن نقدّر أن عدد القوات التي جندها صلاح الدين سنة ولايته للوزارة في مصر كانت نحو (٣.٥٠٠)، ومع الأيام تضاعف عدد هؤلاء، ففي عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م كان تعداد قوات صلاح الدين النظامية من الفرسان حوالي (١٤.٠٠٠) وكانت نفقاتهم نحو (٤.٥) مليون دينار، إنما لم تقتصر قوات صلاح الدين على الفرسان النظاميين فحسب، فقد كان هناك بالإضافة لهم المتطوعة وفرسان القبائل العربية، ففي هذه السنة حين استعرض صلاح الدين فرسانه عرض أمامه من العربان الجذامين سبعة آلاف فارس.

لقد انحدر جلّ جند صلاح الدين من أصول إسلامية مختلفة، أو كانوا من الرقيق الأبيض المستورد، وكان الجميع قد استعربوا وذابوا في جسم المجتمع العربي، هذا المجتمع الذي تحمل أفراده الوزر الحقيقي والنفقات الكاملة للحروب الصليبية، فمنه جاء رجال الإدارة، والصناعة، والعلماء، والفقهاء، والمخترعون، والتجار، وأفراد هذا المجتمع قدموا أعداداً كبيرةً جداً من المتطوعين العسكريين وضح أثرهم في أكثر من معركة، ويمكن أن نرى نماذج منها في أخبار تحرير الرُّها، وفي معركة حطين، ثم ملحمة عكا أثناء التصدي لما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، وفوق هذا كله لقد موّل أفراد المجتمع جميع نفقات حروب التحرير، وأفراد هذا المجتمع هم الذين حولوا بنية «الاقتصاد العربي» إلى «اقتصاد حربي» مسخر كلياً للتصدي والتحرير.

ولا بد أن المؤسسة العسكرية التي أقامها صلاح الدين بحجمها الكبير المتزايد احتاجت إلى نفقات مالية عالية، ومؤكد أن موارد مصر وإمكاناتها كانت كبيرة، وإنما لما تسلمها صلاح الدين كانت البلاد لما مرّ بها من أزمات، خزانتها على حافة الإفلاس، ويروى أن صلاح الدين لما تسلم وزارة القاهرة، ورث عن عمه مبلغاً لا بأس به من المال، ثم إنه لما قام بإلغاء الخلافة الفاطمية كانت الأموال المحصلة من محتويات قصر الخلافة ضخمة، وإلغاء هذه الخلافة مع تصفية جيوشها وإدارتها مكن من توفير كميات مفيدة من الأموال، يضاف إلى هذا كله أن صلاح الدين قد قام ببعض الإصلاحات الإدارية، وأعاد توزيع الأراضي المقطعة، وهكذا توفرت له احتياجات نفقاته.

وعلى الرغم من جميع ما حقّقه صلاح الدين في مصر، فقد كان من الناحية الرسمية تابعاً لنور الدين، لذلك كان عليه أن يبعث بالأموال إليه مساهمةً

في أعمال الجهاد التي كان نور الدين قائماً بها، وإرسال الأموال لنور الدين كان معناه تعطيل مشاريع صلاح الدين في مصر، لذلك تذمّر نور الدين سنة ٥٦٨/ ١١٧٢م من قلة ما أرسله له صلاح الدين، وقرر إرسال وزيره الخاص إلى القاهرة لإجراء جرد حساب لواردات مصر المالية ونفقاتها، ومن ثم يقرر على ضوء ذلك ما يجب على صلاح الدين حمله للخزينة سنوياً [١].

وقد أدى هذا كله إلى توتر العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين، ووصل التوتر الذروة في العام نفسه (٥٦٧هـ/ ١١٧٢م) ذلك أن نور الدين قرر القيام بحملة حاسمة ضد صليبيي الشام «فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرز صلاح الدين من القاهرة... وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك رحل عن دمشق قاصداً الكرك، فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه لاختلال وضع البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها، فلم يقبل نور الدين عذره.

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدين، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر، وإخراج صلاح الدين عنها»[٢]، فبلغ الخبر صلاح الدين، فعقد مجلس

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٢/ ٢٣٧.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ٢/ ٢٢٧.

استشارة ضم أهله وعلى رأسهم والده مع كبار أعوانه، وبعد مناقشات طويلة نُصح صلاح الدين بالعمل على استرضاء نور الدين ومدافعته بالأيام، وبالفعل أرسل صلاح الدين إلى نور الدين رسالة اعتذار مع هدية كبيرة، فسكن غضب نور الدين، إنما مؤقتاً، وظلَّ الحال بينهما هدنة على دخن، فقد بقي في نية نور الدين عزل صلاح الدين عندما تحين الفرصة، ولكن هذه الفرصة لم تحن ذلك أنه توفي فجأةً في دمشق يوم الأربعاء ١١ شوال ٥٦٩هـ/١٥ أيار ١١٧٤م.

وقبل الدخول في تفاصيل الأحداث التي تلت وفاة نور الدين محمود، من المفيد الإشارة إلى مؤامرة ضخمة واجهها صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، وضمت أطرافاً عدة، فسقوط الخلافة الفاطمية لم يمر دون محاولات إعادة إحياء، وتمثل هذه المرة بمؤامرة دبرها بقايا زعماء الخلافة الفاطمية، وعلى رأسهم الشاعر عمارة اليمني، وداعي الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل، وغيرهما...، كما وقف إلى جانبهم بقايا الجند السوداني وخدم القصر الفاطمي[١].

استهدفت المؤامرة قتل صلاح الدين، والتخلص من حكمه، وإعادة بناء الخلافة الفاطمية، فعينوا أعضاء الجهاز الحكومي الجديد مع الخليفة والوزير، وتقاسموا الإدارة والأملاك[٢]، ولإنجاح خطتهم تطلَّب الأمر مساعدة خارجية، فتم الاتصال والتنسيق مع عموري الأول ملك مملكة القدس اللاتينية، ووليم الثاني أمير صقلية، ومع حشيشية بلاد الشام، ووزعت الأدوار بأن يرسل الحشيشية من يغتال صلاح الدين[٣]، ويقوم عموري بهجوم بري على مصر، يترافق مع هجوم

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٥٣.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ٢٤٤ .
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ٢٤٩.

بحري يُنفذه وليم الثاني أمير صقلية، في حين يُشعل المتآمرون في الداخل ثورة تجعل صلاح الدين ودولته تقع بين نارين، واختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه أخي صلاح الدين مع جزء من جيشه في اليمن موعداً لتنفيذ مؤامرتهم.

ولحسن حظ صلاح الدين لم تتم المؤامرة، لأن المتآمرين كانوا قد أشركوا في سرهم الفقيه الواعظ زين الدين بن نجا، وكان هذا على اتصال دائم بصلاح الدين، فأطلعه على تفاصيل المؤامرة، كما أن عموري الأول أرسل قبيل تنفيذ المؤامرة رسولاً من عنده يحمل في ظاهر مهمته تحياته لصلاح الدين، ولكن في حقيقة مهمته كان عليه مقابلة المتآمرين لرسم الترتيبات الأخيرة قبل التنفيذ، وكان صلاح الدين قد راقبه عن طريق بعض أقباط مصر[١]، ولما اتضح له خداعهم قبض على المتآمرين وصلبهم[٢]، ثم أخمد ثورة قام بها الجند السوداني في قوص[٣]، ولما سمع عموري بذلك خاب أمله منها، ثم توفي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، في حين كان وليم الثاني قد جَهَّزَ أسطولاً مكوَّناً من ستمئة سفينة تحمل ما يقارب ثلاثين ألف رجل سيرهم إلى الإسكندرية، نجحت حملته في النزول على الشاطئ، وتدمير بعض السفن التجارية في ميناء الإسكندرية، ولما قدم صلاح الدين إلى الإسكندرية تمكن من إغراق بعض سفنهم والتصدي لهم، فأجبرهم على الرحيل[٤].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ١/ ٢٤٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٩١

(٣) المقريزي: السلوك ١/ ٥٧ – ٥٨. أبو شامة: الروضتين، ٢/ ٢٨٣.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ١١-١٦. ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٩١.

- **جهود صلاح الدين لإعادة الوحدة بعد وفاة نور الدين:**

واجه حادث وفاة نور الدين في دمشق صلاح الدين بقضية مماثلة من حيث الجوهر لتلك التي واجهته إثر وفاة عمه شيركوه في القاهرة، إنما وإن وجد الشبه في جوهر القضيتين، فإن الفوارق بينهما كانت شاسعة تفوق المسافة ما بين دمشق والقاهرة، فسورية سياسياً ليست مثل مصر، ليس بسبب وجود الاحتلال الصليبي فيها، ولكن لبنيتها الخاصة التي أوضحت في ما تقدم في مطلع المطلب الثالث.

والباحث في حياة نور الدين المتميزة يلحظ أن الذي واجهه من الجانب الصليبي كان عموري الأول ملك القدس، وكان عموري قائداً متميزاً أيضاً، له مطامح توسعية كبيرة، وقد أحبط مشاريعه كلها نور الدين، لذلك لما بلغه خبر وفاة نور الدين شعر بأن الأقدار أعطته فرصة ثمينة، فقرر الإمساك بها دونما تقاعس، فهاجم بانياس الجولان التي شكلت الخط الدفاعي الأول لدمشق، بحيث يبدو أن عموري استهدف مدينة دمشق فاصطدم أولاً ببانياس، وقاومته المدينة بعنف شديد، وبعد نحو الأسبوعين انسحب عائداً نحو القدس، وفي طريق العودة شعر بالمرض ومع وصوله للقدس فارق الحياة في ٩ ذي الحجة ٥٦٩هـ/١١ تموز ١١٧٤م[١]، أي بعد شهرين من وفاة نور الدين.

خَلَّفَ نور الدين صبياً صغيراً اسمه الصالح إسماعيل، وبسرعة كبيرة أعلن ابن نور الدين خليفة له في دمشق، إنما هذا التحرك السريع لا يمكن أخذه

---

(١) الباهر: ٣٠٨ - ٣٠٩. سنا البرق الشامي: ١/ ١٢٣ - ١٥٥. مرآة الزمان: ١٠/ ٢٩٢-٣٢٥، النجوم الزاهرة: ٦/ ٦٤ - ٧١، السلوك: ١/١/٤٨-٥٥.

Lane – Poole, 113 – 128, A History of the crusades, I, 564 – 567, Saladin, 81 – 116.

مؤشراً على الوفاق والانسجام بين أركان دولة نور الدين في دمشق، بل العكس هو الصحيح، فقد شهدت دمشق في تلك الآونة العصيبة صراعاً عنيفاً حول الوصاية على الصالح إسماعيل.

كان هناك أقطاب عديدة تدَّعي الوصاية على الصالح إسماعيل وتعمل باسمه، أشهرهم شمس الدين بن المقدم أحد أمراء نور الدين في دمشق، وشمس الدين علي بن الداية أبرز الأمراء النورية في حلب، ثم دخل على الخط سعد الدين كمشتكين نائب الموصل الذي فرّ إلى حلب، ثم سار إلى دمشق، فتمكن من نقل الصالح إسماعيل من دمشق إلى حلب على أنها المقر الرئيسي لدولة نور الدين، وبعد مدة تخلص كمشتكين هذا من ابن الداية، واستبد بأمور حلب والوصاية على الصالح اسماعيل[١].

كان صلاح الدين في القاهرة يراقب باهتمام ما كان يجري في بلاد الشام، وقد أخره عن التدخل المباشر في الشام الهجوم الذي قام به أسطول صقلية على الإسكندرية، وقد حاول التدخل بواسطة الرسل والمراسلة أكثر من مرة، وأخيراً قرر الذهاب إلى دمشق ووراثة دولة نور الدين خوفاً من بعثرة أراضيها وهدر طاقاتها، ولا سيما أنه تلقى دعوة من أمراء دمشق ليتسلم حكمها بنفسه[٢].

خرج صلاح الدين من مصر إلى دمشق على رأس سبعمئة فارس، فدخلها بترحابٍ من أهلها، وقد أعلن ولاءَه للصالح إسماعيل بن نور الدين، وأعلن أنه حضر لحماية الصالح ودولته من خطر الصليبيين، ومن دمشق قصد مدينة

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/ ٨ – ١٠. ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٤٠٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٤٠٥.

حمص في جمادى الأولى ٥٧٠هـ/ أيلول ١١٧٤م، ثم حماة في الشهر نفسه، ولم يأت آخر ذلك العام إلا **وهو على مشارف حلب**.

اختلف الوضع في حلب عن دمشق وحمص وحماة، فقد قاومت ورفضت الاستسلام لصلاح الدين، وكان على رأسها سعد الدين كمشتكين، فاتصل بالحشيشية واتفق معهم على اغتيال صلاح الدين[١]، كما اتصل بريموند الثالث أمير طرابلس[٢] يدعوه لمهاجمة صلاح الدين وتخليص حلب من الحصار، وفعلاً استجاب ريموند لدعوة حكام حلب، لأن دخول صلاح الدين لحلب يعني إعادة الوحدة، فهاجم حمص في رجب ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م، وأجبر صلاح الدين على فك حصار حلب للإنقاذ حمص[٣]، وقد اعترف كمشتكين للصليبيين بجميلهم، وأطلق سراح أسراهم الموجودين في حلب ومنهم أرناط (رينو دي شاتيو)، وجوسلين الثالث.

وفي العام التالي تصدى صلاح الدين لهجوم ساحق قاده أمراء الجزيرة، وديار بكر، والموصل، وحلب ضده، وأنزل بهم هزيمة ساحقة في شوال ٥٧١هـ/ نيسان ١١٧٦م، قرب تل السلطان على الطريق بين حلب وحماه[٤]،

---

(١) مفرج الكروب، ٢/ ٢٤.

(٢) أُسر ريموند الثالث وعدد من القادة مثل أرناط وجوسلين الثالث على يد نور الدين سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٢م، وبقوا أسرى في حلب حتى أطلق كمشتكين ريموند مقابل جزية سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، وبعد ذلك أطلق سراح الباقي. مفرج الكروب، ٢٤/٢. الكامل، ٤٠٨/٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ١/ ٥٩. ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٤٠٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ٢/ ٢٥، ٢٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ٢/ ٣٦-٤٠، ٤٢-٤٣. ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٤١٥-٤١٧. المقريزي: السلوك ١/ ٦١.

وأتبع نصره هذا باستيلائه على بزاعا، ومنبج، وعزاز، **ثم حاصر حلب مرة أخرى وأخفق في دخولها.**

وأثناء حصاره لمدينة عزاز حاول الحشيشية اغتياله في معسكره، وتمكن أحدهم من جرحه، لكنه نجا إذ لم تكن الطعنة قاتلة[١]، ولما أراد صلاح الدين الانتقام من الباطنية الحشيشية في مقرهم بمدينة مصياف، منعه خاله شهاب الدين حاكم حماه وتوسط لهم عنده.

وقبل عودة صلاح الدين إلى القاهرة في نهاية عام ١١٧٦م تزوج عصمة الدين خاتون أرملة نور الدين محمود، وفي مصر قام صلاح الدين بكثير من التحصينات القوية للدفاع عن مصر والقاهرة بوجه خاص، ومن ذلك أنه شرع ببناء سور كبير حول القاهرة، وبناء قلعة الجبل، كما تفقد تحصينات الإسكندرية، ثم أخذ يهاجم جنوب مملكة القدس، مثل الداروم وغزة، كما حاصر بلدوين الرابع ملك القدس في عسقلان، ثم أحرق الرملة، وهاجم اللد، لكنه تعرّض لهزيمة ساحقة عند تل الصافية من قبل بلدوين الرابع الذي تمكن من الخروج من عسقلان، ونجا صلاح الدين بصعوبة من تل الصافية[٢].

في سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م توفي سيف الدين غازي أتابك الموصل، ثم لحق به الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود أتابك حلب، وآل حكم الموصل وحلب لعز الدين مسعود الأول أخي سيف الدين غازي، ومِنْ ثم تألفت جبهة زنكية ضمت حلب والموصل ضد صلاح الدين في جنوب بلاد الشام ومصر، وخلال هذه المدة لم تتوقف حروب صلاح الدين ضد الصليبيين، لكن الوحدة الزنكية لم

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٤٤/٢. ابن الأثير: الكامل، ٤١٧/٩. المقريزي: السلوك ١/ ٦١.
(٢) الكامل، ٩/ ٤٢٨. مفرج الكروب ٢/ ٤٤. السلوك ١/ ٦٤.

تستمر طويلاً إذ آل حكم حلب لعماد الدين زنكي الثاني سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، لكن عماد الدين هذا لم تتوفر لديه صفات الشجاعة، ولما حاصره صلاح الدين خاف على نفسه، فعرض عليه حلب مقابل سنجار، فأعطاه صلاح الدين سنجار وزاده الخابور، ونصيبين، والرقة، وسروج، ودخل صلاح الدين حلب صفر ٥٧٩هـ/ حزيران ١١٨٣م.(١)

- دولة صلاح الدين :

وبذلك أعيدت الوحدة لبلاد الشام مع مصر تحت زعامة واحدة تمثلت بصلاح الدين، وعلى قول وليم الصوري كان ذلك أسوأ حدث ممكن أن يحدث للصليبيين، أما الموصل فسيتم فيما بعد توقيع صلح سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م مع حاكمها عز الدين، وتصبح تابعة لصلاح الدين.

ومهما قيل عن حروب صلاح الدين في بلاد الشام عقب وفاة نور الدين، فإن هذه الحروب قد حسمت مادة الفوضى في البلاد وحالت في الوقت نفسه بين الصليبيين وبين أي توسع في الشام أو سواها، أو الاستفادة بأي شكل أو درجة من الأوضاع التي كانت سائدة قبل النصر النهائي له، ولما حقق صلاح الدين سيادته الكاملة على الشام صار سيداً لدولة عظمى تمتد من ليبيا إلى جنوب الموصل، وتشمل مع بلاد الشام: الجزيرة ومصر والحجاز واليمن وطبعاً ليبيا أو الشريط الساحلي منها.

ولقد ملكت هذه الدولة ما يكفي من طاقات بشرية واقتصادية للإعداد للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين، وأيقن صلاح الدين أنه قد حان الوقت لمنازلة جميع

---

(١) مفرج الكروب، ٢/ ١٤٢. ابن الأثير، الكامل، ٩/ ٤٧٢.

القوى الصليبية في المشرق في أرض معترك واحد، وفي ظروف مختارة بشكل يناسب ويمكن من النصر، وخلال زمن موافق، يتيح إحراز نصر ساحق ضد القوات المعادية.

ويلحظ أن هذه الحقبة قد شهدت يقظة كبيرة في جميع الميادين الحضارية، تجلت بشكل واضح في مجالات العلوم العسكرية وفنون القتال، فقد تمَّ تحسين عدد كبير من الأسلحة، ولا سيَّما النارية منها (النفط، النار الإغريقية) ومن حيث رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية الهجومية لدى قوات صلاح الدين، كما أن دولة صلاح الدين ملكت اقتصاداً عسكرياً متيناً، فعلى الرغم من جميع المآخذ على الإقطاع العسكري كان اعتماده من معانيه تسخير الموارد الزراعية لصالح العمل العسكري، هذا وملك صلاح الدين نواة أسطول أدّت سفنه بعض الخدمات، إنما على العموم عانت دولة صلاح الدين النقص في الأخشاب والفولاذ، ونتيجة لذلك كثيراً ما اضطرت إلى الاعتماد على تجارة التهريب - السوق السوداء - التي كانت تمارسها بعض جمهوريات إيطالية التجارية مثل جنوا، والبندقية، وبيزا.

وكان الصليبيون يمتلكون آنئذ الشريط الساحلي لبلاد الشام ابتداءً من أنطاكية، وكان عرض هذا الشريط لا يتجاوز أحياناً الثمانين كيلو متراً، وكانت أراضيهم موزعة بين دول ثلاث مراكزها: أنطاكية، والقدس، وطرابلس، وكانت هذه الأراضي محاطة من ثلاث جهات بالأراضي العربية، حيث وجدت مدن بلاد الشام الكبرى مثل: دمشق، حمص، حماه، بعلبك، حلب، وكانت هذه المدن واقعة على مقربة من «الحدود الصليبية» كما كان معظم سكان المناطق الواقعة في

حوزة الصليبيين من العرب السوريين، علاقتهم بالصليبين علاقة الغرباء، دون أيَّ روابط اجتماعية أو سواها.

وقامت خطط صلاح الدين في رصد الصليبيين رصداً جماعياً وإفرادياً، فهو قد استقر في دمشق، وأقام في كل من حمص وحماه نواة مملكة إقطاعية أيوبية، وكان على هاتين المملكتين رصد إمارة طرابلس الصليبية، كما جعل من حلب مقراً لمملكة أيوبية ثالثة مهمتها رصد إمارة أنطاكية الصليبية مع الإمبراطورية البيزنطية، وكانت مهمة صلاح الدين ذات شقين على الأقل، رصد مملكة القدس، والإشراف العام على دولته التي بلغت هذا الحجم الإمبراطوري.

وكانت المساعدات البشرية، والحربية، والاقتصادية ترد إلى الصليبيين من أوروبا بلا انقطاع عن طريق الأراضي البيزنطية وعن طريق البحر، فقد كانت الأساطيل الأوروبية تملك السيادة على شواطئ البحر المتوسط ولا سيَّما الأوروبية والشرقية، وكانت إمكانات صلاح الدين البحرية أضعف من أن تخوض معركة مواجهة مع هذه الأساطيل.

لكن إذا كان أسطول صلاح الدين أضعف من أساطيل أوروبا فقد ملك عرب المغرب أساطيل جبارة، وكان بإمكانها لو تعاونت مع أسطول صلاح الدين أن تقدم خدمات كبيرة جداً، فلقد كان هناك أسطول دولة الموحدين، وكان الموحدون يخوضون غمار حربٍ ضروس ضد الصليبيين في جبهة الأندلس.

وبفطرة الشعور بوحدة المصير، ووحدة المعركة، وجد آنذاك مواطنون عرب من مدن الغرب والشرق كان بعضهم يغزو عاماً في فلسطين وآخر في الأندلس، من هذا المنطلق راسل صلاح الدين يعقوب المنصور الموحدي بسفارة سامية المستوى، واستقبل المنصور الموحدي السفارة في مراكش ببعض من

الحفاوة، لكنه لم يلبّ المطلب الذي جاءت من أجله السفارة، وذلك لأسباب عقديَّة، وسياسية تتعلق بالتوسع الأيوبي في ليبيا، وبالعلاقات الموحدية العباسية، ذلك أن الموحدين عدّوا أنفسهم خلفاء لا ملوك عاديين، لكن صلاح الدين لم يعترف بذلك، بل اعترف بخلافة بني العباس فقط.

واعتمد الصليبيون في كثير من الحالات على حماية الإمبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم، وكانت هذه الإمبراطورية القوية تسعى دائماً للتنسيق مع الصليبيين والاستفادة من نشاطهم، يضاف إلى هذا أن الصليبيين ركنوا في كثير من الأحيان إلى المساعدات التي كانت تأتيهم من إرمينية، وأحياناً من بعض موارنة جبل لبنان.

ومفيد هنا أن نتذكر أن الصليبيين حققوا نجاحاتهم المبكرة بسبب تمزق العرب، وانصراف حكامهم إلى النزاعات الداخلية، لكن في أيام صلاح الدين انعكست الآية، وانقلب السحر على الساحر، فلقد توحد القطاع الأكبر من العرب تحت راية صلاح الدين، وأخذت الفرقة تحل بين صفوف الصليبيين اجتماعياً وحضارياً واقتصادياً، كما أخذ التمزق يبدد قوى قادتهم سياسياً، وكانت الروح المتوقدة التي ظهرت بين صفوف طلائع الصليبيين قد خمدت، كما أن الفوارق بدت جلية بين أبناء الصليبيين الذين نشؤوا في الشام، وبين هؤلاء الذين قدموا حديثاً من أوروبا، وظهر بين صفوف الصليبيين عامة منظمات عسكرية دينية اصطدمت مصالحها في كثير من الأحيان، وتعارضت سياساتها.

كما جلب الصليبيون معهم إلى الشام نظم الإقطاع التي كانت سائدة في أوروبا، لهذا تضاءلت سلطات ملوك الدول الصليبية على الفرسان الإقطاعيين الذين تمركزوا في بعض قلاع الشام، ولم تعرف جيوش الصليبيين أنظمة الطاعة

والضبط والربط، يضاف إلى هذا أن بعضاً من الإقطاعيين تطلع نحو عرش إحدى الدول الثلاث وحكمه حكماً مباشراً، أو على شكل وصاية.

وقام صلاح الدين في كثير من المناسبات، وببراعة متناهية بتوسيع شقة الخلافات بين قادة الصليبيين، كما كثّف النشاط العسكري ضد القلاع، مستهدفاً تدمير الصليبيين اقتصادياً، ليكون ذلك مقدمة للتدمير العسكري والسياسي، وتركزت في البداية جهوده على حماية منطقة دمشق، وذلك بتحرير أراضي الجولان، مع منطقة جبل عاملة وبعلبك، ثم الإشراف على الطريق البري الواصل بين مصر والشام، وكان للصليبيين على هذا الطريق حصن الكرك، فجهد صلاح الدين في سبيل الاستيلاء عليه[١].

لقد شهد وليم الصوري جميع هذه الأحوال المتغيرة، وتملّكه رعب شديد دفعه إلى التنبؤ بأن مملكة القدس آيلة إلى الدمار، وقد قام هذا المؤرخ الكبير بوصف تحليلي للموقف مفيد الاطلاع عليه برمته: «ينبغي عليّ هنا أن أنحرف عن مسار روايتي، ليس لأتجول هنا وهناك دونما هدف، بل لتقديم شيء ثمين، فالسؤال الذي أسأله دائماً بحق هو: لماذا كان أجدادنا، يتمكنون بشجاعة من التصدي في المعركة، وهم أقل عدداً لقوات عَدُوَّة أكبر منهم بكثير، غالباً – بنعمة الله – ما كانت قوة صغيرة من قواتنا تحطم حشوداً كبيرة للعدو، حتى صار نتيجة لهذا اسم الصليبيين يبعث الرعب في قلوب الأمم التي لا تعرف الرب، وهكذا تجلّت عظمة الرب في أعمال أجدادنا، وعلى العكس من هذا نجد رجال

---

(١) سنا البرق الشامي: ١٥٥ – ٣٥٩، الباهر: ١٧٦ – ١٨٤. زبدة الحلب: ١٦/ ١٨٤ – ١٩٧، مرآة الزمان: ١/ ٣٢٦ – ٣٨٨، شفاء القلوب: ٨٤ – ١٠٩، النجوم الزاهرة: ٦/ ٧٣ – ١٠٤، السلوك: ١/١/ ٨٥ – ٩٢.

Lane Poole, 131 – 174, Saladin, 117 – 193, A history of the crusades, 581 – 584.

عصرنا غالباً ما تلحق بهم الهزيمة من قوات أصغر منهم لا بل عندما يكونون بأعداد أكبر ويحاولون تنفيذ بعض المهام ضد الأعداد الأقل قوة منهم، فإن جهودهم تتبدد وهم غالباً ما يجبرون على الهزيمة.

إن السبب الأول الذي يبرز أمامنا، بعد دراستنا لهذه الحالة بشكل دقيق، بمعونة الرب خالق كل شيء: هو أن أجدادنا كانوا أتقياء يخشون الرب، لكن نما الآن في مكانهم جيل شرير انغمس بالإثم، وسار في طريق الموبقات دونما رعاية أو تمييز، إنهم مثل، أو بالحري أكثر، ممن قال عنهم الرب: (ابتعدوا عنا، لأننا لا نريد أن نعرف طريقهم)، إن هؤلاء قد حرمهم الرب بسبب ذنوبهم من رعايته لأنهم أثاروا غضبه، إنهم رجال العصر الحالي، ولا سيَّما أولئك الذين يقطنون في الشرق، فإذا ما أراد المرء أن يصف بدقة أخلاقهم، أو بالحري آثامهم المرعبة، سيعجز أمام ركام المواد المتوفرة أمامه، وبكلمة موجزة هو سيبدو وكأنه يكتب عن الموبوقات وليس يصنّف كتاباً في التاريخ.

وسبب ثان يبرز أمامنا هو أن رجال السلف المبجّلين الذين جاؤوا إلى أراضي المشرق كانت تدفعهم غيرتهم الدينية وأرواحهم المتوقدة بالحماسة لمعتقدهم، وكانوا معتادين الأنظمة العسكرية، مدربين في المعارك ويحسنون استخدام الأسلحة، وفي المقابل كانت شعوب الشرق على عكس ذلك، إذ إنها عاشت طويلاً وادعة مع السلم، وابتعدت عن الحرب، وكانت غير معتادة فنون القتال، ولا تعرف أحكام المعركة، وتنعم بالهدوء والراحة، ولهذا لم يكن مستغرباً أن تتمكن جماعة قليلة من الرجال بسهولة من هزيمة جماعات أكبر منها، ومن ثم تفخر وتعتز برايات النصر، لأن في مثل هذه المسائل - كما يعرف خبراء

الحرب أحسن مني – الربح في السلاح مقرون بطول الممارسة، فحين تواجه قوة غير مدربة، وليس لديها صبر فأنت في العادة الرابح.

وسبب ثالث ليس أقل أهمية وتأثيراً يفرض نفسه على مداركي هو أنه كان لكل مدينة شرقية فيما مضى حاكمها الخاص، ولنقل على طريقة أرسطو لم يكن هؤلاء يعتمدون على بعضهم بعضاً، ونادراً ما تحركوا بالاتجاه نفسه، بل غالباً ما ساروا في الاتجاهات المتعاكسة، ومن المقرر أنك إن تكافح في المعركة ضد خصوم، هم على خلاف دائم ولهم أفكار متصارعة، خصوم لا يثق بعضهم ببعض فهؤلاء لن ينجم عنهم أي خطب، لأن كلاً منهم يخشى من حلفائه أكثر من خشيته من الصليبيين، ولذلك فإنهم لن يستطيعوا، أو بالحري هم ليسوا على استعداد لأن يتحدوا في سبيل طرد الخطر العام، أو يسلّحوا أنفسهم لتدميرنا.

لكن الآن، – وهذه مشيئة الرب – جميع الممالك المجاورة لنا أصبحت تحت قيادة واحدة.

وهكذا كما سلف القول، جميع الممالك حولنا تطيع حاكماً واحداً، وينفِّذون إرادة رجل واحد، ويلتزمون أوامره طوعاً وكرهاً، وهم جاهزون، كقوة واحدة لحمل السلاح لقتالنا، وما من أحد منهم يمكنه التورط بعمل يخدم به ذاته، وفيه مخالفة أو عدم مراعاة لأوامر سيده، وهذا السيد هو صلاح الدين الذي أشرنا إليه مراراً من قبل وفي مناسبات عدة... فهو الذي يضع هذه الممالك تحت إمرته... والآن إنني أعتقد أن هناك حاجة ملحّة لأن نبذل كل جهد ممكن لمواجهة هذا الرجل العظيم، والتصدي له في تقدمه السريع وفي انتصاراته المتوالية، التي ستوصله حتماً إلى أوج طموحاته، فالشعور العام أنه كلما ازداد قوة بَرْهَنَ على أنه عدو مرعب لنا».

المقالـة الثانيـة

معركـة حطـين

- توطئة :

كان صلاح الدين بعدما استقر في دمشق أنهى مرحلة التحرير الحلبية، وافتتح المرحلة الثالثة وهي مرحلة دمشق، وهذه المرحلة هي أهم مراحل طور التحرير وأفضلها ثماراً، فيها تقرر مصير مشروع الحروب الصليبية، والوجود الصليبي في المشرق، ومردّ هذا إلى قيام معركة حطين خلال هذه المرحلة، وإثر حطين تحررت – كما سنرى – القدس وجل الأراضي المحتلة، ولأهمية معركة حطين سنقف عند أخبارها بشيء من التفاصيل والاهتمام.

حظيت معركة حطين بمكانة لم تحظ بها سواها، ولا يمكننا فهم خلفيات هذه المعركة من الجانب العسكري فقط، وبالأهمية نفسها إلا إذا درسنا الحالة السياسية داخل إمارات الصليبيين بشكل عام، ومملكة القدس بشكل خاص، والتركيز على الجوانب التي أثّر بها الوضع السياسي والإدارة السياسية على هذه المعركة الحاسمة.

فمن المقرر أن الحرب هي في البداية قرار سياسي، وكذلك في النهاية هي استثمار سياسي ودبلوماسي وعسكري، فعلى رأس المشكلات التي تثيرها الحرب تأتي مسائل استيعاب نتائج الموقعة الحربية من نصر أو هزيمة، فالقيادة السياسية

هي وحدها التي يقع على عاتقها مسؤولية استثمار النصر العسكري ضمن الخطط العامة لقرار الحرب، وضمن المعطيات الجديدة، بحيث يتحول النصر إلى إنجاز له صفة الديمومة أو القدرة على الاستمرار.

نضيف إلى هذا الترابط والتنسيق بين القيادة السياسية والقيادات العسكرية، تأمين المساندة الشعبية للحروب التي تخوضها الجيوش، ذلك أن أي جيش يدخل الحرب بلا ظهير شعبي لا بد أن يخسر، وهذا يسهل علينا فهم ما حدث في حطين، فالصليبيون كانوا غرباء في الشام، عبارة عن أعضاء مؤسسة عسكرية بلا ظهير شعبي، وعلى الرغم من سمتها العسكرية البحتة، فإن الترابط والتنسيق بين السياسيين والعسكريين كان منعدماً.

- الجبهة الإسلامية :

رأينا من قبل أن صلاح الدين حسم الصراع الذي حصل في بلاد الشام بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م، وتمكن من إعادة الوحدة لمصر وبلاد الشام سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، بعد محاولات ومعارك عديدة أمام أسوار حلب، ولم يبق خارج سلطانه من أملاك سيده نور الدين سوى الموصل التي تحصن بها عز الدين مسعود ابن أخي نور الدين محمود، وكان صلاح الدين قد فرض عليها حصاراً سنة٥٧٩هـ/١١٨٣م قبل دخوله حلب فلم يتمكن من دخولها، ثم أعاد الكرة سنة٥٨١هـ/١١٨٥م.

ويروى أنه أصيب أثناء مسعاه هذا في تشرين الأول لسنة ١١٨٥م بمرض عضال، حتى يئس من حياته، ولما وقف بين الحياة والموت، رأى أن مصير المملكة اللاتينية معلق بالميزان، ورأى ببصيرته كحاكم شرقي، أن موته كان

معناه، بلا شك انعدام الوحدة بين صفوف المسلمين، والعودة إلى حياة الفوضى، حتى تتأتى فرصة جديدة لقيام حاكم قوي جديد، وكان هذا في أبسط معانيه حياة جديدة منحت للقوى اللاتينية في سورية، وفرصة لا تعوض لحل مشاكل مملكة القدس، والعودة إلى الاتحاد، لكن القدر قرر العكس، وبعدت المنية عن صلاح الدين، وبدأ الرجل العظيم يتعافى، وفي نهاية سنة ٥٨١هـ/ آذار ١١٨٦م أبرم معاهدة جديدة مع أتابكة الموصل، بقي بموجب بنودها الأمير عز الدين أميراً للموصل وسيداً لأعالي بلاد الرافدين، إنما مع الاعتراف بسيادة صلاح الدين والدعوة له[١]، وفي محرم ٥٨٢هـ/ نيسان ١١٨٦م استعاد صلاح الدين عافيته تماماً، وعاد إلى حلب، ثم توجه في أيار إلى دمشق، وقد جاءت أفراح الشعب واحتفالاته في هاتين المدينتين تعبيراً عن قلق الشعب العربي في الشام على قضيته، وعلى مدى التعلق بصلاح الدين واتساع شعبيته.

أما والآن، وقد ردّ الله عليه عافيته، وهو حاكم مصر، واليمن وليبيا، وأجزاء من شبه الجزيرة العربية، وسيد الشام بعاصمتيه: دمشق وحلب، وسيد الجزيرة والموصل، فقد بقي لهذا السلطان المتدين مطمح واحد، وهو مطمح كل مسلم، في تحرير الأرض في الساحل والداخل من الصليبيين، وكان هذا بالنسبة له جهاداً في سبيل الله، وطبعاً كانت القدس بالنسبة له ولجميع المسلمين هي الهدف، فمنذ أيام نور الدين وضعت الخطط لتحرير المسجد الأقصى، وتمَّ إعداد المنبر لتُخطب عليه خطبة التحرير الأولى.

والمستعرض لأخبار وقائع الحروب الصليبية يشهد أن المسلمين قد قاتلوا دائماً بحماس وغيرة دينية كبيرة، وهذه المعركة لن تكون مستثناة، بل على

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٢/ ١٧٢.

العكس، فهم نادراً ما قادهم رجل مثل صلاح الدين، كان متميزاً بتقواه وعدله واستقامته، كتميزه في القيادة وفي فنون الحرب والإدارة والسياسة، ولهذا كان رجلاً محبوباً من قبل شعبه إلى درجة التقديس، ولقد قيل إن مرض صلاح الدين قد ملأه بشعور عميق بأن ما قام به حتى ذلك الحين من خوض للحروب الداخلية قد تجاوز الحد، وأن الله تعالى قد أنذره بهذا المرض وذكّره بأن واجبه هو طرد اللاتين من بلاد الشام، ورجل مثل صلاح الدين مشهور بتقواه لا بد أنه قد شعر بضرورة الإسراع بالهجوم من أجل التحرير، ومهما يكن الحال فإنه لا بد وقد غضب غضباً شديداً جداً عندما علم بهجوم أرناط صاحب الكرك على القافلة المسلمة في أوائل سنة ١١٨٧م.

يقع حصن الكرك على مقربة من البحر الميت، على الطريق الواصلة بين مصر والشام ويتحكم بها، وكان صاحب الكرك فارساً صليبياً متعصباً جداً، فيه عجرفة ورعونة شديدتان، اسمه رينو دي شاتيو، وقد عرفه العرب باسم أرناط، وفي سنة ٥٨٢هـ/١١٨٧م، هاجم أرناط هذا قافلة مسلمة كانت قادمة من القاهرة إلى دمشق، فانتهب ثرواتها، وأسر الذين كانوا فيها، وفي مواجهة هذا الحادث تذرَّع صلاح الدين في البداية بالحلم والصبر، فأرسل وفداً إلى أرناط يطلب إليه إطلاق سراح الأسرى، وردّ المنهوبات، فرفض أرناط بكل وقاحة وتحدٍّ، وهنا أرسل صلاح الدين مبعوثاً إلى ملك القدس، فلم يستطع هذا فعل شيء، وعلى هذا الحال عدّ صلاح الدين الهدنة بينه وبين الصليبيين لاغية، فاستنفر قوته، وقرر الزحف على رأس عساكره، الزحف الذي قاده إلى حطين.

- **الجبهة الصليبية :**

بعد تحرير الرُّها انحسرت أملاك الصليبيين في بلاد الشام على الساحل الشامي من أنطاكية إلى غزة في عرض لا يزيد في أحسن الحالات على ٨٠ كيلو متراً، وتقاسمت هذه الأراضي ثلاثة كيانات صليبية، أنطاكية في الشمال، وطرابلس في الوسط، والقدس في الجنوب، وفي القدس كان النظام المُتبع نظاماً ملكياً حسب النُّظم الإقطاعية الأوربية، وكان لها نوع من الوصاية على إمارتي طرابلس وأنطاكية.

تزامن حكم نور الدين محمود في الشام مع حكم عموري الأول في مملكة القدس اللاتينية، وتسابق الاثنان للسيطرة على مصر، ففاز الأول، وتوفيا في زمن متقارب، وواجهت دولتهما المصير نفسه، فنور الدين، كما عموري، خلف ولداً صغيراً، فدب التنافس بين القادة للاستئثار بالحكم باسم الصبي.

لكن كما ذكرنا سالفاً، توفر على الجانب الإسلامي شخصية قيادية فذة حسمت الصراع وأعادت الوحدة لدولة نور الدين من الموصل حتى صعيد مصر، هذه الشخصية هي صلاح الدين الأيوبي، وتعرض الصليبيون لأوضاع مشابهة من الفوضى والصراع مع اختلاف جوهري هو عدم توفر شخصية مشابهة لصلاح الدين، لذلك غرقت مملكة القدس اللاتينية بمستنقع التحزبات والصراعات الداخلية السلطوية، وإليك صورة عن أوضاع المملكة قُبيل حطين.

توفي عموري الأول سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، وقد شهدت المملكة اللاتينية في عهده أوج مشاريعها التوسعية، فخلفه ولدٌ صغيرٌ لم يبلغ الحلم اسمه بلدوين الرابع، ولأنه مصاب بمرض الجذام عُرف في التاريخ باسم بلدوين المجذوم،

وبسبب صغر سنه عُين له وصي هو ميلون دي بلانسي صديق والده وحاكم منطقة الأردن وقلعة الكرك.

لم تنل هذه الوصاية رضا غالبية القادة الصليبيين، وتمكن ريموند الثالث أمير طرابلس بعد منافسة من إزاحة ميلون وتولي الوصاية بنفسه.

كان ريموند هذا أميراً لطرابلس، وقد وقع في أسر نور الدين محمود سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م قرب حارم وعمره آنذاك نحو عشرين عاماً، وبقي في أسر نور الدين بحلب أكثر من عشر سنوات، ثم أطلق سراحه كمشتكين بعد وفاة نور الدين مقابل فدية سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، وخلال مدة أسره كان عموري الأول وصياً على إمارته، وبحكم قرابة ريموند من الطفل بلدوين الرابع، ثم لوقوف النبلاء ورجال الكنيسة إلى جانبه عُين وصياً عليه بعد أن جرى اغتيال ميلون الوصي الأول، ثم حكم ريموند هذا طبرية، وإقليم الجليل بعد أن تزوج وريثتهما الأميرة إشيفا Eschiva، وبذلك غدا من أبرز الشخصيات الصليبية في المشرق الإسلامي، ولما قضى شطراً من عمره في سجن حلب تعلم شيئاً من العربية والدين الإسلامي وحضارته، ثم مثّلَ جيلاً من الصليبيين الذين ولدوا في بلاد الشام وتأثروا بحضارتها، فعرفوا بالبلديين.

وبعد إطلاق سراح ريموند الثالث أُطلق سراح أرناط، وجوسلين الثالث من أسريهما في حلب سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، وكانا قد أُسرا مع ريموند الثالث قرب حارم سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م فتزوج أرناط من أرملة مليون دي بلانسي، وباسمها أصبح حاكماً للأردن والكرك كونها الوريثة لهذه الأملاك، وقد مثَّل أرناط هذا (أو رينو دي شاتيون) جيلاً من الصليبيين الوافدين من أوربا، والذين حملوا معهم

صفات الرعونه والتعصب الديني مثل سيدهم، ولذا اصطدم أرناط وريموند الثالث في كل القضايا بسبب اختلاف الطرح والرؤيا.

كان إلى جانب بلدوين الرابع أختاه «سيبلا، وإيزابيلا»، وأمه الأرملة ماريا كومينين البيزنطية، في هذا الوقت تزوج أحد بارونات المملكة واسمه باليان دي إبلين ماريا أرملة عموري الأول، وسوف يؤدي هذا كما سنرى دوراً مهماً في حطين وتسليم القدس، أما سيبلا فقد تزوجها أمير اسمه وليم ذي السيف الطويل، وبعد زواجه بثلاثة أشهر توفي وامرأته حامل، ثم تزوجها شاب نبيل قدم من فرنسا اسمه غي لوزينان، وتزوج إيزابيلا همفري الثالث حاكم تبنين.

ولما اشتد المرض بالملك بلدوين الرابع عيّن ابن أخته سيبلا (من وليم) ملكاً على القدس باسم بلدوين الخامس، وعمره آنذاك خمس سنوات، وعهد لريموند الثالث برعاية شؤون المملكة إن أصابه مكروه.

توفي بلدوين الرابع سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، وبعد عام مات الملك الطفل في عكا، وهنا تفجرت المشاكل بقوة وأثَّرَت سلباً في معركة حطين.

- مشاكل المملكة اللاتينية في القدس قبيل معركة حطين:

وفي أثناء غياب ريموند الثالث الوصي على المملكة في طبرية، اجتمعت سيبلا بالبطريرك مع مقدمي الداوية والاسبتارية، وانضم إليها أرناط حاكم الكرك، وتم الاتفاق على تتويج سيبلا ملكة على القدس، فعارض ريموند الثالث لأنه على عداء مع غي زوج سيبلا، وأصرّ على تتويج ايزابيلا الأخت الأصغر، فتأزم الموقف، وأُغلقت أبواب القدس، وتوّجت سيبلا، ثم تنازلت لزوجها غي، ووضعت التاج على رأسه، فآل الملك لغي لوزينان.

عارض ريموند بشدة، ودعا للزحف على القدس لتنصيب إيزابيلا وزوجها همفري بالقوة، لكن همفري هذا آثر السلامة، وهرب ليلاً من مقر إمارته في تبنين إلى القدس وبايع سيبلا وزوجها، وهكذا أخفقت محاولات ريموند الثالث، ولا سيما أن معظم البارونات ذهبوا إلى القدس وقدموا الولاء لسيبلا وزوجها.

جاء هذا التتويج ليعلن انتصار حزب الوافدين، وانتصار لأرناط ونهجه، وكان لأرناط دوراً كبيراً في هذه الأحداث، فصار سيد المملكة بلا منازع، ولم يكن لغي سلطانٌ عليه، ولما عزم أرناط على مهاجمة طبرية لإخضاع ريموند الثالث، راسل ريموند هذا وطلب حمايته [1]، فأرسل صلاح الدين قوة إلى طبرية بمثابة حامية، وكانت هذه فرصة مناسبة للقوات الإسلامية لدراسة أوضاع المنطقة.

مثَّل أرناط الرعونة الصليبية والتعصب الديني خير تمثيل، ففي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م عزم على مهاجمة الأماكن المقدسة في الحجاز لنبش قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وسيَّر لذلك أسطولاً في البحر الأحمر نزل على بر الحجاز وسواحله، وكان العادل أخو صلاح الدين ينوب عنه في مصر، ولما علم بذلك الخبر سيَّر أسطولاً تمكن من القوات الصليبية، وتوزعهم القتل والأسر[2]، وكانت هذه أحد أسباب حنق صلاح الدين على أرناط.

وفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م هاجم أرناط قافلة للمسلمين خرجت من مصر إلى بلاد الشام، فأسرها وسباها، ولما أخفقت مساعي صلاح الدين الدبلوماسية

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ١٨. ابن واصل، مفرج الكروب ٢/ ١٨٤-١٨٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ٢/ ١٢٧-١٣٩. وكان ابن جبير آنذاك في الإسكندرية، وشاهد الأسرى، وتحدث عن الحادثة هذه، انظر رحلته: ص ٥٨-٦٩

لرد القافلة والأسرى، وجد أن مسوّغ الهجوم على الصليبيين قد تَوَفَّر، والهدنة خُرقت، وأن الوقت مناسب لضربهم.

- **مسير قوات المسلمين إلى المعركة:**

في ربيع سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م دعا صلاح الدين إلى الجهاد، وبينما كانت القوات تتوافد من جميع أجزاء دولته الكبرى وتوابعها، قامت التحضيرات من أجل غزو فلسطين، فبحكم الهدنة المعقودة مع ريموند الثالث أرسل صلاح الدين ابنه الأفضل علي على رأس قوة استطلاعية تمكنت من الوصول إلى الناصرة، ولما حاولت قوة من نخبة فرسان الصليبيين التصدي لها، تمت ابادتها وعادت سرية صلاح الدين تحمل له من الأخبار ما شجعه على المضي في مشروعه، وبعد هذا بوقت قصير أوعز صلاح الدين إلى واليه في حلب للقيام بإمضاء هدنة مع فرنجة أنطاكية، حتى تتمكن عساكر حلب من الاشتراك في الحملة، وقد طلب صلاح الدين هذا على أرضية الخلافات الحادة التي كانت قائمة بين القدس وأنطاكية.

وكان مكان تجمع الجيوش عند رأس الماء (السريا) ومن بعد ذلك عرضها عند تل عشترا في أحواز بلدة نوى، على مقربة من حدود الأراضي المقدسة، شرقي بحيرة طبرية، ومع حلول الأسبوع الثالث من حزيران، وصل جميع الجند، حتى المتأخرون من العساكر وأهالي البلدان النائية، وفي ٢٤ من الشهر نفسه عقد صلاح الدين مجلساً حربياً لتدارس الأهداف الإستراتيجية ووضع الخطط، أو بالحري لوضع الشكل التنفيذي للخطط، وصدر الأمر إثر الاجتماع بغزو المملكة اللاتينية، وكان عدد القوات التي مرت أمام عارض جيوش صلاح

الدين نحو العشرين ألفاً من العساكر الديوانية والمتطوعة، ويقدر أن الذي تجمع للفرنجة العدد نفسه عند المُقل والضِّعف عند كثير من الكتّاب المُنصفين.

وكان صلاح الدين شديد التدين يراعي قواعد الشريعة، ويتمسك بما جاء في السيرة النبوية، ولا سيما أثناء مغازيه، وعلى أساس هذه القاعدة نجده يأمر بإزالة معسكره في يوم الجمعة ١٨ ربيع الآخر/ ٢٦ حزيران، ومعلوم أن الجمعة هو يوم جماعة المسلمين، يتوجه فيها الخطباء بالدعاء على جميع منابر الإسلام للمجاهدين في سبيل الله بالنصر المؤزر، ولهذا جاء أمر صلاح الدين بإزالة المعسكر إثر الصلاة، في الظهيرة، وفي اليوم التالي – السبت – عبر نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية، واتخذ قاعدة له قرب شاطئ النهر، وهكذا بدأ الهجوم فعلياً.

ولم تكن تحركات صلاح الدين خفية، لهذا قابلها في القدس إجراء كل الاستعدادات، ففي أوائل أيار بعد نازلة الناصرة التي حلت بالصليبيين على أيدي طلائع صلاح الدين، جرت مصالحة بين غي ملك القدس الجديد، وريموند الثالث خصمه وصاحب طبرية وطرابلس، وذهب الفرقاء إلى مدينة القدس حيث جرى احتفال بهيج باتحاد القوى الصليبية، وبعد الاحتفالات طلب ريموند الإذن للعودة إلى طرابلس، فأوعز إليه الملك أن يجمع عساكره، ويلتحق به في مكان تقرر لحشد وتجميع الجيوش الصليبية في بلدة صفورية، وذلك لما تأكد لديهم من معلومات بأن صلاح الدين يعد العدة لهجوم عام، وأشار ريموند على الملك غي بمراسلة بوهيموند صاحب أنطاكية ينشد منه المساعدة، ونفذ غي ذلك، واستجاب بوهيموند استجابة رمزية، فقام بإرسال أكبر أبنائه مع خمسين من الفرسان، ولما توجه الصليبيون نحو بلدة صفورية لم ينسوا جانب الدعم الروحي، فأخرجوا

خشبة صليب الصلبوت، وطلبوا إلى بطريرك القدس حملها فرفض، وحملها الملك، ثم أشار عليه جيرالد مقدم فرسان الداوية، بأن يعلن النفير العام في طول الأرض وعرضها، ويدعو جميع الرجال المخلصين والقادرين على حمل السلاح للالتحاق بخدمته، وكان مثل هذا الإجراء يجري تطبيقه والأخذ به عندما تكون الحالة شديدة، والوضع متأزم بشكل خاص، وهناك حاجة ماسة إلى مزيد من العساكر أكثر مما كانت تقدمه الإقطاعيات في العادة.

توجه ريموند الثالث إلى طبرية فحصّنها ووضع فيها مؤن كافية لحصار طويل، ثم ترك فيها زوجته، وقبل مغادرته أوصاها أنها إذا ما هوجمت من قبل صلاح الدين وعجزت عن المقاومة أن تهرب بواسطة مراكب تركها لها في بحيرة طبرية، ثم أخذ أبنائها الأربعة معه وسار ليلتحق بالجيش الصليبي في صفورية، فعل ريموند ذلك لأنه يعلم أخلاق صلاح الدين، وأن زوجته في مأمن تام، ولن يتعرض لها أحد بسوء إذا سقطت مدينتها، وأن أولادها معه أفضل لهم وأكثر أمناً من بقائهم معها، ورغبته التي أبداها فيما بعد، عندما ضيّق صلاح الدين الخناق على طبرية، هي دليل على أنه كان مطمئناً من ناحيتها، وأنها ستكون بأمان تام إذا سقطت طبرية.

- وقائع ما قبل حطين :

سلف الحديث أن الجيش الصليبي اجتمع في بلدة صفورية، وكان أكبر جيش يجتمع لصليبيي المشرق منذ سنوات عديدة، يضاف إلى هذا، أنه - بلا ريب - كان من أكبر الجيوش في تاريخ الصليبيين في بلاد الشام، وتتباين المصادر بشدة في تقديرها تعداد هذا الجيش، ويبدو - حسب أدنى التقديرات - أن الرقم فاق العشرين ألفاً، أي ما يقارب تعداد جيش المسلمين، مع فارق هو أن

الجيش الصليبي لم ينعم بوجود ظهير شعبي له أو احتياط محلي، على عكس جيش صلاح الدين، فالصليبيون، على الرغم من المدة الطويلة التي مرت على تاريخ وجودهم في المشرق، كانوا عبارة عن أفراد مؤسسة عسكرية غريبة ومرفوضة من كل النواحي.

ومع حشد الصليبيين لهذه القوات الكبيرة جداً، برزت أمام الملك غي والكونتات مشكلة التكتيك والإستراتيجية: كيف يمكن استخدام هذا الجيش اللجب بشكل نافع ومؤثر؟ ثم لماذا جمع كله في معسكر واحد، ولم يوزع على المواقع الدفاعية للمدن والقلاع، أو قيد إلى خارج حدود المملكة لمنع صلاح الدين من اجتياز نهر الأردن؟ واختلفت آراء قادة الصليبيين حول هذا الموضوع الخطير، وكان رأي ريموند الثالث منذ البداية اعتماد سياسة الانتظار والمطاولة، فقد خاطب الملك بقوله: «أشير عليك يا مولاي وأنصحك، كما وأقترح عليك بأن تشحن مدنك وقلاعك بالرجال والمؤن والسلاح، وبقية أنواع الأعتدة الدفاعية»، ثم أشار عليه بتجديد مراسلة أمير أنطاكية، وبعد تكامل وصول القوات يقوم بمهاجمة مؤخرة جيش صلاح الدين، لكن ليس في المصادر ما يفيد أن نصيحة ريموند هذه وآراءه كانت مسموعة وأُخذ بها.

ووقع الاختيار على منطقة صفورية لتكون قاعدة للقوى اللاتينية، لما تمتع به هذا الموقع من مزايا محددة وفوائد كبيرة بالنسبة لهذه الحملة خصيصاً، فصفورية كانت آنذاك عبارة عن بلدة صغيرة غير مسوّرة، من ممتلكات صاحب طبرية، تقع على مسافة ثلاثة أميال أو أربعة من الناصرة، إلى الشمال الغربي منها، وكان إلى الجنوب منها على مسافة ميل واحد نبع ماء وجدول جارٍ، وهو ما عرف باسم نبع صفورية، وعلى هذا كان الماء وفيراً في هذا الموقع، وكان

كافياً لجيش كبير جداً، حتى في فصل الحر، وكان هناك مع الماء كميات وافية من المؤن، سهل تأمينها من القرى المجاورة، هنا في هذا الموقع المناسب أقام الصليبيون معسكرهم، وأقاموا ينتظرون وصول صلاح الدين.

وعلى بعد خمسة عشر ميلاً أو ستة عشر جثت مدينة طبرية على الشاطئ الغربي للبحيرة التي حملت اسمها، وذلك على مستوى ستمئة قدم تحت سطح البحر، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب هناك تل مزدوج القمة ارتفاعه فوق ألف قدم، ويعرف باسم «قرني حطين»، وهو الآن مكان احتفالات طقوسية موسمية [عيد النبي شعيب]، وتقع قرية حطين على مسافة قصيرة إلى الشمال مباشرة من «قرني حطين» في الوادي.

في منطقة صفورية كان الفرنجة متأكدين من توفر المياه والمؤن لديهم، ولقربهم من قلاعهم وبلدانهم المسورة، وكان عليهم الآن المكوث في صفورية لانتظار هجوم صلاح الدين، فهم كانوا على ثقة واطمئنان، فقد حشدوا أكبر جيش جُمع للصليبيين في المشرق الإسلامي، وكان بإمكانهم دوماً – عندما تدعو الضرورة – الانسحاب إلى المدن والحصون الشديدة المنعة قرب الساحل، ووضح بعد عبور صلاح الدين للأردن أنهم إذا ما غامروا بالتقدم باتجاه أي هدف في الشرق، فسيكون بإمكان صلاح الدين إجبارهم على خوض معركة حسب مشيئته وقبل الوصول إلى الماء، وآنئذ سيكون الانسحاب صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، ولا سيما وأنه لم يكن لديهم في الداخل قوات احتياطية لدعوتها لنجدتهم والتفريج عنهم.

ولكن الحرب لم تكن بالنسبة لصلاح الدين مغامرة أو هواية، بل إن حملته كانت قراراً إستراتيجياً له أبعاده السياسية والعسكرية التكتيكية، وقرار صلاح

الدين تمَّ بعد دراسة شاملة واستطلاع إخباري وميداني واسع، فهو بعد عبوره للأردن كان يدرك تمام الإدراك أحوال الصليبيين الداخلية، ويعرف سلامة أوضاعهم وطاقاتهم حيث هم، لهذا كان عليه أن يحاول بمختلف الوسائل اقتلاعهم من قاعدتهم في صفورية واستدراجهم إلى شراك ينصبها لهم، فأغار على منطقة كفرسبت، وجهد من هناك في سبيل تحريكهم واقتلاعهم عن طريق المناوشات، لكن عبثاً حاول، وأخفقت هذه الطرائق في إثارتهم، وهنا قرر صلاح الدين أن يغامر بكل شيء، إنما بشكل مدروس وفي غاية البراعة، على أنه والحق يقال كان تحركاً خطراً أيضاً، لقد قرر مهاجمة مدينة طبرية بعينها.

قدَّرَ صلاح الدين كما يبدو، وجاء تقديره صحيحاً تماماً، بأن هجوماً على طبرية، يعرض أميرة طرابلس للخطر، لا بد أنه سيبعث روح الفروسية لدى الصليبيين، وسيثير العناصر المضطربة والمتمردة بينهم، ويجعلها تحاول الزحف عبر التلال الجرداء لتلك المنطقة، مع أن مثل هذا الزحف كان سيجعل الجيش الصليبي في موقف غير مناسب ومدمر، ومن غير شك، كان صلاح الدين يعلم تماماً أخلاق الفارس الصليبي الذي اتسم (حسب وصف آنا كومينيا في كتابها الألكسياد) بــ: سهولة في الإثارة، واندفاع شديد أحمق، وإصرار لا تراجع فيه، ولا مبالاة بالموت، لهذا قام بمغامرته المدروسة في الهجوم على طبرية، فأثار الصليبيين وجعلهم يغامرون لعبور الطريق بين صفورية وطبرية، وهو طريق كان يقوم وسط المنطقة الجرداء الجافة، وما إن يُسْلك، فلا مخرج منه، على الصليبيين آنئذ أن يغامروا بالسير فيه طويلاً بلا ماء، وكان على صلاح الدين العمل – وكله أمل – في تمزيق الجيش العرمرم خلال ذلك وقبل الوصول للماء.

وعلى هذا الأساس قام صلاح الدين في يوم الثلاثاء الثاني من تموز، بوضع الجزء الأساسي من قواته إلى الغرب من طبرية، حيث تمكنت من إغلاق الطريق المباشر إلى المدينة، وظلت تتحكم بالممرات والقدرة على تأمين المياه لأنفسها، وقام صلاح الدين بنفسه بالهبوط على رأس قطعة صغيرة من قواته على طبرية، ونجح بسرعة في الاستيلاء على المدينة، ولم يستغرق الأمر أكثر من ساعة من الزمن، لكن حصن المدينة صمد ولم يسقط له، وهناك اعتصمت الأميرة مع حاميتها الصغيرة، وقامت هذه السيدة على الفور بتدبيج رسالة أنفذتها إلى الجيش الصليبي المعسكر في صفورية، تصف سقوط طبرية وما نزل بها وبمن معها من ضيق شديد وخطر مخيف.

لقد خلقت هذه الرسالة أزمة إستراتيجية للصليبيين، فهم يرغبون الآن رغبة شديدة – وقد طال بهم القعود – بالتحرك والإقدام على تخليص طبرية وإنقاذ الأميرة المحاصرة، وتشعبت آراء القادة حول هذا الموضوع، وتوحدت عواطف الفرسان، وكان رأي جيرالد مقدم الداوية وأرناط صاحب الكرك مع غالبية الفرسان أن عليهم التحرك في الصباح الباكر، وقالوا: إن الشرف ومثل الفروسية يتطلبان، لا بل يفرضان ذلك، قالوا ذلك تحرِّكُهم عواطفُهم وغرائزُهم، مع أن مثل هذا التحرك كان من أشد الأعمال حماقة، وفي الطريق إلى طبرية كان هناك عشرة أميال من الأراضي الوعرة الجافة الصعبة المجاز، كما كان أيضاً جيش صلاح الدين المتمركز تحت الشرف والمتحكم بالممرات والمغلق لها جميعاً، لقد كان – في الحقيقة – شركاً منصوباً لهم، لكن «الطعم» كان مغرياً لأصحاب العواطف الجياشة.

وبعدما وصلت الأخبار إلى مسامع الملك غي، أقدم على الفور فوجَّه الدعوة لجميع البارونات ورجال الأكليروس لعقد مجلس حربي، وفي بداية الاجتماع أخبر الملك الحضور بفحوى الرسالة التي تسلمها من صاحبة طبرية، وبعدما أطلعهم على الأخبار التي حملها الرسول، التفت أولاً نحو ريموند الثالث صاحب طرابلس، لا لمكانته وعظيم خبرته، وطول تجاربه فحسب، لكن لأن مدينة طبرية المهاجمة مدينته، وزوجته هي الأميرة المحاصرة، وهي صاحبة الرسالة، والمهددة بالخطر، وخاطب غي ريموند بقوله: «ما رأيكم يا مولاي، وما النصائح التي يمكن أن تقدمها إلينا» ؟.

ولم يكن ريموند من الرجال الذين يفقدون السيطرة على أنفسهم في مثل هذه الأزمات، وعلى الرغم من الشعور الشعبي تجاه ما كان يجري، لم يتملكه الخوف ولا الأسى، ولم يخش على سلامة زوجته، ذلك أنه كان يعرف مدينته، ويعرف صلاح الدين، ويدرك الخدعة، ويعلم أكثر من سواه طبيعة المنطقة، لذلك تكلم بضرورة الثبات، وعدم الانجراف وراء خدع صلاح الدين، وأخبرهم أن طبرية ليست هدف المسلمين، وإذا احتلوها فلن يحتفظوا بها، وأخبرهم أن صلاح الدين لن يغادر أراضيهم دون معركة، لذلك عليهم التأني وجعله هو يتحرك باتجاههم، لا هم، لأن تحركهم في الأراضي الجرداء سوف يعرض الجيش للعطش والإنهاك، وعندئذ سيجدون المسلمين بانتظارهم، وقد استعدوا جيداً للمعركة، ثم أنهى خطابه للملك قائلاً: «سيدي، إذا لم يقع كل شيء كما أخبرتك، فاقطع رأسي».

أعلن الملك قناعته بذلك الرأي، وكذلك فعل جميع البارونات، فيما عدا أرناط مع مقدم الداوية، لكن رغم هذه المعارضة اتخذ الملك مع جميع البارونات قراراً بالعمل حسب مشورة ريموند.

لكن من قال إن القرارات – في العصور الوسطى – كانت تتخذ في الاجتماعات العامة، وإن إعلان الحرب لدى الصليبيين وملوكهم خضع لأحكام العقل والمنطق، وليس للشهوات والمطامح الفردية، وعليه قد يكون ريموند أشار بالرأي الصحيح، لكن كلمته لم تكن الكلمة المسموعة لتنفذ، وحزبه لم يكن الحزب الحاكم في القدس، لقد كان ريموند عدواً للملك غي ولأعوانه ولا سيما جيرالد مقدم الداوية وأرناط صاحب الكرك، فصراعاته ضد الجماعة الحاكمة في القدس قد أجبرته على التهادن مع صلاح الدين، وكان الحزب الحاكم لا يكتفي بعدم الثقة به، بل كان وما يزال – على الرغم من المصالحة – يعدّ بأعين الكثيرين خائناً «يتبرقع بجلد الذئب» لا يجوز مطلقاً الوثوق بكلامه، ولا شك أن جيرالد وأرناط وغيرهما كثير آمنوا بهذا إيماناً مطلقاً، وهنا لبّ القضية الحقيقية فيما حدث، وأدى إلى ما نزل بالصليبيين في حطين، المشكلة أن الصراعات الشخصية، والعداوات الفردية التي وجدت بين صفوف قادة الصليبيين إلى أمد طويل، جعلت الأمور تتداخل، والأحكام تمتزج إلى حد غدا فيه من المحال التمييز في عقولهم بين ريموند خصمهم وريموند العسكري المجرب والاستراتيجي الخبير.

وتشير المصادر الغربية إلى أنه في نحو منتصف الليل انفضّ الاجتماع، وانصرف البارونات إلى خيمهم ظانين بأن المسألة قد تقررت، وجلس الملك في سرادقه يروّح عن نفسه إلى ساعة متأخرة من الليل، وما كاد يفرغ من ذلك حتى

دخل جيرالد مقدم الداوية، وسفه رأيه، وأنه من المعيب السماع لريموند، ثم طالبه بالتراجع عن قراره.

ولم يتجرأ الملك غي على معارضته، ونفذ كل ما أمره به، لأنه كان يحبه ويخشاه، وشعر أنه مَدِيْنٌ له بالوصول إلى عرش المملكة، فاستجاب لأوامره، وأصدر في ساعة متأخرة من الليل أوامره لمن كان حوله بإزالة معسكرهم، وحمل السلاح للزحف نحو الأمام.

وقضت قوانين الصليبيين وتقاليدهم، أن مثل هذا القرار كان بعد صدوره لا يمكن نقضه أو التراجع عنه، وفي الحال شرع الجيش بالتحرك نحو طبرية، وبات من المحال تغيير الخطة، وصار الأمر الآن طبرية أو الكارثة، ولكم هو مدهش وضع الفرنجة، أن يرفض ملكهم نصيحة ريموند وهو على انفراد بعدما أعلن قبوله لها قبيل سويعات في مشهد عام، أن يتخلى عن ذلك كله نتيجة لضغط جيرالد عدو ريموند.

كانت ساعة إصدار الأوامر أسوأ ساعات الليل، فيها ترتخي الأجساد، وتهبط المعنويات، وتكثر الأحلام، كان الانزعاج بين الفرسان كبيراً جداً، عندما سمعوا بأوامر الزحف، وأصر بعضهم على معرفة من دفع إلى اتخاذ هذا القرار المفاجئ، وما الذي بعث على تغيير الخطط السالفة، لكن الملك رفض إخبارهم، وقرر عدم تقديم أيَّ إيضاحات، وأصر على ما أصدره من أوامر، لذلك عبثاً حاولوا الضغط عليه لثنيه عن قراره أو التراجع عنه، فأطاعوه مكرهين والحزن يملأ قلوبهم.

- مسير القوات الصليبية إلى حطين :

لقد كان الجيش الصليبي مؤلفاً من ثلاثة أقسام، ففي المقدمة سار ريموند، على أساس رتبته، وبسبب أن الزحف كان في أراضيه، ووقف الملك في القلب ومعه رجاله وفرسانه وصليب الصبوت محمولاً من قبل أسقفي: عكا، واللد، وبقي في المؤخرة «بالين صاحب إبلين» ومعه فرسان الداوية.

في صباح يوم الجمعة الثالث من تموز بدأ زحف القوات الصليبية، وكان معسكرهم مرصوداً من قبل المسلمين، لذلك نقلت الأخبار سريعاً إلى صلاح الدين، الذي ما إن سمع بالأخبار حتى سرّ سروراً كبيراً، ذلك أن ما خطط له بدأت علامات النجاح المتأمل له بالظهور، وكان يشرف على فتح طبرية، وعلى الرغم من أن رجاله كانوا قد شرعوا في فتح ثغرة في أسوار قلعة طبرية، وأن القلعة أشرفت على السقوط، فإنه ترك طبرية، والتحق على الفور بالجزء الأكبر من جيشه المقيم تحت الشرف الكبير إلى الغرب من طبرية، وترك شحنة صغيرة لتتولى أمر المدينة ومتابعة حصار القلعة، ووضح الآن أن طبرية لم تكن هدف صلاح الدين الحقيقي، وعندما بلغه الخبر صرخ قائلاً:

«جاءنا ما نريد، ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع، ولا عن فتحه وازع».

وبمجرد مغادرة الصليبيين لصفورية في طريقهم يريدون طبرية، بدأت التوقعات المعزوة لريموند، تظهر صحتها، فمع تقدم الجيش الصليبي ببطء، أخذت كتائب من القوات المسلمة، ولا سيما من الخيالة النبالة تناوشه من جميع الأطراف، وتتحرك بتحركه، واستمر هذا طيلة الصباح، ولم تلبث الشمس أن ارتفعت في قبة السماء، وهنا ارتفع الحر، وازداد العطش، وعظم، ولم يكن هناك

ماء، وواضح أن التحرك المفاجئ للجيش، وصدور الأوامر إليه بعيد منتصف الليل، وتخيّل قادة الفرنجة أنهم سيكونون في طبرية مع إشراقة الصباح، كل هذا جعل أفراد الجيش الصليبي لا يحملون معهم الماء ولا حتى المؤن، ولعله أثناء معسكرته في صفورية لم يكن لديه أوعية لحفظ الماء ونقله، ذلك أن معركة حطين كانت بالفعل معركة الماء.

وعلى هذا لم يكد الصليبيون يسيرون قليلاً حتى أخذت نبال المسلمين بعقرهم، وساروا مصابرين في ظل هذه الحالة الصعبة حتى وصلوا أخيراً إلى مكان عرف باسم «لوبية» وهي واقعة في حوالي منتصف المسافة إلى طبرية، وكان الوقت آنئذ منتصف النهار، وهنا ازداد ضغط كتائب صلاح الدين عليهم من كل ناحية، فقد بدأت تنفيذ مرحلة جديدة حاسمة من الخطة، وازداد العطش الحارق في تلك الساعة، وأصبح الحر لا يحتمل، ولنتذكر مجدداً هنا بعض الحقائق:

لقد غطّى الحديد جسد كل فارس ومطيته، كما أن أجساد الرجالة كانت أجزاء كبيرة منها مغطاة بوسائل واقية من اللبد أو الجلود أو المعادن، وسبّب هذا ضيقاً شديداً لكل واحد من عساكر الصليبيين، ليس لأن وزن الدروع كان كبيراً، بل لأن هذه الأثواب والصفائح المعدنية على مختلف أنواعها كانت تحد من حرية حركة الإنسان، وليتصور أحدنا نفسه موضوعاً داخل قالب معدني أو غير معدني، ولوقت طويل، وسط حرارة شديدة جداً، مما يزيد الضيق ضيقاً وينهك أقوى الأجسام، وفوق هذا كله وأهم، مشكلة التعرق، فما ارتداه الصليبي حال بين جسده وبين التعرق، وسدّ مسام الجلد، لهذا قامت تقاليد أهالي بلاد الشام على

ارتداء الثياب الرقيقة البيضاء الفضفاضة في موسم الصيف، وإيثار ارتداء السوابغ على الرغم من إمكانات التعرض للطعن بالنشاب والمقذوفات.

المهم أنه بسبب هذا، ونتيجة ضغط قوات المسلمين، مع قلة المياه وشدة الحر، صدر قرار من الملك بالتوقف في لوبية الواقعة على منتصف الطريق بين صفورية وطبرية، ثم لما حاول الجيش الصليبي الانعطاف يساراً باتجاه الشمال نحو قرية حطين للتزود بالمياه منها، ثم إيجاد طريق للنفاذ إلى طبرية، فقد الجيش الصليبي تماسكه، وحدث خلل شديد في نظام الجيش الزاحف، ولم يعد بإمكان الفرنجة العودة إلى صفورية، وبات التقدم عملاً انتحارياً، لكنه المخرج الوحيد، ذلك أن البقاء داخل المعسكر – وليس هناك أمل لا بالنجدات ولا بسواها – كان يعني الموت البطيء جوعاً وعطشاً أو الاستسلام الجماعي، وهنا ازدادت ضراوة هجمات المسلمين، وبات من المحال متابعة التحرك ولم يكن هناك مجال للهزيمة، لذلك أصدر الملك الأمر بالتوقف والمعسكرة.

صحيح أن الضغط الإسلامي كان شديداً من كل الجوانب، لكن القادة الكبار لا يتخذون قرارات الانتحار بعد سويعات من الحرب، فمن الوجهة الإستراتيجية هناك إجماع على أن إقامة المعسكر في ذلك المكان كان غلطة مميتة، وأنه كان على الصليبيين الصبر والاندفاع بأي ثمن نحو الماء.

المهم الآن أن قراراً بالتوقف جرى اتخاذه وتنفيذه، وبات الآن على اللاتين مواجهة ليلة ليلاء، وهم تحت السلاح، دونما أدنى أمل بتحصيل الماء لإطفاء عطشهم القاتل، وكانوا مطوقين تماماً من قبل المسلمين، الذين بدّدوا محاولتهم الأولى والوحيدة للوصول إلى الأراضي المنخفضة، وبات أن يجربوا ثانية أمراً لا يمكن مجرد التفكير به، ففكّا الفخ أغلقا بإحكام حولهم.

وللإنصاف نستخلص من مختلف الروايات أن جهوداً مضنية وجديّة بذلت للوصول إلى الماء، وأن مقاومة الصليبيين استمرت إلى النهاية، ولم يحدث انهيار في العزائم والقوى، وهذا بحد نفسه مهمٌّ جداً، وفيه دلالة على أن النصر الذي ناله صلاح الدين في حطين، كان باهظ الثمن تمّ بعد جهود غير محدودة، وهنا تظهر عظمته ودوره الحاسم، كما أن الذي يهزم جيشاً من الشجعان ليس كمن يهزم الجبناء.

لقد كانت وقائع اليوم الأول للزحف رهيبة، وبلغ الإنهاك الجسدي عند الصليبيين حداً عالياً، وكانت النهاية محتومة ولا يمكن الحيلولة دون تحطيم المؤسسة العسكرية اللاتينية، هنا انتصرت العقيدة القتالية للمسلمين بعد سلسلة من الهزائم الماضية، انتصرت لأن تطبيقها جرى بشكل نموذجي.

لقد زحف الصليبيون من صفورية، يشكلون جيشاً عملاقاً، تخيلوا أنه لن يقهر، وأن ما من قوة على وجه الأرض يمكن أن تتصدى له وتعترض سبيله، سار قادته على الطريق المباشر نحو طبرية، وهم يخيل إليهم الوصول إليها في سويعات، لهذا لم يفكروا باصطحاب الماء والمؤن الكافية، ولكن فاتهم أن الشجاعة بلا عقل حماقة، وأن العقل قادر على قهر جميع القوى، ساروا عبر أرض لم يقع اختيارهم عليها، بل فرض الأمر عليهم فرضاً، ولهذا ما إن زحفوا قليلاً حتى وجدوا الأمر صعباً جداً، فالحر والعطش، والنشاب والنار، والسيوف، وأعمال الانقضاض الجريئة، بدت أعظم من قواهم، ووضح بعد قليل من الوقت أنهم لن يتمكنوا من تجاوزها، وغرقوا في بحر من الفوضى والتعب، صحيح أنهم صاروا على مشارف طبرية، لكنهم وجدوا الجسم الأساسي من جيش المسلمين واقفاً بانتظارهم يسد جميع الممرات، فتخلوا عن الطريق المباشر، وقرروا

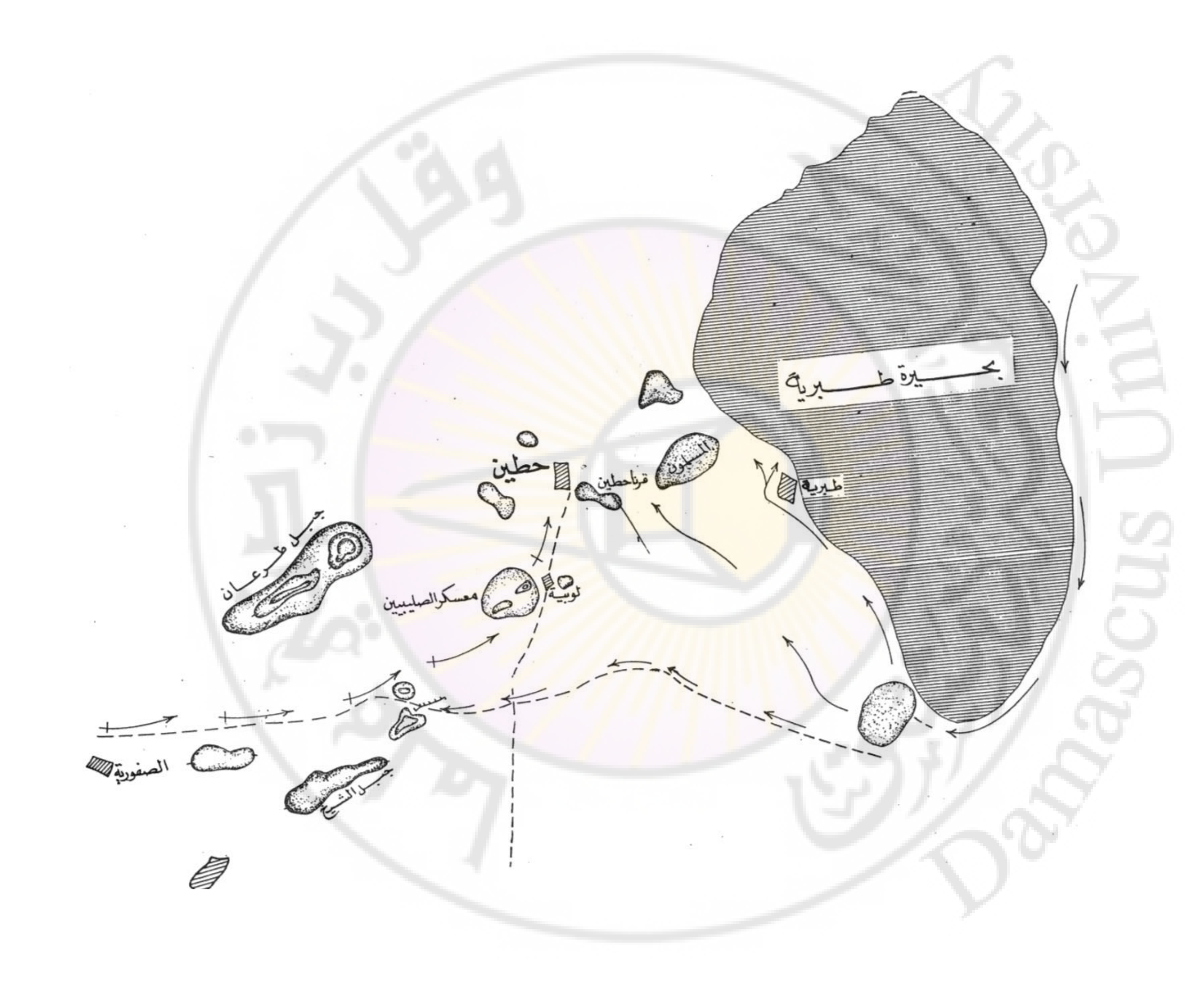
الانعطاف نحو أقرب النقاط التي فيها ماء، أي إلى حطين، التي جثمت هناك إلى اليسار منهم في أعلى الهضبة، انعطفوا وكلهم أمل بالخلاص، ولم يدر بخلدهم أن صلاح الدين ترك هذا الممر، يبدو، وكأنه مفتوح، فذلك كان مرحلة تنفيذية جديدة في الخطة، وشركاً جديداً منصوباً، انعطفوا فدبت الفوضى بين صفوفهم، ووقف المسلمون مجدداً حولهم وأمامهم في الطريق ثانية، وصار الوضع الآن إما الاشتباك في معركة عامة، وإما الاستراحة هناك حتى تنقضي الليلة.

لقد حدث التوقف، وكانت ليلة لوبية رهيبة، لكن النهار الذي تلاها كان أكثر رهبة، لم يلمس الصليبيون في تلك الليلة ولا خيولهم الماء، بينما كان المسلمون من حولهم في راحة وتمكن، حيث كانت قِرَبُ الماء تنقل إليهم على ظهور الجمال من البحيرة باستمرار، وتبعاً لبعض الرواة أمر صلاح الدين بصبّ بعض الماء على الأرض على مرأى ومسمع من الصليبيين، ليزيد في عذابهم، وأحاط المسلمون بالصليبيين من كل الجهات، ولم تتوقف الهجمات وإطلاق النشاب والمواد المحرقة، وأصغى الصليبيون طوال الليل إلى أصوات المسلمين تنادي: الله أكبر، لا إله إلا الله، ولذلك – حسب قول المؤرّخ اللاتيني – لم ينالوا إلا قليلاً من الراحة، وفي ظلمة الليل غرقت آمالهم كلها، وزالت معها شجاعتهم، أو لنقلْ ما بقي لديهم من شجاعة.

وكما قلنا اختلف حال المسلمين عنهم تماماً، فقد كانوا في غاية السرور، يهللون ويسبّحون ويتوجهون بالشكر إلى رب العالمين، لقد كانوا حتى الآن يخشون الصليبيين ويهابون اللقاء بهم، لكن في هذه الساعة، يقودهم صلاح الدين، عندما رأوهم داخل الشرك الذي نصبوه لهم، قويت قلوبهم، وازدادت ثقتهم بأنفسهم، وحقاً صنع المؤرخ الإسلامي العماد الكاتب حين وصف تلك الليلة

وأحوال الفريقين بقوله: «وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ، وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان، وانتظر مالك، واستبشر رضوان فهي (ليلة القدر خير من ألف شهر تنَّزل الملائكة والروح فيها)، وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم: (فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) وبتنا والجنة معروضة، والسُّنة مفروضة، والكوثر واقفة سقاته، والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله، والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الإسلام ومديله».

ولقد روي أن صلاح الدين سهر ليلته بطولها، وهو يشرف على ترتيبات المعركة لليوم التالي، فقام بتوزيع جند المقدمة والطلائع لكل كتيبة، وعيَّن الرماة، وزوَّدهم بالسهام، وكان ما فرّقه من النشاب أربعمئة حمل، وأوقف «سبعين جمازة في حومة الوغى، يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه»، وأعدّ الجند أسلحتهم، وصلّوا، وتوجهوا إلى الله بالدعاء والحمد، وكلهم أمل وثقة بالفرج، واستنزلوا النصر من عند الله ورجوا عونه وإعزاز دينه.



بحيرة طبرية
طبرية
قرنا حطين
حطين
لوبية
معسكر الصليبيين
جبل طرعان
الصفورية


جبل طرعان
لوبية
حطين
قرناحطين
الصليبيون
المسلمون
طبرية
بحيرة طبرية

- **بـــدء المعركـــة :**

وفي صباح يوم السبت الرابع من تموز، كان الفريقان جاهزين من أجل الصراع النهائي، ولا شك أن كُلّاً منهما قد أدرك أن مستقبل المملكة اللاتينية والوجود الصليبي في المشرق متوقف على نتيجة الصراع، ونعود لنذكّر أنه من حيث التعداد والقدرة القتالية كان الجيشان ما يزالان متعادلين تقريباً، لكن بينما كان المسلمون قد نالوا قسطاً من الراحة، وكانوا واثقين – دون غرور – بأنفسهم بدرجة كبيرة لم يعرفوها من قبل، كان الصليبيون طوال يوم وليلة بلا ماء، لم ينل رجالهم ولا الخيول راحة كافية مما عانوه في اليوم المنصرم، ولا شك أن معنوياتهم كانت منخفضة عما كانت عليه عندما تركوا صفورية، ولا شك أن هذا عامل كان له فعاليته في المعركة.

ويبدو أن خطة عمل الفرنجة قامت على الانقضاض من أجل الوصول إلى الممر الواقع شمال قرني حطين، وللوصول إلى الماء مهما كان الثمن، وكانت خطة المسلمين تهدف إلى فصل المشاة عن الفرسان، فالمنطقة وعرة لا مجال فسيح فيها لعمل الفرسان، وأدرك صلاح الدين هذا، وقد تمكن المسلمون من استدراج الفرسان إلى ما ظنوه «مجالاً رحباً للحملة» وعزلهم عن الرجالة.

كان صلاح الدين يرغب في تأخير العمل حتى تصبح الشمس في كبد السماء، على أساس أن الحرارة كانت أكثر الأسلحة تأثيراً ضد أعدائه الصليبيين، وفعلاً التحم الجيشان نحو الساعة التاسعة صباحاً، عندما فتحت قوات المسلمين الطريق قليلاً أمام المقدمة التي يقودها ريموند الثالث، وفي السهل القائم جنوب حطين بدأ الاشتباك.

وما إن تم الالتحام حتى ضغط الداوية بقيادة مقدمهم جيرالد على المسلمين ضغطاً شديداً، فقتلوا عدداً منهم، وأجبروا قسماً منهم على التراجع، وكان ما بذله

هؤلاء الفرسان من جهود كبيراً ومضنياً، لكن تراجع المسلمين أمامهم لم يكن فراراً، بل عملاً تكتيكياً مرسوماً، لذلك حبطت جهود الداوية، وكانت بلا مردود يذكر، وتبددت معالم الخطة الصليبية التي جرت حسب العادة، لا حسب الحاجة والواقع، فهجوم الفرسان كان يعوزه الدعم والحماية، وكان من الممكن للمشاة في السهول تقديم مثل هذا المطلب، لكن في ظروف حطين حيث المناخ والتضاريس ونشاب المسلمين عجز المشاة عن الاحتفاظ بتنظيمهم الأساسي في مرافقة الفرسان، وأدى هذا إلى عزل فرسان الداوية والاسبتارية وتمزيقهم إرباً إرباً، فالمشاة التجؤوا إلى إحدى تلال حطين، ورفضوا دعوات الملك المتكررة بالنزول لحماية الفرسان، ذلك أن العطش أنهك قواهم، وأفقدهم القدرة على القتال، عندها أمر الملك مجدداً بنصب الخيم، من أجل حماية صليب الصلبوت، الذي شكل آنذاك الينبوع المتبقي لدى الصليبيين ليبعث فيهم الشجاعة والصبر، وعلى أمل اتخاذ موقف دفاعي في وجه هجمات المسلمين، فالملك بلا شك قد أمل أن الخيم ستكون مكاناً لتجمع القوات المبعثرة، وتعوض عن خسارة المشاة، لكن ما حدث مجدداً هو أن المقاتلين تراجعوا بشكل فوضوي، وتجمعوا حول الصليب، وتركوا فرسان الداوية والاسبتارية وحدَهم يعانون الخسائر الجسيمة.

وهكذا حلت الفوضى بين الصليبيين وتحكمت بصفوفهم منذ البداية، بسبب عزل المشاة عن الفرسان، ونتيجة لهذا أخفقت خطة الصليبيين التي رسموها بإحكام، ونجحت خطة المسلمين، وحدث فصل الأسلحة بعضها عن بعض، وصار فرسان اللاتين الدارعون ومطاياهم بلا حماية من نشاب وسيوف وحراب المسلمين الذين ضغطوا عليهم من كل الجهات.

لقد كان تكتيك المسلمين رائعاً وأعمالهم القتالية مدهشة، تراهم ساعة في موقف الدفاع، وساعة أخرى في موقف الهجوم المتحرك، وتخلى في تلك الساعة

ستة من الصليبيين عن مواقعهم بعدما أصابهم اليأس، وذهبوا إلى جيش صلاح الدين وأخبروه بالحال الصعب الذي كان فيه الجيش الصليبي، وأعلموه بأن هذا الجيش لن يستطيع الصمود إلا قليلاً، فالشمس أحرقته، والعطش أنهك قواه، وأسقف عكا أحد الأوصياء على صليب الصلبوت أصيب بضربة قاتلة، فسلم الصليب إلى أسقف اللد.

واستفاد المسلمون من المعلومات الجديدة، ووضحت صورة الأوضاع داخل الجيش الصليبي لديهم، فاندفعوا باتجاه الهضبة إلى حيث التجأ المشاة، وضغطوا عليهم لإبادتهم قتلاً وأسراً، وهنا حاول بعض المشاة تسلّق بعض الصخور على الأطراف، بعدما قتل أكثرية رفاقهم أو أسروا.

ولما رأى ريموند والذين معه هذا الحال المتردي، ازدادوا يقيناً بأن المعركة غدت ميؤوساً منها، وأنه من المحال العودة إلى الملك والانضمام إلى صفّه ثانية، لذلك قام ومعه أتباعه بحملة يائسة على الجناح المسلم المقابل لهم، لفتح طريق للنجاة، ولما رأى تقي الدين قائد ميمنة صلاح الدين المقابلة لهم هؤلاء الرجال وقد تقدموا يائسين من الحياة تغافل عنهم ومكنهم من الفرار، ثم عاد فأغلق الممر خلفهم، ولا بد أن هذا حدث عند الظهر، وصحيح أن ريموند صار الآن منفصلاً عن الجيش الصليبي تماماً، فالذي أفاد من ذلك الجيش الإسلامي: لقد فقد الصليبيون أمهر قادتهم مع عدد كبير من الفرسان، وغدت الساحة التي كانت تشغلها هذه القوة خاوية.

وكان صلاح الدين ما يزال يتابع أخبار القتال بنفسه، وأمام المعلومات التي تلقاها من الستة الذين التحقوا بجيشه، مع المعلومات التي جاءته عن فرار ريموند ورجاله، قد أثارت الحماسة في نفسه، فأمر تقي الدين مع قواته المختارة بالتحرك، واستغل تقي الدين الفراغ الذي تركه ريموند، والساحة التي شغرت بعد

فراره، وجاء هجوم تقي الدين بعد الظهر، وأجبر الصليبيين على التراجع إلى المنطقة الصخرية الصعبة، لكن المعركة لم تنته، واستمر القتال عنيفاً للغاية.

ولم يكف الصليبيون ما عانوه حتى الآن من الحر والعطش والنشاب، فقد تعرضوا الآن لمحنة جديدة، جاءت نتيجة لعبقرية المسلمين المتفوقة، فقد لاحظ واحد من المتطوعة من جيش صلاح الدين أن اتجاه الريح هو نحو الجيش الصليبي، فرمى النار في الأعشاب التي كانت تغطي المنطقة، ونتيجة لهذا نجد أن أولئك الرجال مع مطاياهم، الذين كانوا بلا ماء لساعات طوال، وكان قد أنهكهم القتال الشديد تحت الشمس المحرقة، ضاقت الآن صدورهم، وكادوا يختنقون من الدخان الذي ملأ الهواء، لا بل ربما فقد بعضٌ منهم حياته فعلاً نتيجة لذلك.

ولما تجمع المقاتلون المتبقيون من أجل الدفاع النهائي، حلّت بهم أقسى ضربة منذ دخلوا الحرب، ضربة آلمتهم إيلاماً شديداً أكثر من الحر والعطش والدخان والنشاب، حتى من الهزيمة نفسها، ذلك أن تقي الدين قد تمكن بهجومه الكاسح، الذي جاء عقب فرار ريموند، من الاستيلاء على صليب الصلبوت، وكانت هذه الخشبة هي مصدر العواطف والمعنويات الوحيد الذي تبقّى لدى الصليبيين، قد يكون من الصعب بالنسبة للإنسان المعاصر تصور معنى خسارة تلك القطعة من الخشب بالنسبة لأولئك الرجال، لكن الذين يفقهون في أساليب الحرب النفسية والتوجيه المعنوي يقدرون عظيم التقدير مكانة أيَّ أداة، تؤثر في المقاتلين، ولا سيما أثناء القتال، وكانت خشبة الصليب في العصور الوسطى ذات مكانة سامية جداً لدى المسيحيين عامة والكاثوليك منهم خاصة، لقد حملت خشبة الصليب المزعوم هذه مع الصليبيين في جميع معاركهم الرئيسية، لاعتقادهم بأنها تجلب – لا بل تضمن – التأييد السماوي لأعمالهم، وقد حفظ الصليبيون هذه

الخشبة، واعتنوا بها عناية فائقة، لكنه لم يتم استردادها من قبلهم ثانية، واختفت آثارها، وكما هو متوقع بكاها المؤرخون اللاتين، وحزنوا لفقدها، والمفيد ذكره هنا وملاحظته بعمق هو أثر هذا العمل في المسلمين، فقد عرف المسلمون دين عدوهم بشكل عميق، وأدركوا مدى مكانة هذه الخشبة في معتقداته، وقدروا كم هو مهم الاستيلاء عليها، ولهذا نعاود تأكيدنا أنّ معركة حطين انتصر فيها التكتيك الإسلامي المطبق بعقل وشجاعة والتزام، وهكذا كان هذا النصر باهظ الثمن.

وعلى الرغم من أثر خسران خشبة الصليب القاصم على الجزء الأعظم من عساكر الصليبيين، فإن عصبة منهم ثابرت على المنافحة، وبقي في نفوسها بعض الشجاعة، وفي أبدانها بعض القوة لمثابرة الصراع والدفاع، وتجمّع قلة من هؤلاء الفرسان الأشداء حول الملك، وتمكنوا بطريقة ما من نصب خيمته، وقاموا من هناك بهجوم يائس، ربما أملوا من ورائه شق طريق للفرار، كما فعل كونت طرابلس من قبل، وبعد نجاح أوليّ حيث تمكنوا من دفع المسلمين إلى الخلف نحو صلاح الدين، بادر هذا القائد الشجاع، فأمر على الفور بهجوم معاكس رد الصليبيين على أعقابهم، ومكّن المسلمين من هدم خيمة الملك، وبذلك انتهت المعركة قرابة العصر ، ووصف واحد من المؤرخين المسلمين هذه الخاتمة بقوله:

«ولما حمل الإفرنج تلك الحملات ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم، وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم».

لقد كان عدد الذين قتلوا أو أسروا بالآلاف، والذين لم يقتلوا كانوا منهكين، وقد هدهم فقدان صليب الصلبوت، إلى حد أنهم لم يحاولوا الفرار، ذلك أنهم

وضعوا بالأسر، وتركوا بلا حراسة، حتى حملوا إلى السجون وأماكن الاعتقال في بلاد الشام ليودعوا هناك، ويقول ابن شداد في المحاسن اليوسفية: «وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه، ولقد حكي لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً أخذهم وحده، لخذلان وقع عليهم».

ولما انتهت أعمال القتال، وفرغ المسلمون من جمع الأسرى «نزل صلاح الدين في خيمته، وأحضر ملك الفرنج عنده، وبرنس أرناط صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فسقاه ماء مثلوجاً، فشرب وأعطى فضله برنس أرناط صاحب الكرك فشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني، ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه، وعدّد عليه عوراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته، وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداهما لمّا أراد المسير إلى مكة، والمدينة، والثانية لمّا أخذ القفل غدراً، فلما قتله وسحب وأخرج، ارتعدت فرائص الملك، فسكّن جأشه وأمّنه».

لقد عومل الأسرى جميعاً معاملة إنسانية ممتازة، وأخذوا إلى دمشق حيث أطلق سراح بعضهم أو فودي بهم، أو جرى سجنهم، وذلك فيما عدا أرناط صاحب الكرك وفرسان الداوية والاسبتارية، إذ عدّهم صلاح الدين مجرمي حرب، فبعد إعدام أرناط جرى إعدام نحو المئتين من فرسان الداوية والاسبتارية، حتى روي أن صلاح الدين أقدم على شراء بعض من هؤلاء الفرسان من آسريهم، وأمر بإعدامهم أمام الجيش وجنده جميعاً، وهكذا كانت نهاية أكبر جيش جمع للصليبيين، أو بالحري نهاية المؤسسة العسكرية للاحتلال الصليبي، الذي استهدف جعل بلاد الشام وطناً لاتينياً فيما وراء البحار.

وهكذا ربح صلاح الدين معركة حطين، ربحها بعد جهود جبارة مضنية، ربحها بعدما بدّد قوى عدوه وصان قواه وأحسن استغلالها، وهنا، ما السبب الحقيقي الذي كمن وراء نصره المؤزر؟ لا شك أنه لم يكن لا في التعداد ولا في القوة، فالجيشان كانا في الرجحان في التعداد والاحتراف والتسليح فيهما لصالح الصليبيين، الحقيقة الساطعة أمامنا هي تفوق صلاح الدين في الإستراتيجية والتكتيك، إذ استطاع اقتلاع الصليبيين من صفورية، وتمكن من جذبهم إليه، وأبعدهم عن الماء، وأجبرهم على القتال تحت شروط ضاغطة، فيها عطش وإنهاك، بينما ظلت قواته حرة طليقة، فالعطش والإنهاك دفعا المشاة إلى الفرار، وكان هذا ضاغطاً أكثر من ضغط القتال والهجوم، وقاد ذلك إلى الضربة اللازمة التي أنزلها بالفرسان، وعليه فإن فصل السلاحين بعضهما عن بعض هو الحقيقة الحاسمة في المعركة، لقد عوض صلاح الدين التفاوت بين قواته وقوات أعدائه عن طريق استغلاله لعوامل الطبيعة، ونجح فيما استهدفه عن طريق المناورة البارعة، لهذا رأينا كيف كان الجيشان قبل التحرك، وكيف صار حالهما يوم السبت حين التقيا على سهل حطين حيث تبدلت النسبة التعادلية من جوانب القدرة البدنية والقوة الجسدية.

لم يكن صلاح الدين من هواة الحرب، بل من أبطال التحرير، وقد متّ إلى حضارة فيها: «الرأي قبل شجاعة الشجعان»، فالرأي هو الذي انتصر في حطين، وكان على كل حال رأياً مدعوماً بالقوة والعقيدة، وبراعة التنفيذ.

والبحث في وقائع حطين يجد الباحث نفسه في كل زاوية من زواياها أمام عبقرية متناهية، وأمام معانٍ جديدة، ولعل ما جرى عرضه حتى الآن يفي بالغرض، المهم الآن أن ننهي حديثنا في هذا الفصل ببضع عبارات تأتي بمثابة خاتمة، وفي الوقت نفسه مقدمة للحديث في الفصل المقبل:

لقد بشّرت معركة حطين بسقوط مملكة القدس، هذه المملكة التي لم يتحطم جيشها فقط، بل أفرغت قلاعها وحصونها ومدنها من خيرة حماتها، لهذا حالما انتهى القتال في حطين حتى أخذت طبرية دونما قتال، ثم زحف صلاح الدين ضد مدن الساحل، فجرى تطويق عكا وتم الاستيلاء عليها، وأخذت عسقلان ولم تسقط صور، أما المدينة المقدسة فقد استسلمت في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/٢ تشرين الأول سنة ١١٨٧م، أي بعد ثلاثة أشهر من حطين، وهكذا انتهت مملكة القدس، وزالت من الوجود بعدما عاشت قرابة قرن من الزمن، لكن استمرت بالاسم فقط بعد الحملة الثالثة، والذي بقي الآن من مستعمرات الصليبيين في الشرق لم يتجاوز كونتية طرابلس، وإمارة أنطاكية[1]، والحديث عن الفتح الصلاحي للقدس يحتاج إلى تبيان مع حصاد حطين.

---

(١) الفتح القسي في الموسوعة ج١٣ ص٤٨ – ٥٧. الأنس الجليل: ١/ ٣١٦– ٣٢١. عيون الروضتين: ٢/ ٢٧٥–٢٨٩. شفاء القلوب: ١٢٨ – ١٣٠. الكامل لابن الأثير: ١٠/ ٢٢–٢٧. شذرات الذهب: ٤/ ٢٧٤ – ٢٧٥. البداية والنهاية: ١٢/ ٣٢٣ – ٣٢٧. السلوك: ١/ ٩٢– ٩٣. المختصر في أخبار البشر: ٣/ ٧١ – ٧٤. طبقات الشافعية: ٤/ ٣٢٥ – ٣٤١. زبدة الحلب: ج١٦ ص١٩٧ – ٢٠٠ مرآة الزمان: ١/٣٨٩ – ٤٠٢. الإعلام والتبيين: ٨١ – ٨٥. الحروب الصليبية لرفيق التميمي: ١٥٥ – ١٦٧. حياة صلاح الدين الأيوبي لأحمد بيلي: ١٥٣ – ٢١٠. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: ٥٦ – ٦٩. ذيل تاريخ الصوري ج٨/ ٢٧١ – ٣٠٤. تواريخ أسرة بلانتغنت ج٣٠ ص٢٠٥ – ٢٠٦.

The Crusades, by R. Pernqud, 163 – 176. The Art of war. By C.oman, 57 – 73. Crusading warfare by. R, Smail 189- 198. Raymond 111 of tripolis by. M. Baldwin, 96 – 135. AHistory of the crusades, vol I pp 563 – 621. The crusaders in the East, by W. Stevenson, 240 – 250. The crusades, by S. Runciman, vol II, 436 – 474. Lane pool, 197 – 216. Saladin, 195 – 224.

المقالـة الثالثـة

حصــاد حطــين

- توطئـة :

بعد خروج ريموند الثالث، ونجاته من معركة حطين، لم يتجرأ على الذهاب إلى طبرية خشية الاعتقال من قبل قوات صلاح الدين، لذلك سار حتى وصل إلى صور، ومعه قسم كبير من رفاقه[(١)]، ومن هناك ذهب إلى طرابلس، حيث لم يعش طويلاً، ومن صور، كما هو مرجّح كتب فرسان الداوية تقريراً أولياً عن واقعة حطين، وبعثوا به على شكل رسالة مستعجلة مع سفينة كانت راسية في ميناء صور، وحفظ لنا رالف ديسيتو اللندي، وكان معاصراً للأحداث، في تاريخه نصّ هذه الرسالة حيث جاء فيها:

«يا للأسف، ما من رسائل، أو صوت نائح يمكنه أن يصف، أو يعدد المصائب التي أنزلها علينا غضب الرب، نتيجة لإثارته بذنوبنا، فلقد حشد الأتراك جيشاً كبيراً جداً من شعبهم، وغزوا المملكة المسيحية، وحشدنا نحن قواتنا، وزحفنا في يومي الثالث والرابع من تموز، وقاتلناهم، وتحركنا باتجاه طبرية، التي استولوا عليها بالقوة، وذلك باستثناء القلعة فقط، ولقد ساقونا ناكثين

---

(١) ذيل تاريخ وليم الصوري، الموسوعة الشاملة، ٨/ ٣٠٢

نحو شِعْبٍ جبلي، مرعب جداً، وهزمنا هزيمة شنعاء، حتى إن صليب الصلبوت تمَّ الاستيلاء عليه، وقتل ملك القدس، وكذلك مقدمنا، ومعهما جميع جيشنا تقريباً وإخواننا، ونحن على هذا نعتقد أن مئتين وثلاثين رجلاً قطّعت رقابهم في ذلك اليوم، وذلك دون أن نذكر الستين الذين قتلوا في الأول من أيار، وكان كونت طرابلس واللورد أرناط صاحب صيدا، واللورد بالين (أوف إبلين) ونحن أنفسنا قد نجونا من ذلك المعترك المأساوي بكل صعوبة، ووصلنا من هناك، ونحن ممرغون بالدم المسيحي....... وما لم تصلنا المساعدات الربانية، وعون الناس الشرفاء بكل سرعة، لن نكون قادرين على الصمود في وجوههم[١]».

- تحرير المدن الساحلية :

كان تحرير القدس أهم غايات ونتائج معركة حطين، لما لها من مكانة عالية في نفوس العرب والمسلمين، ويقيناً أن صلاح الدين كان أكثر المهتمين بفتح القدس، لكنه قبل أن يبدأ بتحرير القدس قام بسلسة من أعمال التحرير في الساحل لكي يضمن حرمان الصليبيين من القواعد البحرية التي كانت تصلهم بأوربا، كما أنه هدف منها تحقيق الاتصال البحري بين مصر والشام.

في اليوم التالي لحطين استسلمت قلعة طبرية، وعامل صلاح الدين الأميرة إشيفا زوجة ريموند الثالث وأميرة طبرية معاملة حسنة، وسيرها إلى زوجها في طرابلس بمالها وحالها [٢].

---

(١) تواريخ أسرة بلانتغنت، الموسوعة الشاملة، ٣٠/ ٢٠٦.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ٢/ ٢٨٩.

ثم هاجم عكا في الثامن من تموز، وقد افتقرت هذه المدينة - كغيرها - إلى المقاتلين، وكان حاكمها جوسلين الثالث قد نجا من معركة حطين، واعتمد في الدفاع عليها على مساعدة ريموند الثالث أمير طرابلس، لكن ما إن ظهرت طلائع الجيش الإسلامي أمام عكا حتى انهارت المقاومة، واستسلمت لصلاح الدين الذي دخلها في العاشر من تموز، وعامل أهلها بسماحة خلقه الذي اشتهر به، فغنم المسلمون منها غنائم كبيرة؛ لأن المدينة كانت ذات مكانة تجارية مهمة، كما أطلق صلاح الدين أسرى المسلمين الموجودين هناك، ويُقال: إن عددهم بلغ أربعة آلاف، وحوّل كنيستها إلى مسجد، وأقطعها لابنه الأفضل(١).

أثناء إقامة صلاح الدين في عكا سيَّر قواته فاستولت على الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، والشقيف، والفولة، والطور، وغيرها من الحصون القريبة من عكا، في وقت هاجم فيه العادل أخو صلاح الدين المدن الساحلية الفلسطينية فاستولى على يافا وغيرها.

كذلك وجه صلاح الدين قواتٍ بقيادة ابن أخته حسام الدين بن لاجين، فاستولى على سبسطية وتبنين، ثم استسلمت صرفند وصيدا، وبعد حصارٍ قصير استسلمت بيروت لصلاح الدين في السادس من آب، وكانت آنذاك من أحصن مدن الساحل.

كانت جُبيل خاضعة للأمير هيو الثالث، وقد كان من جملة أسرى حطين، وقد عرض على صلاح الدين تسليم جبيل مقابل إطلاق سراحه، وفعلاً لما توجه صلاح الدين إلى جبيل استحضر هيو الثالث من دمشق مقيداً حيث أمر الحامية بالاستسلام، فاستولى عليها صلاح الدين.

---

(١) السلوك، ١/ ٩٣.

ترك صلاح الدين لصليبيي المدن المحررة حرية البقاء أو الخروج، فآثر معظمهم الخروج وساروا إلى مدينة صور، وبذلك غدت هذه المدينة مركزاً ضخماً تجمعت فيه فلول الصليبيين، فأدرك صلاح الدين خطورة تحول المدينة إلى مركز مقاومة صليبي، فتوجه فوراً لحصارها، لكنه أخفق في دخولها بسبب المقاومة الصليبية، فتركها وآثر الانصراف إلى غيرها.

وكانت هذه إحدى أخطائه على قول بعض المؤرخين، لأن هؤلاء شكلوا فيما بعد سنداً للحملة الصليبية الثالثة، وقبل أن يتوجه صلاح الدين إلى القدس سار إلى مدينة عسقلان التي شكلت على الدوام قاعدة للصليبيين انطلقوا منها لمهاجمة مصر،[١] ولقطع طرق المواصلات بينها وبين الشام، وعلى قول ابن واصل إنّ عسقلان شكلت هدفاً مهماً لصلاح الدين.

فرض عليها المسلمون حصاراً قاسياً، وقاومت حاميتها بعناد، وهنا جلب صلاح الدين كل من الملك غي لوزينان ومقدم الداوية جيرارد، من أسرهما في دمشق، لكي يقوما بإقناع حامية عسقلان بالاستسلام مقابل إطلاق سراحهما، لكنهما أخفقا، ورفض أهل عسقلان الاستجابة لهما، وأثناء حصار عسقلان حرر صلاح الدين الرملة، والداروم (الدارون)، وغزة، والنطرون، ولما طال الحصار على عسقلان ونفدت مؤنهم طلبوا الأمان مقابل الاستسلام، فَأَمَّنَهم صلاح الدين، ودخل عسقلان في جمادى الآخرة ٥٨٣هـ/ أيلول سنة ١١٨٧م، وسيَّر أهلها إلى

---

(١) لام ابن الأثير صلاح الدين في إفراطه بالتسامح مع الصليبيين، في حين رأى سبط ابن الجوزي أنه كان من الواجب على صلاح الدين أن لا يُسير الصليبيين إلى صور، وأن يعرض عليهم الإسلام، فإما يسلموا وإلا ضُربت رقابهم، مرآة الزمان، مؤسسة الرسالة العالمية، دمشق، ٢٠١٣، ٢١/ ٣٢٢.

الإسكندرية حيث أمضوا فصل الشتاء هناك تحت حماية صلاح الدين، وفي آذار المقبل تم ترحيلهم إلى أوروبا.

أطلق صلاح الدين سراح جيرارد لجهوده في إقناع غزة بالاستسلام، وسمح لغي بالإقامة في نابلس، وجلب له زوجته من القدس لكي تُقيم معه في نابلس[١].

- **تحرير القدس:**

قرر صلاح الدين بعد هذه الأعمال التحريرية التوجه إلى القدس لتحريرها، فاستدعى جلّ العساكر التي كانت منتشرة في الساحل، وشرع بإلقاء الحصار عليها، وبقي قرابة الأسبوع يطوف حولها ليكتشف أفضل الأماكن لمهاجمتها، ولقد تبين له، أن المنطقة الشمالية هي الأفضل، ولنتذكر هنا أن صلاح الدين لم يعرف القدس من قبل وكذلك أصحابه وجنده، وتقاطر على معسكر صلاح الدين كثير من علماء بلاد الشام وغيرهم من المتطوعة للمشاركة في هذا الجهاد العظيم، ويقال: إن المنجمين قالوا له وقد شرع بحصار القدس: «على نجمك أن تدخل بيت المقدس، وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى وآخذ البلد»[٢]. وكان كل من ابن شداد والعماد الأصفهاني قد شهدا فتح القدس، لكن ما روياه لا يروي الغليل، ولحسن الحظ أن صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري كان ممن شهد وقائع الفتح من داخل المدينة، ومعلوماته على درجة عالية من الأهمية.

---

(١) تناول عدد من المؤرخين فتوحات صلاح الدين بإسهابٍ واسع، منهم: ابن الأثير في الكامل، وأبو شامة في الروضتين، وابن واصل في مفرج الكروب، وابن شداد في النوادر السلطانية، والأصفهاني في الفتح القسي، وغيرهم.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ٣/٣٢٩.

كان قد تجمع في القدس أكثر من ستين ألفاً من الخيالة والرجالة «ما عدا النساء والصبيان»[١]، ولم يكن هناك من الشخصيات القيادية سوى البطريرك، فهو الوحيد الذي لم يخرج إلى حطين، وقد رفض حمل صليب الصلبوت وأعطاه للملك غي، وبعد معركة حطين قدم عليهم بالين دي إبلين، أو (باليان بن بارزان) حسب تسمية المصادر العربية.

كان بالين هذا من شهود معركة حطين، وكان يقود مؤخرة الجيش الصليبي، وهو في الأصل حاكم لتبنين، وزوج ماريا كومينون أرملة عموري الأول، وكان أحد الناجين من معركة حطين مع ريموند الثالث، إذ ذهبا معاً إلى صور، ولما حاصرها صلاح الدين الحصار الأول قبل تحرير القدس خرج إليه بالين وطلب إليه السماح له بالذهاب إلى القدس ليجلب زوجته ماريا، فسمح له صلاح الدين بعد أن أقسم على الإنجيل أنه لن يمكث في القدس أكثر من يوم، لكنه لما دخلها وجدها في حالة من الفوضى وقلة في العسكر، فرأى - بعد توسل أهلها والبطريرك - أنه لا بد من النكث بوعد صلاح الدين والبقاء في المدينة لتحصينها وتنظيم الدفاع عنها، فحلله البطريرك من يمينه لصالح المدينة المقدسة.

إلى جانبه وقف البطريرك هرقل، ووصف أرنول هرقل هذا، فقال: «فهو كان ذكياً، أديباً، وكان أيضاً شخصاً جميلاً»، وعلى الرغم من أنه رجل كنيسة كان على علاقة مع أكثر من امرأة، ورزق من إحداهن ابنة، لكن ذلك لم يزعج أحداً، ولم يؤثر في أوضاع البطريرك ومكانته.

كان صلاح الدين أثناء حصاره لقيسارية، قد أرسل وفداً إلى سكان القدس يعرض عليهم شروطاً للاستسلام، ويعلمهم أنه استولى على كل أرض فلسطين،

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣٤. أبو شامة: الروضتين، ٣/٣٢٩.

وأن بودّه عدم تعريض مدينة القدس للنار وللدمار، ووعدهم بتقديم المساعدات إليهم، وبتقديم المؤن إليهم، وأعطاهم مهلة هدنة لعدة أيام، ومنّاهم أنهم إذا سلموه المدينة سوف يقتادهم هم وأموالهم بسلام إلى الأراضي الواقعة تحت سيطرة الصليبيين، فرفضوا عروضه كلها، وبناءً عليه زحف ضد القدس، وشرع بحصارها يوم الجمعة ١٣ رجب ٥٨٣/ ١٨ أيلول ١١٨٧م، وهنا جدد عروضه على سكان القدس، فردوا عليه يقولون: «مهما تفعل من خير أو شر فلن نسلمك المدينة أبداً»، وكانت القدرات القتالية للصليبيين الذين اعتصموا وراء أسوار القدس، لا تقل عن أربعة أضعاف قوات صلاح الدين، لكنهم كانوا بقايا جيش منهار، نفوسهم مدمّرة، وأرواحهم منهارة، وكان صلاح الدين بنفس جهادية مقبلة قد اتخذ قراره بتحرير المسجد الأقصى، والمدينة المقدسة.

رفض الصليبيون الاستسلام من باب العناد مع محاولة لكسب الوقت، وحاول الصليبيون رد حملات قوات صلاح الدين، لكن تلك الحملات كانت استطلاعية أولية، لأن المسلمين وقائدهم صلاح الدين كانوا لا يعرفون القدس ولا أماكن الضعف في دفاعاتها، ولجأت قوات صلاح الدين إلى قذف المدينة بالنفوط، وكانوا يوجهون قذائفهم نحو الأعلى، ويوقتونها مع كون أشعة الشمس في وجه الصليبيين.

ونقل صلاح الدين مقر قيادته إلى جبل الزيتون، حتى يمكنه مراقبة ما كان يجري في داخل القدس، وشدد الحصار عليها من جهة الشمال، وهاجمت قواته المدينة، ومنعت رمايات نبالته الصليبيين من الظهور فوق الأسوار، وبذلك تمكن المسلمون من الوصول إلى الأسوار وفتح ثلمة فيها.

وكان صلاح الدين رغبة منه في تحرير القدس سليمة بقدر ما هو ممكن «لم يشدد عليها الحصار»، مع ذلك كان الذين في داخل المدينة قد هدّهم الإرهاق، وتداول الصليبيون فيما بينهم بحثاً عن مخرج، فتم الاتفاق على طلب الصلح والأمان من صلاح الدين، وجرى تكليف بالين دي إبلين بالتفاوض معه، وخرج بالين إلى صلاح الدين، والتمس منه التباحث بشأن استسلام المدينة، ورفض صلاح الدين وتشدد في موقفه، وأصرّ على استسلام المدينة دون قيد أو شرط[1]، ثم أمر قواته باعتلاء الأسوار، ومحاولة أخذ المدينة بالقوة، ولم تفلح هذه المحاولة كلياً، لكن كان لها تأثيرها، وطوال عدة أيام تابع بالين دي إبلين التفاوض مع صلاح الدين، وضغط عليه، ثم لجأ إلى إثارة المشاعر الإنسانية لديه، ثمّ وافق صلاح الدين وأعلن أنه سيسمح لهم بمغادرة المدينة بعد دفع فدية، على قاعدة فداء الأسرى، وأن على الجميع فعل ذلك وتنفيذه، ثم جرت مفاوضات جديدة حول تحديد مبلغ الفدية، وأكثر من مرة يدخل بالين إلى القدس ثم يعود ليطلب إلى صلاح الدين تخفيض مبلغ الفدية لأن السواد الأعظم لا يمتلك المال، وفي كل مرة يستجيب صلاح الدين، حتى وصلت إلى ديناراً واحداً عن كل شخص، ذكر أم أنثى، بعد أن كانت أضعاف ذلك، إضافة إلى هذا أعفى صلاح الدين الفقراء من الفدية، وقدم بالين له قائمة بأعداد الرجال القادرين، وأعداد النساء والشيوخ والأطفال، وبعدما تمّ الاتفاق، أعطى صلاح الدين الصليبيين مهلة «أربعين يوماً ليبيعوا أغراضهم أو يرهنوها، ومن ثم يدفعون الفدية، وأنه من وجد بعد ذلك سيكون هو وماله لصلاح الدين، ووعدهم صلاح الدين أنهم عندما

---

(١) الموسوعة الشاملة، ٨/ ٣٠٥ – ٣١٥.

يصبحون خارج المدينة سيرسلهم بأمان إلى بلاد المسيحيين، وقال لباليين: من كان لديه سلاح فليحمله للدفاع عن الذات أثناء الطريق»:

وافق الجميع على الاتفاقية، وجرى حمل مفاتيح الأبواب إلى صلاح الدين، الذي سرّ سرواً عظيماً، وشكر الله، «وأرسل شحنة من الجند من الفرسان والرجالة إلى برج داود (أي قلعة المدينة)، ودخل المسلمون إلى المدينة لشراء الأغراض التي كان المسيحيون يريدون بيعها، وكان اليوم الذي سلّمت فيه القدس إلى صلاح الدين يوم جمعة، وصادف ذلك الثاني من تشرين الأول».

وشاءت قدرة الله أن ذلك اليوم وافق السابع والعشرين من رجب، وهي ذكرى ليلة الإسراء والمعراج التي أسرى فيها الله بنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

والفوارق هائلة بين تحرير صلاح الدين للقدس، وبين استيلاء الصليبيين عليها قبل قرابة القرن، فبدخوله إليها سار على سنن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وضرب المثل الأعلى بأخلاق هذه الأمة، «وزيّن صلاح الدين برج داود وأبواب المدينة»[١]. واجتمع حشد من العلماء المسلمين، مع أفراد البيت الأيوبي، حتى بعض النساء من هذا البيت، وحملت كميات هائلة من ماء الورد من دمشق لغسل الحرم القدسي، لتطهيره، وكان الصليبيون قد أقاموا كنيسة صغيرة في هذا الحرم، فأزالها صلاح الدين، كما جرت إزالة بعض الكتابات والأيقونات من على جدران المسجد الأقصى.

---

(١) الموسوعة الشاملة ٨/ ٣١٥ – ٣٢٢.

وكان الصليبيون قد نصبوا فوق قبة الصخرة صليباً كبير الحجم، فجرى إنزاله وإزالته، ووصف العماد الأصفهاني أحوال قبة الصخرة بقوله: «وأما الصخرة المقدسة، فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة، وأعادوا رسومها دريسة، وستروها بالأبنية، وعوجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هي أشنع من التعرية، وملؤُوها بتصاريف التصاوير، ونبتوا في ترخيمها أشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً، ولا مطمحاً، وقد زيّنوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهّبة، بأعمدة الرخام منصبة، وقالوا محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكان فيها صور الأنعام منبتة في الرخام، والصخرة المقصودة المزورة بما عليها من الأبنية مستورة، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها، وحسر لثامها، وقشر رخامها، ورحض وَضَرَها، ونقض أبنيتها، ونقل حجرها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فبانت من الشين، وبانت للعين، وحبيت بالقبل، وفديت بالمقل، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء الكفر في نحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد».

«وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً، وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقلية، وقيل باعوها بوزنها ذهباً، واتخذوا ذلك مكتسباً، ولما

طهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها، فهي الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام في خدرها وحرزها»[١].

وفي الحقيقة كان الصليبيون قد نقشوا على جدران البيعة التي أقاموها، وعلى جدران قبة الصخرة، وقبة السلسلة وجدران الأقصى أبياتاً من الشعر، ووضعوا أيقونات مثلت المسيح المصلوب، وغير ذلك من المناظر الإنجيلية، وكان من أبيات الشعر:

من الذنب حررت أنا الناس

إذا ما اعترفوا بذنوبهم لــي

وكان من النثر:

«علّ هذا البيت يتمتع بسلام دائم من الأب السرمدي، ولتكن المباركة هي المجد للرب في موضعه المقدس» و«بني بيت الرب بشكل جيد على صخرة ثابتة. مباركون الذين يسكنون في بيتك، ولسوف يحمدونك، ويحمدونك إلى الأبد»، و«في بيتك أيها المولى سوف يتحدث جميع الناس عن مجدك».

لم تغير جميع هذه الإضافات هوية الحرم القدسي.

ولا شك أن أعمال إزالة هذه الإضافات قد استغرق بعض الوقت، لأن العمل كان مزدوجاً: إزالة للمضاف، وإعادة تنظيف وتطهير، وفرش، وتأهيل وترميم، وتحدث العماد الأصفهاني عن إسهام السلطان صلاح الدين بنفسه في أعمال التطهير «أنه حضر يوماً في قبة الصخرة، ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال، فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها، وتولى بيده

---

(١) الروضتين، ٣/ ٣٩٧.

كنس تلك الساحات والعراص، وغسل جدرانها، ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوّعت، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق»[١].

وبعد اكتمال أعمال التطهير، والتأهيل والترميم والفراغ من إجراءات فرش المسجد بالحصر والسجاد وإزالة كل الشوائب، باتت الفرصة مهيأة لإقامة صلاة الجمعة في الأقصى، وكان صلاح الدين يعرف بوجود منبر رائع الصنعة، صنعه من خشب الأرز نجار من بلدة أخترين قرب حلب، لنور الدين أثناء إعداده الخطط لفتح القدس، فأمر بحمل هذا المنبر من حلب، وحمل المنبر مع مرافقة حلبية شامية رائعة، ووضع في الأقصى، وبعد تنافس بين الفقهاء لنيل شرف أول خطبة بعد التحرير، ألقى الفقيه الدمشقي محيي الدين بن زكي الدين أولى خطب الفتح، وكانت من أروع الخطب وأكثرها بلاغة وأقواها تعبيراً[٢].

وكان هذا الحدث من أعظم أحداث تاريخ الإسلام والمسلمين، وشكل محطة علامة دائمة في تاريخ القدس، وما برح الناس – ولا سيما في هذه الأيام – يذكرون هذا الحدث الكبير، وينتظرون تكراره، وكانت أصداء فتح القدس واسعة في الشرق والغرب، ففي الغرب أدت إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة، وفي الشرق تقاطر الشعراء على صلاح الدين، وألقوا قصائد خلّدت هذا الحدث الجلل، وعرض أبو شامة في الروضتين كثيراً من قصائد المناسبة، مفيد أن نقف عند إحداها: كان الرحالة الأندلسي ابن جبير قد زار المشرق، ووصفه، ثم عاد إلى موطنه، وهناك سمع بفتح القدس، فبادر عائداً نحو المشرق ليبايع صلاح الدين باسم أهل المغرب والأندلس، وألقى بين يديه قصيدة طويلة منها قوله:

---

(١) الروضتين، ٣/ ٣٩٩.

(٢) انظر الخطبة في الروضتين، ٣/ ٣٨٤. وأحرق الصهاينة هذا المنبر عام ١٩٦٩.

ثأرت لدين الهدى في العدا **فآثرك الله من ثائر**

تبيت الملوك على فرشهم **وترفل في الزرد السابر**

وتؤثر جاهد عيش الجهاد **على طيب عيشهم الناصر**

وتسهر ليلك في حق من **سيرضيك في جفنك الساهر**

فتحت المقدّس من أرضه **فعادت إلى وصفها الطاهر**

لكم ذخر الله هذا الفتو **ح من الزمن الأول الغابر**

وخصّك من بعد فاروقه **بها لاصطناعك في الآخر**

محبتكم ألقيت في النفوس **بذكر لكم في الورى طائر**[(١)]

وأرسل صلاح الدين رسائل تحوي وصف ما حدث في حطين وبشائر فتح القدس، إلى دار الخلافة في بغداد، وإلى اليمن والحجاز، لا بل إلى كل مكان، وورد في إحدى الرسائل: «تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وقضينا من حق هذا البيت ما وجب، وجاء القدس إلى القدس وزال الرجس وذهب، وتولى فيه الإسلام، وتولى عنه الكفر، وعظم الأجر، وفخم الفخر، وطاب النشر، وزاد البشر، ومحيَ الرجس، وثبت الطهر، وهلك الشرك، وذلّ البطرك، وأُقصِيَ من المسجد الأقصى الساجد للشمس، وتجلّى بنوره الكاشف للبس»[(٢)].

---

(١) الروضتين، ٣/ ٣٧٢.

(٢) الروضتين، ٣/ ٣٥٠.

- **سجايا صلاح الدين :**

وأثناء انشغال صلاح الدين بأعمال تطهير الحرم القدسي، كانت إجراءات إخلاء المدينة من الصليبيين مستمرة، واستغل الصليبيون انشغال السلطان وأريحيته وتسامحه، فتهرب كثير منهم من دفع الفدية، وفي الوقت نفسه تمكن واحد من مرتزقة نبلاء الفرنجة في القسطنطينية واسمه كونراد دي مونتفرّات من الدخول إلى صور، والاعتصام بها، والوقوف في وجه صلاح الدين، مما شكل انتكاسة كبيرة[(١)]، وندع هذا الآن ونعود إلى متابعة أحداث القدس:

وعلى الرغم من انشغال صلاح الدين بشؤون الحرم القدسي، لم يهمل تنفيذ اتفاقيته مع بالين دي إبلين، ولا سيما الحيلولة دون وقوع أعمال انتقامية ضد الصليبيين المغادرين للمدينة، والصورة هنا إنسانية إسلامية مشرقة، بقدر ما كانت صورة احتلال الصليبيين من قبل قرابة القرن لهذه المدينة نفسها مظلمة ودموية ووحشية، فقد قال أرنول في تاريخه: «سأحدثكم عن صلاح الدين، وأصف لكم كيف حافظ على مدينة القدس، وحرص ألاّ يساء إلى أحد المسيحيين الذين كانوا في المدينة، من قبل المسلمين، فقد وضع في كل شارع عدداً من الفرسان والجنود للقيام بحراسة المدينة، وبالفعل حرسوها بشكل جيد، ولم يسمع أحد بأي إساءة قام بها رجل مسلم ضد أي مسيحي، خاصة إذا ذكرنا أن المسيحيين كانوا يخرجون من القدس، ويسكنون أمام جنود المسلمين، ولم يحدث أن أصيب أحدهم من أحد بسهم، فقد أمر صلاح الدين جنوده بحراسة الصليبيين ليلاً ونهاراً لئلا يعتدى عليهم، أو يزعجهم أحد اللصوص»[(٢)].

---

(١) ذيل تاريخ وليم الصوري في الموسوعة،٨/ ٣٠٨ – ٣١٣.

(٢) ذيل تاريخ وليم الصوري في الموسوعة، ص٣٢٣.

وبعدما خرج من المدينة الذين تمكنوا من دفع الفدية، بقي فيها عدد كبير جداً من الفقراء، فالتمس منه أخوه العادل إطلاق بعضهم احتساباً وصدقة، كما التمس منه الشيء نفسه البطريرك وبالين دي إبلين، فاستجاب، وأمر بإعداد واحد من الأبواب الفرعية للمدينة ليخرجوا منه، وأمر بإخراج من كان في السجون «أعداد كبيرة من الشباب والشابات، ثم أخرج المسنين إلى خارج القدس، ودامت هذه العملية من شروق الشمس حتى غروبها، وخرج من المنفذ الذي أعدّ خصيصاً جميع الفقراء الذين تصدّق عليهم صلاح الدين، وكانوا كثرة لذلك لم يعرف أحد عددهم».

ومن المفارقات التي أدهشت المسلمين أن هرقل بطريرك القدس دفع عن نفسه الدنانير العشرة ثم غادر المدينة وهو يحمل عربات من الذهب والفضة التي كانت في الكنيسة، دون أدنى مبالاة بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن حريتهم، أما صلاح الدين فلم يعرض له، وقال: لا أغدر به[١].

واتّسم صلاح الدين بشهامة الفرسان، وكان سلوكه دوماً نحو النساء أخلاقياً كريماً، ولقد أغفل المؤرّخون العرب الحديث عن سلوكه تجاه النساء الصليبيات، في حين ذكر ذلك أرنول في تاريخه الذي ذيل به على تاريخ وليم الصوري إذ قال: «وأحدثكم الآن عن الصنيع الطيب والمجاملة الرائعة التي قام بها صلاح الدين نحو سيدات القدس من نساء الفرسان وبناتهم، والفرسان الذين ماتوا أو أسروا في المعركة، فقد هربن إلى القدس، وبعدما دُفعت فديتهنّ، وخرجن من القدس، ذهبن إلى صلاح الدين وشكرنه بأعلى صوتهن، لما رآهن صلاح الدين سأل عنهن وماذا يطلبن، فقيل له: إنهن نساء وبنات الفرسان الذين ماتوا أو

---

(١) الكامل، ١٠/ ٣٧. مفرج الكروب، ٢/ ٢١٦.

أسروا في المعركة، وسأل ماذا يردن؟ فقيل له: إنهن يردن أن يُشفق عليهنّ، وأن يطلق في سبيل الله مَن أَسَرَهُ مِن أزواجهنّ وآبائهنّ، فقد فقدوا الآن الأرض، ويسألنه من أجل الله أن يجتمعن بهم ليساعدوهن، ولما رآهن صلاح الدين يبكين، أشفق عليهن كثيراً، وقال لهن إنه سيبحث عن رجالهن وسيطلق سراحهم جميعاً، وبالفعل جرى التفتيش وأطلق صلاح الدين سراح كل الذين كانوا في سجنه، وبعد ذلك أمر أن يعطى للسيدات والفتيات اللواتي توفي آباؤهن أو أزواجهن في المعركة كفاية كل واحدة منهن من المال[١]».

وطبعاً كانت هذه مكرمة جديدة من مكارم صلاح الدين، لكن المؤسف أن جميع مكارمه قوبلت من قبل الصليبيين بالنكران والعقوق، إذ تجمّع هؤلاء شروعاً من أنطاكية، وشكلوا – كما سنرى – نواة جيش بقيادة الملك الطليق من الأسر غي لوزينان، توجه نحو عكّا، حيث مهّد لنزول الحملة الصليبية الثالثة قرب هذه المدينة ومن ثم محاصرتها حتى سقوطها استسلاماً.

ولا شك أن صلاح الدين كان متوقعاً العقوق والنكران، ولكن لم يكن بإمكانه التخلي عن أخلاقه الذي جُبل عليها ولا عن سماحته ومُثُله، وقد اتخذ بعض الإجراءات الاحترازية، لذلك لم يتجمع جميع الذين خرجوا من القدس حول الملك غي، فقد كان عدد الذين خرجوا من القدس كبيراً جداً.

فقد قسّم صلاح الدين هؤلاء إلى قسمين رئيسيين: قسم بعث به إلى الإسكندرية، وقَسَّمَ القسم الثاني إلى ثلاثة أقسام «فأخذ الداوية قسماً منهم، وأخذ الاسبتارية قسماً آخر، ثم أخذ البطريرك وبالين الثلث المتبقي، ولما أخذ كلّ قسمه، كلّف صلاح الدين بعضاً من فرسانه أن يقتادوهم بسلام وأمان إلى أراضي

---

(١) أرنول: الموسوعة الشاملة، ٨/ ٣٢٥.

المسيحيين، وسأحدثكم كيف اقتادوهم: سار بعض الفرسان أمامهم في المقدمة، وسار بعضهم الآخر من خلفهم، وكان الذين يسيرون في المقدمة يتوقفون عندما ينامون لإعطاء العلف لخيولهم، وتراهم بعد العشاء جميعاً قد حملوا أسلحتهم وامتطوا ظهور خيولهم، وهم يطوفون طوال الليل بين المسيحيين وحولهم حتى لا يهاجمهم أحد اللصوص، وأما الفرسان الذين كانوا يسيرون في المؤخرة، فكانوا عندما يرون رجلاً أو امرأة أو طفلاً لا يستطيعون السير يترجلون عن ظهور خيولهم، ويسيرون على الأقدام، ويحملون هؤلاء حتى أماكن الاستراحة، وكثيراً ما كانوا أنفسهم يضعون على ظهور خيولهم من أمامهم أو خلفهم الأطفالَ، ولما كانوا يصلون إلى محطات التوقف، كانوا يتناولون طعامهم وينامون، واعتاد الذين يسيرون هذا اليوم في المقدمة السير غداً في المؤخرة، ويتقدم الذين في المؤخرة إلى الأمام، وجرت عادتهم لدى وصولهم إلى ممر ضيق، أو موضع ريبة أو خوف، أنهم كانوا يسلّحون بعض المسيحيين، ويعطونهم بعض الأسلحة التي يحملونها بغية حراسة الممر الضيق حتى يعبر الجميع، ولدى التوقف كان بائعو اللحوم في الأرض يجلبون اللحوم بكثرة»، ومرت القوافل بأراضي كونتية طرابلس، فلقيت أسوأ أنواع المعاملة من سلطات هونين وطرابلس، لذلك جرت مرافقتهم حتى ما بعد أراضي أنطاكية» ودخل بعضهم إلى الأراضي البيزنطية[١]».

وذهب صليبيي قيسارية وعسقلان، وبعض من كان في القدس إلى الإسكندرية حيث «استقبلهم والي الإسكندرية استقبالاً جيداً، فوضع حرساً بينهم وحافظ عليهم ليلاً ونهاراً، واستمر يعاملهم، بمثل هذه المعاملة الطيبة وبحمايتهم

(١) ذيل تاريخ وليم الصوري: الموسوعة الشاملة، ٨/ ٣٢٦ – ٣٢٨.

طيلة الشتاء، فقد مكثوا هناك حتى شهر آذار»، فوقتها وصلت أساطيل بيزا، والبندقية وجنوا، إذ كان يعقد لهم سوق كبير، وفي الوقت الذي كان فيه أهل الإسكندرية «يخرجون فيقدِّمون الهدايا والأعطيات الكبيرة إلى المسيحيين، وكانت من الخبز والخمر والمال». حاول التجار الإيطاليون المتاجرة بالصليبيين، فمنعهم والي الإسكندرية، وأرغمهم على حملهم على ظهور سفنهم لإعادتهم إلى أوروبا بعدما زوّدهم بالخبز وما لزم من حاجيات، ثم إنه جمع أصحاب السفن وقباطنتها وقال لهم: «تقدّموا وأقسموا لي على إنجيلكم بأنكم ستنقلونهم نقلاً جيداً، وستعاملونهم بكرامة حتى يصلوا إلى مرسى السلام في أرض المسيحيين، وأن تضعوهم حيث تضعون الأغنياء، وألاّ تسيئوا إليهم أو تزعجوهم، وإذا سمعت يوماً من الأيام أنكم أسأتم معاملتهم، أو أزعجتموهم، فسأضايق تجار بلادكم الذين يأتون إلى هذا البلد(١)».

ويبدو أن بعض المسلمين الهائجين هاجموا كنيسة القيامة، وأنزلوا الصليب الذي كان فوقها، فتدخلت قوات صلاح الدين وأوقفت جميع انتهاكات حرمة الكنائس، وأثار بعض الناس أمام صلاح الدين مسألة كنيسة القيامة، فاقترح بعضهم هدمها وتعفية آثارها، واعترض بعضهم على ذلك وأيّدهم صلاح الدين بأنه «لا فائدة في هدمها وهدّها، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر، لا ما يشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية، ولو نسفت أرضها في السماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام، أقرّهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان». وبناءً عليه أمر صلاح الدين

---

(١) ذيل تاريخ وليم الصوري: الموسوعة الشاملة، ٨/ ٣٢٧ - ٣٢٩.

بإعادة فتح كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس، وأوكل شؤونها جميعاً إلى السريان الذين كانوا فيها(١).

وكانت القدس منذ العصر البيزنطي فيها مشفى كبير، وقبيل فتحها من قبل المسلمين، كان البطريرك السكندري يوحنا المعطاء قد أقام فيها نواة مشفى، يبدو أن تجار أمالفي قد اهتموا به قبل احتلال المدينة من قبل الصليبيين، وفي الأيام المبكرة للاحتلال الصليبي، صار هذا المشفى مقراً لفرسان رهبان القديس يوحنا، الذين شهروا باسم الاسبتارية نسبة إلى هذا المشفى، وبعد تحرير القدس من قبل صلاح الدين استبقى هذا المشفى دون رهبان الاسبتارية، وعيّن له أموالاً للإنفاق على من يرتاده من المرضى، وأسّس صلاح الدين بالوقت نفسه مشفى جديداً صار يعرف باسم البيمارستان الصلاحي، وأقام بالوقت نفسه مدرسة لتدريس مذهب الإمام الشافعي، عرفت باسم المدرسة الصلاحية، وقد شغلت هذه المدرسة دوراً كبيراً في العصرين الأيوبي والمملوكي، وكان شيخها من أعلى ذوي المراتب في مدينة القدس(٢).

- أعمال التحرير في طرابلس وأنطاكية:

لم يكن تحرير القدس آخر أعمال صلاح الدين، فبعد أن حرر معظم جنوب بلاد الشام، تحول بنظره صوب الشمال، حيث إمارتي أنطاكية وطرابلس

---

(١) ذيل تاريخ وليم الصوري: الموسوعة الشاملة، ٨/ ٣٢٩ – ٣٣٠.

(٢) الأنس الجليل، ٢ /٤١، ٢٩٨. المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي لعبد الجليل حسن عبد المهدي – ط. عمان ١٩٨١، ٢/ ١٨١ – ١٨٧. الموسوعة الفلسطينية – الدراسات العامة، ٢/ ٥٨٧ – ٥٨٨.

بالإضافة إلى صور التي غدت مركز تجمع لصليبيي المدن المحررة، ولما تنبه صلاح الدين لخطورة الموقف فيها حاول – كما سنرى – دخولها فأخفق.

وقبل الحديث عن أحداث الحملة الصليبية الثالثة لا بد من الإشارة – ولو بشكل سريع – إلى أعمال صلاح الدين التحريرية حول إمارتي طرابلس وأنطاكية.

كانت أنطاكية تحكم من قبل البيت النورماني ممثلاً آنذاك ببوهيمند الثالث، وطرابلس تحكم من قبل الأسرة البروفنسالية ممثلة أيضاً بـــ ريموند الثالث الذي نجا من حطين، لكنه لم يعمر طويلاً وعهد بإمارته قبيل وفاته لريموند بن بوهيمند الثالث حاكم أنطاكية، وبذلك انتقل حكم طرابلس إلى البيت النورماني، لكن الذي حكم طرابلس من هذا البيت بعد وفاة ريموند الثالث هو بوهيمند الرابع أخو ريموند الوصي، واستطاع هذا الدفاع عن طرابلس.

حاصر صلاح الدين حصن الأكراد في صيف ٥٨٤هـــ/١١٨٨م فلم يتمكن من دخوله، فتوجه إلى بانياس شمال إمارة طرابلس فاستولى عليها، ثم استولى على جبلة في جمادى الأولى ٥٨٤هـــ/تموز ١١٨٨، ومن بعدها اللاذقية التي شكلت أحد الموانئ المهمة للصليبيين، ومن اللاذقية سار إلى حصن صهيون المنيع فدخله في نهاية ذلك الشهر.

وفي آب استولى على قلعة الشغر، وقلعة بكاس، وهي قلاع تابعة لإمارة أنطاكية في الشمال الغربي على نهر العاصي، كما سيطر على حصن دربساك في أيلول، وفي نهاية هذا الشهر استولى على حصن بغراس، وبهذه الأعمال أصبحت إمارتي أنطاكية وطرابلس مقصوصتي الجناح.

وفي هذا الوقت تعبت جيوش صلاح الدين، ورأى همم الأجناد – ولا سيَّما الغرباء – قد ضعفت، ونياتهم في الجهاد قد فترت[١]، واحتاج الجند إلى مدة من الراحة، لذلك لما وصل رسول أمير أنطاكية «متذللاً يطلب الهدنة، على أن يطلق من عنده من أسارى المسلمين، وهم جميع كبير، عقد معهم هدنة مدة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أيار»[٢].

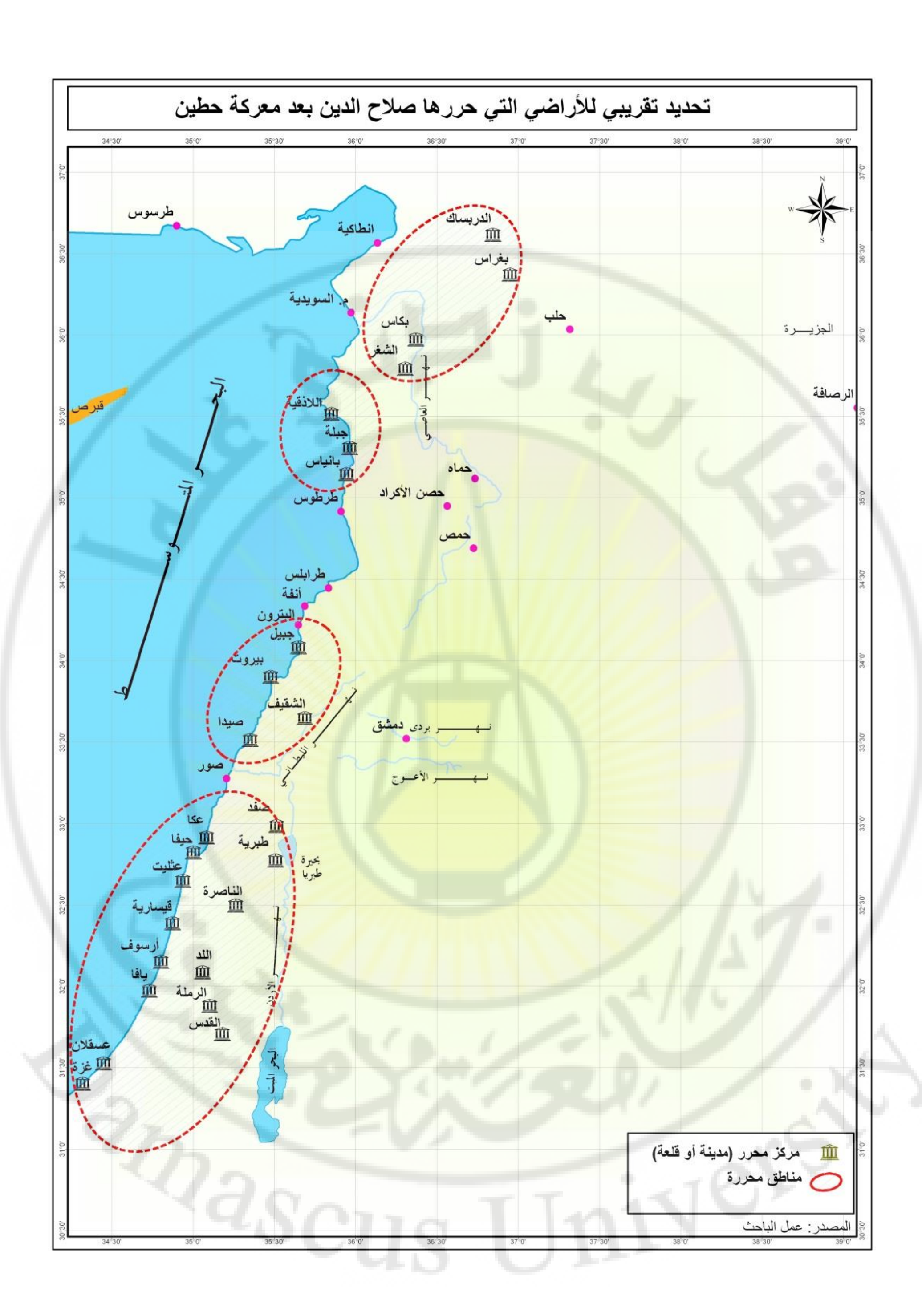
هذه الهدنة خُصصت لإمارة أنطاكية، وبعد أن سرّح صلاح الدين معظم جيشه سار مع جمع من قوامه وهاجم الداوية في قلعة صفد، والاسبتارية في حصن كوكب الهوى، وبعد حصار طويل ومقاومة شرسة دخل صفد أواخر سنة ١١٨٨م، وكوكب أوائل سنة ١١٨٩م.

وأثناء ذلك لازمت بعض القوات حصار حصن الكرك ومنازلته حتى نفدت ذخائر الصليبيين فيه ولم يبق للصبر مجال، فاسلموه أواخر سنة٥٨٤هـ/ ١١٨٨، وبعده بأشهر استسلم حصن الشوبك، ولم يبق بعد ذلك للصليبيين في فلسطين سوى شقيف أرنون، وقد احتمى بها رينو صاحب صيدا بعد أن خسر مدينته، ولما أراد صلاح الدين مهاجمته استسلم مقابل الأمان، لكن الحامية رفضت الاستسلام وظلت تقاوم حتى سقطت في ربيع الأول ٥٨٦هـ/ نيسان سنة ١١٩٠.

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٤/ ٤٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ٤/ ٤٣.


تحديد تقريبي للأراضي التي حررها صلاح الدين بعد معركة حطين
طرسوس
انطاكية
الدربساك
بغراس
م. السويدية
حلب
الجزيـــرة
بكاس
الشغر
الرصافة
قبرص
اللاذقية
جبلة
بانياس
حماه
حصن الأكراد
طرطوس
حمص
طرابلس
أنفة
البترون
جبيل
بيروت
الشقيف
صيدا
دمشق
صور
صفد
عكا
حيفا
طبرية
عثليت
الناصرة
قيسارية
أرسوف
اللد
يافا
الرملة
القدس
عسقلان
غزة
مركز محرر (مدينة أو قلعة)
مناطق محررة
المصدر: عمل الباحث

المقالـة الرابعـة

الموقف الأوربي، والحملة الصليبية الثالثة

- توطئـــة :

بعد قرن من الاحتلال الصليبي، استمر فيه تدفق الأوربيين على أرض الشام، أمكن بضربة واحدة تدمير كل ما بنوه، والزمان لا يعود إلى وراء، وثمار حطين كان لا بد من قطفها، ولا يمكن إيقاف ذلك مهما كانت المعوّقات، لأن الصليبيين كانوا معتصمين في قلاع وفي مدن محصنة، لم يكن من السهل أبداً تصفية وجودهم كلياً، مع أن صلاح الدين بذل كل الجهود الممكنة، ولم يهمل فرصه، لكنه كان يحتاج إلى أضعاف القوات التي كانت تحت تصرفه، كما كان بحاجة مستمرة للوقت وللإنفاق، إذ لم تكن هناك مرابح مالية لا من حطين ولا من فتح القدس، ولا من الأعمال الأخرى، بل كانت خزانة صلاح الدين دوماً خاوية، ولذلك أرغم مراراً على الاستدانة، ولا سيما من أخيه العادل، وصحيح أن النصر في حطين كان من ثمار الوحدة بين بلاد الشام وأرض الكنانة، وأنه بفضل هذه الوحدة كان من الممكن متابعة الصمود والجهاد، لكن نظام الإقطاع العسكري أضرّ كثيراً ببنيان هذه الوحدة، وزاد من سوء هذا النظام سوء تركيب

الأسرة الأيوبية، فما من واحد من أفراد هذه الأسرة شابه صلاح الدين بأخلاقه وكرمه وتقواه وإخلاصه، وصفاء دواعي جهاده في سبيل الله.

ونعاود التذكير أن المحصلة الكبرى لحطين وتحرير القدس كانت إزالة المملكة اللاتينية من الوجود، فهذه المملكة امتلكت السيادة – ولو اسمياً – على جميع الصليبيين في الشرق، ذلك أن الهدف المعلن للحروب الصليبية كان هو القدس وأماكنها المسيحية المقدسة.

وفي الحقيقة استغل صلاح الدين نصره المؤزّر في حطين، وبقوة عزيمته ونشاطه وإصراره حرّر معظم الأراضي والقلاع التي كانت بأيدي الصليبيين واستردها بسرعة خاطفة، وببراعة سياسية تجلت فيها عبقريته، وإنسانيته وأخلاقه، فقد استهدف تحرير الأرض، لا سفك الدماء، ولا كسب الأموال والغنائم، علماً أنه كان يمكنه – دون أن يلام – أن يسفك دماء عشرات الألوف من الصليبيين، وتجلّى هذا السلوك – كما رأينا – في أعمال تحرير القدس، ثم في صموده في وجه الحملة الثالثة، ويكاد الإنسان يقول: لو – إذا كان لكلمة لو مكان في التاريخ – عاش صلاح بعد صلح الرملة عدة سنوات لأزال الوجود الصليبي في الشرق تماماً، ولاختصر من عمر الحروب الصليبية أكثر من قرن، لأن أوضاع أوروبا كانت موائمة لذلك، لكن الذي حدث هو موضوع التاريخ، إذ امتحن الله جلت قدرته هذه الأمة بأفراد الأسرة الأيوبية لسنين طوال.

وفي عودة إلى الأوضاع بعد تحرير القدس نجد أن صلاح الدين حرَّر بعد سلسلة من العمليات العسكرية الصليبية الناجحة خلال أعوام (١١٨٧ – ١١٩٠م) معظم أملاك الصليبيين في الشرق، ولم يبق لهم في مملكة بيت المقدس سوى صور، وفي إمارة طرابلس سوى عاصمتها، وطرطوس، وحصن الأكراد،

وحصون أخرى ثانوية، وفي حين احتفظت إمارة أنطاكية بمدينة أنطاكية وميناء السويدية وحصن المرقب، وهكذا آذن الاحتلال الصليبي بزوال -كما تراءى للمسلمين آنذاك- ولكن شاءت قدرة الله أن يمتحن المسلمين بقرن آخر من الحروب الصليبية.

كثيراً ما تحدث المؤرخون عن قضية مدينة صور، ودورها في نجاح الحملة الصليبية الثالثة، ويتطرف بعضهم في إلقاء اللوم على صلاح الدين لإفراطه في التسامح مع الصليبيين.

كانت مدينة صور حصينة بشكل غير اعتيادي، بفضل موقعها المتميز، وبسبب وصول كثير من الناجين من حطين إليها، يتقدمهم ريموند الثالث صاحب طرابلس، وكان فيها عدد كبير من الجنوية، بالإضافة إلى قطعة بحرية جنوية كبيرة.

وتنبه صلاح الدين إلى خطورة التطورات في صور، فقام بحصارها، قبيل تحرير القدس على الرغم من جميع المعوقات الداخلية، ذلك أن إمكاناته البحرية كانت أضعف من أن تتصدى لإمكانات أوروبة، ولا سيما أساطيل الدويلات الإيطالية: (البندقية، بيزا، جنوى، أمالفي)، ثم إن قواته التي كانت مهيأة لخوض المعارك المكشوفة، لا تملك ما يكفي من الأسلحة الثقيلة، وكانت أنظمة إدارة الإقطاع العسكري تحول بين المقاتلين وبين البقاء تحت السلاح مدة طويلة ولا سيما في مواسم الفلاحة وجني المحصولات.

وعلى الرغم من هذا فقد حاصر صلاح الدين صور، ونجح في تشديد الحصار عليها، وقنط المدافعون عنها، واتصلوا به وفاوضوه على تسليم المدينة، وقبيل موعد التسليم بوقت قصير - كما أشرنا من قبل - وصل إلى صور يوم

٢٤ ربيع الثاني/ ١٤ تموز نبيل كبير اسمه كونراد أوف مونتفرات Canrad of Montferrat، وهو من أقرباء الأسرة الملكية للقدس، وكان قد غادر أوروبا سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م يريد الأراضي المقدسة، لكنه لم يأخذ طريقه إليها مباشرة، بل مكث في القسطنطينية ودخل في خدمة الإمبراطور البيزنطي، وظل كذلك حتى وصلت نداءات ما قبل حطين إلى عاصمة البسفور، فطلب الإذن بالمغادرة، وركب البحر مع أتباعه، واتجه نحو عكا، وجاء وصوله إلى عكا بعد حطين وتحرير صلاح الدين لهذا الميناء المهم، ويُروى أنه لما وصل مشارف ميناء عكا، رأى من المظاهر ما جعله يرتاب؛ لذلك لم يدخلها وتوجه نحو صور، فنزلها وتسلم على الفور شؤون الدفاع عنها.

وصف ابن شداد كونراد هذا بالثبات والقوة والشجاعة، وقال: إنه كان رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد وصرامة عظيمة، وسرعان ما قبل من بداخل صور زعامته، فحال دون سقوط المدينة بيد صلاح الدين [1]، ولما انصرف عنها صلاح الدين إلى القدس استغل كونراد هذه الفرصة، وشرع في تقوية استحكامات صور وإعدادها للمعركة المقبلة.

ولما انتهى صلاح الدين من فتح القدس عاود الكرة على مدينة صور، وحاصرها براً وبحراً، وطال حصارها، لكن دون فائدة، إذ لم يتمكن من دخولها.

ومن صور قام كونراد، مع المقدمين الجديدين للاسبتارية والداوية وجميع الأساقفة اللاتين، بمراسلة ملوك أوروبة الغربية والبابوية ورجال الإقطاع وسواهم طالبين النجدة، حتى ليروى أن كونراد «صوّر القدس في ورقة عظيمة،

---

(١) ابن شداد: المحاسن اليوسفية، ص ٢٠٨.
Lane- pool, 217-250. A History of the Crusades, Vol, II, 45-47. Raymond III.

وصوّر فيه القيامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي قبر فيه بعد صلبه، بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه، وقد وطئ قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع، والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشفة، وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم، فإنها أصل دينهم، فهاج بذلك خلائق لا يحصي عددهم إلا الله تعالى»[1]، كما أرسل كونراد رئيس أساقفة صور واسمه «جوسيه» إلى أوروبا، وحمّله الكثير من رسائل الاستغاثة، ووصل هذا المبعوث أولاً إلى جزيرة صقلية، وهناك قابل ملكها وليم الثاني، الذي استجاب له، وأرسل حملة بحرية نحو شواطئ الشام سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م تمكنت من تقديم المساعدات إلى أنطاكية، وحالت دون سقوط طرابلس بيد صلاح الدين.

اقتصرت المساعدة التي قدمها نورمان صقلية على هذه الحملة، لأن وليم الثاني توفي بعد عام واحد.

تابع جوسيه نشاطه في أوروبا، ولما قابل البابا أوربان الثالث وشرح له حقيقة الموقف، لم يتحمل البابا هذه الأخبار فمات كمداً على إثرها في رجب ٥٨٣هـ/ تشرين الأول ١١٨٧م، وتابع البابا الجديد - غريغوري الثامن - المهمة وأخذ يراسل ملوك أوربا.

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٤/ ١٥١. ابن شداد: المحاسن اليوسفية، ص ٢٠٨.

- الحملة الصليبية الثالثة :

في مطلع سنة ١١٨٩م وصل جوسيه إلى فرنسا، وفي ٢٢ كانون الثاني من ذلك العام، عقد هناك مؤتمر كبير ضم كلاً من فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وهنري الثاني ملك إنكلترا، وعدداً كبيراً من رجالات الكنيسة والنبلاء والإقطاعيين الكبار، وقد استطاع رئيس الأساقفة أن يؤثر في المجتمعين إلى درجة وعدوه فيها بحمل شارة الصليب والتوجه إلى الشرق لاسترداد القدس، وتمّ الاتفاق أن تكون شارة الصليب حمراء للفرنسيين، وبيضاء للإنكليز، وخضراء لسواهم.

وتحمس ملك إنكلترة للذهاب إلى الشرق، فراسل ملوك أوروبا الغربية ودعاهم إلى مشاركته، كما راسل ملك هنغاريا مخبراً إياه بخططه وطالباً إذنه ومساعدته على عبور أراضي هنغاريا، كما راسل الإمبراطور البيزنطي وقدم له المطالب نفسها، وقام الملكان بفرض ضرائب خاصة على شعبيهما عرفت باسم - عُشر صلاح الدين - من أجل تمويل الجيوش.

وعلى الرغم من اتفاق ملكي فرنسا وإنكلترا على حمل شارة الصليب فإن ذلك لم يتم بسرعة، فقد جمع الملكي عداءٌ دائمٌ وعميق الجذور، وحروب قديمة، فلم يكن من السهل أن يتناسيا ذلك ويشتركا معاً في مشروع واحد، فضلاً عن أن كلاً منهما كانت لديه مشاكل داخلية كبيرة، فأدى هذا إلى تأخير تنفيذ رحيلهما إلى الشرق، وضاق عدد كبير من الأوربيين ذرعاً بهذا التأخير، فأخذوا يرحلون نحو الشرق جماعاتٍ وأفراداً، ولعل أشهر من توجه إلى الشرق على رأس حملة كبيرة الإمبراطور فردريل بربروسا، إمبراطور ما عُرف باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

أثناء إعداد فردريك هذا لحملته راسل صلاح الدين يتهدده ويتوعده بعد أن حرّر القدس، لم يخف صلاح الدين من تهديدات الإمبراطور فردريك، وردّ عليه بتهديدات أكبر، انطلاقاً من ثقته بنصر الله وبعدالة القضية التي كان يقاتل من أجلها وفي سبيلها يجاهد.

وقد وصل هذا الإمبراطور بحملته الكبيرة إلى آسية الصغرى، لكنه غرق هناك فتفرق رجاله ولم يبق منهم إلا نحو ثلاثمئة فارس، واصلوا السير إلى أنطاكية ومنها إلى صور، وكثر عدد الأوروبيون الذين وصلوا إلى المشرق، وهذا ما شجع الصليبيين على الأخذ بمبدأ الهجوم ثانية ضد أراضي صلاح الدين وقواته، ولقد متن عزمهم في هذا السبيل توفر الدعم البحري القوي، وانشغال صلاح الدين لوقت طويل أمام قلعة شقيف أرنون.

- **سقوط عكا للصليبيين :**

وكان صلاح الدين قد قام عام حطين بحصار مدينة عسقلان، ولما صعب عليه فتحها فاوض المدافعين عنها، واتفق معهم على تسليمها له شريطة رحيلهم مع أموالهم عنها، وأن يطلق لهم سراح الملك غي، وجيرالد مقدم الداوية، وعدد من كبار النبلاء، ويبدو أن صلاح الدين أخذ العهد على الملك غي قبل أن يطلق سراحه أن لا يحاربه ثانية، وكان هذا ما حدث، لكن الأخير حافظ على عهده مدة سنة كان قد قضاها في طرابلس وأنطاكية، ثم عبر البحر إلى أرواد وعاد لينشط ضد المسلمين بالتوجه نحو عكا.

وتوحي مصادر عصر حطين أن صلاح الدين، كان يعلم بأن غي لن يحفظ عهده، ولن يجد صعوبة في إيجاد رجل دين يحلله من مواثيق إيمانه، إنما أقدم

على تسريحه ليربح عسقلان، وكيلا يُمَلِّك الصليبيون عليهم ملكاً جديداً صاحب قدرات كبيرة، فالملك غي على الرغم من شجاعته كان ملكاً بلا إرادة، وقائداً عسكرياً ضعيفاً.

ومهما يكن الحال فقد تجمع لدى غي نواة جيش جديد، فقرر الزحف نحو عكا مستغلاً إقامة صلاح الدين في بلدة مرج عيون وانشغاله بحصار حصن شقيف أرنون، ومرّ غي أولاً بمدينة صور، وقد منعه كونراد من دخولها، إنما تحالف معه وأمده ببعض المساعدات، ووصلت أخبار تحرك غي إلى صلاح الدين فظنها مناورة صليبية لفك الحصار عن شقيف أرنون، ولكن عندما بلغه توجه الملك نحو عكا سعى لقطع الطريق عليه فأخفق.

وقام صلاح الدين باستدعاء قواته الاحتياطية من كل المناطق، وطلب إليها الاجتماع به في مرج الصفورية، ولما استكمل جمع قواته توجه نحو عكا، فوجدها شبه محاصرة من الجهة الشمالية براً وبحراً مع جزء من الجهة الشرقية، فعسكر صلاح الدين خلف خط الحصار الصليبي شرق المدينة، وملك في البداية ممراً برياً إليها، وآخر من جهة البحر إنما بصعوبة، وكان صلاح الدين قبالة عكا في شهر أيلول عام ١١٨٩م، وفي الأسبوعين الأخيرين لهذا الشهر بدأت قواته بمناوشة المهاجمين الصليبيين، لكنها لم تستطع الالتحام بهم في معركة فاصلة، ويبدو أن قادة الصليبيين تعلموا من الدرس القاسي الذي لقنه إياهم صلاح الدين في حطين[١].

وحل موسم الشتاء بقسوته، وساء حال الصليبيين، ولكنهم صبروا، فقد كانوا غرباء عن البلاد، يعتمدون اعتماداً مطلقاً على ما كانت تحمله إليهم سفن

---

(١) أرنول: ص٣٣٦ – ٣٣٩.

الدويلات الإيطالية من مؤن وأسلحة ورجال، ولقد اعتادت أساطيل هذه الدويلات القدوم إلى الشرق ابتداءً من موسم الربيع، وكانت أثناء وجودها أمام سواحل الشام تملك السيادة عليها، وكان اختفاؤها في فصل الشتاء يعطي الفرصة لأسطول صلاح الدين الصغير بحرية الحركة، وهذا الأسطول كان مصرياً إلى أبعد الحدود، واعتاد حمل المؤن والبضائع من مصر، هذا ولئن أخفق صلاح الدين في اقتلاع الصليبيين من أحواز عكا، فإن سفنه قد استطاعت في شتاء عام ١١٩٠م أن تنقل كميات جيدة من المؤن والذخائر والأسلحة إلى ميناء المدينة، مما ساعد على تقوية الدفاع عنها.

ومع مرور الأيام تعقد الموقف في منطقة عكا، وبدأت وقائع ملحمة عنيفة قد تكون أشد وقائع تاريخ الحروب الصليبية، فيها برزت معايب نظام الإقطاع العسكري الإسلامي، وبانت معالم الخلل السياسي في دولة صلاح الدين، هذه الدولة التي بناها بذاته، فلم تعد أقطارها تملك الصبر حتى تجتث أواصر الوحدة بينها.

وصحيح أن دولة صلاح الدين حافظت على وحدتها الظاهرية حتى وفاته، لكن تمزقها الواقعي يكاد يكون المسؤول الأول عما جرى أمام عكا، ولقد سعى صلاح الدين إلى تدارك الخلل فلم يحالفه النجاح، ذلك أن عمليات سد الخلل كانت تقتضي منه القيام بعمليات عسكرية داخلية، وهذا ما لم يقدم عليه صلاح الدين، بسبب وضع المواجهة أمام عكا، ثم إن صلاح الدين الكهل ليس هو صلاح الدين الشاب[١].

---

(١) أفضل المصادر العربية عن مجريات الحملة الثالثة: البرق الشامي والفتح القسي للعماد الأصفهاني، مع النوادر السلطانية لابن شداد، أما أفضل المصادر اللاتينية: حروب =

ومهما قيل عن انتكاسات ملحمة عكا وسلبيات وحوادث ما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، فإنه ينبغي أن نتذكر دائماً أن نصر حطين حكم على الوجود الصليبي في الشرق حكماً مبرماً بالزوال، فما كان لقوة أن تغير هذا الحكم، وكل ما كانت تستطيعه هو تعويق التنفيذ بعض الوقت، وبعودة إلى كل من إنكلترا وفرنسة، نجد أن هنري الثاني ملك إنكلترة قد توفي، وخلفه ابنه رتشارد الذي شهر بلقب قلب الأسد، فقد أعلن رتشارد عن نيته بالتوجه إلى الشرق، لكن تورطه في الكثير من المشاكل الداخلية والخارجية أعاق سفره، وكما أن حالة نظيره الفرنسي لم تختلف عنه، فقد دعا هذا عدداً كبيراً من نبلاء أوروبة وكبار الإقطاعيين فيها إلى الإبحار نحو منطقة عكا، وما إن حل ربيع ١١٩٠م حتى بدأ سيل من الرجال والعتاد والمؤن من أوروبا يصل إلى عكا، مما أدى إلى تحريك الموقف وتغييره.

ولتزايد قوى الصليبيين، فقد شددوا حصارهم لمدينة عكا، وكان صلاح الدين قد أوكل شؤون الدفاع عنها من الداخل إلى غلامه قراقوش، ويبدو أن خبرته في التحصين والبناء كانت جيدة، فقد سلف له القيام بالإشراف على مهام معمارية حربية في القاهرة وسواها، وشدد الصليبيون ضغطهم على عكا، وحاول صلاح الدين اقتلاعهم من معسكرهم، ورأى إدخال قواته المشاة إلى داخل عكا،

=رتشارد قلب الأسد في قبرص والأرض المقدسة، منشور في الموسوعة الشاملة ج٣١، وأيضاً صليبية رتشارد قلب الأسد، نظمها بالفرنسية القديمة أمبرويز ونُشرت ترجمتها في جزءين في الموسوعة الشاملة ج٣٢ –٣٣. وهناك تواريخ أسرة بلانتغت، انظرها في الموسوعة ج٣٠، وذلك بالإضافة إلى ذيل تاريخ وليم الصوري.

والانقضاض عليهم بفرسانه من الخارج واستدراجهم حتى يتمكن المشاة من الخروج من المدينة وتطويقهم وإبادتهم.

لكن قادة قواته لم يوافقوه، واحتج بعضهم بأن ما يملكون من جند قليل ولا يستطيع القيام بمثل هذه المخاطرة، ويبدو أن الفرنجة قد لاحظوا تردد صلاح الدين، لذلك التحموا به، وأوقعوا به خسائر كبيرة وأجبروه على تغيير معسكره وأحكموا حصار عكا، وقد وصف العماد الأصفهاني الحال حول عكا بقوله: «وصرنا محاصرين المحاصرين، قد أحطنا بالعدو، وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، وأحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها... واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرش والتحرز»[١].

وفي أوروبا اتخذ ملكا فرنسا وإنكلترا قراراً بالإبحار نحو الشرق في جمادى الأولى ٥٨٦هـ/ تموز من عام ١١٩٠م، وهكذا كان ريتشارد في الثاني من تموز في ميناء فيزلي vezlay حيث التقى ملك فرنسة، وفي الرابع من ذلك الشهر أقلع الملكان نحو ليون، وكانت مرسيليا مركزاً لتجمع الأساطيل، وقد أبحرت هذه الأساطيل من فرنسة نحو صقلية مسايرة للشاطئ الإيطالي، وتوقفت الحملة طويلاً في مسينا، وفي نهاية آذار لسنة ١١٩١م أخذ ملك فرنسا الطريق نحو فلسطين، وبعده بأيام أبحر رتشارد على رأس أسطول كبير ضم (١٨٠) سفينة ركاب وحمولة كبيرة، و(٣٩) سفينة حربية، فوصل أولاً إلى كريت، ثم

---

(١) الفتح القسي، ص٢٠٨ – ٣٠٤ .

إلى رودس، وبعدها إلى قبرص، حيث خاض عدة معارك[١]، أثمرت في استيلائه عليها، مما كان له أبعد الآثار في أحداث الحروب الصليبية المقبلة.

وفي أثناء هذا كله كانت المعارك محتدمة حول عكا، وكان صلاح الدين قد وصلت إليه أخبار أساطيل ملكي فرنسة وإنكلترة، مع أخبار قوات جديدة قادمة عبر آسية الصغرى، فأقلقه ذلك غاية الإقلاق، فقام بإعداد بعثات زودها برسائل إلى خليفة بغداد وأمراء الموصل والجزيرة، كما أصدر تعليماته بتقوية أسطول مصر، وفي الوقت نفسه راسل مراكش، ربما للمرة الثانية، وكان على عرشها يعقوب المنصور الموحدي، وكانت دولة الموحدين آنذاك في ذروة قوتها، تملك من الجيوش الكثير، مع أساطيل كبيرة وقوية، وسواحلها المتوسطية تمتد من ليبيا إلى جبل طارق، وتشمل سواحل الأندلس، وكان بإمكانها إعاقة الملاحة في مضيق مسينا إن لم نقل السيطرة عليه.

واستجاب أمراء الشرق لنداءات صلاح الدين، ووعد خليفة بغداد بإرسال بعض النجدات، وسارع ببعث جماعة من النفاطين، كما أذن باقتراض مبلغ /٢٠/ ألف دينار من تجار بغداد لإنفاقها في الجهاد، ولم يستجب المنصور الموحدي، واختلف المؤرخون في تعليل أسباب ذلك، ولعل أهم سبب كمن في التوسع الأيوبي في ليبيا الملاصقة لأراضي تونس الموحدية، ومهما كان الحال، فقد بات الآن على صلاح الدين تحمل أعباء التصدي للحملة الجديدة بطاقاته الذاتية.

ففي مطلع جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/ حزيران لعام ١١٩١م كانت أساطيل ملك فرنسا وصلت، وبعد ذلك غادرت سفن رتشارد قبرص، واتجهت نحو صور، فلم يُسمح لها بدخولها حسب تعليمات كونراد، فتوجه إلى عكا، وكان قد

---

(١) أرنول، ص٣٦٦ – ٣٧١.

مضى على حصارها عامان، أبدى المدافعون خلالهما ضروباً من البطولة النادرة، ولقد شارك شعب بلاد الشام جميعاً في الصراع، وظهرت بطولات فردية نادرة، فلما شدد الحصار على المدينة، استخدم المقاتلون العرب السباحة للوصول إلى المدينة، على طريقة «الضفادع البشرية» وغيرها من الطرائق.

وقلّت المؤن داخل عكا، وكاد العتاد ينفد، وكان الصليبيون متفوقين في تقنية صناعة الأبراج المتحركة وغيرها من وسائل القتال الجماعي وأدوات الحصار.

وبعد وصول رتشارد وفيليب بقرابة شهر تقريباً بدأ الصليبيون بتضييق الخناق على عكا، وابتغوا أولاً خلخلة دفاعاتها، وبذل صلاح الدين كل ما لديه من طاقات لتخفيف شدة الحصار على المدينة وإيصال بعض المساعدات إلى داخلها فأخفق، وهكذا تلقى من المدافعين عن عكا رسالة فيها:

«إنّا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلاّ التسليم، ونحن في الغد إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا»[١]، ومجدداً وضح أن صلاح الدين عاجز عن القيام بأي شيء، وقام المدافعون عن عكا بالاتصال بالفرنجة وفاوضوهم، واتفقوا معهم «على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب، ومئتي ألف دينار، وألف وخمسمئة أسير مجاهيل الأحوال، ومئة فارس معينين من جانبهم، يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم، وذراريهم ونسائهم»[٢].

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٤/ ٢٥٥. ابن شداد: المحاسن اليوسفية، ص ٢٥٥.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ٤/ ٢٦٢. ابن شداد: المحاسن اليوسفية، ص ٢٥٧.

وفوجئ صلاح الدين بخبر الاتفاق، وحاول القيام بعمل ما لإيقاف التنفيذ، «وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوّام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه»، فما أحس إلا وأعلام الصليبيين قد ارتفعت فوق أسوار عكا، يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/ ١٢ تموز ١١٩١[١].

وكان أثر سقوط عكا على صلاح الدين مفجعاً، لكنه تحمله، وأصدر أوامره بالانسحاب إلى الخلف مسافة قصيرة، وبات عليه التحرك بسرعة وفي عدة اتجاهات:

فقد صار عليه التصدي للتحرك المقبل للصليبيين، وإنقاذ جنده الذين كانوا داخل المدينة، ذلك أن الصليبيين عدوّهم أسرى لديهم، أو رهائن حتى يتم تنفيذ بنود الاتفاق.

وراسل الأسرى صلاح الدين كما راسله ريتشارد قلب الأسد الذي صار المسؤول الأول عن الصليبيين، ذلك أن فيليب ملك فرنسا رحل عائداً نحو بلاده، إثر سقوط عكا، وقد أعلن صلاح الدين نيته التزام بنود الاتفاق والعمل على تنفيذه، فقام بجمع الأموال المطلوبة، وأحضر صليب الصلبوت مع عدد كبير من أسرى الصليبيين، وجاء وفد صليبي إلى معسكر صلاح الدين ليشاهد المال والصليب والأسرى، وهنا حصل خلاف حول الأسرى، وجرت محاولات لتسوية هذا الخلاف، فباءت كلها بالإخفاق.

وكان ريتشارد قلب الأسد متهوراً ومتعجرفاً، في طباعه رعونة، وفي أخلاقه ميل شديد إلى سفك الدماء واللا مبالاة، لذلك قام أثناء المفاوضات بإصدار

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٤/ ٢٦٢. ابن شداد: المحاسن اليوسفية، ص ٢٥٨.
A History of the Crusades II, 48 – 70. Lane- Pool, 242 – 278, Saladin, 212 – 216.

أوامره بإحضار الأسرى في الحبال، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم، وأوقف هؤلاء الأسرى في ساحة مكشوفة، وحشد فرسانه، وقام هو وهم «وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبراً، طعناً وضرباً بالسيف»(١).

وهكذا أضاف رتشارد إلى السجل الدموي لتاريخ الصليبيين وأعمالهم في الشرق فقرة جديدة، لم يقتصر أثرها هذه المرة على المؤرخين والإخباريين العرب واللاتين، وإنما حفظها لنا صاحب ملحمة كتبت في القرن الثاني عشر بالنورماندية القديمة وحملت اسمه، وقام صاحب الملحمة برواية أخبار الأحداث روايةً رهيبةً، فريتشارد لم يكتف بسفك دماء العرب من أسرى وسواهم، وإنما أقدم على أكل لحوم القتلى منهم وذلك بعد طهيها، وأصدر أوامره لجنده بفعل ذلك(٢).

ومن جديد تحمل صلاح الدين ما نزل به، ولم يشغله حزنه عن رصد نوايا ريتشارد، وتحركاته، ولا سيما بعد أن علم بأن ريتشارد قد أعاد ترميم أسوار عكا وتحصيناتها.

- أعمال ريتشارد والحملة الصليبية الثالثة:

في مطلع شهر شعبان سنة ٥٨٧هـ/آب ١١٩١م بدأ تحرك الجيوش الصليبية بقيادة ريتشار قلب الأسد، فاتجه جنوباً على محاذاة الشريط الساحلي يريد استرداد شاطئ فلسطين، وعلم صلاح الدين بتحركهم، وبان له أن الوجهة هي عسقلان ومنها إلى القدس، فقاد قواته وسار على محور مقابل لمحور تحرك

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٤/ ٢٦٩. ابن شداد: المحاسن اليوسفية، ص ٢٦٣.

(٢) أرنول: ص٣٩٩ – ٤٠٧. أمبرويز: الموسوعة الشاملة، ٣٢ /٣٢٧ – ٣٤٥. حروب ريتشارد: الموسوعة الشاملة، ٣١ /٨٦ – ٩٧.

القوات الصليبية، وأثناء ذلك جرت مناوشات بين الطرفين، وحاول صلاح الدين أكثر من مرة استدراج الصليبيين إلى معركة مكشوفة فلم يُفلح، وكان ريتشارد في غاية الحذر.

استولى الصليبيون على حيفا بعد أن أخلتها الحامية الإسلامية، واستأنفوا مسيرهم جنوباً نحو قيسارية، فاستولوا عليها في جمادى الأولى ٥٨٧هـ/ آب ١١٩١م، فوجدوها مُخرَّبة ولم يحصلوا منها على زاد ولا مال، ثم تابع ريتشارد المسير إلى أرسوف على الرغم مما لاقوه من مصاعب.

خشي ريتشارد أن يعد له صلاح الدين كميناً في غابة أرسوف، لذلك قام قبل وصوله إلى أرسوف بمراسلة الملك العادل، أخي صلاح الدين، وأبرز رجالات دولته، وتمّ الاتفاق على عقد اجتماع بين ريتشارد والملك العادل، وفي ذلك الاجتماع طلب ريتشارد عقد صلح مع صلاح الدين، مقابل إعادة كل الأراضي التي حررت للصليبيين، فأخشن العادل له الجواب، وأرفض الاجتماع دون نتيجة [١].

وفي منطقة أرسوف حاول صلاح الدين إنزال ضربة قاصمة بجيش ريتشارد، فلم يُفلح، بل حدث العكس، ففي تلك المعركة التي دارت في ١٥ شعبان ٥٨٧هـ/٧ أيلول ١١٩١م، هزمت قوات المسلمين، وتفرق شملها، ويعد المؤرخين تلك الوقعة نقطة تحول فاصلة في تاريخ الحروب الصليبية لصالح الصليبيين، فهذه المعركة بعثت في نفوس الصليبيين الشعور بالثقة بعد طول هزائم، وقد أظهر ابن شداد أسفه لتلك الهزيمة، وعبَّرَ عن شعور صلاح الدين

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٧٤.

بأنه كان في قلبه من تلك الواقعة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، والناس بين جريح الجسد، وجريح القلب[1].

وبات الآن صلاح الدين وجنده على قناعة أنهم لن يستطيعوا هزيمة الصليبيين، لذلك سارع صلاح الدين من أرسوف إلى يافا القريبة، فأخلاها وهدم أسوارها ودفاعاتها لكي لا يستفيد منها الصليبيين، ثم قصد عسقلان، فكرر بها ما صنعه في يافا، ومن هناك أخذ الطريق إلى الرملة فالقدس، فوصلها في نهاية سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، حيث شرع في تقوية دفاعات المدينة.

لم يستغل ريتشارد نصره بهجوم مفاجئ على المسلمين، بل أضاع شهري شعبان ورمضان/ أيلول وتشرين الأول في إعادة بناء يافا، بشكل مكّن صلاح الدين من إعادة تنظيم صفوفه، وتدمير عسقلان، وقد أيقن الصليبيون أن السيطرة على عسقلان ويافا أمر ضروري لبقائهم في بيت المقدس، فاهتمام ريتشارد بتعمير يافا لا يقل عن اهتمام صلاح الدين بهدم عسقلان.

سار ريتشارد من يافا إلى القدس مروراً بالرملة التي كان صلاح الدين قد هدمهما أيضاً، ومنها سار إلى النطرون في منتصف الطريق بين الرملة والقدس، لكن حل عليه شتاء سنة ١١٩١م بقسوة أجبرته على العودة إلى الرملة.

وخلال ذلك دارت مفاوضات طويلة، ناب فيها العادل عن أخيه صلاح الدين، وطُرح فيها أكثر من حل، كان من بينها زواج سياسي بين العادل وأخت ريتشارد أرملة ملك صقلية، لكن ذلك كله لم يثمر عن نتيجة مفيدة.

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٧٥-٢٧٧.

في ذلك الوقت وصلت ريتشارد أخبار سيئة من الغرب تؤكد ثورة أخيه حنا ضده، مما تَطَلَّب منه سرعة العودة إلى بلاده، وكان عليه قبل ذلك حل النزاع الذي استحكم بين كونراد دي مونتفورت، وغي لوزينان ملك بيت المقدس[1]، وكان عليه أيضاً أن يتوصل إلى حل مع صلاح الدين.

أخفقت المفاوضات بين الطرفين بسبب تشدد صلاح الدين، فكرر ريتشارد هجومه على القدس، ووصلت قواته إلى قلونية على بعد ثمانية كيلو مترات إلى الشمال الغربي من القدس، كما تمكنوا من مباغتة قافلة عسكرية قادمة من مصر لمساعدة المسلمين في القدس.

وهنا بدأ التخاذل يدب بين صفوف أمراء جيش صلاح الدين، فقد أراد صلاح الدين اتخاذ موقف الدفاع داخل القدس، وعقد لهذه الغاية مجلساً حربياً ضم كبار قادة جيشه، وافتتح صلاح الدين ذلك المجلس بخطاب الحضور بقوله: ».الحمد لله، والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته،

---

(١) وقع صراع ونزاع حاد بين كونراد وغي، وسببه أن سيبلا زوجة غي، والتي أوصلته لعرش المملكة، توفيت في تشرين الأول ١١٩٠م، وبذلك أصبحت أختها إيزابيلا ابنة عموري هي الوريثة لعرش المملكة، ولم يعد لغي المكروه من قبل الأمراء حق في المملكة، فأسرع الأمراء إلى تطليق إيزابيلا من زوجها الخامل همفري الرابع وتزويجها من كونراد الذي نال ثقة الأمراء، وبذلك حدث انشقاق خطير في صفوف الصليبيين، واستمر حتى دنت ساعة رحيل ريتشارد، فجمع الأمراء على عجل، واستفتاهم في مشكلة: أيهما أحق بعرش المملكة، فوقع الاختيار على كونراد بشكل شبه إجماعي، في نيسان سنة ١١٩٢م، لكن لم يدم ذلك طويلاً، ففي نهاية ذلك الشهر وجد كونراد مقتولاً، ويقال: إنه قتل على يد الباطنية بتحريض من ريتشارد.

وبعد ذلك جرى اختيار هنري دي شامبين – ابن أخت ريتشارد – لعرش المملكة، وتزوج إيزابيلا وريثة العرش، في أيار ١١٩٢م، وتم إحياء المملكة في عكا.

أما غي لوزينان فقد تم إرضاؤه بمنحه جزيرة قبرص التي كانت من أملاك ريتشارد، فأسس فيها دولة آل لوزينان التي استمرت تحكم الجزيرة قرابة قرونٍ ثلاثة. (١١٩٢ – ١٤٧٢م).

وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، فإن هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم – والعياذ بالله – طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأكلتم بيت المال، والمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام».

وردّ القادة على صلاح الدين بكلام حماسي عام طيبوا به خاطره، وتفرقوا عنه، ولكن ما لبثوا في مساء ذلك اليوم أن أبلغوه أنهم بعد اجتماعهم ببقية قادة الجيش، رفضوا فكرة أخذ الموقف الدفاعي «وقالوا: لا مصلحة في ذلك فإنا نخاف أن نحاصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع، والرأي أن نلقي مصافاً، فإن قدر الله تعالى أن يهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى سلم العسكر، ومضى القدس، وقد انحفظت بلاد الإسلام بعساكرها مدة بغير القدس».

ويصف ابن شداد حال صلاح الدين حين بلغه موقف القادة هذا بقوله: «وكان – رحمه الله– عنده من القدس أمر عظيم، فشق عليه هذه الرسالة، وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح، وهي من الليالي التي أحياها... وكان عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال... ولما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة»(١).

لم يقتصر الخلاف على أمراء المسلمين، بل سرعان ما دب بين أمراء الصليبيين، إذ انقسموا بين مؤيد ومعارض للزحف على القدس، وانتهى الأمر بأن تقرر عدم الزحف على القدس، ثم انسحبوا إلى الرملة وأرسلوا رسلهم في طلب الصلح.

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٤/ ٣٠٨. ابن شداد: المحاسن اليوسفية، ص ٣٢٢.

كان الطرفان بحاجة إلى الصلح، فريتشارد يريد العودة السريعة إلى بلاده، وصلاح الدين رغب في التفرغ لشؤون دولته، فبدأت المفاوضات، وأصيب خلال ذلك الوقت ريتشارد بمرض شديد، وقام صلاح الدين بإرسال طبيب خاص لمعالجته، وأتحفه ببعض الأدوية والأطعمة والفواكه والهدايا، وكان لهذا كله أثره في المفاوضات التي أثمرت أخيراً باتفاق عرف باسم «صلح الرملة» تمّت الموافقة عليه في ٢٣/ شعبان ٥٨٨هـ/ ٣ أيلول ١١٩٢م).

وقضى هذا الاتفاق بـــ:

١- بقاء الشريط الساحلي الضيق الممتد من يافا حتى صور بيد الصليبيين.

٢- إعادة عسقلان إلى صلاح الدين شريطة هدم أسوارها.

٣- امتلاك صلاح الدين للمنطقة الساحلية الجنوبية شروعاً من عسقلان.

٤- احتفاظ صلاح الدين بالقدس.

٥- السماح للحجاج المسيحيين بالوصول إلى القدس.

٦- حرية تنقل الأفراد والتجار بين البلدين.

٧- السماح لكل من أنطاكية وطرابلس الدخول بهذا الاتفاق إذا رغبتا.

٨- مدة الاتفاق ثلاث سنوات.

بعدما أبرم الصلح «غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى»، لكن صلاح الدين كان على عكس الناس حزيناً، ذلك أنه كما ذكر ابن شداد «إن الصلح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي- رحمه الله – في بعض محاوراته في الصلح: أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم،

وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تله – يعني حصنه – وقال: لا أنزل، ويهلك المسلمون».

ومهما يكن الحال فقد توجه ريتشارد إثر إبرام الصلح إلى عكا في التاسع من شهر تشرين الأول من العام نفسه، وركب البحر عائداً نحو أوروبا، وبذلك انتهت وقائع ما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، وانتهت معها أهم أيام حياته، وأكبر إنجازاته.

أما صلاح الدين، فقد سرّح قواته، وتوجه من الرملة إلى القدس، وعقد النية على القيام بجولة تفقدية على جميع مناطق دولته في الشام أولاً ثم مصر، وأعلن رغبته بقصد الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، ومن القدس توجه إلى دمشق حيث استقر في قلعتها، لكن ليس طويلاً إذ ما لبث أن حلّ به المرض، فألزمه فراشه قرابة أسبوعين غَشِيَ أَهْلَ دمشق خلالها «من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته»، ويقول ابن شداد واصفاً الناس حول القلعة بعد خروجه من زيارة صلاح الدين في مرضه: «كنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا»..

وفي صباح الأربعاء ٢٧/ صفر ٥٨٩ هـ/٤ آذار ١١٩٣ توفي صلاح الدين فكان «يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ أن فقدوا الخلفاء الراشدين، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث إلاّ على ضرب من التجوز والترخص إلاّ ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفُدي بالنفس»[١].

---

(١) ابن شداد: ص ٣٦٤.

وجهّز صلاح الدين ودفن أولاً في قلعة دمشق، ثم نقل بعد ذلك إلى موقع قريب من المسجد الأموي في منطقة كان اسمها الكلاسة، وحوت أرض دمشق الخالدة جسده الطاهر، وبوفاته طويت صفحة المرحلة الثالثة من مراحل حرب الاسترداد العربية، وهي أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية وأجلّها حوادث وأهمها إنجازات، ولعل من أبلغ الدلالات على أهميتها وخلودها أنها ارتبطت بخلود دمشق وبعظمة صلاح الدين الأيوبي.

المطلب السادس

دول البيـت الأيـوبـي



توطئـة

شغل صلاح الدين الأيوبي مكانة عظيمة في التاريخ الإسلامي، كأحد أبطاله الأباة الذين سخروا طاقاتهم، وأجسادهم، وصرفوا عمرهم للذود عن أرضهم وشعبهم، وستبقى مكانته عظيمة أبد الدهر، وسيبقى التاريخ مديناً له في تسطيره لأروع صفحات الجهاد والتسامح، والعمل في سبيل الوحدة، وتحرير الإنسان والأرض.

«ولقد كان حبه للجهاد، والشغف به، قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى لمن يُذَكَّرُه ويحثّه عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله، وأولاده، ووطنه، وسكنه، وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته، ولا يزيده ذلك إلاّ رغبةً ومصابرةً واهتماماً»[(١)].

حتى الأعداء، الذين ذاقوا على يديه أمَرَّ الهزائم، لم يخفوا إعجابهم بشخصية وفروسية هذا «العدو النبيل»، وبلغ الأمر بالصليبيين أن نسجوا الأساطير حوله، فادعى الفرنسيون له نسباً فرنسياً نبيلاً، وكذلك ادعى الإنكليز،

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٥٣.

فعدوه حفيد أسرة إنكليزية نبيلة، في حين أن «توماس بكت» أحد مشاهيرهم، جعلوه ابناً لأم عربية من نسل صلاح الدين، وفي الكوميديا الإلهية ذكره دانتي بكل تقدير واحترام، أما أرنول صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري فقد وجد نفسه مُرغماً على أن يتحدث بإسهاب عن أخلاق صلاح الدين وبطولاته.

وللأسف جرى بعض الكتاب - من أبناء هذه الأمة - في هذه الأيام على تتبع الثغرات والمثالب في حياة صلاح الدين، فجعلوها قضايا رئيسية ومفصلية في تاريخه وتاريخ الأمة، متجاهلين خصوصية ذلك العصر الذي كان فيه صلاح الدين، والظروف الاستثنائية التي كانت تعيشها الأمة آنذاك، وأن الهدف الأول، والشغل الشاغل، كان هو تحرير الأرض، وإنقاذ الأمة، وفي هذا حقق صلاح الدين ما عجز عنه من كان قبله، ومن أتى بعده، وغير ذلك من أمور فلم يكن يعني شيئاً لأهل ذلك الزمان، وصلاح الدين لم يفعل ما فعله لغايات شخصية، إنما لضرورات فرضتها حاجات الأمة، فهو لم يقف مع العباسيين ضد الفاطميين، إنما وقف في صالح المسلمين، «ومن أجل صالح الإسلام والمسلمين، فإننا نعطي الأولوية لكل ما يوحد قواهم، ويجمع كلمتهم»(١)، فحكم العاضد سقط فعلياً قبل أن يسقطه صلاح الدين، ولما حدث ذلك لم يلق صلاح الدين ردّات فعل شعبية، بل قبولاً عاماً، وأتت ردّات الفعل من رجال السلطة، أولئك الذين لم يَنْهَهُمْ دينهم ولا وطنيتهم عن التحالف مراراً مع الصليبيين.

وكان مما يؤخذ على صلاح الدين أنه قسَّم دولته بين أبنائه، وفي الحقيقة هو لم يكن تقسيماً كما يقال، فلا يمكن لأي إنسان منصف أن يعتقد بأن صلاح الدين، الذي صرف معظم عمره في حروب طاحنة لتوحيد الجبهة الإسلامية، أن

---

(١) ورد ذلك في رسالة أرسلها صلاح الدين للخليفة في بغداد، وهي من إنشاء القاضي الفاضل.

يقوم بسهولة بتقسيمها بيده، والذي حدث أنه وضع نواباً، ويبدو أنه منحهم صلاحيات واسعة، فظن كل واحد منهم بعد وفاة صلاح الدين – بحكم قرابتهم منه – أنه حاكم مطلق، ثم بدأ يتطلع إلى أملاك غيره.

لقد كان نظام الإقطاع العسكري أهم مزايا الحكم السلجوقي التركي، وهو النظام الإداري الرئيس الذي اعتُمد عليه آنذاك لإدارة أقاليم الدولة، وقد فرضته طبيعة الحكم السلجوقي البدوي، والتكوين القبلي لجيوشهم، ولما كانت الدولة الزنكية، ومن بعدها الأيوبية، تعدان دولتين وريثتين للدولة السلجوقية، ورثتا أيضاً أنظمتها الإدارية.

الإقطاع العسكري له جذور قديمة، فقد ظهر في الدولة الإسلامية أيام تحكم الجند الديالمة بشؤون الخلافة العباسية، وقد اقتبسه الديالمة عن أنظمة فارسية بابلية قديمة، وعند قيام السلطنة السلجوقية، تعزز وجوده، وأقيم على أصوله مع الوزير السلجوقي الشهير «نظام الملك».

وكانت السمة الرئيسية في هذا النظام، هي إعطاء أرض أو مدينة أو إقليم كامل لشخص، غالباً ما كان قائداً عسكرياً، يتوجب عليه إدارته مقابل خدمات عينية ومادية، يؤديها للدولة.

وجرياً عليه، وبسبب ظروف الحروب الصليبية، وزَّعَ صلاح الدين أقاليم الدولة على إخوته وأبنائه من أجل تسهيل الإدارة وتجنيد القوات، وليس من باب التقسيم، فلما وزَّعَ الولايات اعتمد على الأشخاص الأكفاء من البيت الأيوبي، ولم يعتمد في ذلك على العاطفة، فقد كان لديه سبعة عشر ولداً، لكنه لم يعتمد إلا على ثلاثة منهم، هم: الأفضل علي، والعزيز عثمان، والظاهر غازي، أما الآخرون فلم يولهم، وولى أخاه العادل، وابن أخيه تقي الدين عمر وآخرين.

والدليل على أنه لم يرد التقسيم؛ إعادته توزيع الإدارة أكثر من مرة، لكي لا يستقر أحدٌ منهم في ولاية، ولا يتجذر بها، فقد كان أخوه العادل نائباً في حلب، وابن أخيه تقي الدين عمر في مصر ومعه الأفضل علي بن صلاح الدين، أما أسد الدين شيركوه الثاني فقد كان في حمص، لكن في سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م أعاد التوزيع على النحو الآتي:

جعل ابنه الأفضل علياً والياً على دمشق، وعهد إليه بالسلطنة من بعده، وأرسل ابنه الظاهر غازياً والياً على حلب، والعزيز عثمان والياً على مصر، وأخاه العادل في الكرك، فضلاً عن إقطاعات عديدة له في الجزيرة الفراتية، ولما طلب إليه العادل أن يكتب له بولاية حلب كتاباً ككتاب البيع والشراء، أجابه: «أظننت أن البلاد تباع؟ أوَ ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها؟ ونحن خزنة للمسلمين، ورعاة للدين، وحراس لأموالهم»[١].

وقد راعى صلاح الدين في توزيعه الإدارات، قضية الصراع مع الصليبيين، وطبيعة الإقليم البشرية والجغرافية، فنحن نعلم أن بلاد الشام تتوزع على أنماط جغرافية واجتماعية عديدة، فمن نمط البادية، إلى نمط السهول، إلى نمط الجبال، وهذا كان من أهم عوامل تجزئتها على مر التاريخ، ومن أهم أسباب تنوعها المذهبي والديني، في حين أن مصر كانت ولم تزل كتلة واحدة متماسكة -حسب تعبير الكاتب جمال حمدان- لذلك نجد مصر على ضخامتها ولاية واحدة في كل العصور، أما بلاد الشام فكانت ولايات عديدة، سواء في العصر الأيوبي، أم المملوكي، أم العثماني، وفي العصر الأيوبي لما وزع صلاح الدين ولاته راعى النقاط الآتية:

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ٣/ ١٩٣.

وضع ابنه الظاهر غازياً والياً على حلب، ومهمته الرئيسية كانت مراقبة إمارة أنطاكية الصليبية، ثم وضع ناصر الدين بن أسد الدين والياً على حمص، وكلفه مراقبة شؤون كونتية طرابلس الصليبية ومتابعتها، وكانت حماة في ظل قيادة ابن عمه تقي الدين عمر - وهو أشهر أبناء البيت الأيوبي - مهمتها مراقبة اسبتارية حصن الأكراد وما حوله، أما مراقبة القدس وأراضي فلسطين فقد كُلِّفتها نيابة دمشق بقيادتها ثم بقيادة ابنه الأفضل علي، وكُلفت الكرك تحت قيادة أخيه العادل مراقبة الطريق بين بلاد الشام ومصر.

لكن، وللأسف، لم يتمتع أحد من هؤلاء بمؤهلات صلاح الدين وقدراته، والذي حَصلَ أنه بعد وفاته ظنَّ كل واحد من هؤلاء أنه مستقل تماماً عن الآخر، وأنه هو المؤهل لوراثة صلاح الدين، ولممارسة الزعامة والقيادة، فلم يتورع أحدٌ منهم عن استغلال الفرص للتوسع على حساب الآخر، ونتج عن ذلك أن دخل البيت الأيوبي في سلسلة من الصراعات والمعارك الداخلية، التي استنزفت قواهم، وسمحت للصليبيين أن يأخذوا قسطاً من الراحة بعد أن أنهكتهم حروب صلاح الدين، لا بل ليستعيدوا جزءاً كبيراً من أراضيهم التي جهد صلاح الدين والأمة الإسلامية في تحريرها.

ولتشابك الأحداث في الحقبة الممتدة من وفاة صلاح الدين حتى قيام السلطنة المملوكية، ولتداخلها، وكثرة الصراعات والتحالفات، لجأنا إلى تقسيمها إلى ثلاث مراحل تاريخية، تناولت المرحلة الأولى الصراعات التي حدثت بين أبناء صلاح الدين وأخيه العادل، حتى تمكن الأخير من حسم الخلاف وإعادة الوحدة تحت قيادته.

أما المرحلة الثانية فكان موضوعها الصراع والنزاع الذي حدث بين أبناء العادل بعد وفاته.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة الصراع بين أبناء الكامل حتى قيام السلطنة المملوكية.

وامتازت كل مرحلة من هذه المراحل ببروز شخصية تتمكن في الوقت المناسب من فرض سلطتها على باقي الأمراء أو على معظمهم، ففي الجيل الأول برز العادل أخو صلاح الدين، الذي كان ساعده الأول ومستشاره، وفي الجيل الثاني ظهر الكامل بن العادل، وفي الجيل الثالث ظهر الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل محمد.

المقالـة الأولـى

المرحلة الأولى من مراحل الصراعات الأيوبية

«الصراع بين أبناء صلاح الدين وأخيه العادل»

قبل البدء بالموضوع، ولتعدد الشخصيات المتصارعة، وجدنا أن التعريف بهذه الشخصيات سيجعل التعامل مع الأحداث أكثر سهولة، فكان أهمها:

١- الملك العادل أخو صلاح الدين، وحاكم الجزيرة والكرك، سيتمكن من حكم مصر، ثم دمشق، ومن ثم إعادة الوحدة.

٢- الأفضل علي بن صلاح الدين، حاكم دمشق وجنوب الشام، وصاحب السلطنة، وسيتم عزله ونفيه من قبل أخيه العزيز وعمه العادل.

٣- العزيز عثمان بن صلاح الدين، حاكم مصر، وقد حاول أكثر من مرة انتزاع دمشق من أخيه الأفضل.

٤- الظاهر غازي بن صلاح الدين، وكان دوره في الصراع هامشياً.

توفي صلاح الدين رحمه الله في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/ ٤ آذار ١١٩٣م، وقام ابنه الأفضل وأخوه العادل بواجب العزاء، وقد استقرت الأوضاع السياسية على الشكل الآتي:

- دمشق، والساحل، وبيت المقدس، مع حوران وبانياس من أملاك الأفضل علي بن صلاح الدين، الذي احتفظ أيضاً بلقب السلطنة حسب وصية أبيه.
- حلب وشمال بلاد الشام من نصيب الظاهر غازي بن صلاح الدين.
- مصر للعزيز عثمان بن صلاح الدين.
- الكرك والأردن، فضلاً عن الجزيرة وديار بكر، للعادل أخي صلاح الدين.
- حماه للمنصور محمد بن تقي الدين عمر ابن عم صلاح الدين.
- حمص للمجاهد شيركوه الثاني.
- اليمن لسيف الإسلام طغتكين أخي صلاح الدين.

هذا فضلاً عن الأملاك الثانوية التي وزعت على أمراء البيت الأيوبي، وكان من المفترض أن يمارس الأفضل علي دور الوصاية والزعامة على أمراء البيت الأيوبي، وأن يتابع مهام أبيه بحكم وصية أبيه بولاية العهد والسلطنة له، لكن الأفضل لم يتمكن من إثبات أهليته، فأهمل شؤون البلاد، واستسلم للهو والمسليات، حتى وصفه أبو المحاسن بالملك النَّوَّام، لأنه احتجب عن الرعية[١]، واعتمد في تسيير دولته على وزيره ضياء الدين الجزري أخي المؤرخ الشهير ابن الأثير، ثم اصطدم مع حاشية أبيه، وبدأ هؤلاء بتركه والرحيل إلى مصر، حيث التفوا حول العزيز عثمان، وأخذوا يحرّضونه ويشجعونه على مهاجمة دمشق وانتزاعها من يد أخيه الأفضل، الذي أهمل البلاد، وأساء إلى العباد، وقد تمكن الصليبيون من دخول جبيل التي كانت من أملاكه، ولم يحرك ساكناً، فلاقت هذه الدعوة من الأمراء هوى في نفس العزيز، فتحرك بجيشه قاصداً دمشق سنة

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/ ١٢٢.

٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، أي بعد أقل من عام على وفاة صلاح الدين، وقد أسفر هذا التحرك عن صراع أيوبي – أيوبي، استمرت مرحلته الأولى سبع سنوات حتى حسمها الملك العادل لصالحه.

بدأت حرب الوراثة بين الأخوة حين سار العزيز عثمان صاحب مصر بجيشه يريد استخلاص دمشق من أخيه الأفضل علي سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، بحجة عدم أهليته لحكمها، ولا سيما بعد احتلال الصليبيين لجبيل التابعة له وسكوته عنهم، فوصل إلى دمشق وألقى عليها حصاراً دام عشرة أشهر.

أخفق حصار العزيز لدمشق، فالأفضل علي لما سمع بمسير العزيز إليه استنجد بأمراء البيت الأيوبي (عمه الملك العادل، بالإضافة إلى حكام حماه وحلب وحمص) الذين أسرعوا لنجدته، بعد أن بين لهم العادل مخاطر استيلاء العزيز على دمشق، وفي هذا الحصار سنحت الفرصة للملك العادل ليقوم بدور الوصي على أبناء أخيه، والحريص على وحدة البيت الأيوبي، فاجتمع بالعزيز عثمان في المزة غربي دمشق، وتوصل معه إلى تسوية أعادت تنظيم البيت الأيوبي، فأضاف لأملاك العزيز عثمان القدس التي كانت من أملاك الأفضل علي، ثم زوَّجه ابنته، وسيره إلى مصر راضياً، في حين أضاف للظاهر غازي حاكم حلب جبلة واللاذقية وأعاده إلى حلب[١]، وعلى هذا التقسيم انفض أول نزاع أيوبي – أيوبي، حصد فيه العادل أكبر المرابح، إذ تأكد من سفاهة أحلام أبناء أخيه، وبدأ يرسم لتخليصهم ما تحت أيديهم من أملاك.

لم يمضِ على الهدنة أكثر من عامٍ واحدٍ، حتى عاد العزيز عثمان للتحرك مرّةً ثانيةً ضد أخيه الأفضل علي، مدفوعاً بالأسباب نفسها التي دفعته أول مرة

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٣/ ٣٠، المقريزي: السلوك، ١/ ٢٣٢.

لتجريد الحملة الأولى، ومرة أخرى استنجد الأفضل علي بعمه العادل، وتمكن العادل من ثني العزيز عن مراده، إذ قام بمراسلة الأمراء الذين ساروا في ركاب العزيز، وحرضهم ضده، وأقنع بعضهم بالتخلي عنه، ولما انفض عن العزيز معظم أمرائه، اضطر للعودة إلى مصر، ومن ثم أدت الحملة الثانية هذه إلى تضخم دور العادل في تسيير أمور البيت الأيوبي.

وجد الملك العادل أن الفرص بدت تسمح له بالتحرك أكثر، فأقنع الأفضل، كونه سلطان بني أيوب، بضرورة معاقبة العزيز عثمان لإثارة الشغب أكثر من مرة، واتفق معه على المسير معاً نحو مصر، فإن تم لهما دخولها يتنازل الأفضل عن دمشق لعمه العادل، وعلى هذا الاتفاق سارت حملتهما إلى مصر، فاستوليا على بيت المقدس، ووصلا إلى بلبيس فحاصراها.

أمام بلبيس تغيرت نوايا الملك العادل، وخاف إن دخل الأفضل مصر يقوى بها ولا يعطيه دمشق، لذا تراجع العادل عن موقفه، وراسل العزيز عثمان وحضه على الثبات، ووعده بالعمل على سحب جيوش الأفضل ومَنْعِه من دخول مصر، وهذا ما حدث بالفعل، إذ كلَّم الأفضل وقال له: «هذه عساكر الإسلام، فإذا اقتتلوا في الحرب فمن يرد العدو»[١]، وبهذا الكلام أقنعه، وثناه عن أمره، وتوصل إلى تسوية بين الأخوين بمساعده القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني أحد وزراء صلاح الدين، نصَّت التسوية على أن ترد إليهم إقطاعاتهم كما كانت عند وفاة صلاح الدين، أي تعود القدس (التي أخذها العزيز إثر حملته الأولى

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ١٣٨.

على دمشق) وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن إلى الأفضل[١]، وعاد الأفضل إلى دمشق، في حين أقام العادل عند ابن أخيه العزيز في مصر.

عاد الأفضل بعد إخفاقه في دخول مصر ليعتزل الناس، فالتزم الزهد والعبادة، ورمى شؤون دولته مرة أخرى بيد الوزير الجزري ضياء الدين، فضجت الناس، وكثرت الشكاوى منه بسبب سوء إدارته، وهنا قرر العادل المسير مع العزيز لطرد الأفضل من دمشق، فكانت هذه الحملة الثالثة من مصر إلى دمشق.

طبعاً، سوء إدارة الأفضل، وتململ الأمراء منه، كانا من أسباب توجه العزيز في حملتين إلى دمشق، وفي حملتيه كان الذي يتصدى له هو الملك العادل، وذلك خوفاً من أن يزداد أحد أبناء أخوته قوةً ومكانةً، فاتبع معهم سياسة «فرق تسد»، أما الآن، فسمح للحملة أن تخرج من مصر، وساعدها في دخول دمشق، وذلك لما اتفق مع العزيز أن تكون دمشق له (أي للعادل)، وكانت دمشق في ظل إهمال الأفضل ضمن متناول اليد، فلم يحتمل أمر الاستيلاء عليها أكثر من حملة قادها العزيز وعمه العادل سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م، «فما صدهما صاد، ولا ردهما راد»[٢]، وآل حكم دمشق - حسب الاتفاق الذي تم سلفاً - للملك العادل، ونفي الأفضل إلى مدينة صرخد في حوران شرقي بصرى، فأقام بها[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ١٣٨-١٣٩، ابن واصل: مفرج الكروب، ٣/ ٥٢ - ٥٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ٣/ ٦٢.

(٣) ابن الأثير؛ الكامل، ١٠/ ١٤١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٦/ ١٢٦، ابن واصل: مفرج الكروب، ٣/ ٦٢.

عاد العزيز عثمان إلى مصر بعد أن غدا – اسمياً فقط – سلطان البيت الأيوبي، وباسمه ضُربت السكة، وخُطب على المنابر في ممالك بني أيوب، وتم له ذلك بعد أن أزاح أخاه الأكبر من أمامه، لكنه في الحقيقة بإزالة الأفضل أزال من أمام عمه الطموح إحدى العقبات، ومهد له السبيل للوصول إلى الزعامة، فتملُك العادل لدمشق كان – حسب تعبير البغدادي – «السبب في أن تملك البلاد كلها»[١] .

ففي محرم ٥٩٥هـ/١١٩٨م توفي العزيز عثمان حاكم مصر، إثر سقوطه عن جواده أثناء الصيد، واتفق الأمراء على تنصيب ابنه المنصور محمد مكانه، وكان عمره آنذاك تسع سنوات، ورأت حاشية أبيه ضرورة وجود وصي عليه لتدبير أمره وأمر المملكة، أي أتابك، فوقع اختيارهم على عمه الأفضل، واستقدموه من صرخد ليكون وصياً على ابن أخيه مدة سبع سنين، ثم يُسلم الأمر بعدها لصاحبه.

كان الظاهر غازي حاكم حلب قد رحب بهذه الخطوة، ووقف إلى جانب أخيه الأفضل ضد عمهم العادل، ثم لأسبابٍ عديدة قرر الأخوان مهاجمة دمشق وإخراجها من حكم العادل، وزحفا، كلٌّ من جانبه، يريدان حصار دمشق، وانضم إليهم شيركوه الثاني صاحب حمص.

كان العادل آنذاك يحاصر ماردين في الجزيرة، ولما علم بمسيرهم ترك حصار ماردين لابنه الكامل، وأسرع إلى دمشق فوصلها قبلهم بيومين، وجهزها بالمؤن والعتاد لمقاومة الحصار المنتظر، الذي دام ستة أشهر، ضاقت فيها الأحوال على أهالي دمشق، ثم أخفق حصارهم بسبب النزاع الذي حصل بين

---

(١) عبد اللطيف البغدادي: تاريخ البغدادي ورحلته، الموسوعة الشامية، ١٤/ ٨٢.

الأخوين الظاهر والأفضل حول ملكية دمشق إذا سقطت، وانفض الحصار، وعاد كلٌّ إلى مملكته، وأراد العادل إنهاء هذه الحال مطلقاً، ورأى أن الفرصة سانحة، فسار خلف الأفضل إلى مصر، وفي معركة دارت رحاها بين الطرفين قرب بلبيس، كان النصر حليف العادل، فدخل القاهرة واستسلم له الأفضل في ربيع الثاني/ شباط ١٢٠٠م، وعاد الأخير إلى إقطاعه في صرخد، ونودي بالملك العادل وصياً على المنصور محمد، ثم أقدم على عزله وتسلطن في القاهرة سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م وقال: «إنه قبيحٌ بي أن أكون أتابكاً لصبي مع الشيخوخة والتقدم، مع أن الملك ليس بالميراث، وإنما هو لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر - رحمه الله - صاحب الأمر، غير أني تركت ذلك إكراماً لأخي ورعاية لحقه»[١]، وأُبعد المنصور محمد وأمه وإخوته إلى دمشق، ثم إلى الرُّها سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م.

حاول الظاهر والأفضل مرة أخرى انتزاع دمشق، وفرضا عليها حصاراً سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، لكنهما أخفقا، فقام العادل بنفي الأفضل إلى سميساط [٢]، وعندئذٍ «انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه (أي ملك العادل)، وخطب له على منابرها كلها، وضربت السكة فيها باسمه»[٣]، ثم شرع يمارس سلطته بوصفه سلطان بني أيوب، فأرسل الرسل والكتب يُقِرّ الأمراء على بلادهم، «فما اختلف عليه أحد، وأجابه الناس كلهم رغبة في دينه

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٣/ ١١١.
(٢) بقي فيها إلى أن توفي سنة ٦٢٢هـ/ ١١٢٥م.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ٣/ ١٣٣.

وتدبيره واسمه وحزمه»[1]، وهكذا تمت إعادة الوحدة للبلاد، وظهر على رأسها رجل قوي لا يقل أهمية عن صلاح الدين، وهو الملك العادل الذي عُرف عند الصليبيين بلقب سيف الدين «Saphadin».

أعاد العادل توزيع الولايات الأيوبية، وخص أبناءَه بحصة الأسد، وقبيل وفاته استقرت الخارطة السياسية للدولة الأيوبية على النحو الآتي:

- نال الكامل محمد بن العادل ولاية مصر، مع التوصية بولاية العهد والسلطنة بعد أبيه.
- نال المعظم عيسى بن العادل ولاية دمشق مع القدس وطبرية والأردن والكرك.
- أما الجزيرة الفراتية مع الولايات الشرقية فقد كانت من نصيب الأشرف موسى بن العادل، وقاعدته حران.

كانت هذه الولايات المهمة، وقعت بيد أبنائه، في حين أبقى حلب بيد الظاهر غازي الذي توفي سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، فخلفه ابنه محمد الملقب بالعزيز، وهو ابنه من زوجته ضيفة ابنة العادل، وكان عمر الصبي آنذاك ثلاث سنوات، وكان في حمص شيركوه الثاني، والأفضل علي في سميساط، أما حماه فهي للمنصور محمد بن تقي الدين عمر.

وهنا السؤال:

هل يمكن القول إن العادل وقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه صلاح الدين، ألم يكن من الأفضل للعادل أن يتعلم من أخيه صلاح الدين فلا يقوم بتقسيم المملكة؟

---

(١) ابن نظيف: التاريخ المنصوري، ص١٢.

في الحقيقة هي لم تكن أخطاء بقدر ما كانت واقعاً يجب التعامل معه، فقد تكلمنا سالفاً على نظام الإقطاع العسكري ودوره في إدارة الولايات في عصر الحروب الصليبية، كما أن المفاهيم السياسية لذلك العصر كانت تملي عليهم اتباع هذا الأسلوب، فضلاً عن قضية تعدد الزيجات والتحالفات، والحاجة إلى إرضاء الحلفاء.




وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المقالـة الثانيـة

الحملة الصليبية الخامسة

٦١٥ ـ ٦١٨ هـ/١٢١٨ ـ ١٢٢١م

منذ بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي غدت مصر موضع اهتمام دُعاة الحروب الصليبية وزعمائها، وسبب ذلك أن الصليبيين توصلوا إلى قناعة مفادها أنَّ استرداد القدس، واستمرار الاحتفاظ ببلاد الشام يتطلبان السيطرة على مصر والانطلاق منها نحو فلسطين.

وقد تنبه الصليبيون لأهمية مصر في مشاريعهم منذ نزولهم بلاد الشام، فقامت محاولات عديدة من قبل ملوك القدس لاحتلال مصر، فبلدوين الأول ملك بيت المقدس سار قُدماً في هذا المشروع، وتوغل في مصر حتى بحيرة المنزلة سنة ٥١٠هـــ/ ١١١٦م، ومات وهو في طريق العودة، كما أن عموري الأول كرر المحاولات، ولولا وقوف نور الدين في وجهه لتمكن من بسط نفوذه على مصر.

ومنذ أن أخفقت الحملة الثالثة في استرداد القدس، تيقن الصليبيون تماماً من دور مصر وأهميتها في مشروعهم، ومنذ أن دخلت مصر في وحدة مع بلاد

الشام أيام نور الدين محمود بات الصليبيون شبه مطوقين بالمسلمين، ناهيك عن أن الأيوبيين – بعد صلاح الدين- اعتمدوا إلى حدٍّ كبير في حروبهم مع الصليبيين آنذاك على موارد مصر البشرية، والمالية، كما أن احتلال مصر من قبل الصليبيين كان يُفقد المسلمين إمكانية إدارة أسطولهم في شرقي المتوسط، ثم لن يكون بوسعهم الاحتفاظ بالقدس وجنوب فلسطين بعد تعرضهم لهجوم صليبي مزدوج آتٍ من عكا ومصر.

والجدير بالذكر أن المؤرخين المسلمين كانوا على وعي وإدراك لهذه الحقيقة، وعلى ضوئها فسروا سبب اتجاه الحملات ضد مصر، فابن واصل لما جاء على ذكر مشاورات الصليبيين سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م حول وجهة الحملة الخامسة، قال على لسانهم: «فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر ونملكها، حينئذ لا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيره من البلد»، وبعد ثلاثين عام حين تحدث عن الحملة السابعة، قال عن ملك فرنسا الذي عزم على استرداد القدس: «وعَلِمَ أنَّ ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية».

المهم أن قادة الحروب الصليبية، ووفقاً للخطة الجديدة التي استهدفت مصر، قاموا بإعداد الحملة الرابعة لمهاجمة مصر، وحسب الخطة التي رُسمت لها كان عليها النزول في دمياط أو في الإسكندرية، ومن هناك تسير نحو القاهرة، لكن حدثت مستجدات وتطورات دفعت الحملة إلى تغيير مسارها في منتصف الطريق نحو القسطنطينية، وإن كانت هذه الحملة قد انحرفت عن المسار المرسوم لها، فإن الحملة الخامسة التزمت الخطة ونزلت مصر.

فبعد النهاية المخزية التي انتهت إليها الحملة الرابعة سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، وما تلاها من نهاية مماثلة لما عُرف باسم حملة الأطفال سنة ٦٠٩هـ/

١٢١٢م، وجهت البابوية دعوات لإعداد حملة جديدة وإعادة السيطرة على مجرى الحروب الصليبية، وقد بدأت الجهود مع البابا أنوسنت الثالث الذي عقد مجمعاً كنسياً في اللاتيران بروما سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، فكان إعداد حملة لمهاجمة مصر، ومن ثم المسير إلى القدس أهم مقرراته[١].

توفي البابا أتوسنت الثالث، وخلفه هونوريوس الثالث الذي تابع نشاط سلفه في التجهيز للحملة المقبلة، وقد استجاب له ملك المجر «هنغاريا» أندرو الثاني، وملك قبرص هيو الأول، وليوبولد السادس دوق النمسا، وبدأت جموعهم بالإقلاع إلى عكا حيث تجمعت الجيوش هناك، وتولى قيادة الحملة ملك المملكة اللاتينية في الشرق حنا دي بريين، وبعد أعمال عسكرية وغارات مخفقة شنها الصليبيون في بلاد الشام على بيسان، وبانياس، والطور، وصيدا، قرروا المسير إلى مصر لتحقيق هدفهم الرئيس.

وبعد أن تكامل وصول القوات الصليبية من أوربا إلى عكا، أبحرت هذه القوات مع ما انضم إليها من صليبيي الشام من عكا إلى دمياط في صفر ٦١٥هـ/ أيار ١٢١٨م، وقد بلغ تعدادها ما يقارب أربعين ألفاً.

نزلت الحملة على الضفة الغربية للنيل مقابل مدينة دمياط الواقعة على الضفة الشرقية، وكانت هذه أول أخطائهم، فتوجب عليهم الآن عبور النيل للوصول إلى دمياط، وكان من الأفضل لهم لو نزلوا مباشرة على الضفة الشرقية للنيل.

وقعت دمياط على مسافة ميلين تقريباً إلى الجنوب من مصب نهر النيل، وامتازت بقوة تحصيناتها، فقد أحاط بها خندق عميق، ثم سور مؤلف من ثلاثة

---

(١) بادربورن: الاستيلاء على دمياط، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشاملة ٣٣/٣٣ – ٣٤.

جدران، والأهم من هذا كان برج السلسلة، وهو برج كبير منيع بني وسط النيل، وترتبط به سلسلتان، إحداهما على النيل إلى دمياط شرقاً، وأخرى إلى الجيزة غرباً، وسدّ - هذه السلاسل النيل على القادمين إليه من المتوسط، ولولا هذا البرج، وهذه السلاسل -على قول ابن الأثير- «لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها»[١]، لذلك سمي قفل الديار المصرية.

كان الملك العادل في دمشق، وقد تولى هو وابنه المعظم عيسى محاولات التصدي للتحركات الصليبية في فلسطين قبل رحيل الحملة إلى مصر، وكان ينوب عن العادل في حكم مصر ابنه الكامل محمد، الذي ما إن سمع بنزول الصليبيين على الضفة الغربية لفرع دمياط، حتى خفَّ مُسرعاً على رأس جيشه، وعسكر في العادلية إلى الجنوب من دمياط[٢].

كما سلف الحديث، وقع النيل بين معسكر الصليبيين ودمياط، وكان عليهم الآن عبور النيل للوصول إلى المدينة، وشكل البرج الموجود في النيل أكبر العوائق أمامهم، وقد استغرق أربعة أشهر حتى تمكنوا من الاستيلاء عليه في جمادى الآخرة/ آب ١٢١٨م، وكان لسقوطه أثر في قلوب المسلمين، وكان العادل مريضاً، لم يحتمل خبر سقوطه، وعلى أثره توفي في دمشق بعد أيام في الشهر نفسه ١٢١٨[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٣٠٥.

(٢) بادربورن: الاستيلاء على دمياط، الموسوعة ٣٣/ ١٠١. ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٣٠٥. السلوك ١/ ١٨٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ٤/ ١٥، السلوك ١/ ٢٢٥.

حاول الكامل محمد قطع النيل أمام السفن الصليبية القادمة من المتوسط، فعمد إلى بناء جسر بعرض النيل، ثم إلى إغراق سفن في النيل لإعاقة تحرك السفن الصليبية جنوباً، لكن الصليبيين وجدوا دائماً الحلول، وتمكنوا من دخول النيل والسير جنوباً إلى موضع يقال له بورة غرب العادلية حيث معسكر الكامل، فبدأت المناوشات بين الطرفين، وكل طرف منهم يريد عبور النيل والوصول إلى خصمه.

ولربما كانت المقاومة المصرية عالية، إذ ادعى عدد من الصليبيين أنهم أبروا بقسمهم وانتهت مهمتهم بسقوط برج السلسلة، فعادوا إلى بلادهم، وهنا اضطُر حنا دي بريين إلى انتظار قدوم المساعدات، التي وصلت من أوربا في أيلول ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، بصحبة النائب البابوي الكاردينال بيلاغوس، فكانت هذه مشكلة أخرى، إذ أخذ هذا الأخير ينازع حنا دي بريين في القيادة واتخاذ القرارات، مما كان له أثر سلبي كبير في مصير الحملة.

أثار سقوط برج السلسلة خوف قادة الأيوبيين في الشام، وخشيةً من نجاح الحملة في مصر ومسيرها إلى الشام، أقدم المعظم عيسى على هدم بعض المدن لكي لا يستفيد الصليبيون منها في حال مسيرهم إلى الشام، فهدم قيسارية، والطور، وبانياس، والأخطر من هذا كله أنه دمّر جزءاً من أسوار القدس في ذو الحجة ٦١٥هـ/ آذار ١٢١٩م[1]، ثم قرر المسير إلى مصر.

في هذه الأوقات الحرجة تعرض الكامل محمد إلى مؤامرة انقلابية أجبرته على الانسحاب جنوباً، فقد حاول الأمير أحمد بن علي المعروف بابن المشطوب، أكبر أمراء مصر آنذاك، وهو من الأكراد الهكارية، عزل الكامل، وإحلال أخيه

---

(١) الروضتين، ٢/ ١١٥.

الفائز مكانه[١]، ولما علم الكامل بالمؤامرة لم يشأ الاصطدام معهم على مرأى من الصليبيين، بل انسحب جنوباً إلى أشموم طناح[٢]، وهناك أقام ينتظر المساعدات التي وصلت أخبارها من بلاد الشام بقيادة أخيه المعظم عيسى، ولما انسحب الكامل تبعه العسكر المصري، فخلت العادلية أمام الصليبيين الذين أسرعوا، فعبروا النيل شرقاً إليها آمنين بغير منازع ولا ممانع[٣] في ذو القعدة ٦١٥هـ/ شباط ١٢١٩م، ومع عبورهم النيل بدأت المرحلة الثانية من الحملة الصليبية الخامسة، إذ توجه الصليبيون لحصار دمياط.

على إثر حركة ابن المشطوب همّ الكامل بمغادرة البلاد لأنه لم يعد يثق بأحد، غير أن قدوم أخيه المعظم عيسى إلى مصر أعاد الأمور إلى نصابها، وثبّت الكامل على موقفه، وتم نفي ابن المشطوب والفائز خارج مصر، ثم تحركت القوات شمالاً من أشموم طناح إلى فارسكور جنوب العادلية، واتخذت فارسكور معسكراً وقاعدة لمهاجمة الصليبيين الذين شرعوا في حصار دمياط، «وقاتلوها براً وبحراً، وعملوا عليهم خندقاً يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين، ....وأداموا القتال، واشتد الأمر على أهلها، وتعذرت عليهم الأقوات وغيرها، وسئموا القتال وملازمته، لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة، ومع هذا فقد صبروا صبراً لم يسمع بمثله، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض، ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمئة، فعجز من بقي من

(١) الكامل: ١٠/ ٣٠٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ٤/ ١٦- ١٧.

(٢) بلدة صغيرة على الشاطئ الشرقي للبحر الصغير تعرف اليوم باسم أشمون الرمان.

(٣) الكامل: ١٠/ ٣٠٦.

أهلها عن الحفظ لقلتهم، وتعذر القوت عندهم، فسلموا البلد إلى الفرنج» مقابل الأمان على أنفسهم، وأموالهم، لكن الصليبيين غدروا بهم، فما إن دخلوا المدينة في ٢٤ شعبان ٦١٦هـ/٥ تشرين الثاني ١٢١٩م حتى وضعوا السيف بأهل المدينة، وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء[١]، وبعد يومين رحل الكامل مع قواته جنوباً حيث نزل المنصورة[٢].

كان سقوط دمياط مروعاً، وعمّ صداه بلاد المسلمين، ولا سيما أنه تزامن مع اقتراب المغول إلى أراضي العراق، يقول الكامل: «وأشرف الإسلام وجميع أهله على خُطَّةِ خَسْفٍ في شرق الأرض وغربها، أقبل التتر من الشرق حتى وصلوا من نواحي العراق وأذربيجان وَأَرَّانَ وغيرها،... وأقبل الفرنج من الغرب فملكوا مثل دمياط في الديار المصرية،... وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تُملك،.... وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدو، ﴿**وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾[٣]، .... ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد، «وَإِنَّمَا مُنِعُوا مِنْهُ فَثَبَتُوا»[٤].

ولما سقطت دمياط سار المعظم إلى الشام، فاستكمل تخريب أسوار القدس، أما الكامل فقد عرض على الصليبيين أسخى العروض، مراراً وتكراراً، عرض عليهم تسليمهم بيت المقدس، وباقي فتوحات صلاح الدين في فلسطين، ما عدا

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٣٠٧. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٦/ ٢٣٨. ابن واصل: مفرج الكروب ٤/ ١٨- ١٩. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، ٣٣/ ٦٢.

(٢) هي منزلة بناها الكامل جنوب بحر أشمون أمام طلخا على الشاطئ الشرق للنيل وسماها المنصورة تيمناً بانتصاره على الصليبيين.

(٣) سورة ص، الآية ٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٣٠٧-٣٠٨.

الكرك والشوبك، وإعادة صليب الصلبوت لهم مقابل الجلاء عن مصر(١)، وعلى إثر هذا العرض انقسم الصليبيون بين مؤيدٍ ومعارض، كان حنا دي بريين على رأس الموافقين، وكان المندوب البابوي بيلاغوس على رأس المعارضين، يقف إلى جانبه البنادقة والبيازنة والجَنَوية وغيرهم من التجار، الذين لم يروا في القدس تلك الفائدة الاقتصادية التي رأوها في دمياط.

وفي أثناء وجود الصليبيين في دمياط تعمقت الخلافات بينهم، وكان لهذه الخلافات أكبر الأثر في إخفاقهم وانتصار المسلمين، فقد ادعى النائب البابوي بيلاغوس لنفسه سلطة مطلقة على الصليبيين، وتجاهل آراء حنا دي بريين، الذي آثر العودة إلى عكا، وأثناء ذلك قرر بيلاغوس السير جنوباً إلى القاهرة بعد أن أضاع أكثر من عام في ركودٍ تام، وأرسل إلى حنا برين يطلب منه الالتحاق بالحملة، فلم يجد هذا مهرباً من ذلك، وسارت القوات الصليبية جنوباً.

خلال ذلك جدد الكامل محمد عرضه بتسليم القدس، وعسقلان، وطبرية، وصيدا، واللاذقية، وجبلة، باستثناء الكرك والشوبك، لكن بيلاغوس أصر على موقفه، ورفض هذا العرض الذي كان كفيلاً بمحو آثار معركة حطين، وأصر على الكرك والشوبك، ثم أضاف له مبلغاً مالياً لترميم ما هدَّمه المعظم عيسى في القدس، فلم يتم الاتفاق(٢)، وسارت القوات الصليبية جنوباً من دمياط إلى القاهرة بمحاذاة الشاطئ الشرقي للنيل، فوصلوا إلى شارمساح واستولوا عليها، والكامل لا زال في معسكره الجديد في مدينة المنصورة.

---

(١) بادربورن، ٣٣/ ٦٣، الكامل، ١٠/ ٣٠٩. ويندوفر: ورود التاريخ، الموسوعة الشامية، ٣٩/ ٧٧٠- ٧٧٢. مفرج الكروب، ٤/ ٩٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٣٠٩.

بعد أن أكمل المعظم عيسى تهديم أسوار القدس سار إلى مصر وبرفقته هذه المرة أخوه الأشرف موسى، واجتمع الأخوة الثلاثة، الكامل والمعظم والأشرف، في المنصورة مع جيوشهم لصد الصليبيين، كما قدم عليهم المنصور صاحب حماة، والمجاهد صاحب حمص، وغيرهما...، أما الصليبيون فقد تابعوا تقدمهم جنوباً كما –سلف الحديث– إلى شارمساح، وكثرت المناوشات هناك بينهم وبين المسلمين، كما ترددت الرسل لعقد الصلح، لكن بلا فائدة.

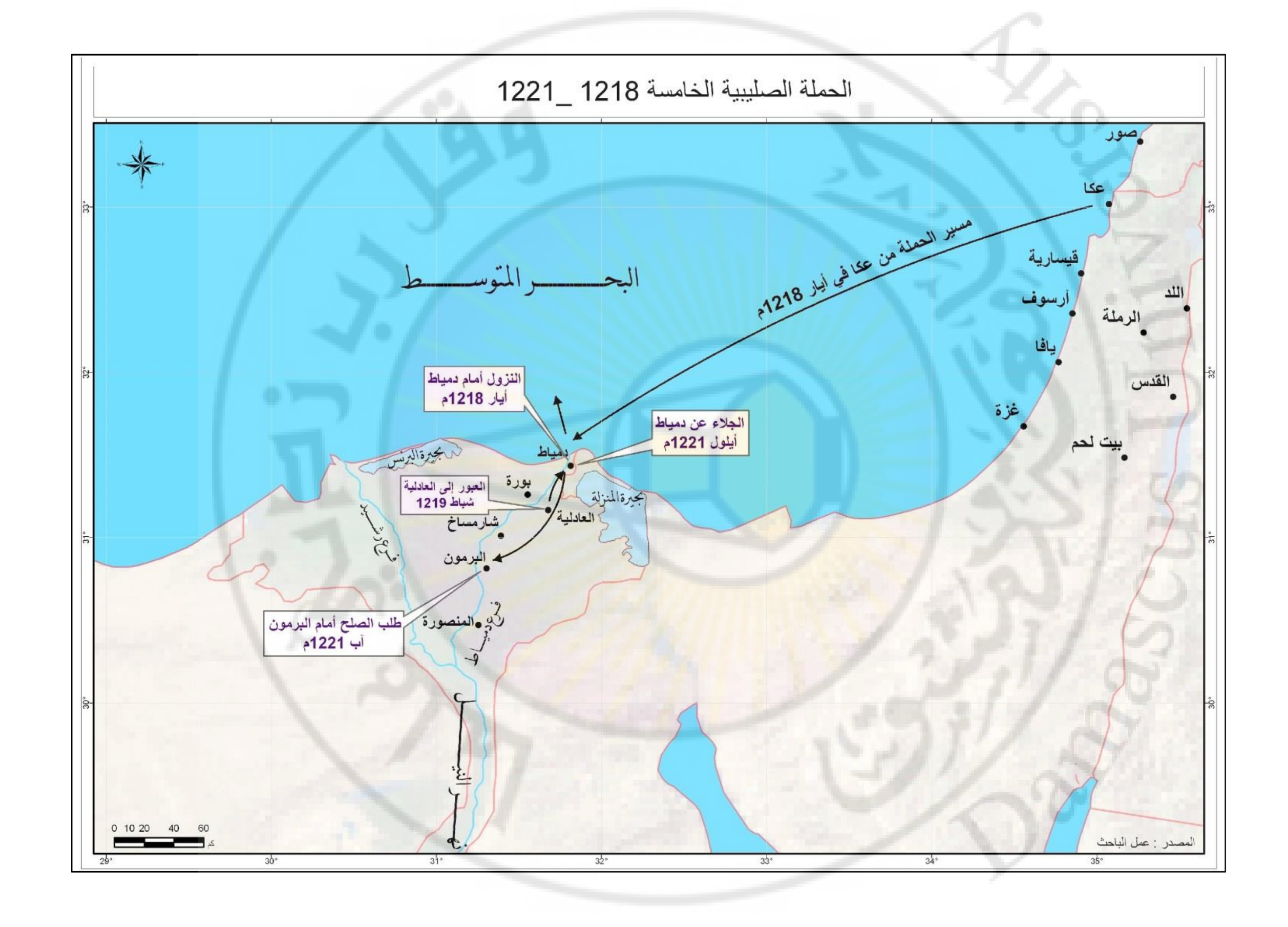
كان الصليبيون بمسيرهم هذا قد أصبحوا وسط مثلث تحيط به المياه في ثلاث جهات: بحيرة المنزلة شرقاً، وفرع دمياط غرباً، وبحر أشموم أو البحر الصغير جنوباً، (انظر الخرائط)، ولما وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط، في شهر آب ١٢٢١م، حيث أوقات ارتفاع النيل وفيضانه، والجو في أعلى درجات الحرارة، فتح المسلمون السدود والأقنية، فلم يشعر الصليبيون إلا والماء يحيط بهم من كل الجهات، وغدت الأرض موحلة، فشُلَّت حركتهم، ولما أرادوا الارتداد والعودة إلى دمياط كان الكامل قد أرسل قوات التفت على الصليبيين، ونزلت عند شارمساح حيث قطعت عليهم خط العودة، وتجمد الصليبيين عند بلدة البرمون، ولم يبق أمامهم إلا طلب الصلح، وانتهت المفاوضات إلى انسحاب الصليبيون من دمياط، وتبادل الأسرى، ومن جانبهم يعيد المسلمون صليب الصلبوت مع هدنة لمدة ثماني سنوات، وعلى الرغم من أن الأشرف موسى والمعظم عيسى عارضا ذلك، وأصرا على انتهاز الفرصة للتخلص من الصليبيين، لكن الكامل محمد أصر على الصلح خوفاً من وصول الإمدادات للصليبيين من الإمبراطور فردريك الثاني، وتم جلاء الصليبيين عن دمياط في ٧ رجب ٦١٨هـ/ ٧ أيلول ١٢٢١م، فدخلها المسلمون في اليوم

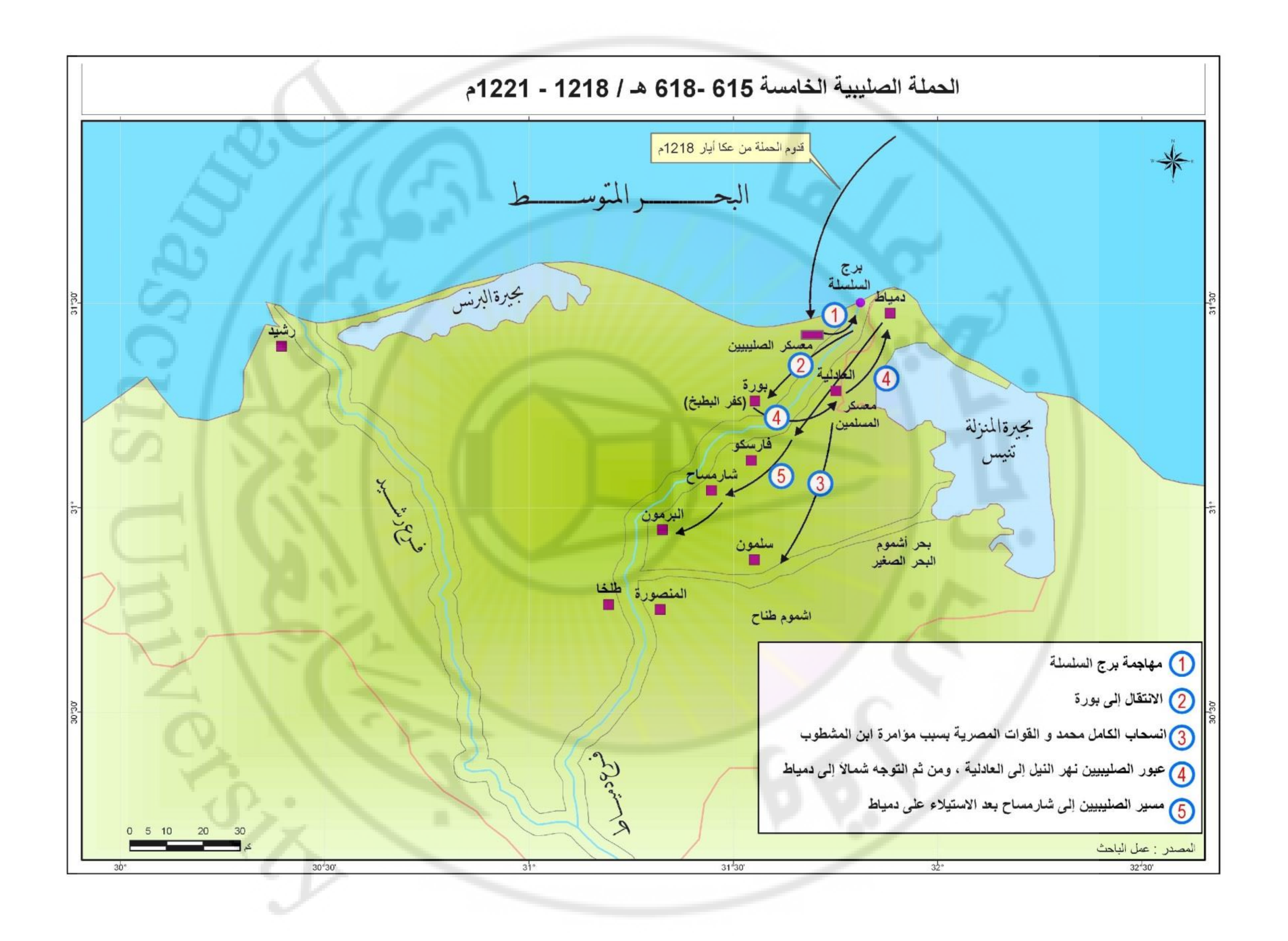
التالي[1]، «وأعاد الله سبحانه وتعالى، الحق إلى نصابه، ورده إلى أربابه، وأعطى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يُسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها...»[2].

---

(١) بادربورن: الاستيلاء على دمياط، ٣٣/ ١٩ وما بعد، ابن واصل: مفرج الكروب، ٤/ ٩٦ وما بعد المقريزي: السلوك ١/ ٢٤٤، ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٣٨٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٣١١.


الحملة الصليبية الخامسة 1218 _ 1221
البحـــــر المتوســـــط
مسير الحملة من عكا في أيار 1218م
النزول أمام دمياط
أيار 1218م
الجلاء عن دمياط
أيلول 1221م
العبور إلى العادلية
شباط 1219
طلب الصلح أمام البرمون
آب 1221م
صور
عكا
قيسارية
أرسوف
يافا
غزة
اللد
الرملة
القدس
بيت لحم
دمياط
بورة
العادلية
شارمساح
البرمون
المنصورة
بحيرة البرلس
بحيرة المنزلة
فرع رشيد
فرع دمياط
النيل
0 10 20 40 60
كم
المصدر : عمل الباحث



الحملة الصليبية الخامسة 615 -618 هـ / 1218 - 1221م
قدوم الحملة من عكا أيار 1218م
البحـــــر المتوســـط
برج السلسلة
دمياط
معسكر الصليبيين
بحيرة البرنس
رشيد
بورة (كفر البطيخ)
العادلية
معسكر المسلمين
بحيرة المنزلة
تنيس
فارسكو
شارمساح
البرمون
سلمون
بحر أشموم
البحر الصغير
طلخا
المنصورة
اشموم طناح
فرع رشيد
فرع دمياط
1 مهاجمة برج السلسلة
2 الانتقال إلى بورة
3 انسحاب الكامل محمد و القوات المصرية بسبب مؤامرة ابن المشطوب
4 عبور الصليبيين نهر النيل إلى العادلية ، ومن ثم التوجه شمالاً إلى دمياط
5 مسير الصليبيين إلى شارمساح بعد الاستيلاء على دمياط
المصدر : عمل الباحث
0 5 10 20 30 كم

المقالة الثالثة

المرحلة الثانية من الصراعات الأيوبية

«الصراع بين أبناء العادل»

نُعَرِّفُ بأهم الشخصيات المتصارعة؛ لأن ذلك سيجعل التعامل مع الأحداث أكثر سهولة.

١- المعظم عيسى بن العادل، حاكم دمشق والمنطقة الجنوبية من بلاد الشام.

٢- الكامل محمد بن العادل، حاكم مصر.

٣- الأشرف موسى بن العادل، حاكم الجزيرة.

٤- الناصر داود بن المعظم عيسى، تولى حكم دمشق بعد وفاة والده سنة ١٢٢٧م، ثم أبعده أعمامُه إلى الكرك والشوبك.

٥- الصالح إسماعيل بن العادل، حاكم بعلبك، استلم حكم دمشق من بعد أخيه الأشرف موسى.

كان لتعاون الأخوة الثلاثة أبناء العادل نتائج إيجابية في التصدي للحملة الصليبية الخامسة، وبانتهاء الحملة الخامسة انتهت مرحلة التوافق والعمل

المشترك بين القادة الأيوبيين، وبدأت - كعادتها - التجاوزات التي تطورت إلى معارك وحروب، وفي هذه المرحلة أخذت منحى أخطر من سالفه، إذ بدأت التحالفات مع القوى الخارجية بعضهم ضد بعض، وكان ضياع القدس إحدى النتائج.

كان المعظم عيسى يحكم إلى جانب دمشق، القدس والكرك، وقد شغل دوراً كبيراً في التصدي للحملة الخامسة، وعلى قول أبي شامة كان «من أحرص الناس على خلاص دمياط وعلى الغزاة»، فلم يبخل في تقديم المساعدة لأخيه الكامل ضد الصليبيين، وكان الكامل عندما يذكره يقول عنه: «من حفظ علي البلاد وأحياني بعد الموت غيره».

بعد رحيل الصليبيين عن دمياط عاد المعظم إلى دمشق، في حين بقي الأشرف في مصر مقيماً عند الكامل، وأثناء ذلك، ولأسباب عديدة «غيَّر الله القلوب، فصارا (أي الكامل والأشرف) متصادقين واتفقا على المعظم»[١]، وقد بدا للمعظم رغبة أخويه في إبعاده عن الساحة لقوته، فخشي أن يقع بين شقي الرحى، لذلك هاجم الصليبيين في جبيل وأرغمهم على التّقيُّد بالصلح لكي يضمن جانبهم ويتفرغ لإخوته، ثم هاجم حماه في جمادى الأولى ٦٣٤هـ/ كانون الثاني ١٢٣٧م، واحتل المعرة وسلمية، وبهذه التحركات خشي الكامل والأشرف من ازدياد نفوذه، فكتب له الكامل كتاباً يهدده فيه، ويطلب إليه العودة إلى دمشق، كما

---

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين، الموسوعة الشامية، ٢٠/ ٢٥٠.

وصلت النجدات لحمص من الأشرف موسى، وحرضوا العربان على مهاجمة دمشق، فعاد المعظم إلى ولايته وهو حانق عليهما[١].

أراد المعظم أن ينقل ساحة المعركة إلى أراضي خصميه، وبدأ يبحث عن حلفاء جدد، فوجد ضالته بصاحب إربل، مظفر الدين كوكبري، وبأخيه الظاهر غازي الذي تولى أخلاط نيابة عن الأشرف موسى، فتحالفا معه لأسباب جمعتهم ضد الأشرف، كما انضم إليهم مسعود صاحب آمد، واتفقوا على الهجوم على الموصل وأخلاط، ولما علم الأشرف بذلك أحبط مخططهم، كما أن الكامل كتب للمعظم: «إن تحركت من بلدك سرت إليه وأخذته منك»[٢]، فأخفقت مشاريعهم، وتحطم الحلف، ثم بدأ المعظم عيسى يتطلع إلى أبعد من ذلك، فراسل سلطان الخوارزميين، جلال الدين منكبرتي لكي يستولي على ديار بكر.

- الدولة الخوارزمية :

وقبل المضي بعيداً، لا بد من الإشارة السريعة للدولة الخوارزمية والتعريف بها.

كانت أراضي بلاد ما وراء النهر وخراسان تخضع لسلطة الدولة السلجوقية، التي طال عليها الزمن، وأضعفتها الصراعات الداخلية، وبدأت تظهر عند أمرائها النزعات الاستقلالية، ومن هؤلاء كان الأمراء الخوارزميون.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٤/ ١٢٧، المقريزي: السلوك، ١/ ٢٥١، ابن العديم، زبدة الحلب، ٢/ ٦٥٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ٤/ ١٣٨- ١٣٩، المقريزي: السلوك، ١/ ٢٥١.

كان (نوشتكين) مملوكاً عند أحد أمراء السلاجقة، وكغيره من الضباط أو الموظفين الذين أسسوا دولاً عظيمة بدأ حياة مهنية متواضعة حين شغل منصب «الطشتدار»[1]، وتدرجت به الرتب إلى أن استلم حكم إقليم خوارزم حوالي سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، وتلقب بلقب «خوارزمشاه».

ومدينة خوارزم (خيوه) هي الآن إحدى مدن أوزبكستان على ضفاف نهر جيحون، ودرجت العادة عند حكام تلك الولايات على اتخاذ ألقاب خاصة، فمثلاً ولاة أشروسنة اتخذوا لقب «أفشين»، وأمراء بخارى اتخذوا لقب «بخارى خدا»، وحكام غرجستان في أفغانستان الحالية اتخذوا لقب «شار»، ومثلهم اتخذ حكام خوارزم لقب «خوارزمشاه»، ومعناها ملوك خوارزم.

بدأت ملامح هذه الدولة تظهر مع قطب الدين محمد بن نوشتكين الذي خلف أباه سنة ٤٩٠هـ/١٠٦٩م، وأقره على حكم خوارزم سنجر بن ملكشاه أمير خراسان السلجوقي، وحافظ قطب الدين محمد على الود مع سنجر إلى أن توفي سنة ٥٢٢هـ/١١٢٥م، فخلفه ابنه أتسز.

مع أتسز بدأت الأعمال الاستقلالية، ومن أجل ذلك اصطدم أتسز غير مرة مع السلطان سنجر، وتبادل الطرفان الحروب والسلام إلى أن توفيا: أتسز سنة ٥٥١هـ/١١٥٤م، وسنجر سنة ٥٥٢هـ/١١٥٥م، وبدا في أفق الخوارزميين أمل لبناء دولة مستقلة، وتم لهم ذلك أيام السلطان تكش حفيد أتسز (٥٦٨ – ٥٩٦هـ/١١٧٢-١١٩٩م).

---

(١) في العصر السلجوقي والعصور التي تلته من أيوبية ومملوكية كانت الطشتدارية مهنة لها قيمتها في الدولة، فقد كان صاحبها المسؤول عن غسيل ملابس السلطان والأمراء، وكذلك عن المقاعد، والمخاد، والسجاد الذي يصلي عليه السلطان... إلى غير ذلك.

بدأ السلطان تكش أعماله التوسعية شرقاً على حساب السلاجقة، وواتته الأسباب حين اصطدم السلطان السلجوقي طغرل الثالث مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله، فخاطب الأخير تكش وحرّضه ضد السلطان طغرل، ووعده بالسلطنة ومنحه أراضي السلاجقة إذا ما تمكن من طغرل وهزمه، وفعلاً سارت جحافل تكش من نيسابور إلى الري، وعلى مقربة من الري دارت معركة عنيفة هزم فيها طغرل الثالث وقُتل، وكان هو آخر السلاطين السلاجقة في خراسان، وذلك سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م.

بهذه المعركة انتهت دولة السلاجقة العظيمة في فارس وخراسان، وحلَّت محلها دولة الخوارزميين، وبدأ تكش يتوسع شرقاً وغرباً، وبلغت الدولة الخوارزمية أوج اتساعها، في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه (٥٩٦ – ٦١٧هـ/١١٩٩ – ١٢١٩م) الذي خلف أباه تكش، وكان مُعاصراً لجنكيز خان.

جلس علاء الدين محمد على العرش سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، وفي عهده بدأ الغزو المغولي للدولة الإسلامية الخوارزمية، وقبل الغزو المغولي قام محمد خوارزمشاه بسلسلة من العمليات العسكرية التوسعية جعلته يتاخم المغول شرقاً، والعراق غرباً، لكن دولته هذه بدأت تتعرض في أواخر أيامه لحملات المغول، فتوفي بعد مطاردة طويلة له من قبل المغول، وخلفه ابنه جلال الدين الذي دأب جاهداً على إعادة الوحدة لدولة أبيه، فضلاً عن أنه بدأ يتوسع غرباً، ووصل في ذلك إلى أذربيجان وخوزستان والعراق، فوجد المعظم عيسى فيه فرصة لتهديد أملاك الأشرف موسى في الجزيرة الفراتية، فراسله وحالفه على ذلك، فوافق خوارزمشاه فوراً.

وعودةً لأخبار الصراع بين أبناء العادل، فقد عاد المعظم ثانيةً للتحرك ضد حمص، فشن الغارات ضدها سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، لكنه لم يتمكن من دخولها بسبب مقاومة حاكمها شيركوه الثاني، في وقت بدأ فيه خطر الخوارزميين بقيادة جلال الدين منكبرتي يقترب من أملاك الأشرف، وهنا قرر الأشرف حسم مادة الخلاف مع أخيه المعظم، والتحالف معه ضد الخوارزميين، فقدم إليه في دمشق، لكن المعظم احتجزه، وأقام الأشرف عنده في دمشق كالأسير، وأثناء ذلك قصد جلال الدين أخلاط ودخلها سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، ولم يسمح المعظم للأشرف بالرحيل حتى حلف له أن يقف إلى جانبه ضد الكامل، وأن يُطلق يده ضد صاحبي حماه وحمص، فحلف له[١]، وأرسل المعظم لصاحبي حماه وحمص بما تم من اتفاق مع الأشرف، «فما وافقوا على ذلك»[٢]، في حين أن الأشرف لما عاد «إلى بلاده رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين المعظم»[٣]، وتأول في أيمانه التي أقسمها بأنه كان مكرهاً عليها.

تطورت الأحداث إلى أخطر من ذلك، فالمعظم راسل جلال الدين منكبرتي يستمد منه العون والقوة، ولما علم الكامل بذلك، قابل فعله بأشرّ منه، فقد كان على علم باستعدادات فردريك للقيام بحملة صليبية إلى الشرق، فأرسل وزيره فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى الإمبراطور فردريك الثاني، إمبراطور ما عُرف باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فجدد عليه العرض الذي عرضه

---

(١) أبو شامة: ذيل الروضتين: الموسوعة، ٢٠/ ١٣٨٤، ابن العديم، زبدة الحلب ٢/ ٦٦١، السلوك ١/ ٢٥٨.

(٢) ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري، ص١٤٠.

(٣) مفرج الكروب، ٤/ ٢٠٥- ٢٠٦.

على الصليبيين سالفاً أثناء وجودهم في دمياط، أي يعطيه القدس وغيرها من فتوحات صلاح الدين إن قدِمَ لنجدته ضد المعظم عيسى والخوارزمية، فقابل فردريك هذا العرض بالموافقة السريعة وقرر المسير.

- الحملة الصليبية السادسة وتسليم القدس:

الحملة السادسة كانت الأدنى بين الحملات الصليبية من حيث القوة العسكرية، لكنها الأعلى من حيث النتائج، قاد هذه الحملة الإمبراطور فردريك الثاني من غير مباركة بابوية، لأنه كان محروماً كنسياً، وعلى الرغم من قلة أعوانه حقق بالدبلوماسية ما لم يحققه غيره بالسيف، إذ تسلم القدس من الكامل محمد الأيوبي، وتوّج بها ملكاً على المملكة اللاتينية المقدسة في ربيع الآخر ٦٢٦هـ/آذار ١٢٢٩م، وقبل الحديث عن الحملة لا بد من توضيح بعض النقاط.

كانت الكنيسة الكاثوليكية في أوربة الغربية هي المؤسسة الأقوى سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، وإلى حدٍ ما عسكرياً، وقد امتلكت السيادة الدينية هناك، وفي القرن التاسع الميلادي ظهر إلى جانب الكنيسة مؤسسة أخرى هي الإمبراطورية حين جرى تتويج شارلمان إمبراطوراً على غرب أوربا باسم إمبراطور الرومان، أو إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهو على هذه الصورة يفترض أنه امتلك السيادة الزمنية على كلّ أوربة الغربية.

ومن بعد ذلك شهدت أوربا الغربية صراعاً طويلاً وحاداً بين الإمبراطورية والبابوية من أجل إثبات السيادة على نحو يمكن القول فيه: إن تاريخ أوربا دار على محور الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية، وقد مرَّ هذا الصراع بأدوارٍ عديدة، وفي كثير من الأحيان كان الإمبراطور الذي امتلك

المقدرة العسكرية يقوم باحتلال روما وطرد البابا المنتخب، ويعين آخر محله، أي إنه في بعض الأحيان توفر أكثر من بابا، وكان الذي يُطرد من روما في غالب الأحيان يلجأ إلى فرنسا، البلد الكاثوليكي الأهم، ولما كان البابا يعجز عن استخدام السلاح العسكري يستخدم السلاح الديني ويحرم الإمبراطور كنسياً، ويُنزل به عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين.

الحديث عن هذه القضية يطول، والمهم أن الإمبراطور فردريك الثاني قائد الحملة السادسة مثَّلَ أحد أدوار الصراع بين الإمبراطورية والبابوية، وكان هذا الإمبراطور قد تلقى مساعدة من البابوية للقضاء على منافسه أوتو الرابع سنة ٦١١هـ/١٢١٤م، لذا وعد البابا أنوسنت الثالث بالقيام بحملة إلى المشرق الإسلامي، لكنه أخذ يماطل، كما أن البابوية بدأت تخشى من طموحاته، فبعد أن سيطر الإمبراطور على ألمانيا توجه بأنظاره إلى صقلية وإيطاليا حيث اتخذهما مسرحاً لنشاطاته، والبابوية حريصة كل الحرص على إبعاد أي قوة تهدد سلطانها في إيطاليا.

وفي المشرق، كان حنا دي بريين يحكم المملكة اللاتينية المقدسة في عكا باسم زوجته ماري، وقد أنجب منها ابنته يولاند التي أصبحت وريثة لعرش المملكة، ومن باب التشجيع عرض البابا على الإمبراطور فردريك زواجها شريطة أن يتم ذلك في الشرق، لكن فردريك استدعى يولاند إلى صقلية، وتزوج بها هناك سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، فأصبح من ثمّ ملكاً على المملكة باسم زوجته، وهنا جدد وعوده للمرة الثانية بالقيام بحملة إلى الشرق، ثم أخذ يماطل مرة أخرى، إذ لم يجد ما يحفزه للمسير نحو الشرق، ولم يشأ أن يستهلك قواه هناك، لكن البابا غريغوري التاسع (٦٢٥ - ٦٣٩هـ/١٢٢٧ - ١٢٤١م) أجبره على

المسير، فأبحر فعلاً من برنديزي قاصداً بلاد الشام، ثم عاد بعد أيام مدعياً المرض، فعدَّ البابا ذلك تمارضاً، وأصدر بحقه قرار الحرمان في ٢٩ أيلول ١٢٢٧م.

في هذه الأثناء وصلت دعوة الكامل، ولاقت قبولاً في نفس الإمبراطور، لا سيما أنه سيتسلم القدس غنيمة سهلة دون عناء، لذلك لم يلتفت لقرار الحرمان البابوي، والذي بناءً عليه لا يحق لفردريك قيادة حملة كهذه، وتجاوز كل العراقيل التي وضعتها البابوية أمامه، وأبحر إلى المشرق حيث نزل عكا في ٦٢٥هـ/ ٧ أيلول ١٢٢٨م، واختلفت هذه الحملة عن سابقاتها في كثير من الأمور، لعل أهمها المعارضة البابوية لها، وقلة قواتها، فلم يأت مع فردريك أكثر من ٥٠٠ مقاتل[١]، لكن الكامل محمداً لم يعد بحاجة لمساعدة فردريك، لأن المعظم عيسى مصدر الخطر توفي في سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م.

- الموقف في بلاد الشام أثناء قدوم الحملة:

بعد وفاة المعظم عيسى خلفه ابنه الناصر داود، الذي أراد أن يبدأ مع أعمامه صفحة جديدة، فأرسل إلى الكامل يعلن الولاء له، ويعترف به سلطاناً، لكنه فيما بعد رفض إعطاء الشوبك لعمه الكامل حين طلبها منه بحجة أنه سيجعلها خزانة له،[٢] وجعل هذا الرفض الكامل يسير بجيشه لمهاجمة ابن أخيه سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م.

(١) سعيد عاشور: فردريك الثاني والشرف العربي، مجلة جمعية الدراسات التاريخية، ١٩٦٣م، مجلد ١١.

(٢) المقريزي: السلوك، ١/ ٢٦٢.

سارع داود بطلب المساعدة من عمه الأشرف، الذي كان يطمع بدمشق أكثر من الكامل، فكان داود كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ دخل الأشرف دمشق، وأخذ معه ابن أخيه لملاقاة الكامل والتفاوض معه قبل وصوله دمشق، فترك ابن أخيه في نابلس، واجتمع هو مع الكامل وعدد من أمراء البيت الأيوبي في العوجا قرب غزة في ذي الحجة ٦٢٥هـ/ تشرين الثاني ١٢٢٨م، واتفق الأخوين على اقتسام ورثة ابن أخيهم على النحو الآتي:

- انتزاع دمشق من داود وتسليمها للأشرف مع أعمالها حتى عقبة فيق، ومن فيق حتى غزة تكون للكامل.
- إعطاء الناصر داود إقطاع حران، والرقة، والرها، وسروج، ومناطق أخرى من الجزيرة الفراتية.

هذا بالإضافة إلى قرارات ثانوية تعلقت بالبيت الأيوبي بشكل كامل[١]، ولما علم داود بما اتفق عليه أعمامه، عاد مسرعاً إلى دمشق وتحصن بها، فلحقه الأشرف، وفرض عليها الحصار[٢].

أثناء ذلك قدمت الحملة السادسة، وانشغل الكامل مع فردريك في مفاوضات انتهت بتوقيع اتفاقية يافا في شباط ١٢٢٩م، ثم لحق هو وبقية الأمراء

---

(١) منها إعطاء سلمية، التي كانت من أملاك حماة، للمجاهد صاحب حمص، وتعطى حماة للمظفر محمود بعد أن كانت بيد أخيه الناصر قليج أرسلان، وتعطى بعلبك التي هي من أملاك الأمجد بهرام شاه، للعزيز عثمان صاحب حلب. ابن واصل: مفرج الكروب، ٤/ ٢٣٠، المقريزي: السلوك، ١/ ٢٦٥، ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٤٣٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ٤/ ٢٣٦ وما بعد، المقريزي: السلوك، ١/ ٢٦٧، ٢٧٢، ابن الأثير، الكامل، ١٠/ ٤٣٥.

بالأشرف موسى، وفرضوا على دمشق حصاراً قاسياً أجبر داود على الاستسلام بموجب الاتفاق على أن:

- تكون دمشق للأشرف.
- يأخذ الكامل من الأشرف مقابل ذلك إقطاعات في الجزيرة مثل الرها، وحران، والرقة، وسروج.
- يعوض الناصر داود عن دمشق بالكرك، والشوبك، والصلت، والبلقاء، والأغوار.

وعليه دخل الكامل مدينة دمشق، ثم سلمها لأخيه الأشرف موسى في شعبان سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، ومقابل ذلك حصل الكامل من الأشرف على الرُّها، وحران، وسروج، والرقة، ورأس العين، وسيّر نوابه إليها، ثم لحقهم، أما الناصر داود فسُيّر إلى الكرك، «فشق ذلك على أهل دمشق، وتأسفوا على مفارقة الناصر، وكثر بكاؤهم»، وكان ابن واصل ممن شهد دخول العسكر، قال: «وقد كنت عند باب القلعة ذلك اليوم، وكان إلى جانبي إنسان من أهل دمشق، فلما رأى ذلك بكى بكاءً عالياً، وما رأيت يومئذ أحداً من الدمشقيين إلا ورأيته بصورة من فجع بموت ولد أو أب».

بعد ذلك توجه الكامل إلى أملاكه الجديدة في الجزيرة، وأثناء وجوده هناك هاجم جلال الدين منكبرتي الجزيرة، واحتل أخلاط في جمادى الأولى ٦٢٧ هـ/ نيسان ١٢٣٠م، وعلى الفور عُقد تحالفٌ سلطان سلاجقة الروم كيقباذ، والكامل، وأخيه الأشرف الذي أسرع من دمشق، وتولّى قيادة قوات التحالف، وأنزل

بالخوارزميين هزيمة ساحقة في ٢٨ شعبان/ ١٠ آب، استرد على إثرها أخلاط، وعاد جلال الدين إلى تبريز.

وبالعودة إلى أخبار فردريك والحملة السادسة، فإنه لما نزل الساحل الشامي أرسل إلى الملك الكامل محمد يطلب إليه الوفاء بعهوده، لكن الملك الكامل كان آنذاك قد تخلص من خطر المعظم، واتفق مع باقي أفراد البيت الأيوبي على اقتسام تركة المعظم، ولم يعد هناك حاجة لمساعدة الإمبراطور فردريك، هذا فضلاً عن المكاتبات التي وصلت من البابا إلى الكامل تحضه على عدم تسليم القدس للإمبراطور فردريك(١)، أي إن فردريك لم يتمتع بأي تأييد.

هنا أصبح موقف فردريك حرجاً، وأصبح معرضاً لأن يخسر مكانته في أوربا إذا أخفقت حملته، فلجأ إلى سياسة الاستعطاف، وخاطب الملك الكامل أكثر من مرة متذللاً له، وفي إحدى الرسائل كتب له: «أنا عتيقك وأسيرك، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وأنت كاتبتني بالمجيء، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي بينهم، وهذه القدس فهي أصل اعتقادهم وحجّهم... فإن رأى السلطان – أعزه الله – أن يُنعم عليّ بقصبة البلد، والزيادة تكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين الملوك»(٢).

وبعد مفاوضات طال أمدها مدة خمسة أشهر تقريباً وقع الكامل مع الإمبراطور فردريك صلح يافا المُشين في ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ/ شباط ١٢٢٩م، وكانت أهم بنوده هي:

---

(١) دي نوفار: حروب فردريك، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة، ٣٤/ ٤٣.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٥/ ٣٠.

تسليم القدس لفردريك – وكان الكامل قد أخذها مع نابلس وغيرها أثناء مسيره إلى الشام لمحاربة الناصر داود –، بشرط أن يبقى سورها مهدماً ولا تُجدد عمارته، وتكون قرى القدس كاملة للمسلمين، وأنَّ الحرم بما حواه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين، ولا يدخله الصليبيون إلا للزيارة فقط، وأعطى إلى الصليبيين أيضاً الناصرة، وبيت لحم، وغيرهما من القرى الواقعة على الطريق من عكا إلى القدس حتى لا يتعرض أحد للصليبيين القادمين من عكا لزيارة القدس، ونص الاتفاق أيضاً على إطلاق سراح الأسرى.

وفوراً وُضعت اتفاقية يافا موضع التنفيذ، وأرسل الكامل فنودي في القدس بخروج المسلمين، وتسليمها للصليبيين «فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذّنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعزّ عليه ذلك، وأمر بأخذ ما كان معهم من السُّتُور والقناديل والفضة والآلات، وزجرهم، وقيل لهم: امضوا إلى حيث شئتم، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار»[1].

ولما وصلت الأخبار إلى دمشق، امتلأت قلوب المسلمين غيظاً على الكامل، فأقاموا المآتم حزناً على تسليم القدس، وعقدت الحلقات في المساجد لذم الكامل، وللتذكير بفضائل القدس، وكان من أشدهم تأثراً الإمام سبط بن الجوزي، الذي جلس في الجامع الأموي بدمشق، وشنَّع على الكامل، ورثى القدس، فكان يوماً مشهوداً، ومما قاله في القدس:

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٢٦٩.

«انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وَفّت، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، ولمثلها تنقطع القلوب من الزفرات، ولمثلها تعظم الحسرات»[(١)].

ثم رثاها بقصيدة من إنشاء شهاب الدين أبي يوسف يعقوب بن محمد، منها:

على سُلّمِ المعراجِ والصَّخرةِ التي أنافتْ بما في الأرضِ منْ صخراتِ

«مدارِسُ آياتٍ خَلَتْ مِنْ تلاوةٍ ومَنْزِلُ وحيٍ مُقْفِرُ العَرَصاتِ»[(٢)]

وقد حضر ابن واصل هذا المجلس، فوصفه قائلاً: وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم، وعويلهم، ثم قال أيضاً: «لم يُرَ في ذلك اليوم إلا باكٍ وباكية»[(٣)].

دخل الإمبراطور فردريك مدينة القدس، وتَوَّجَ نفسه بيده في كنيسة القيامة في ٢٠ ربيع الأول ٦٢٦هـ/ ١٨ آذار ١٢٢٩م، ويُقال: إنه أحسن التعامل مع المسلمين هناك، ومن ذلك أمر الكامل قاضي نابلس المرافق للإمبراطور ألا يسمح للمؤذن برفع صوته بالآذان في الحرم أثناء وجود الإمبراطور، ولما علم بذلك فردريك، قال للقاضي: أخطأت فيما فعلت، وطلب منه ألا يُغيّر شيئاً، وأنه

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ٨/ ٤٣٢.

(٢) البيت الثاني من قصيدة لدعبل الخزاعي. السلوك، ١/ ٢٧٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ٤/ ٢٤٥، ٢٤٦.

يرغب بسماع آذان المسلمين وتسبيحهم في الليل، ويقال أيضاً: إنه أثناء تجوله في المدينة أتى قسيساً يريد دخول المسجد الأقصى وبيده الإنجيل، فزجره وطرده، ومنع الصليبيين من دخول المسجد الأقصى دون إذن المسلمين(١).

أقام فردريك في القدس أياماً، ثم خرج إلى عكا، ومنها أبحر في جمادى الأولى ٦٢٦هـ/ أيار ١٢٢٩م إلى بلاده، وبذلك تكون انتهت حملته التي هي أشبه ما تكون برحلة سياحية، لكنها حققت نتائج لم تتمكن جيوش أوربة المجتمعة تحت قيادة ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترة من تحقيقها قبل ذلك، ولا تلك التي اجتمعت تحت قيادة القديس لويس من فرنسا بعد ذلك.

- أحوال البيت الأيوبي بعد رحيل فردريك:

سلف الحديث أنه بعد توقيع اتفاقية يافا سار الكامل فوراً إلى دمشق ودخلها بعد حصار، ثم سلمها لأخيه الأشرف موسى، وأُبعد داود إلى الكرك، أما هو فسار إلى إقطاعه الجديد في الجزيرة، وهناك رأى كيف دخل الخوارزميون أخلاط دون مقاومة حتى تم استردادها، كما رأى ازدياد قوة سلطنة سلاجقة الروم وتعديها على أملاك الأيوبيين، وكان سلطانهم آنذاك علاء الدين كيقباذ، الذي دخل أخلاط، وأخذ يستخدم العصابات الخوارزمية التي طردها المغول لتحقيق مصالحه.

لهذا الأمر جمع الكامل سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م تحت قيادته معظم ملوك بني أيوب، كما جمع من الجيوش ما «لم يجتمع مثله في الأمصار القريبة لملك

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٢٦٩.

من الملوك»[1]، فاستعرضها عند البيرة على الفرات وقصد فيها سلاجقة الروم، لكن هذه الجيوش عجزت عن شق طريق لها في ممرات جبال طوروس، وتلقت إحدى الكتائب الأيوبية التي أرسلها الكامل إلى خربوط هزيمة ساحقة من قبل سلاجقة الروم، ثم عادت القوات الأيوبية، وقد عمَّ الاستياء بين ملوك بني أيوب على الكامل، ولا سيما بعد معرفتهم بنوايا الكامل، وأنه أراد التوسع في أراضي سلاجقة الروم لمصلحته الخاصة، فنُقل على لسانه أنه قال: «أريد أن أجعل البلاد صفقتين، فأضم مصر إلى الشام، وأعوض ملوكه (أي ملوك الشام) في الروم»[2]، ولما علم المجاهد صاحب حمص بمقولته، أعلم به الأشرف موسى، «وأحضر بني عمه وأقاربه وأعلمهم بذلك، فاتفقوا على الملك الكامل، وكتبوا إلى السلطان علاء الدين (كيقباذ) بالميل معه وخذلان الكامل، وسيروا الكتب بذلك، فاتفق وقوعها في يد الملك الكامل، فكتمها ورحل راجعاً»[3].

بدأ الأشرف بتشكيل حلف ضم معظم أمراء بني أيوب ضد أخيه الكامل محمد، وفي حلب كان العزيز عثمان قد توفي في صفر ٦٣٤ هـ/تشرين الثاني ١٢٣٦م، وخلفه ابن له من العمر سبع سنوات، حمل هذا الابن اسم جده الأكبر صلاح الدين وألقابه، فدعي بالناصر صلاح الدين يوسف (الثاني)، وكان هذا الصبي تحت وصاية جدته ضيفة خاتون بنت العادل وأخت الكامل، وقد ساورتها الشكوك من نوايا الكامل محمد، لذا وقفت إلى جانب الأشرف موسى، وغدا الكامل والأشرف - كما نقل اليونيني على لسان أحد أمراء الكامل - «مثل

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٥/ ٧٥. المقريزي: السلوك، ١/ ٢٨٨.

(٢) الأمجد حسن بن داود: الفوائد الجلية، ص٢١٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ١/ ٢٨٩.

الميزان، لا يرجح عليك ولا ترجح عليه، وقد بقي بينكما الملك الناصر داود، فإلى أي جهة مال ترجحت»[1]، لذا تسابق الأخوان كل واحد منهما يحاول كسب ابن أخيه داود إلى جانبه، فتقدم الأشرف موسى بعرضه على الناصر وأغراه بأن يزوجه ابنته الوحيدة، ويجعله وريثاً شرعياً إن وقف إلى جانبه، أما الكامل فقد عرض عليه استعادة دمشق له، وبعد أن استشار أمه، أشارت عليه بالكامل، فحالف عمه الكامل، وسافر إليه إلى مصر، وهناك تزوج ابنته عاشورا.

هذا ما أوغر صدر الأشرف، وجعله يهاجم ممتلكات الناصر، فهاجم نابلس وسيطر عليها، وبدأ يهدد الكامل بالحلف الموجود معه، وباجتماع بني أيوب ضده، غير أن المنية لم تمهله للمسير إلى مصر، وتوفي في قلعة دمشق في محرم ٦٣٥هـ/ آب ١٢٣٧م، واستلم مكانه أخوه وولي عهده الصالح إسماعيل صاحب بصرى.

بوفاة الأشرف موسى تصدع الحلف الذي كان قد جمعه من بني أيوب ضد أخيه الكامل محمد، ووجد عدد من الأمراء أولهم المجاهد صاحب حمص أنفسهم غير ملزمين حلفاً مماثلاً مع الصالح إسماعيل، وعلى هذا واتت الكامل فرصته، وسار فوراً بجيوشه إلى دمشق، وفرض عليها حصاراً شاركه فيه الناصر داود، الذي كان «لا يشك أنه إذا ملك دمشق فسيسلمها إليه كما تقرر».

لكن الكامل الذي دخل دمشق في ربيع الثاني ٦٣٥هـ/ كانون الأول ١٢٣٧م، لم يلتزم وعودَه تجاه الناصر، ولم يسلمه دمشق، أما الصالح إسماعيل فقد تم إبعاده عن دمشق إلى بعلبك، وراح الكامل يعد العدة لمهاجمة حمص، وكان يحكمها الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني، فأرسل إلى ابنه الصالح

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١/ ١٣٨.

أيوب الذي كان مقيماً في إقطاعات أبيه في الجزيرة بمهاجمة الرحبة التي كانت تابعة لحمص، وأرسل إلى المظفر صاحب حماه بالمسير لمهاجمة حمص، وفي ذروة الاستعدادات هذه توفي الكامل في رجب ٦٣٥هـ/ آذار ١٢٣٨م، أي بعد الأشرف بنحو ستة أشهر، وفرح المجاهد صاحب حمص بذلك «فرحاً عظيماً، ولعب الكرة وهو في السبعين»[١]، فسار إلى دمشق، ودخلها، لكنه لم يحتفظ بها.

(١) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٢٣١.

المقالـة الرابعـة

المرحلة الثالثة من الصراعات الأيوبية

«مرحلة ما بعد الكامل»

تعددت الشخصيات المتصارعة في هذه المرحلة، وكان أهمها:

١- الصالح إسماعيل بن العادل حاكم بعلبك.

٢- الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد، حاكم الجزيرة ثم حاكم مصر.

٣- العادل الثاني بن الكامل حاكم مصر.

٤- الناصر صلاح الدين يوسف الثاني، حاكم حلب، ثم حمص، ثم كامل بلاد الشام.

٥- الناصر داود بن عيسى حاكم الكرك.

٦- الجواد يونس حاكم دمشق بالنيابة عن العادل الثاني.

٧- المنصور إبراهيم صاحب حمص.

- **الصراع بين الصالح أيوب والعادل الثاني ولدا الكامل:**

كان الكامل محمد شخصية فريدة امتازت بتصرفات متناقضة، حتى إن سبط ابن الجوزي الذي ألقى عظاته في دمشق وهاجم الكامل، وشنَّعه بسبب تسليم

القدس، وصفه بالشجاعة والكرم والعدل وحب العلم، وفي الحقيقة فرض الكامل احتراماً وخوفاً لم يفرضهما غيره من الأمراء الأيوبيين، كما نشر الانضباط بين عساكره، وكان حازماً تجاههم، صادقاً في كلمته، وفياً لها، لذا فإنه انتزع الولاء المتوجب له كسلطان، أما في الحرب فإنه كان يفضل دائماً الحلول والمفاوضات على القتال، وبعد وفاتهدخل الأمراء في منافسات عنيفة، ثم اتفقوا على إبقاء ابنه الأكبر الصالح نجم الدين أيوب والياً على الجزيرة، وأن يتولى ابنه الأصغر العادل الثاني سلطنة مصر والشام، وينوب عنه في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل.

وفي أثناء ذلك كان الملك الناصر داود في دمشق، وكان من الطبيعي أن يرفض تولية دمشق للجواد يونس، وكانت فرصته كبيرة لتولي دمشق، لكنه لم يتمكن من فرض نفسه، فخرج من دمشق، وبدأ يعمل على توسيع مملكته، فتوجه إلى فلسطين، واستولى على غزة والساحل، لكنه هُزم أمام الجواد يونس في المعركة التي جمعت بينهما بين جنين ونابلس في ذي الحجة سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م، ونُهبت أمواله، ثم عاد إلى الكرك[١].

بدأ الجواد يونس يتصرف في دمشق كحاكم مستقل، ووصلت الشكاوى حول ذلك لسيده العادل الثاني، الذي عزم على المسير من مصر إلى دمشق لطرد الجواد يونس، فقام الأخير بمراسلة الصالح نجم الدين أيوب الموجود في الجزيرة الفراتية، وعرض عليه دمشق مقابل إقطاعات صغيرة في الجزيرة، فرحب الصالح بذلك بكل سرور، وسار إلى دمشق، فدخلها في جمادى الأولى سنة

---

(١) أبو الفداء: المختصر: ٣/ ١٦٠.

٦٣٦هـ/١٢٣٨م، ومن هناك عزم على المسير نحو مصر بعد أن تلقى الدعوات من أمرائها لتخليصها من أخيه العادل الثاني.

شكل الصالح نجم الدين أيوب أبرز شخصية من أمراء البيت الأيوبي المتصارعين في هذه المرحلة، ومن المفيد قبل الاستطراد في أحداث هذه المرحلة أن نذكر القليل عن هذه الشخصية، ففي سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، أثناء غياب الكامل محمد في الجزيرة الفراتية استناب عنه في مصر ابنه الصالح نجم الدين أيوب، وأثناء ذلك وصلته شكاوى من زوجته (أم العادل الثاني) تشكو إليه سوء سياسة ابنه الصالح أيوب، وأنه يطمع للاستقلال بمصر، فعاد الكامل إلى مصر، وأبعد ابنه أيوب إلى إقطاعاته في الجزيرة، وأثناء وجوده في الجزيرة تعامل مع الخوارزمية ومنحهم أرضاً للإقامة بها في ديار مضر غرب الجزيرة ، واستخدم بعض أمرائهم في خدمته، ومن هناك تم استدعاؤه بعد وفاة والده من قبل الجواد يونس بمقايضة خاسرة، إذ تنازل الجواد للصالح عن دمشق مقابل سنجار والرقة وعانة، والآن أصبح الصالح أيوب سيد دمشق، ويسعى ليصبح سيد مصر مكان أخيه العادل الثاني.

جمع الصالح أيوب جيشه، وخرج يريد مصر، واستناب عنه في دمشق ابنه المغيث عمر، لكنه ما إن وصل نابلس حتى قام عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك برفقة المجاهد شيركوه الثاني صاحب حمص بدخول دمشق بغتةً في صفر سنة ٦٣٧هـ/ أيلول ١٢٣٩م [1]، وانتزعاها من المغيث عمر بن

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٥/ ٢٢٨ -٢٢٩.

أيوب، وأعلن الصالح إسماعيل نفسه حاكماً لدمشق بالنيابة عن العادل الثاني حاكم مصر، وهكذا ذهب أيوب «ليصطاد، فاصطيد»[١].

غدا موقف الصالح أيوب ضعيفاً جداً، ولا سيما بعد أن تخلى عنه معظم جنده الأكراد ورجعوا إلى دمشق، فانضم معظمهم للصالح إسماعيل، وأقام أيوب في نابلس حتى قبض عليه نائبها حيلةً، وأرسله إلى سيده الناصر داود في الكرك، وادعى داود لأيوب أن ذلك تدبير احترازي خوفاً عليه من العادل الثاني، والصالح إسماعيل، ولما عرض العادل الثاني على داود تسليمه الصالح أيوب مقابل دمشق و٤٠٠ ألف دينار، رفض داود ذلك، وأصر على تسليمه دمشق قبل تسيير الصالح أيوب.

في هذه المرحلة الحاسمة انتهت مدة اتفاقية يافا، (عشر سنوات، وخمسة أشهر، و٤٠ يوماً)، واستأنف الصليبيون نشاطهم في فلسطين، كما شرعوا بترميم أسوار القدس وتجديدها، لذا سار الناصر داود بعسكره إلى مدينة القدس، ففرض عليها حصاراً دام واحداً وعشرين يوماً، حتى تمكن من دخولها في التاسع من شهر جمادى الأولى سنة ٦٣٦هـ/ كانون الأول ١٢٣٨م.

ثم في ١٧ رمضان سنة ٦٣٧هـ/١١ نيسان ١٢٤٠م، وبعد وساطة من أمير حماه المظفر تقي الدين الثاني، أطلق داود سراح الصالح أيوب بعد اعتقال دام سبعة أشهر، واستدعاه إلى نابلس ثم سارا معاً إلى القدس، وتحالفا، وتعاهدا على أن تكون مصر للصالح أيوب، والشام والشرق للناصر داود، وجرى في الوقت نفسه إرسال رسائل للخوارزميين تستحثهم على مهاجمة حلب وحمص، وهنا قرر العادل الثاني التحرك لتحطيم هذا التحالف، فراسل الصالح إسماعيل

(١) الفوائد الجلية، ص٢٥٥.

في دمشق، وقررا المسير معاً، إسماعيل من دمشق، والعادل من مصر، ليطبقا على داود وأيوب أثناء وجودهما في فلسطين، وهنا «ابتسم الحظّ لأيوب هذه المرة فجأة، بعد أن جافاه تلك المجافاة في المرّات السابقة».

فبعد أن سمع أيوب وداود بخبر مسير العادل الثاني هربا إلى الكرك، لكن العادل كانت سيرته سيئة بين جنوده ورعاياه بسبب لهوه وتبذيره، وقد أنفق بتبذيره المتهور تلك الأموال الاحتياطية التي خلفها أبوه الكامل، والتي قُدرت بستة ملايين دينار وعشرين مليون درهم، لذا تجمعت فئة من الأمراء عارضوا سيرته هذه، وأثناء مسيره إلى الشام قام أحد الأمراء، وهو عز الدين أيبك الأسمر، مقدم العساكر الأشرفية، باعتقاله في شوال سنة ٦٣٧هـ/ أيار ١٢٤٠م، واستدعى الملك الصالح أيوب لحكم مصر، فسارع الصالح أيوب لاستغلال فرصته ودخل القاهرة في الشهر نفسه يرافقه الناصر داود، فكانت مدة مُلك العادل الثاني لمصر سنتين، وشهرين، وثمانية عشر يوماً.

- مساعي الصالح أيوب لبسط سيطرته على الشام:

وفي مصر تغيرت الأحوال بين الناصر داود والصالح أيوب، وتنكر أيوب لوعوده، ونكث بيمينه التي حلفها للناصر، بحجة أنه حلف له مُكرهاً، وقال: «حلّفني على شيء لا تقدر عليه ملوك الأرض، وهو أن آخذ له دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة، فحلفت من تحت السيف»[1]، وعاد الناصر داود إلى الكرك.

---

(١) الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٧٢.

وفي مصر بدأ الصالح نجم الدين أيوب بتشكيل فرقة من المماليك الذين تم شراؤهم من أسواق الرقيق، وشكّل منهم قوة خاصة موالية له، ثم بدأ سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م في بناء قلعة في جزيرة الروضة التي جعلها مقراً له ولمماليكه، وكان قبل ذلك أثناء وجوده في الجزيرة الفراتية قد أكثر من الاعتماد على الجند الخوارزمية الذين تفرقوا في البلاد بعد سقوط دولتهم على يد المغول، فآواهم، واعتمد عليهم في عملياته العسكرية.

بعد أن استقرت الأحوال للصالح أيوب في مصر، كان من الطبيعي أن يتوجه بأنظاره إلى بلاد الشام، فالناصر داود عاد حانقاً إلى الكرك، أما في حمص فقد كان المجاهد شيركوه قد توفي، وخلفه ابنه المنصور إبراهيم سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٩م، الذي استمر على سياسة أبيه في التحالف مع الصالح إسماعيل في دمشق، وكان هذا الأخير قد أقلقه سيطرة الصالح أيوب على مصر، وبات على يقين بأن المرحلة التالية هي دمشق، وبما أن عساكر حلب باتت مشغولة في التصدي لقوات الخوارزمية التي هاجمت أراضيها، لم يكن بإمكانه طلب المساعدة من حاكمها، لذا توجه بنظره إلى صليبيي الشام، واتفق معهم على إنشاء تحالف ضد مصر لقاء تنازله لهم عن: صفد وبلادها، والشقيف وبلادها، وناصفهم على صيدا، وطبرية، وجبل عاملة، وسائر الساحل، وبعد أن تجمعت عساكر الصليبيين في فلسطين أذن لهم بدخول دمشق لشراء السلاح، فاستاء الأهالي من تصرفه، وعارضوه، وتصدى له الأئمة والعلماء، ومنهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي حرّم بيع الأسلحة للصليبيين، وقطع الشيخ عز الدين الدعاء له على المنابر، وصار دعاؤه: «اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً، تعز فيه

أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويُعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك»، فعزله الصالح إسماعيل عن الخطابة [١].

وتجب الإشارة إلى أن حامية الشقيف رفضت التزام أوامر الصالح إسماعيل المتكررة، ولم تسلم الحصن للصليبيين حتى قدم الصالح بنفسه وحاصرها، ثم سلمت له، وعاقب حاميتها.

وانضم إلى الصالح إسماعيل المنصور صاحب حمص، مع عسكر من حلب، وساروا إلى فلسطين لمواجهة الجيش المصري الذي خرج من مصر يريد بلاد الشام، وفي معركة دارت رحاها قرب تل العجول، انحاز فيها الجيش الشامي إلى إخوانهم المصريين، ضد قادتهم وضد الصليبيين، إذ حلت بالصليبيين هزيمة نكراء، فقتل معظمهم، وأُسر عدد كبير منهم ساقهم الصالح أيوب إلى مصر واستخدمهم في عمارة قلعة الروضة والمدارس في القاهرة[٢].

في هذه المرحلة كانت قوات المغول تتقدم شرقاً في الأناضول، وفي تموز من عام ١٢٤٣م حقق القائد المغولي بايجو نصراً ساحقاً على قوات كيخسرو سلطان سلاجقة الروم في معركة كوساداغ، ثم أخذ يتهدد أراضي الأيوبيين في الجزيرة، ويبدو أن انتصار المغول قد صدم الأيوبيين، وأوقع الذعر في نفوسهم، مما حملهم على القيام بمحاولات لتسوية نزاعاتهم، وعليها تقرر الصلح بين الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والصالح أيوب صاحب مصر سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، على أن تبقى مصر لأيوب، ودمشق لإسماعيل، ويُخطب في البلاد كلها باسم أيوب، ويُطلق إسماعيل سراح المغيث عمر بن أيوب المأسور لديه، في

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٣٠٤. النويري: نهاية الأرب، ٢٩/ ٢٧٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ١/ ٣٠٤-٣٠٥.

حين أنهما اتفقا على تقسيم الكرك مملكة داود بينهما[1]، غير أن النوايا لم تكن سليمة، وأخفقت محاولات الصلح، لأن الصالح أيوب كان يراسل الخوارزمية، وقد دعاهم للقدوم عليه لمهاجمة دمشق، فعاد الصالح إسماعيل - بعد أن علم بذلك - إلى مراسلة الصليبيين في ربيع سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م، وملَّكَهم هذه المرة القدس تمليكاً كاملاً، مع طبرية وعسقلان، ومعظم فتوحات صلاح الدين في الساحل، وقد تم ذلك بمعرفة الناصر داود والمنصور إبراهيم صاحب حمص، فدخل الصليبيون القدس مرة أخرى، وجلسوا بالخمرة فوق الصخرة[2].

نحن نعلم أنه بعد مصرع جلال الدين منكبرتي سقطت دولته، وتفرقت جيوشه إلى فرق، تشتت على جهات مختلفة تقدم المساعدة لمن يدفع لها، فقسم اتجه إلى الظاهر غازي صاحب ميافارقين، وقسم كبير انضم إلى سلاجقة الروم، وأثناء وجود الصالح نجم الدين في الجزيرة نائباً عن أبيه اكترى فرقة منهم، واستخدمها في خدمته بعد أن منحها أرضاً في ديار مضر، ولما وصلتهم دعوته الأخيرة رحبوا بها، وعلى الفور تحرك نحو عشرة آلاف منهم، فاجتاحوا سهل البقاع في صيف سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م، وطوال الطريق وهم يسلبون ويقتلون، فأجفل الناس منهم، فساروا إلى فلسطين، ودخلوا القدس التي كانت أشبه بمدينة مفتوحة، بعد أن دمر المعظم عيسى أسوارها أيام الحملة الخامسة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، وبذلوا السيف بالصليبيين هناك، وعبثاً استنجد الصليبيون بإخوانهم في الساحل الشامي، وبحلفائهم من قادة المسلمين، فكان دخول الخوارزمية للقدس كارثة بحق الصليبيين، ثم تابع هؤلاء مسيرهم بعد القدس إلى غزة فوصلوها في

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٣١٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ١/ ٣١٥.

صفر ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، وهناك التقوا العسكر المصري الذي كان تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس[١]، في حين تكوّن الجيش الشامي من قوات دمشق وقوات حمص وقوات الكرك، وحلفائهم صليبيي يافا وتبنين وصور، ومن الداوية والاسبتارية والتيوتون، ونُصِّب المنصور إبراهيم حاكم حمص قائداً أعلى للجيش، وفي المعركة التي جمعت الطرفين قرب قرية الحربية شمال شرق غزة في جمادى الأولى ٦٤٢هـ/ تشرين الأول ١٢٤٤م تمكنت قوات الخوارزميين والمصريين بقيادة بيبرس من اختراق عساكر المسلمين من الميسرة والقلب، وعندئذ تمكن الخوارزمية من تطويق القوات الصليبية، فأفنتهم قتلاً وأسراً، ولم يتمكن من النجاة والهرب سوى قرابة خمسين رجلاً من الداوية والاسبتارية، وسيق الأسرى إلى القاهرة، وكان يوم دخولهم يوماً مشهوداً[٢].

كان المؤرخ سبط بن الجوزي موجوداً آنذاك في القدس، وفي اليوم التالي للمعركة سار إلى غزة، فقال: «لقد أصبحت ثاني يوم الكسرة إلى غزة، فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب، فقالوا هم زيادة على ثلاثين ألفاً»[٣].

وعلى قول رنسيمان: لم يَفُقْ معركة غزة في كثرة الخسائر سوى معركة حطين، وعلى إثر هذه الكارثة أرسل الصليبيون إلى البابا وأمراء أوروبا يصفون

---

(١) يجب التمييز بين بيبرس هذا والسلطان المملوكي الذي يحمل الاسم نفسه، وسنرى أن بيبرس هذا سوف يتم القبض عليه بعد أشهر قليلة بسبب تحالفه الغادر مع الخوارزميين، وتوفي في السجن، أما بيبرس الثاني الذي سيصبح سلطاناً فإنه لم يدخل في خدمة الصالح أيوب حتى سنة ١١٤٧م.

(٢) المقريزي: السلوك، ١/ ٣١٧ وما بعد.

(٣) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ٨/ ٢/ ٧٤٦.

لهم سوء أحوالهم، فتم عقد مجمع ليون في فرنسا سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م الذي كان أهم قراراته إرسال حملة لإنقاذ صليبيي الشام، فكانت حملة لويس التاسع.

بعد ذلك استولى الخوارزمية مع القوات المصرية على معظم الساحل مع القدس والخليل والأغوار، وعادت القوات المصرية إلى مصر، ثم جرى إعدادها مرة ثانية وإرسالها أواخر سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م لحصار دمشق تحت قيادة معين الدين بن شيخ الشيوخ، وبعد حصارٍ عنيف شاركت فيه قوات الخوارزمية، وعاثت في أعمال دمشق خراباً، سُلمت دمشق للقوات المصرية سلمياً في جمادى الأولى سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥مـ، ومقابل ذلك خرج المنصور إبراهيم إلى ولايته في حمص، وسير الصالح إسماعيل إلى بعلبك وبصرى، وهذا قوبل باستياء شديد من جانب الصالح أيوب؛ لأنه لم يشأ التساهل مع الصالح إسماعيل، ولما دخل معين الدين إلى دمشق كان أول عمل قام به هو أنه حظر على الخوارزمية دخول المدينة، لإنقاذها من مغبة عنفهم.

- **فتنة الخوارزميـــة :**

ظنَّ الخوارزمية أن الصالح أيوب سوف يقاسمهم الشام إذا تحقق له النصر، ولما تبين لهم عكس ذلك بدؤوا بأعمال السلب والنهب في البلاد، فعظمت «مضرة الخوارزمية ببلاد الشام، وكثر نهبهم للبلاد وسفكهم للدماء وانتهاكهم للحرمات»[١]، حتى سميت سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م «سنة الخوارزمية»[٢]، وكسبوا إلى جانبهم قائد الحامية المصرية في غزة الأمير ركن الدين بيبرس، ثم قاموا

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٣٢٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٣/ ١٧٨.

بنهب الغوطة، ثم تحالف معهم الناصر داود، فاسترد هذا القدس ونابلس والخليل نتيجة هذا التحالف.

وفي هذه السنة أيضاً حاصر الخوارزمية دمشق، وانضمت لهم قوات بعلبك بقيادة الصالح إسماعيل، وقوات الكرك بقيادة الناصر داود، فضايقوا دمشق أشد المضايقة، ومنعوا عنها الميرة، وكان احتمال أن يقوم الخوارزمية بنهب دمشق أمراً له وقع مؤثر في نفس المنصور إبراهيم صاحب حمص، فتخاصم هذا الأخير مع الصالح إسماعيل لهذا السبب، وانحاز إلى جانب الصالح أيوب، فتحالفا وتعاضدا، وقرر المنصور إبراهيم القضاء على فوضى الخوارزمية، ووقفت إلى جانبه قوات حلب، ولما علمت الخوارزمية بمسير المنصور إبراهيم إليهم فكوا الحصار عن دمشق، وساروا لملاقاة المنصور، فوجد أهل دمشق برحيلهم فرجاً عظيماً.

وفي معركة جمعت الطرفين قرب بحيرة حمص، في موقع يدعى عيون القصب، في محرم سنة ٦٤٤هـ/ أيار ١٢٤٦م، كُسرت الخوارزمية أشد كسرة، وقتل منهم خلقٌ كثيرٌ، وكانت هذه المعركة نهاية الخوارزميين كقوة مقاتلة، فلم تقم لها بعدها قائمة[١].

أما الصالح إسماعيل فقد فرّ إلى حلب تاركاً بعلبك ليحتلها حاكم دمشق، ونُقل أولاده أسرى إلى مصر، ورفض الناصر يوسف الثاني حاكم حلب طلب الصالح أيوب تسليمه إسماعيل [٢]، وتصدت قوات مصرية لداود، وهزمته عند

---

(١) المقريزي: السلوك، ٢/ ٣٢٤.

(٢) بقي الصالح إسماعيل ملتجئاً عند الناصر يوسف الثاني حتى سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، إذ سار هذا الأخير في حملةٍ قصد بها دخول مصر واستخلاصها من المماليك، فتمكن المماليك من اعتقال إسماعيل هذا وقتلوه صبراً.

السلط في أيلول ١٢٤٦م، وسمحت له أخيراً أن يحتفظ بالكرك مقابل تخليه عن جميع أراضيه الأخرى، وعن الخوارزمية الذين التحقوا في خدمته، وفي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م قام الصالح أيوب في جولة تفقدية لأملاكه في بلاد الشام.

وبعد معركة غزة سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، وموقعة عيون القصب سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، استقرت الأحوال السياسية على النحو الآتي:

- غدا الصالح أيوب سيد مصر، ودمشق، وبعلبك، والقدس، ونابلس، وغزة، والساحل.
- حمص في يد المنصور إبراهيم، الذي كان على علاقة جيدة مع الصالح أيوب، وبعد أشهر من انتصاره على الخوارزميين استلم مكانه ابنه الأشرف موسى الثاني، وقد حافظ هذا على العلاقة الطيبة مع الصالح أيوب.
- الصالح إسماعيل فرّ إلى حلب بعد كسرة الخوارزمية، وعاش في ضيافة الناصر يوسف الثاني، وآلت بلاده للصالح أيوب.
- أما الناصر داود، ومملكته في الكرك، فقد أصبحت من أملاك الصالح أيوب أيضاً، وحدث ذلك حين كان في حلب سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، وناب عنه ابنه الصغير المعظم عيسى، فثار عليه أخواه الكبيران، الأمجد حسن، والظاهر شادي، وسلما الكرك ومملكة أبيهم للصالح أيوب الذي عوضهم بإقطاعات في مصر.
- حماه كانت في يد المنصور محمد الذي خلف أباه المظفر محموداً سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م.

- أما حلب، فقد كانت في يد شخص طموح من أحفاد صلاح الدين، وهو الناصر يوسف الثاني بن العزيز بن الظاهر غازي، فقد استلم هذا الحكم سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م وهو ابن سبع سنين، فشُكِّل له مجلس وصاية تحت إشراف جدته ضيفة خاتون حتى بلغ سن الرشد واستبد بالحكم، فقد كان يرى في نفسه أنه المؤهل لإعادة سيرة جده صلاح الدين.

- **الصراع بين الصالح أيوب والناصر يوسف الثاني:**

وفي الحقبة التي سبقت الحملة الصليبية السابعة، شكّل الناصر يوسف الثاني، والصالح نجم الدين أيوب محور الصراعات الأيوبية - الأيوبية، وهذا التبديل الذي حدث في ميزان القوى في بلاد الشام لم يكن في صالح حاكم حلب الطموح، لذا عمل على جذب المنصور محمد صاحب حماه إلى صفه وزوجه من أخته، كما قام بالتحالف مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ثم حاصر حمص سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، والسبب المباشر الذي دفعه لهذا العمل هو أن الأشرف موسى صاحب حمص قدم قلعة شميميس الواقعة قرب سلمية للصالح أيوب سنة ٦٤٥هـ/١٢٥٦م، تعبيراً عن مودته، فاعترض الناصر يوسف الثاني صاحب حلب على ذلك لأن قلعة شميميس شكلت موقعاً متقدماً تجاه الشمال، فعد الناصر هذا عملاً عدائياً من صاحب حمص، وأنَّ «ذلك سبب لتطرق الملك الصالح لبلاد حلب»[1]، وأنه قد «يحصل الطمع للملك الصالح في ملك باقي الشام»[2]، لذلك صمم الناصر يوسف الثاني على أخذ حمص.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٥/ ٣٧٧.

(٢) أبو الفداء: المختصر، ٣/ ١٧٦.

وفي سنة ٦٤٦ هـ/١٢٥٧م حاصرت قوات حلب مدينة حمص مدة شهرين، وتأخرت عنها المساعدة من حليفها الصالح أيوب الذي كان مريضاً، فسقطت حمص للناصر يوسف الثاني، وَعُوِّضَ عنها الأشرف موسى بتل باشر، والرحبة، وتدمر، وكان سقوط حمص ضربة قوية للصالح أيوب، لأن ذلك زاد نفوذ الناصر قوة في بلاد الشام، فسار أيوب على الرغم من مرضه إلى دمشق، ومنها أرسل قواته بقيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ لتحرير حمص من الناصر، فحاصرت القوات المصرية حمص ورمتها بالمجانيق، وكادت تفلح في دخولها لولا وصول أخبار حملة لويس التاسع، وأنها تجمعت في قبرص، وقد عزمت على قصد الديار المصرية، فلم يجد أيوب بداً من فك الحصار، وقبل بشفاعة رسول أوفده الخليفة العباسي المستعصم، وعقد صلحاً مع الناصر يوسف الثاني، تقرر فيه بقاء حمص بيد الناصر يوسف الثاني، ومن هناك عاد الصالح أيوب إلى القاهرة محمولاً على محفة بسبب اشتداد مرضه[١].

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٣٣٣، أبو الفداء، المختصر، ٣/ ١٧٧، الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٧٩.

المقالة الخامسة

الحملة الصليبية السابعة

٦٤٦-٦٤٨هـ/١٢٤٨-١٢٥٠م

في سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م حرّر عماد الدين زنكي مدينة الرها، مُنهياً بذلك أول إمارة صليبية في المشرق الإسلامي، وعلى إثر ذلك أرسلت أوروبا حملتها التي عُرفت باسم الحملة الثانية لاسترداد الرها، وكان على رأسها لويس السابع ملك فرنسا، وإلى جانبه إمبراطور ألمانيا.

بعد مئة عام، وفي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م حرّر الخوارزمية القدس، واستباحوا حرمات المسيحية، وقتلوا خلقاً كثيراً من الصليبيين، وعلى أثر صيحات الاستنجاد، أُرسلت الحملة السابعة، وكان على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا.

يلحظ الباحث في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، أن الحماسة الدينية أيام الحملة السابعة لم يعد كما كان قبل قرن أو أكثر، وأن الناس في أوروبا الغربية لم يعودوا عبيداً للإقطاع والكنيسة، بل باتوا على أعتاب نهضة حضارية، فظهرت عندهم علوم حديثة، وتأثروا بحضارة الشرق بعد الاحتكاك المباشر، ولم يعودوا يرون أن حرب المسلمين هي الحل لمشاكلهم، لذلك كانت الحملة السابعة آخر الحملات الكبيرة التي أُرسلت إلى الشرق الإسلامي.

في سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م أرسل بطريرك القدس إلى الغرب الأوربي سفارة شرحت لهم خطورة موقف الصليبيين بعد استيلاء الخوارزمية على القدس ومعظم مدن الساحل، وطلبت إليهم التدخل السريع وتقديم المساعدة، وعلى أثر ذلك عُقد مجمع ليون الكنسي في فرنسا سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م، وكانت أهم قراراته إرسال حملة صليبية إلى الشرق.

كان لويس التاسع - ملك فرنسا - قد شُهر بورعه وتقواه حتى سُميّ فيما بعد بالقديس، وكان قد تعرض قبل ذلك لمرض خطير، ونذر إن شُفي منه سيقوم بحملة إلى الشرق، وهكذا جاء شفاؤه متزامناً مع قرار المجمع الكنسي، فأخذ يُعد العدة لتسيير الحملة، وبعد ثلاث سنوات أخذت الحملة طريقها إلى الشرق سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، وقد غلب على أفرادها العنصر الفرنسي.

نزل لويس التاسع مع جيشه قبرص في أيلول ١٢٤٨م، وهناك رحب به القبارصة، وقدموا له ولجيشه المساعدات، وقضى في قبرص عدة أشهر، وفد عليه خلالها معظم أمراء الصليبيين في الساحل الشامي، كما راسل المغول من هناك للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين، ثم في أيار ١٢٤٩م انطلق لويس التاسع بحملته إلى مصر، فوصل الشاطئ في مطلع شهر حزيران، وقدَّر أبو الفداء تعداد حملته بـــ ٥٠ ألف مقاتل.

كانت الأشهر الثمانية التي قضاها لويس في قبرص قد أتاحت للملك الصالح أيوب اتخاذ استعداداته لأنه كان على علم بأمر الحملة، فقد ورد عند عدد من المؤرخين أنَّ الإمبراطور فردريك الثاني أرسل رسولاً من عنده بزي تاجر، قابل الصالح أيوب، وأخبره بعزم لويس التاسع على المسير إلى مصر، ولا شك أن هذه التحذيرات أفادت الصالح، فأسرع إلى تحصين دمياط، وشحنها بالآلات

والذخيرة، وجعل فيها عدداً من رجال قبيلة كنانة المشهورين بشجاعتهم، وكّل إليهم مهمة الحماية والحراسة والدفاع، وفعل ذلك بدمياط، لأن التجارب أكدت قصد الصليبيين لدمياط، أما هو، فبعد أن عاد من دمشق عَسْكَرَ في أشموم طناح، وأرسل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على رأس قوة كبيرة من الجيش لمنع الصليبيين من نزول الساحل المصري.

تتشابه وقائع الحملة السابعة كثيراً مع وقائع الحملة الخامسة، فلما قصد لويس التاسع دمياط ووجدها جيدة التحصين، وأدرك صعوبة النزول على برها، توجه إلى الضفة الغربية للنيل، وهناك بدأت عمليات الإنزال، التي لم تكن أمراً سهلاً، ولم تتم إلا بعد مناوشات عديدة مع قوات الأمير فخر الدين، وفي النهاية مكّن التفوق العددي لرجال الحملة من النزول وبناء معسكراتهم على الضفة الغربية للنيل، فانسحب الأمير فخر الدين مع قواته، وعبر النيل شرقاً، لكنه لم يدخل دمياط للدفاع عنها، بل توجه فوراً إلى الجنوب، إلى المعسكر في أشموم طناح، ولما رأى أهل المدينة والمدافعون عليها انسحاب الجيش جنوباً، خافوا على أنفسهم، فخرجوا من المدينة بعد أن أحرقوا أسواقها، وتركوا أبوابها مفتوحة، كما أن قوات فخر الدين تركت الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية قائماً ولم تقطعه، وهكذا وجد الصليبيون المدينة غنيمة سهلة، فتقدموا إليها بخوفٍ وحذر من أن يكون ذلك فخاً، فدخلوها في ٢٤ ذو القعدة ٦/٦٣٨ حزيران ١٢٤١م، وغنموا فيها الكثير من الآلات الحربية، والأسلحة، والزاد، والذخائر، والأموال... صفواً عفواً[(١)].

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٣٣٥- ٣٣٦.

كان سقوط دمياط مصيبة لم يجرِ مثلها على حد قول ابن تغري بردي[١]، فلم يتكلف الصليبيون في دخولها كبير عناء، كما حدث في الحملة الخامسة، ولأهميتها بدؤوا بتحصينها، وتحويلها إلى مدينة صليبية، فحولوا المسجد إلى كنيسة، وعينوا بطريركاً لها.

لم يتحرك الصليبيون فوراً باتجاه الجنوب لمهاجمة الجيش الأيوبي، بل قضوا في دمياط خمسة أشهر، وربما كان ذلك انتظاراً لانحسار فيضان النيل، خوفاً من الوقوع في الفخ الذي وقعت به الحملة الخامسة، لكن هذا التأخير أفاد الأيوبيين في إعادة ترتيب قواتهم، فقد كان الملك الصالح أيوب قد عاقب أمراء بني كنانة على تخاذلهم وهربهم، وشنق معظمهم[٢]، كما وبخ فخر الدين وقواته، ثم نقل معسكره جنوباً إلى مدينة المنصورة، واستمر بتنظيم شؤون دولته وهو على فراش الموت.

- مسير الحملة إلى القاهرة :

في رجب سنة ٦٤٧هـ/ تشرين الأول ١٢٤٩م وصلت إمدادات جديدة للجيش الفرنسي بقيادة ألفونس دي بواتيه شقيق الملك لويس التاسع، وفي شعبان/ تشرين الثاني قرر الصليبيون الزحف إلى القاهرة، واختاروا الطريق البري على الضفة الشرقية لفرع دمياط، وهو الطريق نفسه الذي سلكته الحملة الخامسة، وبعد ثلاثة أيام من بدء مسيرهم توفي الصالح نجم الدين أيوب في ١٥ شعبان/ ٢٣ تشرين الثاني، وحاولت زوجته شجر الدر جاهدة أن تخفي خبر وفاة زوجها، فاستمرت المراسيم والكتب تدخل وتخرج من عنده وكأنه حي، وأرسلت إلى ابنه

---

(١) النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٣٠.

(٢) أبو الفداء: المختصر، ٢/ ٢٨٥.

المعظم تورانشاه، الذي كان نائباً عن أبيه في حصن كيفا، تخبره بضرورة القدوم للاستلام مكان أبيه، لكن على الرغم الإجراءات المشددة، تسرب خبر الوفاة، ليس إلى المصريين فقط، بل حتى إلى الصليبيين، الذين أسرعوا في مسيرهم لاغتنام الفرصة، واستغرق الطريق معهم إلى المنصورة أكثر من عشرة أسابيع، وطوال الطريق والقوات المصرية تناوشهم وتحاول عرقلة مسيرهم، وكانت السفن تسير معهم في النيل، لتزويدهم بالمؤن، وفي ١٤ رمضان/٢١ كانون الأول وصلوا إلى نقطة تفرع بحر أشموم طناح من النيل، وهو المكان الذي يسميه العييني رأس جزيرة دمياط، (انظر الخريطة)، ومن ثم صار بحر أشموم حاجزاً بين الطرفين، ولم يتمكن الصليبيون من عبوره حتى ٨ شباط، بعد أن دلهم أهلي بلدة سلمون الأقباطُ على مخاضة اسمها مخاضة سلمون، ومن هذه المخاضة عبر الجيش الصليبي، وفاجأ القوات الأيوبية، وتمكن في معركة سريعة من إنزال الهزيمة بالقوات الأيوبية التي كانت تقف أمامهم، وقتل قائد الجيش فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وهرب الباقي إلى المنصورة.

كانت هذه الفرقة الصليبية المهاجمة بقيادة روبرت دي أرتوا، أخي لويس التاسع، وقد شكلت طليعة الجيش الصليبي، وقد اغتر روبرت بنصره هذا، ولم ينتظر عبور باقي القوات الصليبية، بل سارع إلى الهجوم على مدينة المنصورة، وهو بذلك ارتكب حماقة كبرى، ولم يستمع للتعليمات القاضية بضرورة الانتظار، فقد كانت القوات الأيوبية قد أعادت ترتيب نفسها، تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس(١)، وفي شوارع المنصورة، حيث وزع بيبرس قواته، أُبيدت القوات الصليبية المهاجمة، وكان على رأس القتلى الذين بلغ عددهم أكثر من ١٥٠٠ قتيل، روبرت دي أرتوا نفسه، فكانت معركة المنصورة على حد قول المؤرخ

---

(١) الذي سيصبح سلطاناً على مصر.

الفرنسي غروسيه، مقبرة الجيش الصليبي[١]، وعلى قول المقريزي: أول ابتداء النصر[٢].

عبرت بقية الجيش الصليبي بحر أشموم طناح، وتكرر الهجوم الأيوبي عليهم في ٧ذو القعدة ٦٤٧هـ/ ١١ شباط ١٢٥٠م، لكن القوات الصليبية صمدت أمامهم أكثر من مرة، ثم تجمد الموقف بين الطرفين، فلويس التاسع بعد عبوره المخاضة اتخذ معسكره هناك، وكانت المنصورة معسكراً للأيوبيين، واستمرت المناوشات بينهم.

في نهاية شهر شباط وصل المعظم تورانشاه، واستلم مكان أبيه، وأخذ ينظم أمور البلاد، في وقت ساءت فيه أحوال الجيش الصليبي الصحية، والغذائية، ولا سيما بعد أن تمكن تورانشاه من قطع الطريق على السفن التي تحمل المؤن إليهم من دمياط عبر النيل.

بات الهجوم الصليبي إقداماً على الانتحار، كما أن الانسحاب لا يقل عنه خطراً، وذلك خوفاً من تعقب الجيش الأيوبي لهم، لذا لجأ لويس التاسع إلى المفاوضات، لكي يضمن لقواته انسحاباً آمناً، فعرض عليهم تسليم دمياط مقابل القدس.

رُفض عرضه بشدة، لأن وقته قد فات، وفي ١ محرم/٥ نيسان شرع الصليبيون بالانسحاب من حيث أتوا، وسارت في أعقابهم القوات الأيوبية تهاجمهم وقد أنهكتهم حتى وصلوا إلى فارسكور، وهناك، بعد أن غلب المرض على لويس التاسع ومعظم جنده، أحاطت بهم القوات الإسلامية، وأنزلت بهم هزيمة فادحة، ووقع الجيش الصليبي بين أسيرٍ وقتيل، وكان لويس التاسع من

(1) Grousset: Hist des Groisades, paris, 1943- 1946, III, p. 465.

(٢) المقريزي: السلوك، ١/ ٣٥١.

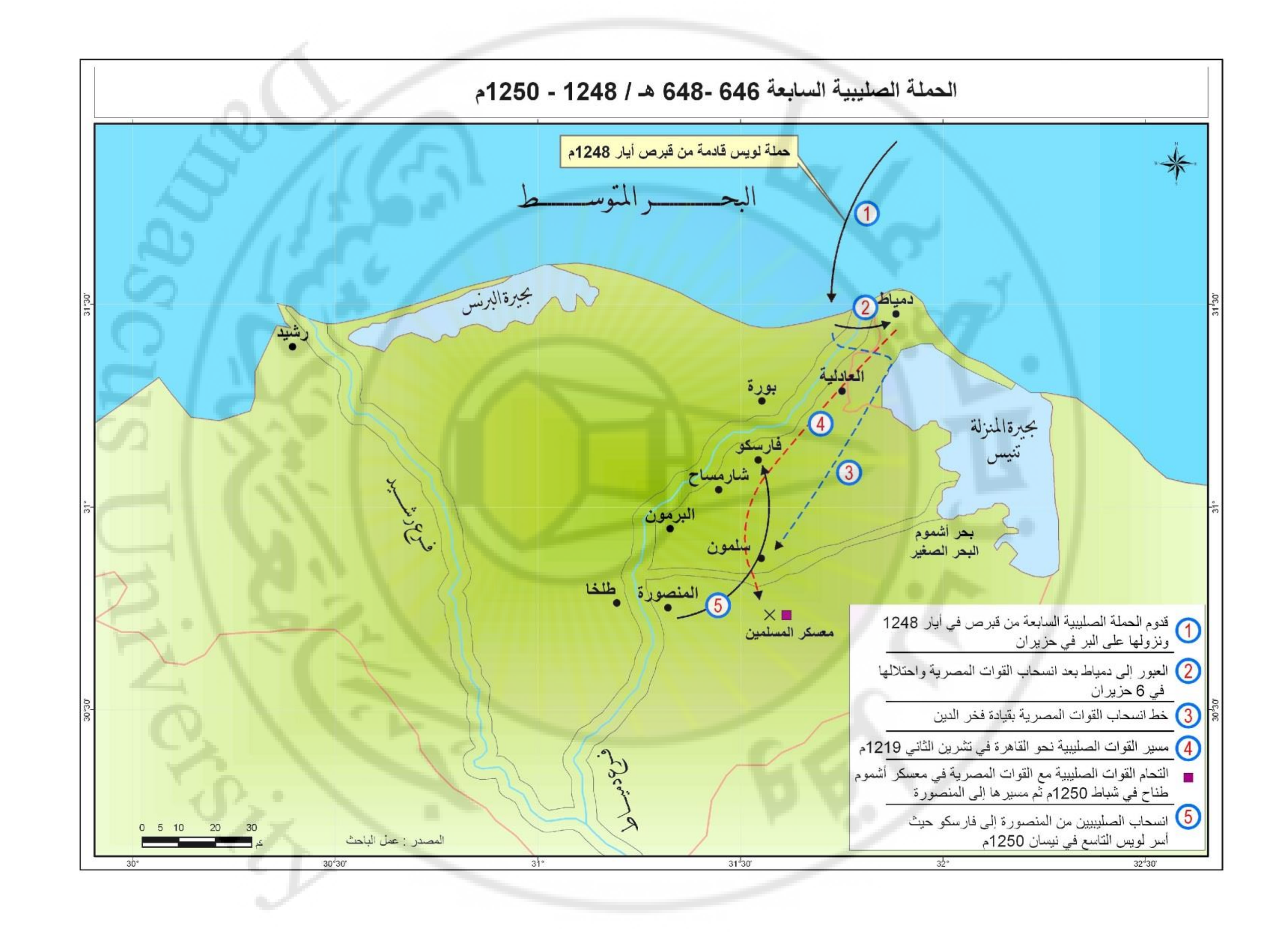
جملة الأسرى، إذ سيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة، فسجن في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وعُين عليه خصي يخدمه اسمه الطوشي صبيح(١).

أكرم تورانشاه أسيره، ثم بدأ يفاوضه، وانتهت المفاوضات على جلاء الصليبيين عن دمياط، وإطلاق سراح لويس التاسع وجنده مقابل فدية قدرها ٤٠٠ ألف دينار، وفي صفر ٦٤٨هـ/ أيار ١٢٥٠، أقلعت سفن الصليبيين خائبة من دمياط،(٢) وخلَّد الشعراء في قصائدهم أمجاد هذا النصر، وكان من أشهرها قصيدة قالها يحيى بن عيسى بن مطروح، جاء فيها:

قــل للفرنسـيس إذا جئتـه	**مقال صدق من قؤول فصيح**
أتيـت مصـراً تبتغـي أخـذها	**تحسب أن الزمر يا طبل ريـح**
فسـاقك الحـين إلـى أدهـم	**ضاق به عن ناظريك الفسـيح**
وكـل أصـحابك أودعـتهم	**بحسن تدبيرك بطن الضـريح**
سـبعون ألفـاً لا يُـرى مـنهم	**إلا قتيـل، أو أسـير جـريح**
إن يكـن البابـا بـذا راضـياً	**فرب غُش قد أتى من نصـيح**
قل لهـم إن أضـمروا عـودةً	**لأخـذ ثـأرٍ أو لفعـلٍ قبـيح**
دار ابن لقمـان علـى حالهـا،	**والقيد باقٍ، والطواشي صـبيح**

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، ٧/ ٣٨١، المقريزي: السلوك، ١/ ٣٥٦، ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة، ٦/ ٣٦٧.

(٢) للاطلاع بشكل أوسع على الحملة السابعة، يمكن العودة إلى كتاب محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر، وكتاب جوزيف نسيم يوسف، لويس التاسع في الشرق الأوسط.


الحملة الصليبية السابعة 646 -648 هـ / 1248 - 1250م
حملة لويس قادمة من قبرص أيار 1248م
البحـــــر المتوســـــط
بحيرة البرنس
رشيد
دمياط
العادلية
بورة
فارسكو
شارمساح
البرمون
سلمون
المنصورة
طلخا
بحيرة المنزلة
تنيس
بحر أشموم
البحر الصغير
معسكر المسلمين
فرع رشيد
1 قدوم الحملة الصليبية السابعة من قبرص في أيار 1248 ونزولها على البر في حزيران
2 العبور إلى دمياط بعد انسحاب القوات المصرية واحتلالها في 6 حزيران
3 خط انسحاب القوات المصرية بقيادة فخر الدين
4 مسير القوات الصليبية نحو القاهرة في تشرين الثاني 1219م
التحام القوات الصليبية مع القوات المصرية في معسكر أشموم طناح في شباط 1250م ثم مسيرها إلى المنصورة
5 انسحاب الصليبيين من المنصورة إلى فارسكو حيث أسر لويس التاسع في نيسان 1250م
0 5 10 20 30 كم
المصدر : عمل الباحث
30°
30°30'
31°
31°30'
32°
32°30'

المقالة السادسة

زوال حكم البيت الأيوبي

وبناءً على هذا الاتفاق جلَتِ الحملة السابعة عن مصر، وسافر لويس التاسع إلى بلاد الشام، وأقام في عكا مدة من الزمن، حاول خلالها حل بعض مشاكل الصليبيين وتوحيد صفوفهم، ثم غادرها إلى أوروبا سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م.

أما عن آثار الحملة على مصر، فكان أهمها على الإطلاق تغيير – ولو بصورة غير مباشرة – التركيبة السياسية للحكم هناك، فالذي قام بواجب التصدي للصليبيين، وتمكن من سحقهم في المنصورة وفارسكور، هم قوات المماليك الذين شكلوا في ذلك الوقت عماد الجيش الأيوبي في مصر، ومنذ اللحظة التي تمكن فيها بيبرس من هزيمة قوات لويس التاسع في المنصورة، أصبح المماليك في مركز السلطة والسيطرة.

هؤلاء المماليك – لن نطيل الكلام عنهم وندع ذلك لكتاب عصر المماليك – عبارة عن جند، تم شراؤهم أطفالاً يافعين من مراكز تجارة الرقيق، ثم وضعوا في مدارس عسكرية تعلموا فيها العربية، والإسلام، والقتال، فكانوا مقاتلين هواة محترفين، شكلوا آنذاك أقوى جيش عصري، وكانت بلاد القوقاز والقفجاق... مراكز تصديرهم الرئيسية بسبب ما شهدته تلك البلاد من حروب أيام المغول.

اعتمد أمراء بني أيوب في جيوشهم على قوات المماليك، وبفضلهم احتفظوا على تفوقهم الحربي في وجه الصليبيين، ثم لما استحكمت النزاعات الداخلية بينهم، غدت قوات المماليك العماد الأساسي لحفظ سلطانهم، فتضخم حجمهم السياسي، فضلاً عن العسكري، وعلى سبيل المثال: العادل الثاني خُلع على يد المماليك، والصالح أيوب عُين مكانه على يدهم أيضاً، وقام هذا الأخير، أيام سلطنته في مصر، بالإكثار من شرائهم والاعتماد عليهم، حتى غدوا في عهده -على حد قول القلقشندي- «أقمار كواكبها، وصدور مجالسها، وزعماء جيوشها، وعظماء أرضها»[1] .

والسبب الذي دفع الصالح أيوب إلى الإكثار من الاعتماد عليهم هي تجربته مع الأكراد الذين تخلوا عنه في فلسطين أثناء مسيره إلى مصر، وعودتهم إلى دمشق حيث دخلوا في خدمة الصالح إسماعيل، كما أقنعه تمرد العساكر الأيوبية في مصر وعدم إخلاصهم لأبيه وأخيه بأن الاعتماد على هؤلاء وأولئك مخاطرة، لذا خلق لنفسه فرقة جديدة من المماليك المنتقين بعناية، وربطهم به، ونظمها بشكل جيد، ثم عمد إلى إقطاعات العساكر الكاملية والأشرفية فانتزعها وأعطاها لمماليكه، ثم بنى لهم ثكنات خاصة في جزيرة الروضة، وأسكنهم بها، وعزلهم عن الناس، وقد اشتهر في أيامه من المماليك عدد من القادة، أهمهم: الأمير عز الدين أيبك، والأمير فارس الدين أقطاي، والأمير ركن الدين بيبرس، والأمير سيف الدين قطز، وكلهم كان ممن شارك في معارك الحملة السابعة، وأبلى فيها بلاءً حسناً[2].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٤٥٦.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر، ٧/ ٣٧٧.

فلما قدم تورانشاه إلى مصر، وبويع بالسلطنة، لم يقدر قدر هؤلاء الأمراء، بل تجاهل فضلهم، وأنكر أهميتهم ووزنهم السياسي والعسكري، وأساء السيرة معهم، واختص بجماعته الذين وفدوا معه، فولاهم الوظائف السلطانية، وأبعد المماليك، وأعرض عنهم، ثم أخذ يتوعدهم، لذلك نفرت قلوبهم منه، وقتلوه في محرم ٦٤٨هـ/ نيسان ١٢٥٠م، وبمقتله انتهى حكم بني أيوب في مصر، وآل إلى حكم المماليك البحرية.

بعد مقتل تورانشاه نُصبت شجر الدر زوجة الصالح أيوب حاكمة على مصر، فقد كانت قبل قدوم تورانشاه هي المتحكمة والمسيرة للسلطنة فعلياً، لكن الأمور لم تستتب لها، ولا سيما بعد شكاية الخلافة من تنصيب امرأة، فتزوجت القائد العام للقوات عز الدين أيبك التركماني، ثم تنازلت له عن السلطنة، وتلقب بالملك المعز.

- موقف الأيوبيين في بلاد الشام :

لم يتقبل الأيوبيون في بلاد الشام فكرة انقراض فرعهم من مصر، وأن يؤول حكمه هناك إلى مماليكهم، فرفض المماليك القيمرية المتحكِّمون في دمشق، وعلى رأسهم جمال الدين بن يغمور منذ البداية التبعية للمماليك في مصر، وأرسلوا إلى الملك الناصر يوسف الثاني حاكم حلب وحمص يستدعونه لحكم المدينة، فقدم ودخل دمشق سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ثم امتد حكمه أيضاً إلى القلاع المحيطة مثل بصرى وبعلبك وصرخد... وصولاً إلى غزة جنوباً.

وفي الكرك قام نائبها بدر الدين لؤلؤ الصوابي، الذي كان يحكم بالنيابة عن الصالح أيوب، بإخراج المغيث عمر بن العادل الثاني من السجن حيث كان

مأسوراً هناك أيام تورانشاه، وسلم له الكرك والشوبك (شرق الأردن)، وقام المغيث هذا بإعلان الولاء والتبعية للناصر يوسف الثاني، ويكون بهذا العمل قد وحد الناصر يوسف معظم بلاد الشام تحت قيادته، وباتت الخطوة الثانية عليه هي مهاجمة مصر لتخليصها من المماليك، فقد نظر بنو أيوب إلى المماليك على أنهم مغتصبون للحكم في مصر، وأن بني أيوب هم الورثة الحقيقيون.

وفي سبيل ذلك تعددت المحاولات الأيوبية للسيطرة على مصر، ففي سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م سار الناصر يوسف الثاني بعد أن استولى على دمشق باتجاه مصر للسيطرة عليها، وقد رافقه في حملته هذه قادة بني أيوب وأمراؤهم، والتقى العسكر الشامي مع العسكر المصري على مقربة من العباسية، وكان النصر للعسكر المصري.

وفي سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م خرج الناصر صلاح الدين بعسكره مرة ثانية لضرب المماليك، فنزل على تل العجول قرب غزة، أما الجيش المصري فقد عسكر في الصالحية، غير أنه لم يحدث اشتباك بينهم، واستمر الوضع على هذا الحال إلى أن عُقِدَ الصلح على يد الشيخ عبد الله البادرائي رسول الخليفة العباسي مطلع سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م على أن يكون للمماليك ديار مصر وغزة والقدس، وتكون بقية بلاد الشام لبني أيوب(١).

ثم عزم السلطان المعز أيبك في سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م على الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل؛ فكان ذلك سبباً كافياً لقتله على يد زوجته شجر الدر التي قُتلت بعده على يد مماليكه.

---

(١) المقريزي، السلوك، ١/ ٣٨٣، ابن واصل: مفرج الكروب، ٦/ ١٦٨، ١٧٥.

وبعد مقتل المعز أيبك بويع ابنه علي بالسلطنة وتلقب بالمنصور، وكان له من العمر خمسة عشر عاماً، وأمام تعاظم خطر المغول الذين احتلوا كل بلاد الشام تقريباً وجد الأمير قطز – نائب السلطنة آنذاك – سبيلاً لعزل المنصور علي؛ لأنه لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة، وبناءً عليه قام في أواخر سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م بالقبض على المنصور علي وأمه، واعتقلهما في برج القلعة، ونصَّب نفسه سلطاناً، وتلقَّب بالملك المظفر قطز، فكانت مدة حكم المنصور علي سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام.

بعد الصلح الذي وقع بين المماليك والأيوبيين على يد سفير الخليفة العباسي، بقي البيت الأيوبي صاحب السيادة العليا في بلاد الشام لمدة أربع سنوات، وتمثلت هذه السيادة في شخص الناصر يوسف الثاني، مع أن هذا كان قد تورط من حين إلى آخر في نزاع مع المغيث عمر صاحب الكرك.

وفي سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م سقطت بغداد بيد المغول، وسار هولاكو شمالاً إلى أذربيجان، ثم احتل مدن الجزيرة الفراتية، ماردين، وديار بكر وغيرهما، وأثناء ذلك أرسل له الناصر يوسف الثاني سفارة بقيادة ابنه العزيز، تهنيه وتطلب إليه التحالف ضد مماليك مصر، وهنا اشترط هولاكو قدوم الناصر إليه بنفسه، فخاف الناصر ولم يفعل ذلك.

ولما تقدم المغول إلى حلب، هرب منها الملك الناصر إلى دمشق، وتركها لقمة سائغة للمغول، ثم راسل المماليك وعرض عليهم العمل المشترك ضد المغول، وكان على رأس سفارة الناصر الثاني للمماليك الصاحب كمال الدين ابن العديم، فأبدى المظفر قطز – وكان قد أصبح سلطان مصر – موافقته واستعداده

لتقديم المساعدة للناصر والعمل معاً ضد المغول، فترك الناصر دمشق ورحل باتجاه مصر، فدخل المغول دمشق، ولما وصل الناصر إلى قطية في طريقه إلى مصر، خاف على نفسه من المماليك، فعاد إلى فلسطين، وسمح لمن أراد الرحيل إلى مصر بالرحيل، فرحل إليها معظم جنده برفقة المنصور محمد الثاني صاحب حماه، كما رحل معه نساء الناصر وأمواله، وبقي الناصر في فلسطين حتى تمكنت دورية مغولية من القبض عليه هناك وإرساله إلى هولاكو، وبذلك تكون قد سقطت كل ممالك الأيوبيين للمغول، باستثناء مملكة المغيث عمر في الكرك، الذي أعلن عن ولاءَه لهم، وبهذا الاجتياح «زال ملك هذا البيت – أي البيت الأيوبي – في صفر سنة ثمان وخمسين وستمئة بسبب غلبة التتار الكفرة على البلاد»[١].

أما عن مصير الملك الناصر، فإنه بقي مع هولاكو في مراغة، ثم قام هذا الأخير بإعدامه مع ولده العزيز حين وصلته أخبار هزيمة جيش المغول في عين جالوت، وبعد انتصار المماليك في عين جالوت ومطاردة المغول إلى ما بعد الفرات، آل حكم بلاد الشام لهم، وعندئذ بدأ العصر المملوكي في بلاد الشام.

---

(١) أبو شامة، الروضتين، الموسوعة الشاملة، ١٩/ ٤٤٣.

المطلب السابع

المغــول

من ظهورهم حتى معركة عين جالوت

توطئـــة :

أصداء المغول في العالم الإسلامي وأوروبـا

ابتلي العالم الإسلامي بعد مرور قرن على الاحتلال الصليبي القادم من الغرب، بعدوٍ آخر لا يقل همجية وشراسة ودموية عنه، قادماً من الشرق، هو المغول، وذلك في مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، فقد تمكن هؤلاء في مدة وجيزة من إخضاع معظم أقاليم الشرق الإسلامي لسلطانهم، فتوغلوا في أراضيه يقتلون، ويفتكون، ويهتكون، ويحطمون العروش، وقد وقع الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي على مرحلتين، الأولى في عهد جنكيز خان مؤسس إمبراطورية المغول، الذي كان هجومه على العالم الإسلامي جزءاً من إستراتيجيته في السيطرة على العالم بأسره، إذ تمكن جنكيز خان من السيطرة على معظم أراضي الدولة الخوارزمية الإسلامية التي كانت تحكم بلاد ما وراء النهر، وخوارزم، وأجزاء من خراسان وشرق إيران، وكانت المرحلة الثانية على يد هولاكو حفيد جنكيز خان الذي استولى على إيران، والعراق، وبلاد الشام، وصولاً إلى حدود مصر الشرقية عند غزة.

ورافق هذا الاجتياح عمليات إبادة وحشية للشعوب الإسلامية في تلك الأقاليم، يمْلَؤُها حقد وسادية، بلا تمييز، وفَتْكٌ يصعب على الإنسان تصوره، وكفى بوصف المؤرخ ابن الأثير لهذا الاجتياح معرفةً وإحاطةً بمدى الحقد والهمجية، وقد اعترف ابن الأثير بعجزه عن وصف ما حدث، وقال:

«لقد بقيتُ عدة سنين مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رِجْلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني، و ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾[1]، إلا أني حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق وخَصّت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يُبتل بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس؟ وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يُبقي على من اتبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنّة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شرها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح»[2].

بعد هذا الوصف تحدث ابن الأثير عن البلدان التي استولوا عليها في بلاد ما وراء النهر وخراسان وروسيا، ثم قال: «هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً إنما رضي من الناس بالطاعة،

---

(١) سورة مريم، الآية ٢٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠/ ٣٣٣.

وهؤلاء ملكوا أكثر المعمور من الأرض، وأحسنه، وأكثره عمارة، وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل، وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج، وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يُحرِّمون شيئاً، فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً، بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أبوه، ولقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتلِ بها أحد من الأمم منها، هؤلاء التتر قبّحهم الله أقبلوا من المشرق، فعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها»[1].

وفي أوروبا، نزلت مأساة مشابهة، فقد ترافق هجوم المغول على أقاليم العالم الإسلامي بهجوم آخر على أوربا الشرقية عبر روسيا، وأذاقوا أهلها من الويلات ما فتح المجال على مصراعيه لنسج الأساطير حول هؤلاء المغول.

ففي مركز الساحة الرئيسية في كراكو[2] Cracow تقوم اليوم كنيسة القديسة مريم، التي تعدّ واحدة من أكثر الكنائس أهمية في بولندا، فعند بداية كل ساعة جديدة، يظهر بواق من إدارة إطفاء كراكو على شرفة البرج الأساسي، وينعق إنذاراً، وهذه العادة جارية تطبق في كل يوم، وهي مستمرة تقريباً منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وهي تخلد ذكرى تدمير المدينة، لأن البَوّاق زعق بدعوة إلى حمل السلاح، وهي إشارة إلى أن العدو قد شوهد، وهو

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ٣٣٥.

(٢) ثاني أكبر مدن بولندا على نهر فيستولا.

عند الأبواب، وفي أثناء زعق البواق بندائه توقف وانقطع الصوت في منتصف زعقه، وذلك في اللحظة التي – كما تقول الأسطورة – أصيب فيها بسهم مغولي.

فدخل المغول المدينة في ٢٤ آذار ١٢٤١م، وكانت أهلها قد أخلوها إلى الغابات، فألقوا النار في كراكو، وأخذت تحترق، وكان قبل ذلك بأيام قد سحق المغول جيشاً بولندياً أرسله الحاكم البولندي للتصدي لهم.

وبالنسبة لبقية أوربا كانت أخبار نهب كراكو نذير شؤم، فمن كراكو انتقل المغول غرباً، وسحقوا الجيوش الأوربية التي حاولت التصدي لهم، فأذهل ذلك المؤرخين والقادة الأوربيين، فهم تفاجأوا بتكتيكات المغول السريعة كالبرق، والمنتظمة، لذلك غالباً ما قدروا قوتهم بأكثر من أربع أو خمس أضعاف الأعداد الفعلية.

واجتاحت أخبار هذه الكوارث بقية أوروبا، ومرت خلالها جالبة معها توقعات بدمار كامل وبنهاية مؤلمة، وقد انتشرت إشاعات حول اقتراف أعمال وحشية شيطانية من قبل مخلوقات غير بشرية مرعبة من أنواع التنينات، مع رؤوس مثل رؤوس الخيول تلتهم ضحاياها، وهي تمتلك قوى فوق الطبيعة، وقد أطلق سراحهم وجردوا لإنزال العقاب بالعالم اللارباني، وفي ألمانيا انتشرت هذه القصص المجنونة وغير الطبيعية، ووصلت إلى القول: إن المغول كانوا بالفعل إحدى قبائل بني إسرائيل الضائعة، وأن تجاراً يهوداً كانوا يهربون الأسلحة إليهم عبر الحدود، وكنتيجة لذلك جرى إعدام كثير من اليهود الأبرياء بسرعة.

ووصف الهنغار الغزاة كتتار وجوههم كوجوه الكلاب، في حين كتب راهب فرنسي كان يعيش في النمسا، أن الجنود المغول قاموا بعدما اغتصبوا نساء أوروبيات بتمزيق صدور ضحاياهم، وقدموا «اللحوم الشهية» إلى أمرائهم الذين رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب، وقام هؤلاء بالتهامهم.

ولم تكن الكنيسة فوق تقيؤ الأساطير القديمة، وحاولت عبثاً أن تشرح أسطورياً المأساة، فأوضح أحد الرهبان الومينيكان أن اسم مغول قد اشتق من

موغوغولي Magogoli أبناء ماغوغ Magog الأسطوري، فقد مضت الأسطورة للقول: إن يأجوج ومأجوج كانا زوجاً من العمالقة السلابين النهابين الذان نشرا الرعب في أوروبا في الأيام الخالية، وهما قد هزما من قبل الإسكندر الكبير، وأنهما حبسا خلف أبواب ضخمة جداً في جبال القوقاز، والآن إن أبناء هذين قد أطلق سراحهم، وأنهم انصرفوا كلياً نحو تدمير الحضارة، وفقط بالاستغاثة باسم الإسكندر من الممكن إخضاع هؤلاء الوحوش البشعة، فأقيمت القداسات، وألقيت المواعظ أمام السكان المرعوبين في مجموعة من الكنائس في شمالي أوروبا، إذ جرى تقديم الصلوات وأعمال التضرع والدعاء قائلين: «أنقذنا يا رب من غضب التتار».

هكذا اهتزت أوروبا، وتركت تدار من قبل قوة أجنبية، وكأنها قد جاءت من المريخ، فقد كان المغول، أو التتار كما كانوا يدعونهم، عرقاً من الناس قد ظهروا في بلاد، كانت بالنسبة للأوروبيين غير معروفة على الخريطة، فالنظرة الأوربية الضيقة التي كانت منصرفة نحو الداخل، لم تكن لديها معرفة أو خبرة حول الأراضي فيما وراء الأورال، وفي الحقيقة بقي الجهل الأوربي حول من هم المغول، أو ما الذي أنجزوه، مستمراً لمدة قرون.

وغيرت العاصفة المغولية التي اندفعت بقوة عبر العالم خلال القرن الثالث عشر الميلادي، الحدود السياسية لآسيا ولأوروبا، واجتثت وأزالت من الوجود شعوباً بأكملها ووزعتها عبر القارة، وغيرت السمات الإثنية لكثير من الأقاليم، وبدلت في الوقت نفسه بشكل دائم قوة ونفوذ الديانات الرئيسية الثلاث: الإسلام، والبوذية، والمسيحية، وكان الأكثر أهمية هو أن المغول فتحوا الشرق للغرب، ووسعت المعارف الأوربية عن العالم، وبفعلها هذا أوجدت للمرة الأولى عالماً واحداً كاملاً[١].

---

(١) روبرت مارشال: عاصفة من الشرق، تر. سهيل زكار، ص٥ – ٨.



المقالة الأولى

الموطن الأصلي للمغول وحياتهم الأولى

كان المغول إحدى القبائل البدوية الكثيرة العدد، التي سكنت السهل المرتفع (النجد) في قلب آسيا الوسطى، إلى الشمال والغرب من الصين، في موقع يحده من الغرب سلسلتان ضخمتان من الجبال المتقاربة هما: الألتاي Altai، والتين شان Tien shan، وإلى الشمال كانت هنالك الغابات المتجمدة الواسعة لسيبيريا، في حين تقع صحراء غوبي إلى الجنوب، وجبال خينغان Khinghan إلى الشرق، وهذا النجد المغولي المعروف باسم السهوب، والممتد عبر عرض آسيا من منشوريا إلى هنغاريا، كان محبوساً وراء حواجز طبيعية أبقت السكان بعيدين محفوظين من الغزو لقرون.

تجمعت في هذا المكان قوى متنافرة، قُدّر لها أن تكون سبباً في تغيير الصورة البشرية لسكان أواسط آسيا وتحديد شخصيتها الأساسية حتى هذا اليوم، فلقد كانت هذه المنطقة مقراً لسكن أمتين مختلفتين تعيشان جنباً إلى جنب، وتجمعهما خصائص مشتركة كثيرة ولكن تفرقهما اللغة، وهاتان الأمتان هما الأتراك والمغول.

بدأت البنية السياسية للأتراك تتبلور ابتداءً من القرنين السادس والسابع الميلاديين، متأثرين بالثقافة الإيرانية والصينية، ثم اندفعوا باتجاه المناطق الجنوبية الغربية إلى الأراضي التي سميت باسمهم وهي تركستان، وقد أنشأ الأتراك هناك كيانات سياسية، ثم اجتاحوا مناطق نهر الفولغا حتى منطقة ما بين النهرين.

وأما المغول فقد بقوا في حالة هدوء وركود في وطنهم خلال تلك المدة، ولم يشغلوا أي مكان على مسرح الأحداث العالمية، وكان يشار إليهم غالباً باسم التتار، وكان الاسم يطلق على إحدى مجموعاتهم وهي قبيلة التتر، التي عاشت في أقاصي الأصقاع الشرقية، ولكن اسم التتار اكتسب في هذه الأيام معنى آخر (كما سنبين فيما بعد).

وترتفع هذه الهضبة التي عاش عليها المغول فوق ارتفاع نحو ألف ومئتي متر فوق سطح البحر، وهي خاضعة لمناخ متناقض بشكل مثير إلى أقصى الحدود، ففي الصيف غالباً ما ترفع الحرارة إلى ما فوق الدرجة أربعين، وهي تهبط في الشتاء إلى ما دون الدرجة الأربعين تحت الصفر، وتتباين التربة نفسها من حصباء غير متماسكة، إلى تربة طينية رقيقة تتجمد فتصبح قاسية أثناء الشتاء، ومع شهر تشرين الثاني تتجمد أيضاً جميع الجداول، والأنهار، والبحيرات بشكل كامل، ويجري الحصول على الماء ببذل جهد في قَطِع كتل كبيرة من الجليد، وجرها إلى أقرب نار موجودة، وما من شيء يتحرك هناك حتى شهر نيسان، وينضاف إلى المناخ القاسي جداً قلة الأمطار المتساقطة، ومن الواضح أن السهوب توفر أرضاً فقيرة للزراعة، ومع ذلك تتغطى أثناء الربيع بمروج جميلة وغنية من الأعشاب.

كان الرعي مهنة رئيسية لسكان تلك السهوب، وكانت المحافظة على التحكم بالمراعي التقليدية، أو محاولة الحصول على مراعي أفضل، تعدّ مصدراً عاماً للصراع بين القبائل المغولية، فقد كانت الحاجة إلى أراضي مراعٍ جيدة من أجل قطعانها هي شاغلها الرئيسي، لأن بقاءها يعتمد على ذلك، هذا المناخ فرض على معظم المغول حياة البداوة، وإن اشتغل قليل منهم بالصيد والزراعة، فقد كانت عندهم قدرة عالية على تحمل البرد والحر والجوع[١]، كما ساد بينهم النظام القبلي بكل صفاته، وكانت طاعتهم لسيدهم مطلقة، فقد ورد عند القلقشندي في هذا الشأن: «وأما حالهم في طاعة ملكهم، فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لا لمال ولا لجاه، بل ذلك دأب لهم، حتى إنه إذا كان أمير في غاية القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنباً توجب عقوبته وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه، ألقى نفسه بين يدي الرسول ذليلاً ليأخذه بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل»[٢]. وأما عن شجاعتهم فقد تحدث ابن الأثير على لسان أحد المغول عن ذلك فقال: «إن قيل: إن التتر يُقتلون فصدقوا، وإن قيل: إنهم انهزموا فلا تصدقوا»[٣].

---

(١) رينيه غروسيه: جنكيز خان قاهر العالم، ص٣ – ٤.

(٢) القلقشندي (أحمد بن علي القلقشندي، توفي: ٨٢١هـــ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤/ ٣١٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ٣٥٨.

أما ديانة المغول فهي الديانة الشامانية[١] Shamanisun، والمغول طبقاً لهذه الديانة يعبدون كل شيء عظيم يعجزون عن إدراكه مثل الشمس، والقمر، والبرق[٢]...

- قبائــل المغــول:

انقسمت الأمة المغولية إلى عدة أقسام وعدة قبائل، ففي أقاصي غرب منغوليا بين أعالي نهر أرتش ونهر أورخون شمال جبال (ألطاي) سكنت هنالك قبيلة نيمان، كان هؤلاء أكثر القبائل المغولية حضارة، وعلى مقربة منهم إلى الشرق سكنت قبائل كرايت على امتداد جنوب نهر أورخون، وفي أواسط الألف الأول الميلادي كانت أكثرية قبائل كرايت قد اعتنقت الديانة المسيحية حسب المذهب النسطوري، وفي شمال كرايت على حوض نهر سلنجا الأوسط والأدنى عاش المركيت، وفي غرب المركيت وشمال النيمان عاشت قبيلة يورتاس المتخلفة جداً.

وقد صنف الصينيون التتار والقبائل المغولية طبقاً لدرجات حضارتهم إلى التتار البيض، وهم من المنطقة الجنوبية شمال الحدود الصينية مباشرة، ثم التتار السود بعيداً عنهم إلى الشمال، وأخيراً التتار المتوحشين، أو ساكيو الغابات، الذين كانوا يعيشون على الصيد وقد اعتنقوا الديانة الشامانية.

---

(١) اصطلاح أطلق على مجموعة من الديانات البدائية، التي استقطبت حول شخصية الكاهن الذي عرف في سيبيريا باسم (شامان) ومن هذه العبارة اشتقت التسمية الحديثة.

(2) Mirce Eliade: Shamanism, Archaic Techniques of Ecstasy, Translated from the French by Willard. R. Trask, London, 1951.

- **التاريخ السري للمغول :**

قبل الخوض في تاريخ المغول نعرج قليلاً للحديث عن أهم مصدر لتاريخهم ألا وهو: التاريخ السري للمغول.

فقد وجد المؤرخون أنه من غير الممكن كتابة التاريخ المغولي قبل القرن الثالث عشر الميلادي، ففي ذلك الوقت كانت قبائل المغول تتصارع مع مثيلاتها للسيطرة على السهوب الشرقية، ومعظم ما عُرف عن أخبارهم آنذاك جاء عن طريق الحضارة الصينية، أو الفارسية.

كان المغول كغيرهم من القبائل البدوية –باستثناء الأيغور– لا يحسنون القراءة والكتابة، حتى أمر جنكيز خان بتبني المغول لأبجدية الكتابة الأيغورية، مع جنكيز خان يبدأ تاريخ المغول المتداول، وبعد وفاته أمر خليفته بصدور «التاريخ السري للمغول» الواسع الشهرة، وتولى هذا التاريخ بعملية مزج غريبة من الأساطير والحكايات، وبعض الحقائق الواضحة، وصف قيام الشعب المغولي، والحياة المبكرة لجنكيز خان وصراعاته، واستيلاءَه المذهل على العالم، وتتباين الآراء العلمية: إذا كان هذا الكتاب يقدم بالفعل رواية معتمدة حول التاريخ المغولي، فهو بالنسبة إلى بعضهم يشبه الملاحم الشعرية الحماسية للشعوب الأوروبية الشمالية، ولا يمكن عده أكثر من ذلك، وأنه مجموعة من الحكايات والمرويات جُمع بعضها مع بعض لتحسين سمعة جنكيز خان، ولكنّ باحثين آخرين لا يوافقون على هذا، لأنه كان هناك فيما مضى تاريخٌ رسميٌ للمغول جرى حفظه في البلاط المغولي، وعرف باسم «ألتان دبتر Altan Debter»[١]،

---

(١) ألتان دبتر أو السفر الذهبي كان محفوظاً على الدوام بخزانة الخانات تحت يد كبار الأمراء. للاستزادة انظر تركستان لبارتولد، ص ١١٨.

وقد بقيت أجزاء مهمة منه في التواريخ الفارسية والصينية، وألتان دبتر، والتاريخ السري هما عملان منفصلان تمام الانفصال بعضهما عن بعض، وقد صنفا وهما مستقلّان تمام الاستقلال أحدهما عن الآخر، ومع ذلك هما يصفان الحوادث نفسها بتطابق كبير إلى أبعد الحدود، ووفق الطريقة نفسها، وبناءً عليه هناك احتمال كبير بأن – على الأقل – بعض الأجزاء من التاريخ السري، يمكن الافتراض بأنها روايات حقيقية.

وعلى كل حال يبدأ التاريخ السري بوصف أنساب المغول على طريقة الأساطير، ومثل التقاليد المروية في العهد القديم حول الأنساب، إلى أن يصل إلى أحداث القرن الثاني عشر الميلادي، لنجد هناك بعض الوقائع التي من الممكن على الأقل تأكيدها بوساطة المصادر الصينية، والموضوع الأكثر أهمية هو أن الكتاب يغطي الحياة المبكرة لتيموجين وصراعاته، وتيموجين هو اسم جنكيز خان الذي كان معروفاً به قبل اتخاذه لقب الخان العظيم.

على كل حال؛ شكَّلَ التاريخ السري رواية صرفة للتاريخ المغولي، وللحياة المغولية، وهو يعرض بشكل مشرق وجهة نظر المغول، ورؤياهم لأعمال الاستيلاء، ومكانهم في العالم في ذلك الوقت، وسواء أكان تاريخياً صحيحاً أم لا، إنه يقدم صورة مثيرة جداً لواحد من أعظم القادة في جميع العصور.

المقالـة الثـانيـة

جنكيز خان وتأسيس إمبراطورية المغول

اتسم المشهد السياسي لمنغوليا خلال القرن الثاني عشر الميلادي بالصراعات بين جميع القبائل، وكانت أعظم القبائل قوة خلال مدة شباب تيموجين هي قبائل التتار، الذين عاشوا إلى جانب المغول في شرقي منغوليا، وعاش إلى جانبهم الكيريت، والمركيت، والنيمان، وغالباً ما كان هناك تداخل وتشويش، إذ يظهر أن اصطلاح «تتار» هو اصطلاح بديل «للمغول»، في حين هم كانوا بالأصل قبائل منفصلة بعضها عن بعض، وكانوا متعادين بمرارة.

استخدم اسم تتار من قبل الصينيين وغيرهم، ليشير إلى جميع قبائل السهوب لآسيا الوسطى، وتمتع التتار بهذه المكانة العالية فوق جميع القبائل الأخرى، بسبب أنهم كانوا مدعومين من أسرة كن الصينية.

وكانت السياسة التقليدية للأسر الصينية الحاكمة تعتمد على عقد تحالف مع قبيلة من القبائل البدوية على حدودها، وتشجيعها على بذر الشقاق والنزاع بين البقية، وكان الصينيون إذا ما رأوا أن قبائل أخرى أخذت تمتلك اليد العليا، كانوا يتخلون عن حلفائهم، ويعقدون حلفاً مع القبيلة الناشئة حديثاً، وكان المقصد بالطبع هو تغذية الصراعات الداخلية، لأنه طوال ما كانت القبائل تتقاتل فيما بين بعضها

بعضاً، يكون من المستبعد تشكيل أي تهديد لأي واحد آخر، فلقد كانت هذه هي الخلفية لقيام تيموجين ووصوله إلى العظمة، ولكن مهمة توحيد القبائل تحت قيادته، ومحافظته على تلك القيادة في وجه التقلبات المعتادة لسياسات السهوب، كان إنجازاً غير اعتيادي على الإطلاق.

وفي غمرة هذه الصراعات اللامتناهية ظهر شخص اسمه يسوغاي أو «يسوكاي باتأتور"، وكان سليل أسرة نبيلة قديمة من قبيلة مانخول (مغول)، وتختلف المصادر في تحديد صفته من قائد فئة من عشرة جنود، إلى قائد عشيرة صغيرة متورطة في حروب ثأر قاسية بين قبائل المغول وقبائل التتر، ولما توفي مسموماً على يد التتار سنة ١١٦٧م ترك عدة أبناء كان أكبرهم ابنه تيموجين، ويبلغ من العمر آنذاك ما يقارب العشر سنين، وكان قبيل وفاة والده قد رتب له زواجاً من إحدى بنات قبيلة «أونغيرات unggirad»، وطبقاً للعادات المغولية كان مقرراً على تيموجين أن يسكن مع عائلة زوجته المستقبلية، لكن بعد وفاة والده جرى استدعاؤه إلى موطنه، وأخفقت محاولات أمه «أوالون قوجين Hoelun ugin» الحفاظ على مكانتهم في القبيلة، وأرغمت بعد منافسة من عشيرة أخرى على الهجرة مع أولادها إلى الجبال قرب نهر أونون، حيث لا صديق، والخطر الدائم يحيط بهم، وفي هذا الوسط القاسي نما الصبي تيموجين حتى وصل سن المراهقة، وخلال هذه المرحلة تصادق مع غلام اسمه جاموخا، الذي جاء من عشيرة أخرى، وصار مؤاخياً له.

وعاد تيموجين وهو في سن السادسة عشرة إلى عشيرة الأونغيراد Unggirad ليتزوج خطيبته بورته، حسبما سلف الترتيب من قبل والده، وإثر الزواج مباشرة اعتقد تيموجين أنه قد يحتاج إلى حامٍ يرعاه، إذا كان سيطالب

بحقوقه الوراثية، فسعى نحو صديق سالف كان مؤاخياً لأبيه، هو توريل Tooril، زعيم قبائل الكرايت (الكيريت).

فتحالف تيموجين مع توريل، ونال منه وعداً لدعمه في استرداد ميراث شعب أبيه، وخلال هذه المدة تعرض معسكره لغارة من قبيلة المركيت (ميركت)، وخطفوا زوجته بورته (بورثي)، فتمكن بمساعدة توريل أن يستعيد زوجته بانتصار ساحق حقق له كثيراً من النفوذ والهيبة، وكانت خيبة الأمل الوحيدة هي أن بورته عادت وهي حامل بابنها الأول جوجي، الذي بقي دوماً متلبساً بوصمة إمكانية أنه لم يكن ابناً شرعياً.

في عام ١١٩٦م استطاع تيموجين أن ينتزع إعلان زعامته على قبيلة المغول، وفي الوقت نفسه حصل على لقب جنكيز خان (وهو اللقب الذي لا يزال معناه غير واضح لغوياً)، واستطاع بفضل جهوده الخاصة أن يجمع حوله جمهرة من المؤيدين المخلصين، الذين كان يثق بهم ثقة عمياء دونما تحفظ، كما مكنته الانتصارات أن يوزع العطايا السخية والمناصب العليا على مؤيديه وأنصاره، ثم بدأت مرحلة الاصطدام مع صديقه القديم جاموخا.

- الانتصار على قبائل التتار:

يبدو أن قيام جنكيز خان وارتفاع شأنه قد أثار حسد صديقه جاموخا، فشن عليه هجوماً أجبره على الهروب بعيداً إلى منابع نهر أوتون.

في هذه المدة استفاد تيموجين من التحركات السياسية، إذ أرادت أسرة كن الصينية التخلي، أو معاقبة قبائل التتار حلفاءها القدماء، بسبب ازدياد تجاوزاتهم وحماقاتهم، فوجدت ضالتها بالمغول وزعيمهم تيموجين، الذي كان متشوقاً

للانتقام من التتار، وبمساعدة أسرة كن حقق تيموجين انتصارات كبيرة على التتار جلبت له المزيد من النفوذ والهيبة.

أمام هذا بدا جلياً لزعماء القبائل أن تيموجين يسعى لمركز أعلى بكثير مما هو عليه، ورأوا أن الطريقة الوحيدة لمجابهته هي تكوين تحالف ضده، فجمع جاموخا حوله تحالفاً من غير الراضين، ضم معظم قبائل السهوب من: المركيت، والنيمان، وما كان قد بقي من التتار، والتايكيأود، لا بل حتى من قبيلة أم تيموجين الأونغيراديين، لكن اتحاد جاموخا كان سيئ التنظيم، وبسهولة أنزل تيموجين بالمتحالفين هزيمة ساحقة، وارتكب مجزرة بحق التتار سنة ١٢٠٢م، وكانت تلك حرباً انتقامية لمقتل ييسوكاي والد تيموجين.

ونتيجة لهذه الحروب التي خاضها اتحاد قبائل الكيريت بزعامة توريل، بدعم متماسك وقوي من قبل مغول تيموجين، تمكن تيموجين من السيطرة على السهوب الشرقية.

- **الانتصار على قبائل الكيريت :**

لكن الثقة بين توريل ومولاه تيموجين لم تستمر أكثر من ذلك، فبدأ التفكك الذي تطور إلى الاصطدام، ومرة أخرى تخلَّت العشائر عن تيموجين، وكان هذا درساً آخر مؤلماً حول حقائق الإخلاص في السهوب.

وبعد مواجهة مروعة مع قوة من الكيريت، أجبر تيموجين على الفرار بعيداً سنة ١٢٠٣م، وأخذ يترقب الفرص، وأخيراً بدأ اتحاد الكيريت، الذي بات تحت قيادة ابن توريل، يظهر علامات التمزق، وبالتدريج أكثر فأكثر أخذت عشائر تعود ثانية للالتحاق بجانب تيموجين، ولما شعر تيموجين بأن قوته باتت

كافية، وجه ضربة ارتدادية نحو الكيريت، فانتصر عليهم، وهرب العجوز توريل من الميدان، لكنه أسر من قبل قبيلة مجاورة، وأعدم، أما قادته فلم يتعرض لهم تيموجين بأذى، وقرر استيعاب قبائل الكيريت المنهزمة ضمن المغول.

- الانتصار على قبائل النيمان :

بعد انتصار تيموجين على الكيريت سيطر على السهوب الشرقية، ولم يبق أمامه إلا قبائل النيمان.

وهي قبيلة عاشت فيما بين نهر سيلينغا Selenga وجبال ألتاي، فهنا كان قد احتشد جيش من الناجين من القبائل الأخرى المهزومة، وكان جاموخا أيضاً قد التجأ إلى هنا، وأخذ الآن بالتآمر لإسقاط تيموجين.

أراد تيموجين للمعركة القادمة أن تكون هي الفاصلة، تُنهي جميع الصراعات القبلية، فأعاد تنظيم جيشه وتشكيله، ثم إنه بدأ زحفه ضد جيوش النيمان، ولتفوق قوات النيمان على قوات المغول لجأ تيموجين إلى الحيلة، فأشعل المئات من النيران زيادة على ما توفرت الحاجة إليه، فنجح بذلك بإقناع كشافة العدو، بأن جيشه كان أعظم بكثير مما كان بالفعل، لذلك انسحب جاموخا مع قواته وقبائله قبل بدء المعركة، وترك قبائل النيمان بمفردها أمام المغول، فجرى سحقهم بالكامل، ومات ملك النيمان من جراحته، وهرب ابنه إلى الغرب، وبالنسبة إلى جاموخا الذي كان قد هرب أيضاً، جرى أسره، وتبعاً لراوية التاريخ السري جرى إعدامه بناءً على طلبه، وبات تيموجين الآن السيد المطلق بلا منازع لجميع قبائل منغوليا.

إن سلسلة الانتصارات هذه التي لم تكد تعرف التوقف، انتهت بالقضاء التام على جميع القبائل المعادية، ورفعت مقام جنكيز خان في مدة عقد من الزمان إلى مركز الحاكم المطلق دون منازع لمنغوليا ومنحته سلطة فوق شعبه لم ينلها أي حاكم قبلي في حياته منذ أجيال، وعمد الآن إلى توحيد جميع القبائل المنغولية تحت سلطانه، وهكذا أصبح يرى نفسه أساساً لأمته، ومعبراً عن إرادة الشعب المغولي، وكانت أولى رغباته أن يمنح حق الشرعية للسلطة، التي جسدها نجاحه في شخصه، وفي سنة ١٢٠٦م استعمل نفوذه لعقد اجتماع وطني عظيم (القوريلتاي) عينه به المجتمعون سيداً للمغول دون منازع، وثبتوا لقبه جنكيز خان.

المقالة الثالثة

تنظيم منغوليا الجديدة

لما بدأ جنكيز خان بإعادة تنظيم القوى الوطنية للمغول أخضعهم لنظام قاسٍ لم يكن معروفاً من قبل، ورأى في نفسه أداة ربانية، وكان الرأي العام المغولي يسير معه قُدماً في هذا المضمار، فلم تظهر له أي معارضة تستحق الذكر بين أفراد شعبه.

بدأ جنكيز خان تنظيم الهيكل السياسي لمنغوليا الجديدة وهو يدرك تماماً من خلال تجربته أن إخلاص الزعماء القبليين لا يمكن الاعتماد عليه، ولا على أقربائه المقربين، والتأييد الوحيد المعتمد هو الذي ينمو فقط من خلال أتباعه الشخصيين، لذا لما شرع بتشكيل قيادة جيشه أبعد أفراد أسرته وزعماء القبائل، وجعل أتباعه الشخصيون العمود الفقري لقيادة الجيش، ومن ثم قاعدة السلطة السياسية، بات الآن على جنكيز خان تنظيم الهيكل السياسي لمنغوليا المتحدة الجديدة، فقد علَّمته التجربة

كما طوّر جنكيز خان «الكيشيغ Keshig» أو الحرس الشخصي، إذ جعله مؤلفاً من حراس يحرسون لمدة سبعين يوماً عددهم سبعون يحرسونه في النهار، وحراسٍ عددهم ثمانون يحرسونه ليلاً، ومع ازدياد قوته اتسع هذا الحرس حتى بلغ عشرة أضعاف حجمه الأصيل، ولما جرى الإعلان عنه سيداً لمنغوليا سنة ١٢٠٦م، وصلت تعداد هذا الحرس إلى عشرة آلاف شخص، قسمه إلى عشر

وحدات، في كل وحدة ألف رجل، وجرى اختيار قادة هذه الوحدات وتجنيدهم من أبناء أو من الإخوة الشباب لقادة وحداته الخاصة، وبذلك عزز ومتن الإخلاص الإمبراطوري الجديد، كما أن الحرس الشخصي قدَّم مجموعة من المقاتلين الشباب، الذين سوف يرتبط تقدمهم بالحكومة الإمبراطورية الجديدة، وليس بالإخلاص للولاءات القبلية التقليدية، وكانت الغاية من تطوير هذا النمط الجديد من الجيش إزاحة القادة التقليديين للجيوش القبلية، وإحلال محلهم قادة من قبائل أخرى، وكان جنكيز خان حتى على استعداد لحل جيوش قبلية بكاملها، وتوزيعها بين صفوف الوحدات الأخرى، ولا سيما إذا كانوا بشكل خاص غير مخلصين في الماضي، كانت هذه الإستراتيجية مؤثرة وفعالة كثيراً، إذ مع مرور الزمن اختفت التقسيمات القبلية القديمة بالتدريج، وما من واحد سمح له بالانتقال من وحدة إلى أخرى من دون إذن واضح مع التهديد بالإعدام، وكان الانضباط دقيقاً، وخاضعاً إلى سلطة مركزية، وبالتدريج بدأ الرجال يتدربون على القتال كوحدات وليس كأفراد، وكان الذين يخرجون من الصفوف للنهب، أو يتورطون في أعمال انتقام خاصة، يعاقبون بقسوة، وكان هدف جنكيز خان هو أن يجعل الجيش بؤرة مركزية توضح إخلاص كل فرد مقاتل مغولي، وهو نفسه بؤرة إخلاص الجيش، فقد علمته التجربة الصعبة بأن الأمة ينبغي أن تتأسس على التبعية الشخصية، وأن السلطة الفردية المطلقة كانت هي المفتاح.

وهكذا ففي العام ١٢٠٦ كان جنكيز خان المعلن عنه حديثاً، وصل الآن إلى التاسعة والثلاثين من عمره، وقد وقف الآن على رأس أمة، لم تكن موجودة قبل أعوام قليلة على الإطلاق، وأكثر أهمية أنه وقف على رأس جيش لديه غاية أعظم للتحرك والعمل العسكري.

- **تنظيم الجيش وتدريبـــه :**

كان على جميع الرجال الذين هم فوق الرابعة عشرة من أعمارهم أداء واجب الخدمة العسكرية، وأعفي فقط: الأطباء، والكهنة، والذين يجهزون الموتى، وكان على الذين يتم استدعائهم للخدمة العسكرية مغادرة مجتمعهم، وأن يأخذ كل واحد منهم أربعة أو خمسة من الخيول التي كان يملكها، وأن يسافر إلى حيث كانت وحدته متمركزة.

قَسَّمَ جنكيز خان الجيش على أساس النظام العشري، وعليه يمكن أن تكون الوحدة التي سيلتحق بها الجندي هي أربان، أي وحدة مكونة من عشرة رجال، أو جاغون، أي وحدة من مائة رجل، أو تومان، أي وحدة تضم ألف رجل، أو وحدة تضم عشرة تومانات أي عشرة آلاف رجل، ورتبت هذه الوحدات على شكل جماعات عالية التنظيم وزعت إلى ميمنة وميسرة وقلب، وقد تشربت روح الجيش الجديد بالنظام الصارم، وكان أي خرق للنظام، أو تهاون في تنفيذ الواجب، أو أي عمل جبان يعاقب دونما شفقة أو رحمة بعقوبة الموت، واعتمد جنكيز خان في تطبيق النظام على مجموعة من الرفاق المدربين الممتازين المخلصين.

وكان الجندي مسؤولاً عن ضمان تجهيزاته، وفقاً للمعايير الموضوعة، وكان يجري تفقده بانتظام من قبل ضباط، وتبدأ تجهيزات الجندي بقميص داخلي من الحرير، وهي عادة تعلمها المغول من الصينيين، لأنه إذا أصيب الجندي بسهم وخرق هذا السهم الدرع، كان مستبعداً أن يخرق قميصاً محكم النسيج من الحرير، وإذا حدث ودخل الحرير مع نصل السهم في الجرح، يكون نصل السهم محاطاً في الجرح بإحكام، من ثم يكون إخراجه أسهل، وذلك بسحب الحرير بلطف من حول الجرح، فقد كان الجندي أو الطبيب يدير نصل السهم وبذلك تتم إزالته من دون التسبب بمزيد من تمزق الجسد.

وكان يرتدي فوق الحرير سترة، وإذا كان عضواً من الخيالة الثقال، أُعطي سابغة، وواقيتي ساقين، مصنوعتين من الجلد المغطى بصفائح حديدية، وحمل كل جندي ترساً مجدولاً من الأغصان ومغطى بالجلد، وخوذة إما من الجلد وإما من الحديد، وذلك حسب رتبته، وكان يتسلح بقوسين، وجعبة كبيرة تحتوي على ما لا يقل عن ستين سهماً، وكان كل واحد من الخيالة الخفاف يحمل سيفاً صغيراً، وحربتين أو ثلاث حراب، في حين يحمل خيال الوحدات الثقيلة سيفاً طويلاً، وبلطة قتال، أو قضيباً شائكاً، ورمحاً طوله أربعة أمتار، وكان الجنود يجهزون أيضاً من أجل السفر وكان متوقعاً أن يحملوا على الحصان: ملابس، وقدور مطبخ، ولحماً مجففاً، وقارورة ماء، ومبرداً من أجل شحذ السهام، وإبرة وخيطاً، وأشياء أخرى صغيرة مفيدة، وكانت حقيبة السرج نفسها، تصنع بالعادة من معدة بقرة، التي هي مانعة لتسرب الماء، كما أنها قابلة للنفخ، فتزود أيضاً بوسيلة مفيدة للعوم أثناء عبور الأنهار، وكانت إحدى المؤسسات التي طورها جنكيز خان، هي تحويل الرياضة المحبوبة لدى الخيالة، أي الصيد، إلى التدريب العسكري، وسواء أكانت الطريدة ذئباً، أم أرنباً وحشياً، أم غزالاً، أصبح الصيد طريقاً لأن ينغرس في أذهان الجنود فضائل العمل والتصرف كجزء من وحدة مستقلة كبيرة، وكانت تمارين الصيد تجري في أثناء الشتاء لمدة ثلاثة أشهر تقريباً، وقد شارك فيها كل جندي، وجرى استخدام أنواع من التقنيات، وذلك اعتماداً على حجم الوحدة العسكرية.

والتدريب على الصيد كان يتم وفقاً للطريقة الآتية:

يقوم أفراد مجموعة صغيرة بتوزيع أنفسهم على نقاط موزعة على شكل قوس، ويتم جذب الطرائد إلى مكان الصيد، إما بواسطة ضربات من الموسيقا، وإما بدفع الطريدة لملاحقة واحد او إثنين من الخيالة، يعدوان مبتعدين جاذبين الطريدة خلفهما حتى تقع بالفخ، وسنرى أن هذا الأسلوب –أي استخدام التظاهر

بالفرار– قد أصبح معياراً تكتيكياً لدى المغول، وقد استخدم بنجاح مرات عدة في معركهم، المهم ما إن تصبح الطريدة في المكان المقرر حتى يقوم الخيالة الموزعون على شكل قوس بالتقدم من أجل القتل.

وكانت هناك طريقة أخرى للصيد، إذ يتم صف قطعة كاملة من الجيش على امتداد ما يمكن وصفه كخط انطلاق، وهو قد يكون طوله في بعض الأحيان مئة وثلاثين كم، ولدى تلقي الإشارة تبدأ المجموعة كلها راكبة متقدمة مسلحة وكأنها تريد الدخول في معركة، وتسير نحو الأمام على شكل قوس، حتى الوصول إلى خط نهائي بعيداً مئات من الكيلو مترات، وكان يتم إجراء هذا غالباً في منطقة تكون في ظل هضبة، حيث من الممكن مشاهدة الإجراءات من قبل الخان وبطانته من أعلى الهضبة، وخلال الأيام التالية سوف تتابع حشود الخيالة زحفها نحو الأمام، جارفة أمامها، أو مجمعة جميع الطرائد التي تواجهها على الطريق (١).

وحين يقترب الخيالة من الخط النهائي، يبدأ الجناحان بالعَدو نحو الأمام قبل القلب، وينعطف الجناحان، ويعدوان أحدهما نحو الآخر حتى يلتقيا ويشكلا دائرة، وبذلك يوقعون بالفخ جميع الطرائد التي حشدوها من خلال مئات الكيلو مترات من المناطق الريفية، وفي أثناء الزحف، كان محظوراً قتل أي شيء، وأكثر من هذا يعدّ عاراً إذا سمح أحد الخيالة لواحد من الحيوانات بالنجاة،

---

(١) وفي بعض الأحيان ما تزال مقاربة هذ النوع من الرياضة تمارس في هذه الأيام في منغوليا، أثناء احتفالات نادام Naadam، التي هي مباريات هذه الأيام، حيث تعرض البراعات المغولية التقليدية، مثل رمايات القسي، والمصارعة، واحتفالات ركوب الخيل، وتكون سباقات الخيل لمسافة تزيد على ٣٠ كم أو أكثر، وقد يشارك بها خمسمئة خيال، ويبدأ السباق، بالسير بهدوء، وفقط يقوم الخيالة بهمز خيولهم نحو العدو، حين يصبحون على مقربة من النهاية.

وخلال التمارين يركب الضباط خلف رجالهم، وهم يصرخون بالأوامر، ويوجهون تحركاتهم.

وبعد أن يلتقي الجناحان، وتحكم الدائرة، ينزل الخان من أعلى الهضبة ليختار ما يريد من الطرائد، وكان هذا من دون شك تمريناً رهيباً، إذ سيعرض الخان براعته الخاصة علناً أمام الجماعة كلها، ثم يعود إلى الهضبة، ويأتي الآن دور الجنود، وهي فرصة لكل جندي ليعرض أمام ضباطه براعته بالسيف، والقوس، والنشاب، أو الرمح، ويجري الإمساك بعدد من الحيوانات باليد، ويربطونها ليقتلوها بالمدية، وكان يجري أحياناً تمزيق بعض الجنود إلى قطع من قبل مجموعة من الذئاب المسعورة، وفي النهاية يلتمس الشيوخ والشباب في الجماعة من الخان أن يمنح الحياة للحيوانات التي بقيت في الحلقة، وما إن يجري منح ذلك حتى يكون الصيد الكبير قد انتهى رسمياً، وتطلق باقي الحيوانات.

ومع تمارين من هذا النوع، طوَّر المغول نظاماً مكَّنهم من تدريب جيش محترف إلى أبعد الحدود، والمحافظة عليه، وكان هذا شيئاً جديداً بالنسبة إلى القرن الثالث عشر، وتعلم كل مقاتل مغولي إلى جانب البراعة في ركوب الخيل، والرمي، والقتال بالسيف، أهمية الانضباط، والتنسيق، والطاعة، ومع أن تكتيكات المغول في الميدان لم تختلف عن أي تكتيكات للقبائل البدوية الأخرى، أصبحت إستراتيجياتهم نماذج رائعة في الأصالة والجرأة، فقد أصبحت مطاردة طرائد الصيد مطاردة للعدو، وعلى الفور بدأ القادة في تطوير إستراتيجيات سوف تترك أعداءهم في حيرة كبيرة، وكان الذي جرت صياغته تحت توجيهات جنكيز خان هو فروسية جديدة، لن يكون لها نظير في أي مكان في العالم.

كما أبقى نظام الاتصالات المعتمد آنذاك جميع الوحدات المغولية على اتصال مستمر بعضها مع بعض، وذلك من خلال طواقم من السُعاة الذين كانوا تحت إشراف قائد واحد، استخدموا نظاماً فعالاً إلى أبعد الحدود، وهو نظام

الإشارة بالأعلام إذا كانت المسافة قريبة بين هذه الوحدات، وللمسافات الأبعد كانت هناك إشارات بالمشاعل، أما للمسافات البعيدة جداً فقد وجد خيالة حملوا الرسائل بسرعة كبيرة.

- تشـــريع القوانيـــن :

إن صفات جنكيز خان الفائقة وشخصيته الفذة، لا تظهر في انتصاراته العسكرية فحسب، بل في ميادين أخرى ليست أقل أهمية، إذ لا يسعنا إلا أن ننظر بإكبار وإعجاب إلى منجزاته مشرعاً قانونياً ومنظماً للأمة المغولية، فقد جمع ورتب ووسع الفقرات القانونية، التي كانت سائدة بين مواطنيه، وأنتج «الياسا» أو القانون الأساسي للدولة، ونظم هذا القانون الحياة العامة المغولية لمدة طويلة بعد موته[١].

كانت العادة قد جرت أنه حينما يُعلن عن قيام إمبراطورية جديدة لأهل السهوب أن يقوم القائد الجديد بالإعلان عن أسس سياسته بوساطة بعض المراسيم والقرارات، وعلى هذه العادة جرى جنكيز خان، فوضع مدونته المشهورة التي رفعته عالياً، وميزته على من تقدمه من القادة، كما جعلته إدارياً كبيراً، ومشرعاً قانونياً.

ومن المفترض أن الياسا وضعت مباشرة بعد قوريلتاي ١٢٠٦م، وعُهد بها إلى أخي جنكيز خان بالتبني، وهو سيفي – قونوقو، كان يتيماً من التتار، وبعد تبنيه جعله مسؤولاً عن العدالة، وفي الياسا ثبت ميول المغول نحو التسامح الديني، إذ أعفت الكهنة والمؤسسات الدينية من الضرائب.

---

(١) معلوماتنا عن نصوص الياسا قليلة، وأوسع الفقرات التي انتهت إلينا من هذا القانون يحفظها لنا مؤرخ مصر الإسلامية المقريزي، انظر أيضاً كتاب:

Furdamental PRI. Neiplos of Mongollaue py Valentin, A. Riasanavsry in Diana university. 1965.

وبالإضافة إلى التنظيمات العسكرية فقد احتوى الياسا على مواد تنظيم الحياة المدنية، وشدد هذا التشريع على مبدأ الملكية الشخصية، وهكذا عاقب السرقة، وقطاع الطرق بصرامة وشدة متناهية، إذ أصبحت عقوبة الموت توضع على الذنوب الصغيرة جداً، فحكم بالإعدام على التجسس، والهروب من الجيش، والسرقة، والزنا، وعلى التاجر الذي يُعلن إفلاسه للمرة الثالثة، كما حرمت الياسا الاغتسال بالماء الجاري، والتبوّل فيه، وذلك بسبب الاعتقاد بأن الجداول والأنهار كائنات حية، وأصبحت الياسا القاعدة الدستورية للإمبراطورية.

كما نظمت الحياة العائلية أيضاً، فأصبحت المرأة تتمتع باستقلال واسع واحترام عظيم، ويظهر هذا التباين الشاسع بين مركز المرأة هنا ومركزها عند الشعوب الأخرى، وقد تميزت المرأة أيضاً بانخراطها رديفاً للجيوش أثناء الحملات العسكرية، فلم تكن المرأة تهتم بإدارة شؤون المنزل وتربية الأطفال فحسب، بل كانت ترافق الجيش في حملاته، وتهتم بشؤون الرجال المحاربين وحاجاتهم، وفي أثناء المعارك كانت النساء تحفظ في عربات خاصة في المعسكرات، ولكن في حالة الطوارئ ووقت الخطر الشديد كن يشتركن بالقتال.

ولتأمين نفقات الدولة والإدارة نصت الياسا على إقامة نظام ضرائب مزدوج مع ضريبة على رأسمال التجار، كما أنشأ جنكيز خان خدمات بريدية رسمية تولت نقل معلومات المخابرات مع الأوامر والتعليمات من أدنى الدولة إلى أقصاها بسرعة مدهشة.

المقـالـة الرابعـة

التوسع الخارجي في آسيا وأوروبا

لا شك أنه كان للشعب المغولي طموحاته، وإن لم يملك جميع أفراد المجتمع المغولي درجة الحماسة نفسها لتنفيذ تلك الطموحات، لكن على كل حال كانت الجماعات القيادية تعرف بالضبط ما تريد، وكما هو الحال في المجتمعات الإقطاعية نصف البدوية، لم يكن يهمهما إلا أنفسهما، وبالحب الغريزي لتملك الأرض الذي يمتاز به سكان السهوب بدأ هؤلاء القادة يتوقون لإخضاع المناطق المجاورة ذات الطابع الحضاري المتفوق، ولم يكن هدفهم الاقتباس أو تعلم أي شيء من الحضارات الموجودة، بل دفعهم حبهم للغنائم، التي لا تعد ولا تحصى وأملهم بالحصول على الرفاهية المنشودة في طرق الحياة، لذلك لم يعودوا يهتمون بالقيام بحملات للسلب كما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم منذ القديم، بل أصبح هدفهم إنشاء دولة مترامية الأطراف، وإمبراطورية عالمية تشمل جميع أنحاء العالم المعروف حينذاك.

وانتشرت سمعة جنكيز خان، وسادت أنظمته وتعاليمه جميع أصقاع منغوليا، وشعر أفراد الشعب المغولي بأنهم أصبحوا أصحاب رسالة عالية، وأنهم جُبلوا في طاقة عظيمة، فأصبحوا جسماً واحداً طاغياً سرعان ما برهن بأنه قوة متفوقة على جميع الإمبراطوريات المجاورة، ولم يحتج تيموجين إلى أكثر من

بضع سنوات لإتمام التنظيمات الداخلية لدولته وللحصول على الأسلحة والتجهيزات عن طريق فتح علاقات تجارية جديدة، ثم بدأ بتسيير الحملات الحربية التي أثمرت في إرساء دعائم الإمبراطورية المغولية العالمية.

كانت الصين مقسمة آنذاك إلى ثلاث ممالك منفصلة بعضها عن بعض، فإلى الجنوب من منغوليا (أقصى الغرب بالنسبة للصين الحديثة) كانت هناك مملكة الهسي – هسيا، وإلى الشرق من منغوليا كان شمال الصين تحت حكم أسرة الكن، وكان جنوب الصين هو القلب الحقيقي يحكم من قبل أسرة سنغ.

أما في الغرب من منغوليا فقد قامت دولة القراخطاي، والأيغور، ومن ورائهما إلى الغرب كانت أراضي دولة خوارزم.

ويمكن تقسيم مراحل التوسع في عهد جنكيز خان إلى ثلاث:

المرحلة الأولى: كانت عندما تخلى الأيغور عن تبعيتهم للقرا خطاي، وعرضوا طاعتهم على جنكيز خان سنة ١٢٠٧م.

المرحلة الثانية: كانت ضد الصين، تلك البلاد التي كانت تدغدغ آمال المغول دائماً بسبب العلاقات الثقافية والتجارية منذ القديم، فتوجه شرقاً نحو مملكة الكن، وقاد ضدها عدة حملات، انتهت سنة ١٢١٥م بالسيطرة على عاصمة الكن (تشانغ – تو chung – tu) قرب موقع بكين الحديثة، فأحالها المغول إلى الخراب والدمار، ونشر المغول رعبهم في تلك البلاد، وفي العام ١٢١٨م قدم الكوريون (الذين من دون شك تأثروا بمصير تشانغ – تو) طاعتهم للبلاط المغولي.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة الحرب مع الدولة الخوارزمية على الجبهة الغربية.

ورد معنا في المطلب السالف أن الخوارزميين أسسوا دولة كبيرة في خراسان وما وراء النهر على أنقاض دول السلاجقة، وأن هذه الدولة تضخمت كثيراً في عهد السلطان محمد خوارزمشاه (٥٩٦-٦١٧هـ/١١٩٩-١٢١٩م) وقد عاصر هذا جنكيز خان، وفي عهده بدأ الغزو المغولي للدولة الإسلامية الخوارزمية، وقبل الغزو المغولي قام محمد خوارزمشاه بسلسلة من العمليات العسكرية التوسعية جعلته يتاخم المغول شرقاً، والعراق غرباً، وبعض هذه الأعمال التوسعية عاد عليه بنتائج سلبية.

من هذه العمليات العسكرية كانت تلــك التي انتهت بإسقاط دولة القراخطائيين[١]، فقد جاور دولة الخوارزميين من الشرق دولة القراخطائيين التي تأسست في بلاد ما وراء النهر وشرقها من قبل شعوب أو قبائل الخطا التي هاجرت من شمال الصين إلى غرب تركستان، وكان لحكام الخوارزميين الأوائل علاقات جيدة معها، حتى جاء السلطان محمد خوارزمشاه إلى الحكم، وقام – لأسباب عديدة لا مجال للحديث عنها هنا – بسلسلة من العمليات العسكرية انتهت سنة ٦٠٧هـ/١٢٠٦م بإسقاط هذه الدولة، ولقد كان هذا أكبر خطأ ارتكبه خوارزمشاه، لأن دولة القراخطائيين شكلت سداً منيعاً، حجزت المغول عن المسلمين زمناً طويلاً، وبزوالها أصبح الطريق مفتوحاً أمام المغول، لذلك لما قرر المغول مهاجمة الخوارزميين لم يحل أمامهم حائل.

ومن الأعمال التوسعية التي قام به خوارزمشاه، والتي عادت عليه بنتائج سلبية، توسعه شرقاً تجاه الخلافة العباسية، ورغبته في دخول بغداد بعد

---

(١) «قره» لفظ تركي يعني القوة أو السواد، وتلقب كل ملك من ملوك هذه الدولة باسم «كورخان» أي ملك الملوك، وتوسعوا شرقاً وغرباً حتى شملت دولتهم المنطقة الممتدة بين صحراء غوبي شرقاً ونهر سيحون غرباً، والتبت جنوباً، وسيبيريا شمالاً، وهذا يعني أنهم أخضعوا الدولة القراخانية المسلمة.

اصطدامه مع الخليفة العباسي بسبب أطماعه التوسعية، إذ نجده سار غرباً يريد بغداد فأخضع خراسان، وأذربيجان، والقوقاز، غير أن شتاء سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧ القارس، وتحركات المغول على حدوده الشرقية، أجبراه على العودة بعد أن كسب عداوة الخلافة العباسية، إذ أقدم الخليفة العباسي الناصر لدين الله على مراسلة جنكيز خان، وشجعه على مهاجمة أراضي الدولة الخوارزمية، وهناك دينار ذهبي يحمل اسم الناصر على وجه، واسم جنكيز خان على الوجه الآخر، وهذا دليل على الاتفاق ضد الخوارزميين.

أضف إلى هذا أن العمليات العسكرية الطويلة كانت قد أنهكت جيوش الدولة الخوارزمية، وجعلتها لا تقدر على مقاومة الغزو المغولي لما بدأ.

- توسع جنكيز خان غربـاً :

الخوارزمية أهم قوى المنطقة هناك، وضمت بين حدودها أذربيجان، والعراق العجمي، وفارس، وكرمان، ومكران، وخراسان، وأفغانستان، والصغد، وما وراء النهر، أي المنطقة الممتدة من السند شرقاً إلى كردستان وخوزستان والخليج العربي غرباً، ومن بحر آرال وبحر قزوين شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً، وكانت أراضي الدولة الخوارزمية تضم أهم الطرق التجارية المؤدية لأراضي المغول، وكانت التجارة بين الطرفين نشيطة، لكن غالباً ما كان تجار جنكيز خان يقومون بمهمة التجسس أيضاً، لذلك كان محمد خوارزمشاه يعدمهم بالجملة ما عدا القليل منهم.

وكانت حادثة إعدام التجار المغول الذي بلغ عددهم نحو أربعمئة وخمسين تاجراً سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، من قبل «ينال خان» الخوارزمي حاكم مدينة «أُترار» بتهمة التجسس، نقطة الفصل في العلاقات المغولية الخوارزمية، فلما أرسل جنكيز

خان إلى محمد خوارزمشاه ثلاثة رسل يطلب التعويض، قام خوارزمشاه بقتل أحدهم، وحرق لحيتي الآخرين، فكان هذا سبباً كافياً لرد فعل مغولي عنيف.

التفاصيل حول هذا الموضوع طويلة، والمهم أن جنكيز خان قرر الزحف ضد جاره الجبار خوارزمشاه، وأعد لذلك عدته، وسار مع جيشه وجميع أبنائه في خريف ٦١٦هـ/ ١٢١٩م وبدأ الهجوم على إقليم ما وراء النهر.

كانت مدينة أُترار هي المحطة الأولى، وأدرك حاكمها «ينال خان» أنه لن ينال الرحمة من المغول، فاستبسل في الدفاع عنها، لكن الحصار المغولي كان أعنف، فدخلوا المدينة واستباحوها.

وخلال ذلك كان جنكيز خان قد سار برفقة ولده تولوي وقائده سوبوداي عبر طرق مخفية وظهروا فجأة أمام مدينة بخارى، وبعد حصار عنيف دخل جنكيز خان إلى «قبة الإسلام» حسب وصف المؤرخ الفارسي الجويني، وارتكب بأهلها مجزرة شنيعة، ثم استولى على سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر، ولاقت مصيراً مشابهاً لما لاقته مدينة بخارى، كما تمكن ابنه جوجي قائد الجيش الثاني من دخول مدينة جند.

استخدم المغول في حصار هذه المدن الأساليب الحديثة آنذاك من أسلحة الاقتحام مثل الكبش، والمجانيق، والنيران الحارقة، والتدخين، فهزمت هذه المدن، وأخذت عنوة، وكان مصيرها رهيباً، فقد ذبح قسم عظيم من السكان دونما شفقة أو رحمة (١)، وأدت هذه الكارثة إلى تحطيم الازدهار الاقتصادي والثقافي في آسيا الوسطى، فلم تستطع تلك المدن منذ تلك الكارثة أن تستعيد مكانتها السالفة إذ

---

(١) أتت المصادر العربية والإسلامية على وصف ما قامت به الجيوش المغولية مثل سيرة جلال الدين منكبرتي، والكامل في التاريخ، وجامع التواريخ ، وتاريخ الجويني، كما أن يوميات الراهب التاوستي شانق شن الذي استقدمه جنكيز خان ليعلم قومه الأبجدية، قدمت وصفاً وثائقياً لحالات الدمار في خراسان وما وراء النهر.

كانت مراكز حيوية في صرح الحضارة الإسلامية، وكان من سياسة المغول أن لا يتعدوا على العلماء والفنانين والحرفيين الذين يمكن أن يستفيدوا منهم ومن خدماتهم، وكذلك النساء والأطفال كي يستخدموهم عبيداً، وقد تركوا بعض الرجال في سن الجندية أحياءً أيضاً كي يستخدموهم كبش فداء في حصار تالٍ، أو أي هجوم، إذ كان يقذف بهم أمام الجنود المغول ويجبرون على صدام بني جلدتهم، ولم يكن هنالك أي مهرب أو منجى لهم من تلك الورطة، فإما أن يهاجموا أسوار بلدانهم، وإمَّا أن يحصدوا دونما شفقة أو رحمة.

والآن عبرت الجيوش المغولية نهر جيحون، وبدأت عمليات تعقب خوارزمشاه، وتولى في البداية جنكيز خان وابنه تولوي المهمة، وطوال الطريق أحدث المغول خراباً مروِّعاً، فسقطت مرو بيدهم، فدُمرت وقتل أهلها، وكذلك فعلوا بنيسابور، وبلخ.

وفي هراة أوقف المغول أسبوعاً كاملاً من أجل قتل أهلها، ومن بعد ذلك سوّيت المدينة مع الأرض.

تولى عمليات المطاردة «سوبوتاي» و«جبه»، أشهر قادة المغول، ووصل خوارزمشاه إلى «أسترا» على شاطئ بحر قزوين، ومنها إلى جزيرة «أبسكوم» الصغيرة في بحر قزوين حيث مات هناك مريضاً سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢١م، وخلال عمليات المطاردة وصل المغول إلى هضبة أذربيجان ولم يصادفوا مقاومة تذكر.

توفي محمد خوارزمشاه، وخلفه ابنه جلال الدين منكبرتي، وكان هذا رجلاً مغامراً شجاعاً، استلم الحكم مكان أبيه وقد سيطر المغول على خوارزم، وعلى خراسان، ودمروا المدن والعواصم الرئيسية، وقد تنقل جلال الدين في إيران، ومن القوقاز إلى نهر السن، ثم رجع إلى شمال الهند، قبل أن يباغته المغول بالالتفاف عليه، ثم ظهر في العراق، وبعدها في جورجيا، وتمكن من التصدي

للمغول وهزيمتهم في بعض المواقع، لكن دولته كانت مدبرة، وقتل سنة ٦٢٨هــ/ ١٢٣١م[١].

- **الإمبراطورية المغولية بعد وفاة جنكيز خان :**

كان جنكيز خان قد توفي سنة ٦٢٤ هــ/١٢٢٧م، وهو على نية حملة جديدة نحو الأقاليم الشرقية، فتعطلت خططه مؤقتاً بعد وفاته، حتى تم انتخاب خان جديد محله.

كان جنكيز خان قبل وفاته قد قسم إمبراطوريته بين أبنائه الأربعة (من زوجته الرئيسية المسماة بورته أو بورثي)[٢]، الذين كانوا قد اشتركوا اشتراكاً فعلياً في الحكم أثناء حياته، وحسب التقاليد المغولية يأخذ الابن الأصغر الجزء الأهم، وعليه فقد كانت منغوليا، المنطقة الأصيلة لجنكيز خان وأجداده من نصيب تولوي، كما أنه استمر بحكم الإمبراطورية مدة عامين بعد وفاة والده بصفته وصياً على العرش طبقاً للعرف المغولي حتى تم انتخاب خان جديد سنة ٦٢٦ هــ/ ١٢٢٩م.

أما جوجي الابن الأكبر، فقد كانت المنطقة الواقعة بين نهر آرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين من نصيبه، وهذه البلاد تعرف باسم القبجاق، وأطلق عليها فيما بعد اسم القبيلة الذهبية نسبة إلى خيم معسكراتها ذات اللون الذهبي، لكن جوجي هذا توفي قبل أبيه جنكيز خان بستة أشهر، فآل حكمها إلى الحفيد باتو بن جوجي.

---

(١) دوَّن محمد بن أحمد النسوي أخبار جلال الدين منكبرتي تدويناً مفصلاً، وقد طبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٥٣.

(٢) كان لدى جنكيز خان عدد كبير من الزوجات والمحظيات وتسعة أولاد، غير أنه كان يقدم أبناء بورته على أبنائه الآخرين.

أخذ جغتاي منطقة ما وراء النهر، وكاشغر، وبلخ، وغزنة، وبلاد الأيغور.

أما أوكتاي فقد أخذ البلاد الواقعة في الشرق والشمال الشرقي.

لم يترك جنكيز خان قبل وفاته أيَّ تعليمات بالنسبة لوحدة الإمبراطورية، فهو لم يكن يقصد أن تتمزق الإمبراطورية بعد وفاته، بل كان يرغب في أن يمارس أحد أبنائه السيادة على إخوته حاكماً أعظمَ، أو (خان أعظم)، وكان من الواجب أن يملأ هذا المركز طبقاً لرغبة الإمبراطور المتوفى، ولكن لما كان المؤسس الخالد الذكر، لم يخصص أحداً باسمه اتُّفِقَ على أن يجري الاختيار عن طريق الانتخاب، وهكذا بعدما تم عقد الجمعية الوطنية العامة (القوريلتاي) عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م اتفق الإخوة دونما أيَّ صعوبات على تنصيب أوكتاي، ولكن هذا لم يرث أياً من مواهب والده الحربية، وفي الروايات التاريخية التي وصلتنا، يوصف بأنه كان هادئاً ولا يميل لاستعمال القوة، وكان ذا ضمير حي، وداهية ثاقب النظر، وسَّع عاصمة ملكه قره قورم، وزينها بالمباني والصروح الفخمة.

- العمليات العسكرية ضد الخوارزميين والجبهة الغربية بعد جنكيزخان:

في هذه المرحلة كان جلال الدين منكبرتي قد استغل انشغال المغول بوفاة جنكيز خان وانتخاب خان جديد، فعمل جاهداً لإعادة الوحدة لبلاده، وخاض حروباً عديدة ضد الذين كانوا سبباً في فرقة العالم الإسلامي، فانتصر على أخيه غياث الدين، ثم على الخليفة العباسي، كما حارب الإسماعيلية وانتصر عليهم، فدانت له كرمان، وفارس، ويزد، وأصفهان، وغيرها من الأقاليم الغربية، ثم أخضع أذربيجان.

كل هذه الأعمال والمغول منشغلون بقضية الحاكم الجديد، وحتى ذلك الوقت كانت بلاد ما وراء النهر خاضعة لهم، ومنها تنطلق غارات غير منظمة على الخوارزميين، فيغلبون حيناً، ويُغلبون إلى أن استقر الحال للخان الجديد

أُكتاي، فعهد لقائده الشهير «جرماغون نويان»، بقيادة حملة ضخمة على إيران بلغ تعداد جنودها نحو ١٠٠.٠٠٠مقاتل، واصطحب معه أمهر القادة المغول، وسارت هذه الحملة إلى الري، ثم همذان، ثم أذربيجان، وكانت بذلك تتعقب جلال الدين الذي أخذ يفر أمامها بعد أن أخفقت مساعيه في إنهاض قادة العالم الإسلامي وجمعهم.

ومن أذربيجان تقهقر جلال الدين أمام المغول إلى سهل موقان، ثم عاد إلى أذربيجان ومنها إلى آمد (ديار بكر) في أعالي وادي نهر دجلة، ثم واصل سيره هائماً على وجهه حتى وصل إلى قرية من قرى ميافارقين، ثم احتمى بجبال كردستان، وهناك لقي مصرعه على يد أحد رجال العصابات الأكراد بعد أن استجار جلال الدين لديه سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م.

وبعد أن تخلص المغول من أخطر أعدائهم أصبحت الطريق أمامهم ممهدة لأعمال توسعية جديدة، فقد واصل الجيش المغولي زحفه في غرب آسيا عبر ثلاث محاور: فرقة من الجيش سيطرت على ديار بكر، وأرزن الروم، وميافارقين، وماردين، ونصيبين، وسنجار، وقد أعملت السلب والنهب في تلك المناطق، بالإضافة إلى الرعب الذي نشروه من خلال المجازر التي ارتكبوها، وقد تحدث عنها ابن الأثير ملياً، أما الفرقة الثانية فقد هاجمت بدليس وأحرقتها، في حين سارت الفرقة الثالثة إلى أذربيجان وبدأت بالاستيلاء على مدنها الواحدة تلو الأخرى.

وفي سنة ٦٣٤ هـ/١٢٣٦م هاجم المغول جورجيا، واستباحوها، وسيطروا على عاصمتها تفليس، كما أن إرمينية لم تسلم منهم، فخربوا عاصمتها آني، لأنها قاومتهم، لكنهم عادوا، فعاملوا أهلها مع أهل جورجيا معاملة حسنة بعد أن قبلوا بطاعتهم وأخذ الجزية منهم.

وفي سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م أسندت قيادة الجيش المغولي في غرب آسيا إلى «بايجو نوين» لأن جرماغون أصيب بالشلل، ومع بايجو نوين بدأ غزو المغول للأناضول، الذي كان يخضع آنذاك لسيطرة سلاجقة الروم بقيادة غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ، وبدايةً سقطت بيدهم أرزن الروم بعد هزيمة القوات السلجوقية، فجمع غياث الدين جيشاً كبيراً من المسلمين والأرمن والكرج وغيرهم، وسار شرقاً يريد محاربة المغول، والتقى الفريقان في موقع كوسا داغ (أي الجبل الأقرع) من نواحي أرزنجان سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م، ودارت معركة عنيفة أسفرت عن انتصار المغول ودحر الجيوش السلجوقية.

وعلى إثر هذه المعركة خضعت الأناضول وسلاجقة الروم للحماية المغولية مدة قرن ونصف تقريباً، يدفعون فيها الجزية السنوية للخان، ويتلقون منه المراسيم (بيرالغ) بتعين السلاطين والحكام السلاجقة تحت إشراف الجيش المغولي المرابط هناك.

- غــزو أوروبــا :

في الوقت الذي كانت فيه قسم من القوات المغولية يلاحق جلال الدين منكبرتي ويسيطر على غرب آسيا، كان هناك جيشٌ هائلٌ بقيادة الخان نفسه وأخويه جغطاي وتولوي يحارب في الصين ضد أسرة كن، وأسفرت المعارك التي وقعت في الصين عن استيلاء المغول على أقاليم الصين الشمالية بأكملها، سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، وسيتم في عهد خلفاء أوكتاي السيطرة على الأقاليم الجنوبية.

ولما عاد أوكتاي من الصين سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م دعا إلى عقد قوريلتاي، ولعل هذا القوريلتاي كان أكثر القوريلتايات أهمية في تاريخ الإمبراطورية، إذ أرسى قواعد عدد من المؤسسات التي كتب لها البقاء، كما

وضعت فيه أقوى القرارات العسكرية، منها قرار إخضاع الكوريين بشكل نهائي، كما اتخذ قراراً بغزو أوربا بعد أن قدَّم القائد سوبوتاي رأيه بضرورة حماية الحدود الغربية للإمبراطورية ومن ثم الاندفاع نحو الأمام إلى أوروبا، وجرى الترحيب بفكرة سوبوتاي، وكُلِّفت **القبيلة الذهبية** هذه المهمة، فمن هؤلاء.

تحدثنا سالفاً عن تقسيم الإمبراطورية، وفي الحقيقة هذا التقسيم تم قبل وفاة جنكيز خان، وقبل أن ينطلق في حملته إلى غربي آسيا، لكنه لم يكن تقسيماً جذرياً، بل حصص عينها لأولاده الأربعة ومن خلالها أقام الهيكل الجغرافي للإمبراطورية.

وكان من عادة المغول إعطاء الابن الأكبر الأراضي الأكثر بعداً عن الوطن، وكان جوجي هو الابن الأكبر، وقد مات قبل ستة أشهر من وفاة والده، وعليه جرى تقسيم جميع الأراضي التي وقعت في أقصى الغرب بين أولاد جوجي، فأخذ ابنه الأصغر «باتو» الأراضي التي امتدت من الشواطئ الشمالية لبحر الخزر حتى نهر الفولغا غرباً، ونهر إرغيز شرقاً، وهذا الفرع هو الذي عرف باسم «القبيلة الذهبية»، لأنهم اتخذوا خياماً بلون ذهبي، وقيل: لأن خيمة السلطان كانت مُذهَّبة، وقد برهنت هذه القبيلة خلال وقت قصير أنها أكثر القبائل توسعاً.

وفي سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م بدأت جيوش كبيرة تتحرك نحو الغرب، ووقع تنفيذ المهمة العسكرية في أوروبا الشرقية على عاتق القبيلة الذهبية وزعيمها «باتو»، وكانت القيادة الفعلية للقائد المغولي الشهير سوبوتاي، وخلال أشهر قليلة تم اجتياح مملكة بلغار الفولغا الواقعة في وسط حوض الفولغا جنوب مدينة قازان الحالية.

وهكذا فتحت الطريق إلى روسيا، ففي السنة التالية أي في سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م اجتاحت الجيوش المغولية دول المدينة في موسكو، وموردن،

وياروسلان، وفلاديمير، وغيرها من الإمارات الصغيرة في أعالي منطقة الفولغا، لكنهم لم يتابعوا السير شمالاً باتجاه البلطيق بسبب ذوبان الثلوج، فحولوا هجومهم نحو الجنوب الغربي، نحو ما هو الآن غرب أوكرانيا، فبعد أن اخترقوا أراضي روسيا غرب موسكو وصلوا إلى مدينة كوزلسك، وبعد سقوطها حاصر المغول مدينة كييف، وهي مركز الأمير الأعظم ورئيس (مطران) أساقفة روسيا القديمة وقلب دولة (روس) القديمة.

هرب ميخائيل شرنقوف حاكم مدينة كييف، وترك الدفاع عنها لقائده ديمتري، في حين عهد باتو لابن عمه مونكي بحصار كييف، وكما ذكرنا كان للمدينة أهمية عظيمة لدى الروس، وكان أمد الحصار قصيراً، ففي (٦ كانون الأول سنة ١٢٤٠م) سقطت المدينة، وفي أثناء عمليات السلب والنهب اللذين تليا أخذ المدينة، تحطمت الكثير من الآثار الفنية والنصب التذكارية الثمينة، وفقدت كييف «أم المدن الروسية» – حسب تعبير أحد الرحالة الأوربيين – مكانتها كمدينة رئيسية لروسيا.

وهكذا انتهت المرحلة الروسية الأولى في التاريخ، (أو المرحلة الأوكرانية حسب وجهة النظر الأوكرانية)، ومنذ ذلك الوقت انتقل مركز الثقل في شرق أوروبا من هناك إلى إقليم بعيد شمالاً.

– اجتياح بولنــدا وهنغاريــا :

بعد أن أخضع المغول روسيا قرروا الزحف غرباً حيث بولندا وهنغاريا، وقسَّم سوبوتاي – الذي كان القائد الفعلي – قوات المغول إلى فرقتين، الأولى تحت قيادة بايدار، وكادان، وكُلِّفت اجتياح بولندا وليثوانيا في الشمال، لسحق القوى الموجودة هناك، وإنهاء أي قوة يمكن أن تشكل تهديداً للحملة الرئيسية التي

ستعمل في هنغاريا، وبعد أن تُنهي هذه الفرقة مهمتها عليها الانحدار جنوباً إلى هنغاريا، والالتحاق بالحملة الرئيسية هناك.

الفرقة الثانية، وهي الجزء الرئيس والأكبر من الحملة، فكان تحت قيادة باتو وسوبوتاي، وكانت مهمتها عبور جبال الكارباني لاجتياح هنغاريا.

كانت بولندا مقسمة بين أربعة أمراء، أشهر هؤلاء الأمراء كان بوليسلاف العفيف زوج ابنة ملك هنغاريا «بيلا الرابع»، ونظر هذا لنفسه أنه الملك الشرعي لبولندا، كما كان هنري التقي صاحب سيليشيا لا يقل أهمية عنه، ومن المدهش أن الأمراء البولنديين لم يأخذوا استعداداتهم اللازمة للتصدي للهجوم المغولي المتوقع بعد أن كثُرت التحذيرات القادمة من روسيا.

أما هنغاريا فقد كانت تحت حكم بيلا الرابع الذي أخذ مجموعة من الاستعدادات اليائسة لمواجهة الهجوم المغولي، في وقت لم يتمتع فيه بقبول كامل من قبل باروناته، وكانت المعارضة له قوية.

بدأ الهجوم المزدوج في كانون الثاني سنة ١٢٤١م، وعبرت الفرقة الأولى نهر الفيستولا إلى بولندا بقيادة بايدار وكادان، فلم يواجهوا مقاومة تذكر، واستمر زحفهم إلى العاصمة كراكوف وكانت تتجمع بها القوة الرئيسية لبولندا تحت قيادة الدوق بوليسلاف العفيف «أو الورع»، لكن قوته الضخمة هذه جرى استدراجها من قبل بايدار إلى منطقة ريفية عرفت باسم تشميلنيك Chmielnik على بعد نحو ١٨ كم من كراكوف، وهناك جرى سحقها.

وعندما وصل الناجون إلى أسوار المدينة رفعوا أصوات الإنذار، وقام بوليسلاف بحمل أسرته وكنوزه والفرار نحو هنغاريا.

وقلده في ذلك معظم السكان، وامتلأت الشوارع بالخيول والعربات، في وقت وصلت فيه طليعة مغولية إلى أسوار المدينة، والبواق لا زال يطلق صوت

الإنذار، فاستل أحد أفراد الطليعة المغولية سهماً من جعبته وأرسله ليُخرس البواق، ويوقف زعقه، وفعلاً لما صمت صوت البواق فجأة التفت الناس إلى برج الكنيسة، شاهدوا أن البواق سقط نحو الأرض والسهم في عنقه.

وفي ٢٤ آذار وصل بايدار المدينة فوجدها فارغة، فأحرقها، ثم سحق جيشاً آخراً جمعه هنري التقي في موقع يدعى ليغنتز (ليفينيكا)، وبذلك أنهى كل مقاومة موجودة في بولندا، وانحدر جنوباً ليلتحق بالحملة الرئيسية في هنغاريا.

في هنغاريا كانت القوة الرئيسية تحت قيادة باتو وسوبوتاي قد وصلت إلى الدانوب في ١٥ آذار، وأصبحت على مرأى من العاصمة الهنغارية بست، فجمع بيلا الرابع قواته، وعسكر على الضفة الثانية للدانوب أمام القوات المغولية، فاستدرجته القوات المغولية إلى شاطئ نهر ساجو، وأُنزلت به هناك هزيمة ساحقة، ثم طاردته قوات سوبوتاي حتى العاصمة بست، وكان الطريق إلى بست مملوءاً بالجثث، وقدر عدد القتلى الهنغار بـــ ٦٠ ألف، ودخل المغول إلى بست، وألقوا النار فيها، ومع نهاية اليوم العاشر من نيسان ١٢٤١م أصبح المغول متحكمين بالسهل الهنغاري، وليس هناك قوة بينهم وبين المحيط الأطلسي ظهرت أنها قادرة على الوقوف أمامهم.

- المغول على أبواب أوربـــا :

وبعد أسبوع فقط من معركة ليغنيتز اتحد الجيش المغولي في بولندا مع القوة الأساسية الموجودة في هنغاريا، في حين هرب كل من بيلا الرابع وبوليسلاف الورع نحو النمسا.

وعمت الفوضى في أوروبا في النصف الثاني من عام ١٢٤١م، وانتشرت معها الأساطير حول هذا الشعب الذي غزاهم ودمرهم، وقام البابا غريغوري

التاسع ليعلن حملة صليبية ضد المغول، وكذلك فعل الإمبراطور فردريك الثاني، لكن أعمالهم لم تتجاوز الدعوات، وجمع الأسلحة.

استراح المغول صيف ١٢٤١م، فلم يقوموا بأعمال عسكرية، ومع حلول الشتاء قاموا بحملات استطلاعية في الشمال والجنوب، وصلت الشمالية إلى أحواز فيينا، ووصلت الجنوبية إلى مقربة من مدينة البندقية، وجاءت هذه الحملات بمعلوماتٍ غنية، شجعت باتو للاستعداد للمرحلة الثانية، وهي خرق وسط أوروبا، لكن في صباح أحد أيام أيار سنة ١٢٤٢م قام المعسكر المغولي بهدوء، ومع قليل من الحذر بالمسير شرقاً، عوضاً عن المسير غرباً حيثما كان مقرراً، فعبر الدانوب عائداً إلى الشرق إلى الأراضي التي جرى الاستيلاء عليها حديثاً، وأثناء هذا الزحف أحدثت الجيوش المغولية دماراً أعظم من أي حملة من الحملات المتقدمة، واقترفت مذابح مُريبة، ولم يكن هذا جزءاً من تكتيك حربي، بل كان انسحاباً كلياً وكاملاً، وأثناء الانسحاب كان باتو عازماً في مسيرته أن يجعل الهنغار، أو أي واحد آخر سيلقاه في طريقه لن ينسى المغول أبداً.

فجرى إطلاق سراح الأسرى، ثم طوردوا وذبحوا مثل الأرانب، كما جرى تدمير وإفناء قرى بكاملها، وجرى التخلي عن أوروبا، وكان السبب في ذلك هو الأخبار التي وصلت من قراقورم بموت الخان أوكتاي.

في الحقيقة لم تكن وفاة الخان أوكتاي هي السبب الوحيد الذي دفع باتو إلى الانسحاب من أوربا شرقاً، بل أيضاً التنافس الذي وقع على عرش الخانية، فأرملة أوكتاي «تورجين، أو توركين»، سيطرت على أمور الإمبراطورية، وتسعى – عبر سلسلة من المؤامرات – لضمان وصول ابنها كيوك إلى العرش، وكانت المعارضة تؤيد منكو بن تولوي.

المهم أدرك باتو أنه في ظل تحكم تورجين بالعرش الإمبراطوري لن يكون بإمكانه متابعة حملته في أوربا، أما إذا نجح منكو في الوصول إلى العرش

سوف يعود باتو بسهولة إلى أوربا، وستستمر العمليات العسكري هناك، وأفضل استراتيجية لباتو الآن هي العودة لتثبيت سلطانه على الأراضي التي فرغ من احتلالها مؤخراً، فرجع مع قواته إلى المنطقة المستولى عليها شمال البحر الأسود، وبذلك أفلتت من قبضته كل الأراضي التي تم الاستيلاء علها في هنغاريا.

اتخذ باتو الأجزاء ذات الصفة السهوبية من أراضي الفولغا الوسطى والعليا، ومنطقة شمال البحر الأسود مركزاً لاستيطان القبائل المغولية التي ترافقه، وهنا وجدت المراعي المناسبة لخيول الجيش الظافر، والفضاء الواسع الرحب لمربّي القطعان، وستعرف هذه القبائل باسم القبائل الذهبية.

وقد اختيرت أول عاصمة بنيت للمغول في جوار قرية سلترينوي الحالية، وهي في منتصف الطريق ما بين مدينتي ستالينغراد الحديثة واستراخان، وكانت هذه العاصمة تدعى (ساراي القديمة)، ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت هذه المدينة مشهداً لأول تقارب حميم بين مغول روسيا والحضارة الإسلامية في غرب آسيا.

المقالة الخامسة

المغول من وفاة أوكتاي إلى حملة هولاكو

لما اشتد المرض بأوكتاي جرى استدعاء ابنه الأكبر كيوك إلى العاصمة، وكان هذا منشغلاً بأعمال توسعية في بولندا وهنغاريا، فمات أبوه قبل أن يصل.

عيّن أمراء الدولة وأعيانها تورجين (توركين، توراكينا) أرملة أوكتاي وصية على العرش، وكانت تورجين امرأة ذكية وطموحة، وبدأت تعمل على أن يتولى ابنها كيوك منصب الخان الأعظم.

وقد ناضلت تورجين بكل قواها لتؤمن لابنها كيوك استرداد ميراثه من أبيه، وقد قاومها باتو، وذلك لأنه كان يطمح للوصول إلى العرش، لكونه من أولاد أكبر أبناء جنكيز خان.

عندما تأكدت تورجين أن الظروف أصبحت موائمة لتحقيق طموحها، أرسلت الرسل إلى كبار الشخصيات المغولية في جميع الأمصار لحضور القوريلتاي بشأن انتخاب خان جديد للمغول، فوصل إلى القوريلتاي كبار الشخصيات المغولية، كما حضرت شخصيات أخرى من كل أنحاء العالم، كان منهم ياروسلاف دوق روسيا، والسلطان ركن الدين قليج أرسلان سلطان سلاجقة

الروم، ومندوب عن الخليفة العباسي، ومندوب عن الإسماعيلية في إيران، كما حضره سمباط أخو هيثوم أمير الأرمن في كيليكيا، والمبشر المسيحي (جون أوف بلانو كاربيني)، وممثلون عن شمال الصين وجنوبها، وأمراء كوريون، لكن باتو تغيب عن القوريلتاي، وأخفقت محاولاته لمنع حدوث الانتخاب الذي جرى سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، ولقد وصف المبشر المسيحي (كاربيني) هذا القوريلتاي بالتفصيل:

ففي وسط السهل حيث جرى الانتخاب، نصبت خيمة هائلة للانتخاب، حيث تجمع النبلاء والأعيان، وتجمعت حول هذه الخيمة، وعلى مدى البصر قبائل الأمة المغولية، التي كانت تتوق للمشاركة بكل حب واستطلاع واهتمام في مشاهدة مثل هذه المناظر مع الانتخاب الحقيقي، كما تجمعت مواكب السفارات الأجنبية، التي كانت تحضر في مثل هذه المناسبات، والتي كانت دليلاً في نظرهم على تفوق الأمة المغولية، وهذا أيضاً كان انطباع كيوك وتفسيره لحضور المبشر كاربيني، فقد اعتقد أن البابا والملك لويس التاسع ملك فرنسا، كانا يتوقان لوضع نفسيهما تحت حمايته وسلطته، ويظهر هذا الاعتقاد بوضوح في الجواب الذي سلمه كيوك إلى بعثة البابا [١].

انتُخب كيوك خاناً للمغول، وجلس على العرش، واستمر الاحتفال مدة أسبوع.

كان كيوك خان بخلاف أبيه، رجل حرب مثل جده جنكيز خان، وبدأ بتجهيز الجيوش لمتابعة أعمال التوسع، أما هو فقد قرر إخضاع باتو المتمرد لطاعته، وأنذر الأمر عن صدامٍ مسلح، غير أن المنية عاجلت كيوك خان في

---

(١) إن رسالة كيوك إلى البابا محفوظة في أرشيف الفاتيكان.

سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، فقد كان مدمناً شرب الخمر بإسراف، أما والدته تورجين فكانت قد توفيت قبله بعدة أشهر، وانتهت بموته كل نزعات الخصام.

وطبقاً لعادات المغول قام بمهام الإمبراطورية زوجته «أوغول جايميش» ريثما يتم انتخاب خان جديد، ومرة أخرى حاولت أرملة الإمبراطور تنصيب ولدها «شيرامون»، لكن محاولاتها كانت مخفقة، فأغلب الأمراء نظروا إلى منكو بن تولوي بن جنكيز خان، الذي توفرت به الصفات التي تؤهله لشغل هذا المنصب، ولا سيما أنه تمتع بتأييد كبير من قبل باتو، الذي غدا أكبر أبناء بيت جنكيز خان سناً، فمنكو هذا كان قد حارب مع باتو للاستيلاء على روسيا وممالك شرق أوروبا، وكان بينهما مودة وصداقة وتفاهم واتفاق في الرأي، وفي القوريلتاي الذي عقد سنة ١٢٥١م تم إعلان منكو خاناً جديداً للمغول، وفي هذه المرة كان باتو راضياً عن نتيجة الانتخابات التي حضرها بنفسه في العاصمة قراقورم.

وأهم صفة ميَّزت منكوخان هي قضية التسامح الديني، فأمه «سرقويتي» امتازت بالعقل، والرجاحة، والتدبير، وعكفت على تربية أولادها تربية قويمة، وكانت مسيحية نسطورية، وتأثر بها ابنها منكو، فصحيح أنه لم يكن مسيحياً، وظل على دين آبائه، إلا أنه تجرد من التعصب الديني، وكان متسامحاً جداً.

عدَّ منكو خان أولى واجباته هي إتمام تنفيذ وصية جنكيز خان الذي نفّذ أوكتاي جزءاً منها، وهي الاستيلاء على العالم، ولذلك سوف يكون هناك حملتان إمبراطوريتان ضخمتان، سوف تتولى الأولى التوجه ضد أسرة السنغ في جنوبي الصين، وأن تمدّ حدود الإمبراطورية في الشرق، وعمد الخان منكو إلى الاحتفاظ

بهذه المهمة لنفسه مع مساعدة أخيه الأصغر قُبلاي، وهكذا انشغل بسلسلة من المعارك طويلة الأمد لم تكن قد انتهت حين مات منكو في أيلول ١٢٥٩م.

أما الحملة الثانية، التي كانت الأضخم والأهم، فهي التي وُجهت إلى الغرب، ليس إلى أوروبا، بل إلى بلاد فارس، ومنها نزولاً إلى بلاد الرافدين، وسورية، وإلى أبواب مصر، وقد عهد بقيادتها إلى أخٍ آخر له، هو هولاكو، وسوف تكون هذه الحملة التي وُجهت نحو الشرق الأوسط الهجوم الأكثر وحشية وتدميراً بين ما قد واجهه الإسلام على الإطلاق.

المقالة السادسة

مشاريع التحالف الأوروبية «الصليبية» - المغولية

قبل الولوج في الحديث المهم عن حملة هولاكو إلى الشرق الأوسط، سنعرّج قليلاً على قضية المحاولات الصليبية للاتصال والتحالف مع المغول للقيام بعمل مشترك ضد المسلمين، فلهذه الغاية أُرسل عدد من السفارات الأوروبية إلى قراقورم، وعرضت على الخان مشاريع التحالف، والتبعية، كما قامت بمهام جاسوسية أيضاً، وعلى ما يبدو من خبر هذه الرحلات أن الأوروبيين كانوا على استعداد لتجاهل مجازر المغول في أوروبا الشرقية، وغض الطرف عنها، في سبيل التحالف معاً ضد المسلمين، فالحرب الصليبية كانت على أشدها في مشرق البحر المتوسط، والصليبيون تواقون للانتقام من المسلمين بسبب ما لحق بهم من ضربات مميتة من قبل صلاح الدين.

- السفارات البابويـــة :

في البداية عدّ الانسحاب المغولي من شرقي أوروبا شيئاً قريباً من المعجزة، مع أنه كان هناك افتراض بأنه كان مجرد استراحة، وأنه لا بد للمغول من أن يعودوا ويكملوا عملهم، وجرى ترويج هذا الرأي من قبل الكنيسة، التي كانت الآن مقتنعة أكثر من أي وقت من الأوقات بأن التتار أدوات الرب المصمم على الانتقام، ولذلك أعادت تسميتهم فدعتهم «مطرقة الرب»، وفي الواقع كان

هناك كثير من الجدل اللاهوتي حول التتار، وحول أصولهم، وغاياتهم، وعن المعنى الأساسي الذي استهدف من هجومهم على أوروبا.

كانت الكنيسة الغربية والبابوية تتعرض لمشاكل خطيرة، فقد كان البابا سيليستاين الرابع مات في ٦٣٩هـ/ أيلول ١٢٤١، وتركت المسيحية الغربية تائهة تتقاذفها الأنواء من دون قائد روحي لمدة عامين آخرين، وبالإضافة إلى التهديد المستمر بتجديد الهجوم من قبل «مطرقة الرب»، جاءت أيضاً أنباء بأن القدس قد سقطت للجيوش الإسلامية بقيادة الناصر داود سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، وأن السلطة المسيحية في الأرض المقدسة بدت ممزقة، وأخيراً جرى انتخاب بابا جديد، هو إينوسنت الرابع Innocent IV في سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣، وتعرض هذا فوراً لهجوم شنه فردريك الثاني على الأراضي البابوية في إيطاليا، ومع الخصومات الداخلية في روما، لا بل حتى مع التهديد بالثورة، خاف إينوسنت على سلامته، فغادر إلى ليون، ومنحت الحماية له من قبل الملك الشاب التقي، ملك فرنسا لويس التاسع، ومن ليون دعا إينوسنت على الفور إلى عقد ما سيعرف باسم المجمع المسكوني الثالث عشر، سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥، وقد أعلن البابا الجديد بأن القضية الأكثر أهمية التي ينبغي التعامل معها ومعالجتها، كانت الأمن المستقبلي للمسيحية، أي كيفية التعامل مع «مطرقة الرب».

وكان إينوسنت الرابع، قاضياً جنوياً قبل انتخابه بابا، فاتخذ خطوات جدية أكثر من تلك التي تبناها معظم البابوات السالفين نحو المشكلة، وقام قبل عام من التوقيت الذي كان مقرراً من قبل لعقد المجمع الكنسي، فدعا إلى ليون جميع الأشخاص ذوي المعرفة، أو التقارير التي من الممكن جمعها من روسيا، وبولندا، وهنغاريا، وعرف من هؤلاء قليلاً عن الممارسات الدينية للمغول، وكثيراً من المعلومات حول طرائقهم بالقتال، ولكن لربما الأكثر أهمية عرف

حقيقة أنهم منحوا احتراماً كبيراً، وحماية مؤكدة موثوق بها إلى السفراء الرسميين، وقرر إينوسنت وهو مسلح بهذه المعلومات، قبل أشهر قليلة من عقد المجمع الكنسي، أن يبعث بعدد من البعثات الاستكشافية، وجرى تكليفهما بالسفر إلى البلاط المغولي حاملة التحيات من العالم المسيحي، مرفقة بدعوة متهورة نوعاً ما، بأن يقبلوا المسيحية، وأن يجري تعميدهم، وكان الأكثر أهمية – على كل حال – أن البعثات زودت بفتات المعلومات حول التتار، وحول نواياهم، وكان من الأهداف الإضافية مدّ الدعوات إلى كنائس الروس الشرقيين، والإغريق الأرثوذكس، والمسيحيين الشرقيين ليتحدوا على هدف واحد ومقصد عام ضد التهديد المغولي، وأن يعودوا في الوقت نفسه إلى صدر كنيسة روما، واختار إينوسنت أن يرسل رهباناً من رهبانيتي: الدومينيكان، والفرانسيسكان اللتين كانتا قد تأسستا حديثاً ليقوموا بمهام بعثته إلى المغول، وكانتا رهبانيتين جديدتين، ومتحمستين كثيراً.

– سفارة الراهب الفرانسيسكاني جون أوف بلانو كاربيني:

كانت سفارة جون أوف بلانو كاربيني John of plano carpini، أولى البعثات التي أرسلها البابا إلى المغول، وكانت بعثته هي البعثة الأكثر صعوبة من سواها، وكانت التعليمات الصادرة إليه، أن يأخذ الطريق عبر البر إلى شرقي روسيا، ثم من هناك إلى البلاط المغولي، وأن يسلم الرسائل إلى الملك المغولي شخصياً.

وفي يوم عيد الفصح ١٦ نيسان عام ١٢٤٥، غادر كاربيني مدينة ليون مع جماعة صغيرة من المرافقين، فساروا عبر بوهيميا، وسيليشيا، وبولاندا إلى كييف، حيث واجهوا أول المعسكرات المغولية، وعن طريق المترجمين أوضح

كاربيني ورفاقه للمغول هدف رحلتهم، فَسُمِحَ لهم بمتابعة المسير إلى معسكر باتـــو.

أثناء مسير كاربيني عبر أوكرانيا في ربيع ٦٤٤هــ/ ١٢٤٦م كانت استعدادات إعلان أوكتاي خاناً على المغول تجري على قدمٍ وساق في قراقورم.

وصل كاربيني إلى ساراي عاصمة باتو التي كانت على ضفاف نهر الفولغا في اليوم الرابع من نيسان عام ١٢٤٦، وبعد لقاءات عديدة مع باتو استمع فيها إلى رسائلهم، قرر وجوب حملها إلى قراقورم لتسليمها للخان هناك.

وانطلق الرسل، في ظل مرافقة، نحو قراقورم العاصمة الأكثر أهمية في العالم، وفي ٢٤ آب كان كاربيني وجماعته، يشهدون حفل تنصيف أوكتاي في سيرا – أوردو Sira-ordu، التي كانت على بعد عن قراقورم، قرب بحيرة كوكو – نور Koku nor، وقدم كاربيني وصفاً رائعاً لمظاهر الاحتفال.

سجل كاربيني ملاحظات دقيقة حول المغول، وحول طريقهم في الحياة، عارفاً بأن تقريره إلى البابا سوف يكون الآن أكثر حيوية، وأوقف مساحة كبيرة على وصف الممارسات الدينية لدى المغول، وعلى صنعهم وعبادتهم للأصنام اللبادية، ولا سيما تماثيل جنكيز خان، وتحدث عن التضحية بالخيول، وعن أشياء كثيرة أخرى، وقد وصف باختصار بعض الطقوس الشامانية، وعبادة «تنجري» الإله السماوي الأبدي، أو رب السماء.

وبالنسبة لمهمته في تحويل المغول إلى المسيحية، يبدو أنه توصل إلى قناعة في أن أي جهد يُبذل في هذا المجال سوف يكون سابق لأوانه.

وعلى العموم إن القسم الأكثر أهمية في رواية كاربيني، هو وصفه للجيش المغولي، في بنائه العشراوي، وانضباطه، وطرق قتاله، وهو وصف صحيح،

ومن بعض الجوانب هو صورة مفصلة لآلة القتال الحديثة، وهو قد أنهى هذا الجزء بوساطة تأكيد أن الأمل الوحيد أمام أوروبا في مواجهة هذا التهديد المخيف هو الاتحاد في هدف واحد، حيث قال: «وبناءً عليه إنه إذا ما رغب المسيحيون في إنقاذ أنفسهم، وبلادهم، والمسيحية، عندها على الملوك، والأمراء، والبارونات، وحكام البلدان الاجتماع والاتحاد مع بعضهم بعضاً، وأن يرسلوا بموافقة عامة رجالاً للقتال ضد التتار قبل أن يشرعوا بالانتشار فوق الأرض».

وفي تشرين الثاني عقدت سلسلة من المقابلات لكاربيني مع كيوك خان، وقرئت في هذه المناسبات محتويات الرسائل البابوية التي وجه فيها الملامة الشديدة للخان المغولي من أجل الدمار الكبير الذي أحدثته جيوشه في أوروبا المسيحية، وقد التمس منه التأكيد والضمانة بأن هذه الحملات سوف تتوقف، وعرض عليه وعلى شعبه منحه التعميد.

كانت أجوبة كيوك خان واضحة، فبالنسبة لشكوى البابا حول الدمار الذي أنزله المغول بأوربا، جاء جواب كيوك ليؤكد أن الرب تنجري «أي السماء الخالدة» هو الذي أباد هذه الشعوب «لأنهم لم يطيعوا لا جنكيز خان، ولا الخاقان [أوكتاي]، اللذان بعثا لنشر المعرفة بأوامر الرب»، أي أن الخان يمتلك بوضوح التفويض من السماء، وهذا سبب النجاحات المدهشة التي تمتعت بها الجيوش المغولية.

وفيما يتعلق بطلب البابا بأن يقبل المغول التعميد، أجابه كيوك قائلاً: «أنت، الذي هو البابا العظيم عليك وعلى جميع الأمراء معك القدوم شخصياً لخدمتنا»... ثم هدده بالعقاب، وأنه سوف يتعامل معه كعدو إن خالف أوامره، وهكذا رأى

الخانات العظام في أنفسهم؛ كممثلين للرب على الأرض، قد جرى تكليفهم من قبل الرب بقهر العالم، وعلى كل دولة وأمة إما الخضوع، وإما التعرض للدمار.

وفي ١٣ تشرين الثاني عام ١٢٤٦، غادر كاربيني وجماعته أخيراً مدينة سيرا – أردو ليشرعوا بالرحلة الطويلة إلى الوطن، فوصلوا إلى معسكر باتو في أوائل أيار من العام التالي، ومنحهم باتو أمان مرور إلى كييف، حيث جرى استقبالهم «وكأننا قد بعثنا عائدين من الموت»، ثم غادروا بعد مضي ستة عشر شهراً.

بعد عام من مغادرة كاربيني لسيرا – أوردو، (المخيم الذي جرى فيه انتخاب كيوك خان) انتهت ملحمة الرحلة أخيراً، ووصل إلى ليون في ١٨ تشرين الثاني عام ١٢٤٧، أي بعد مضي قرابة العامين ونصف العام من مغادرته لتلك المدينة، وحياه إينوسنت الرابع بحرارة، وكان مسروراً بالتقارير المشجعة بأن المسيحيين الشرقيين أو النساطرة كانوا قد استعدوا للاعتراف به بمثابة «مولاهم الخاص وأبيهم، وأن الكنيسة الرومانية كسيدة ومعلمة»، لكن رسائل كيوك إلى البابا جعلته أقل تفاؤلاً، وحسب رأي كاربيني كان على أوربا أن تستعد لمواجهة الأسوأ، وأن أمامها فرصة إنقاذ مؤقت بسبب الصراع الذي استحكم بين باتو، وكيوك خان، وهو صراع ربما قد يؤجل، أو يصرف المغول جانباً عن تجديد زحفهم في الغرب.

وقبل البلاط البابوي هذه الأخبار الكئيبة، وكانت أفضل قطعة من الأخبار، التي وقف الإنسان عليها هي وصف كاربيني للنفوذ القوي الذي تمتع به المسيحيون الشرقيون في البلاط المغولي، ومع التمسك بهذه القشة، مضى كاربيني أبعد بكثير لأن يتوقع بأن كيوك سوف يتحول في يوم ما إلى المسيحية،

وعلى العموم كان الحال في الواقع باعثاً على الأسى، هذا في وقت أصبحت فيه أوربا سيئة جداً بسبب الخلافات والانشقاقات والحروب.

- سفارة الراهب الدومينيكاني لونغجوميو:

في الوقت الذي التقت فيه سفارة كاربيني أول أمير مغولي في أوكرانيا، كان الدومينيكان قد ساروا ببطء من مشرق البحر المتوسط نحو أماكن الاستقرار المغولية في شمالي بلاد الرافدين، فقد سافر الفرنسي أندرو أوف لونغجوميو Andrew Longjumeaeu يرافقه فرنسي آخر من رهبنته خلال سورية ليصلا إلى مركز مغولي متقدم، فوصلا إلى إرمينية، التي كانت تحت إشراف حاكم مغولي عسكري اسمه بايجو Baiju.

وفي أثناء سفر الراهبين الدومينيكانيين، وشقهما طريقهما في أراضي بايجو، تواجها مع عدد من الجماعات المسيحية، وأخيراً مع أسقف المنطقة، سمعان ربان - عطا، الذي جرى تعيينه من قبل أوكتاي خان بالذات، واكتشف أندرو بأن المسيحيين الشرقيين يتمتعون بعدد كبير جداً من الامتيازات في ظل المغول، ومن ثم كانوا مزدهرين، وكان سمعان قد بنى كثيراً من الكنائس الجديدة،[١] وكان الإيمان المسيحي ينتشر فيما وراء شمالي بلاد فارس، إلى غربي آسيا التي كانت تحت السيطرة المغولية.

---

(١) انتشرت في بلاد فارس وغيرها من الأراضي الخاضعة للمغول، المسيحية على المذهب النسطوري، وهذا المذهب يُنسب إلى القديس الإغريقي نسطور، الذي كان قد أُدين كهرطقي خارج عن تعاليم الكنيسة في روما منذ سنة ٤٣١م، لأنه نفذ تعاليم لاهوتية تختلف عن رؤية الكنيسة الغربية في روما، ومن ثم عُدَّ المسيحيون الشرقيون مستقلين تماماً عن المسيحية الغربية، وتابعت المسيحية الشرقية التطور في طريقها الخاص، مثل: رفض عزوبية رجال الكهنوت، وعبر العصور أصبح النساطرة أطباء لهم شهرة واسعة=

- **سفارة أسيلينوس :**

أثناء ذلك، كان هناك راهب دومينكاني آخر اسمه أسيلينوس Ascelinus اللومباردي، آخذ طريقه خلال شرق البحر المتوسط، يسير على الطريق الذي أخذه من قبل أندرو أوف لونغجوميو، في البحث عن معسكر باتو، وبخلاف أندرو تمكن الراهب أسيلينوس من الحصول على توجيهات جيدة، فوصل إلى معسكر الحاكم العسكري في سجستان، في أعالي أراضي قراباغ في أيار عام ١٢٤٧م.

ومهما كانت مؤهلات أسيلينوس من أجل هذه المهمة، فهو لم يكن موهوباً ولا دبلوماسياً، فقد طلب إليه الانحناء الإجباري للاحترام والجثو ثلاث مرات على ركبته اليسرى، فرفض بإصرار، كما أنه لم يجلب معه الهدايا المعتادة، حتى يعترف به كسفير جاد حقيقي، ثم إن أسيلينوس أشار إلى البابا على أنه «الأعظم بين جميع الناس»، وطلب إلى بايجو وأتباعه جميعاً وجوب أن يصبحوا مسيحيين، ورد بايجو، فوجه إلى أسيلينوس ملامة قاسية قائلاً: «أنت طلبت إلينا أن نصبح مسيحيين، وأن نصبح بذلك كلاباً مثلكم؟»، وحكم بايجو على الرهبان بالموت، وخطط لسلخهم وهم أحياء، ثم إرسال جلودهم وقد حشيت بالتبن إلى روما، ونجا الرهبان فقط من خلال وساطة زوجة بايجو، التي أصرت على أن يظهر زوجها الاحترام المغولي المعتاد نحو رجال الكهنوت، وأثناء ذلك جاءت

= بسبب العلوم والمعارف التي جمعوها من العرب، وبُنيت كنائس لهم في مرو، ونيسابور، وبخارى، وسمرقند، وهراة، وأخيراً انتشرت عقيدتهم ووصلت إلى الخيالة البداة في السهوب، وكان الأونغوت، والكيريت، والإيغور، متحولين إلى المسيحية وقد امتلكت المسيحية الشرقية طبيعة مستقلة، فلغتها لم تكن لا إغريقية، ولا لاتينية، بل آرامية، قد قيل إنها كانت اللغة التي تكلم بها يسوع، وكتابتها هي السريانية، أو الآرامية السورية.

الرسل من قراقورم بعزل بايجو وتعيين قائد جديد هو إيلجيدي، ثم عاد أسيلينوس يحمل إلى البابا رسائل مشابهة لتلك التي أرسلها كيوك خان مع كاربيني.

- سفارة لويس التاسع إلى المغول:

في المجمع الكنسي الذي عقد سنة ١٢٤٥م في مدينة ليون تقرر الآتي:

١- التعامل مع المغول كقوة بشرية غازية تخريبية يجب التصدي لها عسكرياً، وليس «كمطرقة للرب»، أي عقاب إلهي.

٢- إرسال حملة صليبية إلى الأرض المقدسة في فلسطين لإنقاذ الصليبيين هناك على إثر تحرير القدس من قبل الخوارزمية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م.

بالنسبة للقرار الثاني جرى تكليف الملك الفرنسي الشاب لويس التاسع (التقي) بقيادة حملة صليبية إلى الشرق، فبدأ إعدادها بنفسه، أما القرار الأول فقد كانت إستراتيجية البابا في تنفيذه تعتمد أولاً على محاولة جذب الكنائس الشرقية إلى تحالف مسيحي عام ضد المغول، لكن هذه الخطط وضعت جانباً بعد أن تفجر صراع طويل بين الإمبراطور فردريك الثاني والبابا إينوسنت الرابع، وانتشر القتال من إيطاليا إلى ألمانيا وهدد بإلهاب وسط أوربا.

في آب ١٢٤٨م أقلع لويس التاسع مبحراً إلى قبرص، وقد أمضى ثلاثة أعوام قبل ذلك في الاستعداد، وأخذ معه كثيراً ممن لديهم خبرة حول الشرق الأوسط، بما في ذلك أندرو أوف لونغجوميو، وترك خلفه أوروبا تعصف فيها الصراعات الداخلية، تركها متجهاً إلى مصر، وهو غير مدرك تماماً أن مصر أصبحت تحتوي على حضور عسكري جديد وقوي هم المماليك.

جعل لويس قاعدته الأولى في ليماسول بقبرص، وهناك استقبل رسولين من القائد العسكري إيلجيدي، الذي كان الحاكم العسكري المغولي الجديد لشمالي

بلاد فارس، وكان سفيرا إيلجيدي نسطوريين بارعين اسمهما: داود، ومرقص، واحد منهما عرفه أندرو وتذكره من أيام رحلاته القديمة خلال جورجيا، وهما حملا رسالة من إيلجيدي الذي ادعى فيها: **بأنه كلف من قبل الخان الكبير حماية المسيحيين في غربي آسيا، وإعادة بناء كنائسهم، وهو يصلي من أجل نجاح صليبية لويس، ومضت الرسائل ووصلت مستطردة إلى الادعاء بأن الخان الكبير قد جرى حديثاً تعميده، وأن إيلجيدي قد اتبع طريق سيده، وأوصل الرسولان رسالة سرية إلى لويس، ادعيا بأن إيلجيدي لم يتجرأ على وضعها على الورق، وكانت تتضمن اقتراحاً من أجل تحالف عسكري.**

وتبعاً لداود، ومرقص، كان إيلجيدي يعد جيوشه من أجل هجوم شتوي على بغداد، وإذا كان ملك فرنسا على استعداد لتنسيق خطط هجومه على مصر، وجعله في الوقت نفسه، فعند ذلك سوف تكون القوتان الإسلاميتان الكبيرتان: سلطنة مصر، وخلافة بغداد، غير قادرتين على القيام بمساعدة إحداهن الأخرى، ومضى إيلجيدي في كذبه أبعد من هذا إذ اقترح أنه بعد ذلك ينبغي لجيشيهما المنفصلين أن يتحدا، ويقوما بالتعاون فيما بينهما بتحرير الأرض المقدسة.

طبعاً بالنسبة إلى الملك الفرنسي الشاب، كانت هذه أخباراً رائعة، فأرسل على الفور إلى البابا يخبره بذلك، ثم صاغ على وجه السرعة رسائل منفصلة إلى كيوك خان، وإيلجيدي، أثنا فيها على قرارهما بالتحول إلى المسيحية، وعرضهما تقديم المساعدة في الحرب ضد الإسلام، كما أرسل إليهما هدية عبارة عن بيعة متحركة مع التزيينات وجميع الوسائل والأدوات الضرورية لإقامة قداس، وذلك بالإضافة إلى قطع صغيرة يُقال أنها من الصليب الحقيقي، وكلف لويس التاسع «أندرو أوف لونغجوميو» بحمل هذه الهدايا والرسائل، مع رسائل سرية حول الحملة المقبلة.

لقد كان لويس التاسع ساذجاً إلى أبعد الحدود، ويوضح رده على رسالة «داود، ومرقص» كيف كانت أوربا يائسة، على نحوٍ دفعها لتصديق الرسل في قضية تحول المغول إلى المسيحية، وفي الحقيقة إن النفوذ المسيحي في البلاط المغولي معروف جيداً، كما هو معروف بأن كيوك لم يعتنق المسيحية لا هو ولا حتى بلاطه، وكان سفيرا إيلجيدي من أكثر الرجال براعة في الخداع، وقد نفذا خداعهما برباطة جأش كبيرة.

فالتجسس كان جانباً جوهرياً في الخطط العسكرية المغولية، وقد ضمن لهم نجاحاً منقطع النظير، فمهمة الرسولين «داود، ومرقص» هي مهمة تجسسية بحتة، وهذا يمكن معرفته من سياق الأحداث.

فلما كان أسيلينوس وجماعته مسجونين في معسكر بايجو، وصل إيلجيدي ليتولى القيادة مكان بايجو، وأثناء ذلك جرى استجواب أسيلينوس بدقة –قبل إطلاق سراحه– حول إشاعات بأن الأوربيين كانوا يعدون العدة لشن حملة جديدة للاستيلاء على القدس التي تم تحريرها مؤخراً من قبل الناصر داود، وعليه: إذا كانت هذه الأخبار صحيحة، فإن المنافع سوف تكون كبيرة بالنسبة للقائد المغولي إيلجيدي، والسؤال كيف ذلك؟

الخطة بسيطة، لكنها ذكية، فالخلافة العباسية في بغداد غدت هي القوة الأخيرة المهمة التي يمكن أن تقف في طريق الطموحات المغولية في بلاد فارس، ولربما إذا هاجمها المغول سوف تحدث استجابة إسلامية موحدة لإنقاذ الخلافة، سوف تأتي النجدات من مصر بشكل رئيس، لأن بلاد الشام مشغولة مع الصليبيين، وهنا جاءت مهمة داود ومرقص التجسسية للتأكد من صحة الحملة الصليبية، ومتى سوف تصبح الجيوش المصرية مشغولة بالتصدي لهذه الحملة، عندئذ سوف يهاجم بغداد وهو يعلم جيداً أنه لن تأتيها أي نجدات من مصر.

المهم أن أندرو أبحر مع ستة رهبان آخرين ومعهم البيعة المتحركة، في أواخر كانون الثاني عام ١٢٤٩، مع الوقت الذي وصلوا فيه إلى معسكر إيلجيدي في الربيع، كان لويس وجيشه ينزلون في مصر كما كان الاتفاق، ولم يهاجم إيلجيدي بغداد، لا بل حتى لم يستنفر قواته، لأن موازين القوى في قراقورم تبدلت مرة أخرى بعد وفاة كيوك خان، والصراع الذي حدث على منصب الخانية بين أوغول – غايميش أرملة كيوك خان التي تسعى لتنصيب ابنها شيرمون، وبين منكو.

في ظل هذه الظروف، قرر إيلجيدي – المعين من قبل كيوك – أنه ليس من الحكمة القيام بحملة جديدة إلى أن تصبح نتيجة الانتخابات المقبلة معروفة، ثم قام بإرسال أندرو سفير لويس التاسع، ومعه «البيعة المتحركة» إلى معسكر أوغول – غايميش، وعلى سذاجتهم توقع أندرو ورفاقه أنه سوف يُرحب بهم في مملكة مسيحية، وأن يعاملوا كحلفاء، لكن فوجئوا حيث جرى استقبالهم كرسل سيد تابع للمغول، واستلمت أوغول – غايميش البيعة على أنها جزية من المسيحيين الغربيين، كما عُدت كبرهان على خضوعهم للمغول، وأُعيد أندرو وهو يحمل رسالة إلى الملك لويس التاسع تفرض عليه أن يعود في كل عام مع جزية من الذهب والفضة، وأنه إذا لم يفعل سوف يجري تدميره.

ولقد تبرهن من جميع الجوانب أن المغامرة كانت مأساوية، ففي أثناء مسير أندرو ورفاقه إلى البلاط المغولي كان لويس التاسع قد هاجم مصر وهو مقتنع تماماً حسب تقديره أن جيوش إيلجيدي تحاصر في تلك الأوقات بغداد، لكن حملته أخفقت، ونزلت به هزائم ساحقة في المنصورة وفارسكور، ثم وقع في أسر المصريين، ولم يُطلق إلا بعد أن دفع فدية كبيرة، فسار مع ما تبقى من جيشه إلى أراضي الصليبيين في ساحل الشام.

وفي نيسان عام ١٢٥١ رجع أندرو لونغجوميو من منغوليا، ليُستقبل من قبل ملكه في قيسارية قرب عكا، وتبعاً لجوانفيل صاحب سيرة لويس، أصيب هذا الملك بالرعب بسبب رسالة أوغول – غايميش، وبسبب كذب المغول.

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه أندرو آخذاً طريق العودة إلى فلسطين كانت مسألة الوصول إلى عرش الخان الكبير قد حلت، وفي اليوم الأول من تموز عام ١٢٥١، تم انتخاب منكو خاناً للمغول.

– سفارة وليم روبروك (سفارة تجسسية تبشيرية):

مع اعتلاء منكو للعرش الإمبراطوري، صارت الإمبراطورية مرة أخرى في أيدي توسعيين، وبدأت مساعي منكوخان الداخلية والخارجية للنهوض بالإمبراطورية، وخلال ذلك ناضل البابا ومستشاروه لمعرفة نوايا المغول، ذلك أن تجربة لويس كانت درساً مريراً، لكن هذا لم يكن معناه نهاية الاتصال الأوروبي مع البلاط المغولي، فقد كان بين بطانة الملك لويس راهب فلمنكي شاب، كان اسمه وليم، وهو من بلدة روبروك الفرنسية Rubruck، قام بمهمة إلى قراقورم قبيل تسيير حملة هولاكو.

شجع لويس التاسع روبروك، على المضي في سفارته، وأصر على عدم إيضاح مهمته، خشية أن يسيء المغول فهم حضوره، على أنه إشارة إلى خضوع لويس للخان العظيم، كما منحه رسالة توصية إلى الأمير سرتق أحد أبناء باتو خان، والذي كان متحولاً حديثاً للمسيحية، ومع التوصية طلب بمنح الراهب جواز أمان مرور، لكي ينجز مهمته.

أقلع روبروك من عكا في بداية عام ١٢٥٣، وبرفقته عدد من الرهبان، ساروا عن طريق القسطنطينية، عبر البحر الأسود، ومن ثم إلى داخل الأراضي المغولية، وقد وصلوا في تموز إلى معسكر سرتق، ثم إنهم أرسلوا إلى معسكر

باتو، الذي كان على بعد رحلة ثلاثة أيام،وهو أيضاً أرسل المجموعة إلى مقر الخان المغولي الكبير في قراقورم.

واحتاج روبروك إلى ثلاثة أشهر ونصف الشهر إلى أن وصل إلى هناك، وقد دوّن في تلك الأثناء ملاحظات حول سمات الأرض والناس، الذين شاهدهم على امتداد الطريق، ولذلك غدت روايته ذات التفاصيل القصوى حول آسيا الوسطى، هي أفضل سجل عمله أي أوروبي، وكان شديد الإعجاب والدهشة تجاه عادات وعقائد جميع الناس الذين التقاهم، وكان دوماً يسأل ويتقصى حول أماكن وجود وسمات المخلوقات المخيفة، والمخلوقات الغريبة الأخرى، الذين كان من المفترض سكناها في تلك البلاد، وكان الراهب دوماً مندهشاً لعدم عثوره على بينة أو شاهد حول هذه الكائنات في أي مكان.

ووصلوا إلى معسكر منكو، وذلك على بعد أميال قليلة إلى الغرب من قراقورم، وعلى الفور تقريباً منح الراهب مقابلة مع الخان الكبير، لكن المغول لم يقتنعوا بأن روبروك يريد بكل بساطة أن يعيش في البلاط، وأن يبشر بالإنجيل فقط، وكانوا متشككين بنواياهم، وطبيعة مهمتهم، ولذلك كان وليم وجماعته خلال الشهرين التاليين عرضة للاستجواب من وزراء الخان الكبير، الذين لم يقتنعوا تماماً بالتفاسير التي قدموها، ومن جهة أخرى، عامل منكو ضيوفه بلطف كبير، ومنحهم عدداً كبيراً من المقابلات، وأصغى باهتمام لقداسات وليم ومواعظه.

وفي بداية نيسان ١٢٥٤م نقل الخان الكبير بلاطه إلى قراقورم، وتبعه روبروك وجماعته، وبذلك كانوا أول أوروبيين يزورون عاصمة أوسع إمبراطورية شهدها العالم.

أخفق روبروك في مهمته التبشيرية التي أراد منها تحويل المغول إلى المسيحية، ونجح فقط في تحويل نسطوري واحد إلى كنيسة روما، وعمّد ستة أطفال آخرين، ذلك لأن عرضه لأفكاره جاء بطريقة تعصبية نفرّت منه حتى

الجماعات المسيحية، ولما هدد الخان منكو بالعذاب المخلد إن لم يتعمد، رد عليه الخان بحكمة الرجل العاقل قائلاً:

«تقوم الحاضنة في البداية بتنقيط نقاط من الحليب في فم الرضيع، وبعدما يتذوق حلاوتهم يثار فيقتنع بالرضاعة، وعند ذلك فقط يعطى الثدي من قبلها، فوفق الطريق نفسها ينبغي لك إقناعنا، نحن الذين كما تدعي لا نعرف شيئاً على الإطلاق عن هذه العقيدة، وأن تعتمد على الطرق السهلة والعقلانية، وذلك عوضاً عن تهديدك إيانا بعذاب أبدي».

ولما أخفق روبروك في عمله التبشيري، تخلى عنه، وكرَّس نفسه للجانب الثاني من مهمته، وهو جمع معلومات استخبارية لصالح الملك لويس.

وكذلك الأمر أخفق روبروك مرة أخرى، وباستثناء بعض الملاحظات الثمينة حول حياة المغول، لم يستطع روبروك أن يعرف سوى القليل حول السياسات المغولية أو خططهم التي كانوا متحفظين عليها، وعرف فقط أنه في القوريلتاي الذي انعقد في العام ١٢٥٢، قرر منكو إرسال حملتين، واحدة إلى الصين، وأخرى منفصلة إلى بلاد فارس وسورية، تكون أكبر، وتمضي «بعيداً إلى حدود مصر»، على أن يقودها أخوه الأصغر هولاكو.

وأثناء تجمع هذه الحملة في سمرقند استعداداً للمسير عاد روبروك أدراجه إلى الوطن، فأعطاه منكو رسالة إلى لويس، كرر فيها ما جاء في الرسائل الديبلوماسية التي أرسلت من قبل، وفيها وصف منكو تصوره لعالم موحد «من مشرق الشمس إلى مغربها» تحت الحكم المغولي، كما حث لويس على إرسال سفراء للسلام، وكانت الرسالة مسالمة أكثر من غيرها، ولم يطلب فيها إرسال الجزية كما فعل غيره.

وأخّر روبروك مغادرته بقدر ما استطاع، على أمل أن يتمكن من لمح شارة أوضح حول الميول المغولية نحو أوروبا، لكنه مع بداية تموز قرر

المغادرة بعد أن تعب من الانتظار، وكان يعلم أن هيثوم ملك الأرمن في طريه إلى قراقورم لمقابلة الخان.

وبعد رحيله بقليل وصل الملك الأرميني هيثوم الأول، وكانت سفارته أكثر السفارات الصليبية إنتاجاً وأهمية، فقد حقق فيها - كما سنبين - ما كان يصبوا له ملوك أوروبا.

ولو أنه أتيح لروبروك اللقاء بالملك هيثوم، لربما كان قد قدم تقريراً مختلفاً تماماً إلى لويس، ومع ذلك كان تقريره رواية مزعجة أخرى حول عناد المغول وتصلبهم، ولقد كانت بعثته كعمل إنجيلي تبشيري، وكتجسس، مخفقة، لكنه أكد - على كل حال - بأن جيشاً كبيراً جداً، كان يزحف آنذاك ضد بلاد فارس وسورية، ولكنه لم يتقدم بأيّ توصيات للتحالف، ولقد كان لتقرير روبروك تأثيرٌ هائلٌ ليس فقط في الملك الفرنسي، بل في جميع بقية البلاطات الملكية في أوروبا، وقد وجه ضربة أخرى إلى بريسترجون[1]، والأهم من ذلك أنه كان غير

---

(١) تقوم أسطورة بريسترجون على أنه هناك ملكاً مسيحياً وكاهناً في أقصى الشرق اسمه بريسترجون، وهذا الملك مع عشيرته يدينون بالمسيحية النسطورية، وقد حقق انتصارات على السلاجقة، وهو مستعد لتقديم العون للكنيسة لتحرير القدس، وعليه أُوفد عدد من السفارات إلى الشرق لهذه الغاية، كان هذا أيام ظهور المغول، وقبل ذلك كانت الميول والاعتقادات أن بريسترجون موجوداً في أثيوبيا، هم قالوا ذلك على خلفية الصراع مع مصر ونور الدين وصلاح الدين، وحاجتهم لمساعدة تأتي من جنوب مصر، لذلك نرى أيام الحملة الصليبية الخامسة على دمياط أن شاعت حكايات بانتصار ملك أثيوبيا على المسلمين، وأنه احتل مكة المكرمة، وهددوا مراراً بقطع النيل عن مصر، ولما ظهر المغول واجتاحوا أراضي المسلمين، وأوربا الشرقية عادوا فتوجهوا بأنظارهم إلى الشرق، وعلى هذا الأساس أرسلوا عدد من السفارات، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مدى تعلق الصليبيين بالخرافات، وجهلهم بجغرافية البلدان.

مشجع على الإطلاق ومثبط لهم، فهم كانوا لا يزالون يتصورون إمكانية صنع تحالف مع الملك المسيحي الكبير ضد الأمم الإسلامية.

- السفارات الأرمينيـــة :

تمكن الأرمن الذين هُجروا من بلادهم بسبب الاجتياح السلجوقي لأرمينية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، من تأسيس إمارات لهم في جبال طوروس، وكيليكيا المطلة على المتوسط، وتطورت هذه الإمارات إلى أن أصبحت مملكة بفعل الدعم البابوي والأوربي، عُرفت باسم إرمينية الصغرى لتمييزها من إرمينية الموطن الأصلي للأرمن، وقدَّم هؤلاء الأرمن مساعدات كبيرة ومهمة للصليبيين القادمين في الحملة الأولى وما تلاها، وكان الأرمن على الدوام معرضين في كيليكيا إلى مخاطر عدة من جيرانهم المسلمين «السلاجقة»، والبيزنطيين، وحتى الصليبيين حلفاء الأمس، وهنا بات على أرمن كيليكيا البحث عن حليف جديد، وهناك حقيقة يجب ذكرها هي: أن مملكة إرمينية الصغرى خلال تاريخها الذي امتد قرابة مئتي عام كانت دائمة الحرص على التمسك بحليف خارجي يبسط عليها الحماية، لأنها كانت عاجزة عن الاستمرار بحياتها وسط أسد المغول، ونمر المماليك، وذئب الأتراك، وأفعى قراصنة البحر - حسب تعبير المؤرخ سانوتو - [١].

في هذه الحقبة اعتلى هيثوم الأول عرش مملكة أرمينية الصغرى سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، بعد صراعات طويلة، ووجد هيثوم الأول ضالته عند المغول، ورأى بهم قوة لا يمكن مجاراتها، ولا سبيل لمقاومتها، ولا سيما بعد الهزيمة المنكرة التي أنزلها القائد المغولي بايجو بسلاجقة الروم في معركة كوساداغ بالقرب من أرزنجان سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م، عندئذ قرر هيثوم الأول التقرب

---

(١) سانوتو: كتاب الأسرار، الموسوعة الشاملة، ٣٨/ ٩٢.

إليهم بعد أن أصبح سلاجقة الروم خاضعين لهم، فأرسل في سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م سفارة إلى كيوك خان، واختار لهذه المهمة أخاه سمباط، فحضر هذا قوريلتاي سنة ١٢٤٦م، وأعلن أمام الخان خضوع الأرمن للمغول، وكان قد حمل معه الجزية، فاستقبله استقبالاً جيداً، ورجع وهو محمل بالهدايا مع إعفاء الأرمن من الجزية(١).

ولما توفي كيوك خان سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٨م، واعتلى عرش المغول من بعده منكو، قرر هيثوم الأول أن يقوم برحلة إلى البلاط المغولي لتقديم فروض الولاء والطاعة للخان الجديد والحصول على الحماية المغولية، وفعلاً خرج في سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٣م من بلاده باتجاه الشرق لزيارة منكوخان، وبعد أشهرٍ قليلة من مغادرة وليم روبروك وصل الملك هيثوم إلى قراقورم، ولما وصل اسْتُقْبِلَ بحفاوة وابتهاج.

وبعدما سمع هيثوم بالحملة المخطط لها أدرك على الفور بأن حرباً شاملة ضد القوى الإسلامية الأساسية، سوف تكون لها منافع هائلة لمسيحية آسيا، فأمضى خمسين يوماً في العاصمة المغولية، أقنع خلالها الخان الكبير بأن الحملة سوف تجد حلفاء مؤكدين في فلسطين إذا ما أعلن أو أوضح بأن حملة هولاكو لن تكون شيئاً أدنى من كونها حملة صليبية مسيحية، ثم عاد هيثوم مع مرسوم إمبراطوري «يرليغ» قضى بتحرير الكنائس المسيحية وإعفائها في جميع أرجاء الإمبراطورية، وفي المناطق التي يتم الاستيلاء عليها بعد، وقد عاد إلى إرمينية، وعمل الاستعدادات ليلتحق بقوة هولاكو.

---

(١) سمباط هو صاحب التاريخ المشهور الذي وضعه عن تاريخ مملكة إرمينية الصغرى، وقد تمت ترجمته في الموسوعة الشاملة، وقد تحدث غريغوري في تاريخ أمة الرماة عن هذه السفارة، ص٤٠٨ – ٤٠٩.

حقق الملك الأرميني في هذه الزيارة ما يصبو إليه كل ملوك الغرب الأوروبي، إذ تقدم هيثوم الأول للخان المغولي منكوخان بسبعة مطالب هي:

- يعتنق الخان وشعبه المسيحية ليسود السلام بين المغول والمسيحيين.
- يرد المغول كل الأراضي التي استولوا عليها من البلاد المسيحية.
- إسهام المغول في تحرير الأراضي المقدسة من المسلمين وردها إلى المسيحيين.
- مسير المغول إلى العراق لتدمير بغداد والقضاء على الخلافة العباسية.
- حصول الأرمن على المساعدة المغولية فور طلبها.
- يرد المغول كل الأراضي التي سيطروا عليها وهي بالأصل للأرمن، أو الأراضي الأرمينية التي استولى عليها المسلمون أيضاً.
- أن يكون لهيثوم الحق في الاحتفاظ بكل ما يغنمه من أراضي المسلمين دون أن يعارضه المغول في ذلك.

وحسب رواية المؤرخ الأرميني هايتون في كتابه زهرة تواريخ الشرق استجاب منكوخان لكل طلبات هيثوم الأول[١]، لكن يبقى هذا الكلام مبالغة لأن منكو خان لم يعتنق المسيحية، بل بقي على الديانة الشامانية، وكذلك شعبه.

وبعد ذلك أصبح الأرمن حلفاء المغول في المنطقة، وسار خلفاء هيثوم على مسيره، وشارك الجيش الأرميني بكل العمليات التي قام بها الجيش المغولي ضد المسلمين منذ سقوط بغداد، وقد ترك هذا العمل أثراً سيئاً في قلوب المسلمين، بشكل جعل العمري يصف الأرمن آنذاك بأنهم «أخبث عدو للإسلام»[٢].

---

(١)Hayton: La flor. P. 167.

(٢) التعريف بالمصطلح الشريف، ص٨٢.

لقد ظهر التقارب المغولي الأرميني واضحاً خلال العمليات العسكرية التي نفذها الجيش المغولي بقيادة هولاكو في بلاد الشام والعراق، إذ كان العنصر الأرميني أو المشاركة الأرمينية بارزة واضحة منذ حصار المغول لبغداد، بل أكثر من ذلك، وحسب ما ذكر مؤرخو الأرمن، فإن الحملة المغولية على حلب أُقِرَّت بعد لقاءٍ ضم هولاكو وهيثوم الأول، أشار فيه هيثوم على هولاكو بالتوجه نحو حلب لأنها المفتاح الرئيسي لبلاد الشام(١)، ولكن يبقى هذا الكلام من مبالغات مؤرخي الأرمن، لأن اجتياح بلاد الشام كان مقرراً ضمن أولويات الحملة التي كُلِّفَها هولاكو.

على كل حال كانت هذه أهم السفارات ومشاريع التحالف الصليبي المغولي قبل سقوط بغداد ومعركة عين جالوت، ويبقى الحديث عن السفارات ومشاريع التحالف بعد عين جالوت هو خارج نطاق هذا المقرر، لكنها مهمة جداً، ويَلحظ فيها الباحث انقلاباً للموازين، فقبل عين جالوت كانت الطلبات والرجاءات تُرسل من أوروبا إلى المغول، وكانت ردود المغول غير جدية، ولما نزل بالمغول هزيمة ساحقة في عين جالوت، ثم لما تفككت إمبراطوريتهم قاموا هم بالمبادرة، وبدأت رسلهم تتردد إلى أوروبا، لكن للأسف دون جدوى، فأوروبا غرقت آنذاك بمشاكل داخلية جعلتها عاجزة عن إنقاذ نفسها وإنقاذ الصليبيين في الشرق فضلاً عن إنقاذ المغول، لذلك كل مشاريع التحالف المغولي – الصليبي هي مشاريع مخفقة، لم تتجاوز حدود الاتفاقيات إلا في أحداث قليلة وصغيرة(٢).

---

(٣)Hayton, Laflor. P. 170.

(٢) للحديث عن العلاقات المغولية - الصليبية، انظر: عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، دار عين، مصر، ١٩٩٦م.

المقالة السابعة

حملة هولاكو على الشرق الإسلامي

- توطئة:

كان لقرار منكوخان بتوسعة الإمبراطورية، ومدها عميقاً في بلاد فارس آثار سياسية كبيرة وعواقب هائلة في غرب آسيا، فمنذ اجتياح جنكيز خان لإقليم ما وراء النهر، وخراسان، دبت الفوضى في غرب آسيا، وكان الإقليم الوحيد الذي وطد به الغزاة المغول سلطتهم على أساس ثابت هو إقليم خراسان في الشمال الشرقي، في حين شهدت بعض الأقاليم الأخرى نوعاً من الاستقلال.

أما إمبراطورية خوارزمشاه فكانت قد أُزيلت كلياً أيام القيادة العسكرية لجورماغون في غرب آسيا، وفي أثناء التوسع الذي قام به باتو في الأراضي الغربية بين بحر الخزر والبحر الأسود، سقطت أذربيجان كلياً تحت السيطرة المغولية، ولما جاء من بعده بايجو دفع السيطرة المغولية نحو الأمام إلى بلاد الروم – تركيا الحالية – وسحق السلاجقة هناك، ولما عُزل بايجو وصل محله إيليجيدي المراوغ، كان هناك حديث حول حملة ضد بغداد، لكن لم يحصل شيء من هذا، ومع وصول منكو لمنصب الخان عزل إيليجيدي وأعاد بايجو، فانشغل هذا في قمع الثورات في آسيا الصغرى وفي جورجيا، وحتى قبيل حملة هولاكو لم يكن للقوات العسكرية المغولية وجود في الجنوب أبعد من أذربيجان ووادي أراكس، وهكذا بقيت السيطرة متقطعة مع فوضى مستبدة.

أما بالنسبة للعالم الإسلامي، فإنه توقع هجوم المغول في أي لحظة، لأنه بمقتل جلال الدين منكبرتي، وإنهاء دولته، لم يبق هناك من قوة لتقف أمام المغول، فجلال الدين، ومن قبله أبيه، كانوا قد استولوا على البلاد بعد أعمال عسكرية طويلة أنهت كل الدول التي كانت قائمة في شرق العالم الإسلامي، ولما سقط هو الآخر أمام المغول لم يبق في البلاد من يمنعهم، والحكام المسلمون كانوا يعلمون جيداً أهمية الدولة الخوارزمية وقيامها في وجه المغول، وإليك هذه الحادثة التاريخية.

بعد وفاة جنكيز خان استعاد جلال الدين منكبرتي شيئاً من قوته، وبدأ يتوسع شرقاً وغرباً، فاصطدم مع الأشرف موسى بن العادل الأيوبي الذي كان يحكم في شمال الجزيرة الفراتية، اصطدم معه في أكثر من معركة، وكانوا على عداءٍ كبير، فلما قُتل جلال الدين منكبرتي على يد الأكراد جاء من يهنئ الأشرف موسى بمقتل عدوه، فكان رده أن قال: «تُهَنِّئُونني به وتفرحون؟!... سوف ترون غِبَّه، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلاَّ مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج»[1]، وعلى هذا كان العالم الإسلامي في حالة ترقب للهجوم المغولي المحتمل، لكن ما من أحد من أمرائهم وقادتهم عمل شيئاً تجاه هذا الأمر.

ومن وجهة نظر المغول، كان القيام بحملة في بلاد فارس وسورية تنفيذاً منطقياً لفلسفتهم بحكم العالم، لكن النقطة الجوهرية المهمة في هذه العملية التوسعية أنها حدثت باتجاه الشرق الأوسط وليس باتجاه أوروبا كما كان سالفاً، والسبب في ذلك أن المغول اعتادوا – ومنذ قرون – النفوذ الكبير الذي تمتع به التجار المسلمون من بلاد فارس، ومن منطقة الخليج العربي في جميع أرجاء آسيا، وكان أكثر أهمية سمعة العلماء الفرس، والفلكيين، والمنجمين، وعلماء الحساب، والتقنيين، الذين لم يكن هناك من يضارعهم أو يساويهم في أي مكان

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٦/ ٢٧٧.

في العالم، وبالإضافة إلى العلوم كانت هنالك أيضاً الفنون من: رسم، وتجارة، وموسيقى، وشعر، فقد كان الشرق الأوسط الإسلامي مصقولاً ومزدهراً بشكل واسع، ووفقاً لأي معيار من المعايير، وكان ثرياً، وحضارته متقدمة، فكان من الصعب على المغول السماح له بالازدهار خارج نطاق نفوذهم، وكانت الغاية من هذه المحاولة وضع الحضارة الإسلامية، -وهي الأعظم في تلك الحقبة- تحت السيطرة المغولية، وتقف هذه المحاولة كواحدة من أعظم الخطط التي جرى تصورها من أجل حكم العالم.

ومن أهم النتائج التي يمكن استخلاصها من قرار منكو، هي أن المغول فقدوا - كما يظهر - الاهتمام بأوروبا، وفي الحقيقة لم يكن هناك بينة بعد انسحاب باتو من شرقي أوروبا، بأن المغول قد رأوا بأوروبا أنها جديرة بالجهد الذي سوف يبذل للسيطرة عليها.

- إعـداد الحملـة :

تحدث مؤرخ المغول الشهير رشيد الدين عن الإعداد الضخم، والاهتمام العالي من قبل الخان نفسه بالحملة التي سُيرت باتجاه الغرب بقيادة هولاكو، حتى غدت الحملة الأضخم منذ غزو باتو لأوروبا.

عيّن منكو خان خُمس جميع القوات المغولية، ووضعها تحت إمرة هولاكو، كما جرى تجنيد ألف «مجموعة» من المهندسين الصينيين لصنع آلات الحصار، ولتشغيلها، وفي الوقت نفسه جرى إرسال خُمس الأرتال أمام الحملة لإعداد الطريق، وتخصيص مساحات واسعة من الأراضي لرعي القطعان، وتكديس كميات احتياطي كبيرة جداً من الطحين، والحبوب، والخمرة، والمخزونات الأخرى، وتمهيد الطرقات، وبناء الجسور، ثم من بعد هذا تنظيم الآلاف من الخيول التي كانت ترعى عبر السهوب في غربي آسيا، وسوقها من أجل الحملة، وفي ربيع سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣، تركت الوحدات الأولى منغوليا،

وفي الخريف ركب هولاكو، وسار على رأس جيش عملاق تحرك بالتدريج عبر آسيا الوسطى إلى أحواز سمرقند، حيث جُعل جاهزاً من أجل الزحف النهائي.

ومع الاستمرار بالاستعدادات خلال سنتي ٦٥٢ و ٦٥٣هـ/ ١٢٥٤ و١٢٥٥، أصبح المسيحيون الشرقيون متحمسين للاشتراك في حرب اعتقدوا أنها سوف تعيدهم على الفور إلى وطنهم الأصيل في بلاد الرافدين، «الذي منه – حسب اعتقادهم – هاجروا للنجاة من الاضطهاد في ظل المسلمين»، وعلى الفور وصلت وحدات المسيحيين الشرقيين من قبيلة باتو الذهبية، وكان هناك: جورجيون، وأتراك، ولان، كلهم أرادوا الركوب مع «تومانات» هولاكو، وحدث أيضاً أن القائد الأعلى رتبة في جيش هولاكو، وهو «كتبغا نوين»[١] كان مسيحياً من النيمان، في حين كانت الزوجة الرئيسة لهولاكو وهي دوقوز خاتون Doquz Khatun كانت مشهورة بسبب عمق قناعاتها المسيحية، وبالنسبة لجماعة عانت في ظل المسلمين لقرون، امتلكت حملة هولاكو جميع العلامات المميزة على أنها كانت حملة حرب مقدسة ضد المسلمين.

وقبيل مسير الحملة، رسم منكوخان لأخيه هولاكو الخطة التي سوف يتبعها، والمهمة التي وجب على عاتقه تنفيذها، فقال له:

«إنك الآن على رأس جيش كبير، وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران، وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه، في الكليات والجزئيات، وخص كل من يطيع أوامرك، ويجتنب نواهيك، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر، بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك، أما من يعصيك، فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق به، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان، فخرِّب القلاع والحصون، وإذا فرغت من هذه المهمة، فعليك أن تتوجه إلى العراق، وأزل من طريقك اللور والأكراد، الذين

---

(١) يرسم الاسم بأشكال متعددة منها (كد – بوقا، كتبوغا، كتبوقا).

يقطعون الطرق على سالكيها، وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى، فألحقه بالآخرين من الهالكين، كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم، وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال، وثق بأنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتٍ عديدة، وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون»[١].

- عبور جيحون إلى بلاد فارس والقضاء على الحشيشية:

في اليوم الأول من كانون الثاني عام ١٢٥٦ عبر جيش هولاكو نهر جيحون، وجلب إلى خراسان الآلة الحربية الأكثر هولاً بين ما رأته على الإطلاق، فقد ضمت حملته أحدث آلات الحصار لذلك الوقت، مع البارود من الصين، ومجانيق قادرة على إرسال كتل محترقة من النفوط إلى داخل مدن الأعداء، ووحدات من الرماة الخيالة المدربين بقسوة، يقودهم أمراء اكتسبوا خبراتهم من جنكيز خان، وسوبوداي، ومع انتشار أخبار جيش هولاكو، ما لبث أن أخذ يستقبل سلسلة متواصلة من السلاطين، والأمراء، والأتابكة، من مناطق امتدت بعيداً من آسيا الصغرى إلى هراة، فهؤلاء جاؤوا جميعاً لتقديم الولاء والطاعة له، وكان مجرد حضورهم قد وضع نهاية لنحو الأربعين عاماً من الثورات وعدم الاستقرار في أراضي خوارزم القديمة، ولكن بالنسبة إلى سكان خراسان، والعراق، وسورية كان ذلك فجر نظام عالمي جديد.

وكان هولاكو أول ما قصد أتباع الحشيشية الإسماعيلية الذين جلسوا خلف أسوار قلاعهم في إقليم قهستان، التي اعتقدوا أنها لا ترام.

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢٣٦/١/٢ - ٢٣٧.

كانت العلاقة بين المغول وطائفة الحشيشة أيام جنكيز خان علاقة جيدة، فجلال الدين حسن بن محمد مقدم الإسماعيلية الحشيشية كان أول حاكم يرسل رسولاً إلى جنكيز خان لتقديم الولاء والطاعة له، كما أنهم - أي الحشيشية - كانوا قد دعوا المغول أكثر من مرة للقضاء على خوارزمشاه، واشتركوا في غارات جرماغون في مناطق شمال خراسان خلال ٦٣٥- ٦٣٦هـ/ ١٢٣٧ - ١٢٣٨م.

أما الآن، فقد امتلك المغول أسبابهم الخاصة للإقلاع بحملة ضد الحشيشية، فهذه الطائفة بعد أن رأت، أو لمست المخاطر المغولية راسلت على الفور أوربا طالبة المساعدة ضدهم، كما حاولت تشكيل تحالف ضدهم، ولا شك أن أخباراً مثل هذه وصلت إلى المغول.

كما أن المغول كانوا قد تلقوا التماساً بطلب المساعدة من القاضي المسلم لقزوين، وهي بلدة كانت قريبة من معقل الحشيشية في ألَمَوت، فهو تشكى بأن سكان بلدته كانوا مرغمين على ارتداء الدروع طوال الوقت لحماية أنفسهم من سكاكين الحشيشية، وتبعاً لما رواه روبروك كان هناك سببٌ آخر حسم قرار ميول المغول، هو اكتشاف مؤامرة بإرسال ما لم يكن أقل من أربعمئة من الحشيشية الذين يجيدون استخدام السكاكين، وهم مموهون، أرسلوا إلى قراقورم مع تعليمات باغتيال الخان الكبير.

وكما سلف الحديث، عبر هولاكو جيحون سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م، ومعه تعليمات واضحة بالقضاء على الحشيشية، وبعد أن قدم ولاة الأقاليم هناك فروض الولاء والطاعة له، سار إلى قلاع الإسماعيلية الحشيشية، وبالنسبة لهذه الفرقة، فقد سلف الحديث عن قيامها في المطلب الأول، وأنها أقامت في سلسلة من القلاع المنيعة في شمال إيران، كان أشهرها قلعة ألَمَوت، والتي تعني بلغة أهل الديلم «عش النسر أو ملجأ العقبان»، وقد تحدث القزويني عن هذه القلعة، فقال: «قلعة حصينة تبعد عن قزوين مسافة ستة فراسخ، وتقع على تلة جبل، وحولها وِهاد،

لا يمكن نصب المنجنيق عليها، ولا يبلغها النشاب، وكانت المركز الرئيسي لتجمع الإسماعيلية، وكرسي ملكها»[1].

وبالإضافة إلى ألَمَوت كان للإسماعيلية قلاع عديدة بلغ عددها نحو خمسين قلعة، منها ميمون دز، ولمسر، وكانت هذه القلاع موزعة في قهستان، وطالقان، وروذبار، ويحكمها شخص يقال له «محتسم».

كان هولاكو قد أمر قائده كتبغا نوين بالمسير أمامه قبل عبور جيحون، وكلفه مهاجمة قلاع قهستان، أي المناطق الجميلة الوعرة بين هراة ونيسابور، فاستولى على عدد من قلاعها.

استخدم هولاكو سياسة الترغيب والترهيب، فاستسلمت له قلاع، وقاومته أخرى، وكان أشهر هذه القلاع، ألَمَوت، وميمون دز، وكان ركن الدين خورشاه مقدم الإسماعيلية مقيماً في قلعة ميمون دز، ففرض عليها هولاكو الحصار، وبسرعة نقل القادة المغول، ومعهم مهندسوهم الصينيون مدافعهم ووضعوها تحت أسوار القلعة، وقبل القصف عرض هولاكو على خورشاه، الاستسلام، ولما رأى هولاكو من خورشاه المراوغة والمماطلة بدأ بقصف القلعة، فاستسلم خورشاه هذا، ونزل إلى هولاكو الذي قيده وأخذه أسيراً احتفظ به ونقله إلى كل قلعة واجهها المغول، وعرضوه أمام كل حامية عسكرية مع الطلب بالاستسلام الفوري، وهذا ما حدث في ألَمَوت.

استباح المغول ألَمَوت، واستولوا على كنوزها وذخائرها، كما وقعت بأيديهم المكتبة النفيسة التي كانت تعد أشهر مكتبات عصرها، والتي صرف الإسماعيليون جهداً كبيراً في جمعها، حتى طبقت شهرتها الآفاق، كما أنها تعد التراث الإسماعيلي الوحيد المتبقي منهم، وهنا استأذن المؤرخ الإيراني عطا ملك الجويني هولاكو السماح له بالاطلاع على المكتبة، ليُبقي منها الصالح ويُفني

---

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٠٠.

الباقي، وبهذه الطريقة أنقذ الجويني كثيراً من المصاحف والكتب النفيسة، وآلات الرصد، كما أطلق هولاكو سراح (نصير الدين الطوسي، توفي ١٢٧٤م) أحد أشهر علماء فرقة الاثني عشرية، فأصبح لهذا العالم مكانة رفيعة لدى المغول، وعمل في خدمتهم، كما رافق هولاكو في هجومه على بغداد، وتولى الدفاع عن الشيعة هناك، ثم في العام التالي لسقوط بغداد استأذن هولاكو، وشيَّد مرصداً فلكياً في مراغة بأذربيجان.

وعلى كل حال، سواء استسلمت قلاع الإسماعيلية، أم تم دخولها بالقوة، فقد جعل المغول جميع السكان طعمة للسيف، حتى إنهم قتلوا النساء والأطفال، ومع الاستمرار في هذه المذابح إلتمس ركن الدين خورشاه من هولاكو أن يسمح له بالذهاب إلى قراقورم حيث سيقدم الولاء إلى الخان الكبير، ويرجوه المرحمة، ووافق هولاكو، ولكن عندما ذهب إلى مدينة قراقورم رفض منكو خان أن يراه، وكان معنى ذلك حكماً فعلياً بالإعدام، وعلى طريق العودة، استدار الحرس المغولي على المقدم الأعلى وعلى مرافقيه، فأفنوهم من دون استثناء، وعلق المؤرخ الفارسي الجويني على ذلك بقوله: «لقد جرى تنظيف العالم»، وبعد مضي خمسمئة عام ردد «إدوارد جيبون» أصداء هذه العواطف، بالادعاء «أنه من الممكن عدّ الحملة المغولية كخدمة لبني البشر»، ولقد احتاج المغول نحو العامين إلى أن تمكنوا من إفراغ وتهديم أكثر من مئتي «عش نسر»، ولكن الذي فعلوه في تلك الإجراءات هو أنهم أزالوا الحشيشية من بلاد فارس، وقد رحب المسلمون بسقوط قلعة أَلَموت لأنهم عدوا ذلك خلاصاً لهم، على الرغم من خوفهم من المغول ومما كانوا يتوقعونه على أيديهم من أحداثٍ جسام، فهم كانوا يعدون الحشيشية مثل الصليبيين في خطرهم، فنحن نعلم جيداً أن عدداً كبيراً من قادة المسلمين وزعمائهم قُتلوا غيلةً على أيدي الحشيشية.

وفي سقوط قلاع الحشيشية، قال الجويني أيضاً: «... لقد كان هذا العمل مرهماً لجراح المسلمين، وتداركاً للدين من الخلل، وإن الناس الذين يبقون من

هذا العهد، يعرفون إلى أي حد بلغت فتنة هذه الطائفة، وإلى أي مدى بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم، وإن الشخص الذي كان على وفاقٍ معهم منذ عهد الملوك السالفين حتى عهد ملوك هذا العصر إنما كان فقط مدفوعاً بدافع الخوف منهم، أما إذا عاداهم فكان عليه أن يعيش ليله ونهاره سجيناً خوفاً من رعاعهم، لقد كان كأساً طافحاً، وريحاً عاتية، ولكنها أُخمدت».

- الزحف إلى بغــداد :

بالقضاء على الحشيشية، وتهديم قلاعهم، حقق هولاكو الهدف الأول من حملته، فأعمل فيهم القتل والسلب ليكونوا عبرة لغيرهم ممن يُفكر في المقاومة، ثم سار لتحقيق هدفه الثاني؛ وهو القضاء على الخلافة العباسية في بغداد.

كانت الخلافة العباسية تعيش شيخوختها، فقد تطاول عليها الدهر، وتقاسمتها عوامل الضعف، فمن تحكم الخراسانيين بها، إلى تحكم البويهيين، إلى تحكم السلاجقة، هذا فضلاً عن الصراع المذهبي الذي انتشر بين رعاياها، وكذلك السياسي، فكثر قيام الدول المستقلة وسقوطها، ولم تعد الخلافة العباسية سوى خلافة اسمية، ولم تتجاوز سيطرتها الفعلية العراق، وربما خوزستان في أحسن الأحوال، ووصفها أحد المؤرخين بقوله: «قد أصبحت كعليل على فراش الموت، فانتهز اللصوص فرصة مرضه للإجهاز عليه. والقبض على ميراثه[(١)]».

أما الخليفة، فكان آنذاك المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ/ ١٢٤٢ - ١٢٥٨م)، «رجلاً متديناً، لين الجانب، سهل العريكة، عفيف اللسان، ...سهل الأخلاق، وكان خفيف الوطأة، إلا أنه كان مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعاً فيه، غير مهيب في النفوس، ولا مُطّلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني، والتفرج على

---

(١) فيليب حتي: تاريخ العرب، ط٤، ٢/ ٥٨٠.

المساخرة، وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحابه مستولين عليه، وكلّهم جهال من أراذل العوام»[1].

ومما اشتهر عنه آنذاك، أنه كتب قبيل هجوم هولاكو على بغداد إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب، وأثناء ذلك وصل إلى بدر الدين هذا رسولاً من هولاكو – وكان بدر الدين لؤلؤ ممن دخل في خدمة هولاكو – يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار من أجل الهجوم على بغداد، فقال بدر الدين، انظروا إلى المطلوبَيْن، وابكوا على الإسلام وأهله[2].

وعلى الرغم من تواتر وصول أخبار المغول إلى مسامع الخليفة لم يأخذ استعداداته اللازمة، فقد كان باستطاعته، وهو خليفة المسلمين، أن يحشد الجيوش الإسلامية من أقصى المغرب للدفاع عن عاصمة الخلافة، لكنه لم يكن أهلاً لذلك، إذ لم تتوفر لديه – على قول ابن شاكر الكتبي – صفات التيقظ والهمة[3]، ومما تواتر عنه أنه قال في إذا ما هاجم المغول عليه: «أنا بغداد تكفيني، ولا يستكثرونها علي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد»[4].

أضف إلى هذه الأمور أن قضية التنافس المذهبي قد قسَّمت سكان بغداد إلى أحزاب، ما بين سنة، وشيعة، ومسيحيين، إذ استحكم الصراع بينها، وتطور في كثير من الحالات إلى حروب وفتن مقيتة، وكان آخرها قبيل قدوم هولاكو سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، إذ نشب قتال عنيف بين المسلمين، السنة والشيعة، وأوكل المستعصم لابنه أبي بكر فض النزاع، فقام هذا بالهجوم على الكرخ حيث مساكن الشيعة، فأغلظ في الانتقام منهم، فكان لهذا أثر سيئ في نفوسهم، ظهر صداه أثناء هجوم هولاكو، ولا سيما عند الوزير العلقمي، فقد كان مؤيد الدين العلقمي

---

(١) ابن طباطبا: الآداب السلطانية، ص ٣١٧-٣١٨.

(٢) ابن طباطبا: الآداب السلطانية، ص ٥٢.

(٣) فوات الوفيات، ٢/ ٢٣١.

(٤) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص٢٥٥.

وزير الخليفة المستعصم مسلماً شيعياً، وكان شديد الانفعال في رفضه لقمع الخليفة لإخوانه الشيعة، لذلك راسل هولاكو -حسب المصادر الفارسية الشيعية-، وحضّه على الهجوم على بغداد.

قبل أن يبدأ هولاكو هجومه على بغداد أرسل رسله إلى الخليفة العباسي يحملون عروض الاستسلام والتبعية، وترددت السفارات والرسل بين الطرفين، وكل واحد منهما يكيل التهديد والوعيد للطرف الآخر، وبعد أن استشار هولاكو مُنجميه، ومنهم نصير الدين الطوسي الذي شجعه على المضي إلى بغداد، عزم على الزحف غرباً باتجاه بغداد، وانضمت إليه القوات المغولية التي كانت مقيمة في أذربيجان وبلاد سلاجقة الروم بقيادة بايجو، بالإضافة إلى قوات متطوعة من جورجيا المسيحية، ومملكة الأرمن في كيليكيا، وكانت هذه العناصر متحرقة وشديدة الرغبة في المشاركة بالهجوم على بغداد، فضلاً عن الإمدادات التي وصلته من الحكام المسلمين، وأشهرهم بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل، والأتابك سعد بن زنكي حاكم إقليم فارس، فتضاعف تعداد جيشه(١).

أمر هولاكو قائده بايجو بمحاصرة بغداد من الجهة الغربية، أما هو فقرر الهجوم عليها من الجهة الشرقية، ولما قرر المستعصم الدفاع عن المدينة وأخرج قواته بقيادة الأمير مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير، كان هولاكو على مسافة يوم واحد فقط من بغداد، وكان مصير مجاهد الدين وقواته التي بلغ تعدادها ما يقارب ٢٠ ألف مقاتل أن هُزمت وقتل أكثرها، في حين تمكن مجاهد الدين من الفرار.

وصلت قوات هولاكو إلى بغداد في ٢٢محرم ٦٥٦هـ/ ٢٩ كانون الثاني ١٢٥٨م، وبعد تطويق بغداد تمكنت قوات بايجو أولاً من اقتحام المدينة من الجهة

---

(١) قدَّر المؤرخ الروسي بارتولد تعداد جيش هولاكو لما خرج من قراقورم بـــ ١٢٩.٠٠٠ مقاتل، وهو عدد أصغر بكثير مما ورد عند المؤرخين المعاصرين للحملة، وعلى أي حال فإن العدد الذي وصل إلى بغداد كان أضعاف ذلك.

الغربية، التي كانت المركز التجاري لبغداد وتكثر فيها المستودعات، وبعد أن نصب مهندسو هولاكو الصينيون مناجيقهم، شرعوا في القصف العنيف في ٢٣ محرم/٣٠ كانون الثاني، وتحركت الوقائع بسرعة كبيرة جداً، وبما أن عربات نقل الحجارة المقطوعة من الجبال القريبة كانت تحتاج إلى ثلاثة أيام لكي تتمكن من جلب الصخور، لذلك زودت وحدات الرمايات أنفسها بجذوع أشجار النخيل المقطوعة، وبحجارة أساسات الضواحي المحتلة، وبعد مضي سبعة أيام اقتحم المغول المدينة واستولوا على السور الشرقي، ثم أخذت المدينة تستسلم بالتدريج، ولما اصطف رجال الحامية، وألقوا أسلحتهم، اقتيدوا بعيداً، وأعدموا واحداً بعد الآخر، وأخيراً ظهر الخليفة مع أسرته، ومعه ثلاثة آلاف من رجال البلاط، وفي ٧ صفر/ ١٣ شباط بدأ نهب بغداد.

تحدث المؤرخ الفارسي الجوزجاني في كتابه «طبقات ناصري»، وغيره من المؤرخين عن خيانة الوزير العلقمي للخليفة، فقال: إنه لما كُسرت الجيوش العباسية أمام بغداد أول مرة بقيادة مجاهد الدين أيبك الدويدار، عاد هذا الأخير مُسرعاً إلى بغداد، وأعلم الخليفة أنَّ عليه الخروج من بغداد، ويبحر في دجلة إلى البصرة ريثما تسنح الفرصة ويأتيهم فرج الله، وهنا تدخل الوزير العلقمي ولعب لعبته، وأقنع الخليفة أنه لا داعي لذلك.

فالخليفة العباسي كان قد قرر إرضاء هولاكو ومهادنته وتنفيذ طلباته، واعتمد في ذلك على وزيره العلقمي، الذي زار هولاكو أكثر من مرة، واستوثق لنفسه، فوعده هولاكو بأن يبقيه وزيراً بعد سقوط بغداد، ويُقيم مكان الخليفة العباسي خليفة شيعياً، وعليه أقنع الوزير سيده الخليفة العباسي بالبقاء، وليؤكد له صحة قوله ادعى بأن هولاكو سوف يزوج ابنته لابنه أبي بكر، ونصحه بإرسال ابنه هذا إلى هولاكو ليتأكد بنفسه، ولما زار أبو بكر بن المستعصم هولاكو استقبله هذا أحسن استقبال، وخدعه بمعسول القول، بناءً على اتفاق مُسبق بين هولاكو والعلقمي، ولما استراح الخليفة لحسن نية المغول وصدقهم، خرج بنفسه

مع ثلاثة آلاف من علية القوم من وجهاء وعلماء وتجار، ولما وصلوا إلى هولاكو قبض عليهم، ثم هاجم المدينة بعد أن ضعفت المقاومة وانهارت[١].

كانت بغداد عاصمة الخلافة لقرون، ومركزاً مهماً ثقافياً، وروحياً، وتعليمياً، وكان في داخلها مساجد فخمة، ومكتبات واسعة، للآداب الفارسية والعربية، وأعظم جامعة في العالم، بالإضافة إلى عدد كبير جداً من القصور التي كانت ملكاً للخليفة ولأسرته، ولربما أعظم الكنوز الشخصية الموجودة في أي مكان، فبغداد كانت أعظم مدينة استولى عليها المغول في الشرق الأوسط، فجلبوا إلى هذه الواحة الحضارية العظيمة السيف والنار، وكانت الفرقة أو الوحدة العسكرية المتطوعة من جورجيا أكثر الوحدات همجية وانتقاماً، وأثناء عمليات القتل، والمجازر التي استمرت قرابة الأربعين يوماً اختبأت الجماعات المسيحية في كنائسها، فجرى توفيرها، لكن بالنسبة للمسلمين جرى تمزيقهم من دون رحمة، وتم حشد معظم النساء والأطفال بعضهم مع بعض، ونقلوا إلى قراقورم، ومثل ذلك ثروات دار الخلافة.

وبالنسبة للمساجد والقصور فقد أحرقت، وكانت أصداء البكاء والنحيب من الشوارع تتردد أثناء الليل، ودعي الخليفة وأسرته إلى وليمة مع هولاكو، ومن بعد ذلك جرت خياطتهم في الزرابي وفق الطريقة المغولية المعتادة لإعدام النبلاء والملوك، ومن بعد ذلك جرى دوسهم حتى الموت تحت حوافر الخيول المغولية، وهي ممارسة مغولية خاصة، فتبعاً للتقليد الشاماني، يحتوي الدم على جوهر روحي فردي، فإذا ما سفك دم إنسان نبيل، فسيكون له تأثير شرير في الأرض التي سقط عليها، وكان صدوراً عن الاحترام نحو القادة الأعداء أو أعضاء من

---

(١) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص٤٢٧ – ٤٢٨، تاريخ وصاف، ص٣٧، أبو الفداء: المختصر، ٣/ ٢٠٣. الذهبي: دول الإسلام، ٢/ ١٢٢ – ١٢٣، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧١. وقضية العلقمي وخيانته تناولها عدد من المؤرخين منهم: فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ١/ ٢٧١ – ٢٧٨.

الأرستقراطية الذين وقع الغضب عليهم وفقدوا مكانتهم، كانوا يُعدمون إما بلفهم بزرابي إلى أن يختنقوا، وإما يسحقون تحت ألواح من الخشب.

وبذلك انتهى حكم أسرة الخلافة العباسية بعدما عاش لمدة خمسمائة عام، وكانت مكافأة الوزير الخائن العلقمي السماح له بالبقاء في منصبه والاحتفاظ به في ظل الحكم المغولي، وادعت الروايات الفارسية بأن ما بين ثمانمئة ألف إلى مليونين من الناس قتلوا في داخل أسوار المدينة، وعلى جميع الأحوال كانت الروائح المنبعثة من الجثث المتفسخة هائلة إلى حد أن المغول أرغموا للمرة الأولى، على إخلاء مواقع معسكراتهم.

ويقول ابن كثير: «ولما نودي ببغداد بالأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر، كأنّهم الموتى إذ نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخَ أخاهُ، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى» (١).

- **الزحف إلى بـــلاد الشـــام :**

ولما فرغ هولاكو من بغداد، ونظّم شؤونها، زحف بجيشه نحو الشمال الشرقي إلى أذربيجان، حيث قرر اتخاذ قاعدة له هناك، وقد توقف قليلاً عند شواطئ بحيرة أُرمية، وأعجب كثيراً بجمال جزيرة صخرية وعرة وشديدة الانحدار لاحت فوق مياهها، كانت تعرف باسم جزيرة شاهي، وعلى هذه الجزيرة قرر هولاكو أن يبني بناء لثرواته، ويخزن فيه حصته من الأسلاب، ثم اتخذ مدينة مراغة القريبة من تبريز عاصمة ومقراً له، وكلف مستشاره نصير الدين الطوسي ببناء مرصد فلكي هناك، وقد انتظر هناك والأخبار تتوارد حول سقوط بغداد، ليقوم بعد ذلك بالمسير مجتاحاً ومدمراً خلال سورية وفلسطين، ولقد كان سقوط بغداد أعظم كارثة ألمت على الإطلاق بالعالم الإسلامي، ثم إن

---

(١) البداية والنهاية، دار الفكر، ١٣/ ٢٠٣.

أثرها الهائل تعدى إلى ما وراء دار الإسلام، لأن الإزالة الفعلية لواحدة من أعظم مدن العالم، أثار موجات صدمة في جميع أنحاء العالم المتحضر.

ومرة أخرى عندما كان المغول آخذين بالزحف نحو البلاد الإسلامية كان المسيحيون الشرقيون يحيّون هولاكو ويرحبون به على أنه المخلّص لليوم الأخير، «لأن أعداء المسيح باتوا الآن على وشك أن يلقى بهم في البحر»، كما أعلن مؤرخ إرميني قائلاً: «كانت بغداد خلال أيام سيادتها مثل مصاصة للدماء لا تعرف الشبع، ولذلك ابتلعت العالم كله، والآن قد عوقبت من أجل الدماء التي سفكتها، والشرور التي اقترفتها، ذلك أن مكيال ظلمها قد امتلأ».

قُبيل، وأثناء زحف هولاكو تجاه بلاد الشام ومصر قدَّم عدد كبير من الأمراء الطاعة مع الأموال إلى السيد الجديد، منهم بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل، كان شيخاً في الثمانين من عمره، قدم إليه لتهنئته بالاستيلاء على بغداد، وكان من بين الكنوز الكبيرة التي قدمها له قرطين من الذهب، وضعهما بيديه في أذني هولاكو، وكان ذلك نوعاً من المزاح الخاص والسري بين وزرائه وبينه، إذ تبجح متفاخراً في إحدى المرات بأن المغول لن يهددوه، وأنه في أحد الأيام سوف يمسك هولاكو من أذنيه.

كما وفد عليه في مراغة اثنان من أمراء سلاجقة الروم، هما كيكاوس الثاني، وأخوه قلج أرسلان الرابع، وكان هؤلاء في تنافس شديد بينهما على العرش، وقام كيكاوس برسم صورته على نعل زوج من الأحذية وقدَّمها لهولاكو، وقال له: «عبدك يأمل أن يتفضل الملك، فَيُشَرِّف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها».

وهكذا لم يبق حاكم مسلم واحد يحكم شرق دجلة من دون الموافقة المغولية باستثناء الكامل محمد صاحب ميافارقين، وفضلاً عن حكام المسلمين المتخاذلين، تطوع المسيحيون الشرقيون في جيش هولاكو، وكان أشهرهم أرمن كيليكيا.

كنا قد تحدثنا عن سفارة هيثوم ملك الأرمن إلى الخان المغولي منكوخان، وكيف حقق هيثوم نجاحاً في نيل ثقة المغول ووعودهم له بالحماية واسترداد أراضيه، ودعمه ضد جيرانه المسلمين، فانخرط الأرمن في الجيش المغولي، وأسهموا في حصار بغداد واستباحتها، ثم انضم إلى جانب الأرمن صليبيو أنطاكية، فقد كان بوهيمند السادس ملك أنطاكية حليفاً لهيثوم وقد تزوج ابنته، فسارع بالانضمام إلى الحلف المغولي، ويتفاخر مؤرخو الأرمن بدورهم في حملة هولاكو، فقد ذهب المؤرخ هايتون (Hayton) للقول: إنَّ حملة هولاكو على بلاد الشام تم تقريرها بناءً على لقاء جمع هولاكـــو مع تابعه الأرميني هيثوم الأول.

في شهر رمضان ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م تحركت جحافل هولاكو، مع حلفائه الأرمن والكرج من أذربيجان قاصداً بلاد الشام، فألقى الحصار على ميافارقين، التي كانت تحكم من قبل الكامل محمد، الذي أظهر هو وشعبه ضروباً من الشجاعة والفداء منقطعة النظير، وكان مما أخذه المغول على الكامل محمد أنه صلب قسيساً مسيحياً يعقوبياً قدم إلى بلاده، وكان يحمل جواز مرور مغولياً، ولما أظهرت ميافارقين المقاومة أمر هولاكو بجعل الأمير وجميع سكان ميافارقين مثلاً يعتبر، وهي وظيفة عهد بها إلى بعض الوحدات المسيحية، حيث بعث هولاكو الملك هيثوم ومعه ١٦.٠٠٠ جندي أرميني، منضاف إليهم عدد من الجورجيين، واستولى هؤلاء على ميافارقين، ونفذوا المهمة ببعض الكفاءة، ثم تعامل القادة المسيحيون مع الأمير الكامل محمد بشيء من المتعة السادية الخاصة، حيث كتفوا الأمير التعيس أولاً وقيدوه، ومن بعد هذا أخذوه يقطعون شرائح من جسده ويطعمونه إياها إلى أن مات، ثم حملوا رأسه وطافوا به حلب وحماة ودمشق، حيث علقوه هناك على سور باب الفراديس، وظل هكذا إلى أن عادت دمشق للمسلمين بعد هزيمة المغول.

ومن ميارفارقين تقدم المغول نحو ماردين، فأظهرت مقاومة من قبل الملك السعيد، حتى قام أحد أبنائه باغتياله ومصالحة المغول حقناً للدماء، فكافأه المغول وعينوه والياً على المدينة.

أثناء ذلك - أي حصار ميافارقين وماردين - كان هولاكو يستولي على المدن الإسلامية، فاحتل نُصيبين، واستسلمت له حران، والرُّها، ثم تقدم على رأس جيشه اللجب لمحاصرة حلب.

- سقوط حلـــب ودمشـــق :

قبيل دخول الجيش المغولي لبلاد الشام، كان الناصر صلاح الدين يوسف (الثاني) هو السيد الفعلي لتلك البلاد، وكان أكثر أمراء بني أيوب قوةً، لكنه رفض دعوة الكامل محمد صاحب ميافارقين بالاتحاد لمواجهة المغول [1]، بل أعلن خضوعه لهولاكو، وأرسل إليه في أذربيجان بعد سقوط بغداد ولده العزيز يحمل له الهدايا، ويعلن التبعية، ويطلب العون ضد مماليك مصر.

وقد تقدم الحديث في المطلب السالف أن المماليك أصبحوا حكاماً لمصر بعد جلاء لويس التاسع عنها، وأن بني أيوب في الشام رفضوا انتقال حكمهم في مصر لمماليكهم، لذلك قام الناصر يوسف بمحاولات لاستردادها، لكنه أخفق، واستنزف جهده بمحاربتهم، فراسل هولاكو ليأمن شره، ويستمده على المماليك.

رفضن هولاكو سفارة الناصر هذه، وطالبه بالقدوم بنفسه، وفي الحقيقة كان هولاكو قد حكم على الناصر وبلاد الشام بالسقوط، وكانت قواته التي ربما قارب عددها ٣٠٠ ألف تتقدم بسرعة نحو سورية، فارتاب الناصر من نوايا هولاكو.

وهنا، وفي حالة من اليأس، التفت السلطان الناصر نحو أعدائه الماضين في مصر، وطلب إلى المماليك المدد والاتحاد، فرحّب بذلك قطز سيد مصر،

---

(١) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص٢٧٧.

لكنه – أي الناصر – تراجع مرة أخرى عن موقفه، وبقي هو في بلاد الشام في حين أرسل ماله ونساءه وأولاده وقسماً من قواته إلى مصر.

وفي الوقت نفسه كانت قلعة حلب العملاقة قد استوعبت الأخبار من بغداد، ومن المؤكد أنها شرعت تستعد لمواجهة الهجوم المقبل، وفي خريف ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩، اندفع هولاكو عبر نهر الدجلة، وزحف مجتاحاً خلال منطقة حران، ومن ثم نُصيبين، والرُّها، وما إن انتشرت الأخبار بأنّ المغول عبروا نهر الفرات على جسر عائم مؤقت أقيم قرب منبج، حتى هللت الكنيسة الشرقية بالعودة الوشيكة للقدس، فكان المؤرخ ابن العبري رئيس أساقفة حلب، سارع إلى المغول وقدَّم الطاعة لهولاكو.

وكان السلطان الناصر قد هرب منذ وقت طويل إلى دمشق تاركاً الدفاع عن حلب بيدي عمه العجوز تورانشاه، ورأى الرجل العجوز أن أفضل شكل للدفاع الهجوم فأرسل وحدة كبيرة من قواته لمواجهة المغول في الفضاء، ولكن مثلما كان قد حدث في بغداد من قبل؛ نُصب كمين للمدافعين، وجرى تدميرهم.

وفي خارج حلب وضع المغول عشرين من فرق المدفعية، من أجل تدمير أسوار المدينة، واستمر القصف لمدة سبعة أيام، وفي ١٥ صفر ٦٥٩هـ/ ٢٠ كانون الثاني ١٢٦٠ احتلوا المدينة، وفي داخل المدينة، في القلعة صمد العجوز تورانشاه، ومن بقي معه من الحامية العسكرية لمدة أربعة أسابيع أخرى، وخلال ذلك، جرت في الشوارع مذبحة رهيبة بحق الرجال المسلمين، وجرى حشد النساء والأطفال، وحشروا لكي ينقلوا إلى قراقورم كعبيد، واستسلمت القلعة أخيراً، وكعلامة على الاحترام من قبل المغول وتقديراً للطريقة التي دافع بها الرجل العجوز عن مواقعه، وفَّر المغول حياة تورانشاه.

وفي حلب أحرق هيثوم الجامع الكبير، وأخذ جزءاً من الغنائم، ورد إليه هولاكو، وإلى بوهيمند السادس أمير أنطاكية أراضيهم التي استولى عليها مسلمو حلب سالفاً.

سار الجيش المغولي نحو دمشق، ولما وصلت الأخبار بذلك، جمع الملك الناصر قواته عند برزة للتصدي للمغول، وأمام اقتراب المغول انفض هذا الجمع، وفرَّ كل واحد منهم لا يلوي على شيء، وتركت دمشق لمصيرها.

أثناء ذلك، وفي ربيع الأول ٦٥٩هـ/ شباط ١٢٦٠م، حين كان هولاكو يرتب مع قادته المرحلة التالية لحملته، وصلته أخبار من الصين بوفاة منكوخان، وفور سماع هولاكو لهذه الأخبار انسحب مع كتلة من قواته إلى الشرق، بسبب حدوث خلافات عميقة وخطيرة في العاصمة قراقورم، فقد حدث صراع على السلطة بين الأخوين أريق بوقا، وقوبيلاي، فقوبيلاي نصب نفسه إمبراطوراً في الصين، في حين كان أريق بوقا قد رتب أموره في قراقورم، وبحكم أن هولاكو كان يدعم ادعاءات أخيه وصديقه قوبيلاي، فتوجب عليه حضور القوريلتاي.

كان أهل دمشق قد رأوا ما حلّ بحلب، فقرروا الاستسلام، ودخل المغول المدينة العظيمة تحت قيادة كتبغا نوين، قائد هولاكو المسيحي، فكان دخوله وكأنه دخول صليبي كامل، إلى جانبه ملك الأرمن هيثوم الأول، والكونت بوهيمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس، وفي دمشق أظهر الأرمن والصليبيون، حقداً وكراهية عميقة تجاه المسلمين [١].

وفي الأسابيع الثلاثة التي أعقبت اجتياح دمشق، أتمَّ المغول اجتياح سورية، وقتلوا حامية نابلس لأنهم قاوموا، ثم تقدموا إلى غزة دون مقاومة تذكر، واستسلمت لهم حامية عجلون، إلا أنهم لم يصلوا مطلقاً إلى بيت المقدس كما أراد حلفاؤهم الأرمن، والكرج، والصليبيون.

وفي الوقت نفسه أرسلت طلائع قوات هولاكو لمطاردة فريستهم السلطان الناصر، وقد لاحقوه خلال فلسطين بعيداً جنوباً حتى غزة، حيث جرى أسره

---

(١) الفارس الداوي الصوري: أعمال القبارصة، تر: سهيل زكار، ص٤٣. وعن أعمال المغول والأرمن في دمشق، انظر: الذهبي: دول الإسلام، ٢/ ١٢٥، المقريزي: السلوك، ١/ ٤٢٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٧/ ٨٠.

أخيراً، وأرسل الناصر إلى معسكر هولاكو، وفي تلك الأثناء كان المغول قد أرسلوا التهديد النهائي إلى القوة الإسلامية الأخيرة المتبقية، أي المماليك، مع التحذير من أيّ نتائج، وكتب هولاكو في إنذاره يقول: «وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهّرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع»، ثم إنه ذكرهم (وكأنهم احتاجوا إلى التذكير) أنهم في ذلك الوقت كانوا هم العدو الوحيد الذي سوف نزحف ضده، بقوله: «فما بقي لنا مقصد سواكم» [١].

وبالنسبة إلى كل إنسان في الشرق الأوسط، كان بداهة بأن الإسلام وقف على الحافة، وقد عبر عن ذلك «رنسيمان» بقوله: «بسقوط المدن الثلاث الكبيرة: بغداد، وحلب، ودمشق، تراءى كأن الإسلام في غرب آسيا حان أجله، ففي دمشق، وفي سائر الجهات في غرب آسيا، لم يكن للفتح المغولي من معنى سوى انتعاش المسيحيين المحليين، فأضحى المسلمون بداخل سورية لأول مرة منذ القرن السابع يُعتبرون أقلية مغلوبة على أمرها» [٢].

وإن وقوع انتصار مغولي آخر كبير، كان معناه زوال القوة السياسية الإسلامية وانتهاءَها، وكانت القوى المسيحية الشرقية التي شاركت في الحملة مع المغول، مقتنعة بأن الحملة كلها لم تكن شيئاً أقل من حملة صليبية صرفة لتخليص الأرض المقدسة من الإسلام، وهم آمنوا بهذا، منذ الزيارة السرية التي قام بها الملك هيثوم إلى قراقورم، وعلى كل حال امتلكت الحملة كل مظهر من المظاهر التي تدل على أنها شبه صليبية، إذ تمت المحافظة على المسيحيين في

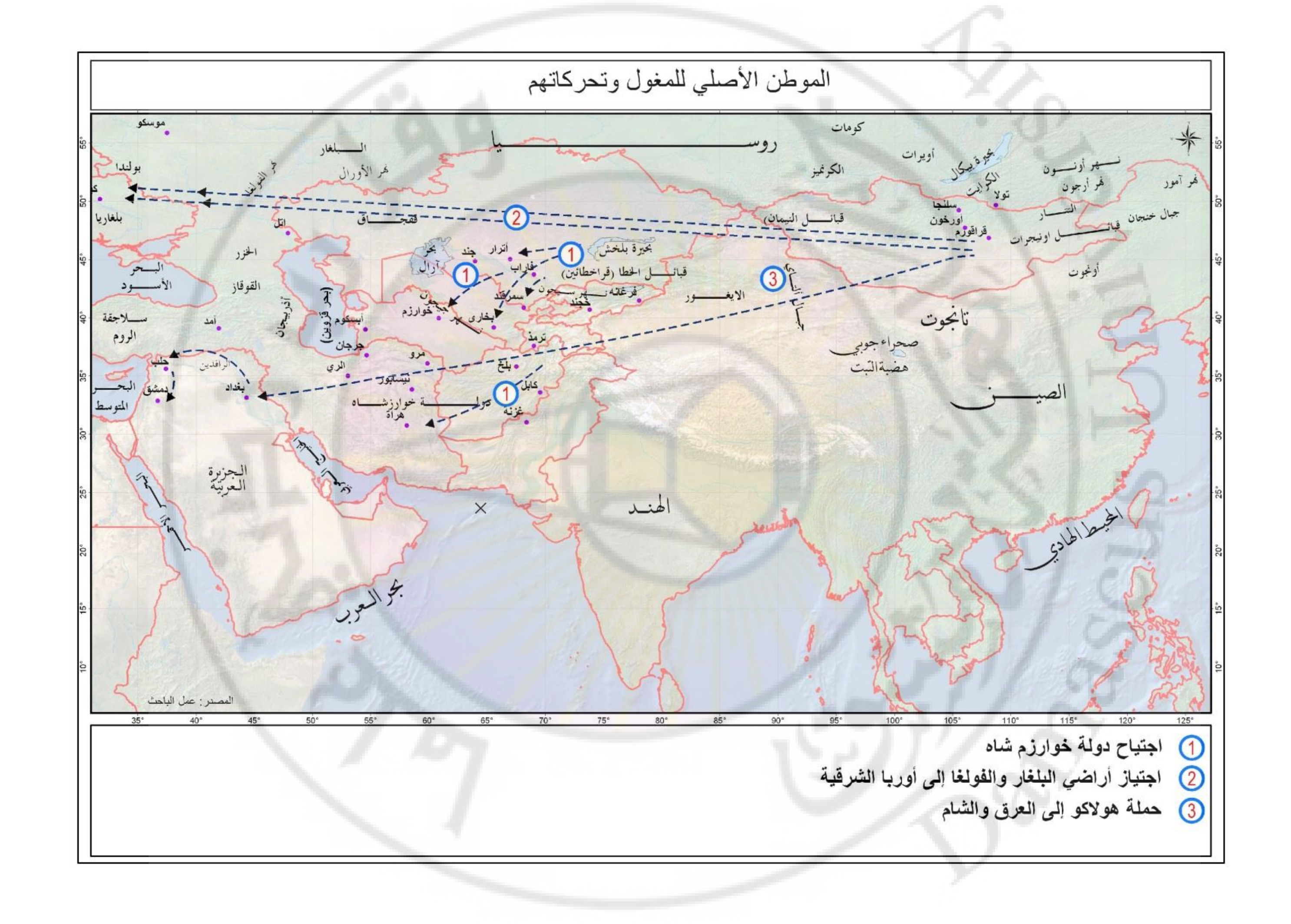
---

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٥١٤.

(٢) ستيفن رنسيمان: الحروب الصليبية، ٣/ ٥٢٨.

بغداد، وفي حلب، وفي دمشق، وأعيد ترميم الكنائس المسيحية، وأظهر المغول وأعطوا كل إشارة إلى أنهم يريدون التحالف مع الدول الصليبية في المرحلة التالية لحملتهم، وفي ذلك الوقت كان هولاكو، والملك هيثوم، والكونت بوهيموند، وفي تلك الساعة بالذات كانوا يخططون للزحف ضد القدس، وإعادتها إلى المسيحية بعد طول الانتظار.

لكن هذا ما لم يتم، والذي حصل في عين جالوت، بعد أشهر، قلب الموازين، وأعاد الأمور إلى نصابها، وحافظ المشرق الإسلامي على إسلامه، وعلى عروبته.



الموطن الأصلي للمغول وتحركاتهم
روسيا
موسكو
بولندا
بلغاريا
البلغار
نهر الأورال
نهر الفولغا
القبجاق
اتل
الخزر
البحر الأسود
القوقاز
أذربيجان
(بحر قزوين)
سلاجقة الروم
آمد
أبسكوم
جرجان
الري
مرو
نيسابور
دولة خوارزمشاه
هراة
بحر آرال
جند
أترار
فاراب
خوارزم
بخارى
سمرقند
ترمذ
بلخ
كابل
غزنه
خجند
فرغانة
بحيرة بلخش
قبائل الخطا (قراخطائين)
الايغور
قبائل النيمان
الكرغيز
كومات
أويرات
بحيرة بيكال
الكرايت
تولا
سلنجا
اورخون
قراقورم
قبائل اونيجرات
أونجوت
التتار
نهر أونون
نهر أرجون
نهر آمور
جبال خنجان
تانجوت
صحراء جوبي
هضبة التبت
الصين
الهند
الجزيرة العربية
بحر العرب
البحر المتوسط
حلب
دمشق
بغداد
الرافدين
المحيط الهادي
المصدر: عمل الباحث
① اجتياح دولة خوارزم شاه
② اجتياز أراضي البلغار والفولغا إلى أوربا الشرقية
③ حملة هولاكو إلى العرق والشام

المقالة الثامنة

معركة عين جالوت

- الجبهة الإسلامية :

نتيجة للانتصارات المتتالية التي حققها المغول، واكتساح الأراضي الإسلامية، دبّ الرعب في سائر البلاد، وترك في صدور الناس أثراً عميقاً جعلهم يعتقدون بأن هذا العنصر الغريب لن تستطيع قوة على وجه الأرض إيقافه، وزاد هذا الشعور بعد سقوط بلاد الشام ووصولهم إلى مشارف مصر.

إلا أن الموقف في مصر كان مختلفاً تماماً، لأن كل شيء فيها يُنبئ بأن هناك قوة جديدة وليدة، بدأت تظهر في مصر، وكانت تلك القوة هي المماليك - الذين أطاحوا الصليبين في المنصورة، وفارسكور- وقد زادت أهميتهم بعد اعتلاء السلطان قطز لعرش السلطنة المملوكية في ذي القعدة ٦٥٧هـ/ تشرين الأول ١٢٥٩م.

وكانت مصر- كما سلفت الإشارة - يحكمها قبل قطز صبي صغير؛ هو المنصور علي بن أيبك الذي استلم الحكم بعد مقتل أبيه، وله من العمر خمسة عشر عاماً، في حين كان قطز نائباً للسلطنة، وكان الشخصية الأبرز في مصر.

تطورت الأمور في بلاد الشام ومصر، ومهدت كلها لاعتلاء قطز عرش مصر، فقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهم بقلعة الجبل، وأعلن

نفسه سلطاناً على مصر في ذي القعدة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م [١]، ثم أرسل إلى الملك الناصر يعده بالمساعدة ويعرض عليه القدوم إلى مصر، فرحل الملك الناصر من دمشق، ومعه الملك المنصور الثاني صاحب حماه باتجاه مصر، ولما وصلا إلى قطية[٢] عاد الملك الناصر ومعه بعض الأمراء إلى فلسطين، لأنه لم يأمن جانب السلطان قطز، في حين سار معظم العسكر مع الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، و معهم نساء الناصر وأولاده، والشيء الذي يهم هنا هو توجه معظم العسكر الشامي إلى مصر بقيادة الملك المنصور، وانضمام هذا العسكر إلى جانب العسكر المصري في معركة عين جالوت.

ولما أرسل هولاكو رسله يحملون التهديد والوعيد للمماليك، كان قطز وأمراؤه قد أخذوا قرارهم بالتصدي للمغول، لذا فإنه أمر بقتل رسل هولاكو، فوسط[٣] واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسّط آخر بظاهر باب زويلة، ووسّط الثالث بظاهر باب النصر، ووسّط الرابع بالريدانية، وعلقت رؤوسهم على باب زويلة [٤].

في الحقيقة عملية قتل الرسل هذه كانت لقطع الشك باليقين، وليقضي على ضعف الروح المعنوية التي لمسها عند بعض الأمراء خلال النقاش الذي دار بينهم [٥]، وأن حالة الحرب مع المغول أصبحت حقيقة واقعة، فوسّط الرسل كل

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٢٦٢/٦-٢٦٣، ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٣٩. المقريزي: السلوك ٤١٧/١.

(٢) قطية: قرية في طريق مصر قرب الفرما، ياقوت الحموي: معجم البلدان، رسم قطية.

(٣) التوسيط قطع الشيء نصفين. وكان التوسيط من طرق الإعدام الشائعة آنذاك، إذ يُربط الرجل المحكوم عليه بالإعدام، ثم يُضرب بالسيف تحت السرة فينقسم إلى قسمين.

(٤) المقريزي: السلوك، ٤٢٩/١. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٢/٢٩. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٤٨.

(٥) انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ ٣١٢/١/٢. فقد أورد تفاصيل النقاش الذي دار بين الأمراء في مصر بعد رسالة هولاكو.

واحد في موقع مختلف من القاهرة لإعلان النفير العام، وتحريض الناس على الجهاد؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى تكون عملية قتل الرسل هذه بمثابة تهديد للتتار ليأخذوا بحسبانهم أن في مصر قوة تختلف عن تلك القوى التي تغلّب عليها المغول في مشرق العالم الإسلامي، وأنها غير آبهة بقوتهم وجبروتهم، وأنها خارج نطاق الرعب الذي فرضه المغول على أعدائهم بوحشيتهم، فكان ذلك بمثابة حرب نفسية.

ولقطع أي تردد في الخروج لمواجهة المغول، أصدر السلطان أوامره إلى ولاة الأقاليم المصرية بجمع الجيوش، وحثَّ الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله، وطالب الولاة «بإزعاج الأجناد للخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع».

اجتمعت لدى السلطان قطز معظم الجيوش التي هربت أمام جحافل المغول، فقد سلف الحديث عن مسير العسكر الشامي تحت قيادة الملك المنصور الثاني صاحب حماه إلى مصر، وكيف خضعت القوى في مصر لسلطان قطز في سبيل محاربة المغول، بالإضافة إلى هذه القوى؛ تحدث رشيد الدين الهمذاني عن جموع العساكر التي تعرضت لويلات الغزو المغولي ابتداءً من الدولة الخوارزمية، ومروراً ببغداد وشمال العراق وبلاد الشام، وكيف تجمع عدد كبير منهم في الأراضي المصرية؛ إذ استقبلهم المظفر قطز أحسن استقبال، وطيَّب خاطرهم، ومنحهم العطايا والأموال، واستقروا في مصر ليكونوا جزءاً مهماً من جيشه،[١] بالإضافة إلى هؤلاء العساكر أمر السلطان داعي الجهاد بالنداء في جميع الديار المصرية وأعلن النفير العام وأرسل خلف عربان مصر، فاجتمع عنده من عساكر مصر ما يقارب أربعين ألفاً.

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، ٢/١/٣١٠– ٣١١. النويري: نهاية الأرب، ٢٩/ ٤٧٢.

بالإضافة إلى هذا بدأ بمراسلة الأمراء الأيوبيين الذين انضووا تحت لواء المغول، طالباً منهم التخلي عن المغول، ومنهم الأشرف موسى صاحب حمص؛ إذ أرسل إليه كتاباً يُسَفِّهُ فيه رأيه على ما اعتمده من ميله إلى المغول، وتفضيلهم على المسلمين، ووَعَدَه أنه إذا ما ترك المغول ومال إليه «بشرط أن لا يقاتل معهم إذا كان بينه – أي قطز- وبينهم- أي المغول- مصافاً» أبقى على ما في يده من البلاد، ولم يطلب إليه المشاركة إلى جانب المسلمين في المعركة، بل فقط الوقوف على الحياد، خوفاً عليه من المغول، فأجابه الأشرف إلى ذلك، فلما طلب كتبغا إلى الأشرف المسير معه إلى عين جالوت اعتذر وتمارض [١].

وقد رافق عملية التجييش هذه عملية جمع الأموال اللازمة لتجهيز القوات بما تحتاج إليه من العدة والعتاد، واعتمد في ذلك على شيخ الإسلام العز بن عبد السلام[٢]، الذي أصدر فتوى مفادها أنه: إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس الخروج لقتالهم، وجاز للسلطان أن يأخذ من الرعية ما يستعين به على الجهاد، وتجهيز العساكر، ولكن جعل الإمام هذا العمل مشروطاً بشرط، وهو أن عملية جمع الأموال من الرعية تتم عندما لا يبقى في بيت المال شيء، ويقتصر الجندي

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ٣١٢/٢. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٣/٢٩.

(٢) عز الدين بن عبد السلام الدمشقي الشافعي، إمام عصره، ولد في دمشق سنة ٥٧٧هـ، وتوفي في القاهرة سنة ٦٦٠هـ، ولي خطابة دمشق، ثم عزل بعد أن هاجم على المنبر حاكمها الصالح إسماعيل لأنه تنازل عن صفد والشقيف للصليبيين، هاجر إلى القاهرة وهناك ولي القضاء والخطابة، ثم عُزل، انظر: الصفدي (خليل بن أيبك، ت٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ٣١٨/١٨-٣١٩. وللعز بن عبد السلام عدة كتب نشر معظمها إياد الطباع في دار الفكر، دمشق، وأهمها كتاب في الجهاد.

على مركوبه وسلاحه، ويتساوى مع العامي، عندئذ يسوغ أخذ شيء من أموال الناس لدفع الأعداء [١].

وبناء على هذه الفتوى قرر السلطان قطز على كل رأس من أهل مصر من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتُجّار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من التُّرك الأهلية ثلث المال.

ولما شعر السلطان بأن الحالة أصبحت تسمح بالمسير لملاقاة العدو، سار بنفسه إلى الصالحية خارج القاهرة ونزل بها، حتى تكامل عنده وصول العساكر المصرية ومن انضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم في يوم الإثنين ١٥ شعبان ٦٥٨هـ/ تموز ١٢٦٠ م، وهنا تكلم السلطان مع الأمراء في موضوع المسير لقتال المغول، فلمس تقاعساً من بعض الأمراء في شأن الجهاد، فقال لهم: «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين» [٢].

وبالطبع عكس هذا الخطاب الحالة النفسية المحطمة عند أمراء المسلمين إبان الإنذار المغولي، هذه الحالة أكدها المؤرخ أبو المحاسن بقوله: «كانت القلوب قد آيست من النُصرة على التتار، وأجمعوا على حفظ مصر لا غير- أي من دون الخروج للتصدي للمغول - لكثرة عدوهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين»، وكان المظفر قطز قد لمس ذلك في نفوسهم، وهذا ما يفسر قتله للرسل، ليظهر الشجاعة، والتصميم، وخاطبهم قائلاً: «أنا ألقى التتار بنفسي»، وهنا لم يَسَعْ بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة والمسير معه.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٢٦٢/٦، المقريزي: السلوك، ٤١٦/١-٤١٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ٤٢٩/٢/١ .

- **الأوضاع على الجبهة المغولية:**

بدأت على الجهة المقابلة أحوال المغول - الذين استفادوا كثيراً من الأوضاع السيئة للبلاد الإسلامية- تتبدل بعد أن ترك هولاكو قيادة الجيوش لنائبه كتبغانوين وعاد يريد قراقورم بسبب وفاة الخان الأعظم منكو خان، والصراع على العرش بين قوبيلاي وأريق بوقا.

المهم أن مغادرة هولاكو أحدثت تحولات خطيرة في بُنية الجيش المغولي، فهولاكو - كما ورد من قبل - لما عاد إلى فارس لم يعد بمفرده، بل عادت معه جموع من العساكر، ولم يترك لنائبه كتبغا من العسكر- على قول بيبرس الدوادار- إلا ما يقارب ١٢ ألف فارس، بعد أن هوّن عليه الناصر صاحب حلب ودمشق أمر مصر والمماليك [١]، بينما ذكر ابن العبري أن القوة التي أبقاها هولاكو مع كتبغا هي عشرة آلاف مقاتل [٢]، أما المؤرخ الأرميني المعاصر سمباط فذكر أن هولاكو لما عاد إلى الشرق اصطحب معه ابنه أبغا، وقام الأخير بسحب جيشه معه [٣]، ولم يأتِ على ذكر تعداد العساكر المنسحبة أو الباقية، وعلى كل حال لم يعد الجيش المغولي الذي سار إلى دمشق - من حيث العدد - كما كان من قبل.

أما صليبيو بلاد الشام ، فصحيح أن بوهيمند السادس ملك أنطاكية، وهيثوم ملك الأرمن كانا يشاركان في عمليات الجيش المغولي على الأراضي الإسلامية، لكن بارونات عكا ظلّوا ينظرون إلى المغول على أنهم برابرة لا يمكن الاطمئنان إليهم، في الوقت الذي أدركوا فيه أن المغول لن يسمحوا لهم بإقامة إمارة صليبية مستقلة، بل يريدونهم تابعين للخان الكبير، لذا كان هؤلاء الصليبيون حذرين من

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٩/٢٧-٢٨.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٠.

(٣) سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/٣٣٢.

المغول، لاسيما أن أعمالهم في شرق أوروبا كانت مدعاةً للنفور [١]، وقد تطوّر هذا الشعور عندما هاجم أحد البارونات المسمى جوليان الصيداوي (Julian de sidon) دورية مغولية، وقتل ابن أخ كتبغا، فسخط المغول وقرروا الانتقام، فهاجموا مدينة صيدا، وأنزلوا بها خسائر فادحة [٢]، ولهذا السبب – ولغيره – التزم الصليبيون الحياد في معركة عين جالوت.

يُستنتج من الكلام السالف أن جبهة المسلمين كانت جبهة موحدة، بينما كانت الجبهة المغولية تتعرض لعوامل الضعف والانقسام والتصدع، وهذا ما أشار إليه المؤرخ الأرمني غريغوري أوف أكانك عندما قال إن الجيش المغولي كان قُبيل معركة عين جالوت يعيش حالة عدم استعداد [٣].

– المسير إلى عين جالوت :

يَلْحَظُ المرء في معركة عين جالوت حالة جديدة لم يألفها الجيش المغولي من قبل؛ وهي خروج الجيوش الإسلامية لقتاله، في حين أن المسلمين قبل ذلك التزموا مبدأ الدفاع والتحصّن داخل مدنهم، منتظرين الهجوم المغولي عليهم، متناسين أن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع، أما في معركة عين جالوت فقد اتبع المماليك إستراتيجية جديدة، وهي منازلة العدو قبل وصوله إلى ديارهم، ثم فرض مكان المعركة المناسب للمماليك، والذي كان له أثره في انتصارهم، أما إذا حلت بهم الهزيمة فسيكون عندهم فرصة أخرى للتراجع، وإعادة تجميع قواهم من جديد، ومنذ ذلك الوقت دافع المصريون دائماً عن مصر في بلاد الشام.

---

(١) رنسيمان: الحروب الصليبية، ٥١٣/٣، ٥٣٤-٥٣٥.

(٢) الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٤٣-٤٤.

(١) غريغوري أوف أكانك: تاريخ أمة الرماة، ص٤٢٥.

تقع عين جالوت في سهل مرج ابن عامر في الجزء الجنوبي الشرقي منه في شمال فلسطين، يحدها من الشمال الشرقي الناصرة، ومن الجنوب جينين، ومن الجنوب الغربي الكرمل وجبال نابلس، ومن الشرق جبال فقوعة، ووادي جالوت، ومن الشمال الغربي تلال شفا عمرو، وهي قريبة من جبال الفقوعة، وتحيط بها الأنهار والأودية.

وتكثر في المنطقة الينابيع والعيون الصالحة للشرب، مثل عين العاصي، وعين الجندي، وعين البادرية، وعين نصر، وعين موسى... ، وتحيط بها الجبال والتلال، أما السهول فأهمها سهل مرج ابن عامر الذي يبلغ طوله نحو ٤٠ كم شرقاً وغرباً بعرض ٢٠ كم شمالاً وجنوباً.

هذا السهل هو أوسع السهول الموجودة في فلسطين، وأغناها بالتربة والمياه، يميل هذا السهل من الجهة الجنوبية الشرقية من جينين، إذ يتدرج بالانخفاض البطيء باتجاه الشمال الغربي إلى منتصف السهل (إلى جنوب العفولة)، وبالمقابل يتدرج بالميل من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية حتى منتصف السهل أيضاً، وعندما تلتقي الميول تتجه نحو الغرب حتى تصل إلى العجرة، وتكثر في هذا السهل الطرقات والمدقات من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ويسهل فيها السير للراكب والراجل.

ومما لاشك فيه كان هذا السهل أنسب مكان للقتال، ولا سيما منطقة عين جالوت؛ لأن المنطقة الغربية منه فيها بعض المستنقعات التي تعيق حركة الفارس، كما أن المنطقة الشرقية فيها أودية وأحجار كثيرة، وأخاديد تحد من الحركة، وتقيّد من المناورة، أما سهل بيسان فهو شديد الحرارة، وفيه من السباخ ما لا يؤمن الشروط المناسبة للقتال[١]، لذلك نجد أن اختيار مكان اللقاء كان

---

(١) محمد ضاهر وتر: معركة عين جالوت، ص ٨٨-٨٩.

موفقاً إلى حد ما، ناهيك عن أن الجيش المملوكي، وإن لم يكن جيشاً عظيماً، كان جيشاً محترفاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فالتسليح أو التدريب أو المقدرة السوقية والبراعة في المناورة والتكتيك الحربي، كل أولئك كان على أكمله[1].

بدأ مسير الجيش المملوكي انطلاقاً من الصالحية باتجاه فلسطين، فكانت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس الذي تقدم الجيش بفرقة مهمتها استطلاع أخبار المغول، وتمهيد الطريق للقوات الرئيسية الزاحفة خلفه، فسار الأمير بيبرس حتى نزل غزة في شعبان ٦٥٨هـ/ حزيران ١٢٦٠م، في الوقت الذي كان بيدرا قائد طليعة جيش المغول أيضاً يتقدم بقواته حتى وصل إلى غزة، ولما رأى الطليعة الإسلامية بقيادة بيبرس أرسل إلى كتبغا الذي كان بالقرب من بعلبك يخبره بتحركات جيش المسلمين، ويطلب منه المدد، فرد عليه كتبغا يطلب منه الانتظار والثبات في مكانه حتى تأتيه النجدات، ولكن الأمير بيبرس لم يمهله، فبادره بالهجوم وهزمه، ثم طاردهم بيبرس حتى نهر العاصي، وملك غزة بالقوة[2].

تعدُّ هذه المعركة أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول، فقد أفادت المسلمين كثيراً من الجانب المعنوي، وكانت دافعاً قوياً لهم للتوجه إلى عين جالوت ليتسنى لهم اللقاء على نحوٍ أفضل، كما أفادت هذه المناوشة فائدة عظيمة، فقد قدمت للمماليك استطلاعاً قتالياً مباشراً، واختباراً لقدرات العدو وأساليب قتاله، كما قدمت معلومات مموهة عن طبيعة الجيش المملوكي وتعداده وتحركاته وقطعه الرئيسية الموجودة مع قطز؛ الذي عرج – قبل الذهاب إلى عين جالوت– إلى عكا أولاً لاستطلاع موقف الصليبيين، طالباً منهم السماح

---

(١) سهيل زكار: فلسطين في عهد المماليك، ص ٥٤٠.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٣٦٥/١-٣٦٦. المقريزي: السلوك ٤٢٩/٢/١-٤٣٠. ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٤٩.

للجيوش الإسلامية باجتياز الأراضي التي بحوزتهم والتزود بالمؤن؛ فوافقوا، وعرضوا عليه المساعدة ضد المغول لأنهم كانوا مستاءين من تصرفهم في صيدا، لكنه اكتفى بأن أخذ منهم وعداً بالوقوف على الحياد «لا له ولا عليه»، ثم وجّه إليهم تحذيراً بأنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد إلحاق الأذى بالمسلمين، رجع إليهم وقاتلهم قبل أن يقاتل المغول[1]، لذلك «أضحى المماليك وقتئذ من الصلاحية والسلامة ما يجعلهم يقبلون تحدي المغول».

- الاشـــتباك :

قبل الخوض في تفاصيل معركة عين جالوت تجب الإشارة إلى أن الجيش المملوكي لم يشتبك من قبل في معركة مع الجيش المغولي؛ باستثناء اشتباك الأمير بيبرس سالف الذكر في غزة، غير أن هذا لا يعني بالضرورة أن الجيش المملوكي كان يجهل تماماً أساليب القتال المغولية، فالعساكر الشامية؛ وغيرها من العساكر الإسلامية التي فرَّت أمام المغول، وتجمعت في مصر-كما سلف الحديث-، كانت قد اشتبكت مع المغول في معارك سالفة، ومن الطبيعي أن تكون هذه العساكر قد قدمت معلومات مفيدة عن الفنون القتالية لدى المغول، زد على هذا أن ابن عبد الظاهر تحدث صراحةً عن أهمية المعلومات التي حصل عليها بيبرس في معركة غزة مع بيدرا، فقال: « وردت رسل الملك الظاهر يُنذر الناس، ويعلمهم بقرب العدو، وينبه على عورات العدو، ويقللهم في أعينهم، ويجسرهم على انتهاز الفرصة، وكان ذلك أحد أسباب النصر»،[2] كما أن جواسيس المماليك كانوا ينقلون لهم أخبار المغول أولاً بأول،[3] والأهم من هذا

---

(١) المقريزي: السلوك ٤٣٠/١. الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص ٤٦-٤٧.

(١) ابن عبد الظاهر: الروض، ص٦٤.

(٢) سمباط: تاريخ سمباط، ٣٦/ ٣٣٢.

كله أن السلطان قطز كان قد حصل قبل الاشتباك مع المغول على معلومات قيّمة من صارم الدين أزبك، وكان صارم الدين هذا مملوكاً للأشرف صاحب حمص، ثم دخل في خدمة هولاكو، فوثق به هولاكو وقرّبه إليه، ولما غادر هولاكو حلب أوكل لهذا المملوك مهمة استشارية؛ وهي أن يقدم المعلومات لكتبغا وبيدرا، تلك المعلومات التي تساعدهم في دخول مصر، ثم أمره بالتوجه إلى كتبغا، فقال هذا المملوك: «لما قدمت الشام، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية.... بعثت غلاماً لي في صفة جاسوس، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز، والأمير بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وسنقر الرومي، ويُعَرِّفهم أن التتار لا شيء، فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال، وعرَّفهم بأن التتار في عسكر قليل، وأوصيته أن يوصي المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس، ... وكنت قلت في جملة كلامي: قل للأمراء لا تخافوا، ها أنا ذا وأصحابي والملك الأشرف، ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان» [١].

بعد أن أنهى السلطان قطز مفاوضاته مع الصليبيين توجه من عكا صوب الجنوب الشرقي، فاجتاز الناصرة في طريقه إلى عين جالوت، الواقعة بين بيسان ونابلس، وكان كتبغا قد وصل إلى أرض المعركة «وكأنه بحرٌ من اللهب بسبب الغيرة والغضب»، وبدأ الأمير بيبرس يناوش المغول، فتارة يُقْدِم وتارة يُحْجِم، إلى أن وافاه السلطان في عين جالوت.

---

(١) وردت هذه الرواية في تاريخ قرطاي العزي الخازنداري، ونقلها الدكتور أحمد عبادي كاملة في كتابه: قيام دولة المماليك الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، الملحق رقم ٣، ص ٢٥٦.كما أوردها ابن أيبك في كتابه الدرة الزكية، ص ٥٣-٥٧، مع اختلاف جوهري، وهو لما أرسل إلى المماليك طلب إليهم أن يقووا الميمنة الإسلامية، أما في رواية الخازنداري طلب إليهم أن يقووا الميسرة الإسلامية.

كان المصاف الأعظم في يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ أيلول ١٢٦٠م، وكان اللقاء بعد طلوع الشمس، وتحدث صارم الدين عن تفاصيل ما قبل اللقاء، عند قدوم عساكر المسلمين، قائلاً: «فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت، وطلعت الشمس علينا، وظللت عساكر الإسلام، وكان أول سنجق سَبَقَ أحمرُ وأبيض، وكانوا لابسين العُدد المليحة، وأشرقت الشمس على تلك العُدد، فطلبني كتبغا وقد بُهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحُسن ما عليهم وجمالهم وهم منحدرون من الجبل، وقال لي: يا صارم! هذا رنك[١] من؟ قلت: سنقر الرومي، ثم ظهرت سناجق صُفر، قال: هذا رنك من؟، قلت: بلبان الرشيدي، ثم تتابعت الأطلاب[٢] أولاً فأول وانحدروا من سفح الجبل، ودقت الكوسات[٣] والطبلخانات[٤] وامتلأ الوادي والبر من العياط، وغارت الفلاحين

---

(١) رنك: كلمة فارسية بمعنى اللون، وقد استعملت كشعار للوظائف، وكان من عادة كل أمير مملوكي كبير أو صغير أن يكون له رنك خاص به، والرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي شغلها الأمير، فعند ترقيته إلى مرتبة أعلى، أو إلى الوظيفة التي يؤثر أن يعرف بها من بين الوظائف التي شغلها، وقد جعل الأمراء هذه الرنوك دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم وأملاكهم ومراكبهم، وعلى السيوف والأقواس الخاصة بهم وبمماليكهم. القلقشندي: صبح الأعشى: ٤/ ٦٣.

(٢) طُلب: الفرقة من المماليك خاصة بأمير من الأمراء وجمعها أطلاب، وعدد عسكره ٧٠-٢٠٠ فارس في ميدان القتال، ثم استخدم للدلالة على الكتيبة. محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، ١٩٩٠م، ص ١٠٨.

(٣) الكوسات هي صنوجبات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، ويتولى ذلك الكوسي. القلقشندي: صبح الأعشى، ٨/٤. ابن شاهين (غرس الدين خليل الظاهري): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشره بولس راويس، طبعة مصورة عن طبعة باريس، ١٨٩٤م، دار العرب للبستاني، القاهرة، ١٩٨٨-١٩٨٩م، ص ١١٣.

(٤) الطبلخانة كلمة فارسية معناها بيت الطبل، أو الفرقة الموسيقية السلطانية، وكانت العادة أن تدق كل ليلة في القلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب. القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٧-٨. دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص١٠٦.

وأهل القرى والبلدان من كل جانب، وكنت غراً بمعرفة رنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألني هذا رنك من؟، فصرت أي شيء طلع على لساني قلته»[١].

أما المسلمون فقد سيطر عليهم الخوف من التتار، فلما قدم رسول صارم الدين إلى المماليك «وجدهم خائفين من التتار خوفاً عظيماً» ولما التقى الجمعان في عين جالوت كان «في قلوب المسلمين وهم عظيم من التتار»، بدأ القتال؛ وكان قتالاً شديداً لم يشاهد أحد مثله من قبل، فانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر، فحمل السلطان قطز بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة، حتى تحاربوا وتراجعوا وجبر ضعفها، واشتد القتال، والسلطان المظفر يشجع أصحابه ويُحَسِّن لهم الموت، ويكرّ بهم كرّة بعد كرّة.

ولما رأى اضطراب عسكره، ألقى عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته «واإسلاماه»، فالتفت حوله القوات وحملوا على المغول حملة رجل واحد، فاختل توازن المغول، في الوقت الذي كان فيه الأمير بيبرس قد نصب كميناً للتتار في المنطقة، إذ عمد إلى إخفاء بعض قواته في الأحراش وبين الأشجار المحيطة بعين جالوت لتضليل العدو بطليعة المسلمين، إلى أن وصلوا إلى الكمين الذي أعده لهم الأمير بيبرس، فانقضت عليهم القوات الإسلامية من ثلاث جهات واستبسل المسلمون في قتال المغول إلى أن فتح الله عليهم بالنصر، وقُتل كتبغا [٢].

انهارت جموع المغول ولاذوا بالفرار، ثم إنهم عادوا وانتظموا مرة ثانية بالقرب من بيسان في مصاف أعظم من الأول، لاحتواء الهزيمة التي حلت بهم في عين جالوت، وكان هذا اللقاء أشد من سالفه في عين جالوت، زُلْزِلَ فيه

---

(١) انظر رواية صارم الدين أزبك عند العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ملحق ٣، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) المقريزي: السلوك ٤٣٠/٢/١. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٤/٢٩.

المسلمون زلزالاً شديداً، ثم عاد السلطان قطز يصرخ صراخاً قوياً سمعه معظم العسكر، وهو يقول: وإسلاماه، ثلاث مرات، «يا ألله انصر عبدك قطز على التتار» [١]، فقويت عزائم المسلمين، وانتهى أمر هذه الواقعة التي اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة عدة مرات إلى نصر المسلمين وهزيمة المغول، فنزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى، ثم ركب لينظر عاقبة المغول، فأقبل العسكر، وقد امتلأت أيديهم بالغنائم[٢].

ويذكر ابن عبد الظاهر أن الأمير ركن الدين بيبرس لم يشغله ما قاساه من التعب في معركة عين جالوت، بل ساق خلف المغول، وكان من المفترض أن تنسحب فلول المغول عبر البادية الشامية، لكنهم انسحبوا الآن باتجاه الشمال، على الطريق الساحلي، لأن أرمن دويلة كيليكيا عملوا أدلاء لهم، فقد ذكر سمباط أخو هيثوم أن عدداً من الأرمن شارك في المعركة إلى جانب المغول، ثم قادوا فلولهم نحو كيليكيا، للالتجاء السريع إليها، فأدركهم بيبرس عند أفامية وقد تجمعوا ووحدوا صفوفهم للمرة الثالثة، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة، وغنم منهم أموالاً طائلة. ويقول ابن تغري بردي إن المطاردة استمرت حتى حلب حيث حُرِّرت الأسرى منهم، وقُتل قادة المغول الذين عُينوا حكاماً على المدن الشامية، وأُسرت نساؤهم وأطفالهم[٣]، ولما وصلت أخبار الهزيمة إلى هولاكو استبدّ به الغضب، وأراد إرسال جيش آخر لمحاربة المماليك، غير أن

---

(١) المقريزي: السلوك، ١/٢/٤٣٠-٤٣١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١/٣٦٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ١/٢/٤٣٠-٤٣١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ١/٣٦٦. وقد كتب الأديب المصري أحمد علي باكثير رواية وإسلاماه، وصف فيها تفاصيل المعركة بصورة أدبية رائعة.

(٣) رشيدالدين: جامع التواريخ، ٢/١/٣١٦.

الخلافات الحادة والحروب الأهلية التي وقعت بينه وبين أقاربه من حكام القبيلة الذهبية حالت دون تنفيذ رغبة هولاكو، فَعَدَل عن فكرته، وكل ما استطاع فعله هو قتل الملك الناصر صاحب حلب ودمشق، مع أمراء الشام الذين كانوا أسرى عنده[١].

وكان الذي وقع في عين جالوت واحدة من أكثر المعارك أهمية في تاريخ العالم، ونقطة تحول كبرى فيه، فقد ترتب عليها نتائج بالغة الأهمية سياسياً وعسكرياً وحضارياً، على مستوى الغرب والشرق، وبرهنت أن الاحتراف العسكري المدعوم بالظهير الشعبي، والمستند إلى الإيمان، والمتحلي بالعبقرية يمكنه أن يهزم أي قوة مهما بلغ جبروتها.

ولعل أهم نتائج معركة عين جالوت هو تحرير الشام وخضوعه لحكم المماليك، فلما احتل المغول حلب ودمشق وبقية بلاد الشام «انقضت الدولة الأيوبية من البلاد الشامية، كما زالت من الديار المصرية» [٢]، وبعد معركة عين جالوت وانسحاب المغول شمالاً حدث فراغ في السلطة في بلاد الشام؛ فملأه المماليك بحكم انتصارهم، وأصبح قطز سيد الموقف في بلاد الشام.

فنصر عين جالوت كان سبب خلاص الشام من أيدي المغول، وتبعيتها للحكم المملوكي، إذ أقيمت الخطبة باسم قطز في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات، وفي الثاني من شوال ٦٥٨هـ/١٢٦٠م دخل السلطان قطز دمشق، وأعلنت سائر بلاد الشام خضوعها له، باستثناء إمارة الكرك التي كان يحكمها الملك المغيث الأيوبي، فبدأ بترتيب أمور الشام، وعيّن النواب على ولاياتها، وبذلك يكون السلطان قطز «هو أول من ملك البلاد الشامية واستناب بها من ملوك الترك» [٣].

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، ٣١٧/١/٢. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ، ص ١٦٦.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ٢٧/٩. النويري: نهاية الأرب، ٤٧٢/٢٩.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٨٣/٧.

لقد دمرت معركة عين جالوت أسطورة أن المغول لا يهزمون، وأثبتت أن جيشهم مثل أي جيش آخر عرضة للسقوط.



المطلب الثامن

نظام الإقطاع العسكري السلجوقي
والمؤسسات الإدارية
في بلاد الشام ومصر
في عصر المواجهة مع الصليبيين والمغول



توطئـة

كانت أهم الدول الإسلامية التي تولت مسؤولية التصدي للصليبيين والجهاد في سبيل اقتلاعهم من بلاد الشام والجزيرة هي: البورية في دمشق، والزنكية في الموصل وحلب ودمشق، والأيوبية في بلاد الشام ومصر، ومثلها سلطنة المماليك، وكانت هذه قد تفرعت عن سلطنة السلاجقة وورثت أنظمتها، فقد دافعت الدولة البورية عن دمشق وحالت دون سقوطها للصليبيين حتى دخلها نور الدين ووحدها مع حلب، وفي ظل الدولة الزنكيّة حُررت مدينة الرُّها، وتوحدت بلاد الشام، ونقلت الوحدة إلى مصر، وفي عصر الدولة الأيوبية التي ورثت الأتابكة الزنكيين كانت معركة حطّين وتحرير مدينة القدس، ثم الوقوف أمام الحملات: الثالثة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، وفي أيام المماليك الأتراك الأوائل جرى تحرير أنطاكية، ثم طرابلس، وأخيراً عكا عام ١٢٩١م، حيث طُويت صفحة الاحتلال الصليبي.

وعاش أهل الشام بشكل خاص خلال قرني الحروب الصليبية في حالة حروب مستمرة مما كان له أبعد الآثار على أحوالهم السياسية والاجتماعية والثقافية والعسكرية والاقتصادية مع جميع أوجه الحياة، وفي ظل الأوضاع الاستثنائية يصعب الحديث عن حياة هادئة طبيعية فيها إدارات مدنية متطوّرة مستقرة ومعافاة، مع اقتصاد يعتمد على الزراعة، والحِرَف، والتجارة بشكل انسيابي مستقر، ومع ذلك كانت هناك بعض المؤسسات الموروثة، التي كانت تنتعش أحياناً ثم تختفي حتى تكاد تزول من الوجود، مثل الوزارة، ففي ظلّ

الحكام العسكريين باشر هؤلاء كل شيء بأنفسهم، اعتماداً على بعض الموظفين الكبار، لأن هؤلاء الحكام أمضَوا معظم أوقاتهم في جبهات القتال، وليس في إحدى الحواضر، يضاف إلى هذا أنّ السلطة رست في عصر الحروب الصليبية في القلاع والحصون، وكان كل صاحب حصن أو قلعة سيد دويلة صغيرة خاصة به، وعلى هذا انعدمت المركزية في الدولة الواحدة، ورسخ هذا الواقع، لا بل زاده تعقيداً الإقطاع العسكري.

- الإقطـــاع العســـكري :

وجاء الإقطاع العسكري إلى الوجود بعد استيلاء الدّيلم على مقاليد السلطة في الدولة العباسية، ويعزو بعضهم اعتماد هذا النظام، إلى اختفاء الطبقة البورجوازية التجارية للخلافة العباسية، وتناقص السيولة المالية، لذلك اضطرّ الدّيلم إلى ربط أعطيات الجند وخدماتهم بالأرض، وقد عزا ذلك بعضهم إلى الطبيعة القبلية للدّيلم، لكن هذا لا يكفي، إذ لا بد من سؤال: هل اخترع الدّيلم نظام الإقطاع العسكري، أو أنهم بعثوه إلى الوجود من التراث الإيراني القديم، ولاسيما الساساني منه؟

لقد عرف الساسانيون أنظمة للإقطاع العسكري، كانوا قد ورثوها عن الإخمينيين[١]، ويرجح أنّ الإخمينيين قد أخذوا أنظمة الإقطاع العسكري عن البابليين، فقد ورد ذكر هذه الأنظمة في قانون حمورابي في المواد: ٢٦-٣١[٢]، ومنذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حدث بَعثٌ للأنظمة الفارسية القديمة

---

(١) الدّولة الإخمينية هي التي أسّسها قورش في سنة ٥٣٩ ق.م بعد القضاء على دولة بابل الثانية، انظر حول مسألة الإقطاع الساساني كتاب «إيران في عهد الساسانيين» تأليف أرثر كريستنس- ترجمة عربيّة، ط. القاهرة ١٩٥٧/ ص: ٩٣-٩٤، ١١٨-١٩٦.

(٢) شريعة حمورابي – ترجمة عبد الوهاب الكيّالي- ط. حلب ١٩٥٨، ص٥٩.

في ميادين السلطة والإدارة، وتوافق ذلك مع تفتت الدولة العباسية وعجزها المالي، لذلك تم اللجوء إلى نظام الإقطاع العسكري، وقد بين ذلك نظام الملك في كتابه «سياست نامه» بقوله: «لقد كان من عادة الملوك القدماء ألا يقطعوا الجيش شيئاً، بل يدفعوا لكل منهم، بحسب درجته، عطاءه من الخزينة نقداً أربع مرّات سنوياً، فكان الجند في يسر ورخاء دائماً»[1]. وعند قيام السلطنة أسس نظم هذه السلطنة وإدارتها وفق الموروث الفارسي وزيران كبيران هما الكُنْدُري وزير طغرل بك، ثمّ الوزير نظام الملك، الذي يُعدّ واحداً من أعظم الشخصيات الإدارية والفكرية والسياسية في التاريخ الإسلامي، وإليه يُعزى تطوير نظام الإقطاع العسكري ويمكن التعرف إلى بعض ذلك في كتاب «سياست نامه» المنسوب إليه.

ونظام الإقطاع العسكري الإسلامي يختلف عن نظام الإقطاع الذي عرفته أوربا الغربية في العصور الوسطى، إذ بقي سكان الأراضي المُقطعة أحراراً، يقول نظام الملك: «ليعلم المستقطعون أن لا شأن لهم على الرعايا سوى تحصيل الأموال المستحقة عليهم بالحسنى، على أن يكونوا بعد ذلك آمنين على أنفسهم وأموالهم ونسائهم، وضياعهم وما يملكون، دون أن يكون لأصحاب الإقطاعات عليهم من سبيل»[2]. وأوصى نظام الملك باستبدال «العمال والمستقطعين كلّ سنتين أو ثلاث، قبل أن يثبتوا أقدامهم ويحصنوا أنفسهم، أو يصبحوا مبعث قلق، وحتى يحسنوا معاملة الناس، وتظل الولاية عامرة»[3]، ويُفهم من كلام نظام الملك أن نظام الإقطاع هو الوسيلة التي كان يمكن بوساطتها إنشاء جيش من

---

(١) سياست نامه – ترجمة عربيّة، ط. بيروت (دار القدس). ص١٢٥. وأفضل المصادر حول الفكر الفارسي السّلطوي والسّياسي هي: عهد أردشير. كتاب تنسر. الشّاهنامة للفردوسي. جهار مقالة للعروضي. التبر المسبوك في نصيحة الملوك لأبي حامد الغزالي، ثمّ مؤلفات كثيرة في نصيحة الملوك.

(٢) سياست نامه، ص٦٠.

(٣) سياست نامه، ص٦٧.

مختلف الشعوب، لأن «اتخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الأخطار والتخريب والفساد، وعدم الجدّيّة والبلاء في الحرب»[1].

وجلب السلاجقة نظام الإقطاع العسكري معهم إلى بلاد الشام، ومن بلاد الشام انتقل إلى مصر، فصلاح الدين هو أوّل من أدخل الإقطاع العسكري إلى مصر حيث صارت «أراضي مصر كلها تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده»، وكان صلاح الدين قد قام بتصفية جيوش الخلافة الفاطمية «من العبيد السود، والأمراء المصريين والعربان والأرمن وغيرهم، واستجد عسكراً من الأكراد والأتراك خاصة»[2].

ويُستدل من بعض المصادر أنّ الزنكيين كانوا يورّثون الإقطاعات من الآباء إلى الأبناء، وإذا صدف وكان الوريث قاصراً، كانوا يكلفون من يقوم برعاية الميراث حتى يشب الوارث ويُصبح قادراً على إدارة إقطاعه وتأدية الخدمة العسكرية المتوجبة عليه تجاهه، لكن صلاح الدين لم يطبق مبدأ التوريث في مصر[3]. وبموجب نظام الإقطاع، صار على كل مقطع تقديم عدد محدد من العساكر – حسب مساحة إقطاعه – وتجهيزهم بالسلاح والعتاد وبأسباب العيش، وعاش الجند في العصر الزنكي والأيوبي في ظل نظام الإقطاع حياة فيها أكثر من الكفاية، ومع ذلك انعكس هذا النظام سلباً على صلاح الدين أثناء التصدي للحملة الصليبية الثالثة، وإثر وفاته، وعلى الرغم من ذلك تطور نظام الإقطاع العسكري كثيراً في العصر المملوكي، وصار لتوزيع الإقطاعات على الجند رسوم خاصة، حيث كان السلطان يجلس في أيام معينة، في قاعة خاصة، ويجلس معه الأمراء عن يمينه وشماله، ومعه أيضاً ناظر ديوان الجيش، فيقرأ الناظر المتعلق

---

(١) سياست نامه، ص١٢٦.

(٢) خطط المقريزي، ص٩٤-٩٦.

(٣) الباهر لابن الأثير، الموسوعة الشاملة، ١٤ /٢٠٠-٢٠٤.

بالإقطاعات على المسامع، فيوافق السلطان على الذي يريده، ويصدر ذلك باسم الأمراء وخاصاً بهم، فالأمراء هم الذين كانوا يقطعون العساكر، وكانت القاعدة أن للأمير ثلث الإقطاع وللأجناد الثلثين، وصار يُطلق على الإقطاع اسم «الخبز»، وكانت الإقطاعات الممنوحة للأمراء كل حسب مكانته، وشملت على العموم أفضل الأراضي وأكثرها خصباً، ولا بدّ أنّ بعض المشاكل قد قامت بين الأمراء والعساكر، أو بين الأمراء والفلاحين العاملين في الأرض، وعلى العموم كانت أوضاع الفلاحين سيّئة(١).

- الجيش :

وأقيم نظام الإقطاع العسكري في سبيل الإنفاق على الجيوش، ولما تأسست السلطنة السلجوقية جاء ذلك اعتماداً على القبائل التركمانية، ومع ذلك اختص كل سلطان منذ البداية بقوة خاصة به، وغالباً ما كان ذلك من الغلمان عن طريق الشراء، وذكر نظام الملك في كتابه سياست نامه أن السلاطين أخذوا يفضلون بعد تأسيس السلطنة عدم الاعتماد فقط على التركمان حتى في الحرس الخاص، وبناء عليه قال: «إنّ اتخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الأخطار والتخريب والفساد، وعدم الجدية والبلاء في الحرب، لذلك ينبغي أن يؤسس الجيش من كل جنس وملة، وأن يرابط في القصر ألفا رجل من الديلم وخراسان، يحتفظ بالموجود منهم ثمّ يُهيّأ الباقي بعد ذلك». وذهب نظام الملك إلى الترخيص

---

(1) The Financial System of Egypt. 1169-1341 by Hassanain Rabie، Oxford1972. Pp.26-30

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، لعبد المنعم ماجد.ط. القاهرة ١٩٧٩ ص١٤٠-١٤٣. النظم الماليّة في مصر زمن الأيّوبيين لحسنين محّمد ربيع. ط. القاهرة ١٩٦٤ ص٢٥-٣٩.

بتجنيد عناصر أخرى حتى وإن كانت غير إسلامية[1]، والمستعرض لأخبار اجتياح الغُزّ لبلاد الشام يصعب عليه الحديث عن جيش أو جيوش بل الأمر اعتمد على مجموعات قبلية مسلمة، حتى جيش السلطان ألب أرسلان الذي خاض به معركة منازكرد كانت طبيعته قبلية، مجموعات تتجمع وقت الحاجة ثم تتفرق[2].

وتنبه نظام الملك إلى هذه المسألة الخطيرة، وأوصى بمعالجتها فقال: «على الرغم من النفرة والملالة من التركمان وكثرة عددهم، فإن لهم حقاً ثابتاً على الدولة، إذ أسهموا في خدمتها إبان قيامها، وتحملوا في سبيلها المتاعب والمشاق، فضلاً عن أنهم من ذوي القربى، لذا ينبغي اختيار ألف من أبنائهم وتربيتهم وتنشأتهم على سبيل غلمان من غلمان القصر، لأنهم في اشتغالهم المستمر فيه يتعلمون آداب السلاح والخدمة، ويحتكون بالناس فتلين قلوبهم، ويخدمون كغلمان، وتزول من نفوسهم وطباعهم ما وقر فيها من نفرة، وكلما دعت الحاجة يركب خمسة أو عشرة آلاف منهم بلباس الغلمان وأسلحتهم لأداء المهمة التي يُندبون لها، كل هذا لئلا يظلوا دون نصيب في هذه الدولة، وليكونوا سعداء فرحين بها، وليكسب الملك الحمد والثناء»[3].

وأخذ بهذه القاعدة حكام السلاجقة، ولاسيما زنكي، ومع ذلك لم يكن في الغلمان كفاية لسدّ جميع الحاجات، لذلك عمد إلى تجنيد عناصر من التركمان، ومن القبائل العربية، لا بل حتى من الفلاحين، كما أنه وسّع اعتماده على

---

(١) سياست نامه، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) انظر مدخل إلى تاريخ الحروب الصّليبيّة، ص٦٥-٢٢٢.

(٣) سياست نامه ص١٢٩.

الأكراد، فأدخل في خدمته كل من أيوب وشيركوه، هذا وقتِل زنكي غيلة على يد عدد من غلمانه[1].

واعتمد نور الدين كثيراً على الأكراد، فلما انتشر خبر مقتل زنكي أخذه شيركوه وساق به إلى حلب[2]، وفي دولة نور الدين بقي شيركوه الأول بين القادة العسكريين، وعليه اعتمد في حملاته إلى مصر، ومع ذلك جنّد نور الدين مجموعات أخرى من التركمان وسواهم، حتى بات جيشه يتألف من قطع حملت كلّ واحدة منها اسم قائدها، وكانت أكبر مجموعة تركمانية عُرفت بالياروقيّة، كان زنكي قد أقطعها بعض ريف حلب، ولأن جيش نور الدين قد تألف من عدة مجموعات متنافسة، لم يستطع ابنه الصالح إسماعيل البقاء في الملك، واستولى صلاح الدين بجيشه الجديد على ميراث نور الدين، ثمّ خاض بعد ذلك بنجاح معركة حطين وصمد في وجه الحملة الصليبية الثالثة.

وكان صلاح الدين عندما تسلم الوزارة في القاهرة عقب وفاة عمّه شيركوه قد تخلى عنه قادة العساكر التركمان، وعادوا إلى بلاد الشام، وبذلك واتته الفرصة لتكوين جيش خاص به بلغ تعداده حسب رواية المقريزي اثني عشر ألف مقاتل من الفرسان[3]، ثم ذكر المقريزي مرّة أخرى نقلاً عن القاضي الفاضل أن صلاح الدين استعرض قواته في الثامن من محرم سنة ٥٦٧هـ/١١أيلول١١٧١م «وكانت العدّة الحاضرة مئة وسبعة وأربعين طلباً، والغائب منها عشرون طلباً... والطلب بلغة الغُزّ، هو الأمير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب، وعدده من مئتي فارس، إلى مئة فارس، إلى سبعين فارساً» وعلى هذا بلغ العدد الآن

---

(١) الباهر، الموسوعة الشاملة، ١٤/ ١٩٦. ترجمة زنكي من بغية الطلب في الجزء السّادس عشر من الموسوعة، ص٣٧٨-٣٩١.

(٢) الباهر، الموسوعة الشاملة، ١٤/ ١٩٦-١٩٧، ٢١٠-٢١٢.

(٣) الخطط للمقريزي ١/ ٩٤. الموسوعة الشّاميّة ١٦/ ١٢١- ١٢٣، ٣٠٩-٣١٣.

أربعة عشر ألف فارس، وفي سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١م، أعاد صلاح الدين استعراض قواته، فبلغت نحو الثمانية آلاف فارس، وسبب ذلك كان إرسال بعض القوات في مهام توسعية خارجية في اليمن، ونحو ليبيا، وأيضاً إلى بلاد الشام.

ومما لاشكّ فيه أن هذه القوات احتاجت إلى نفقات كبيرة جداً، ثم إن جيش صلاح الدين لم يتألف من الفرسان فقط، بل كان هناك الرجالة، وكان هؤلاء بالعادة أكثر بكثير عدداً من الفرسان، ثم إن الفرسان لا يكونون بالعادة لوحدهم، بل يكون لكل واحد منهم عدد من الأتباع، فقد ذكر المقريزي، أنه عند وفاة صلاح الدين «لم يبق بمصر مع ابنه الملك العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس وخمسمئة فارس، إلا أن فيهم من له عشرة أتباع، وفيهم من له عشرون، وفيهم من له أكثر من ذلك إلى مئة تبع لرجل واحد»[1]. وبعدما استولى صلاح الدين على بلاد الشام، وأخضع لإرادته منطقة الجزيرة ازدادت قواته عدداً، إنما من المؤكد أنّه لم يحضِر إلى الشام جميع قواته، بل احتفظ بمصر بعدد كبير منها، ولما خاض صلاح الدين معركة حطين لم يتجاوز تعداد قواته ما بين فرسان ورجالة ومتطوّعة الخمسة والعشرين ألفاً.

وبعد صلاح الدين تمزّقت دولته، ونشبت بينها الحروب، مما أرغم معظم الأيوبيين على شراء الغلمان، ولا سيما من أصل تركي، وفعل ذلك بشكل خاص متميز الصالح أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م)، ففي أيام الصالح تأصل نظام المماليك، وكان المماليك يخضعون لمختلف أنواع التدريبات العسكرية والثقافية، أي إن جيشهم كان جيشاً محترفاً بكل معنى الكلمة، لذلك بات جيشهم أقوى جيش في أيامهم، لأنّه كان الجيش المحترف الوحيد، كما أنّ أعداد هذا الجيش كانت كبيرة نسبيّاً، فقد كان عدد مماليك السلطان قلاوون (٦٧٨-

---

(١) الخطط للمقريزي ٢/ ٨٦-٩٥. دراسات في حضارة الإسلام لهاملتون جب- ترجمة عربيّة. ط. بيروت ١٩٦٤، ص٩٧-١٠٣.

٦٨٩هـ/١٢٨٠-١٢٩٠م) سبعة آلاف مملوك، ويُقال اثنا عشر ألفاً، وكانت عدة مماليك ولده الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ /١٢٩٠-١٢٩٤م) اثني عشر ألف مملوك»[١].

ومع أن عصر الحروب الصليبية شهد تطوراً كبيراً في التسليح والتدريب، ظلّ السلاح الرئيسي لدى الفرسان المسلمين القوس العادي حسب التقاليد التركمانية، وأحياناً القوس الزّيار أو العقار، ومعه السيف أو الدّبوس، كما كانت هناك أسلحة جماعية متنوعة، والمكتبة العربية حافلة بالمؤلفات العسكرية المهمة، التي تحتاج إلى تحقيق ودراسة[٢].

وجاء المماليك الأوائل عن طريق الشراء، فقد عني الملك الصالح أيوب «منذ تبوّئه عرش مصر بالإكثار من شراء المماليك الأتراك إلى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته»، ولم يستكثر هذا السلطان من المماليك فحسب، بل أباح لهم عمل كلّ شيء أرادوه، وهكذا اعتدوا على أموال الناس وأنفسهم، مما سبب الضيق بالقاهرة، وكاد يؤدي إلى الثورة، فاضطرّ الصالح إلى بناء قلعة خاصة في وسط جزيرة الرّوضة أسكن فيها مماليكه، واتخذها مقرّاً لملكه ومن هنا عُرف أوائل المماليك البحرية الصالحية[٣].

---

(١) الخطط للمقريزي، ١/ ٩٥.

(٢) كانت مجلة المورد العراقيّة قد أوقفت العدد الرّابع من المجلد الثاني عشر (١٩٨٣) على الفكر العسكري عند العرب، ص٧٩-٤٢٠.

(٣) مفرّج الكروب لابن واصل، ١/ ٣٣٩-٣٤٠. المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء، ١٨٨/٣. بدائع الزّهور في وقائع الدّهور لابن إياس، ٧٠/١. السّلوك للمقريزي، ٣٣٩/١-٣٤٠. النجوم الزّاهرة لابن تغري بردي، ٣١٩/٦. قيام دولة المماليك الأولى لأحمد مختار العبادي، ص٩٤.

وبديهي امتلك الزنكيون والأيوبيون والمماليك دواوين للجند أو للجيش، ذلك أن ديوان الجند هو أقدم الدّواوين العربية تأسيساً، وأطولها عمراً وتطوراً، وكان ديوان الجيش مركز توزيع الإقطاعات جميعاً، كان مسؤولاً عن الإنفاق العام على الجيش، وعن التعبئة والعتاد، والسلاح، والمؤن، والحاميات والحصون والقِلاع، وقد توجب على العاملين فيه إثبات أصحاب الإقطاعات على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم مع جميع أفراد الجيش السلطاني وجيوش الأمراء، وتواريخ إمرتهم، طبعاً حسب الشهور القمرية، واسم الذي انتقل إليه عند الإقطاع، وعدد الجنود الذين في إقطاعيته، وهنا كتبت هذه المعلومات رمزاً لا صراحة، من باب السرية والحذر، ولهذا تجنب الديوان الإفصاح عن مقدار أي إقطاع إلا بموجب مرسوم سلطاني، وتولى موظفون مختصون آخرون لإثبات الإقطاعات في كل إقليم من الأقاليم، ومقدار القرى وأحوالها، ومع هذه الجريدة، كانت هناك جريدة أخرى، ورد فيها اسم الجنود غير المقطعين الذين كانوا يتقاضون أجورهم نقداً، وكان رئيس ديوان الجيش يطلب إلى العاملين في ديوانه كل سنة نسخة عن قوانين ري البلاد وتبيان الحقول ما زاد منها زراعة وما نقص، وكان هذا الديوان يتابع الأحوال الزراعية في الإقطاعات ويراقبها، ويقوم بمراجعة أحوالها كل ثلاث سنوات، كما كان هذا الدّيوان يتولى حساب التفاوت الإقطاعي متابعة لتبدلات أحوال المقطع من انتقال في المراتب إلى غير ما ذلك، مثل الوفاة والتركة والميراث، وكان الديوان يتعامل بوحدة نقدية اعتباريّة عُرفت باسم «الدّينار الجيشي»، وتفاوتت قيمة هذا الدينار الفعلية، لكن غالباً لم تتجاوز ربع قيمة الدّينار الحقيقي.

وطبعاً منذ أيام صلاح الدين، وبشكل خاص في العصر المملوكي، صار ديوان الجيش يتألف من قسمين، قسم اختص بمصر، والثاني ببلاد الشام، وتولى ديوان الجيش الإنفاق على بناء القِلاع وترميم الأسوار، أو بناء أسوار جديدة، أو

معسكرات جديدة تحوّلت إلى مدن، مثل حالة المنصورة في مصر، والعادلية والصالحية، وقلعة الروضة.

ولما كان صلاح الدين قد ورث أسطولاً صغيراً عن الفاطميين، أنشأ ديواناً خاصاً به سماه «ديوان الأسطول»، وأفرد لهذا الديوان إقطاعات كبيرة، وكتب إلى عمال الشام ومصر بوجوب تلبية طلبات ديوان الأسطول. واستفاد صلاح الدين من أسطوله في البحر الأحمر، حين أحبط محاولة أرناط صاحب الكرك في غزو المدينة المنورة ومكة المكرمة، كما استفاد منه أثناء حصار عكا من قِبل الحملة الصليبية الثالثة، ومثلما كان هناك دينار اسمه الدينار الجيشي، كان هناك دينار باسم «دينار الأسطول»، هذا وكان للأسطول دوره في مواجهة الحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة، وعانت الصناعة البحرية دوماً مسألة نقص الأخشاب[١].

- الــوزارة :

المستعرض لتاريخ تأسيس السلطنة السلجوقية، وعهود حكم سلاطينها الثلاثة الكبار الأوائل: طغرلبك، ألب أرسلان، ملكشاه، يرى بأن حكم السلطنة ونجاحاتها ووحدتها ارتبط باسم وزيرين هما: أبو نصر الكُندري، ونظام الملك، وعلى هذا الأساس استردّت الوزارة مكانتها، وقامت بأهم أدوارها، وباغتيال نظام الملك بدأت السلطنة تواجه المشاكل، وما لبثت أن تفتت إلى دول متنازعة[٢].

وعرفت الدول التي أقامها التركمان في بلاد الشام، ومن بعدهم الدولة الأيوبية، واعتمدت نظام الوزارة، وارتبطت مكانة الوزير ودوره بشخصية رئيس

---

(١) الخطط للمقريزي، ١/ ٩١-١٠٠. النظم الماليّة في مصر لربيع، ص٦٢-٧٢. نظم دولة سلاطين المماليك، ١/ ١٣٠-١٤٤. المماليك للعريني، ص١٨٦/١٩٢.

(٢) انظر ترجمة نظام الملك من بغية الطلب لابن العديم.

الدولة أو سلطانها، وبشخصية الوزير هو نفسه، ومن الممكن التعرف إلى ذلك من خلال دراسة حياة بعض أهم الوزراء، ونبدأ أولاً مع الدولة البورية في دمشق.

في دمشق عرفت الأسرة البوريّة نظام الوزارة، وكانت مؤسسة مدنية، لكن هذه المؤسسة نافستها مؤسسة أخرى شبه مدنية، هي مؤسسة رئاسة المدينة، وجاءت هذه المؤسسة نتيجة لوجود منظمة الأحداث في دمشق واستردادها لبعض أدوارها، وأهم من تسلم هذه المؤسسة أسرة آل الصّوفي، وهي أسرة انحدرت من قبيلة كلاب، وكانت تسكن بلدة سرمين التابعة لحلب، وهاجرت إلى دمشق، إذ ارتفع شأنها كثيراً، حتى إنها نافست الأسرة البوريّة نفسها، ومن الممكن النظر إلى ما قام به آل الصوفي على أنه كان محاولة دمشقية للحفاظ على مكانتها ودروها السياسي، وعدم التخلي عنه للقلعة الناشئة حديثاً، والتي صارت مقرّاً للأسرة البوريّة التي كانت تركمانية الأصل.

ولم تتنافس مؤسسة رئاسة المدينة مع القلعة فقط، ولكنها تنافست أيضاً مع الوزارة، واشتد ذلك بعد وفاة ظهير طغتكين، ومثل الوزارة الوزير أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني، وكان رئيس المدينة أبا الذواد المفرج بن الحسن الصّوفي، ولكي يمتن المزدقاني من موقفه سمح لأتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) بقيادة بهرام الداعي بالقدوم من حلب، وسكن دمشق وسلمهم بلدة بانياس (الجولان)، وهكذا شكلت سلطة المزدقاني قوة مرعبة في دمشق، واستمر ذلك من نحو سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م حتى سنة ٥٢٣هـ/١١٢٩م، إذ قام تاج الملوك بوري بن طغتكين بالفتك بوزيره المزدقاني في قلعة دمشق، ورمى جثته خارج باب الحديد، أي الباب الرئيسي للقلعة، وجاء هذا الحادث بمثابة إشارة إلى أهل دمشق، ولا سيما الأحداث منهم، إذ ثاروا بجميع الإسماعيلية الحشيشية وأفنوهم قتلاً بمختلف الطرق، ونجا بعض الحشيشية فوصلوا مرعوبين إلى بانياس، فاجتمعوا بإخوانهم هناك، إذ قرروا الاستعانة بالمملكة اللاتينية في

القدس، وسلموا إلى الصليبيين مدينة بانياس مع قلعتها، وزحفت القوات الصليبية حتى أحواز دمشق، ثم انسحبت عائدة.

وبعد هذه الأحداث كلف تاج الملوك بوري رئيس المدينة المفرج بن الحسن الصّوفي الوزارة، فجمع بذلك بين الرئاسة والوزارة، وبقي في منصبه حتى سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م، إذ قام محمود بن بوري صاحب دمشق بقتل الوزير ابن الصّوفي، واعتقال أفراد أسرته، وبعد أيام سمح لأفراد أسرته بمغادرة دمشق إلى صلخد، وبذلك زالت رئاسة المدينة، وبعد هذا لم تعرف أوضاع الأسرة البورية الاستقرار، وحاول أفراد من أسرة الصوفي في دمشق ومن صلخد العودة إلى الرئاسة والوزارة، ونشطوا بشكل قوي قبيل سقوط دمشق لنور الدين سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م، إذ وحد الشام الشمالي مع الشام الجنوبي، وبدأ مرحلة تاريخية جديدة[(١)].

وقبل الحديث عن الوزارة في أيام نور الدين، لا بد من وقفة مع هذا الموضوع أيام حكم زنكي والد نور الدين:

في الحقيقة قام حكم زنكي بناءً على تحالف ثلاثي، بينه وبين القاضي علي ابن الشهرزوري، ونصير الدين جقر، ودعم هذا التحالف صلاح الدين الياغسياني، فالشهرزوري وجقر اتفقا مع زنكي في بغداد على تقاسم السلطة، وسعَيا لدى السلطنة والخلافة في بغداد حتى صدر أمر تعيينه والياً على الموصل، وكان جقر دوماً نائب زنكي عسكرياً، في حين انفرد الشهرزوري بالقضاء، وكان الياغسياني الأول بين القادة العسكريين لدى زنكي، ومع هذا وعلى الرغم من شخصية زنكي القوية المتحكمة في كل شيء، فإنه لم يتخلّ عن مؤسسة الوزارة، واستوزر أكثر من وزير، كان أهمهم وأوسعهم شهرة أيام زنكي ومن بعده الوزير جمال الدين محمد بن علي بن منصور، وقد ظهر دوره

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ، ص٣٤٢-٣٥١، ٣٦٠، ٤٠٤-٤٠٥، ٤٩٦، ٥٠٠-٥٠٤.

إثر اغتيال زنكي، بالمحافظة على ملك أولاده للموصل، وقامت شهرته على كرمه، وكثرة صدقاته، وأعماله في مكة والمدينة، وقد توفي سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م، وحُملت جنازته إلى بغداد ومنها إلى مكة حيث دُفن فيها(١).

أما نور الدين فكان أبرز الذين استوزرهم ابن القيسراني أبا البقاء موفق الدين خالد بن محمد بن نصر بن صغير (توفي ٥٨٨هـ/١١٩٢م)، وكان بدأ حياته في حلب ناسخاً بخط جيّد ومجلداً للكتب، تعرّف عليه نور الدين، وخدمه ورقاه «وتقدم عنده، ونفق عليه، وولي وزارته، وجمع في ولايته بين الإنشاء والاستيفاء»، وأتقن التعامل مع نور الدين، وحين فترت العلاقات ما بين نور الدين وصلاح الدين، أرسله نور الدين إلى مصر ليقوم بوضع كشف حساب، حول ما أنفقه صلاح الدين مع أوجه الإنفاق وكميّات الموارد، لكن نور الدين توفي قبل إكمال هذه المهمة(٢).

وبعد نور الدين وطوال أيام صلاح الدين، تولى تدبير دولته القاضي الفاضل، ثم صار القاضي يستنيب عنه العماد الأصفهاني الكاتب، الذي لازم صلاح الدين طوال وجوده في بلاد الشام، وحضر معه جُلّ معاركه، وتولى كتابة رسائله ومناشيره، وكان بارعاً جدّاً، لكنه أسرف كثيراً في الصناعة اللفظية، وفيما بعد انضم إلى صلاح الدين أبو المحاسن بن شدّاد يوسف بن رافع، إذ تقلد وظيفة قائد العسكر، ولازم السلطان بشكل دائم، ولذلك جاء كتابه الذي كتبه فيما بعد عن صلاح الدين «المحاسن اليوسفية» من أهم المصادر، وأكثرها مصداقية، والمهم أنه يصعب الحديث عن دور وزير لصلاح الدين، ومع أن القاضي الفاضل كان الرجل الإداري الأول لدولة صلاح الدين، لم يطلق عليه صلاح

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ١٠/ ٤٦٦-٤٦٧. الباهر في الموسوعة، ١٤ /٢١٠-٢١٢. عماد الدّين زنكي لعماد الدّين خليل. ط. بيروت ،١٩٧١، ص٢٦٤-٢٦٦.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب، ٧/ ٣٠٩٦-٣١٠١.

الدين لقب وزير، واختلفت الأوضاع بعد وفاة صلاح الدين إذ تمزّقت دولته إلى مجموعة دول، في كل واحدة منها وزير، أو ربما وزيران، أولهما مقيم في حاضرة الدولة وكان من أرباب السيوف، وثانيهما يبقى بصحبة السلطان في أسفاره، وكان من أرباب الأقلام، وكان دور بعض الوزراء سلبياً مُضراً كما حدث في دمشق مع الأفضل علي بن صلاح الدين(١)، ولعل أشهر وزراء العادل أبي بكر وابنه الكامل: محمد بن شكر- الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر – وكانت له دالة كبيرة على العادل، وقد تحكم بدولة العادل، وقد «كان ذا سطوة وجبروت كبير، وتكمن من الملك واستولى عليه وعظم قدره [أعني الصّاحب صفيّ الدين بن شكر]، وصادر أكابر الدواوين، واستصفى أموالهم» وشملت المصادرة عدداً من القضاة وصاحبي ديوان الجيش والمال، فهرب كثيرون منه إلى بلاد الشام، كما أنه صادر بعض التجار وسواهم «والملك العادل لا يعارضه في شيء، حتى قيل إن ذلك كله برضاه وإرادته، وكان صفي الدين بن شكر المشار إليه كثير التغاضب على السلطان الملك العادل، ويمت بخدم عنده.... وكان الملك العادل يحتمله ويصبر على أخلاقه، وفي آخر الأمر حلف أنه ما بقي يخدمه، فأخرجه من الديار المصرية في شهور سنة تسع وستمئة [١٢١٢م]، فخرج بجميع أمواله وحرمِه وأولاده وغلمانه، وقيل كان تحت ثقله ثمانون جملاً»(٢).

وذهب ابن شكر إلى مدينة آمد حيث بقي فيها حتى ما بعد وفاة العادل، إذ استدعاه الملك الكامل محمد بن العادل سنة ٦١٦هــ/١٢١٩م، ولما وصل إلى القاهرة استقبله، وعرض عليه مشاكله المالية والسياسية والعسكرية، فتعهد له بحلها جميعاً، فاستوزره «وشرع في مصادرة أرباب الأموال من التجار والكتاب،

---

(١) مفرّج الكروب لابن واصل، ٣/١٠-١٤. صبح الأعشى، ١٩٥٨، ص٧-١٠.

(٢) أخبار الأيّوبيين للمكين جرجس بن العميد ط. دمشق ١٩٥٨، ص٧-١٠.

وقرّر التبرّع على الأملاك، وأحدث حوادث كثيرة، وحصل أموالاً عظيمة»، ومكث ابن شكر في الوزارة حتى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، إذ توفي في هذه السنة، وإثر وفاته اعتقل الكامل، أولاده وصادر جميع أمواله وأملاكه[١].

واحتفظ المماليك بنظام الوزارة، وصار الوزير يشغل رسمياً المرتبة الثانية بعد السلطان، إلا إذا كان للسلطان نائب، وبقيت الوزارة فردية، وكان يُخلع على الوزير عند توليته خلعة خاصة، وكانت رواتبه عالية، وكان يجلس في قاعة خاصة في القلعة قريباً من السلطان، إذ يستشيره في تصريف الأمور، ومن ثم يتولى تنفيذ أوامره بوساطة الدواوين التي كانت على مقربة من قاعته، ولما كانت السلطنة المملوكية لم تعرف الاستقرار، تبدّل الوزراء بسرعة وتغيروا، وانحدرت مكانة الوزير والوزارة حتى صارت مجرد وظيفة.

- القضـــاء :

للقضاء تاريخ طويل وعريق في تاريخ العرب والإسلام، وتحدثت المصادر أن وفداً كان فيه القاضي كمال الدين الشهرزوري والقائد العسكري جقر ذهب من الموصل إلى بغداد لجلب من يلي حكم المدينة، فعقد اتفاقاً مع عماد الدين زنكي على أن يلي هو حكم المدينة ويلي جقر نيابته العسكرية ويلي الشهرزوري القضاء، وبموجب الاتفاق ولي الشهرزوري القضاء، وأسهم في كثير من نشاطات الدولة الزنكية، وكان من أتباع المذهب الحنفي، لأن التركمان آثروا هذا المذهب دون غيره من مذاهب أهل السنة، وبقي ابن الشهرزوري مع عماد الدين زنكي حتى وفاته، وبعد ذلك مكث في الموصل، لكن ما لبث أن عُزل من منصبه، ولما علم نور الدين بذلك استدعاه وكلفه القضاء، وبقي مع نور الدين حتى وفاته في دمشق، وبعد وفاة نور الدين حين اختلف أمراء جيشه حول

---

(١) أخبار الأيّوبيين ، ص١١-١٣.

السلطة والوصاية على الصالح إسماعيل بن نور الدين، نصحهم بعدم تجاهل صلاح الدين، لكن لم يأخذوا برأيه، وانتقلوا بالصالح إسماعيل إلى حلب، فقدِم صلاح الدين إلى دمشق واستولى عليها، وهنا كلف ابن الشهرزوري القضاء، فبقي يشغل وظيفته هذه حتى عام وفاته في ٥٧٢هـ/١١٧٦م[١].

وكان الأيوبيون من أتباع المذهب الشافعي، ولذلك عهد صلاح الدين بالقضاء إلى أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون [٤٩٢-٥٧٧هـ/ ١٠٩٩-١١٨١م] وكان قد تعاون من قبل مع صلاح الدين في مصر إثر إسقاط الخلافة الفاطمية، وقد تخلى عن القضاء بعد تقدمه بالسّنّ وبعدما فقد بصره، فأسند صلاح الدين القضاء إلى ابنه محيي الدين محمد بن عبد الله، غير أن هذا القاضي لم يمكث في منصبه سوى عقد من الزمن، فقد عزله السلطان لأنه كان شبه عسكري، له مداخلات مع الجنود، واتخذ لنفسه الخيول والغلمان. ويفيد هذا أن القضاء صار وراثياً، وصار يدر على متسلمه الكثير من المال، ولعل ذلك جاء عن طريق الرشوة، أو استغلال الأوقاف لأنها كانت تسند في كثير من الأحيان إلى قاضي القضاة، وحين عزل السلطان ابن أبي عصرون كلف القضاء محي الدين بن الزكي، وكان صاحب مكانة علمية رفيعة، وهو الذي حضر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فتحَ القدس مع صلاح الدين، وألقى خطبة الفتح وهي مشهورة.

وفي مصر ولي قضاء القضاة فقيه شافعي، كان يعاونه نائب قاضي قضاة حنبلي، وجاء هذا مقدمة لاتخاذ قضاة أربعة يمثلون مذاهب أهل السنة والجماعة، وقد عمد إلى هذا الإجراء السلطان بيبرس، الذي هو المؤسس الفعلي لأركان السلطنة المملوكية، ذلك أنه أسند منصب قاضي القضاة في مصر إلى تاج الدين

---

(١) الثغر البسّام في ذكر من ولي قضاء الشّام لابن طولون ط. دمشق ١٩٥٦، ص٤٧-٤٨. القاضي كمال الدين بن الشهرزوري للغامدي، ص٢٦-٤٦. قاضي القضاة في الإسلام لعصام محمّد شبارو، ط. بيروت ١٩٨٨، ص٤٠.

عبد الوهاب ابن بنت الأعز، سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، وكان شافعي المذهب، فواجه هذا القاضي كثيراً من المتاعب والمشاكل الناجمة عن اختلاف الآراء الفقهية، فأشير وقتها على السلطان بيبرس بتولية أربعة قضاة، يمثل كلّ واحد منهم مذهباً من المذاهب: الشافعية، والمالكية، والحنفية، والحنبلية، ومع ذلك ظل قاضي قضاة الشافعية يتمتع بالمكانة الأسمى في كل من مصر وبلاد الشام، ولقد تولى قضاة الشافعية في مصر والشام عدد كبير من مشاهير العلماء، مثل ابن دقيق العيد –تقي الدين محمد بن علي [ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م] في القاهرة، وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان في دمشق [ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م] ومحيي الدين محمد بن محمد الأسدي [ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م] في حلب، ومع الأيام صار القضاء اختصاصاً متوارثاً داخل بعض الأسَر، التي باتت تعرف بالعلم والفقه والتدريس، وفي كثير من الأحيان كان بعض القضاة يعمدون إلى الانتقال من مذهب إلى مذهب[١].

واشترط فيمن يُرشَح لمنصب قاضي القضاة أن يكون عالماً فقيهاً، له فطرة سليمة، ونباهة وقدرة على المحاكمة والاستنباط، والخبرة والسّن، وحسن السّمعة والاستقامة، مع الذكورة والحرية والإسلام والعدالة، وسلامة السمع والبصر، وكان يصدر عن الخليفة مرسوم تقليد قاضي القضاة أو عن السلطان، وإثر ذلك كان يتلقى خلعة وبغلة، وفي دمشق كان المعيّن قاضياً للقضاة يلبس الخلعة في الجامع الأموي، ثم يسير في موكب حافل للتسليم على نائب السلطنة، ومن ثم كان يباشر أعماله في دار العدل النوريّة التي أنشأها نور الدين محمود[٢].

---

(١) ابن طولون: الثغر البسّام في ذكر من ولي قضاء الشّام، ص٥٥-٨٢. شبارو: قاضي القضاة في الإسلام، ص٤٢-٥٤.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ٢١/١٤-٢٩٨. شبارو: قاضي القضاة في الإسلام، ص٥٤-٦٠.

وكان القاضي يتولى البتّ بجميع المسائل والخلافات، ويترافع أمامه جميع المسلمين من أعلاهم إلى أدناهم، كما كان يتولى أحياناً الفصل ببعض قضايا أهل الذمة، وكان يوكَل إليه أحياناً النظر في المظالم، وبحكم منصبه كان جسراً من الجسور بين الرعية والسلطان، وكان أحياناً يتوسط عند السلطان، أو يفتي له ويكون أداة ضغط على الرعية، وقد يجمع التدريس والخطابة والنظر في بعض الأوقاف إلى جانب القضاء، وكان يدعو إلى الجهاد، وقد يرافق في بعض حملات الجهاد، فعندما حاصر صلاح الدين القدس لتحريرها كان بصحبته عدد كبير من القضاة والفقهاء.

وتميّز القضاة بألبسة خاصّة، وكانوا يركبون البغال النفيسة، ويتقاضون رواتب عالية، وكان لقاضي القضاة نوابه وأعوانه، وأهمهم كاتب القضاة، وكان «من حقه أن يعرف مدلولات الألفاظ العربية واللغوية، وأن يكون حسن الفهم عن اللافظين من عوام الواقفين والمقرين وغيرهم»، وتلاه حاجب القاضي، الذي كان من حقه الاستئذان على ذوي الحاجات، ورفع الأمور إلى القاضي حسبما ذكر الفقهاء». وكان هناك نقيب القاضي، وكان «من حقه تنبيه القاضي على الشهود وتنبيه الشهود على القاضي»، ومع هؤلاء كان يوجد أمناء القاضي، وكان عليهم الحفاظ على أموال الأيتام والغائبين، وكان في كل محكمة جماعة من الرجال عُرفوا باسم وكلاء دار القاضي، وشابه هؤلاء رجال المحاماة في أيامنا، ولذلك مدحهم قوم فقالوا: «هم أناس نصبوا أنفسهم لخلاص حقوق الخلق، وذمهم آخرون فقالوا: هم أناس فضل عليهم الفضول فباعوه لغيرهم»، ووجد مع كل مجلس قضاء مجموعة من الشهود الذين نسميهم في أيامنا بشهود أو كتاب العدل، وكانوا يعرفون في الغرب الإسلامي باسم الموثقين. وكانت إجراءات المحاكمة

تتم حسب الشريعة بالمساواة بين الخصوم، وتصدر الأحكام وجاهياً، ويجري تسجيلها في سجلات خاصة، وكانت الدولة تتكفل تنفيذ الأحكام القضائية[١].

- الحســبة :

وارتبط بالقضاء مؤسسة الحسبة، وهي مرتبة قديمة وأصيلة في تاريخ الإسلام، كانت مهامها مراقبة الأسواق ومختلف أوجه النشاط العامة في كل مدينة، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنذ العصر الزنكي ازداد الاهتمام بالحسبة، وفي العصر الأيوبي منذ أيام صلاح الدين، كثرت المؤلفات بالحسبة، ومن أهم المؤلفات كتاب «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» لعبد الرحمن بن نصر الشيزري [ت ٥٨٩ هـ/١١٩٣م]، والنظر في هذا الكتاب يمكن الناظر من التعرف إلى أهمية مؤسسة الحسبة التي تولت الإشراف على الحياة الاجتماعية، فقد كان المحتسِب مع أعوانه يشرف على مراقبة الخبازين والأساكفة والأطباء والبياطرة والمؤدبين والسّقائين والغسّالين، وعلى الحمامات، بل بل كان يتردد على مجالس القضاة للمراقبة ولمنع القضاة من الجلوس في المساجد، واحتفظت الحسبة بمركزها خلال العصر المملوكي، وقد وصلنا من هذا العصر عدة كتب أهمها «نهاية الرّتبة في طلب الحسبة» لابن بسّام المحتسب، وهو مشابه ليس بالعنوان فحسب، بل حتى بالنص لكتاب الشيرزي، وكتاب «الحسبة» لابن تيمية الحراني، وكتاب «معالم القربة في أحكام الحسبة» لابن الأخوة القرشي محمد بن محمد[٢].

---

(١) مفيد النعم ومبيد النقم للتاج عبد الوهاب السّبكي- ط. بيروت ١٩٨٣، ص٦٠-٦٤. شبارو: قاضي القضاة في الإسلام، ص١١٧-١٤٦.

(٢) طبع كتاب الشّيرزي في بيروت ١٩٦٩، وطبع كتاب ابن بسّام في بغداد عام ١٩٦٨، وطبع كتاب ابن الأخوة في القاهرة ١٩٧٦، أمّا كتاب ابن تيميّة فطبع أكثر من مرّة، منها=

- **أهم المناصب والوظائف:**

ومنذ العصر الأيوبي تطورت الإدارة من جميع الجوانب، مستفيدة من الميراث العباسي، والتجربة الفارسية الجديدة، والميراث الفاطمي، واتسمت الإدارة في عصر المواجهة مع الصليبيين بالكفاءة إلى حد ما، وطبعاً كانت هناك تجاوزات مع بعض الخلل، وكان هناك دوماً سعي وراء المال لسداد نفقات الجيوش وأعمال الجهاد، واختلفت الأحوال من سلطان إلى آخر، ومن أمير إلى آخر بالنسبة للاستقامة والجباية والإنفاق، فقد ضرب نور الدين مثلاً أعلى في العفاف والزّهد والاستقامة والعدل، ومثله كان صلاح الدين إلى أبعد الحدود، ولا سيما في العقد الأخير من حياته، لكن هذا تبدل فيما بعد، وكانت هناك دوماً أزمات مالية، وزيادات في الضرائب والمكوس، مع أعمال مصادرة، وعاش السلاطين وسواهم من أهل السلطة حياة ترف، واهتموا بأعمال بناء المدارس والزّوايا والمساجد والمنشآت الحربية والترب.

وفي عرض موجز وسريع لأهم المناصب والوظائف والدّواوين، نجد أولاً: **السلطان**، وكان يفترض أن يكون هو الخليفة، ولكن منذ قيام سلطنة السلاجقة جرى انتزاع هذا اللقب مع صلاحياته من الخليفة، وظلّ الخلفاء مجرد أسماء يمنحون الشرعية بلا سلطات، وكانت الخلافة العباسية قد سقطت في بغداد على أيدي المغول، فأعاد بعثها في مصر الظاهر بيبرس، ولربما حين فعل ذلك لم يكن يبحث عن الشرعية فقط، وإنما - وهو التركي الأصل - استلهم القاعدة التركية في السلطة، في أن يكون هناك خاقان يملك ولا يحكم، وبيك يقود

=في كتاب الجمهوريّة الدّيني في القاهرة. انظر أيضاً الحسبة في مصر الإسلاميّة لسهام مصطفى أبو زيد. ط. القاهرة ١٩٦٨ ص٧٩-١٠٢.

الجيوش ويحكم، وأشرنا من قبل إلى أن السلطان كان يقود الجيوش، وينظر في الإقطاعات ويقوم بأعباء السلطة كلها وحده.

وكان لكل سلطان نائب أو أتابك، أو أكثر من نائب وأتابك، فطغتكين صاحب دمشق كانت مرتبته هي الأتابكيّة، كما أن زنكي كان أيضاً يحمل مرتبة أتابك، وكان جقر يمثل النائب الأول لزنكي، ومن بعده كان صلاح الدين الياغسياني.

وفي أيام نور الدين شغل شيركوه بشكل فعلي منصب النائب له، وكان صلاح الدين نائب عمه في مصر، وفي أيام صلاح الدين كان أخوه العادل الشخصية الأولى بعده، وقد جمع ثروات هائلة، ولذلك تمكن من انتزاع الملك من أولاد صلاح الدين، وتطور منصب الأتابكية في العصر المملوكي كثيراً، وغالباً ما كان الأتابك يعزل السلطان أو يغتاله ويلي مكانه، مثلما فعل الظاهر بيبرس مع قطز، ومثل ذلك فعل كثير من رجالات المماليك.

وسلف الحديث عن الوزارة ومكانتها، وكان بعد الوزارة من بين أعلى الوظائف وظيفة الدّوادار (أي حافظ الدّواه)، وهو كان أشبه الناس بالحاجب أيام الأمويين والعباسيين الأوائل، يأذن للناس بالدخول على السلطان، وإليه يرفع شكاويهم ومطالبهم ومظالمهم، ويذكره بما نسيه وانشغل عنه، وجاء بعد الدوادار الخازندار، وكان المسؤول المالي للسلطان، ولا سيما في شؤون الدفع والصرف، ومن بعده جاء الأستاذدار، فقد كان المسؤول عن القصر السلطاني، كما كان المتحدث في إقطاعات الأمراء مع الدواوين، وقد توجب عليه «أن يرفق بأهل القرى، ويؤدّي بأمانة الله تعالى التي علقها في رقبته، حيث دخل في هذه الوظيفة للفلاحين وغيرهم من رعية الأمير، كما عليه أن يؤدي حق الأمير، بل هؤلاء أحوج من الأمير إلى الرفق بهم، واعتماد الحق معهم»، وكان لدواوين الدولة شاد يشرف عليها جميعاً، ويقرر العقوبات على المقصرين والمخالفين.

وكان للسلطان كاتب لأسراره، «وهو الذي أيضاً يتولى شرح جميع القضايا للسلطان ويفهمه إياها، وأوصى الفقهاء كاتب السر على عدم المساعدة على الظلم وقطع الأرزاق».

وورث الأيوبيون والمماليك عن الفاطميين وظيفة **المهمندار**، الذي كان يستقبل الرسل والقاصدين وشيوخ القبائل وسواهم.

واهتم المسلمون في تاريخهم بالبريد كثيراً، وتطور البريد أيام نور الدين إذ أكثر من استخدام الحمام الهوادي، وأوصى رجل البريد دوماً بالرفق بدواب البريد، وأن لا يدل على عورات المسلمين، فقد كان أشبه بمسؤول أمني للسلطان.

وكان للجيش ناظره وعارضه وسلاحداره، وكان للسلطان جمقدار يحمل دبوسه، وطبردار يحمل سلاح السلطان بين يديه، وجوكاندار، فقد كان نور الدين مغرماً بلعب الكرة «البولو» وكذلك صلاح الدين، وكانت هذه الرياضة المفضلة لدى السلاطين.

وصار للسلطان حامل لنعله لقبه «البشمقدار»، وحامل علم، و"أمير شكار» مسؤول عن طيور السلطان والكلاب المُعدة للصيد، كما صار للسلطان سقاة يقدمون إليه الماء والأشربة الأخرى، وعاش في قصور السلاطين مجموعة من العبيد الخصيان، الذين عُرفوا بلقب «الطواشي» وقد واتى الحظ بعض هؤلاء فتسلموا بعض المسؤوليات الجسام، فكافور الأخشيدي كان من هؤلاء، وقراقوش كان من أبرز الشخصيات أيام صلاح، كما أن لويس التاسع أوكلت حراسته إلى الطواشي صبيح بعد وقوعه في الأسر في معركة المنصورة.

ولاتساع أرجاء دولة زنكي ثم نور الدين من بعده والأيوبيين والمماليك، استخدموا الولاة وأسنِدت مهام الدولة إلى عدد من الأمراء تفاوتت وظائفهم

ومراكزهم، ومع الجيش كانت هناك قوات تولت مهام الشرطة، ولمكانة الأوقاف، فقد صار في كل نيابة ومدينة ناظرٌ للأوقاف كلها أو بعضها.

ومنذ أيام نور الدين تعاظم الاهتمام بالتعليم وبإنشاء المدارس، وبالعلماء والمتصوفة، كما اهتم صلاح الدين ومن بعده المماليك بمشايخ القبائل العربية، وفي الحقيقة كانت شعب الإدارات كبيرة وكثيرة ومعقدة، كما كان للزنكيين والأيوبيين والمماليك والناس أعيادهم ومواسم احتفالات كبيرة كلها جديرة بالدراسة(١).

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم، ص١٦-١٤٥. ومفيد العودة إلى ما كتبه حسنين محمّد ربيع عن النظم الماليّة في مصر زمن الأيّوبيين. ط. القاهرة١٩٦٤، وكتاب:

The Financial System of Egypt, Oxford 1972.

وكتاب عبد المنعم ماجد «نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر» ط. القاهرة ١٩٨٢.

جريدة بأهم المصادر والمراجع

المصـادر :

١- ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي):

- الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٤٨ه.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، القاهرة، ١٩٧٣م.

٢- ابن الجوزي (عبد الرحمن): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر أباد، ١٣٥٩هـ.

٣- ابن العبري (غريغوريوس): تاريخ مختصر الدول، بيروت، المطبعة الكاثوليكية.

٤- ابن العديم (كمال الدين عمر):

- بغية الطلب، دار الفكر، دمشق.
- زبدة الحلب، دمشق، ١٩٥٨-١٩٦٨.

٥- ابن القلانسي (حمزة): ذيل تاريخ دمشق، دمشق، ١٩٨٣م.

٦- ابن أيبك الدواداري (عبد الله):

- الدرة المعنية في أخبار الدولة الفاطمية، القاهرة، ١٩٦١م.
- الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، القاهرة، ١٨٧١م.

٧- ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٢٩م.

٨- ابن حوقل (أبو القاسم): كتاب صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة.

٩- ابن خليكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان، القاهرة، ١٣١٠م.

١٠- ابن خياط (خليفة): تاريخ خليفة بن خياط، دمشق، ١٩٦٧-١٩٦٨م.

١١- ابن سعد (محمد بن منيع): كتاب الطبقات، بيروت، ١٩٥٨م.

١٢- ابن شداد (بهاء الدين): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٣- ابن طباطبا (ابن الطقطقي): الفخري في الآداب السلطانية، بيروت، ١٩٦٦م.

١٤- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم):

- عيون الأخبار، القاهرة، ١٩٦٣م.
- الإمامة والسياسة، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٥- ابن كثير (اسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، دار الفكر.

١٦- ابن واصل الحموي (محمد بن سالم): مفرج الكروب، القاهرة.

١٧- أبو الفداء (اسماعيل بن محمد): المختصر في أخبار البشر، بيروت.

١٨- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل): عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، بيروت، ١٩٩٧م.

١٩- الأزدي (أبو زكريا): تاريخ الموصل، القاهرة، ١٩٦٧.

٢٠- الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله): كتاب أخبار مكة، مكتبة خياط، بيروت.

٢١- الإصطخري: المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٩٢٧م.

٢٢- الأصفهاني (أبو الفرج): مقاتل الطالبيين، القاهرة، ١٩٤٩م.

٢٣- الأصفهاني (أحمد بن عبد الله): دلائل النبوة، حيدر أباد، ١٩٥٠م.

٢٤- الأصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب): تاريخ دولة آل سلجوق، هذبه الفتح البنداري، القاهرة ١٩٠٠م.

٢٥- الأنطاكي (يحيى بن سعيد): تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، بيروت، ١٩٠٩م.

٢٦- بادربورن: الاستيلاء على دمياط، جزء ٣٣ من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق.

٢٧- البنداري (الفتح بن علي): سنا البرق الشامي، بيروت، ١٩٧١م.

٢٨- البيهقي (أبو الفضل): تاريخ البيهقي، القاهرة.

٢٩- تواريخ أسرة بلانتغت، جزء ٣٠ من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق.

٣٠- جوانفيل: القديس لويس، جزء ٤٧ من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق.

٣١- الحسيني (علي بن أبي الفوارس): أخبار الدولة السلجوقية، لاهور، ١٩٣٣.

٣٢- الحمادي (محمد بن مالك): كشف الأسرار الباطنية وأخبار القرامطة، القاهرة، ١٩٣٩م.

٣٣- الحموي (ياقوت الحموي): معجم البلدان، دار صادر.

٣٤- الحنبلي (أحمد بن إبراهيم): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، بغداد، ١٩٨٧م.

٣٥- دي نوفار: حروب فردريك، جزء ٣٤ من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق.

٣٦- الدينوري (أبو حنيفة أحمد): الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦٠م.

٣٧- الذهبي (محمد بن أحمد): دول الإسلام، حيدر أباد، ١٩١٩م.

٣٨- الراوندي (محمد بن علي): راحة الصدور وآية السرور، القاهرة، ١٩٦٠م.

٣٩- الرقيق القيرواني (ابراهيم بن القاسم): تاريخ أفريقية المغرب، تونس ١٩٦٨.

٤٠- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): تاريخ الخلفاء، القاهرة، ١٩٦٤م.

٤١- الصيرفي (علي بن منجب): الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة، ١٩٢٣.

٤٢- الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، القاهرة، دار المعارف.

٤٣- العباسي العلوي (علي بن محمد): سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، بيروت، ١٩٧٢م.

٤٤- الفارقي (ابن الأزرق): تاريخ الفارقي، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤٥- النرشخي (محمد بن جعفر): تاريخ بخارى، القاهرة، ١٩٦٥م.

٤٦- القاضي النعمان (ابن محمد): رسالة افتتاح الدعوة، بيروت، ١٩٧٠م.

٤٧- القرشي (الداعي ادريس): عيون الأخبار وفنون الآثار، بيروت، ١٩٧٣.

٤٨- القلقشندي (أحمد بن عبد الله): صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٩- الكاشغري (محمود بن الحسين): ديوان لغات الترك، استانبول، ١٣٣٣هـ.

٥٠- المسعودي (علي بن الحسين): مروج الذهب، القاهرة، ١٩٥٨م.

٥١- مسكويه (أحمد بن محمد): تجارب الأمم، القاهرة، ١٩١٤م.

٥٢- المقريزي (أحمد بن علي):
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة.
٥٣- المؤيد في الدين (هبة الله موسى): سيرة المؤيد في الدين، القاهرة، ١٩٤٩م.
٥٤- النويري (أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، ١٤٢٣م.
٥٥- الواقدي (محمد بن عمر): كتاب المغازي، عالم الكتب، بيروت.
٥٦- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب): تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٦٠م.

المراجع :

١- بارتولد: تركستان، الكويت، ١٩٨١م.
٢- جوزيف نسيم يوسف، لويس التاسع في الشرق الأوسط، الإسكندرية.
٣- حسن إبراهيم حسن: المعز لدين الله، القاهرة، ١٩٦٤م.
٤- حسن محمود: الإسلام في آسيا الوسطى، القاهرة.
٥- حسنين محمّد ربيع: النظم الماليّة في مصر زمن الأيّوبيين، القاهرة، ١٩٦٤.
٦- خاشع المعاضيدي: دولة بني عقيل في الموصل، بغداد، ١٩٦٨م.
٧- روبرت مارشال: عاصفة من الشرق، ترجمة سهيل زكار.
٨- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة، ٢٠١٠م.

٩- سهام مصطفى أبو زيد: الحسبة في مصر الإسلاميّة، القاهرة، ١٩٦٨.

١٠- سهيل زكار:

- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دمشق، ١٩٧٣.

- القرامطة، دمشق، دار التكوين.

١١- صبحي الصالح: النظم الإسلامية، بيروت.

١٢- عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٠.

١٣- عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٤- عماد الدين خليل: نور الدين محمود، بيروت.

١٥- فيصل السامر: الدولة الحمدانية في الموصل، بغداد، ١٩٧٠م.

١٦- فيليب حتي: تاريخ العرب، بيروت.

١٧- محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، القاهرة، ١٩٦٤.

١٨- محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٩- محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر، القاهرة.

٢٠- مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، دار اليقظة، دمشق.

٢١- هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، بيروت، ١٩٦٤م.

المراجع الأجنبية:

1- Shamanism Archaic Techniques of Ecstasy، London1964

2- The Cambridge History of Iran, Vol-V- 1968.

3- Stevenson Runciman: The crusaders in the East.

4- The Druze Faith by Sami Nasib Makarim.

5- M. Baldwin: Raymond 111 of tripolis.

6- Pearson (J.D) Index Islam,cus Csmbridge. 1961-1962, 1967.

7- Grousset: Hist des Groisades, paris, 1943- 1946.

8- The Financial System of Egypt، Oxford 1972.

9- Atiya (Aziz) The Crusade historiography and biblio Graphapliy. Oxford. 1962.

10- Cambridge Medieval History, Vol-IV. 1966.

11- Cambridge History of Islam.1970.

12- Barhold (W). A-four Studies on the History of Central Asia. English Translation. London. 1962.

اللّجنة العِلْميّة:

- د. مروان دخان

- د. عمار النهار

- د. حسام النايف

المدقّق اللُّغويّ:

- د. محمَّد قاسم